

تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء الثاني

طبع على نفقة

معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش


بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ القويم

لمكة وبيت الله الكريم



مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام

إذا نظرنا إلى الوراء إلى أربعة آلاف سنة بل أكثر من ذلك، وجدنا أن مكة، شرفها الله تعالى وأدام خيرها ورخاءها، كانت في عهد خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم بل وقبل عهده في شكل غير هذا الشكل اليوم، وفي صورة غير هذه الصورة التي نراها في عهدنا، بل كانت غيرها أيضاً في صدر الإسلام في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

إذا سبحنا في عالم الأفكار، وتخلينا الدهور الماضية، وتأملنا في غابر الأزمان السحيقة، وجدنا أن مكة المكرمة كانت مليئة بأشجار الشوك والسلم، ليس فيها خضرة ولا ماء، ولا حيوان ولا نبات، ولا إنس ولا جن، وأنها كانت الجبال فيها عالية شامخة، فلقد كانت الجبال في ذلك العهد السحيق عالية مرتفعة ضعف ما عليها اليوم، فلقد ارتفعت الأرض بجميع جهات مكة عما كانت عليه في ذلك العهد البعيد، وذلك بسبب طمر الأرض وسفوح الجبال بما تأتي به السيول من الأحجار والتراب وما تنزلها الأمطار من الأحجار والصخور والأتربة من فوق الجبال فتتدحرج كلها على وجه الأرض وسفوح الجبال، وبما يردمه الناس من الحفر والدمار والحجارات فيضعون كل ذلك على الأرض وسفوح الجبال، ومن هنا ظهرت جبال مكة قصيرة عما كانت عليه في زمن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم، ولقد وقفنا في عصرنا الحاضر على هدميات المسجد الحرام من جهة جبل قعيقعان أي من جهة الشامية فوجدنا أن الأرض في هذه الجهة قد ارتفعت عن أرض المسجد الحرام بأكثر من عشرين متراً - هذا وأن طرقات مكة في ذلك العهد البعيد كانت مليئة بالصخور والأحجار والرمال والحصى تتخللها أشجار الشوك والعضاة، أرض قفرة فقرة، نظيفة طاهرة، ليس فيها شيء من القاذورات والنجاسات أبداً، لأنها لم تكن مسكونة بالإنسان والحيوان - ولم تكن أرض مكة سهلة مستوية بل كانت منخفضة منعرجة لو مشى إنسان عليها لتعب من كثرة المرتفعات والمنخفضات وما يعترضه من الصخور والأحجار.

فأول بدء الإصلاح فيها كان في عهد خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، منذ أن أسكن بمكة ابنه إسماعيل وأمه هاجر عليهم الصلاة والسلام، ومنذ أن قدم عليهما نفر من قبيلة جرهم.

ثم زاد الإصلاح فيها نوعاً ما منذ أن بنى خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بيت الله الحرام ، فلقد استوطن مكة قبيلة جرهم ، وانتشر الإسلام وتناسلوا فتكاثروا ، وعرف الناس طريق مكة من الشام واليمن ، وصار سكانها أكثر من قبل ، وكلما كثر السكان والمقيمون بها كثرت بيوتهم ومنازلهم ، وصاروا يمهدون الطرقات ويصلحونها ، ويرفعون ما فيها من الأذى من الشوك والأحجار . ثم ما زال الناس يتكاثرون بمكة من ذلك العهد إلى أول ظهور الإسلام ، وبالضرورة كلما تكاثروا فيها كلما ازدادت أيدي العمران والإصلاح.

فلما ظهر الإسلام كانت مكة المشرفة أحسن من العصور السابقة بكثير ، لكن ما زالت أرضها فيها المرتفعات والمنخفضات ، وفيها أشجار الشوك والسلم والعضاة مما لا يؤكل منها شيء ، إذ ليست من ذوات الفواكه والخضار ، ثم ازداد سكان مكة بانتشار الإسلام في جميع البلدان والأقطار منذ صدر الإسلام إلى نحو ألف سنة ، فازدهرت مكة بمختلف السكان من المسلمين ، ازدهرت وأينعت بإقامة المسلمين فيها من جميع الأقطار ، وحضورهم فيها في مواسم الحج في كل عام من كل فج عميق ، لكنها بقيت فيها بعض الآثار القديمة من المنعرجات والمنخفضات ، وأشجار الشوك والسلم التي كانت تعترض الحجاج في طريق الحج من مكة إلى عرفات .

ثم من بعد سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية كثر الإصلاح والتعمير فيها باستمرار ، خصوصاً في زماننا هذا ، ونحن في سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية ، فلقد باشروا في الإصلاح والتعمير وردم المنخفضات وتكسير الصخور ورفع الأحجار ، وسفلتة الشوارع والطرقات ، وقطع ما بقي من أشجار الشوك والسلم ، حتى صارت مكة شرفها الله تعالى كأنها عروس البلدان كما هو مشاهد في زماننا هذا بدون مبالغة في القول فسبحان مغير الأحوال ومدبر الكائنات ، لا إله إلا هو العزيز الغفار .

مكة في الجاهلية والإسلام

يقول صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي مؤرخ مكة وأديبها أمد الله في حياته ، عن نشأة مكة في أول كتابه المطبوع "تاريخ مكة" ما يأتي :

تقع مكة على ٢١ درجة ونصف درجة تقريباً عرضاً شمالياً ، وعلى نحو ٤٠ درجة طولاً ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ متراً .

وتقع في واد تحيط به الجبال وتنحدر سيولها فيه ، واذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوامات ، وتعذر تعيين ملتقى الرياح إلا في بعض الحالات .

وجوها حار جاف ، تختلف حرارته بين ١٨ درجة في شهور الشتاء و٣٠ درجة في شهور الصيف وقد ترتفع الحرارة في بعض السنوات إلى ٣٩ درجة .

وقد سماها القرآن مكة كما سماها بكة وأم القرى والبلد الأمين .

ويذكر بعض علماء الإسلام أنها سميت مكة لقلة مائها . وهم يقولون : متك الفصيل ضرع أمه إذا امتصه ، ويقول بعضهم سميت مكة لأنها تمك الذنوب أي تذهب بها ، أو لأنها تمك الفاجر أي تخرجه منها ، كما قيل أنها سميت بكة لأن الناس فيها يبك بعضهم بعضاً أي يدفع .

وينقل مؤرخو الفرنجة أن بطليموس ذكر اسمها (مكوربا) وهو مشتق من الاسم السبئي مكورابا ومعناه مقدس أو حرم . وقد عرفت مكة من أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم ، فقد كانت الكعبة مثابة للناس قبل بناء إبراهيم ، كما تروي مصادر إسلامية كثيرة .

ولا نشك أنها كجزء من بلاد العرب استقبلت هجرات سابقة ، تعدد فيها أنواع المهاجرين من أجناس البشر تعداداً لا نستطيع تعيينه ، لأن المصادر التي توسعت في ذلك لا يمكن التسليم بما كتبت تسليماً قاطعاً ، لأن أكثر كتابها عاشوا في العصر الإسلامي الأول ، متأخرين عن ذلك العهد بأحقاب طويلة المدى ، ولم يكن لديهم من المصادر إلا المنقول عن تشويش واضطراب .

أما التاريخ الذي أنتجته دراسة الآثار وأسفرت عنه كتابات الجيولجيين فقد أطال في بحوثه لا عن مكة وحدها بل عن جزيرة العرب قاطبة ، وكان مما ذكره أن صحاريها القفراء كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء آهلة بالسكان ، لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى الجزيرة قبل أن تفقد رطوبتها ، فتنهال الأمطار على قممها العالية وتجري في وديانها أنهاراً ، وتروي

أراضيها وتسقي مروجها - ولعل في عمق الوديان التي نشاهدها اليوم ما يشير إلى شيء من حقيقة هذا الرأي .

وهم يذكرون أن عوامل الجفاف الطبيعي ما لبثت أن حالت بالتدريج على مر الأحقاب ، دون وصول هذه الغيوم رطبة فحرمت الجزيرة من أنهار جارية .

ولا أستبعد هذا لأن المشاهد أن سورة الجفاف في عهودنا الحاضرة اشتدت وطأتها عن عهود سلفت ، فاختفت واحات كثيرة كانت معروفة في عهد الجاهلي وصدر الإسلام ، منها واحة (فدك) المشهورة في عهد النبي ﷺ ، كما اختفى كثير من المناطق الخصبة التي كان يزرعها اليهود في المدينة ، وثقيف في الطائف ، وقريش حول مكة ، ونضب كثير من العيون والآبار ، وقلّ شأن السيول التي كان يفيض بها عقيق المدينة والطائف ووادي إبراهيم في مكة .

والمعمرون في مكة وكثير من مدن الجزيرة يعلمون أن منسوب المياه ومساحة المناطق الخصبة كانت إلى قرن سابق أحسن منها اليوم ، وأن بساتين مكة في أطرافها وضواحيها كانت منتشرة إلى مسافات بعيدة مما لم يبق له أثر نتيجة اطراد الجفاف ، ويرى بعض الجيولجيين أن الجفاف سيضطرد أمره في الجزيرة على مر العصور ، وأن نسلنا سيعاني منه أكثر مما نعاني إلا في المناطق الجنوبية القريبة من المحيط الهندي .

وسواء صح نقل المؤرخين الإسلاميين في شأن من هبط مكة قبل عهد إبراهيم أو لم يصح ، وسواء ثبت استنتاج الجيولجيون عن خصوبة هذه الأرض في عهود مجهولة من التاريخ أو لم يثبت ، فإن مما لا مجال للشك فيه أنه يصح اعتماد هجرة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى مكة مبدأ واضحاً لتاريخ مكة ، لان أهم ملابساتها وظروف دقائقها وردت واضحة في القرآن ، ولسنا نعني أن جميع التفاصيل التي ذكرها المؤرخون أنها لازمت هذه الهجرة أو أعقبتها ، كانت من الوضوح والصحة بحيث لا يتسرب إلينا شك فيها ولكنها منقولة وحسب ، كما أن بعضها أشار إليه الحديث الشريف واستكملت البعض الآخر روايات أهل الكتاب ، وقد بذل المؤرخون الذين جاءوا متأخرين في تصفية ما انتهى إليهم فكان بعضهم دقيقاً ما أمكنته الدقة ، كما أن بعضهم لم يتحرج في إيراد ما صادفه من حشو ولغو .

وإذاً فسنبدأ كتابنا من عهد إسماعيل محاولين أن نعتمد من المصادر ما كان أقرب إلى الثقة ولا نصنع جديداً فكل ما كتبه التاريخ عن البلاد القديمة لا يمكن أن يكون أكثر من محاولات . انتهى من الكتاب المذكور .

مكة في عهد قريش

ثم يقول صديقنا الأستاذ السباعي في أوائل كتابه المذكور بعد ما تقدم عن النواحي العامة بمكة في عهد قريش ما يأتي :

"الناحية العمرانية": كنا في حديثنا عن جرهم وقطورا أشرنا إلى أن العمران في مكة لم يزد عن مضارب من الشعر ، كانت تتلاصق أو تتباعد في حواشي الوادي وبين ليات جباله وما أطل العهد الذي ندرسه "عهد حكومة قريش" حتى كانت المضارب من الشعر قد حلت محلها البيوت مرصوصة بالحجر أو مبنية بالطين والحجر فيما يحاذي المسجد أو بالطين النيء وحده على حوافي الأباطح في أعلى مكة أو على شواطئ المسيل في أسفلها .

بناء البيوت وتبويبها:

وكان سعد بن عمر السهمي أول من بنى بيتاً بمكة وقد قيل فيه :

وأول من بوأ بمكة بيته   وسور فيها مسكناً بأثافي

وكانوا يبنونها بحيث لا تستوي على سقوف مربعة كما نفعل اليوم ، وأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير ، واستهولت قريش عاقبة التربيع في هندسة البيت . فقالت : "ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً" ، وأول من بوب في مكة (حاطب بن أبي بلتعة) . وكانوا يجعلون بين يديها العرصات ينزل الحجاج فيها والمعتمرون .

ولما شرعت بعض الدور تصنع لها أبواباً كانو يقصرون ذلك على بعض غرفها ويتركون مداخلها شارعة على عرصاتها دون أبواب . وقد قيل إن هند بنت سهيل عندما استأذنت عمر بن الخطاب في أن تجعل على دارها بابين أبي وقال لها : إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج والمعتمرين ، قالت : والله ما أريد إلا أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغقلها عليهم من اللصوص ، فأذن لها فبوبتها .

ويقول أيضاً عن منازل القبائل في مكة : ويستطيع الباحث أن يستنتج أن العمران في مكة في عهدنا الذي ندرسه نشط نشاطاً طيباً ، فبعد أن تركنا المضارب تتباعد على حوافي وادي إبراهيم من أعلى مكة إلى أسفلها ثم تعرج في ناحية منها إلى مداخل الشامية اليوم نحو قعيقعان ، نجدها الآن وقد اتصلت وتكاثفت واتخذت كل قبيلة منزلها من الوادي وشعابه ، ولم يزحف عمرانهم إلى مرتفعات الجبال وأكتافها كما نفعل اليوم بل ظل مستوياً باستواء سطح الوادي .

فقد ذكروا أن قصياً خط للكعبة ساحة توازي صحن المسجد اليوم ، وأباح للناس أن يبنوا دون ذلك حول مدارها من الجهات الأربع ، وكانوا لا يبيحون لأنفسهم قبل قصي السكنى أو المبيت بجوار الكعبة ، ثم أمرهم أن يجعلوا بين بيوتهم مسالك يفضون منها إلى ساحة الكعبة ، وأهم هذه الطرق طريق شيبة وهو في مكان باب بني شيبة اليوم ، ولم يبوب ساحة الكعبة أو يسورها ، كما أمر بأن لا يرفعوا بيوتهم عن الكعبة لتظل مشرفة عليها ، وكانوا يتخذون مجالسهم العامة في أفيائها ، كما بنى دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة .

وفي استطاعتنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لخريطة مكة نبين فيها باختصار مواقع البطون في مكة يومها ، وسير العمران بين شعابها ، اعتماداً على ما ذكره الأزرقي في تخطيطه مواقع القبائل في كتابه أخبار مكة .

ولتوضيح ذلك في الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بني شيبة نقطة ابتداء تخطيطاتهم ، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في أم القرى ، كما كان أهم مداخل المسجد الحرام ، وكانت البيوت تتكاثف حوله متجهة في الشرق إلى (حصوة) باب علي ، وفي الشمال قليلاً إلى (حصوة) باب السلام تنزلها بطون من غساسنة الشام وبعض السفيانيين وتتخللها متاجر للعطارين ، فإذا مضى بنا الخط مستقيماً إلى جهة باب النبي ، واجهنا بيت العباس ودار جبير بن مطعم ودوراً لبني عامر بن لؤي ، واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق ، وهو إلى جانب زقاق الحجر حيث تقوم دار لابن علقمة ودور أخرى لآل عدي من ثقيف .

فإذا نفذنا من ذلك إلى شارعنا العام في القشاشية متوجهين إلى أعلى مكة ، استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة ثم سوق الرطب ، ثم رباع كانت لبعض بني عامر ، وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها دار مال الله وكانوا ينفقون فيها على المرضى ويطعمونهم . وبالقرب من الدار يلتوي

شعب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شعب علي وفيه دور عبدالمطلب بن هاشم ودور أخرى لأبي طالب وأخرى للعباس بن عبدالمطلب .

وإذا عدنا إلى استقامتنا في شارعنا العام ، يصافحنا دار العاص في فوهة بني عامر ، ثم يلتوي شعب بني عامر في دروب متعددة تقوم عليها دور لبني بكر وأخرى لبني عبدالمطلب بن عبد مناف ، ونستقيم مرة أخرى في شارعنا العام فيواجهنا ردم آل عبدالله ، وكانوا يعارضون به مجرى السيل ويسمونه الردم الأدنى وعنده يقف الحمارون .

ونمضي قليلاً إلى المعلاة لنجد الجزارين عن يميننا في شعب أبي دب ، ثم مكان المقابر ، ثم بعض بساتين ننتهي منها إلى شعبة الجن ، ثم ثنية الحجون ، ثم بساتين أخرى نصل بعدها إلى شعب الصفا ، وهو ما نسميه اليوم المعابدة وفيه دور لبني كنانة وآل عتبة بن أبي معيط ، ودور لربيعة من بني عبد شمس .

وإذا بدأنا خطاً آخر من باب بني شيبة متوجهين إلى الشمال الشرقي في المسعى صادفتنا دور لبني عدي قائمة بين باب بني شيبة ورواق باب السلام ، وفي المسعى يتوجه درب إلى يميننا كانوا يسمونه الخزامية ، كان فيه مكان للبانين وفيه سقيفة ودار الحكم بن خزام ودور يتخللها عرصات لبني سهم ، ويمضي بنا الدرب إلى بيت خديجة حتى يخرج إلى مكان المدعى اليوم .

وإلى يسارنا ونحن في المسعى طريق الساعين إلى المروة ، وفي المروة دور لآل عتبة ابن فرقد ودار كبيرة لآل ياسر في واجهتها الحجامون والحلاقون ، وإذا مضينا في المسعى مصعدين في طريق المدعى ، انتهينا إلى رحبة واسعة كانت تحط فيها عير الحنطة والسمن والعسل والحبوب لتباع فيها ، وهي ما نسميها اليوم المخناطة وفيها دور لبني عبد شمس ودور أبي سفيان وهي في مكان (القبان) اليوم . وقد أشار النبي إليها عندما قال يوم الفتح : "من دخل دار أبي سفيان كان آمناً" ، ثم دور لأولاد العباس تصل إلى قريب من المدعى ، ثم دور لأولاد الحارث ؛ ثم طريق إلى يسارنا يمضي إلى جبل الديلم وهو يشرف على القرارة اليوم ، ثم نمضي في استقامتنا إلى طريق المعلاة لنمر على دور لبني غزوان وأخرى لأولاد الحارث بن عبد المطلب ونبدأ خطاً ثالثاً من باب بني شيبة متوجهين غرباً إلى دار الندوة ، لنجد أن البيوت تتكاثف إلى جانبها فدار لشيبة بن عثمان ، ودار لخزانة الكعبة ، ودار لصاحب البريد ، ودار لبيت المال ، ودار للخطاب بن نفيل ، ثم نصعد شمالاً إلى

جهة الرواق الذي فيه باب الزيادة إلى باب الدريبة، فتصادفنا دور لبني خزاعة بينها زقاق الحذائيين، نسلك منها إلى سويقة ثم نعطف منه إلى المروة ومن جهة أخرى دور لآل زرارة من تميم، ثم يمضي بنا الشعب إلى قعيقعان في مداخل ما نسميه الشامية اليوم، فإذا توجهت إلى يمينك توجه بك درب إلى ناحية الديلم بالقرب من القرارة اليوم، ثم تصعد إذا شئت على تلال في مكان الفلق كانوا يصعدونها لينزلوا منها إلى مكان سوق المعلاة اليوم، و لم يفلق هذا الطرق إلا الزبير بن العوام في عصره، وسنعرف فيما بعد أنه فلقه ليتصل الطريق بين بساتينه بجوار المعلاة اليوم وبيوته التي اشتراها بجوار سويقة.

وإذا أردنا أن ننتقل من شق مكة الأعلى إلى شقها الأسفل، تعين علينا أن نجعل نقطة ابتداء تخطيطنا ما نسميه اليوم مقام الحنبلي في المسجد، متوجهين إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب. كانت منازل بني عائذ تبتدئ من مقام الحنبلي ممتدة غرباً إلى ما يحاذي بئر زمزم، ثم تصعد في الشرق نحو باب علي وكانت دور بعض كبارهم شارعة على مكان المسعى، على يسار القادم من الصفا يريد المروة أي فيما يحاذي باب علي اليوم تقريباً.

وكانت منازل عدي بن كعب تبتدئ من نحو مقام الحنبلي متوجهة إلى الصفا من ناحية، وإلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكة.

وفي الطريق الذي يبدأ من باب الصفا متوجهاً جنوباً إلى باب أجياد كانت سقيفة لبني عائذة وسوق "البزازين"، "القماشين" وبالقرب من ذلك كان البيت الذي اتخذه النبي ﷺ لتجارته قبل البعثة مع شريكه السائب بن السائب.

فإذا انتهيت إلى باب أجياد ووقفت حيث تكون القبلة في ظهرك ومداخل أجياد في وجهك، امتد أمامك شعبان أحدهما على يمينك إلى ما نسميه اليوم بئر بليلة وكانوا يسمونه أجياد الكبير، وامتد الشعب الثاني على يسارك إلى ما نسميه اليوم السد وكانوا يسمونه أجياد الصغير، ولست أعني بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاذ الجادة واستقامتها بامتداد الشعوب. فقد كان العمران يتخلل الجادة ويعرقل استقامتها.

وكان بنو تميم ينزلون حوالي باب أجياد، وتمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المسجد يومها وهو حدود صحن الكعبة اليوم، وكان بنو مخزوم ينزلون في فوهة أجياد الكبير مكان الحميدية اليوم، وكان جماعة من الأزد ينزلون

خلف ذلك مما يتصل بمكان الصحة العامة ، وخلفها كان منزل أبي جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيراً ، وفي أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدي بن عبد شمس ، وفي أجياد مكان للحواتين ودار لعبدا لله بن جدعان التي كان فيها حلف الفضول ، والتي تعاقدت فيها القبائل متفقة بأن لا يقر في مكة ظالم ، وفيها دور لآل سلمة بن هشام ، وفيها بئر يجمع بين أجيادين احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم وكان يردها السكان في فوهة بأجيادين ، وأكاد أعتقد أنها البئر الموجودة اليوم أمام بازان أجياد لأنها تجمع بين طرفي أجيادين .

وإذ تركت أجيادين ماضياً في الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع ، ورأيت الدروب تمضي على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف ومن أشهرها درب الحناطين ، ولا أعرف وجهاً لهذه التسمية إلا أن يكون سوقاً للحنطة، ففي اللغة أن الحانط هو كثير الحنطة ولا أستبعد مثل هذا التعليل ، وأنا أعرف أن موقع هذا الدرب صالح لبيع منتوجات الجنوب من الحنطة في مكة ، وفي هذه الجهة كانت تنزل بطن من آل صيفي ، وفيها دور لآل عبد الدار وأخرى لجماعة من بني مخزوم وإذا مضيت متجهاً في سوق الصغير كنت بجوار دور لبني أسد ابن عبد العزى .

وأحسبني لا أطمع في أن أعرف القبائل النازلة في الشبيكة أو حارة الباب أو جرول ، لأنها كانت قليلة السكان إلا في جهات قليلة من جرول الخضراء ، وهي الجزء الأدنى المتصل بأطراف المسفلة من ناحيته الخلفية ، وإذا كانت الشبيكة قد سكنت في عهدنا الذي ندرسه بجماعة لم أتبين أسماءهم في بطون المطولات من كتب التاريخ ، فلا أعتقد أنها حظيت بشيء من التكاثف الذي حظيت به المنازل الأخرى .

وقد نعثر على بعض المنازل في سفح ذي أعاصير ، ولعلنا نستنتج من قرائن الأحوال أن ذا أعاصير هو جبل عمر ، ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن هذا الجزء حفل بالمنازل إلا في أعوام متأخرة عن هذا العهد ، لأن النزلة سميت باسم عمر بن الخطاب ، ولو كانت لبطن أو قبيلة لأطلق عليها في الغالب اسم نازلها قبل عمر بن الخطاب .

كما أننا لم نعثر إلى جانب ذلك على شيء يسير من العمران في الثنية التي نهبط من خلفها إلى جرول ، وكانوا يسمونها الحزنة وهي ضد السهلة ونسميها

اليوم الحفائر ، ولم تكن الحفائر قد فلقت يومها لتخترم الطريق من الشبيكة إلى جرول الخلفية ، لأن الذي حفرها وسهلها للمشاة هو خالد البرمكي في عهد بني العباس ليجعلها تختصر الطريق إلى بستان له بناه فيما بعد في جرول الخلفية ، أو جرول الخضراء كما يسمونها.

وإذا تركنا هذا ومضينا في طريقنا في ظل أعاصير أي جبل عمر نحو الهجلة ، صادفتنا الحتمة وهي صخرات لا بد أنها كانت سوداوات لأن الحتمة في اللغة هي السواد ، وعند هذه الصخرات كانت دار الأزلام ومنها يبدأ مبطح السيل أسفل مكة .

ولعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لمكة الجاهلية ، ولا يفوتنا في أذيال هذا البحث أن نشير إلى الضواحي التي كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها في الأصائل من شهور القيظ ، وهي عادة نرى أثرها إلى اليوم في المتنزهين من أبناء مكة في أطراف الضواحي ، وكأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو "١٥٠٠" سنة تقريباً .

ومن أشهر المنتزهات في مكة الجاهلية الليط - والليط في رأي بعض المؤرخين هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجن منتزهنا اليوم ، ويقول الأستاذ رشدي الصالح في حاشيته على تاريخ الأزرقي أنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكري أي فيما يلي جرول الخلفية ، ولست بالذي يستبعد صحة القولين فإن الوادي بعد بركة ماجن يتصل بالجادة التي تنتهي خلف القشلاق ، فلم لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة ؟ .

وكانت في الليط أقحوانة يجلس أهل مكة حولها في العشي ، يلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة وفي هذا يقول الحارث بن خالد :

من ذا يسائل عنا أين منزلنا   فالأقحوانة منا منزل قمن
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره   طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

ومن منتزهاتهم شعب خم وهو يتصل بالمسفلة اليوم ، وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول ، وكانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة فقد كان لهم هناك نخيل وزروع ، وكانت بساتين تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة ثم تمضي إلى المحصب في الطريق المؤدي إلى منى ، وكان لهم في

المحصب دكة يجتمع المتنزهون فيها أصيل كل يوم، وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادي الممتدة إلى منى.

وكانت لهم بساتين في وادي فخ ونسميه الشهداء اليوم، وأخرى بوادي طوى في امتداده من الحجون إلى ريع الكحل، وبساتين غير هذه في ضواحي مكة العليا إلى مزدلفة فعرفة، وكانت المنازل في المناطق التي ذكرناها لا تتكاثف على قاعدة المدن الحاضرة، بل تتفرق وتفصل بينها مساحات خالية على عادة العرب في بناء قراهم ومدنهم، أما الناحية المتصلة بالمسجد فكانت تضيق بنزلائها لتنافسهم في مجاورة الكعبة.

وقد بنى القرشيون في أواخر عهدهم ما يشبه السور في أعلى المدعى وبوابوه ولم يثبت أنهم بنوا مثله في ناحية أخرى منها.

وقسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين "حلة وحمس" والحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون ومنهم خزاعة، وأول من اتخذ الصنم هو عمرو بن لحي أمير خزاعة كما أسلفنا في الفصل السابق، فقد أمر بعبادة صنمين كانا منصوبين على الصفا والمروة، فلما كان عهد قصي حولها من مواضعها فجعل إحداها بلصق الكعبة والأخرى في موضع زمزم، فكان أهل الجاهلية من قومه ينحرون عندهما ويتمسحون بهما، واشتد شيوع عبادة الأصنام بمرور الأيام حتى كانت الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم، وما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم إذا دخل يمسحه وإذا خرج يمسحه تبركاً، عدا أصنام الكعبة التي ظلت قائمة في مواضعها من التبجيل إلى عام الفتح، ومن أشهر أصنامهم "هبل" وكان منصوباً في جوف الكعبة "والعزى" وهي بوادي نخلة في طريق الطائف من مكة "واللات" وهي في الطائف "ومناة" وهي في قرية (قديد) على ساحل البحر الأحمر شمالي مكة.

وكانوا ينحرون عند صنم لهم يقال له الغبغب، وكانت لهم أقداح في الكعبة إذا اختصموا في شيء أو اعتزموا أمراً استقسموا بها فإذا خرج القدح مكتوباً بأمر أو نهي عملوا به كما يفعل أصحاب "الخيرة" – أو القرعة اليوم.

وقسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين "حلة وحمس" والحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون ومنهم قريش في مكة، وقد بلغ من تشددهم أن الرجل إذا أحرم بالحج أو العمرة لا يدخل داراً أو فسطاطاً أو حائطاً "بستاناً" –

وقد تعرض له الحاجة فلا يدخل بيته بل ينقب نقباً في ظهره وينادي بأهله ليخرجوا له ما أراد ، وكانوا يحرمون بعد الإحرام على أنفسهم السمن واللبن والزبد ، ولبس الوبر والشعر والاستظلال به وغزله ونسجه . وكانوا إذا وقف الحاج من العرب في عرفات ، يأبون أن يخرجوا إليها من حرمهم ، فيكتفون بالوقوف عند نمرة تقديساً لحرمهم .

وكانوا يفرضون على مخاليفهم من أهل الحلة أن لا يطوفوا إلا إذا لبسوا ثوباً أحمسياً يشترونه منهم أو يستأجرونه أو يستعيرونه ، فإذا لم يجدوا تعين عليهم أن يطوفوا عرايا نهاراً للرجال وليلاً للنساء ، وكان بعض فتيان مكة يتربص للنساء العرايا ، فإذا أعجبته إحداهن دخل معها في الطواف عرياناً وقد يؤول أمرهما إلى الزواج وقد ألغى الإسلام هذه العادة .

وكانوا إذا بلغت الفتاة سن الزواج ألبسوها ما يزينها وخرجوا بها سافرة إلى المطاف ، ثم أعادوها إلى بيتها لتبقى حبيسة فيه لا تخرج إلا إلى بيت من تزوجها وهم يريدون بطوافها ذلك عرضها سافرة على أعين الخاطبين ، ولعلهم اختاروا المطاف ليأمنوا في جوار البيت نظرات الفاسقين .

وكانوا يختنون أولادهم ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة ، وقد تباعدوا في المناكح من البنت ، وبنت البنت ، والأخت ، وبنت الأخت ، كما يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً . وكانوا يدخلون الكعبة لابسي أحذيتهم حتى سن لهم الوليد بن المغيرة خلعها ، وكانت الحوائض من نسائهم لا يدنين من الكعبة ولا يتمسحن بأصنامها بل يقفن بعيداً عنها .

وشاعت إلى جانب عبادة الأصنام ديانات أخرى أهمها الدهرية التي قال أصحابها: وما يهلكنا إلا الدهر ، والصابئة وهم عبدة الكواكب والنجوم ، ودان بعضهم باليهودية وآخرون بالنصرانية .

وأنكر بعضهم ترهات قومهم من عبادة الأصنام ، وكانوا ينصحون بتركها ويجاهرون بالبحث في ألوهية واحد متفرد بالجلال والعظمة ، ويعترفون بالبعث والنشور والثواب والعقاب .

ويقول أيضاً عن الناحية التجارية : كانت مكة بحكم موقعها في طريق تجارة الطيب والغلال وأنواع الأقمشة ، بين دول الجنوب وممالك الشمال ذات مركز استراتيجي ممتاز ، وكانت أسواقها تزدحم بالتجار صاعدين في الشمال إلى الشام

أو هابطين في الجنوب إلى اليمن، فمهروا في التجارة وتضخمت رؤوس أموالهم وبلغت قوافلهم التجارية ألف بعير في عهد غزوة بدر، مضافاً إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم، وهي نسبة لها قيمتها المادية إذا قيست بالثروات في عهدها وبلغ من ثراء قريش أنها استطاعت في الغزوة نفسها أن تفتدي أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم إلى ألف درهم، إلا من عفا عنهم النبي ﷺ من المعدمين.

ويقول أيضاً عن الناحية الاجتماعية: ووهم بعض المؤرخين في إدراج مكة مدارج القبائل من أحياء العرب، وحسب آخرون أنها كانت نزلة يمضي عليها ما يمضي على نزل العرب وقراهم في آفاق الجزيرة، ولكن شيئاً من الاستقراء ينتهي بنا إلى غير هذه النتيجة، فالقرآن سماها في أكثر من مرة (أم القرى) وفي هذا ما يشير إلى ميزتها في مستوى من حولها من منازل الجزيرة وقراها، والقرآن خاطبها بمعان ليس من يعتقد أنها غريبة عنها، فتحدث عن المشكاة والمصباح والزجاج، وعن المساكن يعرج إليها بالمعارج، وتحدث عن أنواع من الطيب؛ كالكافور والزنجبيل والمسك، وأنواع من الأثاث المترف؛ كالنمارق والزرابي والسرر والفرش المبطنة بالاستبرق والسندس، وأنواع الأواني من الفضة؛ كالقوارير والأكواب والكؤوس، وأنواع من الحلي؛ كالمرجان، واللؤلؤ، كما حدثهم عن القراطيس والكتب والسجلات والصحف والأقلام والمداد، وأشار في كثير من آياته إلى النحاس والحديد والفخار والصحاف والجفان والقدور – ولا يقول إنسان أن القرآن كان يخاطبهم بما لا يفهمون مدلوله من الألفاظ وأنه كان يشير إلى معان غريبة عنهم.

إذاً فبيئتهم كانت تعرف هذه المعاني معرفة من اختلط بها واندمج فيها، وفي هذا من الأدلة ما يقوم بحجتنا على من وهم من المؤرخين، وفيه ما ينطق بأن مكة كانت في ذلك العهد قد أخذت بطرف غير يسير من أسباب الحضارة الخاصة بجيلها الذي تعيش فيه.

وليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب، فقد كان المكيون من قريش يضربون في مناكب الأرض بين اليمن والشام والعراق وفارس والهند ومصر والحبشة، ويتصلون في رحلاتهم هذه بالقصور المشيدة والعمران الفخم وألوان من الحضارة

تتعدد بتعدد الحضارات التي كانوا يختلفون إليها ، فلا عجب أن تتلاقى أكثر الحضارات الشائعة في عهدهم وفي بويتهم في مكة وأن تبدو واضحة في حياتهم .

وكانت مخابئهم إلى جانب هذا تكتنز بالذهب والفضة كما تكتنز بالنقد المضروب من الدينار والدرهم ، وقد ذكرها القرآن في معارض مختلفة نستطيع أن نفهم منها أنهم كانوا يعرفونها معرفة تامة .

وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم والمكاييل ، ويعرفون من مفردات أثقالها أنواعاً كثيرة كانوا يتعاملون بها ، وليس أدل على هذا من خطاب القرآن لهم ﴿ويل للمطففين ۞ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ۞ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ ويسرد بعض المؤرخين بعض الحوادث الفردية التي يحسبون أنها تحدد معارف القرشيين في علم المال أو تبين مدى حيازتهم له ، فيذكرون في رواية الصحابي الذي اشترت منه إحدى السبايا نفسها بألف درهم ، أن رفاقه عندما لاموه على رخص الثمن قال لهم وا لله ما أعرف فوق الألف شيئاً ، ويريدون أن يستدلوا من هذا على تحديد معارف القرشيين في الأموال والأرقام ، ولعلهم نسوا أن القرآن كان يخاطبهم بأرقى من هذا المستوى وهو يستعرض هول يوم القيامة ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ أو يسرد لهم قصة يونس ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ وليس من شك أن قوماً أحصوا بعشرات الألوف ومئاتها كانوا على شيء من الغنى ، وكان يصحبه ما يتبع الثراء من الحضارة وما في الحضارة من ترف وما ظننا بقوم كان القرآن يعرض أمامهم في صدد التشريع أدق من هذا ، فيشير إلى النصف والثلث والربع والخمس والثمن والعشر في أوامره بتوزيع التركات ، لا ريب أنهم كانوا في بيئة تجيد هذه الكسور ومضاعفاتها ، كما تجيد إلى ذلك مستلزمات هذا التوزيع من عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة على أنواعها في الآحاد والكسور .

واستعمل القرشيون في مكة الثياب والسراويل والقمصان والنعال ، وتختموا بالذهب والفضة واتخذوا لخواتمهم حبات اللؤلؤ ، كما استعمل القرشيات الخمر والجلاليب والخلاخل التي كن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، عدا ما تحلين به من عقود وأساور وما تطيبن به من ذي أريج فواح .

وكان لمترفيهم مجالس للسمر ينصبون لها أرائك ويمدون فيها الموائد، ويتَفكهون بما طاب من ثمارهم ويتلذذون بفواكه الطائف الطازجة، أو بمجففات الشام وفلسطين المستوردة لمتاجرهم.

وكانوا يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب خموراً يعدونها في مجالسهم في آنية من فضة وأقداح من بلور، ويدور عليهم ساقيهم بها تفوح منها روائح المسك والكافور والزنجبيل.

وكانت لهم حلقات يعقدها القصاصون يتلون فيها عليهم أساطير الأولين، أو يقصون عليهم بعضاً من نوادر الحياة مما يصادفه الرجل في آفاق الأرض، فيجتمع إلى هذه الحلقات كهولهم في أقبيتهم الفضفاضة وشبيبتهم في ثيابهم الموردة أو المحمرة، من أغلى أنواع الحرير المجلوب من بلاد فارس أو المصنوع في العراق والشام.

وكانت مكة في عهد قريش تضم إلى هذا ما تضمه عواصم اليوم تقريباً، مَن جاليات أجنبية يهبطون إليها بفنونهم وأموالهم وبعض علومهم، فلا تلبث أن تتسع لما يهبط إليها وتفسح لها من المجال ما تفسحه اليوم - وكثير من كتب السير في مجموعها تحدثنا بأنه كان من سكانها نصارى الروم ووثنيون من فارس، وأنه سكنها جاليات من العراق ومصر والحبشة والسريان، ونحن لا نستبعد أن يكون نزوح هذه الجاليات فراراً من الثورات وألوان الاضطهاد، أو تحت عوامل أخرى شبيهة بالتي تؤثر في انتقال الموجات البشرية في كل دور من أدوار التاريخ.

ولست أرى رأي من يقول بشيوع الأمية شيوعاً مطلقاً في هذه البيئة التي ندرسها، ولا ممن يرى أن وسائل الكتابة يومها كانت تقتصر على العظام والحجارة، لأن القرآن ذكر عن الصحف المنتشرة وسجلات الكتب والمداد والأقلام، ما يشير إلى معرفتهم بها وأنهم كانوا لا يجهلونها.

ومما يلفت النظر أن القرآن في أوائل نزوله بمكة كان يكتب وينسخ - ويذكر ابن هشام في سيرته أن عمر دخل على شقيقته قبل إسلامه وفي يدها صحيفة قرآنية، ويؤيد هذه الرواية أكثر المؤرخين، وهي تدل فيما تدل على وجود الصحف يومها وأن نسخها كانت تتداول في مكة، ولا يصح فيما أرى أن تكتب الصحف ويتداول نسخها في بيئة تشيع فيها الأمية شيوعاً مطلقاً، وتقتصر المعرفة فيها على أشخاص معدودين على أصابع اليد كما يذكر بعضهم.

ونضجت الحياة العقلية في قريش نضجاً نستطيع أن نلمسه في أمثالها الشائعة وحكمها المشهورة:

"من أجمل قليلاً سمع جميلاً ، أنفك منك وإن كان أذن ، إن البلاء موكل بالمنطق ، يبني قصراً ويهدم مصراً ، الجزاء من جنس العمل ، الجهل شر الأصحاب ، حسبك من شر سماعه ، حظ في السحاب وعقل في التراب ، ما حيلة الرامي إذا انقطع الوتر ، لا يخلو المرء من ودود يمدح وعدو يقدح ، من خان هان . إذا أراد الله هلاك نملة أنبت لها جناحين ، كما تزرع تحصد ، من سابق الدهر عثر ، سلاح الضعفاء الشكاية ، عند الصباح يحمد القوم السرى ، رب عتق شر من رق ، أعقل الناس أعذرهم للناس ، لكل عود عصارة ، ما كل عورة تصاب ، عين الهوى لا تصدق ، غدرك من دلك على الإساءة " .

واتسعت أسواق مكة التجارية للتنافس بين مفكريها من الشعراء وأصحاب البيان ، فكانت ملتقى الخطباء من سائر بلاد العرب ، وكانت مجالاً ثقافياً لم يسبق له نظير بين دول اليمن في الجنوب وحكام الحيرة وغسان في الشمال ، وفي مظان التاريخ المطولة من أخبار عكاظ وغيرها ما يغني عن الإفاضة .

ويقول أيضاً عن الناحية الإدارية : ذكرنا أن قصياً كان أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة والقيادة وسمى قصي مجمعاً ، لأنه جمع قريشاً بمكة ، وسميت قريش في ذلك العام قريشاً ، لأنها تجمعت والتجمع التقرش في بعض كلام العرب ولم يسم قرشي قبل ذلك .

وكان قصي عملياً أكثر مما كان يظنه قومه ، فإنه ما كاد يستلم زمام الحكم في مكة حتى أسس دار الندوة لشورى قريش ، ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين ، كما كان أورستقراطياً لأنه أباح لأولاد قصي دخولها كما شاءوا بلا فارق في السن .

وعنى قصي بسقاية الحجاج فاتخذ لهم حياضاً من أدم توضع بفناء الكعبة ، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار محمولة على الإبل من أطراف مكة البعيدة ، كما عنى بتتبع مظان الماء العذب في مكة ، فحفر بئر العجول وهي في المكان الذي يمتد فيه رواق المسجد اليوم مما يلي باب الحميدية وباب الوداع ، وحفر بئراً عند الردم بجانب مسجد الراية وهي البئر الموجودة اليوم في "الجودرية" في الزقاق الواقع أمام قصر النيابة ، وسمي بئر جبير بن مطعم لأن جبيراً هذا نثله بعد أن اندثر ،

واتخذت العناية بالآبار بعد قصي سنة لأولاده ، فكانوا يتتبعون مظان المياه العذبة ويحتفرون فيها الآبار .

وعنى قصي إلى جانب العناية بسقيا الحجاج بالرفادة ، فكان على قريش خرج تخرجه من أموالها في كل موسم ، فتدفعه إلى قصي يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

وكان يشترى بما يجتمع عنده دقيقاً ويأخذ من كل ذبيحة بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يجزر به الدقيق ويطعمه الحاج ، واتخذ أولاده هذه سنة بعده ، حتى أن عمر حفيده اضطر عندما أصاب مكة في عهده جدب شديد ، أن يجمع ما تجمع لديه من قريش ويخرج به إلى الشام فيشتري به دقيقاً وكعكاً ، فيهشم الكعك وينحر الجزور ويطبخه ويجعله ثريداً ويطعم الناس في مجاعتهم ، وقد سمي بذلك هاشماً .

وجاء الإسلام وقريش تتخذ هذه السنة عادة موسمية ، فأمضاها النبي ﷺ إذ أرسل بمال مع أبي بكر رضي الله عنه عندما أمره أن يحج بالناس سنة تسع للهجرة ليصنع به طعاماً للحجاج ، وفعل مثل ذلك في حجته للوداع ، ثم أقام أبو بكر على هذا ، وكذلك بقية الخلفاء بعده - يقول أبو الوليد الأزرقي : وظل العمل على هذا إلى أيامنا هذه يطعم الخلفاء الموسم في أيام الحج بمكة ومنى حتى تنقضي أيام الموسم ، وقد عاش أبو الوليد في القرن الثالث الهجري وتوفي عام ٢٢٣ .

ولم أقع فيما قرأت على العهد الذي ألغيت فيه هذه العادة الحسنة ، وأكبر ظني أنها أبطلت على أثر الفتن والحروب التي كانت السبل تقطع فيها دون مكة ، ويلفت نظرنا في هذه السنة أنها كانت خرجاً عاماً تشترك فيه قريش بأموالها ، ويشترك المسلمون فيه في الصدر الأول للإسلام وأن هذا الاشتراك الشعبي ما لبث أن انتقل بتقادم العصور إلى خزائن الخلفاء أو بيوت الأموال ، فهل تقاعس المكيون عن المجد ؟ أم أن أموالهم ضاقت دونه ؟ الواقع أن قريشاً كانت من أنشط القبائل في جزيرة العرب تجارة كما بينا ذلك في بحث أعمالها التجارية ، فكانت بذلك في غنى تسع فضلاته إطعام الموسم ، وجاء الإسلام فاتسع نشاط قريش باتساع رقعة الإسلام ، ودرّت الفتوحات والتجارة النشيطة عليهم الأموال الطائلة ، وأخصبت أراضيهم في الطائف والمدينة وبعض نواحي مكة وكثير من أوديتها القريبة ، بتأثير نشاط المال والعناية بحفر الآبار ، ثم ما لبث أن فتر النشاط وفتر بفتوره الغنى

والثروة والخصب ، على إثر انتقال الصفوة الممتازة من قريش إلى الأمصار ، بثرواتهم وأموالهم وكفاءتهم يتبعون مواطن الخلافة خارج الجزيرة .

انتهى من "تاريخ مكة " للسباعي .

مكة في عهد النبي ﷺ

ويقول صديقنا الأستاذ السباعي في أوائل كتابه المذكور بعد ما تقدم ، عن مكة في عهد رسول الله ﷺ ما يأتي :

كانت حياة النبي ﷺ نقطة تحول في تاريخ مكة ، بل كانت بلغة أوضح من هذا فاصلاً بدأت به عهدها الجديد ، كقبلة يتوجه إليها الملايين من المسلمين في كل يوم خمس مرات ، ومحجة يهرع إليها مئات الألوف في كل عام من شتى أصقاع الأرض .

ونحن إذ نكتب هذا عن هذه الفترة الفاصلة من تاريخ مكة وتتابع أحداث البعثة فيها ، لا أعتقد أننا مطالبون بالتفصيلات الطويلة التي توسع فيها كتاب السيرة ، لأن المظان الخاصة بهذا حافلة بالكثير الذي لا نطمع إلى مزيد فيه ، وبحسبنا أن نمر هنا بالحوادث مروراً سريعاً لا نهدف فيه إلا إلى ربط الحوادث العامة وتسلسل نتائجها .

بعثة النبي : بعث النبي في وسط كانت العقلية سائدة فيه رغم نضجها الذي ذكرناه ، لا تحجر على متع الحياة ولا تفرض سلطاناً على مستبيح في اللذة ، وكانت القيم الأخلاقية تزن الأشياء بمعايير خاصة ، فليس من السمو الإنساني في مقاييسها أن تهادن في عصبية ، أو أن تنحاز إلى غير قومك مهما كان ظلمهم ، أو أن تنسى ثأرك مهما كان لونه ، أو تسلم بقاعدة يكون الفخر فيها لغير بني أبيك.

بعث النبي في وسط يعتنق هذه المبادئ ويدين بها كما يدين العابد بأقدس ما يعتقد ، فلم يكن على النبي أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من نسك ضال فقط ، بل عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع حوله ، والتي لا تستسيغ الوحدة تضيع فيها معالم القبيلة .

بُعث النبي من بني هاشم فأي دعوة هذه الذي ينقاد إليها بنو عبد مناف ، وبنو زهرة ، وبنو تميم ، وبنو مخزوم ، وبنو أسد ، وسائر البطون من قريش والقبائل

من كنانة ، إنها الاستهانة بكيان الأفخاذ وأمجادها في عرفهم ، وإنها الاستكانة لداع سيحوز الفخر لبني هاشم دونه ، فما بالهم لا يقاومون وما بال هذه القيم الأخلاقية الفاسدة لا تعارض فيما يضاد عرفها ، ما بالها لا تتكبر على الدعوة وتكابر في الحق ضناً بكيان الفخذ أو البطن أو القبيلة ومجافاة لهذا الإعداد الذي سيصهرهم غداً في بوتقة تنسيهم تراث آبائهم وتضيع معالمهم .

بهذا العنت قوبل النبي في فجر دعوته ، وعن هذه البواعث حورب في الصور والأشكال التي نجدها في مظانها من كتب السير ، والتي لا نستدل منها إذا أردنا الاستدلال إلا على التعصب والحزبية لأوضاع القبيلة والفخذ واحتمل النبي ﷺ ما لا يحتمله إلا صاحب عقيدة راسخة ، ثم وجد أول ما وجد في مكة من استجاب لدعوته من الأفذاذ الذين تسمو عقولهم على ما ورثوا من أوضاع ، وترتفع بهم نفوسهم عن المكابرة إذا أبلج الحق ، والأفذاذ من هذا النوع ندرة لا يظفر التاريخ بها إلا فيما قل – فلا عجب إذا رأيناهم حول أول ما نراهم ، أقلية لا يعدون أصابع اليد .

ويسفر الدين الجديد عن تعاليم جديدة ، فإذا في هذا الدين دعوة إلى التكتل ونسيان القبيلة ، وإذا في الدين حد للإباحية المطلقة ، وإذا فيه كبح للذائذ والشهوات ، وإذا فيه تحليل وتحريم ، فأية أخلاق منحلة تقوى على التوحيد والتكتل ، وأية فوضى تحتمل التحديد والكبح ، إنه اختبار لا ينجح فيه شهواني ، وإنها خطوة لا يستطيع أن يخطوها إلا وجدان عامر بغير الأهواء التي كان يعمر بها الوجدان في القبائل من قريش ومن حولها .

لا بد إذاً لهذا التعصب من أن يستعر أواره ، ولا بد للمقاومة من أن تنشط للدفاع ، لا بد أن يجتمع إلى عامل المحافظة على كيان القبيلة عوامل أخرى ، مبعثها قداسة التقاليد الموروثة ، والذود عن حظوظهم في الدعارة الشائعة والإباحية المطلقة .

هذه العوامل تضافرت على شخص واحد لا يملك إلا يقينه وإلا صبره وإلا بضعة نفر مستضعفين ، تطاردهم قريش وتعذب بعضهم بالجلد والحجارة المحماة .

ولم تقتصر المقاومة على حدودها في قبائل مكة فقد بثوا حوله العيون ، تترصده في المواسم كلما اتصل بقبيلة . أو بث دعوته في قوم ، أو التجأ بزوار ، تضييقاً عليه وفتاً في عضده . انتهى من الكتاب المذكور .

النواحي العامة بمكة في العهد النبوي

ثم يقول صديقنا الأستاذ السباعي في أوائل كتابه المذكور بعد ما تقدم، عن النواحي العامة بمكة في عهد النبي ﷺ ما يأتي :

الناحية الدينية : بدأت الحياة في مكة بعد الفتح تأخذ شكلاً جديداً غير الشكل الذي كانت تعرفه قبله، فبعد أن كانت مثلها العليا تفانياً للقبيلة، وتفاخراً بالآباء، وأخذاً بالثأر، وكرماً يؤدي إلى التلف، وامتيازاً لأصحاب الصدارة، وقدرة على الثراء بالحق والباطل.

أصبحت وقد هذبها القرآن، تدين بالإخاء لله، وتعتقد بالسيادة في الدين، وأنه لا فضل لعربي على عجمي، وأصبحت الصدارة في رأيها لأصحاب التقوى، وأثر هذا في عقليتها العامة فارتسمت لها أخلاق جديدة مستوحاة من القرآن، وتفتحت أمامها آفاق لا عهد لها بها من سيرة الرسول ﷺ، فاندمجت فيما رأت، ونسيت نخوتها الجاهلية وعصبيتها للقبيلة، واستتبع ذلك أن ضاقت بها دائرة الشعر فلم تجد لها فيه مجالاً إلا ما استمد روحه من الدين، واصطبغ بلون من أخلاق القرآن.

على أننا لا نريد أن نطلق هذا على جميع المكيين في ذلك العهد، ونحن نعلم أن مكة حفلت يومها بالمتمردين من البدو والجفاة من الحضر، إلى جانب المؤمنين الذين أخلصوا دينهم واحترموا عقائدهم.

" وقال عن الناحية الإجتماعية": وأحسبنا في غنى عن أن نشير إلى أن جلة المكيين، من كبار الصحابة أو البارزين في قبائلهم من السابقين الأولين إلى الإسلام، كانوا قد نفروا خفافاً وثقالاً إلى المدينة محتذين حذو رسول الله ﷺ، وأن النبي كان قد كره لهم بعد الفتح أن يعودوا إلى الاستيطان بها براً بالمدينة وقد آوتهم، وإخلاصاً لأهلها وقد ناصروهم.

أقول : لعلنا في غنى عن أن نقول هذا كله لنعرف من نتائجه ما ينبغي أن نعرفه، من أن مكة دفعت بجلة أبنائها إلى دار الهجرة، وأنها بقيت رغم هذا غاصة بسكانها الأصليين من بطون القبائل والنازحين إليها من العرب المجاورين والموالي.

بقيت غاصة بسكانها هؤلاء ترعى تجارتها في حدود الدين الجديد ، وتستفيد من مواهب من يصل إليها في قليل من صناعاتها ، وفي كثير من أراضيها الصالحة للزراعة في أطراف مكة وضواحيها .

(وقال عن الناحية العلمية) : وكانت صلتها في هذه الأثناء بذوي قرابتها في المدينة من كبار المهاجرين لا تنقطع أسبابها ، وقد أفادهم ذلك في كل ما يتصل بأسبابهم في المدينة ، فإن كتب السيرة والمغازي ومدوني كتب الطبقات ، يحدثوننا في أخبار علي وابن مسعود وابن عباس وأبي ذر الغفاري وابن عمر وأبي الدرداء ، أنهم كانوا يترددون إلى مكة في مواسمها للحج أو غير مواسمها لأعمالهم الخاصة.

فنتبين من ملابسات هذا: أن مكة كانت تستفيد من علومهم ، وتتوسع معارفها الدينية بحكم هذه الاتصالات المستمرة خصوصاً ونحن نعلم أن أصحاب هذه الأسماء كانوا يحتلون الدرجة العلمية الأولى بين صحابة رسول الله ، وقد كانوا يقولون عن بعض هذا النفر أنه لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم بعلمه ، وإذا أضفنا إلى هذا أن المكيين أنفسهم كانوا كثيري التزداد على رسول الله في المدينة ، وأنهم كانوا ينزلون على من فيها من جلة المهاجرين فيجدون لديهم ما يروي غلتهم من الدين ، استطعنا أن نعرف إلى حد بعيد نوعاً من أنواع الاستفادة العلمية التي كانت تعتمدها مكة في عهدها هذا الذي نؤرخه .

ويحدثنا ابن هشام بعد هذا عن معاذ بن جبل فيقول : إن النبي ﷺ اختاره يوم الفتح للقضاء في مكة عندما ولي أمارتها عتاب بن أسيد ، ونحن إذ لا نجهل كفاية معاذ بن جبل وميزته العلمية وإلمامه الواسع ، نستطيع أن نتبين نوعاً آخر من أنواع الاستفادة التي اعتمدتها مكة يومها في شأنها التعليمي ، وإذا كانت كتب التاريخ تجمع على ندب معاذ بن جبل لتعليم اليمن ، فليس في هذا ما يتنافى مع إقامته في مكة عقب الفتح مباشرة لينفع المكيين قبل انتدابه إلى اليمن ، ويضيف الطبري أن رسول الله ﷺ أشرك معه هبيرة بن شبل .

انتهى من تاريخ السباعي .

بعض ما قيل في حق مكة والمشاعر

قال مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط في فضل مكة المشرفة عامله الله تعالى بفضله ورحمته ولطفه وإحسانه وغفر له ولوالديه ورضي عنه وعنهما وعن جميع المسلمين آمين:

فمكة خير بلاد الله ... أليس فيها البيت بيت الله
ففضلها من العصور الأول ... "ما الحب إلا للحبيب الأول"
فيها الهدى والنور والإيمان ... والخير والطاعة والأمان
ومهبط الوحي بها والأنبيا ... يقيم فيها الأصفياء والأوليا
فيها مواضع الدعا المجابه ... فمن دعا إلهه أجابه
يأمن فيها الطير والإنسان ... والحيوان وكذا الغزلان
فالحمد لله الذي جعلنا ... من أهلها ، بفضله أكرمنا
فمن أرادها بسوء أو بشر ... عاد وباله عليه بالضرر
واذكر دواماً ما جرى للفيل ... وقعتها أتتك في التنزيل
ومن تهاون بحق مكة ... يدكه الله بشر دكة
واحذر من إيصال الأذى لأهلها ... وانظر بعين اللطف في حجاجها
ولا تعامل أحداً بالمكر ... حتى تفوز دائماً بالخير
فالطير لا يجوز أن تنفره ... فكيف صفو المرء أن تعكره
وإن رأيت الناس أساؤا الأدبا ... فكن لبيباً عاقلاً مهذباً
هذا هو الدين الصحيح السامي ... فافهم هديت لحمى الإسلام
فمن يكن في قلبه الخير يجد ... خيراً أمامه عليه فاعتمد
فإنما الأعمال بالنيات ... فافهم بلغت غاية الخيرات

* * *

قال الفقيه أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي يخاطب مكة المشرفة حرسها الله تعالى:

أمكة تفديك النفوس الكرائم ... ولا برحت تنهل فيك الغمائم

وكفت أكف السوء عنك وبلغت ... مناهـا قلـوب كـي تـراك حوائـم
فـإنك بيـت ا لله والحـرم الـذي ... بعزتـه ذل الملـوك الأعـاظم
وقد رفعت منك القواعد بالتقى ... وشـادتك أيـد بـرة ومعـاصم
وساويت في الفضل المقام كلاهما ... ينـال بـه الزلفـى وتمحـى المـآثم
ومن أين تعدوك الفضائل كلها ... وفيـك مقامـات الهـدى والمعـالم
ومبعث من ساد الورى وحوى العلى ... بمولـده عبـد الإلـه وهاشـم
نبي حوى فضل النبيين واغتدى ... لهـم أولاً في فضلـه وهـو خـاتم
وفيك يمين ا لله يلثمها الورى ... كما يلثم اليمنى من الملك لاثم
وفيك لإبراهيم إذ وطئ الصفا ... ضحـا قـدم برهانهـا متقـادم
دعا دعوة فوق الصفا فأجابه ... قطوف من الفج العميق وراسم
فأعجب بدعوى لم تلج مسمعي فتى ... ولم يعهـا إلا ذكـي وعـالم
ألهفي لأقدار عدت عنك همتي ... فلـم تنتهـض مـني إليـك العزائـم
فيا ليت شعري هل أرى فيك داعياً ... إذا جـأرت لله فيـك الغمـائم
وهل تمحون عني خطايا اقترفتها ... خطـا فيـك لي أو يعمـلات رواسـم
وهل لي من سقيا حجيجك شربة ... ومن زمزم يروي به النفس حائم
وهل لي في أجر الملبين مقسم ... إذا بذلت للنـاس فيـك المقاسـم
وكم زار مغناك المعظم مجرم ... فحطت بـه عنـه الخطايـا العظـائم
ومن أين لا يضحى مرجيك آمناً ... وقـد أمنـت فيـك المهـا والحمـائم
ولئن فاتني عنك الذي أنا رائم ... فـإن هـوى نفسـي عليـك لرائـم
وأن يحمني حامي المقادير مقدماً ... عليـك فـإني بـالفؤاد لقـادم
عليك سلام ا لله ما طاف طائف ... بكعبتـك العليـا ومـا قـام قـائم
إذا نسم لم تهد عني تحية ... إليـك فمهديهـا الريـاح النواسـم
أعوذ بمن أسناك من شر خلقه ... ونفسي فما منهـا سـوى ا لله عـاصم
وأهدي صلاتي والسلام لأحمد ... شـفيع الـورى، بـل للنبيـين خـاتم

* * *

قال بعض الفضلاء من قصيدة طويلة في المفاخرة بين مكة والمدينة:

لمكة مجد باذخ الركن والقنن ... وفضل منيف باسق الدوح والفنن
ومكة فيها كعبة الحسن كله ... وزينها في خدها خالها الحسن
ومكة للمختار مسقط رأسه ... وكان له فيها احتضان لمن حضن
وفي مكة منشأ أبيه وجده ... وأعمامه والأصل والفرع والشجن
وفي مكة وافاه جبريل أولاً ... وكلمه بالوحي في السر والعلن
وفي مكة كانت مبادئ كلامه ... وإنزاله القرآن والخير في قرن
وفي مكة أبدى الهدى نور وجهه ... وكانت بها من قبل بشرى ابن ذي يزن
وفي مكة أسرى به الله ربه ... وطاف به السبع السموات في سنن
وفي مكة فتح مبين تنزلت ... به سورة بانت بفضل لها ابن
وفي مكة كانت ولادة نسله ... وما أنجبت منه خديجة في الحجن
وفي مكة موطئ الخليل وداره ... وزمزمه والحجر والمنزل الأغن

إلى آخرها - نقلاً عن الجامع اللطيف.

* * *

وقال بعضهم:

موضع البيت مهبط الوحي مأوى الر ... سل حيث الأنوار حيث البهاء
حيث فرض الطواف والسعي والحلـ ... ـق ورمي الجمار والإهداء
حبذا حبذا معاهد منها ... لم يغير آياتهن البلاء
حرم آمن وبيت حرام ... ومقام فيه المقام تلاء
فقضينا بها مناسك لا يحمد ... إلا في فعلهن القضاء

وقال بعضهم:

هي البلد الأمين وأنت حل ... فطاها يا أمين فأنت طاها
ووجه حيث كنت كذا إليها ... ولا تعدل إلى شيء سواها
فوجه الله قبلة كل حي ... لمن شهد الحقيقة واجتلاها
وهذا البيت بيت الله فيه ... إذا شاهدت في المعنى سناها
فهلل عند مشهده كفاحاً ... وزمزم عند زمزمه شفاها
وقل بلسان عزمك في رباها ... لنفسي في منى بلغت مناها

إليك شددت يا مولاي رحلي جئت ومهجتي تشكو ظماها
وها أنا جار بيتك يا إلهي وبالأستار ممتسك عراها
وللجيران والضيفان حق على الجار الكريم إذا رعاها

وقال بعضهم:

يا سائقاً عن النياق وزمزما أبشر فقد نلت المقام وزمزما
كم كنت تذكرنا منازل مكة وتقول أن بها المنى والمغنما
برد بماء سقاية العباس ما كابدته طول الطريق من الظما
وانهض وهرول بين زمزم والصفا وادخل إلى الحجر الكريم مسلما
ومقام إبراهيم زره مبادراً وبحجر إسماعيل صل معظما
وانظر عروس البيت تجلى حسنها للناظرين ولذ بها مستعصما
فهي التي ظهرت فضائلها فلا تخفي وهل يخفى سنا قمر السما
لم يلقها الإنسان إلا باكياً فرحاً بها أو ضاحكاً متبسما
والنور من أحشائها لا يختفي أبداً وإن جن الظلام وأعتما
ومن العجائب أنها محروسة والصيد فيها لا يزال محرما
والطير لا تعلو على أركانها إلا ليشفى إذ نجا متألما
تختال في حلل السواد وبابها بالنور منه مبرقعاً وملثما
هي كعبة المولى الكريم وكل من وافى إليها حقه أن يكرما
ما منهمو إلا ذليل خاضع باك على زلاته متندما
يا رب قد وقفت ببابك عصبة يرجون منك تفضلاً وتكرما
ذا طالبا فضلاً وذا متقصداً مما جناه من الذنوب وقدما

ومما جاء في تاريخ الفاسي المسمى "شفاء الغرام" ما يأتي من القصائد وهو :

يسوقهم طرب نحو الحجاز منهم ذووا ارتياح على أكوارها ميل
شعث رؤوسهم بلس شفاههم حوص عيونهم غرث مهازيل
حتى إذا لاح من بيت الإله لهم نور أذاهم على لقبرا أراجيل
يعفرون وجوهاً طال ما سهمت باكين حتى أديم الأرض مبلول
حفوا بكعبة مولاهم فكعبهم عال بها لهم طرف وتقبيل

وبالصفا وقتهم صاف بسعيهم وفي منى لمناهم كان تنويل
تعرفوا عرفات واقفين بها لهم إلى الله تكبير وتهليل

* * *

ومما جاء فيه أيضاً:

أنا ما لي عن مكة براح وبها أشتفي من البرجاء
حبذا الكعبة قد تبدت وهي تزهو في حلة سوداء
فصفا سترها مساء صباح وبياض الثنا صباح مساء
قيل الخال لا أبا لك عشرا يا أخا حيها بغير إبساء
واملأ الحجر باللآلئ من الدمع عن عقيق الدماء
واشربن من شراب زمزم كأساً دب منه السرور في الأعضاء
فهي حقاً طعام طعم لجوع ولها للسقم أي شفاء
فسقى المسجد الحرام غمام ورعى عشنا على البطحاء
كم حطمنا لدى الحطيم ذنوباً كثرت عدها عن الإحصاء
صاح قم طف للإله سبعاً تحظ بالأجر والمنى والولاء
مر بالمروتين وأرق لترقى بجناب مراقي السعداء
وأكحل العين عند مسعاك بالميل ففيه شفاء ذاك العماء
ثم قف خاضعاً على عرفات عل تعطى عوارف الأعطاء
وأمها في منى إلى جمرات جمرات اللظى بها في انطفاء

* * *

ومما جاء فيه أيضاً:

يا جيرتي بين الحجون إلى الصفا شوقي إليكم مجمل ومفصل
أهوى دياركم ولي بربوعها وجد يؤرقني وعهد أول
ويزيدني فيها العذول صبابة فيظل يغريني إذا ما يعذل
ويقول لي لو قد تبدلت الهوى فأقول قد عني الغداة تبدل
با لله قل لي كيف تحسن سلوتي عنها وحسن بصري هل يجمل
هل في البلاد محلة معروفة مثل المعرف أو محل يحلل

أم في الزمان كليلة النفر التي ... فيها من الله العوارف تجزل

أم مثل أيام تقضت في منى ... عمر الزمان بها أعز محجل

في جنب مجتمع الرفاق ومنزع ... الأشواق حياها السحاب المسبل

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

على الأبطح المكي طيب سلامي ... وأزكى تحيات كمسك ختام

وسقيا له من أدمع بهوامع ... تجود بحفظ الود جود كرام

فذاك هو الحي الذي طاير المنى ... له فيه بالاطراب سجع حمام

إذا ذكروا في الحي طيب حديثه ... خلقت على السمار ثوب منام

وإن ظفرت نفسي بلثم ترابه ... لست بذاك اللثم خير لثام

منازل أفراحي وأنسي ولذتي ... وموسم أعيادي ودار هيام

إذا مر من بي نحوها نسمة الصبا ... وجدت لها برداً لحر أوامي

متبعث في الروح حتى أكاد أن ... أطير وقد قص الجناح سقامي

فلله عهد من معاهد أنه ... جديد ولو أبلى الممات عظامي

فهل لي إلى تلك المواطن عودة ... على رغم حسادي وأهل ملامي

وأكحل بالميل الأخيضر ناظري ... بإثمد ركن البيت قبل حمام

وأنشد في عيدي بقرب أحبتي ... إلا أن هذا اليوم فطر صيامي

أديروا أديروا ماء زمزم خالصاً ... فذا خير كأس في ألذ مقام

ونادوا على رأسي بأبواب شاربي ... عبيد ذليل مثقل بآثام

عسى عطفه منكم عليه فإنه ... تعلق من إحسانكم بزمام

ومما جاء فيه أيضاً :

أنكرت سلمى وأياماً بذي سلم ... لوقفة بين تعريف وعرفان

والدار آهلة من كل مغترب ... يعرو إليها بتهليل وقرآن

واسم الحبيب شعار العاشقين ... بهاتيك المشاعر من شيب وشبان

لبيك لبيك توحيداً يؤكده ... توابع الشوق في سر وإعلان

وللإجابة سمع ليس يشغله ... شأن كبير من القول عن شان

وينفرون إلى الزلفى بمزدلف — جمعاً بجمع ووجداناً بوجدان
من لم يقف برسوم الموقفين فما — مشت به قط للأحباب رجلان
وفي منى للمنى ذاك المنال فلا — تبعد بك الدار عن قرب وقربان
وفي الإفاضة فيض الجود من ملك — يلقي المسيء إذا استعفى بإحسان

* * *

ومما جاء فيه أيضاً:

يا طائفين بنا إنا نطوف بكم — باعا بباع ووجداناً بوجدان
مبادرين إليه السعي هرولة — إليه تلقاه بشرى دون أحزان
أما الغريب وإن عز المكان فلا — يتبعد بك الوهم في تقرير إمكان
من فاوض الركن قد فاوضته بيدي — هذا يميني فحيوها بإيمان
من يستجر فإنا بالمستجار له — نعم المجير إذ يلجا لي الجاني
وعند ملتزم منا الملتزم — لو شاء ما شاء منا غير منان
ولي بزمزم سر فيه زمزمة — عنوانها عند أزمات وأزمان
هذي الأماني لا أيام ذي سلم — دار الأماني فما دار بغمدان
كفاني الله تبديلاً بمظهرها — حتى أغيب في لحدي وأكفاني

* * *

مما جاء فيه أيضاً:

فشدوا مطايانا إلى الربع ثانياً — فإن الهوى عن ربعهم ما ثنيناه
ففي ربعهن لله بيت مبارك — إليه قلوب الناس تهوى ونهواه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه — ويسقط عنه إثمه وخطاياه
وكم لذة كم فرحة لطوافه — فلله ما أحلى الطواف وأهناه
نطوف كأنا بالجنان نطوفها — ولا هم لا غم جميعاً نفيناه
فيا شوقنا نحو الطواف وطيبة — فذلك طيب لا يعبر معناه
فمن لم يذقه لم يذق قط لذة — فذقه تذق يا صاح ما نحن ذقناه
ترى رجعة أو عودة لطوافنا — وذاك الحمى قبل المنية نفشاه
فوالله لا ننسى الحمى فقلوبنا — هناك تركناها فيا كيف ننساه

ووالله لا ننسى زمان مسيرنا إليه وكل الركب يلتذ مسراه
وقد نسيت أولادنا ونساؤنا وإخواننا والقلب عنهم شغلناه
تراءت لنا أعلام وصل على اللوى فمن ثم أمسى القلب عنهم لويناه
جعلنا إله العرش نصب عيوننا ومن دونه خلف الظهور نبذناه
وسرنا نشق البيد للبلد الذي بجهد وشق للنفوس بلغناه
رجالاً وركباناً على كل ضامر ومن كل فج مقفر قد أتيناه
نخوض إليه البحر والبر والدجا ولا مقطع إلا إليه قطعناه
ونطوي الفلا من شدة الشوق للقا فنمشي الفلا نحكي السجل طويناه
ولا صدنا عن قصدنا فقد أهلنا ولا هجر جار أو حبيب ألفناه
وأموالنا مبذولة ونفوسنا ولم نبغ شيئاً منهما منعناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

نحج لبيت حجه الرسل قبلنا لتشهد نفعاً في الكتاب وعدناه
دعانا إليه الله عند بنائه فقلنا له لبيك داع أجبناه
وما زال وفد الله يقصد مكة إلى أن بدا البيت العتيق وركناه
فحيث ضيوف الله بالذكر والدعا وكبرت الحجاج حين رأيناه
وقد كادت الأرواح تزهق فرحة لما نحن من عظم السرور وجدناه
وطفنا به سبعاً رملنا ثلاثة وأربعة مشياً كما قد أمرناه
كذلك طاف الهاشمي محمد طواف قدوم مثل ما طاف طفناه
وسالت دموع من غمام جفوننا على ما مضى من إثم ذنب كسبناه
ونحن ضيوف الله حينا لبيته نريد القرى ينفي من الله حسناه
فنادى بنا أهلاً ضيوف تباشروا وقروا عيوناً فالحجيج أضفناه
فأي قرى يعلو قرانا لضيفنا وأي ثواب فوق ما قد أثبناه
فطيبوا وسيروا وافرحوا وتباشروا وتيهوا وهيموا بابها قد فتحناه
ولا ذنب إلا قد غفرناه منكم وما كان من عيب عليكم سترناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

ويوم منى سرنا إلى الجبل الذي ... من البعد قد حيا كما قد عهدناه
فلا حج إلا يكون بأرضه ... وقوف وهذا في الصحاح رويناه
إليه فؤاد المرء يشعر بالهنا ... ولولاه ما كان الحجاز سلكناه
وبتنا بأقطار المحصب من منى ... فيا طيب ليل بالمحصب بتناه
وسرنا إليه طالبين وقوفنا ... عليه ومن كل الوجوه أممناه
على علميه للوقوف جلالة ... فلا زالتا تحمي وتحرس أرجاه
وبينهما حزنا إليه برحمة ... فيا طيبها ليت الزحام رجعناه
ولما رأيناه تعالى عجيجنا ... نلبي وبالتهليل منا ملأناه
وفيه نزلنا بكرة بذنوبنا ... وما هو من ثقل المعاصي حملناه
وبعد زوال الشمس كان وقوفنا ... إلى الليل نبكي والدعا قد أطلناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

على عرفات قد وقفنا بموقف ... به الذنب مغفور وفيه محوناه
وقد أقبل الباري علينا بوجهه ... وقال أبشروا فالعفو فيكم نشرناه
وعنكم ضمنا كل تابعة جرت ... عليكم وأما حقنا قد وهبناه
أقلناكم من كل ما قد جنيتم ... ومن كان ذا عذر إلينا عذرناه
وطوبى لمن ذاك المقام مقامه ... وبشراه في يوم التغابن بشراه
نرى موقفاً فيه الخزائن فتحت ... ووالى علينا الله منه عطاياه
ودارت علينا الكأس بالوصل والرضا ... سقينا شراباً مثله ما سقيناه
فإن شئت تسقى ما سقينا على الحمى ... فخلي التواني واقصد محلاً حللناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

فظل حجيج الله لليل واقفاً ... فقيل انفروا فالكل منكم قبلناه
أفيضوا وأنتم حامدون إلهكم ... إلى مشعر جاء الكتاب بذكره
وسيروا إليه واذكروا الله عنده ... فسرنا ومن بعد العشاء نزلناه

وفيه جمعنا مغرباً لعشائنا ... ترى عابد جمع بجمع جمعناه
وبتنا به والتقطنا جمارنا ... وربا ذكرناه على ما هدانا
ومنه أفضنا حيث ما الناس قبلنا ... أفاضوا وغفران إله طلبناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

ونحو منى ملنا بها كان عيدنا ... ونلنا بها ما القلب كان تمناه
فمن منكم با لله عيد عيدنا ... فعيد منى رب البرية أعلاه
وفيها رمينا للعقاب جمارنا ... ولا جرم إلا مع جمار رميناه
وبالخيف أعطانا الإله أماننا ... وأذهب عنا كل ما نحن خفناه
وردت إلى البيت الحرام وفودنا ... رجعنا لها كالطير حن لمأواه
وطفنا طوافاً للإفاضة حوله ... ولذنا به بعد الجمار وزرناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

ومن بعد ما زرناه دخلناه دخلة ... كأنا دخلنا الخلد حين دخلناه
ونلنا أمان ا لله عند دخوله ... كما أخبر القرآن فيما قرأناه
فيا منزلاً قد كان أبرك منزلاً ... نزلناه في الدنيا وبيت وطئناه
ترى حجة أخرى إليك ورحله ... وذاك على رب العلا نتمناه
أإخواننا ما كان أحلى دخولنا ... إليه ولبثاً في حماه لبثناه
أإخواننا أوحشتمونا هنيئاً لكم ... فيا ليتكم معنا وأنا سكناه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

وبالحجر الميمون لذنا فإنه ... لرب السما في أرضه يمناه
نقبله من حبنا لإلهنا ... فكم لثمة طي الطواف لثمناه
على لثمة للشعث والغبر رحمة ... فكم أشعث كم اغبر قد رحمناه
وذاك لنا يوم القيامة شاهد ... وفيه لنا عهد قديم عهدناه
ونستلم الركن اليماني طاعة ... ونستغفر المولى إذا ما لمسناه

وملتزم فيه التزامنا لذنبنا عهود وعفو الله فيه لزمناه
وكم موقف فيه مجاب لنا الدعا دعونا به والقصد فيه نويناه
وصلى بأركان المقام حجيجنا وفي زمزم ماء طهور وردناه
وبين الصفا والمروة الحاج قد سقى فإن تمام الحج تكميل مسعاه

* * *

ومما جاء فيه أيضاً :

وبينا حجيج الله بالبيت محدق ورحمة رب العرش تدنوا وتغشاه
وتداعت رفاق بالرحيل فما ترى سوى دمع عين بالدماء مزجناه
لفرقة بيت الله والحجر الذي لأجلهما شاق الأمور شققناه
وودعت الحجاج بيت إلهها وكلهم تجري من الحزن عيناه
فلله كم باك وصاحب حسرة يود بأن الله كان توفاه
ولا شهد التوديع يوماً لبيته وإن فراق البيت مر وجدناه
ووالله لولا أن نؤمل عودة لذقنا طعام الموت حين تجعناه
ومن بعد ما طفنا طواف وداعنا رحلنا إلى قبر الحبيب ومغناه

انتهى كل ما تقدم من القصائد من تاريخ الفاسي المسمى "شفاء الغرام".

* * *

ومما جاء في كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام نقلاً عن تاريخ الغازي ما نصه :

ومن اللطائف المستملحة : أن بعض أهل المدينة فضلها على مكة في قصيدة بعثها إلى أميرها يدعوه للإقامة عندهم ، فلما سمعها أهل مكة رد عليه أحدهم بقصيدة في نهاية البلاغة فسمع بها رجل من جدة فجعل نفسه حكماً بينهما و لم يبخس من فضل مكة والمدينة شيئاً كما هو الواجب .

وإليك الحكاية كاملة : جاء في تاريخ الغازي المخطوط المسمى "إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام" أن داود بن عيسى بن موسى بن محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس عم رسول الله ﷺ لما ولي مكة والمدينة في خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد العباسي ولى ابنه سليمان المدينة وأقام داود بمكة فكتب إليه أهل المدينة يسألونه التحول إليهم ويعلمونه أن مقامه بالمدينة أفضل من مقامة بمكة ، وأهدوا إليه في ذلك شعراً وهو :

أداود قـد فـزت بالمكرمـات ... وبـالعدل في بلـد المصطفـى
وصـرت ثمـالاً لأهـل الحجـاز ... وسـرت بسـيرة أهـل التقـى
وأنـت المهـذب مـن هاشـم ... وفي منصـب العـز والمرتجـى
وأنـت الرضـى الـذي نـابهم ... فعدلـك فينـا هـو المنتهـى
وبـالفيء أغنيت أهـل الخصـاص ... وفي كـل حـال فـأنت الرضـا
ومكـة ليسـت بـدار المقـام ... فهـاجر كهجـرة من قـد مضى
مقـامك عشـرون شـهراً بهـا ... كثـير لهـم عنـد أهـل الحجـا
فقـم ببـلاد الرسـول الـتي ... بهـا الله خـص نـبي الهـدى
ولا يلفتنـك عـن قربـه ... مشـير مشـورته بـالهوى
فقـبر النـبي وآثـاره ... أحـق بقربـك مـن ذي طـوى

فلما ورد الكتاب والأبيات على داود بن عيسى أرسل إلى رجال من أهل مكة فقرأ عليهم الكتاب ، فأجابه رجل منهم بقصيدة يرد عليهم ويذكر فيها فضل مكة وما خصها الله تعالى بها من الكرامة والفضيلة ويذكر المشاعر والمناقب فقال :

أداود أنـت الإمـام الرضـي ... وأنـت ابـن عـم نـبي الهـدى
وأنت المهـذب مـن كـل عيـب ... كبـيراً ومـن قبلـه في الصبـا
وأنـت المؤمـل مـن هاشـم ... وأنـت ابـن قـوم كـرام التقـى
وأنـت غيـاث لأهـل الخصـاص ... تسـد خصـاصتهم بـالغنى
أتـاك كتـاب حسـود جحـود ... أسـا في مقالتـه واعتـدى
يخـير يـثرب في شـعره ... علـى حـرم الله حيـث أبتنـا
فـإن كـان يصـدق فيمـا يقـول ... فـلا يسـجدن إلى مـا هنـا
وأي بـلاد تفـوق أمهـا ... ومكـة مكـة أم القـرى
وربـي دحـا الأرض مـن تحتهـا ... ويـثرب لا شـك فيمـا دحـا
وبيـت المهيمـن فينـا مقيـم ... يصلـي إليـه برغـم العـدا
ومسـجدنا بيّـن فضلـه ... علـى غـيره ليـس في ذا مـرا
صـلاة المصلـى تعادلـه ... مئـين الوفـا صـلاة وفـا

كذاك أتى في حديث النبي — وما قال به يقتدى
وأعمالكم كل يوم وفود — إلينا شوارع مثل القطا
فيرفع فيها إلهي الذي — يشاء ويترك ما يشا
ونحن تحج إلينا العباد — فيرمون شعثاً بوتر الحصا
ويأتون من كل فج عميق — على أنيق ضمير كالقنا
ليقضوا مناسكهم عندنا — فمنهم سعاة ومنهم مشا
فكم من ملب بصوت حزين — ترى صوته في الهوى قد علا
وآخر يذكر رب العباد — ويثني عليه بحس الثنا
فكلهموا أشعث أغبر — يؤم المعرف أقصى المدى
فظلوا به يومهم كله — وقوفاً يضجون حتى المسا
حفاة ضحاة قياماً لهم — عجيج ينادون رب السما
رجاء وخوفاً لما قدموا — وكلاً يسأل رفع البلا
يقولون يا ربنا اغفر لنا — بعفوك والصفح عمن أسا
فلما دنا الليل من يومهم — وولى النهار أجدوا البكا
وسار الحجيج له وجبة — فحلوا بجمع بعيد العشا
فباتوا جميعاً فلما بدا — عمود الصباح وولى الدجا
دعوا ساعة ثم شدوا النسوع — على قلص ثم أموا منى
فمن بين ما قد مضى نسكه — وآخر يبدا بسفك الدما
وآخر يهوى إلى مكة — ليسعى ويدعو فيمن دعا
وآخر يرمل حول الطواف — وآخر ماض يؤم الصفا
فآبوا بأفضل مما رجوا — وما طلبوا من جزيل العطا
وحج الملائكة المكرمون — إلى أرضنا قبل فيما مضى
وآدم قد حج من بعدهم — ومن بعده أحمد المصطفى
وحج إلينا خليل الإله — وهجر بالرمي فيمن رمى
فهذا لعمري لنا رفعة — حبانا بهذا شديد القوى
ومنا النبي نبي الهدى — وفينا نبياً ومنا ابتدا

ومنا أبو بكر ابن الكرام ... ومنا أبو حفص المرتجى
وعثمان منا فمن مثله ... إذا عدد الناس أهل الحيا
ومنا علي ومنا الزبير ... وطلحة منا وفينا انتشا
ومنا ابن عباس ذو المكرمات ... نسيب النبي وحلف الندى
ومنا قريش وآباؤها ... فنحن إلى فخرنا المنتهى
ومنا الذين بهم تفخرون ... فلا تفخرون علينا بنا
ففخر أولاء لنا رفعة ... وفينا عن الفخر ما قد كفى
وزمزم والحجر فينا فهل ... لكم مكرمات كما هي لنا
وزمزم طعم وشرب لمن ... أراد طعاماً وفيه الشفا
وزمزم تنفي هموم الصدور ... وزمزم من كل سقم دوا
وكم جاء زمزم من جائع ... إذا ما تضلع منها اكتفى
وليس كزمزم في أرضكم ... كما ليس نحن وأنتم سوا
وفينا سقاية عم الرسول ... ومنها النبي امتلا وارتوى
وفينا المقام فأكرم به ... وفينا المحصب والمنحنى
وفينا الحجون ففاخر به ... وفينا كداء وفينا كدى
وفينا الأباطح والمروتان ... فبخ بخ فمن مثلنا ؟
وفينا المشاعر منشا النبي ... وأجياد والركن والمتكا
وثور وهل عندكم مثل ثور ... وفينا ثبير وفينا حرا
وفيه اختبأ نبي الإله ... ومعه أبو بكر المرتضى
فكم بين أحد إذا جاء فخر ... وبين القبيس فيما نرى
وبلدتنا حرم لم تزل ... محرمة الصيد فيما خلا
ويثرب كانت حلالاً فلا ... تكذب فكم بين هذا وذا
وحرمها بعد ذاك النبي ... فمن أجل ذلك جاذا كذا
ولو قتل الوحش في يثرب ... لما فدى الوحش حتى اللقا
ولو قتلت عندنا نملة ... أخذتم بها أو تؤدوا الفدا
ولولا زيارة قبر النبي ... لكنتم كسائر من قد بدا

فإن قلت قولاً خلاف الذي أقول فقد قلت قول الخطا
فلا تفحش علينا المقال ولا تنطقه بقول الخنا
ولا تفخرن بما لا يكون ولا ما يشنيك عند الملا
ولا تهج بالشعر أرض الحرام وكف لسانك عن ذي طوى
وإلا فجاءك ما لا تريد من الشتم في أرضكم والأذى
فقد يمكن القول في أرضكم بسبب العقيق ووادي قبا

* * *

فأجابهما رجل من بني ناسك كان مقيماً بجدة مرابطاً فحكم بينهما، وبيّن فضل البلدتين الطاهرتين "مكة والمدينة" فقال رحمه الله تعالى:

إني قضيت على الذين تماريا في فضل مكة والمدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحق فافهموا فالحكم حيناً قد يجوز ويعدل
فأنا الفتى العجلي جدة مسكني وخزانة الحرم التي لا تجهل
وبها الجهاد مع الرباط وإنها لبها الوقيعة لا محالة تنزل
من آل حام في أواخر دهرنا وشهيدها بشهيد بدر يعدل
شهداؤنا قد فضلوا بسعادة وبها السرور لمن يموت ويقتل
يا أيها المدني أرضك فضلها فوق البلاد وفضل مكة أفضل
أرض بها البيت المحرم قبلة للعالمين لها المساعدة تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها والصيد في كل البلاد محلل
وبها المشاعر والمناسك كلها وإلى فضيلتها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم مترع والحجر والركن الذي لا يجهل
والمسجد العالي الممجد والصفا والمشعران ومن يطوف ويرمل
هل في البلاد محلة معروفة مثل المعرف أو محل يحلل
أو مثل جمع في المواطن كلها أو مثل خيف منى بأرض منزل
تلكم مواضع لا يرى بحرامها إلا الدعاء ومحرم ومحلل
شرفاً لمن وافى المعرف ضيفه شرفاً له ولأرضه إذ ينزل
وبمكة الحسنات ضوعف أجرها وبها المسيء عن الخطيئة يسئل

يجزي المسيء على الخطيئة مثلها ... وتضاعف الحسنات منه وتقبل
ما ينبغي لك أن تفاخر يا فتى ... أرضاً بها ولد النبي المرسل
بالشعب دون الردم مسقط رأسه ... وبها نشأ صلى عليه المرسل
وبها أقام وجاءه وحي السما ... وسرى به الملك الرفيع المنزل
ونبوة الرحمن فيها أنزلت ... والدين فيها قبل دينك أول
هل بالمدينة هاشمي ساكن ... أو من قريش ناشئ أو مكهل
إلا مكة أرضه وقراره ... لكنهم عنها نأوا وتحولوا
وكذاك هاجر نحوكم لما أتى ... أن المدينة هجرة فتحملوا
فأجرتمو وقربتمو ونصرتمو ... خير البرية حقكم أن تفعلوا
فضل المدينة بيّن ولأهلها ... فضل قديم نوره يتهلل
من لم يقل أن الفضيلة فيكم ... قلنا كذبت وقول ذلك أرذل
لا خير فيمن ليس يعرف فضلكم ... من كان يجهله فلسنا نجهل
في أرضكم قبر النبي وبيته ... والمنبر العالي الرفيع الأطول
وبها قبور السابقين بفضلهم ... عمر وصاحبه الرفيق الأفضل
والعترة الميمونة اللاتي بها ... سبقت فضيلة كل من يتفضل
آل النبي بنو علي إنهم ... أمسوا ضياء للبرية يشمل
يا من تبص إلى المدينة عينه ... فيك الصغار وصعر خدك أسفل
إنا لنهواها ونهوى أهلها ... وودادها حق على من يعقل
قل للمديني الذي يزداد رداً ... ود الأمير ويستحث ويعجل
قد جاءكم داود بعد كتابكم ... قد كان حبلك في أميرك يغتل
فاطلب أميرك واشذره ولا تقم ... في بلدة عظمت فوعظك أفضل
ساق الإله لبطن مكة ديمة ... تروي بها وعلى المدينة تسبل

انتهى من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام.

نقول: لقد أجاد هذا الرجل الذي كان مقيماً بجدة في بيان فضل مكة وفضل المدينة، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء، ونحن ذكرنا هنا فضل مكة ولم نذكر عن فضل المدينة شيئاً، لأن كتابنا هذا خاص عن تاريخ مكة، وإن شاء الله

إذا وضعنا كتاباً عن المدينة المنورة سنتشرف بذكر فضلها ومكانتها ، اللهم وفقنا للخيرات وتقبل منا صالح الاعمال آمين .

ومن ألطف الأقوال في المسجدين الحرامين "بمكة والمدينة" قول السيد محمد بن عبدا لله ، الشهير بكبريت المدني رحمه ا لله تعالى ، قال :

فارقت مكة والأشواق تجذبني ... لها ويممت طه معدن الكرم

فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وقول الشيخ عبدالرحمن العمادي مفتي الحنفية بدمشق رحمه ا لله تعالى :

فارقت طيبة مشتاقاً لطيبتها ... فجئت مكة في وجد وفي ألم

لكن سررت بأني بعد فرقتها ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم

اللهم اقبلنا أينما كنا وتداركنا برحمتك الواسعة ، ولطفك الخفي يا أرحم الراحمين .

تذكر النبي ﷺ وأصحابه مكة بعد الهجرة

ينزع الطير إلى وكره الذي درج منه فلا يزال إن لمّ به الليل ، وأضله الظلام - يلتمس إليه الطريق دوحة بعد دوحة - وغصناً في أثر غصن . وبين ذاك ينوح بإيقاع من الحزن يزكي لهيب الأسى ويثير الشجون .

لقد تجاوز الطير في سبيله ما تجاوز : من رائع الزهر ويانع الورد ، ووارف الورق ، وداني القطوف ، فما باله لم يبتغ بين كل أولئك مقاماً ، أهو واجد في وكره ما يجده فيما حوله من ماء روي ، وهواء غذي ، وطعام شهي ، وحب نثير ، وبساط نضير ، وفراش وثير ، وهل وراء ذلك بغية لنفس .

أجل إنه يطلب الوطن ، وله بين جوانحه معنى لا يراه فيما رآه فهو منبت نفسه ، ومهبط رأسه ، ومدرج طفولته ، ومرتع حداثته ، ومجمع إلقائه ، وملتقى أحبائه ، فكان من الحق ألا يهيم إلا به ، ولا يحن إلا إليه . انتهى .

الوطن ، لشوقي بك

وجانب من الثرى يدعى الوطن ... ملء العيون والقلوب والفطن

مزين للآدمي العاقل ... وكل سهلي وكل عاقل

والأسد الخادر في البوادي   والنمل فيما اتخذت من وادي
ونزعة الناس إلى أوطانها   كنزعة الإبل إلى أعطانها
يحبه الأقوام منذ كانا   ولا يساوون به مكانا
إذا أتاهم أيسر النداء   منه جروا لغاية الفداء
أو ذكر الحنين والحفاظ   لم تجر إلا باسمه الألفاظ
وتكرم الدار على الحر الأبي   كرامة الأم عليه والأب
وليس من عرض ولا حريم   تحميه فوق الوطن الكريم
الجسم من تربته ومائه   والروح روح هب من سمائه
وكل ما حولك من هباته   وما وجدت فهو من نباته
أمانة الأول عند الآخر   خزانة الآثار والمفاخر

انتهى .

فالوطن عزيز على كل أحد ، حتى لو كان قرية صغيرة فما بالك إذا كان الوطن بلدة كبيرة شهيرة.

(يحكى) في قديم الزمان أن رجلاً كان عنده طير وضعه في قفص من ذهب، فكان يطعمه حباً نقياً نظيفاً ويسقيه ماء طهوراً معطراً فاستضاف يوماً أحد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلما رآه الطير صار يغرد تغريداً متواصلاً ، فقال النبي ﷺ لمضيفه: أتدري ما يقول هذا الطير؟ قال: لا ، قال: فإنه يحب أن تطلقه من هذا القفص ليذهب إلى وطنه ، فقد اشتاق إليه كثيراً ، قال: سأطلقه يا نبي الله، ولكني أحب أن ترسل وراءه أحد الطيور ليأتينا بخبره أين يقع وطنه . فأمر النبي الكريم طيراً من الطيور أن ينطلق وراءه ليأتي بخبره ، فذهب وراءه فما زالا يطيران حتى وصلا إلى موطن الطير وإذا به يقع على شجرة يابسة في وسط الصحراء قاحلة وإذا الطير يغرد تغريداً الفرح والسرور ويقول: إن هذه البقعة القاحلة الجرداء أفضل عندي من المحل الذي كنت فيه - هذه الحكاية لا تهمني صحة روايتها بقدر ما يهمنا مغزاها ومعناها ، فرحم الله من حكاها لنا وغفر لنا وله.

قال بعضهم في الوطن:

بلاد ألفناها على كل حالة   وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
وتستحسن الأرض التي لا هواؤها   ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

ورب امرئ ألقى هواه على امرئ فلم ير منه غير ما يورث الحزن

وقال ابن الرومي في الوطن:

ولي وطن آليت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعماً بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فاحنوا لذالكا
وقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

فكم تغنى الشعراء وأشاد الكتاب والأدباء بالوطن ، أي وطن كان ، فما بالك بمن وطنه أشرف الأوطان وبلده أقدس البلاد وأطهرها وهو "أم القرى بلد الله الأمين" فحق لرسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين الكرام أن يشتاقوا لوطنهم العزيز المقدس "مكة" التي فيها بيت الله عز شأنه ، وفيها نزل القرآن وهبط جبريل. وفي اشتياقه ﷺ إلى مكة عند هجرته منها يقول الله عز شأنه في آخر سورة القصص: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾.

قال بعض المفسرين: سبب نزول هذه الآية: أنه ﷺ لما أذن له في الهجرة إلى المدينة وخرج من الغار مع أبي بكر ليلاً في غير الطريق ، فلما نزل بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف طريق مكة اشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل عليه جبريل وقال له: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال عليه السلام: نعم ، فقال جبريل: إن الله تعالى يقول: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ يعني إلى مكة ظاهراً عليهم. وسميت البلد معاداً ؛ لأن شأن الإنسان أن ينصرف من بلده ويعود إليها. انتهى.

وإليك بعض ما ورد عن ذكرياتهم "والذكريات صدى السنين الخوالي" نذكرها مختصراً من تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى ، فقد جاء فيه:

قال ابن أبي الحمراء: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بالحزورة: والله إنك لخير أرض الله إلى الله ولو أني أخرجت منك ما خرجت - "الحزورة كانت قرب باب الوداع ثم دخلت في المسجد".

وعن ابن أبي نجيح قال: قالت عائشة: لولا الهجرة لسكنت مكة ، إني لم أر السماء بمكان قط أقرب إلى الأرض منها بمكة و لم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة ، و لم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة.

وعن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة وعك أبو بكر رضي الله عنه وبلال ، فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بفخ وحولي أذاخر وجليل

هل أردن يوماً مياه مجنة   وهل يبدون لي شامة وطفيل

وقد جاء هذا في صحيح البخاري في كتاب الطب في باب عيادة النساء الرجال.

اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من مكة "والمواقع المذكورة في البيتين هي بقرب مكة".

نقول: أما فخ بخاء معجمة ، فهو واد في مدخل مكة وهو عند الزاهر والشهداء، وأما أذاخر وجليل فقد ذهبنا إلى هذين المحلين في صباح اليوم التاسع من شهر شعبان عام ألف وثلاثمائة وستة وسبعين لمعرفة هذين الموقعين ، فهما واقعان في محلة المعابدة بمكة المشرفة ، متصلان بخريق العشر ، يدخل الإنسان في شعب يطل عليه قلعة صغيرة قديمة البنيان تهدم نصفها المقابل للجبل ، فهذا الشعب يسمى شعب "ذاخر" وهو المذكور في البيتين ، وهو شعب عامر بالعرب من سكان مكة ليس بينهم غريب ، ويقع جبل حراء على يمين شعب ذاخر ، لكنه لا يظهر من بطنه بسبب الجبال.

ولقد ذكر الأزرقي في تاريخه ثنية أذاخر بصحيفة ٢٣٤ من الجزء الثاني ، بقوله: ثنية أذاخر هي الثنية التي تشرف على حائط خرمان ، ومن ثنية أذاخر دخل النبي ﷺ يوم فتح مكة ، وقبر عبدا الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بأصلها مما يلي مكة في قبور آل عبد الله بن خالد بن أسيد ، وذلك أنه مات عندهم في دارهم فدفنوه في قبورهم ليلاً . انتهى كلامه.

فإذا واصل الإنسان السير صوب الشام ، يخرج إلى فسخة أمامه في وسطها تقع بناية جميلة حديثة تسمى "المجزرة الجديدة" بنيت في أول العام المذكور ، لكنها لم تستعمل بعد وليس حولها بنيان ، ثم إذا مشى الإنسان عن يمينه قبل الوصول إلى المجزرة الجديدة صاعداً في أرض صخرية مرتفعة ، فإنه يستقبل شعب "جليل" كما يستقبل أمامه طوداً عظيماً شامخاً هو "جبل حراء".

فجليل واد متسع سهل غير مسكون ، ليس فيه سوى محلين صغيرين وبقعة صغيرة مزروعة ، ويقع شعب جليل بظهر جبل حراء من جهة الشام ، وهو ظاهر أمامه بقبته الطبيعية الفريدة .

والحق يقال أن شعب أذاخر ووادي جليل بقعتان جميلتان مباركتان ، تنبسط فيهما النفس وتنشرح لديهما الصدور ، ولقد ذهبنا إلى كثير من البقاع والشعوب حول مكة فلم نجد مكاناً يضاهيهما في جمالهما الطبيعي وشدة ارتياح الإنسان إليهما ، وانشراح النفس فيهما ، مع أنهما لا زرع فيهما ولا شجر ، إلا ما أودع الله فيهما من جمال طبيعي وروعة وصفاء ، ونعتقد أن غالب أهل مكة ، لم يصلوا إليهما حيث إنهما من الجهات غير المطروقة . ووالله إنه ليحق لبلال رضي الله تعالى عنه أن يتذكرهما ويحن إليهما في غربته .

وعن طلحة بن عمرو قال: قال ابن أم كلثوم وهو آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ وهو يطوف:

حبذا مكة من وادي   بها أرضي وعوادي
بها ترسخ أوتادي   بها أمشي بلا هادي

نقول: هذان البيتان لأبي أحمد بن جحش ، فقد جاء في كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" عند ترجمة أبي أحمد بن جحش الأسدي رضي الله تعالى عنه وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام ، كان أبو أحمد ضريراً يطوف بمكة أعلاها وأسفلها ، بغير قائد ، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وشهد بدراً والمشاهد ، وكان يدور مكة بغير قائد ، وفي ذلك يقول:

حبذا مكة من وادي   بها أهلي وعوادي
بها ترسخ أوتادي   بها أمشي بلا هادي

وأبو أحمد أخو أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنهما . انتهى .

وقال ابن شهاب: قدم أصيل الغفاري قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي ﷺ فدخل على عائشة رضي الله عنها فقالت له: يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟ قال: عهدتها قد أخصب جنابها وابيضت بطحاؤها . قالت : أقم حتى يأتيك النبي ﷺ فلم يلبث أن دخل النبي ﷺ فقال له : يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟ قال: وا لله عهدتها قد أخصب جنابها وابيضت بطحاؤها وأغدق إذخرها ، وأسلت ثمامها ، وأمش سلمها ، فقال : حسبك يا أصيل لا تحزنا . يعني بقوله: أمش سلمها ، يعني نواميه الرخصة التي في أطراف أغصانه .

وكان رجل من جرهم كان بمكة على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فأخرجه من مكة عمرو بن لحي ، فنزل بأضم من أعراض المدينة نحو الشام ، فقال وقد تشوق إلى مكة :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة وأهلي معي بالمأزمين حلول
وهل أرين العيس تنفخ في البر لها بمنى والمأزمين ذميل
منازل كنا أهلها لم تحل بنا زمان بها فيما أراه تحول
مضى أولونا راضين بشأنهم جميعا وغالتني بمكة غول

انتهى ملخصاً من تاريخ الأزرقي.

وفي صحيفة ٥٥ من الجزء الأول من التاريخ المذكور جاء بهامشها عن البيت الثالث مروياً في ياقوت هكذا :

منازل كنا أهلها فأزالنا زمان لنا بالصالحين خذول

وجاء أيضاً في تاريخ الأزرقي عن عبدالرحمن بن هشام أنه قال : خرجت غازياً في خلافة بني مروان فقفلنا من بلاد الروم فأصابنا مطر فآوينا إلى قصر فاستذرينا به من المطر ، فلما أمسينا خرجت جارية مولدة من القصر ، فتذكرت مكة وبكت عليها ، وأنشأت تقول :

من كان ذا شجن بالشام يحبسه فإن في غيره أمسى لي الشجن
وإن ذا القصر حقاً ما به وطني لكن بمكة أمسى الأهل والوطن

إلى آخره . انتهى من الأزرقي باختصار.

وفي الأزرقي ما ملخصه :

لما غلبت خزاعة جرهماً ونفتهم عن مكة ومن ضمنهم مضاض بن عمرو بن الحارث ملك جرهم والمطاع فيهم ، مع أنه كان يعظهم ويحذرهم عاقبة البغي في الحرم ، أرسل إلى خزاعة يستأذنها في دخول مكة والنزول في جوارهم وقد كان اعتزل الحرب التي وقعت بينها وبين جرهم ، فلم تأذن خزاعة له أن يدخل مكة ، فانطلق مضاض بن عمرو نحو اليمن إلى أهله وهم يتذاكرون ما حال بينهم وبين مكة ، وما فارقوا من أمتها وملكها ، فحزنوا على ذلك حزناً شديداً ، فبكوا على مكة ، وجعلوا يقولون الأشعار في مكة ، فمما قاله في ذلك قصيدة أولها :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس و لم يسمر بمكة سامر

إلى أن قال بعد أحد عشر بيتاً :

وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة ... كذلك عضتنا السنون الغوابر

فسحت دموع العين تبكي لبلدة ... بها حرم آمن وفيها المشاعر

بواد أنيس ليس يؤذي حمامه ... ولا منفراً يوماً وفيها العصافر

وفيها وحوش لا ترام أنيسة ... إذا خرجت منها فما أن تغادر

فياليت شعري هل تعمر بعدنا ... جياد فممضى سيله فالظواهر

فبطن منى وحش كأن لم يسر به ... مضاض ومن حبى عدي عماير

ومما قاله أيضاً :

يا أيها الحي سيروا إن قصركم ... أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا

إنا كما كنتموا كنا فغيرنا ... دهر فسوف كما صرنا تصيرونا

حثو المطي وأرخوا من أزمتها ... قبل الممات وقضوا ما تقضونا

قد مال دهر علينا ثم أهلكنا ... بالبغي فيه وبر الناس ناسونا

إن التفكر لا يجدي بصاحبه ... عند البديهة في علم له دونا

قضوا أموركموا بالحزم إن لها ... أمور رشد رشدتم ثم مسنونا

واستخبروا في صنيع الناس قبلكم ... كما استبان طريق عنده الهونا

كنا زمانا ملوك الناس قبلكم ... بمسكن في حرام الله مسكونا

انتهى باختصار من تاريخ الأزرقي .

هذا بعض ما ورد عن التشوق إلى مكة المشرفة من أهلها الذين شطت بهم الدار في العصور السالفة ، ولئن أردنا ذكر كل ما يمت إلى هذا الموضوع لطال بنا

الكلام والمقال . ومن عجيب ما روته مجلة "آخر ساعة" التي تصدر بالقاهرة في العدد الذي صدر في ٢١ نوفمبر عام ١٩٥٦ من الميلاد فقد قالت : وصلت أول طائرة إلى مطار القاهرة قادمة من سويسرا والنمسا فنزل منها مصري من رجال الأعمال اسمه "بسيوني جمعة" قد احتجزته ظروف الحرب في "أثينا" ، ولم يكد الرجل المذكور يهبط في المطار حتى نسي المستقبلين الذين كانوا ينتظرونه ، وانحنى على الأرض ، وأخذ يقبل ذرات التراب التي تكسو أرض مطار مصر ، ورآه راكب آخر اسمه "عدلي عزيز" كان يليه في النزول ، فلم يتمالك نفسه وارتمى على أرض بلاده وأخذ يقبل ترابها . اهـ .

فانظر حب الوطن كيف يفعل بالألباب.

والحق يقال أننا لم نجد أي شخص من مكة سافر إلى الخارج ، إلا وهو يهرول إليها إذا انقضت حاجته ، ولقد كنا أقمنا بمصر بضع سنين لطلب العلم أيام الشباب ، فإذا جاء موسم الحج ، كنا نتشوق إلى مكة أعظم الشوق ، حتى كنا نبكي أحياناً ، وليس في ذلك من غرابة .

وما أحلى كلام أمير الشعراء أحمد شوقي بك ، رحمه الله تعالى في كتابه "دول العرب وعظماء الإسلام" حيث يقول "في الوطن":

وجانب من الثرى يدعى الوطن ... ملء العيون والقلوب والفطن

مزين للآدمي العاقل ... وكل سهلي وكل عاقل

والأسد الخادر في البوادي ... والنمل فيما اتخذت من وادي

ونزعة الناس إلى أوطانها ... كنزعة الإبل من أعطانها

يحبه الأقوام منذ كانا ... ولا يساوون به مكانا

إذا أتاهم أيسر الندا ... منه جروا لغاية الفداء

أو ذكر الحنين والحفاظ ... لم تجر إلا باسمه الألفاظ

كم من دماء سلن حول حوضه ... ومن عروض زلن دون عرضه

وفي سبيله قضى رجال ... من أن يلاقوا تستحي الآجال

وباسمه كم تاجر الفساق ... وانغادت الناس لهم فساقوا

وتكرم الدار على الحر الأبي ... كرامة الأم عليه والأب

وليس من عرض ولا حريم ... تحميه فوق الوطن الكريم

الجسم من تربته ومائه / والروح روح هب من سمائه
وكل ما حولك من هباته / وما وجدت فهو من نباته
أمانة الأول عند الآخر / خزانة الآثار والمفاخر
وحوض ما جف من الشباب / وقصف الدهر من الأحباب
ورسم ما بان من الليالي / وأثر الأيام في الخيال
ومخلق الشباب والمشيب / وملبس البالي على القشيب
وفي ثراه البلقع اليباب / ما شئت من أهل ومن أحباب
وفى له من ليس بالوفى / وهشت من لم يك بالحفى

انتهى.

اللهم إن (مكة) بلدك الحرام، وفيها بيتك المعظم، وهي مهبط أنبيائك وملائكتك، ومستقر أصفيائك وأوليائك، ومركز رحمتك ورضائك، فاجعلها اللهم آمنة مطمئنة رخية، عامرة بعبادتك وخيراتك، وأصلح أهلها ووفقهم لمرضاتك، وأمتنا فيها على الإيمان الكامل، حتى تبعثنا يوم القيامة من الآمنين من كل خوف وفزع، وأدخلنا الجنة بسلام آمنين مع النبين والصدقين والشهداء والصالحين بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

مدخل مكة المشرفة

من المعلوم أن رسول الله ﷺ حينما بعثه الله تعالى بالرسالة إلى الناس كافة، مكث ثلاثة عشر سنة وهو يدعو قريشاً بمكة، يدعوهم بالتبشير والإنذار، بالقوة والقتال، فلما كثر أذى المشركين له، ودبروا أمر قتله، أمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة، فتوجه من ساعته إلى بيت صديقه أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، وأخبره بأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة، فسأله أبو بكر الصحبة، فوصلا إلى المدينة، ونزل ﷺ بقباء في اليوم الثاني من ربيع الأول، وهو يوافق العشرين من شهر سبتمبر سنة (٦٢٢) اثنين وعشرين وستمائة ميلادية كما حققه محمود الفلكي المصري رحمه الله تعالى، فمن هذه الهجرة وضع عمر بن الخطاب، رضي

ا لله تعالى عنه ، بدء التاريخ العربي الهجري ، وقدم ميعاد الهجرة شهرين وأياماً ليكون بدؤها من شهر محرم ليتحد بدء الهجرة وبدء السنة الهلالية.

فابتدأ ﷺ ، يدعو إلى الإسلام جهراً منذ وصوله إلى المدينة ، وقد أذن ا لله تعالى للمهاجرين بقتال المشركين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق كما جاء ذلك صريحاً في سورة الحج : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن ا لله على نصرهم لقدير ۞ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا ا لله﴾ وفي الحديث الشريف : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا ا لله فإذا قالوها عصموا عني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على ا لله" .

فكان ابتداء القتال والجهاد لإعلاء كلمة ا لله تعالى بالمدينة المنورة ، وكان ذلك إما بالسرية ، بكسر الراء المخففة ، وهي قطعة من الجيش ليس فيها رسول ا لله ﷺ ، وإما بالغزو وهي التي فيها النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فمكث ﷺ عشر سنين بالمدينة المنورة ، ثم فارق هذه الدنيا ، ولحق بالرفيق الأعلى ، وذلك ضحوة الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشر من الهجرة ، الموافق لليوم الثامن من شهر يونيو سنة (٦٣٣) ميلادية .

وغزوة فتح مكة المشرفة كانت في السنة الثامنة من الهجرة ، فقد سار النبي ﷺ ، في منتصف رمضان من المدينة بعد أن ولى عليها ابن أم كلثوم ، بجيش عظيم يبلغ عشرة آلاف مجاهد ، فلما وصل عليه الصلاة والسلام إلى مرّ الظهران ، وهو على مرحلة من مكة وتسمى "وادي فاطمة" أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، فقال أبو سفيان وقد جاء مع رجلين يستطلعون الخبر ، وذلك قبل أن يسلم: ما هذه لكأنها نيران عرفة ، فلما أخذهم الحرس وأتوا إلى رسول ا لله ﷺ ، أسلم أبو سفيان .

ثم سار النبي ﷺ يريد مكة ، وأمر أن تركز رايته بالحجون بمكة عند منتهى البيوت وأدناها "أي في موضع مسجد الراية بالجودرية اليوم" . وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بجيشه مكة من أسفلها من طريق كدي بضم الكاف بالتصغير ، ودخل ﷺ مكة من أعلاها من كداء بفتح الكاف وبالمد ، وبعضهم يقول دخلها من ثنية أذاخر وهو راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة العظمى ، حتى لتكاد جبهته تمس الرحل ، وأسامة بن زيد رديفه - وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، حتى وصل إلى الحجون في موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة رضي ا لله عنهما ،

فاستراح قليلاً ، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت ، وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً فجعل عليه السلام يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل وما يبدئ الباطل وما يعيد ، ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزلام فقال عليه السلام : "قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط" . وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأجناس ، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً .

وقد بسطنا الكلام على فتح مكة المشرفة ، إنما أتينا بهذه النبذة كمقدمة لما سيأتي من الكلام لمداخل مكة ، وإليك تفصيل ذلك ، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

جاء في تاريخ الأزرقي عن مجاهد أنه قال : وجد في بعض الزبور "أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين وصفتها يوم صفت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وجعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طرق ، من أعلى الوادي وأسفله وكداء وباركت لأهلها في اللحم والماء" . انتهى من الأزرقي.

وقال القطبي في تاريخه : ومكة شرفها الله تعالى ، تحيط بها جبال لا يسلك إليها الخيل والإبل والأحمال إلا من ثلاث مواضع ، أحدها من جهة المعلاة ، والثانية الشبيكة ، والثالثة من المسفلة ، وأما الجبال المحيطة بها ، فيسلك من بعض شعابها الرجال على أقدامهم ، لا الخيل والجمال والأحمال. انتهى من القطبي.

نقول: إن الله تعالى لما أحاط بلده الأمين "مكة" بالجبال الشامخات ، جعل لها من أصل الخلقة ثلاث طرق عامة يدخل الناس منها بدوابهم وأحمالهم ، ولا زالت هذه الطرق العامة مستعملة مطروقة إلى اليوم ، فيأتي إليها الناس ركباناً ومشاة من طريق الطائف من أعلاها وهي جهة المعلاة ، ويأتون إليها أيضاً من طريق اليمن من أسفلها وهي جهة المسفلة ، ويأتون إليها أيضاً من طريق جدة من جهة الشبيكة .

فهذه ثلاث طرق أصلية لا زالت مستعملة من قديم الأزل إلى اليوم ، ويمكن أيضاً الوصول إلى مكة من جميع جهاتها ، بتسلق الجبال والمشي بين الشعاب الملتوية ، لكن ذلك يستلزم المشقة والتعب الشديد ، وربما ضل السائر طريقه فهلك من العطش والتعب .

والمراد بالمعلاة والمسفلة في اصطلاح العرب القدماء هو كما يأتي:

ذكر الإمام الأزرقي في تاريخه في حد المعلاة ما نصه : قال أبو الوليد : حد المعلاة من شق مكة الأيمن ما حازت دار الأرقم بن أبي الأرقم ، والزقاق الذي على الصفا يصعد منه إلى جبل أبي قبيس مصعداً في الوادي ، فذلك كله من المعلاة ووجه الكعبة والمقام وزمزم وأعلا المسجد ، وحد المعلاة من الشق الأيسر من زقاق البقر الذي عند الطاحونة ، ودار عبد الصمد بن علي اللتان مقابل دار يزيد ابن منصور الحميري خال المهدي يقال لها دار العروس مصعداً إلى قعيقعان ، ودار جعفر بن محمد ودار العجلة وما حاز سيل قعيقعان إلى السويقة وقعيقعان مصعداً ، فذلك كله من المعلاة .

وأما حد المسفلة ، فقد قال الأزرقي في تاريخه أيضاً ما نصه : قال أبو الوليد من الشق الأيمن من الصفا إلى أجيادين فما أسفل منه فذلك كله من المسفلة ، وحد المسفلة من الشق الأيسر من زقاق البقر متحدراً إلى دار عمرو بن العاص ودار ابن عبد الرزاق الجمحي ودار زبيدة ، فذلك كله من المسفلة ، فهذه حدود المعلاة والمسفلة . انتهى من الأزرقي .

نقول: ظهر مما تقدم من كلام الأزرقي ، أن موضع السعي من الصفا وما حاذاه وقابله من جبل قعيقعان إلى جهة الشمال ، يعني الحجون فما فوق ، هو حد المعلاة .

ومن موضع السعي من الصفا من خلف أجياد وما حاذاه وقابله من السوق الصغير والشبيكة فما تحت ، ذلك هو حد المسفلة . هذا بحسب الاصطلاح في الزمن القديم ، قبل أن يكثر الناس بمكة ، وقبل أن تتفرغ الشوارع إلى حارات ومحلات ، فلما تفرعت وكثرت كما في زماننا ومن قبل زماننا سميت بمختلف الأسماء لسرعة الاهتداء إلى الأماكن والمنازل .

ولقد قمنا بجولة استطلاع عن مداخل مكة في أواخر شعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، وبصحبتنا أحد العربان الخبيرين بمداخل مكة المكرمة والدروب الموصلة إليها ، وهو عبيد بن عبدا لله العدواني من أهل المعابدة بمكة . وإليك في هذا الجدول ما حققنا في هذا الموضوع بالتفصيل التام:

جدول مداخل مكة من جهاتها الأربعة

الجهة	عدد المداخل	اسم المداخل
من الجهة الشرقية	مدخلان	درب الشرائع ، وطريق منى .
من الجهة الغربية	أربع مداخل	باب جدة ، وريع أبي لهب ، وريع الكحل ، ودرب الهنداوية .
من الجهة الشمالية	ثلاث مداخل	ريع اللصوص ، وريع أذاخر ، ودرب الخانسة .
من الجهة الجنوبية أي اليمانية	ثلاث مداخل	طريق المفجر ، وريع كدي ، وطريق المسفلة .

انظر: صورة رقم ٢١ ، باب جدة عند مدخل مكة بجرول

هذه المداخل المتعددة المذكورة في هذا الجدول من الجهات الأربعة لمكة ، تبعد عنها بقليل لكنها كلها واقعة في أرض الحرم ، ومعنى الريع بكسر الراء طريق بين جبلين متقاربين ، أما مداخلها الثلاثة التي ذكرها الأزرقي والقطبي وهي : المعلاة والشبيكة والمسفلة ، إنما هي مداخل مكة من داخلها ومن بطنها لا تبعد عنها فافهم ذلك جيداً .

وريع اللصوص المذكور في الجدول هو مدخل مكة من الجهة الشمالية ويوصل إلى وادي أبو عشر ، ويتفرع منه الدروب للوادي والسنوسية والجعرانة ، وسمي بدرب اللصوص ، لأنهم كانوا يأتون من هذا الدرب لعدم وجود الحراسة به من الجنود والعساكر (الطريق الذي دخل منه رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها).

لقد تقدم الكلام على مداخل مكة بالتفصيل التام .

فبقي علينا أن نعرف مدخل رسول الله ﷺ إلى مكة في عام الفتح ، فإنه ﷺ حين وصل بجيشه إلى ذي طوى - أمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة من طريق "كداء" بفتح الكاف وبالهمزة ، وكداء هي الثنية التي بأعلى مكة التي يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالمعلا ، ويقال لها الحجون ، ويركز رايته بأعلى الحجون وقال له : لا تبرح من حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك ، فسار الزبير بالناس ، حتى وقف بالحجون وغرز هناك راية رسول الله ﷺ .

وأمر خالد بن الوليد أن يسير بمن أسلم من قضاعة وبني سليم وغيرهم ، فيدخل مكة من "الليط" من أسفل مكة ، وأن يركز رايته عند منتهى البيوت

وأدناها ، ومعنى دخوله من الليط ، أي من طريق "كدي" بضم الكاف وتشديد الياء وبالتصغير . وهي الموضع الذي يستحب الخروج منه ، وهي الثنية التي بأسفل مكة التي بنى عليها بابها المعروف بباب الشبيكة ، قال الغازي : وفي شرح رسالة ابن زيدون للشيخ جعفر : لبني كدي بالضم والقصر ، اسم للثنية السفلى التي يمر عليها الداخل القادم من جدة . وتسمى اليوم ريع الرسام ، تسمية قديمة لما كان يجلس عندها آخذ الرسوم من واردات مكة . انتهى .

والذي يدلنا أن خالد بن الوليد دخل مكة من هذه الثنية ، هو وجود المسجد الشهير باسمه الذي بحارة الباب إلى اليوم ، فإنه بني في المحل الذي ركز فيه رايته رضي الله تعالى عنه .

أما رسول الله ﷺ ومن معه من الجيش فإنه دخل مكة من ثنية أذاخر ، كما قاله الإمام الأزرقي والفاسي ، وثنية أذاخر معروفة إلى اليوم وهذه الثنية متصلة بخريق العشر وبوادي جليل ، وقد تكلمنا عنهما في مبحث "تذكر النبي ﷺ وأصحابه مكة" .

فشعب أذاخر واقع في آخر محلة المعابدة ، فإذا وصل الإنسان من مكة بالسيارة إلى منتهى خط الإسفلت المستقيم ، فإن أخذ على يمينه ، فإنه يذهب به إلى طريق منى ، وإن أخذ على يساره ، فإنه يذهب به إلى ثنية أذاخر وطريق العشر .

ومن قال إن النبي ﷺ دخل مكة من كداء من الحجون ، وهو الجبل المشرف على مسجد الحرس بأعلى مكة "أي مسجد الجن" ، فربما اشتبه عليه ، لأن من دخل مكة من شعب أذاخر أو من الحجون يقال إنه دخل من أعلى مكة .

ونحن نذهب مع من قال أن النبي ﷺ دخل مكة من ثنية أذاخر لثلاثة أمور :

(الأول) : أن النبي ﷺ ، قسم جيشه البالغ عددهم عشرة آلاف مجاهد بذي طوى بظاهر مكة ثلاثة أقسام ، جعل قسماً يدخل مكة من أسفلها ، وقسماً يدخل من أعلاها من الحجون ، وهو ﷺ ، دخلها بمن معه من ثنية أذاخر ، وهي أعلا مكة أيضاً ، لكنها واقعة بعد الحجون . واعلم أن وادي طوى ليس المقصود منه نفس البقعة التي فيها بئر طوى ، بل إنما هي مكان فسيح ، يشتمل على الزاهر والشهداء ، ولذلك نزل فيه ﷺ بجيشه البالغ عددهم عشرة آلاف مجاهد بأحمالهم وجمالهم .

فإذا وصل الإنسان إلى ذي طوى ، فإنه يدخل مكة من طريق العشر المؤدي إلى شعب أذاخر ، أما إذا كان الإنسان وصل إلى نفس بئر طوى ، فأقرب طريق يدخله إلى مكة هو طريق الحجون ، أو طريق ريع الرسام من جهة حارة الباب .

(الثاني) : لو قلنا أنه ﷺ دخل مكة من الحجون ، فكأنه دخلها وراء الزبير الذي أمره أن يدخل من الحجون ، فصار جيشه مقسماً إلى قسمين فقط ، بينما هو ثلاثة أقسام كل قسم دخل من طريق .

(الثالث) : أن النبي ﷺ، دخل من ثنية أذاخر لأمرين :

أولاً : أن ثنية أذاخر ، هي منتهى مدخل مكة من أعلاها ، فإذا دخل من هنا ، فإنه يدخل من وراء جيشه الذي دخل من الحجون ، ويستقبل جيشه الآتي من جهة المسفلة ، فيحميهم من جيش المشركين إن كمنوا وراءهم ، إن هذه الخطة التي رسمها رسول ا لله ﷺ للاستيلاء على مكة المشرفة من ثلاث جهات ، خطة حكيمة سديدة ، لا تصدر إلا من صاحب الرسالة والنبوة الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، فما أيسر ما استولى عليها ، وذلك فتح من ا لله ونصر قريب .

وثانياً : دخوله ﷺ من ثنية أذاخر لحكمتين معنويتين - أن يستقبل في دخوله مكة نفس الكعبة المشرفة بدون التواء وازورار ، وأن يرى من ثنية أذاخر جبل حراء الذي هبط عليه الوحي وهو فوقه ، والذي كان مكان مبعثه وموضع تعبده ، فيمر في رأسه الشريف جميع الأدوار التي مرت عليه في هذه البقعة المباركة ، وللذكريات عند الإنسان نشوة فرح وساعة صفاء . فما بالك بذكريات النبوة الشريفة ، والحالات المحمدية الطاهرة .

وما جاء في البخاري وغيره عن ابن عمر رضي ا لله عنه أن النبي ﷺ كان يدخل مكة من الثنية العليا ، يعني كداء ، ويخرج من الثنية السفلى يعني كدي- يحمل دخوله مكة في غير يوم الفتح ، لأن الدخول من كداء هو أقرب الطرق من الجهة العليا ، والدخول من ثنية أذاخر الواقعة خلف كداء بالمعابدة ، هو أبعد الطرق ومنتهى طرف مكة ، فدخوله ﷺ ، من ثنية أذاخر يوم فتح مكة للاستيلاء عليها هو للاحتياط في الأمر ، فلا يحتمل وجود العدو وراءه . وا لله تعالى أعلم بالغيب .

هذا وفي غزوة الفتح الأعظم "غزوة فتح مكة" ، حصل للنبي ﷺ ، كثير من المعجزات كنا نتمنى درس هذه الغزوة والتأمل فيها لعدها وحصرها ، ولكن ليس

لنا من الفراغ ما نحقق عن هذه المسألة ، فعسى ا لله أن يقيض من الفضلاء ، من يؤلف كتاباً خاصاً عن هذه الغزوة الفتحية المباركة.

ولا بأس أن نشير إلى ثلاثة من معجزاته ﷺ في هذه الغزوة (إحداها) عدم معرفة قريش بأن النبي ﷺ يريد فتح مكة ، فلو علموا لاستعدوا للحرب ، ورسول ا لله ﷺ لا يريد بها حرباً حتى لا تنتهك حرمة مكة ، ولذلك دعا ربه وهو بالمدينة قبل توجهه إلى مكة قائلاً : "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها" ، وقد استجاب ا لله دعوته ، وهو السميع المجيب ، فنصر عبده الأواه المنيب .

(وثانيهما) : دخوله ﷺ مكة واستيلاؤه عليها بدون حرب ولا قتال ولا تعب ولا مشقة ، ما عدا القتال اليسير الذي كان مع خالد بن الوليد ، رضي ا لله تعالى عنه ، فكان خروجه عليه الصلاة والسلام ، من المدينة لعشر مضين من رمضان ، ودخوله إلى مكة كان لعشرين خلت من رمضان . فإن قلنا أنه ﷺ أخذ في الطريق بين مكة والمدينة مع تمام الراحة بجيشه وإقامته ببعض المحطات تسعة أيام وفي صباح اليوم العاشر كان بذي طوى في طرف مكة ، ثم دخلها في ضحى هذا اليوم من غير معارض له ، فكأنه ﷺ فتح مكة في يوم واحد فقط ، بل في ساعة واحدة وهي ساعة دخوله ، ولا شك أن ذلك نصر من ا لله وفتح عظيم ، ومعجزة كبرى وآية عظمى .

(وثالث المعجزات): قوله ﷺ للزبير بن العوام حينما أمره بذى طوى أن يدخل مكة من كداء ويركز رايته بالحجون : "لا تبرح من حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك" ، ثم دخل رسول ا لله ﷺ مكة من ثنية أذاخر ، ومشى صوب وجهته إلى حيث ركزت رايته وضربت قبته ، وهذا يدل دلالة صريحة أن ا لله تعالى الذي بيده ملك السموات والأرض ، قد أطلع نبيه بكل ما يحصل له في فتح مكة قبل أن يدخلها .

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك سيدنا "محمد" الذي أرسلته رحمة للعالمين ، وعلى آله وذريته وصحابته الطيبين المباركين أجمعين ، كما صليت وسلمت وباركت على نبيك وخليلك إبراهيم وعلى آله وذريته وصحابته أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . ﴿رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ .

سور مكة قديماً

ما كنا نظن أنه كان لمكة سور، قبل أن نطلع على كتب التاريخ، والسبب في تسويرها، هو الاعتداءات المتكررة من الحكام في قديم الزمن على بعضهم البعض، فجعلوا لمكة سوراً في جهاتها ليتحصن من كان في داخلها، ثم لم يزل السور يندثر شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق له أثر الآن مطلقاً، والحمد لله إنه في عصرنا الحاضر، قد انتشر الأمن والأمان بمحض فضل الله تعالى في بلده الأمين، بل وفي جميع أنحاء المملكة العربية انتشاراً تاماً، بحيث لم تبق لنا حاجة للأسوار لأي بلدة، حتى أن حكومتنا السنية هدمت سور جدة منذ سنوات لعدم الإحتياج إليه.

وإليك ما جاء عن سور مكة، فقد روى الغازي في تاريخه ما نصه:

وفي الإعلام. وكانت مكة في قديم الزمان مسورة، فجهة المعلى " قال العلامة الشيخ علي القاري في منسكه: المعلا بفتح الميم واللام ضد المسفلة، واشتهر بين العامة بضم الميم وتشديد اللام المفتوحة، وله وجه في القواعد العربية، اهـ"، كان بها جدار عريض من طرف جبل عبد الله بن عمر إلى الجبل المقابل له، وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد، أهداه ملك الهند إلى صاحب مكة، وقد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه ثقوب للسيل قصير دون القامة، وكان في جهة الشبيكة أيضاً، سور ما بين جبلين متقاربين، بينما الطريق السالك إلى خارج مكة، وكان ذلك السور فيه بابان بعقدين أدركنا أحد العقدين يدخل منه الجمال والأحمال، ثم تهدم شيئاً فشيئاً إلى أن لم يبق منه شيء الآن، ولم يبق منه إلا فج بين جبلين متقاربين فيها المدخل والمخرج. وكان سور في جهة المسفلة في درب اليمن، لم ندركه ولم ندرك آثاره.

وذكر التقي الفاسي نقلاً عمن تقدم: أنه كان لمكة سور من أعلاها، دون السور الذي تقدم ذكره، قريباً من المسجد المعروف بمسجد الراية، وأنه كان من الجبل الذي إلى جهة القرارة، ويقال له: لعلع، إلى الجبل المقابل الذي إلى جهة سوق الليل قال: وفي الجبل آثار تدل على اتصال السور بها، انتهى.

ولم يبق الآن شيء من آثار هذا السور مطلقاً، وأما حدوث هذه الأسوار، فقد قال التقي الفاسي: ما عرفت متى أنشئت هذه الأسوار بمكة، ولا من أنشأها، ولا من عمرها، غير أنه بلغني: أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس

الحسني، جد ساداتنا أشراف مكة أدام الله عزهم وسعادتهم، هو الذي عمرها قال: وظن أن في دولته عمّر السور الذي بأعلا مكة، وفي دولته سهلت العقبة التي بنى عليها سور باب الشبيكة، وذلك من جهة المظفر صاحب إربل في سنة ستمائة وسبعة، ولعله الذي بأعلا مكة. والله أعلم.

ثم قال في كتاب إفادة الأنام المذكور ما نصه: قال في المنتقى: وكان عمل باب السور الذي جهة المعلا، بكتابية من بلاد الهند، في سنة ست وثمانين وسبعمائة، وأهدي للسيد أحمد بن عجلان، وركبه على باب المعلا عنان بن مغامس بن رميثة في سنة تسع وثمانين، لما ولي إمرة مكة بعد قتل محمد بن أحمد بن عجلان، ثم أحرق ذلك الباب بالنار حتى سقط على الأرض، وكذلك هدم عدة مواضع من سور باب المعلا من جانبه. وسبب ذلك، أن عسكر السيد رميثة بن محمد بن عجلان، منعوا عسكر عمه السيد حسن من دخول مكة لما ولي إمرة مكة عوض رميثة في ثامن عشر رمضان هذه السنة، فبعض عسكر السيد حسن هدم عدة مواضع من سور باب المعلا من جانبه، وفي يوم هدم ذلك، أحرق باب المعلا بالنار حتى سقط إلى الأرض، وبأمر السيد حسن كان بناء ما هدم، وبأمره عوض عن الباب المحترق بباب جيد وركب في محله في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة من السنة المذكورة، وهذا الباب كان لبعض دور السيد حسن بمكة، وكان ينقص عن مقدار باب المعلا فزيد فيه ما كمله وأحكمت الزيادة فيه - انتهى من تاريخ الغازي.

وقال الفاسي في أول كتابه "شفاء الغرام" عن سور مكة ما نصه:

مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة، تسع من الخلائق ما لا يحصيهم إلا الله عز وجل، في بطن واد مقدس، والجبال محدقة بها كالسور لها، ولها مع ذلك ثلاثة أسوار: سور في أعلاها ويعرف بسور باب المعلاة، وفيه بابان أحدهما لا باب له ويكون في الغالب مسدوداً، وسوران في أسفلها أحدهما يعرف بسور باب الشبيكة، وفيه باب كبير وخوخة صغيرة لا باب لها، والسور الآخر يعرف بسور باب الماجن، ويعرف أيضاً بسور باب اليمن، لأنه على طريق البر إلى اليمن.

وكان أحسن هذه الأسوار على ما رأينا، سور باب الشبيكة لكماله بالبناء فيما بين الجبلين اللذين بينهما السور المذكور، ولا كذلك سور باب المعلاة،

وسور باب الماجن، والخلل في سور باب الماجن أكثر، ولقصر جدر هذين السورين في مواضع، ولا كذلك سور باب الشبيكة.

وقد عمّر سور باب المعلاة، وسور باب الماجن، حتى كمل بناؤهما من الجبل إلى الجبل، إلا أن في سور باب المعلاة موضعاً متخللاً من البناء، مما يلي البركة المعروفة ببركة الصارم، وارتفع جدر السورين عما كانا عليه، ويذكر أنهما يرفعان أكثر ويعمل لهما شرفات، ويكمل الخلل الذي في سور باب المعلاة، وهذه العمارة في النصف الثاني من سنة ست عشرة وثمانمائة، من جهة الشريف بدر الدين حسن بن عجلان الحسني، نائب السلطنة ببلاد الحجاز، أدام الله له الرفعة والإعزاز، وسبب ذلك، أن ابن أخيه السيد رميثة بن محمد بن عجلان، هجم على مكة ودخلها في طائفة من أصحابه في ضحوة يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخر من السنة المذكورة، ومال إليه جماعة من المولدين كانوا بمكة وخرجوا جميعاً منها، ولم يحدثوا بها كبير حدث، لتخوفهم من وصول السيد حسن بن عجلان إليهم فيستأصلهم لكثرة من معه وقلتهم، وكانت مدة مكثهم بمكة ساعة فلكية أو أزيد، ولما توجه رميثة لمكة لم يكن لعمه علم به، ولما علم بذلك أتى مكة مسرعاً ودخلها من درب المعلاة، ورأى أوائل عسكره أصحاب رميثة خارجين من مكة، فتبعهم السيد حسن في عسكره قليلاً، ثم أعرض عنهم رحمة لهم، وكان بين الفريقين بعد ذلك منازلات وأمور كثيرة.

ثم إن بعض عسكر السيد حسن، هدم عدة مواضع من سور باب المعلاة من جانبيه، منها موضع كبير يلي الجبل الشامي عند البرج الذي هناك، سعته نحو عشرة أذرع، حتى اتصل الهدم بالأرض ومنها موضع نحوه من الجانب الآخر متصل ببركة الصارم، وذلك في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة، ثم أعيد بناء جميع ما تهدم من هذا السور كما كان، في بقية شوال.

وفي أول ذي القعدة من السنة المذكورة، وفي يوم هدم ذلك، أحرق باب المعلاة بالنار حتى سقط إلى الأرض، وكان عمل (بكلكته) من بلاد الهند في سنة ست وثمانين وسبعمائة، وأهدي للسيد أحمد بن عجلان وركبه على باب المعلاة عنان بن مغامس بن رميثة، في سنة تسع وثمانين لما ولي إمرة مكة بعد قتل محمد بن أحمد بن عجلان.

وكان لمكة سور من أعلاها سورها اليوم، قريباً من المسجد المعروف بمسجد الراية، وموضع باب هذا السور على ما ذكر لي غير واحد، فيما بين الدارين المتقابلتين المنسوبتين لمسعود بن أحمد المعروف بالأزرق المكي، التي بإحداهما الآن ذيب مشروعة لا سقف عليها في محاذاة ركني الدارين مما يلي الردم، وإذا كان محل باب السور في محاذاة هذين الركنين فالظاهر، والله أعلم، أن محل بقية السور يحاذي بابه من جانبي الباب، وأنه من الجبل الذي إلى جهة القرارة ويقال له لعلع، ، إلى الجبل المقابل له الذي إلى جهة السوق، أي سوق الليل، لأن التحصين بهذا السور لا يتم إلا بأن يكون هكذا، وفي الجبلين المشار إليهما آثار بناء تدل على اتصال السور بهما، وبعض هذا السور الآن على ما بلغني من بعض البيوت المحاذية له، لأن بعض الناس أراني في بعض الدور المنسوبة (للراكبين) جداراً عريضاً، ذكر أنه من السور الذي كان هناك، ونقل ذلك عن بعض أقاربه، ويقال الآن لموضع باب السور المشار إليه الدرب الدارس، ويقال لهذا السور فيما مضى السور الجديد، لأني وجدت بخط مسند مكة وموثقها، عبدالرحمن بن أبي حرمي الكاتب العطار، ما يقتضي ذلك.

ومن موضع باب السور، المشار إليه بالأرض عند ركني الدارين، المشار إليهما مما يلي الردم، إلى الجدار القبلي من المسجد المعروف بمسجد الراية، مائة ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً وربع ذراع بالذراع الحديد، يكون بذراع اليد الآتي تحريره مائة وأربعين ذراعاً وستة أسباع ذراع. ومن موضع باب السور الذي أشرنا إليه، إلى جدار باب المسجد الحرام، المعروف بباب بني شيبة، تسعمائة ذراع (بتقديم التاء) وعشرون ذراعاً ونصف ذراع بالحديد، ويكون ذلك بذراع اليد ألف ذراع واثنين وخمسين ذراعاً. وما عرفت متى نشأت هذا الأسوار لمكة، ولا من أنشأها ولا من عمرها، غير أنه بلغني أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس الحسني، أحد أجداد السيد حسن المذكور عمرها، والله أعلم بصحة ذلك، وأظن أن في دولته عمر السور الذي كان بأعلى مكة، وفي دولته سهلت العقبة التي بني عليها سور باب الشبيكة وأصلحت، وذلك من جهة المظفر صاحب إربل، في سنة سبع وستمائة، ولعله الذي بنى السور الجديد الذي كان بأعلى مكة، والله أعلم.

ورأيت في بعض التواريخ ما يقتضي أنه كان لمكة سور في زمن المقتدر با لله العباسي ، وما عرفت هل هو هذا السور من أعلى مكة وأسفلها ، أو من إحدى الجهتين ؟ وا لله أعلم .

انتهى من شفاء الغرام .

وكانت ولاية الشريف قتادة المذكور على مكة سنة (٥٩٨) هجرية ، وكانت ولاية المقتدر با لله العباسي المذكور سنة (٢٩٥) هجرية .

تقسيم قصي أمور مكة

لما كبر قصي بن كلاب ، قسم أمور مكة الستة التي هي : السدانة ، والندوة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، والقيادة ، بين ولديه عبد الدار وعبد مناف . (فالأول) هو أكبر أولاد قصي وبكره ، وكان محبوباً لدى أبيه قصي وأمه حُبَّى ، فأعطى عبدالدار السدانة وهي الحجابة ، ودار الندوة ، واللواء . (والثاني) قد بلغ في حياة أبيه من الشرف والسؤدد ما لم يبلغه أحد ، فأعطى عبد مناف السقاية ، والرفادة ، والقيادة أي قيادة الجيش ، وكان لقصي أربعة أولاد : (الأول) عبد الدار وهو أكبرهم ، ومنه سدنة الكعبة ومن ولده عثمان بن طلحة الذي أعطاه النبي ﷺ ولابن أخيه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة مفتاح الكعبة المشرفة . (والثاني) عبد مناف ، ومنه بيت النبوة (والثالث) عبد العزى وهو جد الأسديين الذي منهم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، رضي ا لله تعالى عنها (والرابع) عدي ومنه قريش الظواهر .

ونحن هنا نذكر معنى الأمور الستة التي قسمها قصي بين ولديه عبد الدار وعبد مناف وهي: السدانة ، والندوة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، والقيادة ، ملخصاً من تاريخ الأزرقي فنقول:

(فأما السدانة) وهي حجابة الكعبة المشرفة ، فقد كانت لدى عبد الدار ، ثم جعلها في ابنه عثمان بن عبد الدار .

(وأما الندوة) فقد كانت لدى عبد الدار ، ثم جعلها في ابنه عبد مناف بن عبد الدار ، فلم تزل دار الندوة لدى بني عبد مناف بن عبد الدار ، فكانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف ابن عبد الدار

درعها ، ثم درعها إياه وانقلب بها أهلها فحجبوها . وقد ذكرنا عن دار الندوة شيئاً في فصل خاص.

(وأما اللواء) فكان في أيدي بني عبد الدار كلهم ، يليه منهم ذوو السن والشرف في الجاهلية ، حتى كان يوم أحد فقتل عليه من قتل منهم . نقول : إن حمل راية الجيش عمل جليل عظيم لا يصلح لها إلا الرجل الممتاز في الشجاعة وقوة القلب ، فكسر الراية كسر للجيش ، ونصبها ورفعها دليل على قوته وسلامته ، فمعنوية الجيش والجنود في لوائهم ورايتهم .

(وأما السقاية) فهي حياض من أدم كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل ويسقاه الحاج – وصارت السقاية بعد عبد مناف إلى ابنه هاشم ، ثم إلى ابن هذا عبد المطلب بن هاشم ، الذي حفر زمزم ، وكان لعبد المطلب إبل كثيرة ، فإذا كان موسم الحج ، جمعها وخلط لبنها بالعسل في حوض من أدم "أي من جلد" عند زمزم ، وأيضاً يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج ، فلما توفي عبد المطلب ، قام بالسقاية بعده ابنه العباس ، فلم تزل في يده حتى توفي ، فوليها بعد ابنه عبدا لله بن العباس رضي ا لله تعالى عنهما ، ثم صارت إلى ذريته من بعده .

يقول الغازي رحمه ا لله تعالى في تاريخه ، نقلاً عن كتاب منائح الكرم ما نصه :

ولما أتى خبر وفاة المطلب ، ولي أمر السقاية والرفادة شيبة الحمد عبدالمطلب بن هاشم ، فأقام قومه على ما كانوا عليه ، وكان له إبل كثيرة ، فإذا كان الموسم جمعها وسقى الناس اللبن والعسل ، وكان يشتري الزبيب فينبذه في ماء زمزم بعد أن حفرها ، فيسقي الناس واستمر بيده إلى أن توفي ، فكانت بعده في يد ابنه أبي طالب ، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم ، فصرفها وجاء الموسم ولم يكن معه شيء ، فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف إلى الموسم القابل ، فشرط عليه إذا جاء الموسم ولم يقضه أن يترك له السقاية ، فقبل ذلك وجاء الموسم فلم يقضه ، فترك له السقاية فكانت بيد العباس بن عبدالمطلب ، واستمرت السقاية بيده حتى فتحت مكة ، فولها بعده ابنه عبدا لله بن العباس رضي ا لله عنهما ، حتى توفي ، فكانت في يد ابنه علي بن عبدا لله بن عباس وهي لولده إلى أن انقضت خلافتهم وهم يضعون فيها نوالهم . انتهى من تاريخ الغازي .

روى الأزرقي في تاريخه: أن قصي بن كلاب قال لقريش : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم ، فيدفعونه إلى قصي فيصنعه طعاماً للحاج أيام الموسم بمكة ومنى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه وهي الرفادة حتى قام في الإسلام ، وهو في الإسلام إلى يومك هذا ، وهو الطعام الذي يصنعه السلطان بمكة ومنى للناس حتى ينقضي الحج . اهـ .

وروي فيه أيضاً : أن هاشم بن عبد مناف كان يقول لقريش إذا حضر الحج : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا أضيافه وزوار بيته يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد ، فكانت قريش ترافد على ذلك .

حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير رغبة في ذلك ، فيقبل منهم لما يرجى من منفعته . انتهى من الأزرقي .

وفي تاريخ الأزرقي أيضاً : اشترت رملة بنت عبدا لله بن عبدالملك بن مروان ، وزوجها عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك بن مروان الدار التي عند المروة في صف دار عمر بن عبدالعزيز ، فتصدقت بها ليسكنها الحجاج والمعتمرين ، وكان في دهليز دارها هذه ، شراب من أسوقة محلاة ومحمضة تسقى فيها في الموسم . وكان لهشام بن عبدالملك ، وهو خليفة ، شراب من أسوقة محمضة ومحلاة يسقى في الموسم على المروة في فسطاط ، في موضع الجنبذ الذي يسقى فيه الماء على المروة ، فمنع محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبدالملك بن مروان ، وهو أمير على مكة ، رملة بنت عبدا لله بن عبدالملك أن تسقي على المروة شرابها ، فشكت ذلك إلى عمها هشام بن عبدالملك ، فكتب لها إذا انقضى الحاج أن تسقي في الصدر ، فلم تزل تلك الدار يسقى فيها شراب رملة من وقوف وقفتها عليها بالشام ، ويسكن هذه الدار الحاج والمعتمرون ، حتى اصطفيت حين خرجت الخلافة من بني مروان ، انتهى منه .

(وأما الرفادة) فهي إطعام الناس في كل موسم ، بما يجتمع من ترافد قريش ، فكان هاشم بن عبد مناف يشترى بما يجتمع عنده دقيقاً ، ويأخذ من كل ذبيحة

من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها ، فيجمع ذلك كله ثم يحزر به الدقيق ويطعمه الحاج ، فلم يزل على ذلك من أمره ، حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد ، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقاً وكعكاً ، فقدم به مكة في الموسم فهشم ذلك الكعك ، ونحر الجزور وطبخه ، وجعله ثريداً وأطعم الناس ، وكانوا في مجاعة شديدة حتى أشبعهم ، فسمي بذلك هاشماً وكان اسمه عمرو ، فلما توفي ، كان عبد المطلب يفعل ذلك ، فلما توفي هذا قام بذلك أبو طالب في كل موسم ، حتى جاء الإسلام وهو على ذلك - في مختار الصحاح الكعك خبز وهو فارسي معرب -قلت- قال الأزهر: الكعك الخبز اليابس ، قال الليث : أظنه معرباً . اهـ .

ولقد أرسل النبي ﷺ بمال يعمل به الطعام للناس مع أبي بكر حين حج بالناس سنة تسع ، وعمله أيضاً عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع ، ثم عمله أبو بكر في خلافته ، ثم عمر في خلافته أيضاً ، وكذلك كان الخلفاء يعملونه في موسم الحج بمكة ومنى حتى تنقضي أيامه .

وما أحلى قول القاضي تاج الدين بن أحمد ، من أكابر علماء الحرم المكي ، المتوفى سنة (١٠٦٦) هجرية في إكرام أهل مكة للوافدين لبيت الله الحرام ولو بالقول الحسن :

من كان بالوادي الذي هو غير ذي زرع وعز عليه ما يهديه
فليهدن ألفاظه الدر التي تحلو فواكهها لكل نبيه

(وأما القيادة) فهو قيادة الناس للحرب ، فكان أول من قاد الناس بعد عبد مناف ابنه عبد شمس ، وآخر من قادهم هو أبو سفيان بن حرب بن أمية فقادهم ثلاث مرات ، أو أربعة ، آخرها وقعة يوم الأحزاب ، وكانت آخر وقعة لقريش حيث أظهر الله تعالى الإسلام وجاء فتح مكة .

هذه نبذة قصيرة تامة الفائدة عن سدانة الكعبة ، ودار الندوة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، والقيادة ، نقلناها باختصار عن تاريخ الأزرقي ، فمن أراد زيادة الشرح فعليه بمراجعة كتب التاريخ .

نقول : لنقف هنا لحظة للنظر إلى هذا الفصل بعين الاعتبار والاستبصار ، حتى نرجع بحكمة دقيقة بالغة ، وعظة واضحة نافعة ، وهي :

إن إدارة مكة ، شرفها الله تعالى ، كانت في الجاهلية مقسمة إلى ستة أمور : سدانة البيت ، والندوة ، وعقد اللواء ، والسقاية والرفادة ، والقيادة - ويمكن أن نعبر عن هذه الأمور الستة بحسب اصطلاح عصرنا هذا كما يأتي :

(١) الشؤون الدينية - وتدخل ضمن سدانة البيت الحرام .

(٢) مجلس الشورى ، ومجلس الوزراء - وهما في مقام دار الندوة .

(٣ و ٤) وزارة الدفاع - المعبر عنها بعقد اللواء والقيادة .

(٥ و ٦) دار الضيافة والسبيل العام - المعبر عنها بالرفادة والسقاية .

فأساس المحافظة على البلاد من عدوان الأخصام ، هي هذه الأمور الستة التي ابتدعها ولاة العرب في الجاهلية وساروا بموجبها ، فقوم يخدمون البيت الحرام ، ويساعدون الغريب والقريب بتقديم الشراب والطعام ، ويجعلون أمرهم شورى بينهم يجتمعون في دار الندوة ، ويحكمون أمر قيادة الجيش ، وعقد اللواء بصدق وإخلاص ، لجديرون بالنصر والعز والسؤدد والشرف على كافة الناس، فيا حبذا لو بقيت فينا السقاية والرفادة لإكرام الحاج أيام الموسم إلى يوم القيامة ، نسأل الله أن يوفق المسلمين إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم آمين .

دار الندوة

قال في مختار الصحاح : الندي - على فعيل - مجلس القوم ومتحدثهم ، وكذا الندوة "بالفتح" والنادي والمنتدى - فإن تفرق القوم فليس بندي ، ومنه سميت "دار الندوة" -بفتح النون- التي بناها قصي بمكة ، لأنهم كانوا يندون فيها -أي يجتمعون للمشاورة- وقوله تعالى: ﴿فليدع ناديه﴾ أي عشيرته ، وإنما هم أهل النادي ، والنادي مكانه ومجلسه فسماه به ، كما يقال تقوض المجلس ويراد به أهله الخ ... انتهى من مختار الصحاح .

بناء دار الندوة

كانت القبائل في الجاهلية ، قبل الإسلام بنحو قرنين ، يسكنون في شعاب مكة وما حولها ، لا يبنون بقرب الكعبة المشرفة منازلهم حرمة لها وتعظيماً ، فلما آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب ، الجد الرابع لرسول الله ﷺ ، أمر قومه أن يبنوا

بيوتهم حول الكعبة حتى تهابهم الناس ولا تستحل قتالهم فقسم جهات الكعبة بين قبائل قريش فبنوا حولها ، فكان أول من بدأ بالبناء هو قصي فبنى دار الندوة لتكون للنظر في كافة شؤون القبائل ، فهي بمثابة "دار الشورى" تجتمع فيها قريش للمشورة ولإبرام الأمور ، وسميت بدار الندوة لاجتماع النداة فيها ، أي كرماء القوم وأعيانهم .

ولم يكن يدخلها من قريش إلا ابن أربعين سنة لكن أولاد قصي وهو ملكهم المطاع كانوا يدخلونها كلهم .

جاء في تاريخ الخميس : وعن مصعب بن عبدا لله قال : جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها بعد من معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف درهم ، فقال له عبدا لله بن الزبير : بعت مكرمة قريش ، فقال حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى يا ابن أخي ، إني اشتريت بها داراً في الجنة ، أشهدك أني جعلتها في سبيل ا لله عز وجل . انتهى منه .

وحكيم بن حزام ولدته أمه في الكعبة على النطع ، وكان من سادات قريش ووجوهها في الجاهلية والإسلام .

لكن قال الأزرقي : إن معاوية ابتاع دار الندوة من ابن الرهين العبدري وهو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار فطلب شيبة بن عثمان من معاوية الشفعة فيها فأبى عليه ، فعمرها معاوية وكان ينزل فيها إذا حج الخ... انتهى كلامه .

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : وجعل "أي عبد الدار بن قصي" دار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار ، فلم تزل بنو عبد مناف بن عبد الدار يلون الندوة دون ولد عبد الدار ، فكانت قريش إذا أرادت أن تشاور في أمر فتحها لهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، أو بعض ولده أو ولد أخيه - وكانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها ، ثم درعها إياه وانقلب بها أهلها فحجبوها ، فكان عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار يسمى "محيضا" . وإنما سميت دار الندوة لاجتماع النداة فيها يندونها يجلسون فيها لإبرام أمرهم وتشاورهم - انتهى من الأزرقي .

ولقد اختلفوا في موضع دار الندوة ، لكن ا لله تعالى وفقنا إلى معرفة موقعها في المسجد الحرام ، وإليك تفصيل ذلك في المبحث الآتي .

وقال الأزرقي أيضاً في صحيفة أخرى عن دار الندوة بعد أن بين تقسيم قصي بن كلاب الأمور الستة بين ابنيه "عبد مناف وعبد الدار" فكانت مع عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة، وكانت مع عبد الدار الندوة والحجابة واللواء – بعد ذكر الأزرقي هذا قال ما يأتي :

ثم كانت الندوة بعد إلى هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، ثم إلى ابنيه عمير أبي مصعب ، وعامر ابني هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار – ثم ابتاعها معاوية بن أبي سفيان في خلافته من ابن الرهين العبدري ، وهو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، فطلب شيبة بن عثمان من معاوية الشفعة فيها فأبى عليه ، فعمرها معاوية وكان ينزل فيها إذا حج ، وينزلها من بعده من الخلفاء من بني أمية إذا حجوا ، وقد دخل بعضها في المسجد الحرام في زيادة عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان ، ثم دخل بعضها أيضاً في زيادة أبي جعفر المنصور في المسجد ، ثم كانت خلفاء بني العباس ينزلونها بعد ذلك إذا حجوا ، أبو العباس ، وأبو جعفر ، والمهدي ، وموسى الهادي ، وهارون الرشيد ، إلى أن ابتاع هارون الرشيد دار الإمارة من بني خلف الخزاعيين وبناها ، فكان بعد ذلك ينزلها ، فلم تزل على ذلك حتى خربت وتهدمت .

قال أبو محمد الخزاعي : ورأيتها على أحوال شتى ، كانت مقاصيرها التي للنساء تكرى من الغرباء والمجاورين ، ويكون في مقصورة الرجال دواب عمال مكة ، ثم كانت بعد ينزلها عبيد العمال بمكة من السودان وغيرهم فيعبثون فيها ويؤذون جيرانها ، ثم كانت تلقى فيها القمائم ويتوضأ فيها الحاج ، وصارت ضرراً على المسجد الحرام .

فلما كان في سنة إحدى وثمانين ومائتين استعمل على بريد مكة رجل من أهلها من جيران المسجد الحرام ، له علم ومعرفة وحسبة وفطنة بمصالح المسجد الحرام والبلد ، فكتب في ذلك إلى الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب يذكر أن دار الندوة قد عظم خرابها ، وتهدمت ، وكثر ما يلقى فيها من القمائم حتى صارت ضرراً على المسجد الحرام وجيرانه ، وإذا جاء المطر سال الماء منها حتى يدخل المسجد الحرام من بابها الشارع في بطن المسجد الحرام ، وإنها لو أخرج ما فيها من القمائم وهدمت وعدلت وبنيت مسجداً يوصل بالمسجد الحرام ، أو جعلت رحبة له يصلي الناس فيها ويتسع فيها الحاج ، كانت مكرمة لم يتهيأ لأحد

من الخلفاء بعد المهدي ، وشرفاً وأجراً باقياً مع الأبد . وذكر أن في المسجد خراباً كثيراً ، وأن سقفه يكف إذا جاء المطر ، وأن وادي مكة قد انكبس بالتراب حتى صار السيل إذا جاء يدخل المسجد ، وشرح ذلك للأمير بمكة بجح بن حاج مولى أمير المؤمنين ، والقاضي بها محمد بن أحمد بن عبدا لله المقدمي ، وسألهما أن يكتبا بمثل ذلك ، فرغبا في الأجر وجميل الذكر وكتبا إلى الوزير بمثل ذلك .

فلما وصلت الكتب عرضت على أمير المؤمنين أبي العباس المعتضد با لله ابن أبي أحمد الناصر لدين ا لله بن جعفر المتوكل على ا لله ، ورفع وفد الحجبة إلى بغداد يذكرون أن في جدار بطن الكعبة رخاماً قد اختلف وتشعب ، وفي أرضها رخام قد تكسر ، وأن بعض عمال مكة كان قد قلع ما على عضادتي باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير واستعان به على حرب ، وأمور كانت بمكة بعد العلوي الخارجي الذي كان بها في سنة إحدى وخمسين ومائتين ، فكانوا يسترون العضادتين بالديباج ، وأن بعض العمال بعده قلع مقدار الربع من أسفل ذهب بابي الكعبة وما على الأنف ، واستعان به على فتنة بين الحناطين والجزارين بمكة سنة ثمان وستين ومائتين ، وجعل على ذلك فضة مضروبة مموهة بالذهب على مثال ما كان عليها فإذا تمسح الحاج به في أيام الحج بدت الفضة ، حتى تجدد تمويهها في كل سنة ، وأن رخام الحجر قد رث فهو يحتاج إلى تجديد ، وأن بلاطاً من حجارة حول الكعبة لم يكن تاماً يحتاج أن تتم جوانبها كلها ، وسألوا الأمير بعمل ذلك ، فأمر أمير المؤمنين كاتبه عبيد ا لله بن سليمان بن دهب ، وغلامه بدر المؤمر بالحضرة بعمل ما رفع إليه من عمل الكعبة والمسجد الكبير ، وبعمارة دار الندوة مسجداً يوصل بالمسجد الكبير ، ويعزق الوادي كله والمسعى وما حول المسجد ، وأخرج لذلك مالاً كثيراً ، فأمر بذلك القاضي ببغداد يوسف بن يعقوب ، وحمل المال إليه . فأنفذ بعضه سفاتج "جمع سفتجة ، وهي الحوالة المالية" ، وأنفذ بعضه في أيام الحج مع ابنه أبي بكر عبدا لله بن يوسف ، وكان يقدم في كل سنة على حوائج الخليفة ومصالح الطريق وعمارتها ، فقدم عبدا لله بن يوسف في وقت الحج ، وقدم ومعه رجل يقال له أبو الهياج عميرة بن حيان الأسدي من بني أسد بن خزيمة له أمانة ونية حسنة ، فوكله بالعمل ، وخلف معه عمالاً وأعواناً لذلك .

فعمل ذلك ، وعزق الوادي عزقاً جيداً حتى ظهرت من درج أبواب المسجد الشارعة على الوادي اثنتا عشرة درجة . وإنما كان الظاهر منها خمس درجات ، ثم

أخرج القمائم من دار الندوة وهدمت ، ثم أنشئت من أساسها فجعلت مسجداً بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المذهب المزخرف ، ثم فتح لها في جدار المسجد الكبير اثنا عشر باباً ستة كبار ، سعة كل باب خمسة أذرع ، وارتفاعه في السماء أحد عشر ذراعاً . وجعل بين الستة الأبواب الكبار ستة أبواب صغار سعة كل واحد منها ذراعان ونصف ، وارتفاعه في السماء ثمانية أذرع وثلثا ذراع حتى اختلطت بالمسجد الكبير .

قال أبو الحسن الخزاعي : قد كان هذا الجدار معمولاً على ما ذكره عم أبي أبو محمد الخزاعي إلى أيام الخليفة جعفر المقتدر با لله ، ثم غيره القاضي محمد بن موسى ، وإليه أمر البلد يومئذ ، وجعله بأساطين حجارة مدورة عليها ملابن ساج بطاقات معقودة بالآجر الأبيض والجص وصله بالمسجد الكبير وصولاً أحسن من العمل الأول ، حتى صار من في دار الندوة من مصل أو غيره يستقبل الكعبة فيراها كلها ، عمل ذلك كله في سنة ست وثلاثمائة .

قال أبو محمد : وجعل لها سوى ذلك أبواباً ثلاثة شارعة في الطريق التي حولها ، منها باب بطاقين على اسطوانة بالقرب من باب الطبري ، مقابل دار صاحب البريد ، سعته عشرة أذرع وربع ذراع ، وارتفاعه في السماء أحد عشر ذراعا وثلثا ذراع ، وباب في أعلا هذا الطريق طاق واحد ، سعته خمسة أذرع وارتفاعه في السماء اثنا عشر ذراعاً ، وباب بين دور الخزاعيين ولد نافع بن عبد الحارث ، بطاقين على اسطوانة ، يستقبل من أقبل من السويقة وقعيقعان ، سعته أحد عشر ذراعاً ونصف ، وارتفاعه في السماء عشرة أذرع وربع ذراع ، وسوى جدارها وسقوفها وشرفها بالمسجد الكبير ، وفرغ منها في ثلاث سنين ، فصلى الناس فيها واتسعوا بها ، وجعل لها منارة وخزانة في زاويتي مؤخرها .

فكان ذرع طول هذا المسجد من وجهه من جدار المسجد الكبير إلى مؤخره بالأروقة أربعة وثمانون ذراعاً ، وعرضه بالأروقة ستة وسبعون ذراعاً ، وسعة صحنه تسعة وأربعون ذراعاً في سبعة وأربعين ذراعاً ، وعدد ما فيه من الأساطين سوى ما على الأبواب اثنتان وعشرون ، وعدد الطاقات سوى الأبواب سبع وستون اسطوانة ، وعلى الأبواب اثنتان . وعدد الطاقات سوى الأبواب إحدى وسبعون طاقة ، وعلى الأبواب خمس طاقات ، وعدد الشرف التي تلي بطن

المسجد ثماني وستون شرافة، وعدد السلاسل التي للقناديل سبع وستون سلسلة فيها قناديلها، آخر خبر الندوة. انتهى من تاريخ الأزرقي.

وقد ذكر القطبي عن دار الندوة ما يأتي: بنى قصي دار الندوة من الجانب الشامي، ويقال إنها محل مقام الحنفية الذي يصلي فيه الآن الإمام الحنفي، وقسم باقي الجهات بين قبائل قريش، فبنوا دورهم وشرعوا أبوابها إلى نحو الكعبة المشرفة، وتركوا للطائفين مقدار المطاف، بحيث يقال أنه القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشية المطاف الشريف. ثم أشار القطب إلى بناية قصي هذه فقال: وليست الزيادة هي عين دار الندوة بل محلها في تلك الأماكن، لا على التعيين، من خلف المقام الحنفي الآن إلى آخر هذه الزيادة إلى أن قال: واستمرت تلك الأساطين المنحوتة مشيدة باقية إلى أن أدركناها في عصرنا، ثم بدلت بالأساطين المنحوتة من الرخام الأبيض المرمر ما بينها، لتوثيقها أساطين منحوتة من الشمسي الأصفر، بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر، وجعل عوض السقف الذي يبلى خشبه كل حين قبباً مرفوعة نزهة للناظرين، وذلك في زمن السلطان مراد العثماني سنة (٩٨٤). أما زيادة المعتضد فقد كانت عام (٢٨٤)، وتعمير المقتدر با لله عام (٣٠٦هـ) انتهى.

التحقيق عن موضع دار الندوة

اختلفوا في موضع دار الندوة، فمنهم من قال موضعه هومحل المقام الحنفي ومنهم من قال حوله، فوفقنا ا لله عز شأنه عن التحقيق من موضعها، فكتبنا عن ذلك مقالة بمجلة المنهل الغراء التي تصدر بمكة المكرمة، وذلك في العدد الممتاز لشهري ذي القعدة وذي الحجة سنة (١٣٦٩) هجرية وإليك نص مقالتنا فيها:

لما آل أمر مكة والبيت الحرام إلى قصي بن كلاب -الجد الرابع للنبي ﷺ- بنى دار الندوة بقرب الكعبة المشرفة ليجمع فيها أعيان قريش وفضلاؤها لإبرام الأمور والمشاورة فيما بينهم، وكان لا يدخلها إلا من كان منهم قد بلغ أربعين سنة.

هذه الدار كانت معروفة وعامرة وصارت فيما بعد داراً خاصة لنزول الخلفاء فيها إذا أتوا إلى مكة للحج، إلى أن آلت إلى الدمار والخراب، حتى صارت ترمى فيها القمائم والقاذورات. فإذا جاءت الأمطار والسيول حملت تلك الأوساخ إلى

المسجد الحرام ، فرأى أمير المؤمنين المعتضد با لله العباسي أن ذلـك لا يليـق بكرامـة المسـجد الحـرام ، وأن المسـجد قـد ضـاق بـالمصلين فهـو في حاجـة إلى الاتسـاع والزيادة ، فأمر رحمه ا لله تعالى وأحسن إليه ، أن تهدم دار النـدوة وتنظـف وتلحق بالمسجد للصلاة والعبادة وكان ذلك سنة ٢٨١ للهجرة .

ولقد اختلف الناس في موضع دار الندوة على ثلاثة أقوال فمنهم من يقول :

أن مكانها هو مكان المقام الحنفي ، ومنهم من يقـول : أن مكانهـا لا يعـرف بالضبط ، ولكنها كانت واقعة بين المقام الحنفي ورواق بـاب الزيـادة ، ومنهـم مـن يقول : أن مكانها هو رحبة باب الزيادة بما في ذلك الحصباء والرواق .

ولقد أردنا ترجيح أحد هذه الأقوال منـذ ثـلاث سنوات حينمـا كنـا نشتغل بتأليف كتابا "مقام إبراهيم عليه السلام" ، ولكنـا لم نهتـد إلى دليـل قـوي لـترجيح شيء منها ، غـير أن ا لله سبحانه وتعـالى هدانـا الآن إلى تحقيـق ذلـك بمـا لا يقبـل الشك والريب فله الحمد والشكر فهو مفتاح العليم .

فنقول : إن محل دار الندوة وفنائها هو رحبة باب الزيادة بما في ذلـك الحصبـاء والرواق ونستدل على هذا بأربعة أمور :

"الأمر الأول" : أن عمر بن الخطـاب وعثمـان بـن عفـان وعبـدا لله بـن الزبـير رضي ا لله تعالى عنهم اشترى كل منهم في خلافته الدور المتلاصقة للمسجد الحرام فهدمها وأدخلها في المسجد الحـرام ليتسـع ، فلـو كـانت دار النـدوة في محـل المقـام الحنفي لهدمت وأدخلت في المسجد الحرام في زمن عمر بن الخطاب أو عثمـان بـن عفان ، لقرب مقام الحنفـي مـن الكعبـة ولكـان مـن العبـث والكـذب أن يقـال أن المعتضد با لله أدخل دار الندوة في المسجد الحرام .

"والأمر الثاني" : أن أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي زاد في المسـجد الحـرام سنة ١٦٤ زيادات كثيرة ، وهو الذي أمر أن يجعل المسجد الحرام على هيئة الـتربيع حتى تقع الكعبة المشرفة في وسطه كمـا هـو الآن ، فلـو كـانت دار النـدوة داخـل التربيع لذكرها المؤرخون .

"والأمر الثالث" : أن الذي أدخل دار الندوة في المسجد الحرام هو أمير المؤمنين المعتضد با لله العباسي سنة ٢٨١ وعمارته المعروفة هي رحبة باب الزيادة ، بمـا فيـه الباب القطبي -وهذه الرحبة- هي دار الندوة ، فلم يعمـل المعتضـد شـيئاً في داخـل

المسجد الحرام الذي هو على هيئة التربيع والذي هو من عمل عمارة المهدي، فكيف يقال أن محل دار الندوة هو موضع المقام الحنفي الذي هو داخل المسجد وفي طرف دائرة المطاف؟.

"والأمر الرابع" : لا يخفى أن دار الندوة التي كان يجتمع فيها صناديد قريش للمشاورة فيما يخصهم من مهمات الأمور أصبحت فيما بعد سباطة تطرح فيها الأوساخ والقمائم، فإذا جاءت الأمطار وسالت السيول دخلت هذه الأوساخ والقمائم إلى المسجد الحرام، فكتب قاضي مكة وأميرها أيضاً مكاتبات إلى وزير المعتضد با لله يومئذ بأن دار الندوة قد تهدمت وخربت وصارت تلقى فيها القمائم، حتى صارت ضرراً على المسجد الحرام وجيرانه، وإذا جاءت السيول حملتها إلى المسجد. فلو نظفت وهدمت وجعلت رحبة متصلة بالمسجد الحرام يصلي فيها الناس ويتسع الحجاج بها لكانت مكرمة كبرى ومنقبة عظيمة للخليفة... الخ، فأمر عندئذ أمير المؤمنين المعتضد با لله بإدخال دار الندوة في المسجد الحرام. وانظر تفصيل ذلك في كتب التاريخ.

فلا يعقل أن يكون محل دار الندوة هو مكان مقام الحنفي الملتصق بالمطاف وأن تلقى القمائم هناك عند الكعبة المشرفة بينما موضع المقام الحنفي هو من الزيادات التي أدخلت في المسجد الحرام في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي ا لله عنهما، ثم اتسع المسجد الحرام وصار على هيئة التربيع في زمن محمد المهدي المذكور وانظر خريطة الزيادات بالمسجد الحرام في صحيفة "٩١" من كتابنا (مقام إبراهيم) عليه السلام ليظهر لك الأمر بالمشاهدة، فعلم مما ذكرناه أن محل دار الندوة التي أدخلها المعتضد با لله في المسجد الحرام هو رحبة باب الزيادة بما فيه من الأروقة والحصباء وا لله تعالى أعلم. انتهى.

أول دار بنيت بمكة

لقد أسعدنا الحظ بقراءة الفوائد والطرف التي كتبها ويكتبها سعادة الأستاذ الكبير والكاتب الشاعر القدير، الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي تحت عنوان: (مطالعات وتعليقات) في جريدة حراء في العدد الصادر بتاريخ ١٣٧٦/١١/٣. فكان مما تناوله في العنوان المذكور، الكلام (على أول دار بمكة) ونقل أن ياقوت

قال في معجمه أن (دار العجلة) هي أول دار بمكة ، وقد أحال الأستاذ الجليل تحقيق ذلك إلينا مع أننا نحن نستفيد من تحقيقاته ومعلوماته القيمة .

فنزولاً على رغبته نقدم لقراء "حراء" هذا البحث عن بدء وبناء البيوت بمكة وهو من المباحث التي سيتناولها تاريخنا الذي نعكف الآن على تأليفه بجد وإخلاص . فنسأل الله تعالى أن يديم علينا جميعاً توفيقاته ونعمه فنقول : إن ما نص عليه ياقوت في معجمه بأن دار العجلة هي أول دار بنيت بمكة إنما هو وهم منه فأول دار بنيت بمكة هي "دار الندوة" بلا ريب .

ودار العجلة ذكرها الإمام الأزرقي في تاريخه ، والأزرقي حجة لدى الجميع فهو المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة ومن علمائها الأعلام وشيخ المؤرخين قاطبة وفي المثل (أهل مكة أدرى بشعابها) فقد قال رحمه الله تعالى عن دار العجلة في تاريخه ما يأتي : دار العجلة ابتاعها عبدالله بن الزبير من آل سمير بن موهبة السهميين ، وإنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير حين بناها عجل وبادر في بنائها ، فكانت تبنى بالليل والنهار حتى فرغ منها سريعاً ، وقال بعض المكيين إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اتخذها على البخت والبقر . انتهى كلام الأزرقي .

فدار العجلة ربما كانت موجودة قبل ابن الزبير في عهد أبي بكر أو عمر رضي الله عنهما ولكن لا يمكن أن نحكم أنها أول دار بنيت بمكة مطلقاً .

فمما لا شك فيه أن أول دار بنيت بمكة هي دار الندوة .

فلقد كان بناء دار الندوة لأول مرة في عهد قصي بن كلاب وبأمره بنيت هذه الدار وذلك قبل الإسلام بنحو (١٥٠) سنة وبقيت هذه الدار إلى سنة (٢٨١) هجرية حيث خربت فأدخلها المعتضد العباسي في المسجد الحرام فيكون عمر دار الندوة نحو خمسمائة سنة وطبعاً لا تبقى على بنائها الأول وإنما يحدث فيها من الإصلاحات وتجديد البناء ما يحدث لغيرها ، وكان خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس ينزلون فيها إذا حجوا ، ثم إنها خربت وتهدمت ، وتقلبت بها الأحوال فصارت بعض جهاتها تكرى للغرباء والمجاورين ويكون في بعضها دواب عمال مكة ، ثم كان ينزلها عبيد العمال بمكة من السودان وغيرهم فيعبثون فيها ويؤذون جيرانها ، ثم كانت تلقى فيها القمائم ويتوضأ فيها الحجاج ، فوصل ضرر ذلك إلى المسجد الحرام ، فأمر المعتضد بالله العباسي بإدخال دار الندوة إلى المسجد

الحرام في السنة المذكورة فسبحان المتصرف في الكون والذي بيده مقاليد السموات والأرض .

بدء بناء البيوت بمكة

لم تكن مكة معروفة منذ قديم الزمان ، فأول من اكتشفها خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وذلك حينما أمره الله تعالى أن ينقل ابنه إسماعيل مع أمه هاجر إلى مكة فأتى له بالبراق فركبوا عليه من الشام قاصدين مكة يدلهم عليها وعلى معالم الحرم وموضع البيت جبرائيل عليه السلام ، فقدموا مكة وليس بها أحد من البشر فلا بناء ولا ماء ولا شجر مثمر ، اللهم إلا أشجار العضاة بكسر العين المهملة (بوزن كتاب) وهي أشجار عظيمة ذات شوك وهذه الأشجار لا تزال إلى اليوم موجودة في أراضي الحجاز وهي الأشجار الطبيعية التي تنبت بنفسها وتسمى شجر البادية ، غير أنها كانت في تلك الأيام كثيرة وافرة وضخمة عظيمة لم تمتد إليها يد الإنسان بالقطع والاحتطاب ورفعها من الطرقات ومواضع المساكن أما بعد استيطان البشر بمكة فقد نقصت هذه الأشجار الشوكية بل تكاد أن لا يوجد منها شيء في بطن مكة .

فلما أقام بمكة إسماعيل مع أمه وأظهر الله تعالى لهما ماء زمزم بفضله وكرمه حسبما اقتضته الإرادة الأزلية ، وردت عليهما قبيلة من جرهم فاستأذنوهما في النزول عندهما ثم أرسلوا إلى أهليهم فقدموا إليهم ثم عمرت بهم مكة وبغيرهم من قبائل العرب ، لكن كانوا يسكنون خارج مكة في أوديتها وشعابها تعظيماً لبيت الله الحرام ، فلم يكن في وسط مكة من البيوت مطلقاً إلا البيت الحرام إلى أن كان زمن قصي كما سيأتي .

يقول الأستاذ عبدالوهاب النجار في كتابه (قصص أنبياء) : ولم يبن بمكة شيء بعد البيت إلا في القرن الثاني قبل الإسلام ، في عهد قصي بن كلاب . فإنه بنى دار الندوة وتبعته قريش تبني حول المسجد وكان للمسجد ساحة فبنوا حوله وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الإسلام . انتهى كلامه .

ولقد كانت القبائل من جرهم والعمالقة وخزاعة وقريش وغيرهم يسكنون بشعاب مكة ويقطنون بظاهرها ، ولا يقيمون بها إلا نهاراً ولا يدخلونها على جنابة فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل ويتركون حول الكعبة بدون بنيان احتراماً لها

وتعظيماً لشأنها فلا يجترئ أحد أن يبني بجوارها داراً ولا جداراً - فلما آل الأمر إلى قصي بن كلاب الذي كان قبل الهجرة بنحو مائة وثلاثين سنة ، جمع قومه بطون قريش وأمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربعة ، وقال لهم : إن سكنتم حول الكعبة هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم ، فبدأ هو أولاً ببناء دار الندوة في الجانب الشمالي للكعبة وهو فسحة باب الزيادة ، ثم قسم قصي باقي الجهات بين قبائل قريش فبنوا بيوتهم حولها فكان ذلك أول بدء البنيان حول الكعبة ، فكل من بنى بيتاً من قبائل قريش حول الكعبة سمي (قريش البواطن) وكانوا يبنون بيوتهم مدورة الشكل تعظيماً للكعبة فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير وعندئذ قالت قريش : ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً ، أي تخوفوا عليه من الانتقام الإلهي حيث خالف عادة العرب فبنى بيته مربعاً فأشبه تربيع الكعبة . قال الأزرقي : كانت دار حميد بن زهير اللاصقة في ظهر الكعبة ، كانت تفيء على الكعبة بالعشي وتفيء الكعبة عليها بالبكرا ، ولقد كانوا يجعلون ارتفاع بيوتهم أقل من ارتفاع الكعبة احتراماً لها ، فكان شيبة ابن عثمان لا يرى بيتاً مشرفاً على الكعبة إلا أمر بهدمه .

فعلم مما تقدم أن قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ هو الذي أمر قريشاً أن تبني بيوتها حول الكعبة بمكة ، لا تهاوناً بأمرها وإنما ملاذاً بها حتى تهابهم الناس فلا يستحلون قتالهم ولا يهضمون حقوقهم ، كما أنه هو أول من بنى داراً قبل قريش وهي دار الندوة لتقتدي قريش به في بناء بيوتها ، وانظر إلى حكمة قصي في بدء بناء دار الندوة قبل بناء دار خاصة لنفسه ، فدار الندوة هي عبارة في عرفنا ونطلق عليها في عصرنا هذا "قصر الحكم" أو "دار البرلمان" أو "مجلس الوزراء" أو "دار الإمارة" لأن دار الندوة كانت قريش لا تبرم أمراً إلا فيها ولا يقبل فيها من غير بني قصي إلا من بلغ سن الأربعين ويدخلها بني قصي جميعاً كبيرهم وصغيرهم ، وغير ذلك من الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يكون عضواً فيها.

الابتداء ببناية هذه الدار التي هي في مصلحة كل قبائل قريش قبل بناء بيوتهم بل حتى قبل بناء بيت لحاكم مكة هو عين الصواب والحكمة .

ولم تكن في صدر الإسلام بيوت مكة تكرى ولا تباع . قال الإمام الأزرقي في تاريخه : عن علقمة بن فضلة : كانت الدور والمساكن على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ما تكري ولا تباع ولا تدعى إلا السوايب ،

من احتاج سكن ومن استغني أسكن . قال يحيى : قلت لعمرو ابن سعيد: فإنك تكري ، قال : قد أحل الله الميتة للمضطر إليها ، ورروي عن ابن جريج قال: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، وقال ابن جريج : أخبرني عطاء أن عمر ابن الخطاب كان ينهى أن تبوب أبواب دور مكة . اهـ .

فأول دار بمكة عمل لها بابان هي دار هند بنت سهيل ، وذلك كما رواه الأزرقي في تاريخ مكة أن هند بنت سهيل استأذنت عمر رضي الله عنه أن تجعل على دارها بابين فأبى أن يأذن لها ، وقال : إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحاج والمعتمرين ، وكان الحاج والمعتمرون ينزلون في عرصات دور مكة ، فقالت هند : والله يا أمير المؤمنين ما أريد إلا أن أحفظ على الحاج متاعهم فأغلقها عليهم من السرق ، فأذن لها فبوبتها . انتهى من الأزرقي.

هذا ما كان من ابتداء البنيان وظهور البيوت في مكة المشرفة ، ولا يخفى الفرق الكبير بين تلك البيوت البدائية العربية ، وبين ما فيها الآن من القصور الفخمة والعمارات الضخمة ، والبيوت المكلفة بالآلاف المؤلفة . نسأل الله العزيز أن يوفقنا لشكر نعمائه ليزيدنا من فضله وإحسانه في بلدته الطاهرة المطهرة زادها الله شرفاً وأمناً ورزقاً ورخاءً، وخيراً وعمراناً ، ووفقنا فيها لصالح الأعمال حتى يتوفانا بها على الإيمان الكامل آمين وصلى الله على نبينا أبي القاسم الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دار العباس بن عبد المطلب

دار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ ، كانت بالمسعى بين باب علي وبين باب النبي، وهذه الدار أصبحت رباطاً يسكنه الفقراء من القرن العاشر الهجري .

ثم في عصرنا هذا في أواخر شهر جمادى الثانية سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف هدمت هذه الدار لتوسعة المسجد الحرام والشوارع . وكانت إلى هذه الدار ينتهي حد المسعى عرضاً من جهة باب العباسي ، أحد أبواب المسجد الحرام المقابل لهذه الدار ، وهذا الباب كان واقعاً بين باب النبي وباب علي ، وكان في هذه الدار من جهة المسعى أحد العلمين الأخضرين اللذان وضعا علامة لانتهاء الهرولة في السعي لمن جاء من الصفا ، فهدم هذا العلم تبعاً لهدم الدار وإن شاء الله

تعالى سيوضع علمان آخران في موضعهما تماماً للغرض المذكور ، ولقد بني أمام هذه الدار مظلة المسعى ، وهي مبنية بالإسمنت والحديد ليستظل تحتها الساعي فلا يتأذي من الشمس .

قال الأزرقي في تاريخه عند ذكر رباع قريش وحلفائها قالوا : وكان عبدالمطلب قد قسم حقه بين ولده ودفع إليهم ذلك في حياته حين ذهب بصره ، فمن ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبدالله بن عبدالمطلب ، وللعباس بن عبدالمطلب الدار التي بين الصفا والمروة التي بيد ولد موسى بن عيسى التي إلى جنب الدار التي بيد جعفر بن سليمان . ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها العلم الذي يسعى منه من جاء من المروة إلى الصفا بأصلها ويزعمون أنها كانت لهاشم بن عبد مناف ، وفي دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما إساف ونائلة صنمان كانا يعبدان في الجاهلية هما في ركن الدار . انتهى كلام الأزرقي.

دار أبي سفيان بمكة

دار أبي سفيان بن حرب بمكة رضي الله تعالى عنه واقعة على يمين الصاعد من المسجد الحرام إلى المدعا محاذية للمروة ، فتكون عند أول شارع المدعا الخارج من المسجد الحرام، وهذه الدار هي التي عناها رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حينما نادى مناديه : "من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن" . وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان من السنة الثامنة للهجرة . قال الأزرقي في تاريخه بصحيفة (١٩٣) من الجزء الثاني ما ملخصه : أنه كان يباع في الرحبة التي بين الدارين دار أبي سفيان ودار حنظلة بن أبي سفيان الحنطة والحبوب والسمن والعسل التي تحملها العير إذا قدمت مكة من السراة والطائف وغير ذلك ، فهذه الرحبة هي أشرف ربع مكة اهـ .

جاء في تاريخ الأزرقي ما نصه : لآل حرب بن أمية بن عبد شمس دار أبي سفيان بن حرب التي بين الدارين ، يقال لها دار ريطة ابنة أبي العباس . وهي الدار التي قال النبي ﷺ يوم الفتح : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي حدثنا عبدالرحمن بن حسن بن القاسم عن أبيه ، عن علقمة بن نضلة قال : أصعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعلاة

في بعض حاجته ، فمر بأبي سفيان بن حرب يهيء جملاً له ، فنظر إلى أحجار قد بناها أبو سفيان شبه الدكان في وجه داره ، يجلس عليه في الغداة . فقال له عمر : يا أبا سفيان ، ما هذا البناء الذي أحدثته في طريق الحاج ؟ فقال أبو سفيان: دكان نجلس عليه في فيء الغداة . فقال له عمر : لا أرجع في وجهي هذا حتى تقلعه وترفعه ، فبلغ عمر حاجته ، فجاء والدكان على حاله فقال له عمر : ألم أقل لك لا أرجع حتى تقلعه ؟ قال أبو سفيان: انتظرت يا أمير المؤمنين أن يأتينا بعض أهل مهنتنا فيقلعه ويرفعه . فقال عمر رضي الله عنه: عزمت عليك لتقلعنه بيدك ، ولتنقلنه على عنقك ، فلم يراجعه أبو سفيان حتى قلعه بيده ونقل الحجارة على عنقه وجعل يطرحها في الدار .

فخرجت إليه هند ابنة عقبة فقالت : يا عمر ، أمثل أبي سفيان تكلفه هذا وتعجله عن أن يأتيه بعض أهل مهنته .

فطعن بمخصرة كانت في يده في خمارها، فقالت هند ونفحتها بيدها : إليك عني يا ابن الخطاب ، فلو في غير هذا اليوم تفعل هذا لأضطمت عليك الأخاشب .

قال : فلما قلع أبو سفيان الحجارة ونقلها استقبل عمر القبلة وقال : الحمد لله الذي أعز الإسلام وأهله ، عمر بن الخطاب رجل من بني عدي يأمر أبا سفيان بن حرب سيد بني عبد مناف بمكة فيطيعه .

ثم ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . انتهى من الأزرقي .

ومعنى الدكان هنا كما في المنجد : شيء كالمصطبة يقعد عليه والكلمة فارسية اهـ. ومعنى المخصرة بكسر الميم هنا كما في المنجد : ما يأخذه الملك بيده ليشير به إذا خاطب . اهـ .

نقول: إن دار أبي سفيان المذكورة تعرف اليوم في زماننا بمستشفى القبان ، وهي في محلها المذكور أي في أول المدعا ، والقبان بفتح القاف وتشديد الباء . قال عنها المنجد : "آلة توزن بها الأشياء والكلمة من الدخيل" وسبب نسبة المستشفى إلى القبان هو أنه كان في الدار المذكورة توزن أكياس الحبوب وصفائح السمن والعسل ونحوها ، بميزان طويل يثبت فيه ما يراد وزنه ثم يحمله شخصان لمعرفة مقدار الوزن في مقابل أجر معين .

اتخاذ دار أبي سفيان مستشفى

يطلق على دار أبي سفيان رضي الله عنه "القَبَّان" بفتح القاف وتشديد البـاء، وهي واقعة جهة المسعى بأول المدعى.

قال الغازي في الجزء الثالث في تاريخه عند ذكر ترجمة وتولية الحاج محمد حسيب باشا مكة ما نصه: ثم تولى بعد الحاج محمد شريف باشا المشير الحاج محمد حسيب باشا سنة (١٢٦٤) وقدم مكة فأحسن إلى جيران بيت الله تعالى وصرف لهم مرتباتهم، وأخذ في مباشرة تعمير المآثر المباركة، وزاد في ماهيات بعض خدمة الحرم الشريف، ثم عمّر المحل المعروف الآن "بالقبان"، وجدد بنائه وجعله خلاوي لفقراء الحرم ورتب لهم عيشاً وشوربة، وفي زماننا اتخذت "أي دار أبي سفيان المسمى بالقبان" (خستخانة) وهذه كلمة تركية معناها مستشفى، لمرضى فقراء الأهالي والمنقطعين، وهي دار أبي سفيان الذي قال فيها رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن".

ثم ذكر الغازي بقية ما عمله الحاج محمد حسيب باشا بمكة، ونحن اكتفينا بما ذكرناه عن أول اتخاذ القبان مستشفى للمرض. انتهى من الغازي.

انظر: صورة رقم ٢٢، عقد باب مستشفى القبان بآخر المدعى

ثم إنه اعتنيت بهذه المستشفى أكثر مما تقدم، فإنه لما كانت سنة (١٢٨٢) اثنتين وثمانين ومائتين وألف أمرت "بزم عالم" والدة السلطان عبدالمجيد خان من سلاطين آل عثمان بجعل هذه الدار مستشفى للمرضى فكان فيها بعض الأطباء مع ما يلزم من الأدوية، فبطل وزن الحبوب والأشياء فيها، فنقل القبان إلى الدكاكين المجاورة للدار بالمدعا وما زال ذلك إلى اليوم. ولهذا نسب المستشفى إلى القبان فقيل لها "مستشفى القبان".

فلما تعددت المستشفيات بالبلدة الطاهرة نقل المرضى من هذه الدار إلى بعض المستشفيات الأخرى، وجعل مستشفى القبان مستودعاً للأدوية الصحية والأدوات الطبية العائدة لوزارة الصحة وذلك ابتداء من سنة (١٣٦٤) أربع وستين وثلاثمائة وألف، فصارت تعرف الآن "بمستودع وزارة الصحة".

والظاهر من كلام الأزرقي الآتي أن جهة دار أبي سفيان هذه "أي مستشفى القبان" كانت من قديم الزمان فيها دار للمرضى أيضاً، فإنه يقول في تاريخه

بصحيفة ١٩٢ من الجزء الثاني : ودار الحدادين التي بسوق الليل مقابل سوق الفاكهة، وسوق الرطب في الزقاق الذي بين دار حويطب ودار ابن أخي سفيان بن عيينة التي بناها ، ودار الحدادين هذه كانت فيما مضى يقال لها دار مال الله كان يكون فيها المرضى وطعام مال الله . انتهى كلامه - فهو يقول : دار الحدادين يقال لها دار مال الله وهي واقعة بسوق الليل وفي هذه الدار يكون المرضى في ذلك الزمن - نقول وسوق الليل واقع وراء المدعا ، ويبتدئ سوق الليل من وراء مستشفى القبان كما يبتدئ المدعا من هذه المستشفى .

ودار أبي سفيان المذكورة لا تبقى بعد مرور أربعة عشر قرناً عليها على ما كانت عليه في زمنه ، فلا بد أن يحصل عليها خراب فعمار مراراً عديدة ، لكن لا يزال نفس المحل والموضع معروف ومحتفظ به إلى اليوم وفيه محراب ظاهر ، وخلف هذا الموضع بالضبط يقع موضع ميلاد فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ ومنزل أم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها.

وقد دخلنا هذه الدار في اليوم الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ألف وثلاثمائة وست وسبعين هجرية لأخذ بعض الصور الفوتوغرافية لها ، ووجدنا فيها لوحة طولها نحو متر واحد وعرضها نحو نصف متر كتب فيها بخط الثلث "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" كتبها محمد عارف مصطفى شكري سنة (١٣١٢) وإليك صورة هذه اللوحة .

انظر: صورة رقم ٢٣ ، لوحة مكتوب فيها : من دخل دار أبي سفيان كان آمنا

كما وجدنا في الدار المذكورة بئراً قديمة جداً وهي بعيدة الغور غزيرة الماء وفي طعم مائها نوع ملوحة ، يقال أنه وقع فيها شخص فمات منذ خمسة عشر سنة فنزل إليها بعض الغواصين من مكة فلم يقدر أن ينتشل جثة الرجل الذي وقع فيها فأتوا بغواص من جدة من رجال البحر فنزل فيها فأخرج الجثة - فحبذا لو انتفع الناس من مثل هذه الآبار في مصالح أخرى غير الشرب .

وليس جميع حدود مستشفى القبان ، وبعبارة أخرى "مستودع وزارة الصحة" هو حدود نفس دار أبي سفيان في زمنه ، بل إن داره القديم جزء صغير بالنسبة إلى عمارة المستودع اليوم بأضعاف ما كانت عليه في زمنه رضي الله تعالى عنه .

وفي عامنا هذا (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانين هجرية بدأت الحكومة السعودية في هدم مستشفى القبان الذى محله في الأصل هو محل دار أبي سفيان رضي الله تعالى عنه، تريد الحكومة أن تهدمه ثم تبنيه وتجعله دار للكتب للنفع العام، ونحن الآن لا نتمكن من الكتابة عنه شيء، لأنه في حالة هدم وهدد، لم تهيأ بعد لأمر من الأمور، فنكتفي هنا بالتنبيه على ذلك للعلم به، نسأل الله تعالى أن توفق ولاة الأمور لصالح العباد والبلاد آمين.

انظر: صورة رقم ٢٤، كتابة على باب دار الأرقم بالصفا

دار الأرقم

دار الأرقم وتسمى بدار الخيزران كانت بالصفا عند مبدأ السعي، على يسار الصاعد إليه من الشرق، والمسافة بين جبل الصفا، أي من موضع ابتداء السعي، وبين هذه الدار ستة وثلاثون متراً باستقامة خط المشي، أو ثمانية وأربعون متراً، إذا انعطف ناحية الحارة التي كانت بها الدار قبل هدمها في التوسعة السعودية، ولقد هدمت هذه الدار في اليوم الثامن والعشرين من شوال سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف، لإدخالها في توسعة المسجد الحرام التي حصلت في السنة المذكورة، في عهد جلالة الملك المعظم، سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن، وفقه الله تعالى لكل خير.

ومن الغريب أن يظن العلامة ابن كثير، صاحب التفسير الشهير، بأن هذه الدار دخلت في توسعة المسجد الحرام، فقد قال في تاريخه المسمى "بالبداية والنهاية" بصحيفة ١٦٤ في الجزء العاشر، عند الكلام على دخول سنة ثلاث وسبعين ومائة ما نصه: "وقد اشترت الخيزران الدار المشهورة بمكة المعروفة بدار الخيزران فزادتها في المسجد الحرام" انتهى كلامه.

فهذا الظن في غير محله، وقد وهم ابن كثير رحمه الله تعالى، وليس في ذلك من بأس، فإن الإنسان معرض للخطأ والنسيان، وليس هذا أمر يتعلق به حكم شرعي، وإننا نستدل على أن هذه الدار، لم تدخل في المسجد الحرام في عهد محمد المهدي العباسي بجملة أمور:

(١) أن جميع المؤرخين ذكروا أن دار الأرقم كانت بالصفا.

(٢) روى الحاكم في المستدرك في الجزء الثالث بصحيفة (٥٠٢) قال: أسلم الأرقم سابع سبعة، وكانت داره على الصفا، وهي الدار التي كان النبي ﷺ، يكون فيها في الإسلام، وفيها دعا الناس إلى الإسلام، فأسلم فيها قوم كثير ودعيت دار الإسلام، وتصدق بها الأرقم على ولده وكتب نسخة الصدقة: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى به الأرقم في ربعه ما حاز الصفا أنها صدقة بمكانها من الحرم لا تباع ولا تورث... إلى آخر ما جاء في المستدرك.

(٣) لو دخلت دار الأرقم في المسجد الحرام في توسعة المهدي، أو في توسعة من قبله، لذكر المؤرخون ذلك لأنها أهم أثر إسلامي، فإذا كان المؤرخون ذكروا أشهر الدور التي دخلت المسجد الحرام في الزيادات التي حصلت، فدار الأرقم التي كانت تدعى "بدار الإسلام" لو دخلت فيه لكانت أولى بالذكر والبيان.

(٤) تواتر الأخبار وإجماع الأمة، من العلماء والمؤرخين والملوك والأمراء، حتى العوام من قديم الزمان إلى اليوم، أن محل دار الأرقم هو موضعها الآن لم يتغير مطلقاً.

(٥) دار الأرقم تسمى أيضاً "دار الخيزران" نسبة إلى خيزران جارية المهدي أم الرشيد، فهي التي اشترتها حينما حجت سنة (١٧١) أحد وسبعين ومائة، وبنت المسجد الذي في هذه الدار، فلو دخلت دار الأرقم في المسجد الحرام في زيادة وتوسعة زوجها المهدي التي حصلت سنة (١٦٤)، أو في زيادة من تقدمه، فهل كان ذلك خافياً عليها، وعلى أهل زمانها، وهم قريبون من صدر الإسلام؟ كلا ثم كلا.

(٦) لا يخفى أن ما بين الصفا والمسعى في صدر الإسلام، كان مسيلاً ووادياً نازلاً، قال جابر بن عبدالله وهو يحدث عن حجة النبي ﷺ: "ثم نزل عن الصفا حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا أصعد من الشق الآخر مشى". إذاً كان الصفا منعزلاً عن جهة المسجد الحرام بسبب المسيل المعترض، فإذا قالوا أن دار الأرقم كانت بالصفا، فهم يعنون جبل الصفا نفسه. فعلم مما ذكرناه، أن محل دار الأرقم هو موضعه اليوم الذي عند الصفا بينهما نحو ثلاثين ذراعاً، فلا صحة لقول القائل أنها دخلت في التوسعات السابقة قبل أكثر من ألف ومائتي سنة، فهذا القول وهم وتخيل لا حقيقة له.

ثم رأينا رد الفاسي في كتابه "شفاء المرام" بصحيفة ٢٢٦ من الجزء الأول، على ابن كثير رحمهما الله تعالى في هذه المسألة فقال: اعلم أنه لم يزد في المسجد الحرام بعد الأزرقي إلا الزيادتين، المعروفة أحدهما بزيادة دار الندوة بالجانب الشمالي، والثانية الزيادة المعروفة بزيادة باب إبراهيم بالجانب الغربي، ولم يزد فيه بعد المهدي غير هاتين الزيادتين.

فأما قول الحافظ عماد الدين بن كثير، في تاريخه في أخبار سنة إحدى وسبعين ومائة، أن الخيزران أم المؤمنين خرجت إلى مكة، فأقامت بها حتى شهدت الحج، وقد اشترت الدار المشهورة لها بمكة المشرفة المعروفة بدار الخيزران، فزادتها في المسجد الحرام، فهو غير مستقيم، لأن الدار المشهورة "بالخيزران" بمكة إنما هي عند جبل الصفا، وبينها وبين المسجد الحرام، طريق مسلوك يزيد على مائة ذراع، على مقتضى ما ذكره الأزرقي في مقدار ما بين باب المسجد المعروف بباب الصفا، والصفا الذي هو مبدأ السعي وهو قرب هذه الدار، فدخولها في المسجد الحرام غير ممكن، وأيضاً قال أنه لو وقع منها ذلك لاشتهر، كما اشتهر توسعة غيرها في المسجد الحرام، ولذكره الأزرقي في تاريخه، كما ذكر ما وقع من غيرها من هذا الأمر والله أعلم. انتهى من شفاء الغرام.

قال الإمام الأزرقي في تاريخه ما نصه: وربع آل الأرقم بن أبي الأرقم، واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أبي جندب أسد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، الدار التي عند الصفا يقال لها دار الخيزران، وفيها مسجد يصلى فيه، كان ذلك المسجد بيتاً كان يكون فيه النبي ﷺ، يتوارى فيه من المشركين، ويجتمع هو وأصحابه فيه عند الأرقم بن أبي الأرقم، ويقرأوهم القرآن ويعلمهم فيه، وفيه أسلم عمر بن الخطاب. اهـ.

وقال ابن فهد في حوادث سنة (١٧١) إحدى وسبعين ومائة: فيها قدمت الخيزران أم الرشيد إلى مكة قبل الحج، فأقامت بها حتى شهدت الحج، واشترت الدار المعروفة بمكة المشرفة بدار الخيزران عند الصفا. انتهى.

وفي البحر العميق، قال سعد الدين الإسفرائيني: والمسجد الذي في هذه الدار بنته جارية المهدي. قال الفاسي: وطول هذا المسجد ثمانية أذرع إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث، الجميع بذراع الحديد. اهـ.

ويقول ابن جبير الأندلسي في رحلته : أنه دخل دار الخيزران سنة (٥٧٨) وهي بإزاء الصفا ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال رضي الله عنه ... الخ . انتهى منه .

وجاء في كتاب الإعلام : المختبأ هو أفضل المواضع بمكة بعد دار أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، لكثرة مكث النبي ﷺ فيه ، يدعو الناس للإسلام مستخفياً عن أشرار قريش الكفار ، وهو الموضع الذي كان ﷺ ، يختبئ فيه من الكفار ، ويجتمع فيه من آمن به ، ويصلي بهم الأوقات الخمسة سراً ، إلى أن أسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فجهر بالإسلام وبالصلاة وأعز الله الإسلام به ، ودار الخيزران ، هي دو حول المختبأ ملكتها أم الرشيد شراء لما حجت ، وتناقلت في يد الملاك إلى أن صارت الآن من جملة أملاك السلطان مراد خان . انتهى .

قال الزين العراقي في ألفيته المسماة بنظم الدرر السنية في سيرة خير البرية عن اجتماع المسلمين بدار الأرقم ما يأتي :

واتخذ النبي دار الأرقم	للصحب مستخفين عن قومهم
وقيل كانوا يخرجون تترى	إلى الشعاب للصلاة سرا
حتى مضت ثلاثة سنينا	وأظهر الرحمن بعد الدينا
وصدع النبي جهراً معلناً	إذا نزلت فاصدع بما فما ونا
وأنذر العشائر التي ذكر	بجمعهم إذا نزلت وأنذر

وفي كتاب الرحلة الحجازية للبتنوني عند الكلام على دار الأرقم ما نصه:

أما دار الأرقم المخزومي ، المشهورة بدار الخيزران ، فهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا ، وهي الدار التي كان يختبئ فيها رسول الله ﷺ في بعثته هو ومن آمن معه ، وكانوا يصلون سراً حتى أسلم عمر رضي الله عنه ، فقويت به عصبيتهم وجهروا بالإسلام والصلاة ، وباب هذا الدار يفتح إلى الشرق ، ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار ، في عرض أربعة ، وعلى يسارها ، إيوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار ، وفي وسط الحائط التي على يمينها ، باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار ، في عرض نحو نصف ذلك ، مفروشة بالحصير ، وفي زاويتها الشرقية الجنوبية ، حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب في أعلاهما بالحرف البارز: "بسم الله الرحمن الرحيم ، في بيوت

أذن ا لله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال هذا مختبأ رسول ا لله ودار الخيزران ، وفيها مبتدأ الإسلام ، أمر بتجديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب ا لله ورسوله وا لله لا يضيع أجر المحسنين" .

ومكتوب في الثاني :"بسم ا لله الرحمن الرحيم ، هذا مختبأ رسول ا لله ﷺ المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وإنشائه العبد الفقير لرحمة ا لله تعالى جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير الشام والموصل الطالب الوصول إلى ا لله تعالى الراجي لرحمته أطال ا لله في الطاعة بقاه وأناله في الدارين مناه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة" . انتهى من الرحلة الحجازية للبتنوني .

ولقد عمّرت دار الأرقم والمسجد الذي فيه مراراً عديدة منها:

(١) عمّرتها الخيزران أم الرشيد وبنت المسجد الذي فيها سنة (١٧١) هجرية ، وستأتي ترجمتها في آخر المبحث .

(٢) وعمّرها أمين الملك مصلح .

(٣) وعمّرها الوزير الجواد .

(٤) وعمّرها المستنصر العباسي .

(٥) وعمّرها جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير الشام والموصل سنة (٥٥٥).

(٦) وعمّرها بعض المجاورين بمكة في آخر القرن الثامن .

(٧) وعمّرها السلطان مراد خان حينما اشتراها .

(٨) وعمّرها إبراهيم بك ، جددها من أساسها إلى فوقها ، وجعل فيها قبة عظيمة وطاجنين وطبطب السطح بالنورة وذلك سنة (١١١٢) هجرية، كما في كتاب إتحاف فضلاء الزمن . قال الغازي رحمه ا لله تعالى في تاريخه : وقد هدمت هذه القبة في سنة (١٣٤٣) هـ . انتهى .

هذا ما وقفنا على من عمّر دار الأرقم ، وا لله تعالى أعلم بمن عمرها أيضاً ، وقد تقدم أن هذه الدار هدمت الآن ، ومحى أثرها في آخر شوال سنة (١٣٧٥) لإدخالها في التوسعة السعودية .

[قصة إسلام عمر]

ولنذكر هنا قصة إسلام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في دار الأرقم "دار الخيزران" ناقلين ذلك من كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى ، فقد جاء فيه ما نصه :

ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، كان يجتمع فيها المسلمون سراً يتعلمون الدين ويقيمون الشعائر ، حتى أسلم عمر رضي الله عنه وعز به الإسلام ، وجهر المسلمون بدينهم ، وكان إسلام عمر بدار الأرقم ، وها نحن أولاً ننقل إليك عن سيرة ابن هشام قصة إسلامه ، لما فيها من العبر والمواعظ :

قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغني ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت ، وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبدالله النحام قد أسلم وكان يخفي إسلامه فرقاً "خوفاً" من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف "يذهب" إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين ، رضي الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبدالله فقال له : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمداً ، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى لبني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم . قال : وأي أهل بيتي . قال : ختنك ، أي صهرك ، وابن عمك سعيد بن زيد ابن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت مع صحيفة فيها ﴿طه﴾ يقرئها إياها ، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت . وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها وقد سمع

عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليها ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئاً . قال : بلى وا لله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا با لله ورسوله فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وكان عمر كاتباً . فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال : لا تخافي . وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه﴾ فقرأها . فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : يا عمر ، وا لله إني لأرجو أن يكون ا لله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر ابن الخطاب ، فا لله ا لله يا عمر . فقال له عند ذلك عمر : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا -بيت الأرقم- معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول ا لله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول ا لله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول ا لله ﷺ وهو فزع فقال : يا رسول ا لله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . فقال حمزة بن عبدالمطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول ا لله ﷺ: ائذن له . فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول ا لله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته – حجزة الإزار معقده – أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة – جذبه – وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوا لله ما أرى أن تنتهي حتى لينزل ا لله بك قارعة . فقال عمر: يا رسول ا لله جئتك لأومن با لله ورسوله ، وبما جاء من عند ا لله . فكبر رسول ا لله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول ا لله ﷺ أن عمر قد أسلم ، فتفرق أصحاب رسول ا لله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما

سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم . فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم . انتهى من مرآة الحرمين .

هذا ما كتبناه عن دار الأرقم "دار الخيزران" ، وهو تفصيل تام ربما لم يكتب عنها أحد كما كتبنا ، فالحمد لله على التوفيق .

ترجمة الخيزران أم الرشيد

جاء عنها في كتاب "محاضرات الخضري" ما يأتي:

هي أم موسى الهادي وأم هارون الرشيد اسمها الخيزران ، أعتقها أمير المؤمنين محمد المهدي في سنة (١٥٩) ، وتزوجها بعد أن ولدت له الهادي والرشيد. اهـ .

وفي تاريخ ابن كثير ما ملخصه : اشترى المهدي الخيزران وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين موسى الهادي والرشيد ، ولما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبته إلا دقة في ساقيها ، فقال لها : يا جارية إنك لعلى غاية المنى والجمال لولا دقة ساقيك وخموشهما ، فقالت : يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما ، فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده ، وكان مغل ضياعها في كل سنة سنة ألف ألف وستين ألفاً .

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصيرة الذي مات في اليوم الذي ماتت فيه ، مائة وصيفة ، مع كل وصيفة جام من فضة مملوء مسكاً ، فكتبت إليه تقول : إن كان ما بعثته ثمناً عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت وقد بخستنا في الثمن ، وإن كنت تريد زيادة المودة فقد اتهمتني في المودة ، وردت ذلك عليه . انتهى من ابن كثير ومحمد بن سليمان المذكور جمع له المنصور بين البصرة والكوفة وزوجه المهدي ابنته العباسة .

وفي محاضرات الخضري : كان الهادي شديد الغيرة على حرمه ويشبه في ذلك سليمان بن عبدالملك من بني أمية ، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته ، بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد المهدي ما لم يكن لامرأة غيرها .

(قالوا) : كانت الخيزران في أول خلافة موسى الهادي تفتات عليه في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي . فأرسل إليها ألا

تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك . وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك . وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانثال الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها . فكلمته يوماً في أمر لم يجد إجابتها إليه سبيلا ، فاعتل بعلّة . فقالت : لا بد من إجابتي . قال : لا أفعل . قالت : فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبدا لله بن مالك . فغضب موسى وقال : ويلي على ابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها . وا لله لا قضيتها لك . قالت : إذاً وا لله لا أسألك حاجة أبداً . قال : إذاً وا لله لا أبالي . وحمي غضبه ، فقامت مغضبة . فقال : مكانك تستوعبي كلامي . وا لله ، وقرابتي من رسول ا لله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي ، أو من خاصتي ، أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك، ما فتحت بابك لملي أو ذمي . فانصرفت ما تعقل ما تطأ . فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها . انتهى من محاضرات الخضري .

وبعد موت موسى الهادي ولي الخلافة أخوه هارون الرشيد ، وفي أثناء دولته قدمت الخيزران (أم الرشيد والهادي) إلى مكة قبل الحج سنة (١٧١) إحدى وسبعين ومائة فأقامت بها إلى أن حجت وعملت كثيراً من الخيرات وهي التي اشترت في هذه السنة "دار الأرقم" ، وهي الدار التي كان رسول ا لله ﷺ يدعو في أول الأمر إلى الإسلام سراً ، كما اشترت الدور الملاصقة لدار الأرقم وأصلحتها وبنتها فسميت هذه الدار "بدار الخيزران" نسبة إليها ، رحمها ا لله تعالى وغفر لنا ولها .

وفي تاريخ ابن كثير : لما تولى هارون الرشيد الخلافة وولي يحيى بن خالد بن برمك الوزارة أمره أن لا يقطع أمراً إلا بمشورة والدته الخيزران ، فكانت هي المشاورة في الأمور كلها ، فتبرم وتحل وتمضي وتحكم . اهـ .

قال ابن كثير : واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة "أي سنة ثلاث وسبعين ومائة" ، وخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها يخب في الطين ، فلما انتهى إلى المقبرة أتى بماء فغسل رجليه

ولبس خفاً وصلى عليها ونزل لحدها ، فلما خرج من القبر أتي بسرير فجلس عليه واستدعى الفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات ، وأنشد الرشيد قول ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران :

وكنا كندماني جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

انتهى من تاريخ ابن كثير .

ورأينا في ابن كثير أن الخيزران حجت مرتين مرة سنة (١٧١) ومرة ثانية حجت في حياة المهدي ، وهل حجت غيرهما ، الله تعالى أعلم بذلك .

وقد تقدم أن الخيزران لما قدمت مكة سنة إحدي وسبعين ومائة اشترت دار الأرقم بالصفا ، ذكر الفاسي في كتابه شفاء الغرام : قال جابر بن عبدا لله : كان أول من خلق المسجد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه "أي المسجد النبوي" ثم لما حجت الخيزران أم موسى وهارون في سنة إحدى وسبعين ومائة أمرت بالمسجد أن يخلق فتولت تخليقه جاريتها مؤنسة ، فخلقته جميعه حتى الحجرة الشريفة جميعها ، انتهى .

وقد اشترت الخيزران أيضاً البيت الذي ولد فيه النبي ﷺ ، لما قدمت مكة للحج ، فجعلته مسجداً يصلي فيه ، فقد ذكر ذلك الإمام الأزرقي في تاريخه بصحيفة ١٦٠ من الجزء الثاني عند ذكر المواضع التي يستحب فيها الصلاة بمكة ، وقد قدمنا بيان ذلك عند "موضع ولادة النبي" ﷺ .

حرم مكة وأنصابه

قال الله تعالى في سورة القصص : ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ . وقال عز شأنه في سورة العنكبوت : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ .

قال العلامة ابن ظهيرة : حرم مكة هو ما أحاط بها من جوانبها وقد جعل الله حكمه حكم مكة تشريفاً لها . اهـ .

قال الأزرقي في تاريخه : حدثني جدي قال : حدثنا عبدالرحمن بن حسن ابن القاسم عن أبيه قال : سمعت بعض أهل العلم يقول : إنه لما خاف آدم عليه السلام على نفسه من الشيطان استعاذ با لله سبحانه ، فأرسل ا لله عز وجل ملائكة حفوا بمكة من كل جانب ووقفوا حواليها ، قال : فحرم ا لله تعالى الحرم من حيث كانت الملائكة عليهم السلام وقفت .

وقال أيضاً : حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان ابن ساج عن وهب بن منبه : أن آدم عليه السلام اشتد بكاؤه وحزنه لما كان من عظم المصيبة حتى أن الملائكة لتحزن لحزنه وتبكي لبكائه ، فعزاه ا لله بخيمة من خيام الجنة وضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة ، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة ، وفيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة ، فيها نور يلتهب من نور الجنة ، والركن يومئذ نجم من نجومه ، فكان ضوء ذلك النور ينتهي إلى موضع الحرم .

فلما صار آدم إلى مكة حرسه ا لله وحرس تلك الخيمة بالملائكة ، فكانوا يقفون على مواضع أنصاب الحرم يحرسونه ويذودون عنه سكان الأرض ، وسكانها يومئذ الجن والشياطين ، فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة لأنه من نظر إلى شيء منها وجبت له ، والأرض يومئذ طاهرة نقية طيبة ، لم تنجس ، و لم تسفك فيها الدماء و لم يعمل فيها بالخطايا . فلذلك جعلها ا لله سبحانه يومئذ مستقراً لملائكته وجعلهم فيها كما كانوا في السماء ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فلم تزل تلك الخيمة مكانها حتى قبض ا لله تعالى آدم ثم رفعها إليه . انتهى منه .

وفي تاريخ الأزرقي أيضاً : حدثنا أبو وليد قال : حدثني جدي عبدالرحمن بن حسن بن القاسم عن أبيه قال : سمعت بعض أهل العلم يقولون : قال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل : أبغني حجراً أجعله للناس آية . قال : فذهب إسماعيل ثم رجع و لم يأته بشيء ووجد الركن عنده ، فلما رآه قال له : من أين لك هذا ؟ قال إبراهيم : جاء به من لم يكلني إلى حجرك ، جاء به جبريل عليه السلام. قال : فوضعه إبراهيم عليه السلام في موضعه هذا ، فأنار شرقاً وغرباً ويمناً وشاماً ، فحرم ا لله تعالى الحرم من حيث أنهى نور الركن وإشراقه من كل جانب .

قال : ولما قال إبراهيم : ربنا أرنا مناسكنا ، نزل إليه جبريل ، فذهب به فأره المناسك ، ووقفه على حدود الحرم . فكام إبراهيم يرضم الحجارة ، وينصب الأعلام ، ويجي عليها التراب ، وكان جبريل يقفه على الحدود ، قال : وسمعت أن غنم إسماعيل عليه السلام ، كانت ترعى في الحرم ولا تجاوزه . ولا تخرج منه فإذا بلغت منتهاه من كل ناحية من نواحيه رجعت صاية في الحرم .

حدثنا أبو الوليد : حدثني جدي ، حدثني سعيد بن سالم عن ابن جريج قال : كنت أسمع من أبي يزعم أن إبراهيم أول من نصب أنصاب الحرم .

حدثنا أبو الوليد : حدثنا جدي : حدثنا سعيد بن سالم عن ابن جريج ، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن محمد بن الأسود أنه أخبره أن إبراهيم أول من نصب أنصاب الحرم ، وأن جبريل عليه السلام ، دله على مواضعها ، قال ابن جريج : وأخبرني أيضاً عنه أن النبي ﷺ أمر يوم الفتح تميم بن أسد جد عبدالرحمن بن عبدالمطلب بن تميم فجددها . انتهى منه .

وفيه أيضاً : حدثنا أبو الوليد وحدثني محمد بن يحيى عن هشام بن سليمان المخزومي ، عن عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبدا لله بن الزبير ، عن موسى بن عقبة أنه قال : عدت قريش على أنصاب الحرم فنزعتها ، فاشتد ذلك على النبي ﷺ ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد اشتد عليك أن نزعت قريش أنصاب الحرم ، قال : نعم . قال : أما إنهم سيعيدونها . قال : فرأى رجل من هذه القبيلة من قريش ومن هذه القبيلة حتى رأى ذلك عدة من قبائل قريش قائلاً يقول : حرم كان أعزكم الله به ومنعكم فنزعتم أنصابه ، الآن تخطفكم العرب ، فأصبحوا يتحدثون بذلك في مجالسهم فأعادوها فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد قد أعادوها ، قال : أفأصابوا يا جبريل ؟ قال : ما وضعوا منها نصباً إلا بيد ملك .

حدثنا أبو الوليد ، حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي ، عن إسحاق بن حازم ، عن جعفر بن ربيعة ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عتبة : أن إبراهيم عليه السلام نصب أنصاب الحرم يريه جبريل عليه السلام ، ثم لم تحرك حتى كان قصي فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان رسول الله ﷺ ، فبعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عليه ، فبعث أربعة من قريش كانوا يبتدعون في بواديها فجددوا أنصاب الحرم ، منهم مخرمة بن

نوفل ، وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومي ، وحويطب بن عبد العزى ، وأزهر بن عبد عوف الزهري . انتهى منه .

وفيه أيضاً : حدثنا أبو الوليد ، حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي ، حدثني خالد بن إلياس ، عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب ، عن أبيه قال : لما ولي عثمان بن عفان ، بعث على الحج عبدالرحمن بن عوف وأمره أن يجدد أنصاب الحرم فبعث عبدالرحمن نفراً من قريش منهم حويطب بن عبد العزى ، وعبدالرحمن بن أزهر ، وكان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره في آخر خلافة عمر ، وذهب بصر مخرمة بن نوفل في خلافة عثمان ، فكانوا يجددون أنصاب الحرم في كل سنة ، فلما ولي معاوية كتب إلى والي مكة فأمره بتجديدها .

قال : فلما بعث عمر بن الخطاب النفر الذين بعثوا في تجديد أنصاب الحرم أمرهم أن ينظروا إلى كل واد يصب في الحرم ، فنصبوا عليه وأعلموه وجعلوه حرماً وإلى كل واد يصب في الحل فجعلوه حلاً .

حدثنا أبو الوليد : حدثني جدي ، عن محمد بن إدريس ، عن محمد بن عمر ، عن ابن أبي سبرة ، عن المسور ابن رفاعة قال : لما حج عبد الملك بن مروان أرسل إلى أكبر شيخ يعلمه من خزاعة ، وشيخ من قريش ، وشيخ من بني بكر ، وأمرهم بتجديد أنصاب الحرم ، قال أبو الوليد : وكل واد في الحرم فهو يسيل في الحل ، ولا يسيل من الحل في الحرم إلا من موضع واحد عند التنعيم ، عند بيوت غفار . انتهى كل ذلك مما تقدم من تاريخ الإمام الأزرقي .

وجاء في هامش التاريخ المذكور هنا بصحيفة ١٠٤ من الجزء الثاني ، بعد انتهاء كلام الأزرقي هذا ما نصه :

وقد جددها "أي الأعلام" عبد الملك بن مروان ، وفي عام ١٥٩ لما رجع المهدي من الحج أمر بتجديدها ، وكذلك جددها المقتدر با لله العباسي ، وفي سنة ٣٢٥ أمر الراضي با لله العباسي بعمارة العلمين من جهة التنعيم ، وفي سنة ٦١٦ أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين من جهة عرفة ، ثم الملك المظفر صاحب اليمن عام ٦٨٣ ، وجددهما السلطان أحمد الأول ابن محمد العثماني عام ١٠٢٣ . انتهى .

وجاء أيضاً في هامش التاريخ المذكور بالصحيفة المذكورة (١٠٤)، ما مفاده أن الأزرقي أغفل ذكر ما يسكب من أودية الحل في الحرم ، كما أغفل بحث

الميقات وأماكنها – لكن كاتب الهامش بينها في ملحق الكتاب بصحيفة ٢٥٠ من الجزء الثاني – والحق أن كلامه مفصل تفصيلاً واضحاً عن مواضع نصب الأعلام على حدود الحرم وعن مواقيت الحج يستحسن الرجوع إليه .

وكاتب الهامش على كتاب الإمام الأزرقي هو المحقق البحاثة صاحب المعالي الشيخ رشدي ملحس رئيس الشعبة السياسية بديوان جلالة مليكنا المعظم أكثر الله من أمثاله وأدام توفيقه .

وضع أنصاب الحرم

تقدم أن حدود الحرم الذي يطيف بمكة من جميع جوانبها كانت من قديم الزمان ، أي من عهد إبراهيم الخليل أو من عهد آدم عليهما الصلاة والسلام ، وما زالت معروفة إلى اليوم ومرعية الحرمية إلى يوم القيامة .

وفي كتاب الإصابة عند ترجمة (كرز بن علقمة) أسلم يوم الفتح وعمر طويلاً وكان ممن جدد أنصاب الحرم في زمن معاوية ، قال البغوي : حدثني عمي عن أبي عبيد قال: كرز بن علقمة خزاعي من بني عبدنهم هو الذي قفى أثر النبي ﷺ ، وأبي بكر حين دخلا الغار ، وهو الذي أعاد معالم الحرم في زمن معاوية رضي الله تعالى عنه ، فهي إلى اليوم – وذكر الكلبي هذه القصة فقال : عمي على الناس بعض أعلام الحرم ، وكتب مروان إلى معاوية بذلك ، فكتب إليه إن كان كرز حياً فسله أن يقيمك على معالم الحرم ففعل ، قال : وهو الذي وضع للناس معالم الحرم في زمن معاوية وهي هذه المنار التي بمكة إلى اليوم . اهـ منه . وكرز هذا : هو الذي استأجره المشركون لما خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فانتهى إلى غار ثور ثم قال : إلى ههنا انتهى أثره كما ذكرنا ذلك في محله .

وفي كتاب الإصابة أيضاً في ترجمة (مخرمة بن نوفل) ما خلاصته : قال الزبير بن بكار : كان من مسلمة الفتح وكانت له سن عالية وعلم بالأنساب ، فكان يؤخذ عنه النسب ، وزاد ابن سعد: وكان عالماً بأنصاب الحرم ، فبعثه عمر هو وسعيد بن يربوع ، وأزهر بن عبد عوف ، وحويطب بن عبد العزى فجددوها ، وذكر أن عثمان بعثهم أيضاً . وأخرج الزبير بن بكار من حديث ابن عباس: أن جبريل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام أنصاب الحرم فنصبها ، ثم جددها

إسماعيل ، ثم جددها قصي بن كلاب ، ثم جددها النبي ﷺ ، ثم بعث عمر الأربعة المذكورين فجددوها . اهـ منه .

قال القلقشندي رحمه الله تعالى في كتابه صبح الأعشى عند الكلام على الحرم ومشاعر الحج الخارجة عن مكة ما نصه :

أما الحرم فهو ما يطيف بمكة مما يحرم صيده وقطع شجره وحشيشه ونحو ذلك ، وقد تقدم أن الله تعالى جعل ملائكة يحرسون القبة التي أنزلها الله تعالى إلى آدم من الجنة ، ووضعت له مكان الكعبة ، وجعلت الملائكة حرساً لها كي لا تقع عليها بصر الشياطين ، فكانت مواقف الملائكة هي حدود الحرم . قال ابن حوقل : وليس بمكة والحرم شجر يثمر إلا شجر البادية ، أما خارج الحرم ففيه عيون وثمار .

واعلم أن مقادير جهات الحرم تتفاوت في القرب والبعد عن مكة ، وعلى حدوده أعلام منصوبة في كل جهة تدل عليه . قال في "الروض المعطار": قال الزبير : وأول من وضع علامات الحرم ونصب العمد عليه عدنان بن أدّ ، خوفاً من أن تندرس معالم الحرم أو تتغير . قال : وحده من التنعيم على طريق سرف إلى مر الظهران خمسة أميال ، وذكر في موضع آخر أنها ستة أميال ، وحده من طريق جدة عشرة أميال ، ومن طريق اليمن ستة أميال ، ودوره سبعمائة وثلاثة وثلاثون ميلاً .

انظر: صورة رقم ٢٥ ، المروة

ثم بحدود هذا الحرم أماكن مشهورة ، يخرج إليها من مكة من أراد أن يهل بعمرة فيحرم منها أحدها التنعيم ، والثاني الحديبية والثالث الجعرانة. وقد ذكر القلقشندي تعريف كل منها وموضعه.

ثم قال : وأما مشاعر الحج الخارجة عن مكة فثلاثة - أحدها منى ، والثاني المزدلفة ، والثالث عرفة . وقد ذكر أيضاً تعريف كل منها وموضعه ، لم نر ضرورة لذكر ذلك لأنها مواضع معروفة لجميع العالم الإسلامي ، فلا لزوم لتطويل الكلام . انتهى من صبح الأعشى .

انظر: صورة رقم ٢٦ ، العلمين عند الشميسي بالحديبية بطريق جدة

أسماء من وضع أنصاب الحرم وأعلامها

لقد بينا فيما تقدم جهات الحرم وحدوده ، وهنا نذكر أسماء الذين وضعوا علامات مبنية في حدود الحرم من جميع الجهات فنقول وبا لله التوفيق:

قال الغازي رحمه ا لله تعالى في تاريخه ما نصه : وعن عبيد ا لله بن عبدا لله بن عتبة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نصب أنصاب الحرم يريه جبريل ، ثم لم تحرك حتى كان قصي فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان رسول ا لله ﷺ ، فبعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان عمر بن الخطاب فبعث أربعة من قريش كانوا يتدؤون في بواديها فجددوا أنصاب الحرم ، منهم مخرمة بن نوفل ، وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومي ، وحويطب بن عبد العزى ، وأزهر ابن عبد عوف الزهري . انتهى .

ثم قال الغازي أيضاً : قال الفاسي : ثم نصبها عثمان بن عفان ، ثم معاوية ، ثم عبد الملك ابن مروان ، ثم المهدي العباسي ، ثم أمر الراضي العباسي بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، واسمه عليهما مكتوب . ثم أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين اللذين هما حد الحرم من جهة عرفة في سنة ست وعشرين وستمائة ، "وفي إتحاف الورى لابن فهد سنة ست عشر وستمائة" ثم أمر الملك المظفر ، صاحب اليمن ، في سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، انتهى... (لم يذكر الفاسي ماذا أمر الملك المظفر ، ونظن أن الكاتب نسي في الكتابة شيئاً).

قال ابن فهد: وفي سنة خمس وستمائة في شعبان ، أنشئت الأعلام الثلاثة التي هي بين منتهى أرض عرفة ووادي عرنة ، أمر بإنشائها المظفر كوكيري بن علي بكتكين صاحب إربل . انتهى . نقلنا كل ذلك من تاريخ الغازي .

وقال إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين" ما نصه : وأول من نصب علامات على حدود الحرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بإرشاد جبريل تعظيماً للبيت وتشريفاً ، ثم قصي بن كلاب ، وقيل قبله إسماعيل عليه السلام ، ويروى هذا عن ابن عباس ، وقيل إن عدنان بن أد أول من وضع أنصاب الحرم ، ونصبتها قريش بعد ذلك ، والنبي ﷺ ، بمكة قبل هجرته ، ونصبها النبي ﷺ ، عام الفتح ، ثم عمر بن الخطاب في سنة ١٧هـ . ثم عثمان بن عفان في سنة ٢٦هـ . ثم معاوية

رضي الله عنهم، ثم عبدالملك بن مروان، ثم المهدي العباسي، ثم أمر الراضي بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم في سنة ٣٢٥هـ. قال الفاسي: واسمه عليهما مكتوب، ثم أمر المظفر صاحب إربل، بعمارة العلمين الكبيرين اللذين هما حد الحرم من جهة عرفة سنة ٦١٦هـ، ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٨٣هـ. وهنا قال إبراهيم رفعت في هامش كتابه المذكور، لم يعثر على تاريخ الإعلام بعد ذلك مع شدة حرصنا على الوقوف عليه مع أنه لا بد من أن تكون عمرت بعد ذلك مراراً فإن بناءها القائم ليس بناء سبعة قرون أو تزيد. انتهى من كتاب مرآة الحرمين المذكور.

(واعلم) أن أنصاب الحرم، أي العلامات الموضوعة في حدودها، ما زالت موجودة إلى اليوم، تجد في كل عصر عند حدوث تلف فيها، وهي علامات مبنية بالحجر ومجصصة بالنورة، ومواضع هذه العلامات "أي الأنصاب" كما يأتي:

(١) توجد عند التنعيم بقرب مسجده، وفي الحل من هذه الجهة، أي بعد العلامات بمسافة قريبة، توجد محطة شركة الكهرباء السعودية التي تمد مكة بالكهرباء، وبين العلامات وهذه المحطة، مخفر للشرطة للمحافظة على عدم تسرب الأجانب غير المسلمين إلى داخل حدود الحرم.

(٢) توجد عند عرفات قبل مسجد نمرة بقليل للذاهب إلى عرفات.

(٣) توجد قبل مزرعة الشرائع التي بطريق السيارات للطائف ونجد.

(٤) توجد قبل محطة البيضاء التي بطريق اليمن.

(٥) يوجد علمان عند الشميسي المسمى قديماً بالحديبية بطريق جدة، وهما يقابلان كيلو ١٩ قبيل مسجد الشميسي للنازل من مكة إلى جدة. والشميسي يقع في كيلو ٢٢ فيكون الشميسي في الحل، وهذان العلمان قديمان يقعان في الطريق القديم لقافلة الجمال، ثم إنه في جمادى الأولى سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف، بني علمان آخران في مقابلة العلمين القديمين، وبنيا في طريق السيارات "الأوتومبيلات" المعبد بالإسفلت، عند الكيلو (١٩) تسعة عشر تماماً للمسافر إلى جدة، وكان ذلك بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم سعود بن عبدالعزيز آل سعود، وفقه الله تعالى لكل خير.

جدول بأسماء من جدد أنصاب الحرم

علمت فيما تقدم أول من وضع أنصاب الحرم، وأسماء من جددها - ونحن هنا نذكر ملخصين ما تقدم في جدول خاص لسرعة الاطلاع وزيادة البيان، ولم نر في التاريخ من جددها بعد الملك المظفر صاحب اليمن، فالله تعالى أعلم بمن جددها بعده - وقد يكون التجديد لجميعها، وقد يكون لبعضها في بعض الجهات لخراب حصل فيها وهذا هو الجدول :

الرقم	اسم من جدد الأنصاب	سنة التجديد	الملاحظات
١	سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام		ذكرنا إبراهيم ولم نذكر آدم عليهما الصلاة والسلام على اعتبار أنه أول من بنى الكعبة منذ أربعة آلاف سنة تقريباً.
٢	قصي بن كلاب		وقصي بن كلاب هو الجد الرابع للنبي ﷺ، وهو أيضاً بنى الكعبة قبل قريش.
٣	قريش	قبل الهجرة	وقريش جددت الأنصاب والنبي ﷺ موجود بمكة قبل هجرته.
٤	رسول الله ﷺ	عام الفتح	
٥	عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١٧	
٦	عثمان بن عفان رضي الله عنه	٢٦	
٧	معاوية رضي الله عنه		ولم نبحث في التاريخ عن سنة تجديد معاوية.
٨	عبدالملك بن مروان		وعبدالملك، والمقتدر بالله العباسي، ونظن أن المقتدر بالله حينما أدخل في المسجد الحرام رحبة باب إبراهيم سنة ٣٠٦

الرقم	اسم من جدد الأنصاب	سنة التجديد	الملاحظات
			جدد الأنصاب أيضاً.
٩	المهدي العباسي	١٥٩	
١٠	الراضي با لله العباسي	٣٢٥	
١١	المقتدر با لله العباسي		
١٢	المظفر صاحب إربل	٦١٦	الملك المظفر صاحب إربل قيل جددها سنة ٦١٦ وقيل سنة ٦٢٦.
١٣	المظفر صاحب اليمن	٦٨٣	
١٤	السلطان أحمد الأول بن محمد العثماني	١٠٢٣	وا لله أعلم بمن جددها أيضاً.
١٥	الملك سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية	١٣٧٦	فقد أمر ببناء علمين عند الكيلو (١٩) للمسافر إلى جدة قبيل الشميسي (الحديبية) في مقابلة العلمين القديمين وذلك في جمادى الأولى سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، وجدد أيضاً أنصاب الحرم من جهة الشرائع في السنة المذكورة، كما جدد أيضاً أنصاب الحرم من جهة عرفة سنة ١٣٨٣هـ.

نقول : وقد جددت الحكومة السعودية بعض أعلام الحرم كأعلام الشميسي ، التي تبعد عن نفس مكة نحو تسعة عشر كيلو متراً، وأعلام الشرائع . وقد وقف مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط ، غفر ا لله له ولوالديه وللمسلمين آمين ، على تجديد هذه الأعلام بنفسه وكتب على كل علم تاريخ تجديده وهو سنة ١٣٧٦هـ . سنة ألف وثلاثمائة وستة وسبعين هجرية ، وقد جددت أيضاً أعلام الحرم التي عند عرفات بعد السنة المذكورة .

أعلام حدود الحرم

والعلمان الجديدان الموجودان بالشميسي "الحديبية" اللذان في خط السيارات المسفلت ، هما علمان يقابلان العلمين القديمين الجديدين عن يمين الذاهب من مكة إلى جدة .

والعلمان الجديدان ، أمر ببنائهما جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود في سنة ١٣٧٦ ست وسبعين وثلاثمائة وألف .

وقد وقف مؤلف هذا الكتاب على بنايتهما وكتابتهما ونقشهما . فأحياناً يذهب الناس إلى جدة من طريق العلمين الجديدين ، وأحياناً من طريق العلمين القديمين والمسافة بينهما عرضاً مائة متر تقريباً.

وأما العلمان الموجودان في طريق الطائف جهة الشرائع ، فهما قديمان لكن أمر جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز المذكور بترميمهما وإصلاحهما ، وذلك في سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف وقد وقف أيضاً مؤلف هذا الكتاب على كتابتهما ونقشهما .

وتسمى الأعلام بالأميال ، وكثيراً ما فكرنا في سبب هذه التسمية ، فلم نهتد لها إلى علة معقولة ، حتى عثرنا مصادفة على علة تسميتها بالأعلام في كتاب "قاموس الأمكنة والبقاع" ، فقد جاء في مقدمته ما نصه :

قال ابن السكيت : وقيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال لأنها بنيت على تقدير مدى البصر من الميل إلى الميل ، ولا نعني بمدى البصر كل مرئي ، فإنا نرى الجبل من مسيرة أيام ، إنما نعني أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل ، وهي بنية ارتفاعها عشرة أذرع أو قريباً من ذلك ، وغلظها مناسب لطولها . قال ياقوت : وهذا عندي أحسن ما قيل فيه . انتهى .

المسافات بين المسجد الحرام وأنصاب الحرم

قلنا فيما سبق ، أن الحرم هو ما يحيط بمكة "بلد الله الأمين" شرفها الله تعالى ، وسمي حرماً لحرمة صيده وحرمة قطع شجره وحشيشه ونحو ذلك ، فهذا المحيط بمكة المسمى "بالحرم" لا بد وأن يكون معروف المعالم والحدود ، وأن يوضع في

الحد الفاصل بين الحل والحرم علامات تسمى "أنصاب الحرم" أو أعلام الحرم ، ليتجنب الناس فيه ما نهاهم الله ورسوله عنه .

ولقد بيَّن الأئمة والعلماء الأجلاء المسافات بين مكة والحرم من جميع جهاتها بالأميال والأذرع والأمتار - ولنذكر هنا قياس المسافات من ثلاثة مراجع :

(أولاً) من تاريخ الإمام الأزرقي الذي توفي قبيل منتصف القرن الثالث للهجرة .

(ثانياً) من كتاب "مرآة الحرمين" الذي توفي مؤلفه بمصر في زماننا هذا .

(ثالثاً) من كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" اللذي توفي صاحبه في زماننا أيضاً.

ففي كل واحد من هذه المراجع الثلاثة فوائد متعددة ، وإليك ما قاله كل واحد ممن ذكر في كتابه:

(١) قال الإمام الأزرقي في تاريخه عند حدود الحرم ما نصه : قال أبو الوليد "يعني نفسه" من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت غفار على ثلاثة أميال ، ومن طريق اليمن طرف أضاءة لبن في ثنية لبن على سبعة أميال ، ومن طريق جدة منقطع الأعشاش على عشرة أميال ، ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلاً ، ومن طريق العراق على ثنية خل "بخاء معجمة مفتوحة" بالمقطع على سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة في شعب آل عبدالله بن خالد بن أسيد على تسعة أميال .

انتهى من كلام الأزرقي وقياسه بالأميال .

(٢) ولنذكر كلام إبراهيم رفعت باشا المصري صاحب كتاب "مرآة الحرمين" المتوفى في زماننا هذا ، لأنه ذكر القياس أولاً بذراع اليد ، ثم حول الأذرع إلى أمتار ، وبيَّن في هامش كتابه المذكور مقدار الذراع فقال : ذراع الحديد ٥٦ ١/٧ سنتياً كما حررته من قياس جدر الكعبة بالمتر ومقارنتها بقياس الفاسي ، وذراع اليد ٤٩ سنتياً بالتقريب استنتجته من قياسي لبعض الأماكن بالذراعين - ذراع الحديد وذراع اليد . اهـ .

ونحن قد أتينا بهذا البيان في مقدمة الكلام ، حتى يكون للقارئ تمام المعرفة عندما يطلع على كلامه الآتي - وإليك ما قاله صاحب الكتاب المذكور رحمه الله تعالى وهو :

قال الله تعالى : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ .

اعلم - أنه يحيط بالكعبة ثلاث دوائر : (الأولى) دائرة المسجد الحرام ، (والثانية) دائرة الحرم ، (والثالثة) دائرة المواقيت - فلا يعدو امرؤ الدائرة الثالثة قاصداً دخول مكة ، إلا إذا أحرم وأهل بالتلبية وهي ذو الحليفة على عشر مراحل من مكة والجحفة على ثلاث وقبلها بقليل رابغ وذات عرق على مرحلتين ، وكذلك قرن المنازل ، ويلملم والدائرة الثانية دائرة الحرم وقد نصبت عليها أعلام في جهاتها الأربع ، وقد ذكر المسافات بينها وبين المسجد الحرام التقي الفاسي في كتابه شفاء الغرام ونحن نذكرها نقلاً عنه مبينين مقدارها بالأمتار (فحد الحرم من جهة الطائف) على طريق عرفة من بطن عرنة (٢/٧ ٣٧٢١٠) بذراع اليد ، أي (١٨٣٣٣) متر ، وذلك من جدر باب بني شيبة إلى العلمين الذين بهما علامة لحد الحرم من جهة عرفة. (وحده من جهة العراق) من جدر باب بني شيبة إلى العلمين الذين هما علامة لحد الحرم في طريق العراق ، واللذين هما بجادة وادي نخلة (٢٧٢٥٢) ذراع بذراع اليد ، وتعادل (١٣٣٥٣،٥) متر. (وحده من جهة التنعيم) وهي طريق المدينة وما يليها (١٢٤٢٠) ذراع بذراع اليد ، أي (٦١٤٨) متر ، وذلك من جدر باب العمرة إلى أعلام الحرم التي في الأرض من هذه الجهة لا التي على الجبل . (وحد الحرم من جهة اليمن) من جدر باب إبراهيم إلى علامة حد الحرم في هذه الجهة (٤/٧ ٢٤٥٠٩) ذراع بذراع اليد ، تعادل ذلك (١٢٠٠٩،٧٥) متر ، وعلى حد الحرم من جهة الجنوب مكان يقال له "أضاة" ، ومن الغرب يميل قليلاً إلى الشمال قرية الحديبية ، وهي التي تمت بها بيعة الرضوان ، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجعرانة أحرم منه النبي ﷺ ، مرجعه من الطائف بعد فتح مكة . وهذه الدائرة جعلها الله مثابة للناس وأمنا ، بل أمن فيها الحيوان والنبات ، فحرم التعرض لصيدها ومنع أن يختلى خلاها (حشيشها) أو يعضد شوكها . انتهى من مرآة الحرمين .

نقول : إن عدد الأذرع والأمتار المذكورة هنا قد تكثر وقد تقل اليوم بسبب تعدد الطرق الموصلة إلى الأعلام بعد أن كان الطريق إليها واحداً ، ولم تتعدد إلا بعد دخول السيارات (الأوتومبيلات) إلى البلاد ، فليتنبه القارئ لهذه النقطة الدقيقة .

(٣) وأما ما جاء في كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" للشيخ حسين باسلامة المكي رحمه الله تعالى عنه عن ذلك فهذا نصه :

قال التقي الفاسي : وقد ورد في المسافة التي بين المسجد الحرام وأنصاب الحرم أقوال كثيرة .

أما حد الحرم من جهة عرفة : فذكر أبو الوليد التاجي المالكي أنه ثمانية عشر ميلاً ، وذكر الأزرقي والفاكهي وابن حردادية الخراساني في المسالك والممالك أنه أحد عشر ميلاً ، وذكر ابن زيد في النوادر أنه تسعة أميال ، وذكر الماوردي وأبو إسحاق الشيرازي والنووي أنه سبعة أميال ، قال الفاسي : وفيما قالوه نظر .

وحد الحرم من جهة العراق ففيه أربعة أقوال ، وهي ستة أميال ، وسبعة ، وثمانية ، وعشرة .

وأما حده من جهة الجعرانة ففيه قولان : أحدهما بريد ، يعني اثني عشر ميلاً ، والثاني تسعة أميال .

وأما حده من جهة التنعيم ، ففيه أربعة أقوال : ثلاثة أميال ، ونحو أربعة ، وأربعة ، وخمسة أميال .

وأما من جهة جدة ، ففيه قولان : عشرة ، ونحو ثمانية عشر على ما ذكره التاجي ، وأما من جهة اليمن قولان : سبعة ، وستة ، ذكره المحب الطبري في القرى .

ثم قال الفاسي : وقد اعتبرت مقدار الحرم من جهاته المعروفة بحبل مقدر على ذراع اليد .

فمن جدر باب المسجد الحرام بباب بني شيبة ، أي باب السلام ، إلى العلمين اللذين هما علامة حدود الحرم من جهة عرفة (٣٧٢١٠) أذرع يد .

وأما حده من العراق – طريق العراق – فمن باب بني شيبة إلى العلمين اللذين بجادة وادي نخلة (٢٧٢٥٢) ذراع يد ، وادي نخلة الذي ذكره الفاسي هنا ، المراد به وادي الليمون المسمى في الوقت الحاضر (المضيق) وقديماً يسمى (نخلة الشامية) .

ثم قال الفاسي : والحد من التنعيم فمن باب العمرة إلى الأعلام (١٢٥٢٠) ذراع يد ، ومن جهة اليمن فمن باب إبراهيم إلى الأعلام (٢٤٥٠٩) أذرع يد .

قال صاحب تاريخ المسجد الحرام : هذا ما ذكره التقي الفاسي في العقد الثمين و لم يذكر ذرع حد الحرم من جهة جدة كما ذكره باعتبار الأميال فيما تقدم ، ويظهر أنه قد ذكره ، وإنما سقط على الناسخ ، وذلك لأنه قد اعتنى بذرع عموم الجهات الأخرى بذراع اليد ، ومن تصفح ما ذكره الفاسي يظهر أنه وقع في المسافة التي بين باب السلام والعلمين اللذين جهة عرفة زيادة كبيرة تبلغ نحو أربعة أميال عما ذكره النووي ، لأن المسافة التي ذكرها تبلغ نحو أحد عشر ميلاً والنووي ذكرها سبعة أميال .

وقال صاحب تاريخ المسجد الحرام أيضاً : وأما سبب الخلاف الواقع بين العلماء في المسافة بين الحدود والمسجد الحرام فهو ناتج على ما ظهر لي من أمرين :

(أحدهما) اختلافهم في مبدأ الذرع حيث بعضهم جعل مبدأ الحد من أبواب المسجد الحرام ، وبعضهم جعله من أبواب مكة مثل باب الشبيكة الذي هو حارة الباب ، وباب المعلاة الذي هو قريب من الحجون .

(والأمر الثاني) اختلافهم في قدر الميل ، حيث بعضهم قدره بستة آلاف ذراع يد ، وبعضهم قدره بأربعة آلاف ذراع يد ، وبعضهم بثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع يد ، وبعضهم قدره بألفي ذراع يد . وكذلك يختلف ذراع اليد بحسب اختلاف الأجسام من الطول والقصر وهو يتراوح من (٤٦) سنتمتر إلى (٥٢) سنتمتر. كما أن الأميال اعتبارية فيما سبق ، فهي اعتبارية في العصر الحاضر حيث أن الميل البري ، هو خلاف الميل البحري ، وكذلك الميل الجغرافي يختلف عنهما .

ثم قال : وجاء في شرح الإيضاح لابن حجر الهيثمي المكي نقلاً عن التقي الفاسي أنه قال تتمة لعبارته المتقدمة : وبما ذكر في بيان المسافة من باب السلام أو المعلاة بالذراع ، وبيان الأقوال الأربعة في الميل ، وما يتفرع على كل منهما باعتبار التحديد من باب السلام والمعلاة .

يتبين أن كل واحد من الأقوال الأربعة في حد المسافة مبني على واحد من الأقوال في مسافة الميل، ولا يعارض ذلك كون القائلين بذلك يرون أن الميل ستة آلاف ذراع لأنهم هنا قلدوا المؤرخين، وكل منهم يطلق الميل على مسطحه، فإذا نظر الفقيه في كلامه قلده من غير تحقيق لمراده إذ لا يظهر إلا بالذراع، ولم يبلغنا عن أحد من المختلفين في هذه المسافة أنه قال إن ما ذكره كان بعد تحريره بالذراع، فتعين بعد أن علم تحريره به تأويل ما خالفه، ورد هذه الأقوال المتباينة إلى تلك الأقوال في الميل المتباينة أيضاً، على أن التحديد المذكور في الأقوال غير مراد لما علمت أننا وإن فرعنا تلك الأقوال على الأقوال في الميل لا يأتي إلا إذا جعلنا ذلك تقريباً، وأيضاً فالزيادة والنقص قد يكونان لشدة في المد في الحبل المقيس به وإرخائه، أو لأصل ارتفاع الأرض وانخفاضها، أو لأجل اعتبار المسافة من محل آخر غير ما ذكر من باب السلام.

قال: فهذه الاعتبارات والتقديرات التي ذكرها التقي الفاسي، كلها واردة ومن الجائز وقوعها، ولا شك أنها هي السبب الوحيد في وقوع الخلاف بين العلماء الذين تصدوا وتحملوا المتاعب في سبيل ذرع المسافة بين المسجد الحرام وحدود الحرم، التي أنشئت عليها الأنصاب أو الأعلام، لأجل أن يعرف حد الحرم عند كل من تجاوز ذلك الحد، سواء كان من البادية المجاورة للحرم، أو من عموم الآفاق النائية.

ولا تزال تلك الأنصاب موجودة في مواضعها التي قد عرفت من عهد إبراهيم الخليل ﷺ والعهد النبوي إلى العصر الحاضر، وفي رأيي أنه لا يمكن الجزم بصحة المسافة الواقعة بين المسجد الحرام وتلك الأنصاب، إلا إذا تشكلت لجنة من مهندسين معماريين ممن لهم علم وتخصص بفن المساحة، ومن بعض من لهم علم بفن الجغرافيا، وبعض الفقهاء الذين اعتنوا بضبط حدد الحرم من الوجهة الشرعية، وعهد إليها بذرع المسافة المذكورة بالمتر، وذراع العمل المعماري، لأن هذين المقاسين قد عرفا، وهما لا يقبلان الشك والتردد، لأن ذراع اليد يختلف بحسب جسامة الإنسان، وهو يتراوح بين (٤٦) سنتمتر و (٥٢) سنتمتر، وهذان المقاسان لا يقبلان الزيادة ولا النقصان، ويكون مبدأ القياس من أبواب المسجد الحرام، أو من الكعبة المعظمة، وبعد ذلك تظهر الحقيقة ويعلم نوع الميل الذي قدر فيما سبق لتلك المسافة، ووجه الخلاف الذي وقع بين العلماء في ذلك، كما قد

عملته في ذرع المسجد الحرام، وشارع المسعى، وأظهرت سبب الخلاف الواقع في مساحة المسجد من جهة نوع الذراع ومبدأ الذرع، حيث أن ذرع المسافة بين المسجد وحدود الحرم، لا يتأتى ضبطها من فرد، إذ ربما يقع عليه السهو والغلط، ويدخله الشك، وأما إذا كانوا جماعة أخصائيين، فلا ريب أنهم يضبطون ذلك بكل دقة وبدون أي تردد في صحة ذرعهم، وليس ذلك بالأمر الصعب على من أراد تشكيل تلك اللجنة، والله الموفق للصواب.

قال النووي في مناسكه (الإيضاح): فحد الحرم من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت بني غفار، على ثلاثة أميال من مكة. ومن طريق اليمن طرف (أضاة لبن) في ثنية لبن، على سبعة أميال. ومن طريق العراق على ثنية (جبل المقطع)، على سبعة أميال من مكة. ومن طريق الجعرانة في شعب آل عبدالله بن خالد، تسعة أميال من مكة. ومن طريق الطائف على عرفات من بطن نمرة، سبعة أميال من مكة. ومن طريق جدة منقطع الأعشاش، على عشرة أميال من مكة.

ثم قال النووي: فهذا حد ما جعله الله عز وجل حرماً، لما اختص به من التحريم، وبائن بحكمة سائر البلاد، هكذا ذكر حدوده أبو الوليد الأزرقي في كتابه أخبار مكة، وأصحابنا في كتب الفقه، والماوردي في الأحكام السلطانية وآخرون، إلا أن الأزرقي قال في حده من طريق الطائف أحد عشر ميلاً، والجمهور قالوا سبعة، ولم يذكر الماوردي حده من جهة اليمن.

ثم قال النووي: فاعتمد ما ضبطته لك من حدود الحرم فما أظنك تجده أوضح ولا أتقن من هذا، واعلم أن الحرم عليه علامات من جوانبه كلها، ومنصوب عليها أنصاب وهي الآن بينة ولله الحمد. اهـ.

قال صاحب تاريخ المسجد الحرام أيضاً: وقد جزم الإمام النووي، أن ذرع المسافة الواقعة بين المسجد الحرام والأنصاب، هي كما أوضحها، ويدل ذلك على أنه قد اطلع على الخلاف الواقع بين العلماء في ذلك، واختار من تلك الأقوال ما جزم به، والظاهر أن الميل الذي اعتمد عليه النووي، هو أربعة آلاف ذراع يد، والأربعة الآلاف الذراع اليد على حسب ما هو مقدر على الحالة الوسطى باعتباره (٤٨) سنتيمتر، يكون الميل هو عبارة عن (١٩٢٠) متراً. والله أعلم.

وذكر ابن حجر الهيثمي المكي، في شرح مناسك الإيضاح، منظومة تحتوي على عموم حدود الحرم من الجهات كلها، وها هي:

وللحرم التحديد من أرض طيبة ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه
وسبعة أميال عراق وطائف وجدة عشر ثم تسع جعرانه
ومن يمن سبع بتقديم سينها وقد كملت فاشكر لربك إحسانه

وهذه الحدود المنظومة ، هي عين الحدود الذي ذكرها النووي فيما تقدم ، والظاهر أن الشاعر نظم تلك الحدود بعينها بدون زيادة أو نقصان ، وا لله أعلم .

انتهى كل ذلك من كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام .

هذا ونختم هذا الفصل باقتراح مهم عن مسألة حدود الحرم وأنصابه وهو : أن حكومتنا الموفقة ، قامت الآن بتوسعة المسجد الحرام ، تلك التوسعة العظيمة ، التي يضرب بها المثل في أنحاء المعمورة ، وقد استقدمت لهذا الغرض كبار المهندسين والجغرافيين الشهيرين من الممالك الإسلامية .

فنقترح أن تشكل لجنة كبيرة من هؤلاء المهندسين والجغرافيين ، ومن كبار العلماء العارفين لمعالم البلاد وحدود الحرم وأقوال الفقهاء والمؤرخين ، بل ومن المعمرين من البدو والعرب المقيمين حول حدوده من جميع جهاته ، فيحددوا معالم الحرم ويقيسوه بالمتر والذراع المعماري ، من مركز الكعبة المشرفة إلى انتهاء الحرم من كل جهة ، لأن الكعبة لن يتغير موضعها إلى يوم القيامة .

وأيضاً يجددوا بناء أنصاب الحرم وعلاماته بالإسمنت والخراسانة المسلحة ، وأن يكثروا من هذه الأنصاب والعلامات ، فبدل أن كانت في كل جهة علامتان ، فلتكن خمسين علامة أو أكثر في كل جهة . وأن يكتبوا بالنقر على الحجر ما يعلم منه الحدود ، ويضعوا هذه الكتابة على كل علامة مبنية في جميع الأطراف .

وبهذا العمل الجليل يتبين معالم الحرم بالضبط التام من جميع الجهات ، ويعرف قياس كل جهة من الحرم بالمتر أو بالذراع المعماري اللذين لا يختلفان ، معرفة تامة ، وبهذا يرتفع الشك والخلاف بين العلماء والمؤرخين بعد الآن في بيان القياسات من كل الجهات . وتنفيذ هذا الاقتراح بالنسبة لحكومتنا السنية ، من أيسر الأمور إن شاء ا لله تعالى . اللهم وفقنا لما فيه رضاؤك واهدنا إلى طرق الاستقامة والرشاد آمين .

فضل الحرم وخصائصه وتعظيمه

قال ا لله عز وجل : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ۞ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم با لله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ والسبب أن إبراهيم عليه السلام قال : ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ و لم يقل من الحبوب ، لأنها لم تكن موجودة في ذلك الزمن ، كما قال النبي ﷺ: "لم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه حين دعا لهم إبراهيم عليه السلام" ، رواه الشيخان . وقال عز شأنه : ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ . وقال : ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل ا لله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ۞ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾.

وقد أقسم سبحانه بمكة فقال : ﴿والتين والزيتون ۞ وطور سينين ۞ وهذا البلد الأمين﴾ . وقال : ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ . وقال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت ۞ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ . وقال : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ . وقال : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن ا لله غني عن العالمين﴾ . وقال ﷺ ، في خطبته يوم فتح مكة : "إن هذا البلد حرمه ا لله يوم خلق السموات والأرض وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي و لم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة ا لله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده" ، إلى آخر قوله ﷺ ، وقال : "إن إبراهيم حرم بيت ا لله وأمنه وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاهما ولا يصاد صيدهما" . والعضاة بكسر العين المهملة وتخفيف الضاد : كل شجر فيه شوك .

وقال ابن مسعود في قوله عز وجل : ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ الآية : لو أن رجلاً هم فيه بإلحاد وهو بعدن أبين لأذاقه الله عز وجل عذاباً أليماً . وعدن أبين : هو مدينة عدن المعروفة على الساحل . وهناك في جبل صبر من أعمال صنعاء قرية لطيفة تسمى عدن لاعة ، قاله صاحب معجم البلدان . وفي أخبار مكة للأزرقي : حدثنا أبو الوليد ، حدثني جدي عن سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : كان يعجبهم إذا قدموا مكة أن لا يخرجوا منها حتى يختموا القرآن . وجاء فيه : قال ابن جريج : بلغني أن الرجل كان يلقى قاتل أخيه أو أبيه في الكعبة ، أو في الحرم ، أو في الشهر الحرام ، فلا يعرض له ، أو محرماً أو مقلداً هدياً قد بعث به فلا يعرض له ، وهم يغير بعضهم على بعض فيقتلون ويأخذون الأموال في غير ذلك ، فجعل الله ذلك قياماً لهم لولا ذلك لم يكن لهم بقية ، وجاء فيه عن عكرمة ابن خالد أنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . وعن ابن الزبير قال : قال ابن عمر : لو وجدت فيه قاتل عمر ما ندهته ، وعن ابن عباس قال :إذا دخل القاتل الحرم لم يجالس ولم يبايع ولم يؤو ويأتيه الذي يطلبه فيقول: يا فلان اتق الله في دم فلان ، واخرج من الحرم ، فإذا خرج أقيم عليه الحد . وعن عطاء أن غلاماً من قريش قتل حمامة من حمام الحرم فقال ابن عباس فيه شاة . وبه قال سفيان ، عن يحيى ابن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : في حمام مكة شاة . وعن جريج ، عن مجاهد قال : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بحمامة فأطيرت فوقعت على المروة فأخذتها حية فجعل فيها عمر شاة . وعن جريج قال : قلت لعطائكم في بيضة من بيض حمام مكة ؟ قال : نصف درهم ، بين البيضتين درهم . وقال عطاء : في بيضة كسرت فيها فرخ درهم (ومقدار الدرهم ربع روبية هندية أو ربع ريال عربي تقريباً) .

وعن عبدالله بن نافع ، عن أبيه ، قال : كان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله وطعامه وثيابه ما يطرده ، وكان ابن عباس يرخص أن يكشكش .

وعن عطاء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أبصر رجلاً يعضد على بعير له في الحرم فقال له: يا عبدالله أن هذا حرم الله ، لا ينبغي لك أن تصنع فيه هذا . فقال الرجل : إني لم أعلم يا أمير المؤمنين . فسكت عمر عنه . ويعضد : أي يقطع .

وعن ابن جريج قال : حدثني مزاحم ، عن أشياخ له ،عن عبدا لله بن عامر ، كان يقطع الدوحة من داره بالشعب من السمر والسلم ، ويغرم عن كل دوحة بقرة ، وعن خالد بن مضرس : أن رجلاً من الحاج قطع شجرة من منزله بمنى ، قال : فانطلقت به إلى عمر بن عبدالعزيز فأخبرته خبره ، فقال : صدق كانت ضيقت علينا منزلنا ومناخنا ، فتغيظ عليه عمر ثم قال : ما رأيته إلا دينه ، وفي رواية إسماعيل بن أمية : فتغيظ عليه عمر ثم أمره أن يفيدها . وجاء فيها أيضاً : أن قوماً انتهوا إلى ذي طوى ونزلوا بها ، فإذا ظبي قد دنا منهم ، فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه ، فقال له أصحابه : ويحك أرسله . قال : فجعل يضحك ويأبى أن يرسله ، فبعر الظبي وبال ، ثم أرسله ، فناموا من القابلة ، فانتبه بعضهم ، فإذا بحية منطوية على بطن الرجل الذي أخذ الظبي ، فقال له أصحابه : ويحك لا تتحرك وانظر ما على بطنك ، فلم تنزل الحية عنه ، حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبي .

وجاء فيه أيضاً : دخل قوم مكة تجاراً من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب ، فنزلوا بذي طوى تحت سمرات يستظلون بها فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم أدم ، فقام رجل منهم إلى قوسه ، فوضع عليها سهماً ، ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى فقاموا إليها فسلخوها وطبخوا لحمها ليأتدموا به ، فبينما قدرهم على النار تغلي بلحمه وبعضهم يشوي ، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعاً ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات اللاتي كانوا تحتها . السمرات جمع سَمُرَة بفتح فسكون : شجر الطلح ، وهو نوع من العضاة . والملة بفتح الميم : قيل الحفرة التي تحفر للخبز ، وقيل التراب الحار والرماد . انتهى كل ذلك من كتاب أخبار مكة للأزرقي .

ويروى أن رجلاً اصطاد بوادي محسر الذي بين مزدلفة ومنى ، فنزلت نار فأحرقته ، ولذلك يسمى أيضاً بوادي النار .

وروى عبد الأعلى بن عبدا لله بن عامر قال : قدمت مع أمي أو مع جدتي مكة ، فأتينا صفية بنت شيبة ، فأرسلت إلى الصفا فقطعت حجراً من جنابه فخرجنا به ، فنزلنا أول منزل فذكر من علتهم جميعاً ، فقالت أمي أو جدتي : ما أرانا أتينا إلا أنا أخرجنا هذه القطعة من الحرم . قال : وكنت أمثلهم فقالت لي : انطلق بهذه القطعة إلى صفية فردها ، وقل لها أن ا لله عز وجل وضع في حرمه شيئاً

لا ينبغي أن يخرج منه ، قال عبد الأعلى : فما هو إلا أن أتمينا ذلك فكأنما نشطنا من عقال . اهـ . من المجموع . وصفية هذه صحابية قرشية . وقد روى الشافعي والبيهقي مثله لكن بلفظ آخر .

أما ما يمتاز به الحرم من الخصائص والفضائل على غيره من الأرض ، فشيء لا يمكن حصره ، ولكن نذكر بعضاً من ذلك ملخصاً من كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة القرشي ، مع بعض زيادات . (فمن ذلك): ما روي عن جابر بن عبدا لله ، رضي ا لله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : "لما عقر ثمود الناقة وأخذتهم الصيحة لم يبق منهم أحد إلا رجلاً واحداً كان في حرم ا لله عز وجل فمنعه الحرم فقالوا : من هو يا رسول ا لله ؟ فقال أبو رغال أبو ثقيف فلما خرج من الحرم أصابه من أصاب قومه" . قوله أبو ثقيف : يعني جدهم .

(ومنها) أنه لا يدخل أحد الحرم إلا بإحرام بحج أو عمرة . روي عن ابن عباس رضي ا لله عنهما أنه قال : "كانت الأنبياء عليهم السلام يدخلون الحرم مشاة حفاة" . وعنه أيضاً أنه قال : حج الحواريون فلما بلغوا الحرم مشوا تعظيما له .

(ومنها) تحريم صيده وقطع شجره وحشيشه ، سواء في ذلك أهل الحرم وغيرهم ، وسواء المحرم والحلال .

(ومنها) أن يمنع الكفار من دخول الحرم ، فليس على وجه الأرض بلدة خالية من الكفار سوى الحرمين الشريفين مكة والمدينة.

(ومنها) تحريم إخراج أحجاره وترابه إلى الحل ، وكراهة إدخال ذلك من الحل إلى الحرم .

(ومنها) أن ذبح دماء الهدايا والجبرانات لا يجزئ إلا في الحرم .

(ومنها) أن المتمتع والقارن إذا كانا من أهل الحرم ، لا دم عليهما لكونهما من حاضري المسجد الحرام .

(ومنها) أنه لا يحل حمل السلاح بالحرم لغير ضرورة عند مالك والشافعي ، لما رواه مسلم عن جابر رضي ا لله عنه ، أن النبي ﷺ قال : "لا يحل حمل السلاح بمكة" .

(ومنها) أن الدجال لا يدخل مكة ولا المدينة كما في الصحيح .

(ومنها) أن الصلاة سواء كانت سنة الطواف وغيرها ، لا تكره في أي وقت من الأوقات في حرم مكة سواء المسجد وغيره ، لخبر : "يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى فيه أية ساعة شاء من ليل أو نهار" ، رواه الترمذي وغيره ، بخلاف خارج حرم مكة وبخلاف حرم المدينة وبيت المقدس ، فإن الصلاة التي لا سبب لها لا تصلى فيها في خمسة أوقات كما هو معروف في كتب الفقه .

(ومنها) تضاعف الحسنات في مكة وبالأخص الصلاة في المسجد الحرام كما في حديث ابن الزبير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في مسجدي" . رواه الإمام أحمد . اهـ.

وفي بعض الروايات : "صلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة" . ولا فرق في التضعيف بين الفرض والنفل . واختلفوا في المراد بالمسجد الحرام الذي تضاعف فيه الصلاة على سبعة أقوال ، قيل : الكعبة المعظمة والمسجد حولها ، وقيل مكة ، وقيل جميع الحرم ، وقيل غير ذلك ، راجع العزيز بن علي الجامع الصغير ، وروي مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنهما : "من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل له وما حسنات الحرم ؟ قال : بكل حسنة مائة ألف حسنة" .

وذكر الأزرقي في أخبار مكة "أن النبي ﷺ ، حين استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، قال : هل تدري على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله فاستوصي بهم خيراً يقولها ثلاثاً" ، وعن ابن عباس أنه ﷺ ، قال لمقبرة مكة : "نعم المقبرة هذه" .

وقال عليه الصلاة والسلام : "الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة" ، وهما مقبرتا مكة والمدينة . وقال : "من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً" .

انتهى من كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" .

تعظيم الحرم الشريف

جاء في تاريخ الأزرقي عند الكلام على تعظيم الحرم، وتعظيم الذنب فيه، والإلحاد فيه ما نصه:

حدثنا أبو الوليد، حدثني جدي، حدثنا سفيان، عن مسعر، عن مصعب بن شيبة، عن عبدالله بن الزبير قال: إن كانت الأمة من بني إسرائيل لتقدم مكة فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيماً للحرم. قال الغازي في تاريخه: حج أبو جعفر المنصور، سنة ست وثلاثين ومائة، قبل أن يستخلف، فلما وصل إلى الحرم نزل وخلع نعليه ومشى حافياً تعظيماً للحرم. انتهى.

قال الأزرقي: حدثنا أبو الوليد، حدثنا عمر بن حكام البصري، عن شعبة، عن منصور، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾. قال: كان لعبدالله ابن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم، فقيل له في ذلك، فقال: إنا كنا نتحدث أن من الإلحاد في الحرم أن يقول: كلا والله وبلى والله.

حدثنا أبو الوليد، حدثني جدي، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان يعجبهم إذا قدموا مكة أن لا يخرجوا منها حتى يختموا القرآن.

حدثنا أبو الوليد، وحدثني جدي، عن سفيان بن إبراهيم بن ميسرة، عن طاووس عن ابن عباس قال: استأذنني الحسين بن علي في الخروج فقلت: لولا أن يزرأ بي أو بك لتشبثت بيدي في رأسك، فكان الذي رد علي من قول: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تستحل حرمتها بي - يعني الحرم - فكان ذلك الذي سلا نفسي عنه. قال: ثم يقول طاووس: والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً للمحارم من ابن عباس رضي الله عنه، ولو شاء أن أبكي لبكيت.

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدي، حدثنا يحيى بن سليم، حدثنا عبدالله بن صفوان الوهطي قال: سمعت أبي يقول: بلغني أن رسول الله ﷺ، قال: سكن مكة حي من العرب، فكانوا يكرون الظلال ويبيعون الماء، فأبدلها الله تعالى بهم قريشاً، فكانوا يظلون في الظلال ويسقون الماء.

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي وإبراهيم بن محمد قالا: أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي ، عن ابن أبي نجيح ، عن أبيه قال : لم تكن كبار الحيتان تأكل صغارها في الحرم من زمن الغرق . قال: حدثني جدي وإبراهيم بن محمد ، عن مسلم بن خالد ، عن ابن خيثم قال : كان بمكة حي يقال لهم : العماليق فأحدثوا فيها أحداثاً فنفاهم الله عز وجل منها فجعل يقودهم بالغيث ، ويسوقهم بالسنة ، يصنع الغيث أمامهم فيذهبون فلا يجدون شيئاً ، فيتبعون الغيث حتى ألحقهم الله تعالى بمساقط رؤوس آباءهم وكانوا من حمير ، ثم بعث الله عليهم الطوفان ، قال الزنجي : فقلت لابن خيثم : وما كان الطوفان ؟ قال : الموت . انتهى منه .

وفيه أيضاً حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي وإبراهيم بن محمد الشافعي قالا : أخبرنا مسلم بن خالد ، عن ابن خيثم ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبدالله ، أن رسول الله ﷺ ، لما نزل الحجر (أي مدائن صالح) في غزوة تبوك قام فخطب الناس ، فقال : يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم آية ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ، ويشربون من لبنها مثل ما كانوا يتروون من مائهم من غبها ، إلا وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها فوعدهم الله ثلاثة أيام ، فكان موعد من الله تعالى غير مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحة ، فأهلك الله من كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم ، إلا رجلاً كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله ، فقالوا : يا رسول الله ، ومن هو ؟ قال : أبو رغال .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، عن مسلم بن خالد ، عن أيوب بن موسى ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال : أيها الناس إن هذا البيت لاق ربه فسائله عنكم ألا فانظروا فيما هو سائلكم عنه من أمره ألا واذكروا إذ كان ساكنه لا يسفكون فيه دماً حراماً ، ولا يمشون فيه بالنميمة .

وفيه أيضاً : حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا أحمد بن ميسرة المكي ، حدثنا عبدالمجيد بن عبدالعزيز بن أبي رواد عن أبيه ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان يقول : لخطيئة أصيبها بمكة أعز علي من سبعين خطيئة أصيبها بركبة ، وبه قال أحمد بن ميسرة ، عن عبدالمجيد بن عبدالعزيز ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب ، كان يقول لقريش : يا معشر قريش الحقوا بالأرياف فهو أعظم لأخطاركم ، وأقل لأوزاركم ، وبه قال : حدثني أحمد بن ميسرة ، عن عبدالمجيد بن عبدالعزيز ، عن

أبيه قال : أخبرت أن سعيد بن المسيب رأى رجلاً من أهل المدينة بمكة فقال : ارجع إلى المدينة ، فقال الرجل : إنما جئت أطلب العلم ، فقال سعيد بن المسيب : أما إذا أبيت فإنا كنا نسمع أن ساكن مكة لا يموت حتى يكون عنده بمنزلة الحل لما يستحل من حرمتها ، وبه عن عبدالمجيد بن عبدالعزيز ، عن أبيه قال : أخبرت أن عمر بن عبدالعزيز، قدم مكة وهو إذ ذاك أمير ، فطلب إليه أهل مكة أن يقيم بين أظهرهم بعض المقام وينظر في حوائجهم ، فأبى عليهم ، فاستشفعوا إليه بعبدا لله بن عمر بن عثمان ، قال فقال له : اتق ا لله ، فإنها رعيتك وإن لهم عليك حقاً ، وهم يحبون أن تنظر في حوائجهم فذلك أيسر عليهم من أن ينتابوك بالمدينة ، قال : فأبى عليه قال : فلما أبى له عبدا لله بن عمرو : أما إذا أبيت فأخبرني لم تأبى ؟ فقال له عمر : مخافة الحدث بها ، وقال عبدالعزيز : وأخبرت أن عمر بن عبدالعزيز وافقه شهر رمضان بمكة ، فخرج فصام بالطائف .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، حدثنا يحيى بن سليم قال : سمعت ابن خيثم يحدث عن عثمان أنه سمع ابن عمر يقول : احتكار الطعام بمكة للبيع إلحاد ، وبه حدثنا يحيى بن سليم ، حدثنا عثمان بن الأسود ، عن مجاهد قال : بيع الطعام بمكة إلحاد ، قال عثمان : يعني أن يشتري ها هنا ويبيع ها هنا ولا يعني الجالب ، وبه حدثنا يحيى بن سليم ، عن ابن خيثم ، عن عبيدا لله بن عياض ، عن يعلى بن منبه ، أنه سمع عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه يقول : يا أهل مكة ، لا تحتكروا الطعام بمكة ، فإن احتكار الطعام بمكة للبيع إلحاد .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، حدثنا سعيد بن سالم ، عن عثمان ابن ساج قال : قال مجاهد : ومن يرد فيه بإلحاد بظلم يعمل عملاً سيئاً ، وقال غيره : المسجد الحرام والمشركون صدوا رسول ا لله ﷺ عن المسجد ، وعن سبيل ا لله يوم الحديبية .

حدثنا أبو الوليد ، حدثني جدي ، عن سعيد بن سالم ، عن ابن جريج في قوله عز وجل: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ استحلالاً متعمداً ، قال : وقال ابن جريج أيضاً ، قال ابن عباس : والشرك .

وفيه أيضاً : حدثنا أبو الوليد قال : أخبرني جدي عن سعيد ، عن عثمان ، أخبرني المثنى بن الصباح عن عطاء بن أبي رباح ، حدثني إسماعيل بن جليحة قال : كان عبدا لله بن عمر ، إذا طاف بين الصفا والمروة دخل على خالة له فقال : أين

ابنك؟ فقالت : بأبي أنت وأمي يخرج إلى هذا السوق ، فيشتري من السمراء ويبيعها . قال : فمريه لا يقربن من ذلك شيئاً فإنه إلحاد . قال عثمان: قال مجاهد : العاكف فيه ، الساكن فيه والبادي الجالب ، قال عثمان : وأخبرني محمد بن السائب الكلبي قال : العاكف أهل مكة ، وأما البادي فمن أتاه من غير أهل البلد ، قال عثمان : وأخبرني يحيى بن أبي أنيسة قال : قال إسماعيل : سمعت مرة الهمداني يقول : سمعت عبدا لله بن مسعود يقول: ليس أحد من خلق ا لله تعالى يهم بسيئة فيها ، فيؤخذ بها ولا تكتب عليه ، حتى يعملها غير شيء واحد ، قال : ففزعنا لذلك ، فقلنا ما هو يا أبا عبدالرحمن؟ فقال عبدا لله : من هم أو حدث نفسه بأن يلحد بالبيت أذاقه ا لله عز وجل من عذاب أليم ، ثم قرأ : ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ ، قال عثمان : وأخبرني يحيى بن أبي أنيسة قال : قال السدي : الإلحاد الاستحلال ، فإن قوله عز وجل: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ ، يعني الظلم فيه فيقول : من يستحله ظالماً فيتعدى فيه فيحل فيه ما حرم ا لله تعالى ، قال عثمان : وأخبرني المثنى ابن الصباح قال : بلغني أن عبدا لله بن عمرو بن العاص وعبدا لله بن الزبير كانا جالسين ، فقال عبدا لله بن عمرو بن العاص : إني لأجد في كتاب ا لله عز وجل رجلاً يسمى عبدا لله عليه نصف عذاب هذه الأمة ، فقال عبدا لله بن الزبير : لئن كنت وجدت هذا في كتاب ا لله تعالى إنك لأنت هو ، قال : وإنما أراد عبدا لله بن عمرو بهذا أي فلا يستحل القتال في الحرم .

حدثنا أبو الوليد ، حدثنا محمد بن عبدا لله بن سليمان بن منصور السهامي ، حدثنا محمد بن زياد عن ابن قرة ، عن عثمان بن الأسود بسنده ، إما عن مجاهد ، وإما عن غير ذلك قال : من أخرج مسلماً من ظله في حرم ا لله تعالى من غير ضرورة ، أخرجه ا لله تعالى من ظل عرشه يوم القيامة .

حدثنا أبو الوليد : حدثني جدي عن سفيان بن عيينة ، عن سفيان الثوري ، عن جابر الجعفي ، عن مجاهد وعطاء في قوله تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ قال : العاكف أهل مكة ، والبادي الغرباء سواء هم في حرمته .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا جدي ، حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال : حدثني إسماعيل بن أمية أن عمر بن الخطاب قال : لأن أخطئ سبعين خطيئة بركبة ، أحب إلي من أن أخطئ خطيئة واحدة بمكة ، قال ابن جريج ، قال مجاهد : حذر عمر قريشا الحرم ، قال : وكان بها ثلاثة أحياء من العرب فهلكوا . لأن

أخطئ اثنتي عشرة خطيئة بركبة ، أحب إلي من أن أخطئ خطيئة واحدة إلى ركنها ، قال ابن جريج : بلغني أن الخطيئة بمكة مائة خطيئة والحسنة على نحو ذلك . وقال ابن جريج : حدثني إبراهيم حديثاً رفعه إلى فاطمة السهمية عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : الإلحاد في الحرم ظلم الخادم فما فوق ذلك .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا محمد بن سوقة عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : حج الحواريون فلما دخلوا الحرم مشوا تعظيماً للحرم .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، حدثنا إبراهيم بن محمد عن أبان بن أبي عياش ، عن عبدالرحمن بن سابط أنه سمع عبدالله بن عمر وهو جالس في الحجر يطعن بمحصرته في البيت وهو يقول : انظروا ما أنتم قائلون غداً إذا سئل هذا عنكم وسئلتم عنه واذكروا إذ عامره لا يتجر فيه بالربا ، ولا يسفك فيه الدماء ، ولا يمشي فيه بالنميمة .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، حدثنا إبراهيم بن محمد قال : حدثني صفوان بن سليم عن فاطمة السهمية ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : الإلحاد في الحرم شتم الخادم فما فوق ذلك ظلماً . انتهى من تاريخ الأزرقي .

نقول : قال عبدالله بن الزبير ، رضي الله عنهما : إن كانت الأمة من بني إسرائيل لتقدم مكة ، فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيماً للحرم . ولما حج أمير المؤمنين المنصور ، رحمه الله تعالى ، في سنة (١٣٦) هجرية ووصل الحرم ، نزل وخلع نعليه ومشى حافياً تعظيماً للحرم .

وفي تاريخ الأزرقي عن طاووس ، عن ابن عباس قال : إذا دخل القاتل الحرم لم يجالس ، ولم يبايع ، ولم يؤو ، ويأتيه الذي يطلبه فيقول : يا فلان اتق الله في دم فلان واخرج من المحارم ، فإذا خرج أقيم عليه الحد .

وفيه أيضاً : قال ابن جريج : أخبرني عكرمة بن خالد قال : قال عمر : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه .

قال ابن جريج : وبلغني أن الرجل كان يلقى قاتل أخيه ، أو أبيه في الكعبة ، أو في الحرم ، أو في الشهر الحرام ، فلا يعرض له أو محرماً أو مقلداً هدياً قد بعث به ،

فلا يعرض له وهم يغير بعضهم على بعض فيقتلون ويأخذون الأموال في غير ذلك ، فجعل ا لله ذلك قياماً لهم لولا ذلك لم يكن لهم بقية .

وفيه أيضاً : عن عطاء عن ابن عباس ، أن غلاماً من قريش قتل حمامة من حمام الحرم ، قال ابن عباس : فيه شاة وبه قال سفيان عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : في حمام مكة شاة .

وفيه أيضاً : عن ابن جريج ، عن مجاهد قال : أمر عمر بن الخطاب ، رضي ا لله عنه ، بحمامة فأطيرت فوقعت على المروة ، فأخذتها حية ، فجعل فيها عمر شاة .

وفيه أيضاً : قال عطاء في بيضة كسرت وفيها فرخ قال : درهم ، وقال رجل لعطاء : اجعل بيضة دجاجة تحت حمام بمكة . قال : لا ، أخشى أن يضر ذلك بيضها .

وفيه أيضاً : عن خالد بن مضرس ، أن رجلاً من الحاج قطع شجرة من منزله بمنى ، قال : فانطلقت به إلى عمر بن عبدالعزيز فأخبرته خبره ، قال : صدق كانت ضيقت علينا منزلنا ومناخنا . فتغيظ عليه عمر ثم قال : ما رأيته إلا دينه .

وفيه أيضاً : عن عبدا لله بن نافع عن أبيه قال : كان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله وطعامه وثيابه ما يطرده ، وكان ابن عباس يرخص أن يكشكش .

وعن محمد بن يزيد بن خنيس ، عن عبدالعزيز بن أبي داود : أن قوماً انتهوا إلى ذي طوى ونزلوا بها فإذا ظبي قد دنا منهم فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه ، فقال له أصحابه : ويحك أرسله ، قال : فجعل يضحك ويأبى أن يرسله . فبعر الظبي وبال ثم أرسله ، فناموا في القايلة ، فانتبه بعضهم فإذا بحية منطوية على بطن الرجل الذي أخذ الظبي ، فقال له أصحابه : ويحك لا تتحرك وانظر ما على بطنك . فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحدث ما كان من الظبي .

وفيه أيضاً : عن عثمان بن الأسود ، عن مجاهد : قال دخل قوم مكة تجاراً من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب ، فنزلوا بذي طوى تحت سمرات يستظلون بها ، فاختبزوا ملة لهم (أي خبزاً لهم) ولم يكن معهم أدم ، فقام رجل منهم إلى قوسه فوضع عليها سهماً ، ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى ، فقاموا إليها فسلخوها وطبخوا لحمها ليأتدموا به ، فبينما قدرهم على النار تغلي

بلحمة وبعضهم يشتوي ، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة ، فأحرقت القوم جميعاً ، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التي كانوا تحتها .

وفيه أيضاً : عن سالم بن عبدالله ، عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : خمس من الدواب لا جناح على من قتلهن وهو محرم وفي الحرم : الغراب والحدأة والفأرة والكلب العقور والعقرب .

وفيه أيضاً : عن ابن أبي رواد ، عن أبيه قال : سمعت غير واحد من الفكهاء يذكرون أنه يكره أن يخرج أحد من الحرم من ترابه أو حجارته بشيء إلى الحل . قال : ويكره أن يدخل من تراب الحل أو حجارته إلى الحرم بشيء أو يخلط بعضه ببعض .

وفيه أيضاً : عن عبدالمجيد ، عن أبيه قال : أخبرني بعض من كنا نأخذ عنه ، أن ابن الزبير تقدم يوماً إلى المقام ليصلي وراءه ، فإذا حصى بيض أتي بها وطرحت هنالك ، فقال : ما هذه البطحاء؟ قال : فقيل له : أنه حصى أتي بها من مكان كذا وكذا خارج من الحرم . قال ، فقال : القطوه وارجعوا به إلى المكان الذي جئتم به منه وأخرجوه من الحرم ، وقال : لا تخلطوا الحل بالحرم .

وفيه أيضاً : عن عبدالمجيد بن أبي رواد ، عن أبيه قال : وأدركتهم أنا بمكة وإنما يؤتى ببطحاء المسجد من الحرم .

انتهى كل ذلك ملخصاً من تاريخ الأزرقي ، وفي ذلك كفاية لمن اعتبر .

بعض ما ورد في القرآن الكريم في فضل المسجد الحرام

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ۞ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ۞ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ۞

ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [١٢٥-١٢٩]. وقال عز شأنه في سورة آل عمران: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [٩٦-٩٧]. وقال جل جلاله في سورة المائدة: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ [٩٧]. وقال سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ۞ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ۞ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ۞ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ۞ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[٣٥-٤١]. وقال جل جلاله في سورة الحج: ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ۞ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ۞ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ۞ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ۞ حنفاء لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ۞ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ۞ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [٢٥-٣٣].

ولقد أحصى الشيخ عبدالوهاب النجار، رحمه الله تعالى، سور القرآن التي ورد فيها ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام، والآيات الكريمة. وفيما يلي هذا الإحصاء، نقلناه من كتاب أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

رقم متسلسل	السورة	رقم السورة	رقم الآيات
١	البقرة	٢	١٢٤،١٢٥،١٢٦،١٢٧،١٣٠،١٣٢، ١٣٣،١٣٥،١٣٦،١٤٠،٢٥٨،٢٦٠
٢	آل عمران	٣	٣٣، ٣٥، ٦٧، ٦٨، ٧٤، ٩٥، ٩٧
٣	النساء	٤	٥٤،١٢٥،١٦٣
٤	الأنعام	٦	٧٤،٧٥،٨٣،١٥١
٥	التوبة	٩	٧٠،١١٤
٦	هود	١١	٦٩،٧٤،٧٥،٧٦
٧	يوسف	١٢	٦،٣٨
٨	إبراهيم	١٤	٣٦
٩	الحجر	١٥	٥١
١٠	النحل	١٦	١٢٠،١٢٣
١١	مريم	١٩	٤١،٤٦،٥٨
١٢	الأنبياء	٢١	٥١،٦٠،٦٢،٦٩
١٣	الحج	٢٢	٢٦،٤٣،٧٨
١٤	الشعراء	٢٦	٦٩
١٥	العنكبوت	٢٩	١٦،٣١
١٦	الأحزاب	٣٣	٧
١٧	الصافات	٣٧	٨٣،١٠٤،١٠٩
١٨	ص	٣٨	٤٥
١٩	الشورى	٤٢	١٣
٢٠	الزخرف	٤٣	٢٦
٢١	الذاريات	٥١	٢٤
٢٢	النجم	٥٣	٢٧
٢٣	الحديد	٥٧	٢٦

رقم متسلسل	السورة	رقم السورة	رقم الآيات
٢٤	الممتحنة	٦٠	٤
٢٥	الأعلى	٨٧	١٩

الكلام على قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس... الآية﴾

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

قال الإمام الأزرقي عند الكلام على هذه الآية: حدثني جدي عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه في الأرض المقدسة، وقال المسلمون الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فنزل: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً - حتى بلغ- فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾، وليس ذلك في بيت المقدس، ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وليس ذلك في بيت المقدس. انتهى من الأزرقي.

نقول: الذي نفهمه من هذه الآية الكريمة: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ هو أن الله عز شأنه، جعل بيته الشريف أول بيت بني لعبادته جل جلاله بكيفية مخصوصة، وهي الطواف حوله واستلام الركن الأسود، والوقوف عند بابه بالملتزم بذلة وخضوع وانكسار وخشوع، واستقباله والتوجه إليه في الصلاة حال القرب والبعد، إلى غير ذلك مما اختصه الله تعالى من المزايا والأسرار.

على أن المساجد كلها تسمى بيوت الله، قال تعالى في سورة النور: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ۞ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله... الآية﴾، ولكن شأن تلك المساجد، غير شأن هذا المسجد الحرام الذي فيه بيت الله المعظم الذي يتوجه إليه كل من صلى في تلك المساجد، أو صلى في غيرها في أي بقعة من بقاع الأرض. ولقد بين الله عز وجل علامات بيته الحرام في الآية السابقة بقوله: ﴿فيه آيات بينات مقام

إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ حتى يعرفه الناس تماماً ، فلا يدعي قوم بأن المراد به بعض معابد أهل الكتاب ، كما بين ، سبحانه وتعالى ، وهو الغني عن العالمين ، بعض مزايا بيته الكريم في قوله بسورة البقرة: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ .

وفي قوله بسورة الحج: ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ۞ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ ، إلى آخر الآيات ، أي إلى قوله تعالى: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ .

ويستدل بعض العلماء والمؤرخين بآية : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ ، وبآية ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ أن إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، هو أول من بنى بيت الله المعظم . ونحن نقول : أن الآيتين المذكورتين تثبتان وقوع البناء لخليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولا يفهم منهما أنه هو أول من بناه ، فقد يجوز أنه هو أول من بناه كما يجوز أن الملائكة بنته قبل البشر ، ويجوز أيضاً أن آدم عليه السلام أو أحداً من أبنائه الأنبياء بناه ، كما يظهر ذلك لدى التأمل . فإبراهيم ، صلوات الله وسلامه عليه ، هو أول من اكتشف مكة ، وأول من أسكن فيها ذريته ، وأول من أخذ عنه الناس صنعة البناء بمكة .

وإذا أنعمنا النظر في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ ظهر لنا من جملة : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أن خليل الله إبراهيم ﷺ هو أول من بنى البيت ، بدليل أن مقامه المذكور في الآية لا يزال موجوداً إلى اليوم عند الكعبة .

أما إن قلنا أن الملائكة أو آدم أو ابنه شيث عليهم الصلاة والسلام ، هم الذين بنوا الكعبة من قبل إبراهيم عليه السلام ، فيكون بناء ليس عنده المقام بالطبع .

على أنه لا مانع إن قلنا أنهم بنوا الكعبة قبل الخليل ، بمعنى أنهم بنوها بناء غير بناء إبراهيم ، فهذا بناها بالحجر رضما ، والملائكة رموا في أساسها الصخور العظام

من مختلف الجبال ، ونزلت على آدم على صفة خيمة من خيام الجنة من ياقوتة حمراء ، وبعد موته رفعت إلى السماء ، وقيل رفعت زمن الطوفان ، كما ذكره الأزرقي وا لله تعالى أعلم .

وإذا تأملنا في كلمة "وضع للناس" ظهر لنا أيضاً أن هذا البيت هو أول بيت وضعه ا لله للناس ، أي للبشر فقط ، وهذا يدل على أن إبراهيم ، عليه السلام ، هو أول من بنى هذا البيت الموضوع للناس ، والأولية هنا لا مفهوم لها ، أي ليس هناك بيت ثاني وثالث ورابع ، فهذا البيت الكريم هو أول بيت وآخر بيت وضعه ا لله تعالى للعبادة على طريقة مخصوصة ، أي بالطواف حوله وبالتوجه إليه عند الصلاة .

وإن ذهبنا مع القول القائل أن الملائكة هم أول من بنوا البيت ، فيكون معناه أنهم رموا في أساسه الأول بمكة البالغ إلى الأرض السابعة الصخور العظام من الجبال الخمسة الآتي ذكرها ، وكان البيت على صفة خيمة من ياقوتة حمراء نزلت من الجنة - وا لله تعالى أعلم بحقيقة كل ذلك .

فالكعبة المعظمة ، هي أول بيت وضع في الأرض لعبادة ا لله تعالى بالكيفية التي ذكرناها ، بل هي بهذه الكيفية المخصوصة ، أول بيت وآخر بيت ، إذ ليس لها ما يماثلها في الأرض مطلقاً .

ونفهم من هذه الآية أيضاً : أن الكعبة المشرفة هي أول بيت بني في مكة ، حيث كانت قفراء خلاء ، لا ناس فيها ولا ماء ولا كلاء ، ولم تعرف مكة إلا بعد أن اكتشفها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بواسطة جبريل حينما أمره ا لله عز وجل ، أن يأخذ ابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة ويتركهما بها ، فكان من أمرهما ما كان ، من إخراج زمزم ، ثم اهتداء قبيلة من جرهم إليهما وإقامتهم معهما ، فكانوا يبنون عريشاً من شجر الأراك وغيره ويسكنون فيه ، أو يقيمون في مغارات الجبال وكهوفها ، حتى أمر ا لله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام ، ببناء بيته الحرام ، فأتى إليهم بمكة وقام يبني بيت ا لله عز شأنه ، مع ابنه إسماعيل بعد أن كبر في المكان الذي بوأه ا لله له ، يبنيه بالرضم ، أي بحجارة بعضها فوق بعض بدون طين ولا نورة .

فعليه تكون الكعبة هي أول بيت بني بالحجارة بمكة ، وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أول من اكتشف مكة ، وأول من اتخذها سكناً لزوجته هاجر وولده

إسماعيل ، وهو أول من علم أهل مكة بناء البيوت بالرضم بالحجارة ، فلا يزال بعض العرب بالحجاز يبنون بيوتهم بالرضم إلى عصرنا هذا .

ومعنى كلمة "بيكة" المراد بها مكة كما ذكروه ، فهي من جملة أسمائها ، والذي نذهب إليه أن المراد "بيكة" ، البقعة التي بنيت بين أخشبي مكة ، وهما جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان فقط ، وهي البقعة التي فيها البيت الحرام ، فمن تأمل قوله تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ ظهر له هذا المعنى بوضوح .

ولقد كان العرب منذ عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يسكنون بمكة خارج الحرم ، ويأتون إلى بيت الله الحرام نهاراً للطواف والعبادة ، فإذا أمسوا خرجوا إلى مساكنهم البعيدة عنه ، حرمة وتعظيماً له ، فكأن البيت الحرام قائماً وحده في هذا الوادي المبارك ، بين أخشبي مكة ، ليس حوله بيوت مطلقاً ، حتى زمن قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ الذي كان حاكماً على مكة .

فإنه أمر قريشاً أن يبنوا منازلهم بقرب الكعبة ، ولا يبتعدوا عنها حتى تهابهم العرب وتعظمهم حرمة للبيت الحرام ، وخصص لكل قبيلة منهم جهة من جهات الكعبة ، وهو أول من أقدم على البناء عندها ، فبنى لهم "دار الندوة" فتبعته قريش في ذلك .

فلما جمع قصي بن كلاب قريشاً بمكة ، سمي "مجمعاً" ، وفي ذلك يقول حذافة بن غانم الجمحي يمدحه :

أبوهم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

همو نزلوها والمياه قليلة ... وليس بها إلا كهول بني عمرو

يعني خزاعة .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لعبادته ، وتعظيم بيته الحرام ، وحرمة مكة بلده الأمين ، وأن يعصمنا من الإلحاد والظلم فيه ، وأن يميتنا به على الإيمان الكامل ، على نظافة وطهارة وراحة تامة ، وأن يلحقنا بالصالحين بفضله ورحمته ، إنه بعباده لطيف خبير آمين . والحمد لله رب العالمين .

زيادة التأمل

في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

لقد تقدم ما ذكرناه في هاتين الآيتين الكريمتين، واليوم بعد التأمل فيهما فتح الله علينا بما يأتي:

(١) قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾، إن قلنا أن الملائكة الكرام أو آدم عليهم الصلاة والسلام، هم أول من بنى بيت الله الحرام "الكعبة المشرفة"، فيكون هذا البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس حقاً، إذ لم يكن في ذلك العصر الأول بشر على وجه الأرض، غير آدم عليه الصلاة والسلام ونفر من ذريته، فما كانوا يعرفون بناء البيوت والعمارات، وإنما كانوا يأوون من الشمس والأمطار إلى ظلال الأشجار وحجور الصخار والجبال. وهذه قصة بني آدم المذكورة في القرآن الكريم، شاهدة على جهل الناس في العصور الأولى بمنافعهم الذاتية، فإنه لما قتل أحدهما الآخر، لم يدر القاتل ماذا يفعل بأخيه المقتول، وكيف يواري سوءة أخيه حتى بعث الله تعالى إليه غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، فتعلم ابن آدم من الغراب كيف يدفن أخاه.

(٢) وإن قلنا أن خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والتسليم، هو أول من بني بيت الله الحرام بمكة، فيكون هذا البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس حقاً بمكة، فإن مكة لم تعرف إلا بعد ما أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل وأمه هاجر فيها، كما أمره الله عز وجل، عليهم الصلاة والسلام، فمكة يومئذ لم يكن فيها إنس ولا حيوان ولا نبات ولا ماء، إلا أشجار الشوك تنبت على ماء الأمطار، فلما سكن بها إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام، أخرج الله تعالى لهما ماء زمزم، وأرسل لهما نفراً من قبيلة جرهم يسكنون معهما بمكة ويقيمون بها، فكانوا يسكنون في كهوف الجبال القريبة لهم، كجبل قبيس وجبل قعيقعان.

فلما أمر ا لله عز وجل خليله إبراهيم ببناء البيت الحرام بمكة ، جاء من فلسطين لهذا الغرض إلى مكة المكرمة ، فوجد فيها ابنه إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، وقد كبر وصار رجلاً كاملاً نبيلاً ، فقاما يبنيان البيت الحرام في محله الحالي بمكة ، فعليه يكون هذا البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس بمكة ، إذ لم يكونوا يعرفون بناء البيوت والعمارات في ذلك العصر.

فهذا البيت الحرام لم يوضع لسكنى الناس فيه ، وإنما وضع لعبادتهم عنده والطواف به ، فهو بيت مبارك وهدى للعالمين ، كما أخبر ا لله عز وجل بذلك عنه في القرآن العظيم .

(٣) وإن قيل لنا أن هذا البيت الحرام ، ليس هو بأول بيت في الأرض ، فلقد كانت البيوت موجودة من قديم العصور في مصر والشام والعراق وفلسطين وغيرها .

نقول : إن البيت الحرام ، هو أول بيت وضع للناس بمكة للعبادة الحقة لعبادة ا لله الملك الديان ، إنه ليس كالبيوت المزيفة لعبادة الأصنام والأوثان ، ثم إن بيت ا لله الحرام ، وضع للناس على أساس التوحيد والتقوى ، وتكون العبادة فيه على وجه خاص ممتاز ، كجعله قبلة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وكالطواف حوله سبع مرات ، وكاستلام الركن الأسود منه ، وكالحج إليه ، وكجعل الطواف حوله ركناً من أركان الحج ، ثم إن هذا البيت الحرام ، هو كما وضعه ا لله عز وجل ، في الآية المذكورة ، أنه مبارك وهدى للعالمين إلى قيام الساعة .

(٤) قد أخبر ا لله تعالى عن هذا البيت الحرام ، بأنه فيه آيات بينات مقام إبراهيم -- فالبيت الحرام هو في وسط المسجد الحرام ، والمسجد الحرام هو موضع المطاف القديم قبل توسعته في عصرنا الحاضر ، ففي هذا البيت الحرام وبالقرب منه آيات بينات وهي مقام إبراهيم عليه الصلاة والتسليم ، والمقام هو هذا الحجر الذي قام عليه عند بنائه البيت الحرام ، وهو محفوظ إلى اليوم واقع أمام الكعبة المشرفة ، بينه وبينها نحو عشرة أمتار – ومن جملة الآيات البينات ماء زمزم الذي خرج إغاثة لإسماعيل وأمه هاجر عليهما الصلاة والسلام ، وهو موجود إلى اليوم أمام الكعبة المشرفة ، بينه وبينها كما بين المقام والكعبة . ومن الآيات البينات : الصفا والمروة

والسعي بينها إلى قيام الساعة . ومن الآيات البينات : أن من دخله كان آمناً على نفسه وأهله وماله ، ليس لأحد أن يؤذي أو يسيء إلى من لاذ بالحرم .

هذا شيء من الآيات البينات الواضحة الظاهرة للناس كافة ، وهناك من الأمور ما لا يظهر إلا لخواص المؤمنين .

فسبحان الله لولا هذا البيت الحرام ، ما كان الحج إلى المشاعر العظام ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

فائدة مهمة

رأينا من المناسب أن نذكر هنا ما ورد في "نتيجة جمهورية مصر" لسنة (١٣٧٤) من الهجرة الموافقة لسنة (١٩٥٤) ميلادية ، لما لها من الفائدة المهمة ، وهذا نص ما جاء فيها :

حساب أوائل الشهور العربية

اصطلح العرب على أن اليوم يبتدئ من غروب الشمس وينتهي عند غروبها التالي . ويبدأ الشهر من ليلة الاستهلال وينتهي باستهلال الشهر التالي . ويتعين الاستهلال شرعاً برؤية الهلال ، ولما كانت رؤيته تتوقف على أمور متغيرة كحالة الجو ودقة الهلال ومقدار نوره وغير ذلك والحساب لا بد أن يكون مبنياً على أساس ثابت ، لذا اعتمد الحاسبون في تعيين أول الشهر على اجتماع الشمس بالقمر .

فإذا ما وقع الاجتماع ، كانت أول ليلة يغرب فيها القمر بعد غروب الشمس ، هي أول الشهر ، وما قبلها يكون من الشهر الماضي . وهذا هو المتبع في حساب الشهور العربيه في هذه النتيجة .

وقد تتفق الرؤية مع الحساب وقد يتقدم الحساب على الرؤية بيوم في الأكثر أو بيومين في الأقل ولا يمكن أن تتقدم الرؤية على الحساب .

وأول المحرم من السنة الأولى من التاريخ الهجري بالحساب كانت ليلة الخميس ١٥ يولية سنة ٦٢٢ ميلادية وبالرؤية ليلة الجمعة ١٦ يولية سنة ٦٢٢ ميلادية جوليانية .

مواقيت الصلاة

وارتباطها باليوم العربي واليوم الإفرنجي

(اليوم العربي) يبتدئ من غروب الشمس وليله سابق لنهاره. وعلى هذا الاعتبار تكون أوقات الصلاة سارية فيه بالتتبع هكذا: الغروب والعشاء والفجر والظهر والعصر.

(واليوم الإفرنجي) يبتدئ من نصف الليل. ونهاره واقع بين نصفي ليله، وعلى هذا الاعتبار تكون أوقات الصلاة سارية فيه بالتتابع هكذا: الفجر والظهر والعصر والغروب والعشاء.

ومن هنا يلاحظ أن مبدأ اليوم العربي متقدم عن مبدأ اليوم الإفرنجي بربع مدته الأولى. وفيما يختلف عنه في اسم يوم الأسبوع والتاريخ وفي وقتي الغروب والعشاء. ويتفق معه في ثلاثة أرباع مدته الباقية منه في أوقات الفجر والشروق والظهر والعصر. نتج عن هذا البيان أن أوقات الصلاة في اليوم العربي تبتدئ من وقت الغروب وتنتهي بانتهاء وقت العصر.

وأن أوقات الصلاة في اليوم الإفرنجي تبتدئ من وقت الفجر وتنتهي بانتهاء وقت العشاء.

ومثال ذلك: أن هذا البيان كتب في الساعة الثامنة أفرنجي مساء من ليلة الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية الموافقة مساء يوم الاحد ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية.

وصحح في الساعة الثامنة من نهار الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة (١٣٧٤) هجرية الموافق صباح يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة (١٩٥٤) ميلادية.

ثم كتب على الآلة الكاتبة في الساعة العاشرة إفرنجي من صباح يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة (١٩٥٤) ميلادية الموافق نهار الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية. وصحح في الساعة الثامنة إفرنجي من مساء يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية الموافق ليلة الثلاثاء ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية.

(مثال اليوم العربي): يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هجرية					
الأحد ٧ نوفمبر ١٩٥٤		الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤			
مساء		صباحا			مساء
الغروب	العشاء	الفجر	الشروق	الظهر	العصر
ق ت	ق ت	ق ت	ق ت	ق ت	ق ت
٥،٤	٦،٢٣	٤،٤٥	٦،١٤	١١،٣٩	٢،٤١

نتيجة الحائط للسنة الهجرية : تتغير ورقة اليوم فيها من غروب الشمس فيختلف التاريخ العربي عن التاريخ الإفرنجي ليلاً ويتفقان نهاراً.

(مثال اليوم الإفرنجي): يوم الاثنين ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ميلادية					
الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤			الثلاثاء ١٣ ربيع الأول		
نهاراً			ليلاً		
الفجر	الشروق	الظهر	العصر	الغروب	العشاء
ق ت	ق ت	ق ت	ق ت	ق ت	ق ت
٤،٤٥	٦،١٤	١١،٣٩	٢،٤١	٥،٣	٦،٢٢

نتيجة الحائط للسنة الميلادية الإفرنجية : تتغير ورقة اليوم فيها صباحاً فيتفق التاريخ الإفرنجي مع التاريخ العربي نهاراً ويختلفان ليلاً . انتهى من النتيجة المذكورة.

رأينا من المناسب أن نذكر هنا الفصول ومبادئها ما ورد في "نتيجة الحكومة المصرية" لسنة (١٣٦٦) هجرية الموافقة لسنة (١٩٤٦) ميلادية ، لما لها من الفائدة المهمة . وهذا نص ما جاء فيها:

مبادئ الفصول ومدة أيامها الواقعة في سنة (١٣٦٦) هجرية

فصل	مبادىء بالتاريخ العربي	مبادىء بالتاريخ الإفرنجي	مدة أيام الفصل		
			دقيقة	ساعة	يوم
الشتاء	يوم الأحد ٢٨ محرم سنة ١٣٦٦ الساعة ٧ والدقيقة ٥٥ نهاراً	يوم الأحد ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ الساعة ٠ والدقيقة ٥٤ مساء	١٩	٠٠	٨٩

فصل	مبادىء بالتاريخ العربي	مبادىء بالتاريخ الإفرنجي	مدة أيام الفصل		
الربيع	يوم الجمعة ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦ الساعة ٧ والدقيقة ٧ نهاراً	يوم الجمعة ٢١ مارس سنة ١٩٤٧ الساعة ١ والدقيقة ١٣ مساء	٦	١٩	٩٢
الصيف	يوم الأحد ٣ شعبان سنة ١٣٦٦ الساعة ١ والدقيقة ٢٠ نهاراً	يوم الأحد ٢٢ يونيه سنة ١٩٤٧ الساعة ٨ والدقيقة ١٩ صباحاً	١٠	١٥	٩٣
الخريف	ليلة الأربعاء ٩ ذي القعدة سنة ١٣٦٦ الساعة ٥ والدقيقة ٣٧ ليلاً	يوم الثلاثاء ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ الساعة ١١ والدقيقة ٢٩ مساء	١٤	١٩	٨٩

انتهى من النتيجة المذكورة.

فيعلم مما تقدم، أن الفصول الأربعة المذكورة يعرف وقت دخولها ووقت خروجها في جميع الأقطار والبلدان، وأما في بلدتنا "مكة" شرفها الله تعالى فلا يعرف ذلك من الجو والهواء، لأن غالب أوقاتها تمضي كأيام الصيف في وقت الشتاء لا نعرف البرد الشديد الذي يعرفه العالم، فلا تعرف أوقات الفصول الأربعة عندنا إلا بالحساب. فسبحان الذي بيده ملكوت السموات والأرض.

علة تسمية الجهات الأربعة

جاء في الجزء الأول من تاريخ المسعودي المسمى "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" عن علة تسمية الجهات الأربعة وهي: اليمن والعراق والشام والحجاز ما يأتي:

تنازع الناس في اليمن وتسميته، فمنهم من زعم أنه إنما سمي يمناً، لأنه عن يمين الكعبة، وسمي الشام شاماً لأنه عن شمال الكعبة، وسمي حجاز حجازاً، لأنه حاجز بن اليمن والشام، نحو ما أخبر الله عز وجل عن الفرق الذي بين بحر القلزم وبحر الروم بقوله عز وجل: ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾.

وإنما سمي العراق عراقاً، لمصب المياه إليه كالدجلة والفرات وغيرهما من الأنهار، وأظنه مأخوذاً من عراقي الدلو، وعراقي القربة، ومنهم من زعم أن اليمن إنما سمي يمناً ليمنه، والشام شاماً لشؤمه، وهذا قول يعزى إلى قطرب النحوي في آخرين من الناس - ومنهم من رأى أنه إنما سمي يمناً، لأن الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل تيامن بعضهم يمين الشمس وهو اليمن، وبعضهم تشاءم فوسم له هذا الإسم، وسنذكر تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع، وبعض ما قالوه في ذلك من الشعر عند سيرهم في الأرض واختيارهم البقاع.

وقيل: إنما سمي الشام شاماً، لشامات في أرضه بيض وسود، وذلك في الترب والبقاع وأنواع النبات والأشجار، وهذا قول الكلبي، وقال الشرقي بن القطامي: إنما سمي الشام شاماً، لسام بن نوح، لأنه أول من نزله وقطن فيه، فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول: سام فقالت: شام، وقيل: أن سامراً إنما سميت بذلك إضافة إلى سام، وقيل: إن أول من سكنها من خلفاء بني العباس سماها بهذا الاسم وأنها سرور لمن رآها، وقد ذكر في أسماء هذه المعاقل والبقاع والأمصار وجوه غير ما ذكرنا قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا.

انتهى من تاريخ المسعودي.

وبمناسبة ما تقدم عن علة تسمية الجهات الأربعة، نذكر هنا ما جاء عن علة تسمية الشرق شرقاً، والغرب غرباً، نقلاً عن مجلة الهلال الصادرة بمصر في ١٦ شوال سنة ١٣٦٦ هجرية، وأول سبتمبر سنة ١٩٤٧ ميلادية، فقد كتب فيما بعضهم السؤال الآتي:

لماذا سمي الشرق شرقاً، والغرب غرباً، والواقع أن لكل بلد في العالم، مع كروية الأرض، شرقاً وغرباً، وإلى أي حد من الصحة ينطبق هذا على قولنا: الشرقيون والغربيون. اهـ.

فأجابت مجلة الهلال على هذا السؤال بما يأتي:

كانت هذه التسمية موجودة قبل أن تكتشف أمريكا، وقبل أن تصير كروية الأرض حقيقة. فكانت الدنيا رقعة واحدة، تشرق الشمس عليها من المحيط الهادي وتغرب في المحيط الأطلسي.

وزاد الكشف، وغير آراءنا العلم، ولكن اللغة لم تتغير.

على أنهم زادوا هذه التسمية الآن تفصيلا ، فقالوا الشرق الأوسط والأدنى والأقصى . وتمازجت الأمم ، وانساحت الحدود بعضها على بعض ، فصار كثيراً ما يطلق الشرق والغرب على مجموعة من الآداب والعادات والطقوس غلبت على قوم يسكنون آسيا دون أوروبا ، ولو سكنوا الآن مغارب الأرض .

وأمريكا سموها غرباً ، لاعتبارين :

أولهما : أنهما على العرف القديم هي غرب الغرب . وثانيهما : أن سلالاتها من أوروبا ، فهي بالجنس غربية .

وللجغرافيا رأي غير هذه الآراء ، فخط الطول الرئيسي ، ويسمى بخط الصفر ، هو الذي يقطع بلدة جرينتش بجوار لندن . وتتوالى خطوط الطول شرقاً في أوروبا وآسيا ، أي الخط ١٨٠ ، وهو يقع في أوسط المحيط الهادي .

وكذلك تتوالى خطوط الطول غرباً في المحيط الأطلسي فأمريكا فالمحيط الهادي ، حتى يلتقي خط ١٨٠ الغربي بأخيه الشرقي . وبهذه الخطوط يتحدد الإشراق والإغراب عند من يجوبون الأرض .

جهات المصلين إلى القبلة في جميع البلدان

من المسائل الدقيقة ، التي يندر الحصول عليها ، معرفة جهات المصلين إلى نقطة معينة من الكعبة المشرفة في جميع الأقطار ، وأن معرفتها أو عدم معرفتها لا يترتب عليه حكم شرعي ، إلا أنها من باب "العلم بالشيء ولا الجهل به" .

قال ابن ظهيرة القرشي في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف" ناقلاً بتلخيص ما ذكره العلامة الشيخ عز الدين بن جماعة في دائرته بحذف الكواكب إذ ليس كل أحد يعرف الاستدلال بها ، قال فيه ما نصه :

إن مصر وصعيدها الأعلى ، وسواحلها السفلى : أسوان وأسنا وقوص والفسطاط والإسكندرية والأكيدم والمحلة ودمياط وبلبيس ، وبرقة ، وطرابلس ، وصفد ، وساحل المغرب ، والأندلس ، وما كان على سمة جهتهم ما بين الركن الغربي والميزاب .

وأن جانب الشام الغربي ، ووسط غزة ، والرملة ، وبيت المقدس ، والمدينة الشريفة ، ودمشق ، وفلسطين ، وعكا ، وصيدا ، وما إلى ذلك من السواحل على سمته جهتهم من قبيل ميزاب الكعبة إلى دون الركن الغربي .

وأن الشام كلها غير ما ذكر وهي : حمص وحماة وسلمية وحلب ومنبج وحران وميافارقين ، وما والاهما من البلاد وسواحل الروم ، جهتهم ما بين الميزاب والركن الشامي موقفهم موقف أهل المدينة ودمشق ، لكنهم يتياسرون شيئاً يسيراً ، والجهة شاملة للجميع إن شاء الله تعالى .

وأن الرها والموصل وملطية وسميشاط وسنجار والجزيرة وديار بكر ، وكان على سمت ذلك ، جهتهم إلى القبلة من الركن الشامي إلى مصلى آدم عليه السلام ، أي قرب الحفرة التي في وجه الكعبة .

وأن الكوفة وبغداد وحلوان والقادسية وهمدان والري ونيسابور وخراسان ومرو وخوارزم وبخارى ونسا وفرغانة والشاش ، وما كان على سمت ذلك ، جهتهم ما بين مصلى آدم عليه السلام ، إلى قرب باب الكعبة .

وأن البصرة والأهواز وفارس وكرمان وأصبهان وسجستان وشمال بلاد الصين ، وما كان على سمت ذلك ، جهتهم من باب الكعبة إلى الحجر الأسود.

وأن وسط بلاد الصين والهند والمهرجان وكابل والمهديان والتتار والمغل والخلهار ، وما والاها ، وما كان على سمتها ، جهتهم من الركن الأسود إلى دون مصلى النبي ﷺ .

وأن بلاد الهند وجنوب بلاد الصين وأهل التهايم والسد والبحرين ، وما والاهما ، وكان على سمتها ، جهتهم من مصلى النبي ﷺ إلى ثلثي هذا الجدار .

وأن اليمن بأسره ظفار وحضرموت وصنعاء وعمان وصعده والشحر وسبا ، وما والاهما ، وما كان على سمتها ، جهتهم من دون الركن اليماني بسبعة أذرع إلى الركن اليماني .

وأن الحبشة والزنج وزيلع وأكثر بلاد السودان وجزائر فرسان ، وما والاهما من البلاد ، وكان على سمتها ، جهتهم من الركن اليماني إلى ثلثي الجدار ، وهو آخر الباب المسدود .

وأن جنوب بلاد البجاة ودهلك وسواكن وبلاد البلين والنوبة إلى بلاد التكرور ، وما وراء ذلك ، وما على سمته من بلاد السودان وغيرهم إلى البحر المحيط ، جهتهم من دون الباب المسدود إلى ثلثي الجدار .

وأن شمال بلاد البجاة والنوبة وأوسط المغرب من جنوب الواحات إلى بلاد أفريقية وأوسط بلاد بربر وبلاد الجريد إلى البحر المحيط وهي جهة جدة وعيذاب وجنوب أسوان ، جهتهم من دون الركن الغربي بثلث الجدار إلى الركن الغربي .

ثم قال بعد هذا : انتهى ما لخص من الدائرة ، وهذه الجهات المذكورة هي من حيث الجملة ، ومن أراد التحرير في الاستقبال كما ينبغي ، فليراجع كتب الميقات وما وضع لذلك من الآلات ليقف على المراد . وا لله أعلم .

انتهى من الجامع اللطيف .

وقد ذكر القلقشندي مثل هذا التفصيل في كتابه صبح الأعشى ، في الجزء الرابع بصحيفة ٢٥١ ، لم نر نقله اكتفاء بهذا الذي ذكرناه ، ولا فرق بين كلامه وكلام ابن ظهيرة في الجامع اللطيف ، إلا فرق جزئي لا يؤثر .

انظر: صورة رقم ٢٧ ، دليل القبلة في جميع أنحاء العالم وصورة رقم ٢٨ ، اتجاه القبلة

أول ظهور بعض الأشياء بمكة المكرمة

نذكر هنا بعض الأشياء التي ظهرت بمكة المشرفة مما نتذكرها ، من عهد الحكومة العربية الهاشمية ، أي حكومة الأشراف ، ومن عهد الحكومة العربية السعودية ، ونعتذر عما غاب عن ذهننا ، فنقول وبا لله التوفيق فهو نعم المولى ونعم النصير:

عدد		السنة الهجرية
١	أول من صلي عليه في المسجد الحرام لما مات أبو إهاب بن عزيز ابن قيس كما في الإصابة	في صدر الإسلام
٢	أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبدا لله القسري سنة	٧٥
٣	كان طبع النقود لأول مرة بمكة المشرفة ، في أواخر عهد الشريف الحسين بن علي رحمه ا لله تعالى	١٣٤٢

عدد		السنة الهجرية
٤	أول ما ظهر الثلج بمكة في مصنع الثلج للحاج نسيم الشامي	١٣٣٩
٥	أول سيارة ظهرت بمكة هي سيارة الشريف الحسين بن علي ، أهداها له الكندواني في سنة	١٣٣٨
٦	أول ظهور أقلام الجيب بمكة كان في سنة	١٣٣٤
٧	أول مرة منعت المحامل من الوصول إلى الحرمين الشريفين كان في سنة	١٣٤٣
٨	أول ظهور استعمال السيارات في مكة وفي المملكة كلها كان سنة	١٣٤٦
٩	أول ظهور الكهرباء بالمسجد الحرام كان سنة	١٣٤٦
١٠	شيوع استعمال الكهرباء في مكة وفي المملكة كلها كان من سنة	١٣٦٥
١١	استعمال المراوح في المسجد الحرام كان في سنة	١٣٦٦
١٢	استعمال مكبرات الصوت أي الميكروفون في المسجد الحرام بمكة المشرفة كان سنة	١٣٦٧
١٣	تأسست أمانة العاصمة في سنة	١٣٣٢
١٤	أول مصحف طبع بمكة المشرفة وكان بخط مؤلف هذا الكتاب وكان سنة	١٣٦٩
١٥	أول ظهور سفلتة الشوارع بالزفت والقير كان بجدة سنة	١٣٥٢
١٦	أول ظهور مصلحة الموتى ونقلهم بالسيارات إلى المقابر والمغاسل كان سنة	١٣٧٦
١٧	كثرة انتشار المدارس وشيوعها بمكة وغيرها كان من سنة	١٣٥٤
١٨	كثرة إقامة الأجانب بمكة والمملكة السعودية كانت من سنة	١٣٥٥
١٩	كثرة البضائع والسلع والحاجات والأقمشة والكماليات كانت من سنة	١٣٦١
٢٠	كثرة ظهور صالونات الحلاقة كانت من سنة	١٣٧٣
٢١	ابتداء توسعة المسجد الحرام كان سنة	١٣٧٥
٢٢	توسعة المطاف لأول مرة في التاريخ كانت سنة	١٣٧٧

عدد		السنة الهجرية
٢٣	تجديد سقف الكعبة المشرفة كان سنة	١٣٧٧
٢٤	كثرة ظهور المساجد في جميع البلدة كانت من سنة	١٣٧٠
٢٥	انتشار العمران وبناء القصور بالإسمنت المسلح بمكة كان من سنة	١٣٧٥
٢٦	ابتداء توسعة الشوارع بمكة كان من سنة	١٣٨٠
٢٧	كثرة ظهور المستشفيات وإحضار الأطباء الأجانب كان من سنة	١٣٧١
٢٨	كثرة سفر الناس إلى الخارج من البلاد الإسلامية والإفرنجية كانت سنة	١٣٧١
٢٩	ابتداء ظهور الوزارات ومجلس الوزراء كان من سنة	١٣٧٤
٣٠	أول ظهور المدارس للبنات بجميع المملكة كان من سنة	١٣٧٨
٣١	أول ظهو استعمال دوافير القاز والبوتوقاز كان من سنة	١٣٧٤
٣٢	كثرة ظهور النساء في الشوارع وفي محلات البيع والشراء كانت من سنة	١٣٧٤
٣٣	ابتداء تعدد صلاة الجمعة بمكة المشرفة كان من سنة	١٣٧٥
٣٤	ابتداء انتقال أهل مكة من حول المسجد الحرام والسكنى في أطراف مكة وضواحيها وكان ذلك بسبب توسعة المسجد الحرام وهدم ما حوله من المنازل والبيوت	١٣٧٥
٣٥	ابتداء ظهور المواتير الكهربائية أي الماكينات التي تشتغل بالكهرباء لسحب المياه من الآبار وخزانات المياه كان في سنة	١٣٦٨
٣٦	انتشار محلات التصوير الفوتوغرافي كان من سنة	١٣٥٥
٣٧	ظهور علب اللبن الحليب البودرة المجفف كان من بعد سنة	١٣٥٠
٣٨	كان ظهور السمن الصناعي الذي في العلب والصفائح من سنة	١٣٥٥
٣٩	كان إبطال استعمال القرب للسقائين والاستعاضة عنها بصفائح التنك	١٣٨٢
٤٠	كان إبطال بيع الرقيق ومنع اتخاذ العبيد والجواري بمكة وفي	

عدد		السنة الهجرية
	جميع المملكة في سنة	١٣٨٢
٤١	أول سيل عظيم في عهدنا دخل المسجد الحرام ووصل إلى باب الكعبة كان في سنة	١٣٦٠
٤٢	أول استعمال الإسمنت في البناء كان من سنة	١٣٥٠
٤٣	أول إنزال فم بئر زمزم إلى أسفل أرض المطاف كان في سنة	١٣٨٣
٤٤	أول نشأة مدارس البنات بمكة المشرفة وانتشارها في جميع المملكة السعودية كان في سنة	١٣٧٩
٤٥	أول إنشاء المطارات للطائرات بجدة وفي جميع المدن الرئيسية للمملكة كان من سنة	١٣٥٠
٤٦	أول انتشار التلفونات بمكة المشرفة كان من سنة وكان بها قبل ذلك في عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى نحو عشرين تلفوناً لدى كبار رجال حكومته ، واليوم تعد التلفونات بمكة بالآلاف	١٣٥٠

هذه بعض الأمور التي ظهرت بمكة المكرمة وبجميع المملكة على حسب ما تذكرناها ، وهناك أمور أخرى لم نتذكرها الآن وهي لا تخفى على المطلع الفهيم .

تجارة قريش في الجاهلية وصدر الإسلام

كان أهل مكة وكلهم من أشرف العرب وقبائل قريش ، يشتغلون بالتجارة والبيع والشراء ، وكانت لهم أسواق شهيرة معروفة في الجاهلية ، يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ، فيحضر هذه الأسواق سائر العرب من قرب من مكة ومن بعد عنها ، فيقومون في هذه الأسواق بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، ويتعارفون مع بعضهم ويتفاخرون فيما بينهم بشتى المفاخر والمكارم . فيخطبون هنالك ويلقون القصائد ويتناشدون الأخبار ، وذلك في الجاهلية والإسلام ، وما زالت مثل هذه الأسواق موجودة إلى اليوم في قرى بعض البلاد الإسلامية كمصر والعراق واليمن وغيرها ، فإنه تكون لهم في كل قرية سوق عام في كل أسبوع مرة واحدة في يوم خاص ، كيوم السبت أو يوم الأحد أو يوم

الاثنين أو يوم الخميس ، تكون في هذه الأسواق أنواع اللحوم والطيور والدجاج والبيض وبعض الأطعمة والأقمشة مما يحتاجه أهل تلك الجهة .

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى تجارة قريش في القرآن العظيم في سورة قريش حيث يقول عز شأنه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لإيلاف قريش ۞ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ۞ فليعبدوا رب هذا البيت ۞ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ . فكانت لقريش في كل عام رحلتان ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، يذهبون فيهما للتجارة وإحضار البضائع من بعض البلدان بالجمال عن طريق البر ، فكانوا يذهبون في الشتاء إلى اليمن ، ويذهبون في الصيف إلى الشام ، فيأتون من تلك البلاد ما يحتاجونه من أنواع الأطعمة والزيوت وأجناس الأقمشة والبضائع ، التي ليست بالحجاز . قال العلماء : وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف ، وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير ، حتى كان فقيرهم كغنيهم في أخذ الربح ، واتبع هاشماً على ذلك إخوته ، فكان هاشم يؤالف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكانت تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار تجاه هؤلاء الإخوة ، أي بعهودهم التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي . هذا ما جاء في حاشية الجمل على تفسير الجلالين .

ولا يخفى أن رسول الله ﷺ ذهب إلى الشام مرتين للتجارة ، مرة ذهب مع عمه أبي طالب وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، والمرة الثانية ذهب ﷺ للتجارة أيضاً في مال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله تعالى عنها ، حيث انتدبته لذلك وأرسلت معه غلامها ميسرة وكان سنه الشريف حينئذ خمساً وعشرين سنة ، فرجع ﷺ من الشام وقد ربح ربحاً عظيماً في هذه التجارة الميمونة ، فلما رأت خديجة رضي الله تعالى عنها بركته الظاهرة وأمانته العظيمة وسيرته العطرة أرسلت إليه تخطبه لنفسها فتزوجها عليه الصلاة والسلام فكانت أول زوجاته الكريمات .

كما لا يخفى أن غزوة بدر الكبرى التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة ، كان سببها رجوع عير قريش التي تحمل البضائع العظيمة من الشام قاصدة مكة المشرفة ، فكان من أمر هذه الغزوة ما كان . هكذا كانت التجارة لقريش في مكة المكرمة في الجاهلية وفي صدر الإسلام .

ثم بمرور الزمان والقرون والأعوام والسنون تغيرت الأحوال وكثر سكان مكة المكرمة واتسعت رقعتها ، وتقدم العالم في أقطار الأرض في المدينة والعمران ، فاتسعت أعمال التجارة بمكة المشرفة وبغيرها ، فصارت البضائع والخيرات ترد إليها من جميع الجهات والأقطار كما قد ذكرناها وفصلناها هنا في هذه المباحث الفريدة فسبحان الخلاق العظيم الذي يدبر أمر السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، لا إله إلا هو العزيز الغفار .

النهوض بالصناعات بمكة المكرمة

إن الله تبارك وتعالى جعل بلده الأمين "مكة المكرمة" تحيط بها الجبال من كل جانب إلى مسافات بعيدة من الكيلومترات ، وجعل بيته الحرام "الكعبة المعظمة" في وسط هذه الجبال ، وجعل أرض مكة وتربتها صخرية حجرية رملية لا تصلح للنبات والزروع ، وجعل فيها المياه قليلة على قدر الاستعمال من الأمطار والآبار المحفورة ، كما جعل سكانها قليلاً بالنسبة إلى البلدان في الممالك الأخرى ، وجعلهم في العصور الأولى من جنس العرب من قريش ، ثم جعلهم بعد ظهور الإسلام وانتشاره في ربوع الأرض من مختلف البلاد الإسلامية ، كل ذلك لحكمة دقيقة لا يعلمها إلا هو العزيز الحكيم .

من هنا نعلم أن مكة المشرفة ليست موطن الصناعات والاختراعات ، وإنما هي موطن الإيمان والإسلام والعبادات ، يأتي إليها الحجيج آلافاً مؤلفة في كل عام إلى قيام الساعة ، والله تعالى يرزق أهل مكة ومن يأتي إليها رزقاً واسعاً عظيماً من الحبوب والثمار والخضار والأزهار ، كما يرزقهم من إنتاجات الصناعات التي تأتي إليها من جميع الممالك الإسلامية والأوروبية ، فتأتيها بواسطة التجار : الأقمشة بأنواعها القطنية والحريرية ، وتأتي إليها أنواع الحبوب والخضروات وأنواع الثمار والفواكه ، وأنواع الحلويات والسكريات ، وأنواع المعلبات المأكولة . وتأتي إليها مختلف الأواني والقدور والصحون وما يتبع ذلك من أدوات الأكل والمطابخ ، وتأتي إليها أنواع الماكينات الكهربائية بمختلف أجناسها ، والسيارات الفاخرة بمختلف أنواعها ، وتأتي إليها المفارش والكراسي والسرر ، والدواليب وأدوات الزينات الممتازة ، إلى غير ذلك مما يتعب الإنسان في عده ، الحاصل أن مكة المكرمة قد رزقها الله تبارك وتعالى بأنواع النعم والترف والبليغ من الكماليات

والضروريات، من حيث لا يتعب أهلها في الإنتاج والتصنيع، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان بفضل الله تعالى ورحمته، نسأل الله تعالى أن يزيدنا من نعمه ويوفقنا لشكره.

لكن من سنة الله عز وجل في هذا الكون، أن الحياة فيه تتطور في كل عصر وزمان بين آونة وأخرى، فكان من ذلك أن تطورت مكة المكرمة في حياتها أيضاً في آخر الزمان الذي نحن فيه. فحدث فيها بعض الصناعات التي لم تكن من قبل، فهي وان كانت قليلة بنسبة جزء من ألف من الصناعات الموجودة في الخارج، إلا أنها تسمى تطوراً صناعياً، فنحن طلبنا من صديقنا الفاضل الشيخ محمد أحمد البوقري رئيس الغرفة التجارية، وهو من أفاضل تجار مكة القدماء، أن يكتب هنا نبذة عن تطور الصناعة بمكة المشرفة، فكتب لنا ما يأتي إلى آخر كلامه عن الغرفة التجارية، فنحن إذ نشكره على استجابته لطلبنا، نضع هنا نص ما كتبه وهو هذا:

الحياة الاقتصادية لمكة المكرمة

ليس من السهل التحدث عن حياة (مكة) الاقتصادية في أسطر أو في صفحات قلائل من هذا الكتاب لإعطاء القارئ فكرة شاملة عن تدرج الحياة الاقتصادية بها عبر آجال سابقة صاغت الحاضر البهيج وهيأت لمستقبل زاخر بأجمل الآمال وهو ما يحتاج منا إلى وضع أسفار ترتكز في بحوثها إلى ما يستخلص من بواطن التأريخ القديم والحديث ولكن كل ما نستطيع الكشف عنه في كتابنا هذا إنما هو موضوع في عبارات نرجو أن تكون شاملة في معناها للعشرين عاماً الأخيرة.

كانت مواسم الحج لجميع سكان أم القرى وما جاورها هي مصدر رزقهم الوحيد وأوان حصادهم الذي هيأه لهم المولى عز وجل ليكون مؤنة عام كامل لموسم قادم من كل سنة. لقد كان لكل فرد من سكانها حيلته التي يسره الله لها في الحياة يحدوه أمل لم يخب قط مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش ۞ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ۞ فليعبدوا رب هذا البيت ۞ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ صدق الله العظيم. وكان الناس ينقسمون إلى حرف مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء لسنين طويلة خلت يقضون أيامهم وشهورهم في التهيء

والاستعداد وقد تعلقت آمالهم بما ستشرق به الشمس كل صباح من أيام موسم الحج المنتظر ليفوزوا بما قسم الله لهم من رزق وكانوا هم به قانعون .

كان منهم المطوف الذي كرس حياته لخدمة الحاج وإرشاده إلى نسكه من يوم وصوله إلى يوم رحيله ، ومنهم التاجر الذي عمل في الاستيراد من خارج البلاد لما يستهلكه المواطن لضروريات حياته وما يأخذه الحاج كهدايا اغترابه لأهله وولده بالوطن وهناك من احترف صناعة جمة تميزت بفنها الجميل واختصت بها هذه البلدة الطاهرة ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر صناعة المسابح اليسر وأخشاب الصندل والزيتون وعظم الحوت في أشكال لا تجيدها إلا تلك الأيدي التي تخصصت في خرطها وزخرفتها بالفضة والمعدن ، وكانت هناك دباغة الجلود وصناعتها في أحذية ومحافظ وأحزمة يتسابق الحجاج على اقتنائها لما فيها من حسن صنعة وإبداع فن وكانت هناك صناعة السرج والأرسنة لمختلف دواب الركوب يتغالون في إخراجها ، حتى كان منها ما يطعم بالفضة الخالصة والمموهة بماء الذهب وكانت هناك صناعة الهوادج (الشقادف) المخروطة القوائم (الملككة) والمضفرة بخيط الخيزران ، وغير ذلك من صناعات تعتبر حقاً من الفنون الجميلة وقد انقرضت أو تلاشت ، ولم يبق منها غير ذكرى تمر باسمه إذا ما نظر إلى الأسباب والعوامل الكثيرة التي غيرت وجه الحياة الاقتصادية لمكة المكرمة كما شاء لها الله عز وجل .

كان المسلمون في كافة بقاع الأرض يتمتعون بحياة رغيدة ونظم سهلة تكفل لهم حرية العبادة وحرية التصرف بممتلكاتهم وحرية الانتقال في أسفارهم لأداء فريضة الحج ، وفي سياحتهم للتزود بالمعرفة ، وكانوا يفدون إلى هذه البلاد المقدسة وقد حملوا وافر المال لتمتعهم بالحج والبذل بسخاء دون قيود مفروضة أو عراقيل مصطنعة ولكن لأمر قدره الله قد تبدل حال تلك البلاد إلى خوف بعد أمن ، وجزع بعد اطمئنان ، وسلب للأموال والحقوق والحريات ، وسخر الناس كآلات صماء تؤمر فتطيع ، ومما يؤسف له أن كثيراً من البلاد الإسلامية قد ابتليت بهذا الداء إلى درجة التلاعب في العقائد ، حتى لم يعد أحد من المسلمين بقادر على التمتع بحرية القدوم لأداء فريضة الحج أو العمرة ، وحتى من يسمح له بالقدوم يعطى له الإذن بمال لا يكاد يكفيه لقوته الضروري في أيام اغترابه ، فشحت أيدي الحجاج رغم إرادتهم مما أثر أسوأ الأثر على حياة مكة الاقتصادية ، الأمر الذي

أدى بالكثيرين من سكانها إلى سلوك طرائق أخرى من العمل غير الـذي توارثـوه ، وأذهب عنهم الله جلت قدرته ما تصوروه من جزع وشدة بما صادفوه مـن نجاح أغناهم عن الاعتماد على مواسم الحج المجدبة . ويتابع المولى نعمه على سـكان هـذا البلد الأمين إذ أفاء جل جلاله من فضله على الدولة برزق وافر من ثـروات الأرض لم تبخل به الدولة على تحسين حال الشعب عامة لتطويـر حياتـه ففتحـت المـدارس والمعاهد المجانية لأبناء الشعب في شتى مراحل العلم وصنوفه حتى لم يخل طريـق في أرجاء مكة من مدرسة ثم وضعت المشاريع العمرانية محل التنفيـذ ، ومنهـا عمـارة المسجد الحرام وافتتاح الطرق وتعبيدها وتخطيط المدينة وتغييرها من نظامهـا القديـم إلى مدينة حديثة مما أوجد مجالات كثيرة للأعمال والكسب الحلال ، وتفتح الوعي وساير ركب الحضارة وخلقت صناعات وحرف شملت جميع مرافق الحياة ، حتـى صار الناس يرون جديداً يبشر بخير في مطلع كل صباح .

ويحق لنا أن نفخر ببعض أبناء مكة المكرمة الذين كرسوا أنفسهم للعمل الجـاد وشيدوا المصانع وأنتجوا سلعاً ضاهت ما كان يستورد ، إن لم يفقه جودة وهو مـا يوفر أموالاً كانت تذهب إلى خارجها ، بـل وأوجـد مجـالاً للعمـل الثـابت للطبقـة العاملة التي كانت تتعطل أكثر شـهور السنة انتظـاراً لموسـم الحـج ، ولا يفوتنـا أن نخص بالذكر أهم هذه المصانع والتي استحقت أن يطلق عليها هذا الاسـم المشـرف في سجل الخلود .

مصانع الحجاز للصلج

أقام هذه المصانع المواطن المكـي الشيـخ حسـين محمـد سعيد جسـتنية في عـام ١٣٧٣هـ بمنطقة جـرول ، وقـد جهـزت بـأحدث المكنـات الضخمـة المختلفـة الاختصاص والمزايا وعمل الرجل بهمة لاتعرف الملل علـى تطويـر مصانعـه وزيـادة اختصاصها ، حتى شمل الإنتاج أشـكال وأنـواع لا تحصـى مـن الخزائـن والمكـاتب والكراسي وخزائن المطابخ والطاولات والثلاجات والشنط وسـرر النـوم وخلافهـا من أثاث مما يصنع من الحديد بالإضافة إلى الأدوات المنزلية المصنوعـة مـن الألمنيـوم في أشكال وألوان جذابة ، جميعهـا يغـني عـن استيراد مثيلهـا مـن البـلاد الأجنبيـة . وكان الشيخ حسن جستنية يعمل بالتجارة ثم اختير للعمل بالإدارات المالية بالدولة لفترة من الزمن ، ثم آثر حياة الكفاح في المجال الصناعي حيث رأى أنه أقـدر علـى

خدمة وطنه أجل خدمة مما لو بقي موظفاً، رغم ما كان يتمتع به من مركز كبير مرموق.

مصنع البوقري للبلاستيك

أقام هذا المصنع الشاب المكي محمد أحمد بوقري في عام ١٣٨٢هـ بمنطقة الشهداء بأحدث الآلات المستعملة في هذه الصناعة، وكانت إقامة هذا المصنع مفاجأة قوبلت بالكثير من الشك في القدرة على البقاء أمام تيار الاستيراد من البلاد المجاورة، ولكن عزيمة الشباب والرغبة في التضحية لبناء حياة أفضل، كانت الدعائم الصحيحة التي مكنت هذا المصنع الضخم من الوقوف حتى صار خطراً على تسويق ما يستورد من أصناف في مجال إنتاجه الواسع الذي شمل المسابح والأدوات المنزلية وأدوات الكهرباء وعلب الحلوى وأدوات المدارس والأدوات والحليات البنائية وقطع الأثاث، وغير ذلك كثير في كميات أغرقت الأسواق بأسعارها الزهيدة، وكان الشاب محمد أحمد بوقري لفترة من حياته مديراً بالمحلات التجارية لعائلته المعروفة باسم عمر علي بوقري وإخوانه وعكف على دراسة صناعة اللدائن دراسة علمية، ثم اغترب إلى إنجلترا حيث التحق بمصانعها كعامل بأجر يومي لعدة أشهر عاد بعدها ليقيم مصنعه.

رغم ما صادف هؤلاء الرواد في مجال الصناعة من متاعب وصعاب إلا أنهم صمدوا أمام العواصف والأنواء في عناد وتصميم أكسبهم احترام المواطنين وغير المواطنين، كيف لا وقد فتحوا الطريق أمام أبناء مكة المكرمة للبذل والتضحية في سبيل الوطن ولا شك أن هناك كثيرون سيكشف عنهم المستقبل الصناعي الباسم.

صناعات أخرى

إن تطور الحياة والأخذ بالوسائل الحديثة قد أوجد الكثير من الحرف فاتساع العمران واتباع التصميمات الحديثة في البناء وتخطيط المدن الذي شمل مكة المكرمة بأثرها قد خلق حرفاً جديدة لم تكن معروفة وطور أخرى إلى ما يتناسب والحالة

الراهنة ونذكر من ذلك هندسة البناء والنجارة والحدادة والبياض والسباكة والتمديدات الكهربائية والتلوين والزخرفة ، وباستخدام الآلة في كل هذه الحرف ووسائل النقل المتطورة ظهرت بتوسع حرف متعددة منها خراطة المعادن وسبكها وما يتبع ذلك من حرف بسيطة الشكل وكثيرة الفائدة .

الغرفة التجارية

لا شك أن اتساع الحركة التجارية وارتباطها بالدول الأجنبية المصدرة أوجب إيجاد الوسائل التي من شأنها تنمية العلاقات الاقتصادية بمكة المكرمة وتوعية المستوردين بما يتطلبونه من معلومات وأنظمة سائدة في الدول المصدرة وإيجاد المصادر اللائقة للسلع اللازمة وهكذا فقد قدرت الدولة ضرورة إيجاد هذا الجهاز الاقتصادي الشعبي ، وأعطته صفته وكيانه ، وأصدرت ترخيصاً بإنشاء الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة في عام ١٣٦٨هـ ، وقد وضعت النظم الإدارية الداخلية وصلاحيات الغرفة وجهازها بما يكفل لها أداء مهمتها في خدمة العاملين في المجال الاقتصادي ، أسوة بما هو معمول به وما تتمتع به الغرف التجارية في الدول المتطورة ، بل حرصت الدولة على مد العون المادي الدائم كقاعدة سنوية لتتمكن الغرفة من تقوية جهازها وهو ما يقابل بالكثير من التقدير للمسؤولين في حكومة جلالة الملك المعظم . وبكتابتنا هذه النبذة المختصرة عن الغرفة التجارية بمكة المكرمة ، نرى لزاماً علينا أن نذكر الشيخ حسين محمد سعيد جستنية لما له من فضل السعي لدى السلطات حتى أدى الأمر إلى إنشاء الغرفة وهو الرجل الذي لم يترك سبيلاً من سبل العمل البناء دون أن يطرقه لخير مواطنيه .

إلى هنا انتهى ما كتبه الشيخ محمد أحمد بوقري ، أكثر الله تعالى من أمثاله الفضلاء العاملين ، وهو نبذة لطيفة كافية بالغرض .

الحرف والصناعات بمكة المكرمة

إن الأجانب في خارج مملكتنا وبالأخص في بلاد الإفرنج ، يعتقدون أن الحرمين الشريفين بلدة "مكة المكرمة" وبلدة "المدينة المنورة" واقعتان في صحراء مقفرة ، ليس فيهما من أسباب المعيشة الهنيئة ، ومن وسائل المدنية الحديثة شيء يذكر ، وليس فيهما من مباهج الحياة شيء يسر الإنسان ، إنهم يعتقدون هذا

لأنهم بعيدون عنا غير مختلطين بنا ، وليس لديهم من الصحفيين المختصين للكتابة في مثل هذا الأمر على الدوام ، فإذا كتب أحدهم في جرائدهم ومجلاتهم باللغة الانكليزية ، أو باللغة الفرنسية ، أو باللغة الأمريكية ، أو باللغة الإيطالية ، أو باللغة الألمانية ، أو غيرها ، إذا كتب أحدهم عن بلدنا شيئاً ، فإنما يكتب نبذة قصيرة في كل بضع سنوات مرة واحدة ، وهذا كما لا يخفى على العاقل المثقف لا يكفي للإحاطة بأحوال الأمم الأخرى البعيدة عنهم .

لذلك فقد كتبنا في تاريخنا هذا بعض أحوالنا وصناعاتنا ، ثم خطر في بالنا أن نستعين بصديقنا الكريم سعادة الأستاذ عبدا لله عريف ، لأنه حفظه ا لله تعالى ، هو شيخ الصحافة والأدب ، وأنه أيضاً هو رئيس أمانة العاصمة ، أي "رئيس بلدية مكة المكرمة" فهو إذاً أدرى بمثل هذه الأمور ، فكتبنا لسعادته برقية " تلغرافاً " نطلب منه إفادتنا عن الحرف والصناعات الموجودة بمكة المكرمة - فبادر سعادته مشكوراً بإجابة طلبنا وأرسل لنا الجواب الآتي المؤرخ في العاشر من شهر صفر سنة (١٣٨٥) هجرية وبرقم ٨٢٢/خ وهذا نصه :

بسم ا لله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة الشيخ محمد طاهر كردي المحترم

بعد التحية ، أرجو لكم دوام الصحة والعافية

إشارة لبرقيتكم المؤرخة ١/٢/١٣٨٥هـ بشأن طلبكم بيان أسماء الحرف ومشائخها ، نبعث إليكم طيه البيان الوارد الينا من إدارة مراقبة الأسواق رفق خطابها رقم ٦٠ وتاريخ ٨/٢/١٣٨٥هـ والموضح فيه كافة أسماء الحرف مع أسماء مشايخها .

فأرجو الاطلاع والإحاطة . وتقبلوا تحياتي.

أمين العاصمة

عبدا لله عريف

وإليك البيان المشار إليه بنصه وترتيبه :

عدد	اسم الطائفة	اسم شيخها
١	السماسرة ودلالي السيارات	سعود عاشور
٢	الحدادين	محمد كدوان

عدد	اسم الطائفة	اسم شيخها
٣	عربات الكارو	سراج يحيى دواس
٤	دلالي الحراجات	داود وصفي
٥	الساعاتية	أحمد صالح فقيها
٦	الحلاقون	محمد علي بن حسن
٧	البنشر والبطاريات	السيد هاشم علواني
٨	المنقلين	مكي طاشكندي
٩	السبحية	خليل حسن رفيع
١٠	الحبابة	عبدالله برديسي
١١	الجوهرجية	محمد علي فارسي
١٢	الوزانة	صدقة أمين وزان
١٣	ناقش الأختام	علي أحمد الباز
١٤	المهندسين	أحمد عبدالله أبو رويس
١٥	القهوجية	السيد علي حسن معتوق
١٦	الخياطين	محمد تاج جلال
١٧	دلالي العقار	جميل بغدادي
١٨	العقلجية	صالح عبدالرحمن أبو الريش
١٩	الخضرية والفكهانية	سليمان غباشي
٢٠	اللبانة	علاء الدين أبو النجا
٢١	الأجور والطوب	بدوي عساس
٢٢	النجارة	أحمد نحاس
٢٣	السائقين	حامد محمد خوجه
٢٤	الطهاة وأتباعهم	حسين عشي
٢٥	الغسالين	عبده قاسم
٢٦	السمانة	حسين شايب
٢٧	السقطية	علي حسن رواس
٢٨	العطارة والبقالة	علي مصلح صبغة
٢٩	جزارة الفدو	علي حسين البشي
٣٠	البنائين	عبدالقادر وزيرة

عدد	اسم الطائفة	اسم شيخها
٣١	دلالي الأغنام والبقر	سعد محمد ريبقان
٣٢	النحاسين	عبدالوهاب مؤمنة
٣٣	الجزارين	علي درويش زيدان
٣٤	الفخرانية	علي شريف
٣٥	الشباري وعربات السعي	سعيد الغامدي
٣٦	الفرانة	عبدا لله كعكي
٣٧	الصيارف	حسن محمد ملطاني
٣٨	مهندسي الراديو	طاهر لنقا
٣٩	الكحلجية	علي بوصي
٤٠	دلالي الحلقات	حسن حكمي
٤١	القطانة	عبد الحميد قطان
٤٢	السماكرة	سينتخب لهم شيخ

هذه هي البيانات التي وردت إلينا من أمانة العاصمة بمكة المكرمة، ويلاحظ فيها عدم وجود بعض الحرف كبائعي الكتب والمطبوعات وبائعي الصحف والمجلات، وبائعي أدوات الكتابة من الحبر والورق والأقلام، وبائعي الخردوات اللطيفة اللازمة للنساء وغيرهن، وبائعي الأدوات المنزلية والكماليات من السرر والكنبات والمكاوي والثلاجات الكهربائية، وبائعي الأدوات الكهربائية، وبائعي أدوات التليفونات والسيارات ومكائن المياه وغيرها، وكبائعي الأقمشة بأنواعها العادية والممتازة من القطن والحرير والصوف، وكبائعي البطانيات وأنواع الصوف والملبوسات، وكبائعي أنواع مكائن البوتوكاز وأدواتها وكمحترفي إصلاح كل هذه الأشياء وغيرها وتوجد بمكة طائفة الصاغة يصنعون من الذهب والفضة أنواع الحلي من الخواتم والأسورة، والعقود التي توضع في جيد النساء ويصنعون جميع أنواع الزينة بالذهب والفضة ويزينونها بمختلف أنواع الفصوص والأحجار الكريمة، من اللؤلؤ والمرجان والعقيق والياقوت وغيرها.

وهناك كثير من بائعي الحلويات البلدية والخارجية وبائعي أدوات النجارة والأقفال والمسامير والأسلاك وبائعي أدوات الحمامات وبائعي الموبليات والمرايات والبزابيز، وبائعي الملبوسات الجاهزة وبائعي الصحون الصيني، والكاسات

والبلورات ، وبائعي المكسرات من الحمص واللوز والجوز وعين الجمل ، والصنوبر والزبيب وغيرها ، وبائعي أنواع المفارش والسجاجيد الجميلة وغيرها ، وبائعي الألعاب للأطفال ، وبائعي الإسمنت والحديد والمواسير وأدوات العمارة والبناء ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه وبيانه ، وهناك كراجات للسيارات وورشات لإصلاحها وإصلاح الآلات الكهربائية وورشات للحام الأكسوجين ونحوه ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه وبيان .

كما عندنا مستشفيات وأطباء كثيرون وصيدليات وأجزاخانات لبيع الأدوية منتشرة في طول البلاد وعرضها ، وعندنا وزارة تجارة تنظر في شؤون التجار وأحوال التجارة ، وعندنا وزارة الصحة تنظر في أحوال الأمة الكريمة من الناحية الصحية ، وعندنا وزارة الزراعة تنظر في شؤون الزراعة ، إلى غير ذلك من الوزارات المختلفة كل وزارة تنظر في أمور اختصاصها .

الحاصل أنه يوجد في مكة المكرمة والمدينة المنورة وكل بلدان مملكتنا السعودية جميع الكماليات ومباهج الحياة ، إن الحياة في الحرمين الشريفين تسر الناظرين ويرتاح إليها جميع الموسرين ، سواء من الناحية الدينية لمن أراد الآخرة ، أو سواء من الناحية الدنيوية لمن أراد التمتع بقدر سعة رزقه ، أو من الناحيتين لمن وفقه الله تعالى كما قال الشاعر: (ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا).

فالحمد لله الذي جعل (مكة والمدينة) من أفضل البلدان وأشرف البلدان من الناحية الدينية ومن أحسن البلدان وأكمل البلدان من الناحية الدنيوية ، فبلد الله تعالى وبلد رسوله الكريم ، وبلد القدس هي من خير بقاع الأرض ، فالحمد لله رب العالمين .

صناعة النجارة الفنية بمكة

كان أهل مكة يعرفون في صناعة النجارة الفنية معرفة تامة ، فكانوا بأنفسهم يعملون سقوف المنازل والقصور ويزخرفونها زخرفة عجيبة ، وكانوا يصنعون لها الأبواب والشبابيك العجيبة الصنع ، كل دار بما يليق بها وما يناسبها بحسب المصاريف والنفقات قلة وكثرة ، أي على قدر ما يرغبه صاحبها من جمال الشكل وحسن المنظر ، ولهم في صنع الطيق ، بكسر الطاء المهملة وفتح الياء المثناة ، جمع طاقة ، وهي الشباك ، بتشديد الباء الموحدة ، مهارة عجيبة لم نجد من يماثلهم في

الخارج ، ولقد كانوا يصنعون الشبابيك الداخلية للمنازل الكبيرة بشكل يدعو إلى الإعجاب ، بقوة واستمساك وينقشون بواطن السقوف والدواوين بنقوش بديعة ، وأحياناً ينقشون بعض الآيات الكريمة حول السقوف من الداخل ، أو بعض القصائد والحكم ، ويعملون من الرواشين المطلة على الشوارع العامة ما يدهش الناظر ويسلب لبه ، وما زالت بعض المنازل والقصور القديمة ناطقة بمهارتهم وشاهدة على تفوقهم في الفنون ، ولكن مع الأسف لم يبق من أولئك الرجال من يعرف ذلك ، و لم يبق من المنازل المصنوعة بالوصف المذكور شيء ، لأنها هدمت في التوسعة السعودية التي حصلت سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، ثم في وقتنا هذا أي من بعد السنة المذكورة وفد على مكة المكرمة كثير من النجارين ومن مختلف الصناع من مصر والشام وغيرها .

انظر: صورة رقم ٢٩ ، شباك زخرفي مفرغ من صنع النجارين بمكة المكرمة

صناعة التنجيد بمكة

صناعة تنجيد القطن معروفة بمكة المشرفة من قديم الزمان ، ويأتي إليها القطن من الخارج ، من مصر والهند واليمن وغيرها ، فيحشونه بعد تنظيفه وتنجيده في الطراريح وهي جمع طراحة ، بضم الطاء المهملة وتشديد الراء المفتوحة ، وتسمى بمصر المرتبة التي ينام فوقها ، كما يحشونه في المخدات واللحافات وغيرها ، وفي السنوات الأخيرة أي من سنة (١٣٨٠) ألف وثلاثمائة وثمانين هجرية أحضروا إلى مكة بعض الماكينات الكهربائية للتنجيد ، فصاروا يشتغلون بها في تنظيف القطن وتنجيده وإصلاحه .

أما حشو المساند والأرائك والطواويل فيحشونها بالطرف بكسر فسكون ، وهو حبوب صغيرة كحبوب الكسلسوه أو البرغل ، لكنه خفيف جداً كالقطن يتطاير من النفخ والهواء ، ويخرج من بعض أشجار الحجاز وهو كثير بها ، و لم نجد مثله في الخارج واستعمال الطرف في الحشو أمر شائع عندنا لكنه خاص بحشو المساند والطواويل وهي جمع طوالة ، بضم الطاء المهملة وتشديد الواو المفتوحة ، وهي تشبه الطراحة والمرتبة سواء بسواء ، غير أن الطوالة لا تحشى بالقطن فسبحان

من جعل لكل بلدة ميزة خاصة ولبلده الأمين ميزات كثيرة بها تمتاز عن جميع البلدان - أدام الله تعالى عليها النعم ، وأدام أمنها وأمانها وخيرها ورخاءها آمين .

صناعة الحصير والزنابيل والمراوح الخوص بمكة

إن صناعة الحصير ويسمى عندنا "الخصف" بفتح أوله وثانيه ، وصناعة المراوح الخوص وكذلك صناعة الزنابيل الصغيرة والكبيرة بأنواعها هي صناعة موجودة بمكة المشرفة من قديم الأزمان يستغلها أهل السودان (التكارنة) المولودون بمكة المكرمة من خوص النخل وكذلك يشتغلها النخاولة بالمدينة المنورة وأحسن أنواع جميع الحصير ما يصنعه أهل قرية الأبواء التي فيها قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ وهذه القرية واقعة في منتصف طريق مكة والمدينة ، إنهم يعملون أظرف أنواع الحصر وأرقها وأقواها ، ولو وجدوا تشجيعاً وعناية لتقدموا في صناعتها في مدة يسيرة .

فحبذا لو أن وزارة الحج والأوقاف أخذت منهم كمية وافرة من الحصير ، لفرشها في المساجد الكثيرة لديها ، لأن الحصير المعمول بالأبواء أجمل وأحسن وأقوى من حصير التكارنة ومن حصير الخارج ، فحبذا لو عملت الوزارة باقتراحنا هذا ، فإنها بذلك تحسن صنعاً للصناعة الوطنية ، وتدفعها إلى التقدم وحسن الإنتاج .

صناعة الشراب أي القلل

الشراب ، بكسر الشين المعجمة ، جمع شربة بالفتح ويسمونها بمصر القلة بالضم ، وهي إناء من الطين في حجم البطيخة يضعون فيها الماء ليبرد ، إن صناعتها بمكة من قديم الأزمان تصنع من ترابها ، وتصنع في أحجام مختلفة منها الصغير والكبير والمتوسط ، وكانوا إلى سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية يعتنون بصنعها وصنع الأزيار الصغيرة أيضاً ، فيزخرفونها ويجعلونها في شكل جميل بديع ، كما كانوا يصنعون الازيار الكبار أيضاً ، وكان كل ذلك يعرض في الدكاكين بكثرة وافرة ، وكذلك أباريق الوضوء من الطين ، ولكن قلت عنايتهم بصنع ذلك بعد السنة المذكورة شيئاً فشيئاً ، بسبب وجود مصانع الثلج وآلات التبريد .

وأن أحسن أنواع الشراب، شراب المدينة المنورة لأنها تبرد الماء سريعاً، وأن لونها بيضاء جميلة، فتراب المدينة أحسن وأقوى من تراب مكة.

أدام الله تعالى خيرهما ورخاءهما.

صناعة الحلاوة الطحينية بمكة

الحلاوة الطحينية لذيذة جداً وهي في نفس الوقت كالطعام تؤكل بالخبز، وهي تعمل من السكر والطحينة وهي السمسم المطحون، والحلاوة الطحينية، كانت تعمل بمكة المكرمة من قديم الأزمان، ولها طابع خاص وهو كونها سمراء يتخللها خيوط السكر كالشعر، ويعملها الهنود المولودون بمكة ويتقنونها جداً، وأهل مكة يحبونها كثيراً، وبعضهم لا بد له أن يأكل منها كل ليلة بعد العشاء بعد خلطها بحلاوة الهريسة، وهذا الخليط لذيذ قوي جداً، أما الحلاوة الطحينية البيضاء فهي تأتي من الخارج في صفائح من مصر والشام فبعضهم يحب البيضاء وبعضهم يحب السمراء، وفي الأمثال: وللناس فيما يعشقون مذاهب.

استخراج زيت السمسم بمكة

وتوجد بمكة طاحونة أو طاحونتان لاستخراج الزيت من السمسم، فمنذ قديم الأزمان إلى اليوم يستخرجون الزيت من السمسم، وما يخرج من السمسم المعصور يباع فيكون طعاماً دسماً قوياً لبعض الحيوانات كالبقر والغنم مع العلم أن زيت السمسم وغيره من أنواع الزيوت يأتينا من الخارج أيضاً في صفائح من التنك، كما يأتينا أيضاً من الخارج السمسم المعصور ونظن يسمونه "الكسب"، بضم فسكون وفي آخره باء موحدة، ويباع طعاماً للغنم والبقر.

طحن الحبوب بالرحى بمكة

طحن الحبوب من الحنطة والذرة والدخن والحمص ونحوها بالرحى بمكة، من الأمور القديمة من أيام عرب الجاهلية، فلقد كان الناس من قديم العصور يقتنون في بيوتهم رحى لتطحن بها زوجاتهم الحبوب ويعملون من دقيقها الخبز، والرحى عبارة عن حجرين كبيرين مستديرين يوضع أحدهما فوق الثاني ثم يدار الحجر

الأول عند الطحن ، وكانت ابنة رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله تعالى عنها ، تطحن بيدها على الرحى حبها .

فالرحى كانت موجودة في كثير من بيوت مكة من قديم العصور إلى عام (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية ، ثم قل استعمالها شيئاً فشيئاً في المنازل ، حتى لم يكن لها وجود في وقتنا الحاضر في البيوت ، اللهم إلا القليل جداً مما يوجد عند البعض ، وسبب ذلك هو اختراع ماكينات الطحن الكهربائية التي تطحن كميات عظيمة من الحبوب في زمن يسير ، ولقد أدركنا ماكينة واحدة للطحن كانوا يسمونها بمكة " بابور الطحين " وذلك في آخر عهد الدولة العثمانية التركية ، وكانت بمحلة الفلق ، ونظن أن صاحبها هو فهمي أفندي قرملي التركي ، وكانت تدار بالماتور .

ولكن كان بمكة كثير من طواحين الحبوب بالرحى الكبيرة التي يديرها الحمير ، وكانت في كل محلة طاحونة يديرها الحمار ، أما في وقتنا الحاضر فلم يبق للطواحين وجود ، اللهم إلا بضع طاحونات صغيرة تدار بالكهرباء وذلك بسبب ورود الدقيق من الخارج بكميات كبيرة .

وجود الأفران لعمل الخبز بمكة

الأفران جمع فرن ، بضم الفاء ، وهو مكان لخبز أقراص العيش ، لقد كانت الأفران بمكة كثيرة جداً ، ففي كل محلة يوجد فرن أو فرنان ، لأن جميع الناس كانوا يعجنون دقيقهم في بيوتهم ويعملونه أقراصاً متعددة ، فيضعونها فوق لوح من الخشب ، حتى إذا اختمرت وحان وقت خبزها ، بعثوا بها مع أولادهم أو خدمهم إلى الفرن لتخبز ، فتزدحم ألواح العيش في الفرن من الصباح إلى قرب المغرب ، فجميع الناس لا يأكلون إلا من خبز بيوتهم ، ولا يشترى الخبز من السوق إلا النادر ، وإلا من كان من طبقة العمال والفقراء ، وهذه الأفران كلها كانت توقد بالحطب الكثير .

ثم بمرور الزمن تطور الناس في أعمالهم ومعايشهم فيما جاءت سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، إلا وقد هدمت الأفران وما جاورها من المنازل والبيوت وبنيت في أماكنها العمارات الشاهقة والقصور الفخمة ، فلم يبق بمكة إلا قليل من الأفران تعد على الأصابع ، وهذه الأفران قد تطورت إلى أفران

فنية توقد بالكاز بدلاً من الحطب ، وصار أقراص العيش فيها مخبوزة خبزاً طيباً ، فإنها مستوية لذيذة للغاية ، فصار جميع طبقات الناس يشترون خبزهم من هذه الأفران الفنية ، وبطلت عادة عمل أقراص العيش في البيوت ، فصار الغني والفقير والأمير والوزير يأكلون من خبز هذه الأفران الحديثة لطيبها ولذتها ونظافتها - مع العلم بأن بناء الأفران ليس من السهل ، بل يحتاج إلى معرفة وخبرة ، وكل ذلك كان من عمل أهل مكة المكرمة الكرام .

صناعة القدور والأواني النحاسية بمكة

صناعة القدور والأواني النحاسية قديمة العهد بمكة المكرمة مثل بقية البلدان والممالك ، ولا يعرف بمكة صناعة القدور والأواني من الفخار والطين ، لأن لهذه الأواني طين خاص ، وتراب مكة لا يصلح لمثل هذه الأشياء ، أما في مصر فيصنعون القدور والأواني الفخارية الطينية صناعة ممتازة جداً إلى اليوم مع كثرة وجود الأواني النحاسية أيضاً ، ولذلك يصنعون في بلاد اليمن القدور والأواني الفخارية من الطين بل ويصنعون منه أدوات الشاي والقهوة والفناجين ، إنهم هناك يعملونها بكثرة زائدة إلى اليوم ، والحقيقة أن لذة الأكل والطبخ في القدور والأواني الفخارية الطينية مع الحطب والفحم ، تفوق بكثير على لذة الأكل والطبخ في القدور النحاسية فوق دافور الكاز أو البوتوكاز ، ولا زالت صناعة القدور والأواني النحاسية وتبييضها موجودة إلى اليوم بمكة المكرمة بمختلف أحجامها وأنواعها .

أما القدور والأواني والملاعق من الألمنيوم المسمى عندنا بالحجاز التوتوه ، فأول ما ظهر ذلك في الدنيا منذ سنة (١٣٣٠) ألف وثلاثمائة وثلاثين هجرية ، وما زالت صناعتها تتقدم وتتزايد إلى اليوم حتى غزت الأسواق في جميع البلدان والممالك ، وقد وردت بكثرة فائقة قدور الألمنيوم وأوانيه إلى الحجاز من بعد سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية . وما زالت الدكاكين مملوءة بها إلى يومنا هذا .

تجار الساعات بمكة المكرمة

لم يكن موجوداً بمكة المكرمة إلا أنواع قليلة من الساعات ، وكان أشهرها وأغلاها وأضبطها ساعة الجيب المعروفة "بالراسكوف" ، وكان لا ينقص ثمنها عن جنيه من الذهب ، وذلك من نحو خمسين سنة ، ثم بدوران الزمن وتقدم الرقي والتمدن ، تطور صناعة الساعات فظهر لها من الأشكال والأنواع ما يدهش العقول ويجذب الأنظار ، فوردت إلى مكة المكرمة جميع هذه الأنواع والأشكال من الساعات ، سواء ساعات الجيب أو ساعات اليد أو ساعات الحوائط والجدران ، وذلك ابتداء من سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية ، فلقد غزت هذه الساعات جميع الأسواق المحلية والخارجية ، فبعد أن كان المستوردون لها بمكة المكرمة بضعة أشخاص ، أصبح المستوردون لها اليوم عدداً وفيراً .

ولا ننسى الدولة التركية العثمانية عندما كانت متوجة بعز الخلافة الإسلامية ، ما كانت تستورده من بلاد سويسرا موطن مصانع الساعات ، من ساعات الجيب الجميلة الدقيقة ، وكانت تمتلئ من ظهرها بواسطة مفتاح منفصل عنها طوله نحو اثنين سنتي ، وغلظه كغلظ عود الكبريت ، وما زال منها إلى اليوم بقايا في بلاد العراق .

هذا وإن بلاد سويسرا هي شهيرة بصنع أنواع الساعات كلها من قديم الزمن ، كما أن بلاد ألمانيا شهيرة بصنع ساعات الحائط الكبيرة بغاية الجودة ، كما أنه توجد مصانع الساعات في بلاد فرنسا وبلاد اليابان ، وأن أجود الساعات الصغيرة اليدوية والجيبية هي كما يأتي :

(١) ساعات أوميغا .

(٢) ساعات لونجين .

(٣) ساعات رولكس .

(٤) ساعات رومر .

(٥) ساعات زينيت .

هذا ما حضرنا من أسماء الساعات الراقية الجيـدة ، وهنـاك أصنـاف أخـرى لا نتذكرها ، وكل هذه الأصناف وغيرها من أنواع الساعات العجيبة موجـودة بمكـة المكرمة .

وهنا يجب أن نذكر ما يحضرنا من أشهر تجار الساعات بمكـة المكرمـة ، وهـم كما يأتي :

(١) الشيخ محمد صادق المجددي .

(٢) الشيخ محمد حبيب الجوهرجي .

(٣) الشيخ محمد بن معروف باجمال .

(٤) الشيخ محمود حسن غباشي .

(٥) الشيخ عبدالرحمن المدني .

(٦) السيد بكر تونسي .

(٧) الشيخ سعيد قطب .

(٨) الشيخ هاشم إبراهيم ناقرو .

(٩) الشيخ جميل خوقير (ياك محل).

(١٠) الشيخ عبدالرحمن بخشي وإخوانه .

(١١) الشيخ عبدالرحيم الساعاتي .

هذا ما خطر في بالنا من أسماء تجار الساعات المستوردين لها ، ونرجـو المعـذرة ممن غاب عنا أسماؤهم .

وهناك كثيرون ممن يحترفون إصلاح الساعات بجميع أنواعها الكبيرة والصغيرة لا تحضرنا الآن أسماءهم .

هذا وبمناسبة الكلام على الساعات ، نقـترح علـى حكومتنـا السـعودية وفقهـا الله تعالى : أن توصي مصانع الساعات الكبـيرة سـاعات الحـائط ، أن تعمـل مائـة ساعة كبيرة دقاقة ، لوضعها في المسجد الحرام من الداخل والخارج ، وعلـى الصفـا والمروة ، وعلى مسجد جبل أبي قبيس الذي في أعلاه ، وعلـى جبـل الهنـدي ، وفي مداخل ميادين مكة ، وفي شوارعها الكبيرة ، وفي منى ، وفي غير ذلك من المحـلات التي يكثر مرور الناس منها ، كل ذلك ليعرف الناس الأوقـات مـن هـذه السـاعات

المطلة عليهم ، ولتكون هذه الساعات زينة للبلدة المقدسة ، تظهر أمام الحجاج الكرام في كل موسم ، ومائة ساعة ليست كثيرة على مكة المشرفة بعد أن اتسعت رقعتها ، وكثرت شوارعها وميادينها ، فإن المسجد الحرام وحده يحتاج إلى ثلث هذا العدد في الطابق العلوي والطابق الأرضي .

والله الموفق للصواب .

الكتبية بمكة المكرمة

يوجد كثير من دكاكين بيع الكتب الدينية والعربية والكتب العصرية والجرائد والمجلات من قديم الأزمان ، وأغلب هذه الدكاكين كان حول المسجد الحرام وعند أبوابه ، كباب السلام الكبير وباب السلام الصغير ، وباب الزيادة وباب إبراهيم وباب العمرة وباب الدريبة ، ثم لما حصلت التوسعة في المسجد الحرام والشوارع بمكة المكرمة ، وهدمت المحلات والبيوت التي حول المسجد الحرام ، انتقلت الدكاكين والمحلات القديمة إلى بعض الجهات بمكة المكرمة .

فمما يوجد الآن بمكة المكرمة من دكاكين بيع الكتب المختلفة وفي مقدمتها المصاحف الشريفة ، ما يأتي في هذا الجدول :

عدد	اسم المكتبة	اسم صاحبها	الجهة التي تقع فيها
١	مكتبة المعارف	للشيخ أحمد سعيد حلواني	بالصفا
٢	مكتبة العرابي	للشيخ عبدالله عرابي	بالصفا
٣	المكتبة التجارية	للشيخ نبيل مصطفي الباز	بالصفا
٤	مكتبة دار التعاون	للشيخ عباس أحمد الباز	بالمروة
٥	مكتبة ميرو	للشيخ مصطفى ميرو وأولاده	بالمروة
٦	مكتبة الثقافة	للشيخ صالح محمد جمال	بسوق الليل
٧	مكتبة النهضة الحديثة	للشيخ عبدالشكور فدا	بسوق الليل
٨	مكتبة المرزا	للشيخ عبدالعزيز مرزا وأولاده	بالمروة
٩	المكتبة السلفية	للشيخ صالح الباز وأولاده	بالقشاشية
١٠	مكتبة النهضة	للشيخ علي الباز وأولاده	بالصفا
١١	المكتبة العلمية	للشيخ عبدالفتاح فدا وأولاده	بباب السلام
١٢	مكتبة التقدم العلمية	للشيخ عبدالحميد فدا	بالصفا

هذا ما يوجد بمكة المشرفة من المكتبات التي تباع فيها المصاحف الشريفة وكتب التفسير والحديث، وكتب اللغة والأدب والدواوين الشعرية، وكتب التاريخ والفنون، والكتب العصرية الحديثة، وكتب القصص والحكايات والروايات، والمجلات والصحف المحلية وغيرها، وهناك مكتبات أخرى لم نتذكرها يباع فيها الأدوات الكتابية من الأقلام والأوراق والظروف والحبر، وكل ما يستلزمه الكتابة، فلا يحتاج أحد إلى شيء إلا ووجده.

وأسماء المكتبات المذكورة كتبها لنا الشيخ عبد الشكور فدا.

منجر الأخشاب بمكة المكرمة

كان نشر الأخشاب بمكة المكرمة يكلف عناء عظيماً وتعباً كبيراً للعمال الذين ينشرونها، علاوة على ما في نشرها بالأيدي من تكاليف باهظة، ومن أخذ وقت طويل في إنجازها وإتمامها، ولقد كانوا ينشرون ألواح الأخشاب العريضة السميكة بكيفية عجيبة فريدة، وهي أنهم كانوا يضعون اللوح الثخين المتين فوق نحو سلمين على ارتفاع قامة فأكثر، ثم يطلع فوق اللوح رجل ويقف تحته على الأرض رجل آخر، ثم يأتيان بمنشار كبير طوله نحو مترين، وقد جعلوا في طرفه الأول خشباً بالعرض وفي طرفه الثاني كذلك، فيجر الأول المنشار على اللوح إلى أعلا، ثم يجر الثاني المنشار على اللوح إلى أسفل، وهكذا يستمر نشر اللوح حتى ينتهي قطعه، وكلما نشروا جزءاً من اللوح وضعوا قطعة صغيرة من الخشب بوسط الشق ليسهل النشر ويسهل جر المنشار، وهذه القطعة تسمى عندهم بالخابور، وهلم جرا في نشر جميع الألواح الخشبية الكبيرة.

أما نشر الألواح الصغيرة ومسحها بالفارة وتقطيعها إلى أجزاء حسب الرغبة، فإن ذلك يكون بالمناشير الصغيرة بعمل نجار واحد فقط، وكل ذلك يستلزم التعب والمشقة وتكاليف زائدة كما يأخذ وقتاً أكثر.

فلما انتعش الناس وازداد العمران بمكة المشرفة في العهد السعودي، استحضر بعضهم منجراً لنشر الأخشاب وقطعها ومسحها بالكهرباء، ويسمى عندنا "بالمنجر" أو "بالورشة الكهربائية للنجارة"، وأول من أحضر منجرة بمكة المكرمة هو الشيخ أحمد نحاس رئيس طائفة النجارين، فلقد أحضرها إلى مكة المشرفة في سنة (١٣٥٨) هجرية، ثم بعده أحضر الناس كثيراً من المناجر الكهربائية لنشر

الأخشاب ، حتى صار يوجد منهـا الآن بمكـة المكرمـة ثلاثـون منجـرة كهربائيـة ، كما أخبرنا بذلك رئيس طائفة النجارين المذكور ، وهي كما يأتي :

(١) منجرة الشيخ أحمد نحاس .

(٢) منجرة الشيخ محمد عبد الواحد .

(٣) منجرة الشيخ صالح ناقور .

(٤) منجرة الشيخ محمد طائفي .

(٥) منجرة الشيخ صديق نجوم .

(٦) منجرة الشيخ عربي مغربي .

(٧) منجرة الشيخ شكري نجوم .

(٨) منجرة الشيخ حسن وهبو .

(٩) منجرة الشيخ حسن حموده .

(١٠) منجرة الشيخ محمود موسى .

(١١) منجرة الشيخ أحمد كسوره .

(١٢) منجرة الشيخ صدقة وسراج كعكي .

(١٣) منجرة الشيخ سليمان غباشي .

(١٤) منجرة الشيخ أحمد رزق .

(١٥) منجرة الشيخ عبد القادر صعذر .

(١٦) منجرة الشيخ حجي عباسي البخاري .

(١٧) منجرة الشيخ أحمد مكي .

(١٨) منجرة الشيخ أحمد داغستاني .

(١٩) منجرة الشيخ أحمد ومحمد كعكي .

(٢٠) منجرة الشيخ علي علوش .

(٢١) منجرة الشيخ أحمد مشيع الغامدي وشريكه أحمد بكري .

(٢٢) منجرة الشيخ عايض الغامدي .

(٢٣) منجرة الشيخ سعد الغامدي .

(٢٤) منجرة الشيخ عمر خوقير .

(٢٥) منجرة الشيخ عباس رشوان .

(٢٦) منجرة الشيخ صالح كسار .

(٢٧) منجرة الشيخ محمد سعيد أخضر .

(٢٨) منجرة الشيخ سليمان كسار .

(٢٩) منجرة الشيخ سعيد عجب نور .

(٣٠) منجرة الشيخ عبدا لله كعكي .

نقلنا هذه الأسماء كما جاءتنا من رئيس طائفة النجارين عندنا ، بدون مراعاة للترتيب والأسبقية لإحضار الورشة ، نسأل ا لله تعالى التوفيق والسداد.

المصوراتية بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المشرفة في سابق الأزمان أحد من المصوراتية يأخذ صوراً فتوغرافية للناس ، فلما جاءت الحكومة السعودية وتطورت الحياة عندنا وتقدمت الحرف والصناعات ، ظهرت بعض المصوراتية بمكة المكرمة من سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية ، لأخذ صور المسافرين إلى الخارج ، ولأخذ صور الذين يطلبون التابعيات من أهل البلاد ، ولأخذ صور الذين يطلبون عمل الإقامات من الأغراب ، ولأخذ صور بعض الحفلات ، مع العلم بأن أخذ صور النساء عندنا في جوزات السفر أو للتابعيات أو للإقامات ممنوع منعاً باتاً مطلقاً إلى يومنا هذا .

ثم بعد ذلك كثر المصوراتية عندنا من أهل البلاد ومن غيرهم كثرة زائدة شيئاً فشيئاً ، حتى صار يوجد بمكة اليوم ونحن في سنة (١٣٨٥) هجرية طائفة من المصوراتية، نذكر منهم ما يأتي :

عدد	اسم المصوراتي	بعض الملحوظات
١	صبري بوشناق	هو من مكة المكرمة ، يشتغل في التصوير قديماً
٢	جميل بوشناق	هو من مكة المكرمة ، يشتغل في التصوير قديماً
٣	محمود شفيق	هو من مكة المكرمة ، يشتغل في التصوير قديماً

عدد	اسم المصوراتي	بعض الملحوظات
٤	سعيد شاورلي	هو من مكة المكرمة ، يشتغل في التصوير قديماً
٥	الزبير	إنه من الهند ، يشتغل في التصوير من سنة ١٣٦٥ تقريباً
٦	استوديو الشباب	لصاحبه علي هزاع ، يشتغل بمكة من سنة (١٣٨٣) هجرية
٧	صاحب استوديو الشرق	إنه من حضرموت ، يشتغل بمكة من سنة ١٣٧٩ تقريباً
٨	صاحب استوديو أكفا	إنه من جاوة ، يشتغل بمكة من سنة ١٣٧١ تقريباً
٩	صاحب استوديو الشمس	إنه من الهند ، يشتغل بمكة من سنة ١٣٨١ تقريباً
١٠	صاحب استوديو العلم الأخضر	لم نعلم شيئاً عن صاحبه ، يشتغل بمكة من سنة ١٣٨٢ تقريباً
١١	صاحب استوديو النصر	إنه من جاوة أو من الهند ، اشتغل بمكة من سنة ١٣٨٣ تقريباً
١٢	محمد سليمان الكثيري	إنه من حضرموت ، اشتغل بمكة من سنة ١٣٧٤ تقريباً
١٣	استوديو العاصمة	لصاحبه أحمد محمد العدني ، اشتغل بمكة من سنة ١٣٨٢ تقريباً

هذا ما يحضرنا من أسماء المصورين بمكة المكرمة ، ويوجد بها غيرهم أيضاً لكن لم نقدر على البحث عن محلاتهم ، وفيما ذكرناه كفاية لمن أراد الوقوف على سرعة التطور الحديث عندنا ، مع العلم بأن غالب المتعلمين المثقفين لديهم آلات التصوير يأخذون صور ما يرغبون من الأشخاص والمناظر الطبيعية . ومما يجدر بالذكر : إن لفضيلة العلامة الجليل شيخنا الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية الأسبق رحمه الله تعالى ، رسالة فريدة قيمة جداً اسمها "الجواب الشافي في التصوير الفتوغرافي" أفتى فيها بحل التصوير ، وهي رسالة طبعت في حياة مؤلفها عليه الرحمة والرضوان ، ونظنها أنها مطبوعة منذ سنة (١٣٤٦) هجرية ، فجزى الله تعالى صاحبها عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ونحن نعتقد أنه لم يوجد في عصرنا الحاضر

أخذ مثله ممتلئ من العلم والفضل والصلاح ، فقد كان رحمه الله تعالى بحراً لا ساحل له ، كانت تأتيه الأسئلة في مختلف العلوم والفنون من جميع الممالك الإسلامية وهو يرد عليها بالأجوبة الشافية الوافية بما يقنع السائلين من جميع الوجوه.

الآلات الكاتبة بمكة المكرمة

الآلة الكاتبة ظهرت لأول مرة في الوجود في سنة (١٨٦٦) ميلادية ، اخترعها كرستوفر لاثام شولز من مدينة بنسلفانيا ، بمساعدة صديقه صامويل سول -فلما علم بهذا الاختراع (رمنجتون وأولاده) بنيويورك في أمريكا وهو رجل له خبرة بصنع الماكينات وعنده خبراء موظفون في هذا الشأن . لما علم (رمنجتون) وأولاده باختراع الآلة الكاتبة قابل هذا المشروع بحماسة زائدة ، واشترى هو وأولاده امتياز هذا المشروع من مخترعيه شولز وصديقه صامويل سول ، وانضم لهم ثالث اسمه دنسمور ، ثم ما زالت التحسينات تدخل على الآلة الكاتبة ، حتى بلغت اليوم درجة الكمال وصارت الآلة الكاتبة في عصرنا الحاضر تشغل جزءاً هاماً من حياتنا العملية .

ولم تكن مكة المكرمة فيما مضى من العصور والأزمان تعرف الآلات الكاتبة ، فإن جميع أهلها كانوا يكتبون بأيديهم بأقلام القصب وبالحبر الأسود ، سواء في الأعمال الشخصية والتجارات ، أو في الأعمال الرسمية في دوائر الحكومات -هكذا كان الحال في مكة المشرفة وجميع الممالك والأقطار .

فلما اخترعوا الآلات الكاتبة في قرننا هذا ، القرن الرابع للهجرة ، ظهرت في بعض الأقطار العربية ، ثم انتشرت وشاع استعمالها تدريجياً كما هو سنة التطور ، فكان أول ظهورها بكثرة في مكة المكرمة في العهد السعودي ، وكانت ذلك أول الأمر في سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية تقريباً ، في ديوان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى ، وفي ديوان سمو ولي عهده ، ثم انتشرت الآلات الكاتبة في جميع دوائر الحكومة عندنا وفي جميع الدوائر التجارية وغيرها ، وأول مدرسة فتحت لتعليم الكتابة على الآلات الكاتبة بمكة المكرمة ، كانت في سنة (١٣٦٩) ألف وثلاثمائة وتسع وستين هجرية . والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

مصانع الثلج بمكة المكرمة

إن مكة المكرمة لا تنزل فيها الأمطار إلا قليلاً ، أما الثلج فلا ينزل فيها من السماء مطلقاً كما ينزل في بلاد روسيا والأتراك والأكراد والعراق وغيرها ، نعم ينزل بمكة البرد مع الأمطار في بعض الأوقات وبعد مرور عدة سنوات ، ويكون حجم البرد بمقدار حبات العنب بل أصغر ، ولقد سمعنا أن البرد في بلاد اليمن يكون بحجم البرتقال والرمان. والبرد بفتحتين شيء ينزل من السحاب يشبه الحصى ويسمى حب الغمام وحب المزن كما في المصباح المنير ، وإذا نزل البرد عندنا بمكة مع المطر يفرح به الصبيان ، وبعضهم يجمع مقداراً من هذا البرد ثم يضعه في كأس من الماء ليبرد ثم يشربه .

هذه حالة مكة المكرمة "بلد الله الأمين" ، إنها لا تعرف الثلج الإلهي ولا الصناعي في سابق العصور والأزمان ، ثم بدأ ظهور الثلج الصناعي بمكة المشرفة وصار فيها خمس مصانع كما يأتي :

(١) مصنع الحاج نسيم الشامي أقامة في سنة (١٣٣٨) هجرية تقريباً ، بجهة سوق المعلا في طرف مقبرة المعلا من الخارج ، ثم اشتراه منه الشيخ عبدالله باحمدين رحمه الله تعالى وأبقاه في محله المذكور بالمعلا ، ثم نقل المصنع إلى أم الدود في طريق جدة .

(٢) ومصنع الثلج للأخوين الشقيقين الشيخ صدقة والشيخ سراج كعكي ، وكان ابتداء تشغيل هذا المصنع في سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية ، وهو واقع بجهة جرول .

(٣) ومصنع الثلج للشيخ عبدالله كعكي ، وقد أقامه في سنة (١٣٧٥) هجرية تقريباً ، وهو واقع بجهة المسفلة .

(٤) ومصنع الثلج للشيخ طه خياط ، وقد أقامه سنة (١٣٧٧) هجرية تقريباً ، وهو واقع بجهة الششة فيما بين مكة ومنى .

(٥) مصنع الثلج للشيخ محمد عمر سعيد عيد ، وقد أقامه في سنة (١٣٧٩) هجرية تقريباً ، وهو واقع في حوض البقر بين مكة ومنى . والله تعالى أعلم عدد ما يكون من مصانع الثلج أو غيره في بلده الأمين (مكة المكرمة) أدام الله أمنها وأمانها وخيرها ورخاءها وبارك في طعام أهلها ومعيشتهم آمين .

الكاكولا بمكة المكرمة

وغيرها من المشروبات الحلوة اللذيذة

كانت العادة بمكة المكرمة من قديم الأزمان، أن يقدموا للزوار والضيوف في مناسبات أفراح في الأعياد والزواج والختان، وعندما يختم أطفالهم في الكتاتيب القرآن الكريم نظراً أو غيباً، أن يقدموا للحاضرين في بيوتهم الشربات، وهي عبارة عن إذابة السكر في الماء في أزيار من الطين أو في مواعين نحاسية، ويخلطون فيها قليلاً من الصباغ الملون إما أصفر وإما أحمر أو الأخضر أو الأزرق، ويضعون فيها قليلا من ماء الورد أو ماء الكادي أو المصطكى، وقد يضعون في هذا الماء ملح الليمون أو يعصرون فيه نفس الليمون، ثم يسكبونه في أكواب وكاسات من الزجاج البلور، ثم يقدمونها للزوار والضيوف، وتقديمها ضروري للضيوف في هذه المناسبات، وكذلك الشاي.

ولقد قال أحد شعراء مكة المكرمة، وهو الشيخ أحمد بن أمين بيت الخال المتوفى في سنة (١٣٠٥) هجرية تقريباً:

إذا زار من تهواه يوماً مودة	وقد أيقنت بالود منك نفوسه
فإن رمت أن تحظى بلطف حديثه	وبادرت بالشاهي يطول جلوسه
وإن تسقه الشربات يا صاح إنه	يقوم إذا دارت عليه كؤوسه

فمن هنا يعلم أن أهل الحجاز كانوا ولا يزالون يحبون شرب الشاي في كل الأوقات، أما الشربات فما كانوا يقدمونها للضيوف إلا في المناسبات التي ذكرناها، مع العلم بأن الشربات قبل وجود الثلج عندنا بمكة المكرمة كانوا يعملونها بالماء البارد الذي يبرد في الهواء فقط.

لقد كانوا يعملون أنواع الشربات من الأشياء الآتية: من التمر الهندي، ومن الزبيب، ومن التمر اليابس، ومن الخرنوب، ومن عصير الليمون، ومن السوبيا، وهو عبارة عن منقوع الخبز اليابس بعد تصفيته، وكانوا يضعون كل ذلك في أزيار معمول من الطين، وكانت تبرد في الهواء الطبيعي في الأسواق، وكانوا ينقعون بزر الريحان في الماء، فإذا طلب أحدهم أن يشرب كأساً من هذه الشرابات، وضع البائع في كأسه ملعقة من منقوع بزر الريحان فيكون لذيذاً سهل

الهضم، وكان هناك شراب ممتاز جيد للهضم يسمى "القازوزة" يباع مع الشرابات المذكورة، وكان للقازوزة قوارير خاصة توضع فيها كل قارورة مفتوحة من جانبي رقبتها، وفي داخل كل قارورة قزازة صغيرة كروية الشكل بحجم حبة العنبة لا تخرج من فم القزازة لضيق رقبتها، ثم بطلت هذه الشرابات البلدية من نحو ثلاثين سنة تقريباً، واستعيض عنها بالشرابات الخارجية. ثم وجدت في الأسواق قوارير الشربات المختلفة الأنواع، من شراب الورد وشراب البرتقال، وشراب التوت، وشراب المانقا المسمى بالأنبا، وشراب الرمان، وغيرها، كانت تأتي من الخارج من مصر والآستانة وسوريا وغيرها.

ثم لما ظهر الثلج الصناعي بمكة المكرمة وكثر وجوده، ظهر عندنا شراب "الكاكولا" وهو متخذ من الشاي وقهوة البن، مع خلطه بشيء من الصودا أو الكربون من الأشياء المهضمة، وظهر ذلك عندنا من بعد سنة (١٣٧٠) من الهجرة تقريباً، ثم بعد ظهور الكاكولا عندنا بسنوات، ظهر شراب الليمون، وشراب البرتقال، وشراب البيبسي، وشراب ميراندا، وشراب التفاح، وشراب الفرتبول، وشراب سينالكو، وتوضع كل هذه الأشربة بقواريرها في الثلج لتبرد ثم تشرب - وقد ظهر شراب الكاكولا وهذه الأشربة في الممالك الأخرى قبل ظهورها عندنا بسنوات معدودات، ومصانع هذه المشروبات اللذيذة موجودة بجدة ولكن أصحابها من أهل مكة المكرمة، وهم كما يأتي: الشيخ صدقة والشيخ سراج كعكي وهما أخوان شقيقان لهما مصنع الكاكولا، والشيخ عطا إلياس له مصنع الفرتبول، وكذلك الشيخ بكر تونسي - نسأل الله تعالى التوفيق لكثير من الأمور النافعة.

مصنع الحلويات بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المكرمة مصنع للحلويات كما في الخارج، وإنما كان أهلها من جنس الهنود يصنعون بها الحلويات البلدية، كالحلاوة الحمصية وحلاوة اللدو، وحلاوة الهريسة، وحلاوة المشبك "بتشديد الباء الموحدة"، والحلاوة اللبنية وغيرها، ثم وردت إلينا الحلويات المنوعة من الخارج حتى كادت هذه الحلويات البلدية أن تندثر الآن.

ثم إنه في سنة (١٣٧٤) تقريباً ، فتح الشيخ عبدالله كعكي شيخ الفرانة عندنا أول مصنع بمكة المكرمة للحلويات كما في الخارج ، فصار هذا المصنع يخرج لنا من الحلويات أصنافاً كثيرة ، وقد سمعنا أيضاً أنه يوجد مصنع آخر اسمه "مصنع حلويات الحرمين" وهو واقع فيما بين مكة وجدة وإلى مكة أقرب ، ونظن أنه واقع في أم الدوذ أو في حدة "بالحاء المهملة" ، وإن شاء الله تعالى ستتوالى المصانع المختلفة عندنا ، ففي المثل "أول الغيث قطر ثم ينهمر" نسأل الله تعالى أن يكثر علينا الخيرات والبركات آمين .

الصياغة بمكة المكرمة

الصياغة من الأمور الضرورية للبشر ، لما فيها للنساء من التحلية والتزين بالذهب والفضة واللآلي والجواهر ، فهي من الصياغات القديمة المعروفة في جميع بلدان العالم ومنها الحرمان الشريفان "مكة المكرمة والمدينة المنورة" .

ومن الأدلة الواضحة المكشوفة على أن الصياغة قديمة العهد ، ما نراه في المتاحف ودور الآثار بمصر من الحلي وأنواع الأشياء الذهبية والفضية الخالصة الجميلة البراقة ، ومن التوابيت الذهبية المحفوظة التي تدهش الناظر وتأخذ بالألباب ، إنهم عثروا عليها في الحفريات في القطر المصري وهي مصنوعة من منذ خمسة آلاف سنة بل أكثر ، ومثل ذلك يوجد أيضاً في بلاد اليمن وفي بلاد العراق وفي بلاد الأردن وغيرها من البلدان . ولقد اطلعنا على الآثار والمتاحف الموجودة بمصر ، عندما كنا هناك من سنة (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية ، عندما كنا نطلب العلم في الأزهر الشريف المعمور ، زاده الله تعالى علماء وخيراً وبركة .

فمكة المشرفة تعرف الصياغة من قديم الأزمان والعصور ، وفي عصرنا هذا ، عصر التقدم والتمدن برع أناس من أهل مكة في صنعة الصياغة إلى درجة عظيمة ، لأن فيهم ذكاء ونشاطاً فطريين ، ولأهل الصياغة عندنا سوق معروفة خاصة ، وعليهم شيخ من أهل الصنعة ، وفي دكاكينهم أنواع كثيرة مختلفة من الحلي ، كالعقود اللؤلؤية ، والأسورة الذهبية ، والخواتيم المحلاة بالأحجار الكريمة ، وغير ذلك من المصوغات .

وهناك طائفة منهم عريقون في صنعة الصياغة أباً عن جد بالوراثة ، وبعضهم مستجد مارس هذه المهنة اللطيفة النظيفة بنفسه عن رغبة وشوق فصار يشار إليه

بالبنان - الحاصل أن مكة المكرمة لا توجد صنعة في الدنيا إلا وفيها مثلها و لله الحمد ، ولا غرو فهي بلد ا الله الأمين ، وبلد رسوله العزيز المكين ، ففيها نبع الإسلام ، وإليها يعود الإيمان ، فهنيئاً لأهلها ومن كان فيها ، إنها البلدة الطاهرة الزاهرة ، المشرقة الآمنة العامرة . نسأل ا الله تعالى التوفيق وصلاح الحال والأحوال آمين .

مزارع الدواجن بمكة المكرمة

تقدم أن ذكرنا عن الدجاج الخارجي بمكة المكرمة ، وهنا نذكر أيضاً بصورة مختصرة عن مزارع الدواجن بمكة ، فإنه يوجد بمكة شرفها ا الله تعالى ثلاث مزارع ، (الأولى) مزرعة فقيه للدواجن وهذه المزرعة أقدم المزارع (والثانية) مزرعة الشيخ عبدا لله كعكي ، (والثالثة) مزرعة الشيخ عبدا لله كوير.

وتسمية كل واحدة منها بمزرعة من باب اللطافة ، فإنه ليست مزرعة بالمعنى الحقيقي ، غير أن هذه الأماكن الثلاثة ، يوجد في كل واحدة منها قليل من الرياحين والزروع الخفيفة ، كما أن تسميتها بالدواجن من باب التشهير فقط ، إذ ليس بها شيء من الدواجن غير الدجاج الخارجي .

ومن عجيب الأمر الذي يلفت النظر ، أن البيض الخارجي موجود عندنا بكثرة ، أما البيض البلدي فإنه يكاد ينعدم من البلاد ، مع أنه كان في الأزمنة الماضية يوجد بكثرة وافرة في الأسواق ، فالأمر لله عز وجل .

زيت المازولا بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المكرمة من سابق الأزمان غير زيت الزيتون وزيت السمسم ، ثم جاءها من الخارج زيت المازولا ، بضم الزاي ، وذلك في سنة (١٣٧٦) ألف وثلاثمائة وست وسبعين هجرية تقريباً ، وهو زيت مستخرج من الضرة الحبشي ، بضم الضاد وتخفيف الراء وفتحها ، وهو الضرة التي تشوى فوق الجمر ، إنه زيت خفيف جداً على القلب والمعدة لعدم وجود الدهن فيه إلا بقلة ، لذلك الأطباء يصفونه للمرضى الذين هم ممنوعون من أكل السمن والدهن ، وهذا الزيت يأتينا في زجاجات وفي علب . هذا وا لله تعالى أعلم ماذا سيظهر من الزيوت في الدنيا ، وربما ظهر زيت صناعي كما ظهر سمن صناعي ، أما زيت الأخشاب فهو موجود

في الخارج بكثرة ، وهو يستعمل في بعض المأكولات وفي قلي بعض الأشياء ، وهذا الزيت رخيص ، كما ظهر في الوجود زيت السمك ، وهو زيت عظيم النفع لا يستعمل إلا في بعض الأمراض بنقط معدودة ، مثله أيضاً زيت صفار البيض ، وقد سمعنا أنهم في الخارج يحاولون استخراج الزيت من الماء ، وربما يستخرجون أيضاً زيت بعض الحبوب والخضار والفواكه ، وزيت القطن موجود بمصر . أما زيت الزيتون وزيت السمسم فهما معروفان من قديم الدهور والعصور خصوصاً زيت الزيتون ، ولهما من المنافع والفوائد ما لا يخفى.

صالونات الحلاقة بمكة المكرمة

لم تكن بمكة صالونات الحلاقة ، وإنما كان الحلاقون يفتحون دكاناً صغيراً للحلاقة في أنحاء مكة ، وأكثر دكاكين الحلاقة كانت مجموعة بجوار بعض في نهاية المسعى عند المروة ، حيث ينتهي عندها الساعون المحرمون بالحج أو بالعمرة فيحلق هناك رأسه أو يقصر ، فكان الناس يذهبون إلى دكاكين الحلاقة ليحلقوا رؤوسهم أو يصلحوا ذقونهم ، وبعضهم يتفق مع الحلاق ليذهب إلى بيته في كل أسبوع مرة ليحلق له ، وكان جميع الناس حتى تلامذة المدارس يحلقون رؤوسهم بالموسى من قديم الأزمان إلى سنة (١٣٦٠) هجرية تقريباً .

ثم بعد هذه السنة المذكورة كثر وجود الأغراب بمكة المكرمة كثرة فاحشة من كافة الأجناس والطبقات ، فتعلم أهل البلدة الطاهرة من هؤلاء تربية شعر الرأس والتواليت ، خصوصاً وأن بعض هؤلاء الأغراب افتتحوا صالونات جميلة للحلاقة في الشوارع ، في دكاكين مزينة بأدوات الحلاقة الحديثة ، حتى صاروا يحلقون الذقون بالمكائن الكهربائية .

وأغلب هؤلاء الحلاقين من سوريا وفلسطين والأردن ، وهكذا تطورت البلاد في كل الحالات .

الدجاج الخارجي بمكة المكرمة

لم يكن في سابق الأزمنة يأتي دجاج من الخارج إلى مكة المكرمة ، ولكنه في الوقت الحاضر ، أي من سنة (١٣٧٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وسبعين هجرية تقريباً أحضر بعضهم إلى مكة من الخارج صغار الدجاج المسماة عندنا

(بالفراريج)، والمسماة بمصر (بالكتاكيت)، أحضر منها كثرة وفيرة لتربيتها بمكة ويبعها إذا كبرت، وأحضر معها أطعمتها الخاصة التي يطعمونها في بلادها، ووضعها في حديقة صغيرة وسط غرفة باردة، ووضع عليها من يطعمها ويسقيها بصورة فنية، وضع بعضها بأعلا مكة عند حوض البقر، وبعضها في الحفائر بأسفل مكة، فما كبر منها وصار صالحاً للأكل أنزلها إلى السوق للبيع.

ولما كانت هذه الدجاجات في أرض مزروعة ببعض الرياحين والزهور أطلقوا على موضعها مزرعة الدواجن مع أنه ليس فيها سوى الدجاج، قال في مختار الصحاح: والدجاج معروف، وفتح الدال أفصح من كسرها، الواحدة دجاجة ذكراً كان أو أنثى، والهاء للإفراد كحمامة وبطة، انتهى منه. ومن هنا يعلم أن نطقنا الدجاجة بضم الدال خطأ محض.

الحوت والسمك الطري بمكة المكرمة

الحوت والسمك عندنا بالحجاز بمعنى واحد، وفي الخارج في بعض الممالك يقولون للحوت صغار سمك وللسمك الكبار حوت.

والحوت في مدن الحجاز التي على ساحل البحر الأحمر كثير، كجدة ورابغ وينبع وما بينها من المحطات والمواقع والليث وغيرها.

لم يكن في العصور الماضية يوجد بمكة المكرمة شيء من الحوت الأخضر، أي الحوت الطري الجديد الخارج من البحر، وإنما كان المعروف من الحوت في مكة نوعان من الحوت فقط، وهما الحوت المقلي بالزيت وهذا كان يأتي إليها من جدة مقلياً، وكانوا يضعونه في أقفاص من جريد النخل ليتخلله الهواء في نقله من جدة إلى مكة، وكانوا يرسلونه إلى مكة مع الحمَّارة، بتشديد الميم، فيصل إليها من جدة في ليلة واحدة فقط، أي كانوا يرسلونه قبيل المغرب من جدة فيصل إلى مكة في الصباح، فالحمار الجيد يقطع المسافة من جدة إلى مكة في ليلة واحدة، وما كانوا يرسلونه على الجمال لأنها تقطع المسافة بين البلدتين في ليلتين، ولأن الجمَّالة بتشديد الميم لا يمشون بالنهار مطلقاً خوفاً من حرارة الشمس، فهم بالنهار يقيلون في قرية بحرة وهي منتصف الطريق بين مكة وجدة، فكان الحوت المقلي إذا وصل إلى مكة المكرمة قلوه مرة أخرى في الدكاكين ثم يبيعونه خوفاً من تغيره وخرابه، هذا الحوت المقلي هو الذي يعرفه أهل مكة من قديم العصور والأزمان.

فلمّا ظهرت السيارات وشاع استعمالها في جميع مدن المملكة السعودية، وكثر انتقالها وسفرها بين بلدان المملكة، وظهرت أيضاً الثلاجات الكهربائية ومصانع الثلج بمكة، قام بعضهم بجلب الحوت الأخضر أي الطري من جدة ورابغ ومستورة إلى مكة المكرمة، فيصيدون الحوت من البحر الأحمر من هذه الأماكن ليلاً، ثم يرسلونه طرياً في الصباح المبكر من جدة بالسيارة فيكون بمكة في وقت الضحى، ويعرض حين وصوله للبيع في الدكاكين التي بالمنشية بزقاق الوزير، وقد يمكث هذا الحوت في الصناديق المثلجة يومين أو ثلاثة، ثم يتجدد إحضاره أيضاً، فربما أحضروا الحوت الطري من جدة في كل يوم مرة، وربما أحضروه يوماً بعد يوم بحسب سرعة بيعه أو عدمه.

ويوجد عندنا نوع ثالث من الحوت وهو الحوت الناشف أي اليابس وهو كثير، فإنهم ييبسونه يبساً تاماً فيبقى أشهراً عديدة معروضاً في الدكاكين من غير أن يحصل عليه تغير، حتى إنهم ييبسون الجمبري ويسمى عندنا "الربيان"، بضم الراء وسكون الباء الموحدة.

وأهل مكة يطبخون الحوت بأنواع مختلفة وأحياناً يأكلونه مقلياً، وأهل جدة لهم ولع كبير بأكل الحوت، ولهم طرق كثيرة في طبخه لا يتقنه غيرهم، والحق يقال: أن أكل الحوت لذيذ سهل الهضم، إنه ألذ من لحم الدجاج والطيور، ويكفي فيه قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾.

هذا وبمناسبة كلامنا على وجود الحوت الطري الجديد بمكة المكرمة، نذكر ما جاء في صحيح البخاري عن عثور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على حوت كبير في البحر، ولغرابة كبره نذكره هنا. فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الوكالة في باب الشركة والنهد والعروض: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: بعث رسول الله ﷺ، بعثاً قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودى تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: وما تغني تمرة، فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من

أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ، ثم مرت تحتهما فلم تصبهما . انتهى من صحيح البخاري .

ومعنى الظرب في اللغة : ما تنأ من الأرض كالرابية . قال في القاموس المحيط : الظرب ككتف ما تنأ من الحجارة وحد طرفه ، أو الجبل المنبسط أو الصغير ، جمع ظرايب . اهـ . فيكون معنى الجملة التي في الحديث " فإذا حوت مثل الظرب " أي حوت كبير ناتئ وبارز من البحر كأنه الجبل الصغير .

فانظر رحمنا الله تعالى وإياك إلى كبر هذا الحوت العظيم الذي أكل منه ثلاثمائة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مدة ثمانية عشر يوماً . والظاهر ، والله تعالى أعلم ، أنهم وجدوا هذا الحوت في سواحل البحر الأحمر ، من جهة ينبع ورابغ ومستورة وما بين ذلك في طريق الساحل ، فالبحر الأحمر صغير بالنسبة لبحار المحيطات الكبيرة ، فإنه يوجد في هذه المحيطات من الحوت ، ما هو أعظم من هذا الحوت عشرات المرات ، فإنه لا يعلم ما في البحر من المخلوقات إلا رب العرش العظيم ، فسبحان القادر على كل شيء .

كثرة الأسفار إلى خارج بلادنا

لم يكن أهل الحرمين الشريفين "مكة المكرمة والمدينة المنورة" يعرفون السفر إلى الممالك الأخرى منذ قديم العصور إلا قليلاً ، ولا يسافرون إلا لأمر ضروري كالسعي وراء الرزق من تجارة ، أو ربط معاشات شهرية لهم من بعض أرباب الدولة أو من بعض الأثرياء المعروفين بعمل الخيرات ، ولا يسافرون إلا إلى البلدان الإسلامية فقط ، كدار الخلافة استامبول ، مصر والشام والعراق وبلاد المغرب وهندستان ، وما كانوا يعرفون السفر إلى الأقطار الإسلامية للمعالجة من الأمراض قط ، فكل مريض يعالجه أهله في نفس بلدتهم وعلى حسب ما يوجد فيها من الأدوية والعقاقير والأطباء القليلين ، أما السفر إلى بلاد أوروبا فما كانوا يعرفونه قط ، مع العلم بأنه لم يكن في تلك الأزمان تعب في استخراج جوازات السفر ، و لم تكن قوانين تحتم على المسافر أخذ تأشيرة إقامة مدة يسيرة معلومة في البلدة التي يسافر إليها ، بل يكفي للمسافر أن يحمل معه بطاقة شخصية رسمية من ميناء بلدته لا تتجاوز قيمة هذه البطاقة أكثر من نصف ريال .

كان السفر إلى خارج الحرمين قليلاً كما قلنا ، إلى سنة (١٣٣٤) أي إلى سنة نهضة الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى ، حيث في هذه السنة المذكورة وهي سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية ، حصل قيام جميع ممالك العرب على الدولة التركية العثمانية ، فكانت الحرب دائرة ضدها في جميع البلدان ومنها مكة والمدينة ، فقد تعب أهل هاتين البلدتين أثناء المحاربة ، فسافر بعضهم إلى مصر وأغلبهم سافروا إلى الشام خصوصاً أهل المدينة المنورة لقربها منهم ، ولوجود السكة الحديدية من المدينة إلى الشام ، ومكث هناك بعضهم سنوات عديدة ، وبعد أن استقرت الأمور بالحجاز رجعوا إلى أوطانهم . ثم بعد نحو عشر سنوات من السنة المذكورة أي في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، وقعت حرب أخرى بين الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز المذكور وبين سلطان نجد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمهما الله تعالى وغفر لهما ، فزحف الثاني من نجد على الحجاز واستولى عليها ، فحصل رعب عند الناس أيضاً وخافوا على أنفسهم ، فسافروا إلى مصر والشام وغيرهما ، فلما استقر الأمر في الحجاز ، رجعوا مرة ثانية إلى الحجاز كل واحد استقر في بلدته .

فمن هاتين الوقعتين تعلم أهل الحرمين وغيرهم السفر إلى الخارج ، حيث صار لهم هنالك معارف وأصدقاء علاوة على معرفتهم بالحجاج الذين يحضرون إليهم في كل عام في مواسم الحج .

ثم من بعد سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية ، كثر السفر من عندنا تدريجياً إلى جميع الممالك الإسلامية وغيرها ، ومن بعد سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية ، ألفوا السفر إلى البلاد الأوروبية بكثرة فائقة وسهولة ويسر كأنهم ينتقلون من قرية إلى قرية ، ونعزو ذلك إلى الأمور الآتية :

(١) كثرة الأموال الموجودة عندنا بالمملكة .

(٢) معرفتهم باللغات الإفرنجية التي تعلموها عندنا في المدارس .

(٣) معرفتهم بأساليب التجارة أكثر من ذي قبل .

(٤) كثرة وسائل التنقلات السهلة ، من السيارات والطائرت والبواخر والسكك الحديدية وغيرها .

(٥) وجود البنوك في جميع الممالك والأقطار وسهولة تحويل المبالغ الطائلة .

هذه هي الأمـور والوسـائل الأساسية لسرعة التنقلات بين البلدان الشرقية والغربية ، علاوة على انتشار الأمن والأمان في جميع الممالك والأقطار ، وعلاوة على إمكان سرعة اتصال المسافرين بأهليهم وأقاربهم ، إما بالتليفون أو بالتلغراف أو بالبريد الجوي ، بل يمكن أن يصل المسافر من بلاد أوروبا إلى مكة المشرفة في بضع ساعات بالطائرات براحة تامة ، بينما كان السفر إلى تلك الجهات يستغرق أشهراً عديدة قبل قرن واحد ، قبل وجود الطائرات والبواخر ، حتى أن الحجاج كانوا يصلون من بلاد مصر إلى مكة المكرمة في أربعة أشهر تقريباً من طريق البر بالدواب والجمال ، كما بينا ذلك في محله من هذا الكتاب ، والله تعالى أعلم بما سيحدث من وسائل التنقلات في مستقبل الأيام .

المكتبات العامة بمكة المكرمة

المكتبات العامة التي يقصدها أهل العلم من الطلبة والعلماء بمكة المكرمة اثنتان فقط ، وهما كما يأتي :

(الأولى) مكتبة الحرم المكي ، وهي قد أسست منذ عدة قرون ، أسسها أحد سلاطين آل عثمان الأتراك ، وكان محلها في الأول أمام بئر زمزم في غرفة فوقها قبة صغيرة ، فلما جددت الدولة التركية بناء المسجد الحرام بالقباب بدل السقوف الخشبية ، جعلوا هذه المكتبة في مكان خاص بباب الدريبة بداخل المسجد الحرام . ثم لما قامت الحكومة السعودية بتوسعة المسجد الحرام ابتداء من سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، وهدموا باب الدريبة جعلوا هذه المكتبة في محل خاص أيضاً جهة باب السلام ، وهذه الجهة لا تبعد عن الجهة الأولى إلا بنحو مائة متر ، بل أقل .

(والثانية) مكتبة مكة المكرمة ، وهي تقع الآن في محل ولادة النبي ﷺ بشارع الغزة ، وقد أنشئت قريباً منذ سنوات ، وكل واحدة مزودة بكتب قيمة وإن كانت قليلة بالنسبة لبعض مكتبات الممالك الأخرى ، إلا أنه في عزم حكومتنا الناهضة إمدادهما بكثير من الكتب الأخرى ، وستتحقق هذه النية قريباً بتوفيق الله تعالى وفضله .

الأربطة بمكة المكرمة

الأربطة جمع رباط ، والرباط عندنا بمكة المكرمة مبنى خاص لسكنى الفقراء والغرباء وطلاب العلم من غير أكل ولا شرب لهم ، فبعض الأربطة يكون للنساء وبعضها يكون للرجال ، والعادة أن تكون كل غرفة لشخص واحد . والأربطة بمكة المكرمة كثيرة وكلها كانت وقفاً على الفقراء وطلاب العلم ، وهي ما زالت موجودة إلى اليوم . لكن لما شرعت الحكومة السعودية في توسعة المسجد الحرام وفي توسعة شوارع مكة المكرمة ، وذلك ابتداء من سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، فما كانت من الأربطة بجوار المسجد الحرام ، أو في طريق الشوارع التي لا بد من توسعتها فقد هدمتها الحكومة هدماً تاماً لإدخال أرضها في التوسعة ، فبعض الأربطة دفعت الحكومة السعودية مبلغاً معيناً من المال تعويضاً عنها لبناء غيرها في أمكنة أخرى بمكة ، وبعض الأربطة الأخرى لم تدفع الحكومة عنها تعويضاً ، فمحيت من الوجود بتاتاً ولم يجدد بدلها شيء – فمن الأربطة التي لم تدفع الحكومة عنها تعويضاً ما يأتي:

(١) رباط محمد باشا ، وكان بباب الزيادة .

(٢) رباط آخر ، وكان بباب الزيادة أيضاً .

(٣) رباط الداودية ، وكان في باب العمرة في المسجد الحرام .

(٤) رباط السليمانية ، وكان بباب الدريبة .

(٥) رباط آخر ، وكان في باب العمرة من جهة الشارع .

(٦) رباط آخر ، وكان بباب الزمامية بين باب العتيق وباب العمرة .

هذا ما نحفظه من الأربطة التي لم تدفع الحكومة عنها تعويضاً ليبنى بدلها غيرها ، وكل هذه الأربطة التي لم تدفع عنها تعويضاً قد مضى على بنائها أربعمائة سنة .

الحمامات بمكة المكرمة

الحمّامات بتشديد الميم الأولى ، جمع حمام بالتشديد أيضاً ، والحمام في اصطلاح عصرنا هو مبنى خاص للاغتسال ، تكون فيه عدة غرف وأحواض ، كما تكون فيه مياه باردة وساخنة ، وتكون أرض الحمام من المرمر الرخام .

لم يكن بمكة المكرمة من الحمامات سوى حمامين فقط ، (الأول) كان في باب العمرة ، (والثاني) كان في آخر القشاشية من جهة المسجد الحرام ، هذان الحمامان بنتهما الحكومة التركية عندما كانت تحكم الحجاز وجميع الممالك الإسلامية ، بنتهما منذ أربعمائة سنة .

هدم الحمام الأول الذي بباب العمرة سنة ١٣٧٥ هجرية بسبب توسعة المسجد الحرام في عهد الحكومة السعودية .

وأما الحمام الثاني الذي في القشاشية ، فهو الآن مقفول معطل ليس فيه ماء ولا شيء به من أدوات الحمامات . إنه في النية هدمه وإنشاء منزل في مكانه ، والله تعالى أعلم .

الحاصل أنه اليوم لم يبق بمكة المكرمة شيء من الحمامات فسبحان المتصرف في الكون ، لا إله إلا هو العزيز الغفار .

القهاوي التي بمكة

القهاوي عندنا بمكة المكرمة ، بل وبجميع الحجاز ، كالمدينة المنورة ومدينة الطائف ومدينة جدة ومدينة رابغ ومدينة ينبع وغيرها ، وفي المحطات التي بين البلدان خصوصاً في طرقات الحج والزيارة ، في هذه الجهات كلها القهاوي كثيرة جداً . والقهاوي جمع قهوة نسبة إلى عمل قهوة البن فيها ، ولكنها تجمع بين عمل قهوة البن والشاي والشيشة ولمن أراد في القهاوي يمكن إحضار الطعام إليها ، خصوصاً الطعام الخفيف كالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية والفول المدمس والخبز بأنواعه .

ولا ندري تاريخ إنشاء القهاوي بالحجاز وغيرها من الممالك والبلدان الأخرى ، والظاهر أن وجود القهاوي في داخل البلدان وفي المحطات قديم العهد

من خمسمائة سنة أو أكثر ، لأن حاجة الإنسان ماسة إلى الجلوس في المجتمعات العامة كالقهاوي لما فيها من أسباب راحته من الطعام والشراب وأنواع المسليات ، فالقهاوي هي بمثابة النوادي العامة ، يقصدها الإنسان للاستجمام والراحة هرباً من متاعب البيوت والمنازل . كما يقصد الرجل الصالح المساجد للعبادة من الصلاة والتسبيحات وقراءة القرآن ، هرباً من عناء الدنيا وأشغالها ، فوجود القهاوي أمر ضروري يأوي إليها عامة الناس خصوصاً طبقات العمال والصناع .

انظر: صورة رقم ٣٠ ، إحدى القهاوي الحجازية

والقهاوي في غير الحجاز كمصر والشام وبلاد الإفرنج هي نوعان :

(النوع الأول) القهاوي العامة ، ويقصد العامة من طبقات العمال والصناع ، حيث يجدون فيها راحة أجسامهم ويتداولون بينهم الحكايات والمضحكات ، مع وجود الأكل والشرب فيها بقيمة زهيدة فلا يتكلفون مصاريف كثيرة ، وهذا النوع من القهاوي عندنا بالحجاز كثير جداً ، بل لا يوجد غيره فيها.

انظر: صورة رقم ٣١ ، مقهى بلدي

(والنوع الثاني) القهاوي الخاصة الممتازة ، وهذه لا يدخلها إلا الأعيان والأغنياء ، والكبراء والوزراء ، ومن في طبقتهم من أهل الغنى والثراء ، حيث يجدون فيها من أطايب الطعام وأنواع المشروبات الروحية وغيرها ، وحيث يجدون فيها أنواع المسليات ، ويتسامرون فيما بينهم بأنواع القصص والأخبار ، فتستريح أفكارهم وأعصابهم فيها من العناء والأعمال المرهقة في داخل الدواوين والدوائر .

ولقد يبلغ قيمة الفنجان الواحد من الشاي أو القهوة فقط بدون طلب شيء آخر ، في هذا النوع من القهاوي الممتازة نحو عشرة ريالات سعودية أو جنيهاً مصرياً تقريباً ، وليس ذلك لنفس الشاي أو القهوة فقط ، فهذه لا تتعدى قيمتها بضعة قروش ، ولكن هذه القيمة الفاحشة والغلاء الكبير ، إنما هي لنفس الجلوس في هذه القهاوي الممتازة ، فإنها مؤثثة بأثاث فاخر كبيوت الأغنياء ، والخدمة فيها ممتازة جداً ، ونفس الخدم فيها على أحسن حالة من النظافة والأدب والتربية الممتازة ، ثم إن نفس القهاوي تقع في أجمل الشوارع والمحلات ، وربما كانت على ضفاف البحور والأنهار ، وداخل القهوة مزين بالصور والرسوم البديعة ، وفيها من مراكن الزروع والرياحين والأزهار العطرة ما يجلب السرور والراحة التامة ، ومن

هنا نفهم سببَ الغلاء وارتفاع قيمة المطعومات والمشروبات في هذه القهاوي الخاصة ، فهذا النوع من القهاوي الممتازة كالنوع الخاص من الفنادق الممتازة . وليس عندنا بالحجاز قط شيء من هذه القهاوي الخاصة الممتازة ، فإن من فتح عندنا مثل هذه القهاوي يخسر ولا يربح ، لقلة الرواد والقاصدين إليها .

فالقهاوي العامة من النوع الأول عندنا بالحجاز يمتاز عن مثلها في البلدان الأخرى بما يأتي:

(١) كراسي قهاوينا طويلة على قدر طول الإنسان ، فيمكن أن يجلس على كرسي واحد ثلاثة أنفار أو أربعة فقط .

(٢) الكراسي كلها قوائمها وأرجلها من أعواد الخشب ، أما موضع الجلوس فمشغول بشرائط طويلة في عرض البنصر كالحبال ، تتخذ من خوص النخل يشتغلها التكارنة السودانيون ، ولهم في صنعها مهارة فائقة .

(٣) ينام الناس على هذه الكراسي إذا أرادوا في ليل أو نهار ، وفي الشتاء أو في الصيف ، ولدى أصحاب القهاوي عندنا الفرش واللحف والمخدات لهذا الأمر .

(٤) الكراسي عالية عن الأرض بمقدار تسعين سنتيمتراً ، فحبذا لو كان ارتفاعها نصف متراً تقريباً لئلا يتعب قصير القامة عند جلوسه فوقها .

(٥) الأباريق الموجودة بهذه القهاوي كلها من الطين كالشراب وبعضها من التنك وهو الصفيح .

(٦) الشيشات الموجودة عندنا في القهاوي والمنازل يختلف شكلها عن شكل الشيشات في الممالك الأخرى ، وعندنا شيشات خاصة لشرب التنباك ، وشيشات خاصة لشرب الجراك ، بضم الجيم وفتح الراء وتخفيفها ، والجراك هو معجون يتخذ من التنباك وبعض الفواكه المتعددة ، ونظن أنه من صنع الهند وليس فيه شيء من المخدرات والمسكرات مطلقاً .

والقهاوي عندنا مفتوحة ليلاً ونهاراً ، وبسبب كثرة الحجاج عندنا صارت القهاوي كثيرة جداً ، فطرق الحج والزيارة بمكة والمدينة وجدة والطائف ورابغ وينبع وما بين هذه البلدان من الطرق والمحطات ، كلها مليئة بالقهاوي ، وفيها الاستعدادات الكافية لراحة الحجاج والمسافرين من الأكل والشرب ، والماء والثلج ، والحوت والسمك ، والفول المدمس والبيض ، والرز والعدس والسمن

واللحم ، والفواكه وغيرها ، فيستريح الإنسان من عناء السفر في هذه المحطات والقهاوي أعظم راحة ، وهو في غاية الاطمئنان والأمان ، فإن الأمن والأمان في جميع مملكتنا أصبح مضرب الأمثال و لله الحمد .

والحق يقال : أن لهذه القهاوي في الحجاز فوائد كبيرة جداً يعرفها جميع الناس ، وبالأخص القهاوي التي تكون في أيام الحج بمنى ومزدلفة وعرفات ، ففي هذه المشاعر تمتلئ جميع القهاوي الموجودة بها من الحجاج من أهل البلاد ومن الأعراب ، تمتلئ على سعتها ليلاً ونهاراً بهم ، حتى أن بعضها لا يبقى فيه مكان خال من كثرة ازدحام الناس للجلوس فيها .

هذا ولقد ذكرنا نبذة عن القهاوي في رسالتنا المطبوعة المسماة "أدبيات الشاي والقهوة والدخان" فراجعها إن شئت الوقوف على هذه المشروبات اللطيفة .

نقل الحلقة التي بالمعلا إلى جهة جرول

حلقة اللحم والخضار التي بالمعلا هي محلها منذ مدة طويلة جداً ، وكانت هذه الحلقة "بفتحات" يأتي إليها البدو بجميع الفواكه والخضروات عند صلاة الفجر على ظهور الجمال قبل وجود السيارات ، يأتون بهذه الخضراوات والفواكه من القرى والأماكن القريبة من مكة المشرفة بنحو مرحلة أو مرحلتين بالجمال ، أي بنحو ليلة أو ليلتين بسير الإبل ، كوادي فاطمة ووادي الزيمة والشرائع وخليص "بكسر أوله وثانيه" ومن جهة عسفان وطريق جدة والطائف وطريق اليمن وغيرها .

فكان يأتي إلى الحلقة التي بالمعلا بمكة المكرمة طوائف البدو والجمالة من كل حدب وصوب من أطراف مكة ، ينزلون أحمالهم في وسط الحلقة عند طلوع الفجر ، فيصلون الصبح بمكة ثم يفطرون الفول بالسمن أو يفطرون باللبن والتمر ، ثم يشربون الشاهي أو القهوة ، فإذا باعوا ما عندهم من الفواكه والخضار ، ذهبوا إلى الأسواق يشترون الأقمشة والطعام من الحبوب والتمر وغيرها ، ثم يرجعون إلى أهلهم في أطراف مكة بعد العصر بنحو ساعة ، عندما تنكسر حرارة الشمس وتميل إلى الغروب .

كانوا يأتون معهم بالموز واللوز والرمان والبرتقان والعنب والبلح والتمر والرطب والمشمش والخوخ والتفاح والخربز والحبحب ، وهذان هما البطيخ

الأصفر والبطيخ الأخضر وغير ذلك . ومن الخضروات : الدباء والكوسة والبطاطس والباذنجان الأحمر وهو القوطة والباذنجان الأسود والفاصوليا والباميا والملوخية والرجلة والزبانخ والسلق والكرمب والكرات والبصل والبقدونس والكزبرة والليمون والليم والفلة والجزر التمري والجزر اليماني وهو البطاطا ، وغير ذلك من الخضروات .

وكانوا يأتون أيضاً بالسمن والعسل في قرب صغيرة ، وبالحشيش للبهائم ، وبالفحم والحطب ، والدجاج وبعض الحيوانات والطيور الصغيرة التي يصطادونها من خارج الحرم بأطراف مكة المشرفة ، كالنغري والعصافير الملونة والحمام والقماري ، وأحياناً يأتون بأبي الحصين "الثعلب" والذئب الصغير ، والقنفذ والكروان واليمام وغير ذلك - كل هذا يأتون به إلى الحلقة على ظهور الجمال .

فلما ظهرت السيارات في مكة المكرمة ابتداء من سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية ، ثم كثرت في وقتنا هذا وهو سنة (١٣٨٥) كثرة رائدة بحيث بطل استعمال الجمال التي كانت تحمل الأثقال من بلد إلى بلد ، صار إحضار الفواكه والخضروات بواسطة السيارات إلى الحلقة بمكة المكرمة من كل القرى والبلدان ، بل صار بعض الفواكه والخضروات تأتي إلينا من البلدان البعيدة ، كالمدينة المنورة وجدة والطائف ، ومن بلاد نجد كالحسا وحائل وتبوك وغيرها ، ومن البحرين والكويت ، فسبحان الرزاق الذي يبعث لأهل بلده الأمين بجميع أنواع الفواكه والثمار والحبوب والخضار ، وبجميع أنواع الأقمشة والألبسة الجاهزة ، وأنواع التجارة والعطارة ، كل ذلك ببركة دعاء خليله "إبراهيم" عليه أفضل الصلاة والتسليم .

ثم لما امتد العمران إلى أطراف مكة المشرفة بنحو خمسة كيلو مترات أو أكثر ، وكثر سكانها أضعافاً مضاعفة عما كانت عليه في الأزمان السابقة ، رأت الحكومة السعودية نقل حلقة مكة التي بالمعلا إلى جهة جرول بمكة أيضاً ، في محل بستان الشريف عون رحمه الله تعالى بعد خرابه ، فنقلت الحلقة إلى هذه الجهة في أوائل سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية ، نقلت لأن المصلحة اقتضت ذلك ، لقد كانت حلقة المعلا منذ مئات السنين عامرة بالفواكه والخضراوات واللحوم والدواجن ليلاً ونهاراً ، واليوم أصبحت خاوية خالية خربة دامرة .

فسبحان مغير الحال والأحوال ، لا إله إلا هو الكبير المتعال .

بدء ظهور المطابع

ووجودها بمكة المكرمة

قبل أن نتكلم على ظهور المطابع ، لا بد لنا أن نأتي بمقدمة تبين فضل الطباعة والمطابع - فنقول وبالله تعالى التوفيق .

اعلم أنه قبل اختراع المطبعة وانتشارها ، كانت جميع الكتب والمؤلفات تنسخ بالأيدي ، ولا يخفى أن ذلك يستلزم وقتاً طويلاً ونفقات كبيرة ، فمثلاً نسخ متن الألفية لابن مالك في النحو ، فإن نسخة واحدة منه يحتاج لكتابته باليد وتصحيحه شهراً واحداً على الأقل ، فلو كان عندنا خمسون طالباً مثلاً ، لاحتاجوا إلى خمسين نسخة منه ، وهذا العدد يحتاج إما إلى خمسين كاتباً ينسخونها في مدة شهر واحد ، أو يحتاج إلى خمسين شهراً إذا طلبناها من كاتب واحد ، وطبعاً كل كاتب يأخذ أجراً على كتابته ما يكفي لنفقته شهراً واحداً بل أكثر ، لأن الكاتب في العصور الماضية ، كان ينقطع للكتابة فقط لا يشتغل بغيرها ، وكان الخطاطون ممن يتقنون حسن الخط ، يتخصصون في الغالب في كتابة المصاحف الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وبعضهم كانوا يتخصصون في كتابة السيرة النبوية والمدائح المحمدية وبعضهم يتخصصون في كتابة دواوين الأشعار ، والقصائد التي تقال قديماً وحديثاً ، وبعضهم كان يتخصص للكتابة لدى الملوك والأمراء والوزراء والأثرياء ، ينقطع لخدمتهم يكتب لهم ما شاؤوا ، وفي أواخر الأزمان أي إلى آخر عهد الخلافة الإسلامية في الدولة التركية ، وهو سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية ، كان بعضهم يتخصص لكتابة الفرمانات السلطانية ، أي لكتابة الأوامر السلطانية والمراسيم الملوكية بالتولية والعزل أو بالإنعام والإكرام ، وكان لهؤلاء الخطاطين من المرتبات الضخمة والإكرام الزائد ، ما يجعلهم إلى أولاد الأولاد في معيشة رغدة وفي ترف ونعيم كبير ، وقد يكتب أحدهم للسلطان مصحفاً واحداً ، فيعطيه هذا ما يغنيه مدة عمره ، كما بينا ذلك في كتابنا المطبوع بمصر المسمى "تاريخ الخط العربي وآدابه" .

ثم لما ظهرت المطابع في الوجود وانتشرت في جميع الممالك والبلدان الإسلامية وغير الإسلامية ، صار الناس يطبعون مؤلفاتهم وكتبهم بواسطتها ، كل أمة تطبع

كتبها بلغتها ، لأن هذه المطابع تتوفر لديها الأحرف العربية والفارسية والهندية والتركية والجاوية والسريانية والعبرية واللاتينية والإنكليزية والفرنسية والألمانية وغيرها - فإذا أردنا أن نطبع في المطابع العربية متن الألفية لابن مالك في النحو ، نريد أن نطبع منه عشرة آلاف نسخة ، فإننا نأخذ من المطبعة هذا العدد الضخم من النسخ جاهزة مجلدة بعد شهر واحد بل أقل من هذه المدة ، مع جمال الطبع وحسن التجليد والنظافة التامة ، فإذا قارنت بين عمل المطبعة وعمل الإنسان بيده تجد فرقاً عظيماً بينهما ، فالمطبعة سريعة الإنتاج وقليلة التكاليف ، شأنها شأن جميع المكائن الآلية .

ومع ما للمطابع من المنافع العديدة ، فإن لها مضرة واحدة فقط لكنها في جوهر الموضوع وصميم الأثر وهي : أن الناس في كافة الممالك والبلدان ، كانت كتاباتهم وخطوطهم جميلة حسنة ، لأنهم كانوا ينسخون جميع مؤلفاتهم بأيديهم ، وكان بعضهم ينقطع للكتابة ونسخ المؤلفات ليس له شغل غيرها ، وهذا من أقوى الأسباب لتحسين الخط وجمال الكتابة ، أما اليوم ، وقد كثرت المطابع وكثرت الآلات الكاتبة ، صارت خطوط الناس وكتابات أيديهم ضعيفة جداً لا تكاد تقرأ ، لأنهم اعتمدوا على المطابع ، ولأن جميع ما يدور من المعاملات الرسمية في دوائر الحكومات في جميع الممالك والبلدان ، صار يكتب على الآلات الكاتبة ، وبهذا بطل استعمال الأيدي في الكتابة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وحيث علمت هذه المقدمة ، فلنشرع الآن في الكلام على ظهور المطابع فنقول :

لقد تكلمنا عن ظهور المطابع لأول مرة في كتابنا المطبوع بمصر المسمى (تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه) ، ولا بأس أن ننقل هنا في تاريخ مكة ما كتبناه هناك في كتابنا المذكور تاريخ القرآن الكريم للفائدة العامة وهو هذا بنصه مع تصرف بسيط :

كان أول اختراع المطابع في ألمانيا سنة (١٤٣١) ألف وأربعمائة وإحدى وثلاثين ميلادية ، وبالضرورة قد مضت مدة طويلة حتى أتقنت صناعتها وظهرت صلاحيتها التامة لدى جميع أجناس البشر ، فدخلت المطبعة أولاً في بلاد إيطاليا ، ثم في فرنسا ، ثم في إنجلترا . ثم انتشرت في جميع البلدان ، وأن أول طبع للقرآن العظيم بالحروف العربية ، كان في مدينة همبرج بألمانيا ، وذلك في سنة (١١١٣)

هجرية ، ويوجد من هذه الطبعة مصحف واحد بدار الكتب العربية المصرية بالقاهرة ، كما يوجد بها مزامير داود عليه الصلاة والسلام بأربع لغات مع تفسير لاتيني ، طبعت بجنوة بإيطاليا سنة (٩٣٥) هجرية ، ثم بعد سنة (١٥١٦) ميلادية طبع المصحف الكريم أيضاً في البندقية بإيطاليا ، وسبب طبع المصحف الكريم في همبرج والبندقية وجود المطابع فيهما دون البلاد الإسلامية كما هو ظاهر .

ومن العجيب ، أنه عند أول ظهور المطبعة بإيطاليا طعن علماؤهم فيها طعناً جارحاً ، حتى قالوا عنها إنها بدعة همجية ألمانية ، ونادى كهنتهم : لنهدم كيان الطباعة أو تهدم هي كياننا ، وفي ابتداء ظهور الكتب المطبوعة لم يقبل الناس على شرائها . ولما دخلت المطبعة إلى تركيا في زمن السلطان أحمد الثالث ، أفتت مشيخة الإسلام بجواز استعمالها إلا أنه بقي طبع المصحف ممنوعاً ، ثم عادت الدولة العثمانية فمنعت المطبعة ، ثم جاء السلطان عبدالحميد الأول فأعادها ، وجاء السلطان محمود الأول فاهتم بها أكثر ، فأول كتاب طبع بالآستانة هو "صحاح الجوهري" قيل أنه في سنة (١١٢٩) هجرية أفتى شيخ الإسلام بالآستانة عبدا لله أفندي بجواز طبع كتب غير الدينية ، ثم فيما بعد سنة (١١٤١) هجرية طبعت كتب هامة في اللغة والأدب والتاريخ باللغة العربية والتركية والفارسية ، ثم استصدروا الفتوى بطبع كتب الدين وتجليد القرآن الكريم ، وإن من أشهر مطابع الآستانة القديمة مطبعة الجوائب .

وإن أول من أدخل المطبعة إلى الديار التونسية محمد باشا باي ، وهو الذي تولى إمارة تونس عام (١٢٧١) هجرية ، وأن أول مطبعة ظهرت في حلب كان سنة (١٦٩٨) ميلادية ، وإن من أقدم المطابع في لبنان مطبعة "قزحيا" وكانت حروفها سريانية ، ثم صارت عربية ، ومطبعة الشوير وطبع فيها المزامير سنة (١٧٣٣) ميلادية ، وأقدم المطابع في بيروت هي مطبعة القديس جاورجيوس فإنها أنشئت سنة (١٧٥٣) ميلادية ، وبعدها المطبعة الأميركية أنشئت في مالطة سنة (١٨٢٢) ميلادية ، ثم نقلت إلى بيروت سنة (١٨٣٤) ميلادية ، وبعدها المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، فقد تأسست عام (١٨٤٨) ميلادية ، وكانت تطبع على الحجر ثم صارت تطبع على الحروف سنة (١٨٥٤) ميلادية ، وهي أكبر المطابع وفيها حروف عربية وإفرنجية ويونانية وسريانية وعبرانية وأرمنية .

وإن أول مطبعة ظهرت بمصر هى مطبعة الحملة الفرنساوية جاء بها بونابرت معه سنة (١٧٩٨) ميلادية ، لطبع المنشورات والأوامر باللغة العربية ، وقد سميت بالمطبعة الأهلية وكانت بالقاهرة إلى شهر يونيو سنة (١٨٠١) ميلادية حين انسحاب الفرنساويين من مصر ، وبعد ذلك ظلت مصر نحو عشرين عاماً بغير مطبعة ، حتى استقر الأمر لمحمد علي باشا والي مصر ، فأنشأ هذه المطبعة الأهلية سنة (١٨٢١) ميلادية ، وتعرف بمطبعة بولاق لأنها وضعت أخيراً في جهة بولاق ، وأول ما طبع فيها قاموس إيطالي عربي سنة (١٨٢٢) ميلادية ، وقد اشتغلت هذه أكثر من تسعين عاماً وكانت أكبر مطبعة عربية في العالم وهي التي سميت فيما بالمطبعة الأميرية ، ثم كثرت المطابع بمصر الآن على مختلف أنواعها وأدخلت عليها تحسينات عظيمة جداً حسب التطور الحديث .

أما المطابع بمكة المكرمة : فإنه أول مطبعة ظهرت بمكة شرفها الله تعالى وأدام أمنها وأمانها وخيرها ورخاءها ، هي المطبعة الأميرية التي سميت فيما بعد "مطبعة أم القرى" ونطلق عليها الآن "مطبعة الحكومة" وهذه المطبعة استحضرها عثمان باشا نوري الذي كان والياً على الحجاز مع الأشراف في عهد الدولة التركية العثمانية ، أتى بها في سنة (١٣٠٣) هجرية تقريباً ، وجعلها بقرب المسجد الحرام في أول محلة أجياد وكان في بادئ أمرها صغيرة الحجم ، ثم اهتمت الحكومة السعودية بها وزودتها بآلات وأدوات كثيرة حديثة .

ثم في عام (١٣٢٧) من الهجرة استحضر الشيخ محمد ماجد الكردي رحمه الله تعالى مطبعة على حسابه الخاص سماها "المطبعة الماجدية" ، وجعلها في داره الواسعة التي بالفلق ، وقد طبع بها كثير من الكتب . ثم استحضر الشيخ محمد صالح نصيف في عام (١٣٤٥) من الهجرة مطبعة سماها "المطبعة السلفية" ثم باعها . وللشركة العربية للطبع والنشر مطبعة تسمى "المطبعة العربية" وكان يطبع بها جريدة "صوت الحجاز" التي سميت فيما بعد بجريدة البلاد السعودية ، ثم سميت "جريدة البلاد" فقط . ثم استحضر بعضهم من أهل مكة مطابع الندوة ، وذلك في سنة (١٣٧٣) تقريباً ثم استحضر الأستاذ صالح محمد جمال مطبعة لطبع الكتب وهي مطبعة كاملة الأدوات . ثم استحضر الأستاذ أحمد السباعي مطبعة وسماها "مطبعة قريش" ثم أنشئت مطبعة تسمى "مطبعة مصحف مكة المكرمة" في سنة (١٣٦٨) هجرية تقريباً . وهناك بمكة مطابع أخرى صغيرة لم نذكرها لعدم

استعدادها لطبع الكتب والصحف والمجلات، كمطبعة الوفاء المحمدية، لصحابها الشيخ عبد الرحيم ملاه وإخوانه، وكمطبعة الشيخ عبدالله الكردي، والمطبعة الوطنية.

هذا ومن أراد التوسع في البحث عن تاريخ الطباعة العربية، فليراجع كتاباً خاصاً طبع في هذا الشأن اسمه (تاريخ الطباعة في الشرق العربي) للدكتور خليل صابات - طبع بدار المعارف بمصر. أو يراجع الجزء الرابع من كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية" لجورجي زيدان، ومجلة الهلال لسنتي ١٩٠٩ و١٩٢٢ ميلادية، ومجلة المشرق لسنتي ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ميلادية، ومجلة المقتطف لسنة ١٩٠٧ ميلادية، وتاريخ جودت الجزء الأول.

الجرائد والمجلات بمكة المكرمة

كانت منذ سنوات قليلة تصدر بمة المكرمة وتطبع بها بعض الجرائد والمجلات، كجريدة البلاد السعودية، وجريدة الندوة التي تسمى من قبل جريدة "حراء" وجريدة أم القرى وهي التي كانت تسمى في عهد الشريف الحسين ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى "بجريدة القبلة"، ومجلة المنهل، ومجلة الحج، وجريدة قريش.

ثم منذ سنة (١٣٨١) هجرية أو في التي يليها انتقل طبع بعض الجرائد إلى جدة، فصارت تطبع هناك وتصدر منها إلى كافة بلدان المملكة العربية السعودية، وبعضها قد ألغيت، والبعض الآخر ما زال يطبع بمكة المشرفة وتصدر منها إلى الآن، وهي كما يأتي:

(١) جريدة أم القرى، وهي أقدم الجرائد عندنا.

(٢) جريدة الندوة.

(٣) مجلة الحج.

هذه هي الجرائد والمجلات التي تطبع بمكة وتصدر منها فقط. ولا نريد أن نخوض في مختلف الجرائد والمجلات التي تطبع في بعض بلدان المملكة السعودية، لأن هذا الكتاب خاص بتاريخ مكة المكرمة، لكن لصديقنا الكريم وزميلنا في عهد الدارسة الأولى بمدرسة الفلاح بمكة الأستاذ محمد سعيد العامودي رسالة قيمة

اسمها "من تاريخنا" ذكر فيها نبذة طيبة عن الجرائد والمجلات في مبحث بعنوان "من تاريخ الصحافة في بلادنا" آثرنا أن نذكره بنصه للفائدة العامة ، وهو هنا :

يقول المعنيون بتاريخ الصحافة ، إن أول صحيفة عربية صدرت في العالم العربي هي صحيفة "الحوادث اليومية" التي أنشاها نابليون بونابرت في القاهرة عام ١٧٩٩ م .

وأول صحيفة صدرت في لبنان هي "حديقة الأخبار" عام ١٨٥٨ م ثم صدرت في دمشق جريدة "سوريا" عام ١٨٥٦ م وفي العراق جريدة "الزوراء" عام ١٨٦٩ م وفي اليمن جريدة "صنعاء" عام ١٨٧٩ م وفي فلسطين جريدة "النفير العثماني" عام ١٩٠٤ م.

فما هي أول صحيفة صدرت في هذه البلاد ؟

في بحث قيم للأستاذ البحاثة رشدي ملحس عن تاريخ الطباعة والصحافة في الحجاز يقول : "إن أول صحيفة صدرت في مكة هي جريدة "الحجاز" وهي جريدة أدبية علمية أسبوعية تصدر باللغتين العربية والتركية أصدرتها الحكومة العثمانية عام ١٣٠١ هـ واستمر صدورها إلى عام ١٣٣٤ ثم انقطعت عن الصدور حين خروج الحكومة التركية من هذه البلاد".

ويقول الأستاذ : "وكان يتولى الأشراف عليها أي جريدة الحجاز هذه (مكتوبجي) الولاية واشترك في تحرير قسميها العربي والتركي كل من أحمد جمال أفندي منشئ ديوان الولاية ، وأحمد حقي أفندي الكاتب في الديوان المذكور والشيخ محمود شلهوب ، وغيرهم ، وكانت تطبع بأربع صفحات في المطبعة الأميرية" اهـ .

ومن الواضح أن الحالة الفكرية العامة في البلاد في تلك الفترة لم تكن تسمح بوجود أكثر من هذه الصحيفة ، غير أنه منذ عام ١٣٢٧ هـ أي بعد الانقلاب العثماني المشهور بدأت الصحف في الظهور ، فصدرت في تلك السنة في جدة جريدة " الصفا " باللغة العربية غير أن هذه الصحيفة لم يصدر منها سوى عدد واحد فقط . ثم صدرت بعدها في جدة في نفس السنة جريدة "الإصلاح" لصاحبها "راغب مصطفى توكل" وكان يتولى تحريرها صحفي لبناني هو " أديب هراوي" واستمر صدورها بضعة أشهر ثم توقفت عن الصدور .

وفي عام ١٣٢٧ أيضاً صدرت في مكة جريدة يومية باسم (شمس الحقيقة) وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية مرة كل أسبوع مؤقتاً لصاحب امتيازها ومديرها المسؤول "محمد توفيق مكي" ونائب مديرها "إبراهيم أدهم" وكانت هذه الجريدة لسان حال جمعية الاتحاد والترقي بمكة، وقد توقفت عن الصدور أيضاً بعد أن ظلت تصدر بضعة شهور.

وصدرت في المدينة المنورة أثناء الحرب العالمية الأولى جريدة باللغة التركية لم أطلع عليها ولا أذكر اسمها بالتأكيد.

هذه هي كل الصحف في العهد العثماني، فإذا استثنينا أولاها وهي التي استمرت من حين صدورها إلى عام ١٣٣٤ - لأنها الجريدة الرسمية - تبين لنا أنه يكن هناك صحافة سوى ما ظهر منها خلال بضعة أشهر من عام ١٣٢٧ هـ، ومع ذلك لم يكن لهذه الصحف أية قيمة أدبية أو سياسية، أو أي أثر في تكوين الوعي، أو توجيه التفكير.

ومما يلفت النظر أنه لم تظهر طيلة العهد العثماني كله مجلة واحدة للعلوم والآداب وما من شك في أن السبب في ذلك يعود إلى قلة انتشار التعليم، واعتماد المدرسة الرشدية -ولعلها المدرسة الحكومية الوحيدة في مكة إذ ذاك- اعتمادها في التعليم على اللغة التركية وحدها.

وإليك أنموذجاً من تحرير صحافة ذلك العهد. ننقله عن العدد الخامس من جريدة "شمس الحقيقة" الصادر في يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٣٢٧ فقد جاء في صدر العدد المذكور، وفي مكان الافتتاحية بعنوان "تنبيه" ما يأتي:

"ينبغي لمن شاء أن يكاتبنا في موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية فإن الأفكار الراقية التي لا تعميها الأغراض الشخصية ولا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله إلى مصلحة الوطن العمومية.

ألا ترى سيدنا موسى الكليم عليه السلام قال: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ ولم يقل لتغرقني نظر في ذلك لغيره وقدمه على شخصه في وقت الغرق الذي لا يعرف الإنسان فيه إلا نفسه فليخش الله المكاتبون، وليتق الله المحررون، ولا يحرروا لجريدتنا سوى الحقيقة لأنها "شمس الحقيقة" ثم ليكتبوا في دائرة واجبات الصحافة الحرة التي ذكرناها سابقاً لأن جريدتنا تتنزه عن المثالبة وما ضاها. نسأل الله التوفيق لسعادة الوطن".

ولعل النبذة الآتية تدل على ما كانت عليه حالة التعليم في الحجاز في ذلك العهد فقد جاء في هذه الصحيفة في عددها الثاني عشر الصادر في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ هـ بعنوان : "هل ترقي الحجاز قبل السودان ؟" ما يأتي :

"ظهرت جريدة في الخرطوم بالسودان تسمى "الخرطوم" غايتها أن تبذل السعي في ترقي أبناء ذلك الوطن ففرح بها أهل السودان ونحن نتمنى لها دوام الانتشار ونستلفت أنظار أولي الأمر بالتسريع في أمر ترقي الحجاز من تأسيس المكاتب - يقصد المدارس - وغير ذلك فإن دوائر الحكومة لو احتاجت إلى كاتب للزم جلبه من خارج الولاية . أهلك ا لله الاستبداد ما أشد تدميره !"

وبمقارنة صحيفة شمس الحقيقة هذه بصحيفة الإصلاح التي كانت تصدر في جدة تبدو هذه الأخيرة أرقى من حيث التحرير ومن حيث الطباعة عن زميلتها الأولى . بل ومن صحيفة الحجاز أيضاً . الصحيفة الرسمية للحكومة التركية.

و لم أطلع على العدد الوحيد الذي صدر في جدة من جريدة "الصفا" وربما كانت هذه الصحيفة تشارك زميلتها الإصلاح من حيث رونق الطباعة واتساق التحرير .

والواقع أنه لم يكن غريباً أن تكون صحافة بلادنا في ذلك العهد بدائية إلى هذا الحد .. لم يكن غريباً أن يكون هذا حال الصحافة في بلاد لم يكن فيها مدارس للتعليم سوى مدرسة واحدة للحكومة يتلقى التلاميذ فيها قشوراً من المعلومات الأولية باللغة التركية وسوى مدرسة أهلية دينية .. هي المدرسة الصولتية .

وهكذا ...!

وهكذا ظل الحجاز ، وظلت جميع أنحاء الجزيرة العربية طيلة العهد العثماني ... لا صحافة ولا مدارس ولا تعليم بالمعنى الصحيح لكلمتي مدارس وتعليم !

وكانت النهضة العربية في عام ١٣٣٤ هـ فيصلاً بين عهدين "تابعية عثمانية" ، وعهد استقلال .. إلا أن الواقع أثبت مع الأسف الشديد أن تلك النهضة كانت "ضئيلة الأثر" من ناحيتها الاجتماعية والثقافية ، ولهذا كان أثرها ضئيلا أيضاً في الميدان الصحفي .. وقد صدرت جريدة "القبلة" في أولى سنوات النهضة وبتعبير أدق سنة ١٣٣٤هـ وكان يساهم في تحريرها نخبة من صفوة أدباء العرب يكفي أن نذكر منهم السيد فؤاد الخطيب الشاعر الكبير المعروف ، والسيد محب الدين

الخطيب، وأحمد شاكر الكرمي وغيرهم... والحق أقول أنه كان يمكن أن يكون لجريدة القبلة إذ ذاك شأن مرموق في عالم الصحافة العربية لولا بعض عوامل وقفت بها في بداية الطريق.

وصدرت في عام ١٣٣٨ جريدة باسم الفلاح لصاحبها السيد عمر شاكر، وكانت هذه الصحيفة تصدر في سوريا قبل دخول الفرنسيين إليها فهاجر بها صاحبها من سوريا إلى الحجاز.

وفي عام ١٣٣٨ أيضاً، صدرت المجلة الزراعية وهي مجلة شهرية كان يتولى تحريرها طلاب المدرسة الزراعية بمكة، وقد ظهرت الأعداد الثلاثة الأولى من هذه المجلة في صورة لا بأس بها من حيث الإنشاء والتحرير فلو أن هذه المجلة أتيح لها أن تستمر، بل لو أنه أتيح للمدرسة الزراعية التي كانت تقوم بإخراجها أن تستمر لكانت الحال غير الحال ولكن...

وفي عام ١٣٤٣ صدرت في جدة جريدة " بريد الحجاز " ثم توقفت عن الصدور في نفس العام بعد أن صدر منها (٥٢) عدداً وقد كانت هذه الصحيفة أسبوعية وهي آخر صحيفة ظهرت في عهد الحكومة الهاشمية.

وفي ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ في أول عهد حكومة المغفور له الملك عبدالعزيز صدر العدد الأول من جريدة " أم القرى "، وكان يرأس تحريرها في أول ظهورها معالي الأستاذ الشيخ يوسف ياسين ثم الأستاذ رشدي ملحس ثم تولى تحريرها فترة من الزمن المرحوم محمد سعيد عبد المقصود، فالأستاذ عبدالقدوس الأنصاري ويرأس تحريرها الآن الأستاذ الطيب الساسي.

ثم صدرت بعد ذلك مجلة الإصلاح عن شعبة الطبع والنشر بمديرية المعارف في عام ١٣٤٧ وكان يديرها الأستاذ محمد حامد الفقي وهي مجلة دينية أخلاقية كانت تصدر مرة في الشهر، ثم توقفت عن الصدور في عام ١٣٤٩ هـ.

وفي عام ١٣٥٠ صدرت جريدة "صوت الحجاز" لصاحب امتيازها الوجيه الشيخ محمد صالح نصيف ورئيس تحريرها الأستاذ عبدالوهاب آشي، وقد تعاقب عليها فيما بعد رؤساء تحرير عديدون أذكر منهم الأساتذة "أحمد إبراهيم الغزاوي" والسيد "حسن الفقي" و "محمد سعيد العامودي" و "محمد حسن عواد" و "أحمد السباعي" و "محمد علي رضا" و"محمد علي مغربي" وغيرهم ثم انتقل امتياز هذه الصحيفة في عام ١٣٥٤ إلى شركة الطبع والنشر العربية وظلت تصدر أسبوعياً،

ثم مرتين في الأسبوع ، ثم توقفت عن الصدور في بعض سنوات الحرب الأخيرة بسبب قلة الورق ، ثم عادت إلى الصدور أسبوعياً عام ١٣٦٥ باسم " البلاد السعودية" وتولى رئاسة تحريرها الأستاذ عبدا لله عريف .

وقد تمكنت جريدة البلاد السعودية من الصدور مرتين في الأسبوع وأخيراً ثلاث مرات في الأسبوع وهي في طريقها إلى الصدور يومياً في القريب العاجل إن شاء ا لله ، وقد صدرت يومياً ابتداء من شهر ربيع الثاني من السنة (١٣٧٣) هـ.

وقد راجت هذه الصحيفة في السنوات الأخيرة رواجاً أكثر من أي عهد مضى ، وأصبح لها قراء من كل الطبقات وهي لا ينقصها إلا زيادة العناية بالأخبار الخارجية والمحلية ، ثم الإقلال من المواضيع الأدبية بقدر الإمكان لعلاقة هذه المواضيع بالمجلات أكثر من علاقتها بالصحف الإخبارية .

وفي عام ١٣٥٥ هـ صدرت مجلة "المنهل" في المدينة المنورة وهي مجلة شهرية للآداب والعلوم لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري ، وهي ثانية مجلة شهرية صدرت في هذه البلاد بعد المجلة الزراعية التي أسلفنا الإشارة إليها وقد تطورت هذه المجلة بحيث أصبحت لا تقل في مادتها وفي أسلوبها عن مثيلاتها من المجلات الأدبية الراقية في العالم العربي ، وأصبحت تصدر في مكة منذ عام ١٣٥٦ .

ومجلة المنهل تعتبر المجلة الأدبية الأولى في المملكة السعودية .

وفي عام ١٣٥٥ صدرت جريدة المدينة المنورة لصاحبيها الأستاذين الشقيقين علي وعثمان حافظ وهي جريدة أسبوعية نشيطة تعنى بالأخبار أكثر من عنايتها بالمقالات والبحوث ، وبالأخبار العربية والإسلامية على وجه الخصوص .

وكانت تصدر قبل الحرب الأخيرة مجلة النداء الإسلامي لصاحبها الأستاذ مصطفى أندرقيري ثم توقفت عن الصدور .

ثم صدرت في غرة رجب من عام ١٣٦٦ مجلة الحج وهي مجلة شهرية إسلامية تتولى إصدارها إدارة شؤون الحج وكان يرأس تحريرها في أولى سنواتها الأستاذ السيد هاشم زواوي ، ثم كاتب هذه السطور منذ أول عام ١٣٧٠ هـ وتعنى هذه المجلة بالمواضيع الإسلامية بصورة عامة ثم بكل ما يتصل بشؤون الحج والحجاج .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى ظهور مجلة جديدة راقية وتلك هي "اليمامة" لصاحبها ومؤسسها الأديب الباحث المعروف الأستاذ حمد الجاسر ، واليمامة تصدر في الرياض وهي أسبوعية أدبية علمية ، غير أنها تصدر الآن مرة في الشهر مؤقتاً وقد كانت الأعداد التي صدرت منها حافلة بأجود المقالات والبحوث في مختلف موضوعات اللغة والدين والأدب والتاريخ وبأقلام سعودية ناضجة مما يبشر بأن لهذه المجلة الناهضة مستقبلاً مجيداً إن شاء الله .

وبعد... فهذه إلمامة موجزة عن تاريخ الصحافة في هذه البلاد ، ولئن كان من واجبنا أن نقرر هنا أن صحافتنا في كل من عهديها التركي والهاشمي لم يكن لها أثر يذكر.. فإن من واجبنا أيضاً أن نقول أنها قد بدأت الآن تشق الطريق... والأمر الذي لا يختلف فيه اثنان أنها في حاضرها قد أصبحت شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عما كانت عليه فيما مضى ..

والأمل بعد وفي هذا العهد الباسم السعيد العظيم في أن تخطو صحافتنا خطوات واسعة وسريعة.. نحو القوة والازدهار !

انتهى من الرسالة المذكورة "من تاريخنا" .

إنارة مكة المكرمة بالكهرباء

كانت مكة المشرفة تنار شوارعها وأزقتها ليلاً في أول الأمر بالزيت كما هو الشأن في جميع الأقطار في بادئ الأمر ، ثم صار أهلها يستعملون الشموع ، ثم صاروا يستعملون زيت النفط وهو الكاز ، فينيرون منازلهم وغرفهم وشوارعهم بفوانيس الكاز ، وهذه الفوانيس أنواع متعددة ، ثم صاروا يستعملون الأتاريك التي فيها فتايل حريرة وهي تشعل بالكاز .

ثم صارت الإنارة في وقتنا الحاضر بواسطة الكهرباء ، فلقد امتدت الأسلاك الكهربائية في جميع منازل مكة المكرمة وفي شوارعها وأزقتها وجميع مرافقها ، وقبل كل شيء إنارة المسجد الحرام بالكهرباء ، ولقد ذكرنا بالتفصيل تدرج الإنارة بالوقود والشموع والزيوت ثم الكهرباء ، وذلك عند الكلام على إنارة المسجد الحرام من هذا الكتاب فراجعه هناك . اللهم نور قلوبنا وأبصارنا وأسماعنا وبصائرنا بفضلك ورحمتك آمين .

ظهور بوليس النجدة بمكة المكرمة

كان ظهور بوليس النجدة لأول مرة بمكة المكرمة في أول عام (١٣٨٥) من الهجرة ، ولقد انتشر بوليس النجدة في جميع الممالك والأقطار العربية وغير العربية ، ولقد خصص لبوليس النجدة أربع سيارات بمكة المكرمة ، وهي مزودة بضباط وشرطة ، وفي كل سيارة تليفون أوتوماتيكي رقم كل تلفون (٩٩) فإن حصل أي حادث يطلب الإنسان بوليس النجدة بهذا الرقم ، فيحضرون بسياراتهم إلى مكان الحادث في أقرب وقت ، فيأخذون أصحاب الحوادث إلى مركز الشرطة للتحقيق وإجراء اللازم نحوهم .

الإطفاء بمكة المكرمة

لقد تكلمنا بالإسهاب والتفصيل عن وجود الإطفاء بمكة المكرمة في غير هذا المحل ، وهنا نكرر الكلام عنه باختصار زيادة في الإشعار والتنبيه فنقول : لقد أوفدت الحكومة السعودية عن طريق أمانة العاصمة بمكة المشرفة ، وذلك قبل سنة (١٣٦٧) أول بعثة للتمرين على إطفاء الحرائق وطرق الإنقاذ ، وإليك أعضاء هذه البعثة :

(١) علي عوض .

(٢) إبراهيم فرحات .

(٣) عبد الكريم مرزا .

(٤) محيي الدين صواف .

(٥) عبد العزيز مراد .

وقد أتم هؤلاء دراستهم بنجاح باهر فعادوا إلى بلادهم لخدمتها . انتهى من كتاب "من وحي البعثات السعودية" لصديقنا الأستاذ صالح جمال الحريري ، ومن أراد زيادة البحث عن الإطفاء قديماً وحديثاً فلينظر في محله في هذا الكتاب .

البريد والتلغراف والتليفون بمكة المكرمة

يتبع وزارة المواصلات عندنا أربع إدارات وهي كما يأتي :

(١) إدارة البريد .

(٢) إدارة التليفونات .

(٣) إدارة التلغرافات "البرقيات" .

(٤) إدارة أعمال الطرق وإصلاحها .

وإن الذي يرأس وزارة المواصلات شاب أديب شهير ، وذكي له نشاط كبير ، ألا وهو صديقنا الأستاذ محمد عمر توفيق أدام الله تعالى توفيقه .

أما أعمال الطرق وإصلاحها وتسهيل المواصلات بين جميع بلدان مملكتنا العربية السعودية ، فإنا نقول باختصار : أنه لم تعرف المملكة كلها سفلتة الطرق وإصلاحها بالإسفلت إلا في زمن الحكومة السعودية ، وأن أول ما بدأت الحكومة بإصلاح الطرق ، هو طرق الحرمين الشريفين ، لتيسير أداء الحج والزيارة للحجاج الكرام ، كما تكلمنا عن ذلك في هذا الكتاب في مواضع عديدة حسب ما تقتضيه المناسبات ، ثم امتدت أيدي العمال لسفلتة طرقات المدن الأخرى من المملكة ، وأن لدى وزارة الموصلات مشاريع عديدة ، لا نتمكن من الكلام عنها ولا من حصرها ، لأنها كثيرة متعددة الجوانب .

لكن سنتكلم عن الإدارات الأخرى وهي (البريد - والتلغراف - والتليفون) نتكلم عن كل إدارة منها بنبذة صالحة مفيدة ، للإحاطة بها على وجه العموم ، وإن كان في كل إدارة مشاريع كثيرة هى أدرى بها.

وقبل أن نذكر عنها شيئاً ، نضع هنا صورة صديقنا الفاضل معالي الأستاذ محمد عمر توفيق وزير المواصلات ، ووزير الحج والاوقاف أيضاً بالنيابة ، وهي هذه .

وإليك الآن الكلام على البرق والبريد والتلغراف ، ونذكرها بالنسبة لمكة المكرمة ، لأن هذا التاريخ خاص لنفس هذه البلدة الطاهرة المقدسة ، وإن كانت هذه الإدارات في جميع مدن المملكة .

البريد وتطوره بمكة المكرمة

قال في المصباح المنير : البريد الرسول ، ومنه قول بعض العرب : الحمَّى بريد الموت ، أي : رسوله ثم استعمل في المسافة التي يقطعها وهي اثنا عشر ميلاً ، ويقال لدابة البريد بريد أيضاً لسيره في البريد ، فهو مستعار من المستعار ، والجمع برد بضمتين ، انتهى المراد منه .

وقال في مختار الصحاح ما ملخصه: والبريد المرتب يقال : حمل فلان على البريد ، والبريد أيضاً اثنا عشر ميلاً وصاحب البريد قد أبرد إلى الأمير فهو مبرد والرسول بريد ، قلت : قال الأزهري : قيل لدابة البريد بريد لسيره في البريد، وقال غيره : البريد البغلة المرتبة في الرباط تعريب بريده دم ، ثم سمي به الرسول المحمول عليها ثم سميت بن المسافة . انتهى منه.

وجاء في بعض كتب الفقه أن مقدار الميل الواحد هو ستة آلاف ذراع بذراع اليد فإذا ضربنا ١٢ ميلاً × ٦٠٠٠ ذراع فيكون حاصل الضرب (٧٢٠٠٠) ذراع وهذا هو مقدار البريد بذراع اليد . والميل يساوي (٢) كيلو متر إلا قليل، فيكون البريد يساوي ثلاثاً وعشرين كيلو متر تقريباً ، أي تكون مسافة البريد من مكة المكرمة إلى ما بعد الشميسي في طريق جدة بنحو خمس كيلو مترات تقريباً .

ويطلق البريد في عصرنا الحاضر على (البوسطة) وهي كلمة تركية أو فارسية ، وهي الكتب أو الخطابات أو الأشياء الواردة من بلدة إلى بلدة أو من قطر إلى قطر بانتظام مرتب ، إما في كل يوم أو في كل أسبوع أو في مدة أقل أو أكثر .

قالوا : وأول من وضع البريد في الإسلام هو سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فكانوا في القرون الأولى للإسلام يخصصون دواباً من الخيل والبغال والحمير لحمل البريد . فكانوا يجعلون في كل ثلاث وعشرين كيلو متراً بعضاً من الدواب المذكورة لحمل البريد . فمثلاً يجعلون عند كل ثلاث وعشرين كيلو متراً مكاناً خاصاً لوقوف دواب البريد ، فإذا سارت الدابة من مكة مثلاً إلى مسافة ثلاث وعشرين كيلو متراً أي إلى ما بعد الشميسي تقف عندها ثم تحمل عنها البريد دابة أخرى من هذا المكان فتسير إلى أن تصل إلى مسافة ست وأربعين كيلو متراً فتقف هناك وتحمل عنها البريد دابة ثالثة فتسير إلى مسافة تسع وستين كيلو متراً أي تصل إلى جدة وهكذا الحال في جميع البلدان في حمل البريد ذهاباً وإياباً .

هذا ولقد كانوا في الأزمان الماضية يخصصون حمام الزاجل لحمل الرسائل في الأمور المهمة ، في الحروب وغيرها لأن لهذا النوع من الحمام ذكاء خارقاً وهو يطير في اليوم الواحد نحو ألف فرسخ ، والفرسخ في كتب الفقه ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف خطوة والخطوة ثلاثة أقدام . والميل الواحد يساوي اثنين كيلو متراً إلا قليلاً .

فإذا علمنا هذا وقلنا أن الحمام الزاجل يطير في اليوم الواحد ألف فرسخ - والفرسخ يساوي خمس كيلو مترات وأربعين متراً - فإنه يكون مسافة ما يطير الحمام الزاجل في اليوم الواحد هي خمسة آلاف وأربعين كيلو متراً ، وإذا علمنا أن المسافة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة هي أربعمائة وسبع وتسعين كيلو متراً ، فإنه يطير الحمام الزاجل في اليوم الواحد بمقدار عشر مرات من المسافة ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة .

لذلك كان ثمن الحمامة الواحدة من حمام الزاجل قد بلغ سبعمائة دينار ذهباً في الأزمنة الماضية . وقد ذكر المؤرخون أن حمامة من هذا النوع طارت من خليج القسطنطينية إلى البصرة فبلغ ثمنها ألف دينار من الذهب الخالص . وقالوا إن ثمن بيضتي الحمامة الفارهة من النوع الزاجل تساويان عشرين ديناراً من الذهب . وهذا كلام معقول مقبول لبيض هذا الطائر الفريد النبيل . ولقد بلغ من عناية الأقدمين بهذا النوع من الحمام الزاجل أنهم حافظوا على أنساب هذا الطائر الميمون فاتخذوا لها دفاتر وسجلات لقيد أفراخها وأولادها فيها كما حافظوا على أنساب العرب وأنساب خيولهم الأصيلة .

ولقد ذكر المؤرخون أيضاً أن السلطان نور الدين الشهير رحمه الله لما فتح كثيراً من البلدان اتخذ حمام الزاجل لإرسال الخطابات معه إلى من يدين له بالولاء وإلى من هو تحت حكمه ليقف على أخبار الحروب والممالك وذلك في عصر الحروب الصليبية وقد اتخذ لهذا الحمام في كل جهة وبلدة أبراجاً وأقام لها حفظة وحراساً للعناية بطعامه وشرابه ونظافة أمكنته ومراقبة وصول المسافرين منه ، وأخذ الرسائل التي يحملها تحت جناحه أو في رجله . وكان كل برج من أبراجه يبعد عن الآخر بنحو اثني عشر ميلاً ، وكان ينفق في سبيل هذا الحمام الزاجل أموالاً طائلة . وكان حارس كل برج يقيد ساعة وصول الحمامة على ظهر الرسالة التي يحملها . وهذا النوع من الحمام لا يولد متعلماً ، وإنما الرجال المتخصصون في ذلك يعلمونه

ويدربونه على الأعمال وولاة الأمور كانوا لا يهملون أمر هذا الطائر بل يراقبون وصوله وسفره بدقة تامة وعناية عظيمة لأن بعض شئون الدولة متعلقة به في رسائله التي يحملها . ولقد استعمل السلطان صلاح الدين بن أيوب حمام الرسائل أي حمام الزاجل في حصار عكاء الذي استمر مدة سنتين . ولقد ألف العلماء والأدباء في ذلك العصر في حمام الزاجل رسائل قيمة ، منها (تمائم الحمام) ومنها "مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام" .

هذا وإن أول من أرسل الحمام لاستكشاف الأخبار سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام . فقد روى الإمام الأزرقي رحمه الله في أول تاريخه ما يأتي : عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وأنهم كانوا أقاموا في السفينة مائة وخمسين يوماً وأن الله تعالى وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها الله تعالى إلى الجودي . قال : فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف وأبطأ عنه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضبت فهبط إلى أسفل الجودي . انتهى من تاريخ الأزرقي .

نقول إن إرسال سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام الحمامة لتأتيه بخبر انحسار الماء عن الأرض إنما هو من معجزاته عليه الصلاة والسلام . ولا يبعد أن يكون حمام الزاجل من نسل حمام هذه السفينة . والله تعالى أعلم بغيبه ، ولا يبعد أن يكون إطلاق الناس على الحمام (حمامة السلام) استنتاجاً من قصة حمامة نوح عليه الصلاة والسلام .

هذا ثم لما تقدم الناس في عصرنا الحاضر في المدنية والحضارة والعمران واخترعوا آلات التلغراف "البرق" والتلفونات وغير ذلك من الاختراعات العجيبة التي لا تعد ولا تحصى ، استغنوا عن استعمال حمام الزاجل وإرساله بالرسائل وصاروا يرسلون الرسائل والخطابات بواسطة البريد المسجل المضمون في البر والبحر والجو ، ومن كان مستعجلاً في أمر أرسل برقية إلى البلدة التي يريدها سواء كانت في البلاد الإسلامية أو في البلاد الأوروبية . وما كان من الأمور المهمة السرية يرسلون برقياتهم بالشفرة والرموز . وبذلك بطلت عادة إرسال حمام الزاجل بالرسائل لكثرة وسائل المواصلات السريعة . ومع ذلك فإن جنس الحمام

الزاجل لم ينقرض، بل ما زال شيء من حمام الزاجل موجوداً إلى اليوم في بعض الأقطار كمصر والشام والعراق وبعض البلدان الأوروبية ويحافظون على هذا النوع من الحمام كمحافظتهم على الآثار... هكذا كان حال البريد في العصور الماضية.

ثم تدرج حال البريد شيئاً فشيئاً وتطور تطوراً عظيماً في عصرنا الحاضر حتى صار له أدق النظامات وأحكم القوانين كما هو معروف لدى جميع العالم. وإن أول من وضع أساس إدارات البريد وإدارات التلغراف والبرقيات وإدارات التليفونات الدولة التركية العثمانية... وضعتها عندنا بمكة المكرمة، وبسائر مدن الحجاز بل وسائر البلدان والممالك الإسلامية التي كانت كلها تحت حكمها. فلما استقلت هذه الممالك كلها بنفسها وزال حكم الأتراك عنها حافظت على هذه الإدارات وصارت كل مملكة تزيد في أنظمتها وقوانينها ما تراه صالحاً لخدمة الجمهور حتى وصلت حالتها اليوم شأوا بعيد المدى.

هذا ولقد أدركنا رسائل البريد والأمانات تذهب بالحمير في كل يوم قبل وجود السيارات والطائرات من مكة المكرمة إلى جدة، وإلى الطائف وإلى المدينة المنورة وإلى ما حول ذلك من القرى، وكانوا يسمون ذلك (بوستة الحمَّارة) بتشديد الميم، فإذا وصلت هذه الرسائل والأمانات إلى البلدة أخذ الرجال الموظفون المختصون بهذا الأمر جميع الرسائل والأمانات وسلموها إلى أصحابها بأمانة تامة، لا يحصل فيها شيء من الخيانة والتغيير، حتى لقد كانت ترسل معهم صرر الفلوس من الريالات الفضية والجنيهات الذهبية. وإذا حصل أمر مهم يقتضي سرعة إرسال الرسائل والأمانات بغاية الاستعجال فإنهم كانوا يرسلونها مع النجاب، بفتح النون وتشديد الجيم، وهو رجل سريع الذهاب والعدو فيمشي على رجليه مهرولاً من مكة إلى جدة أو من الطائف إلى مكة فيسلمها لأصحابها فيصل هذا النجّاب إلى البلدة قبل وصول الحمّارة بكثير، وعندنا في العرب بعض الرجال معروفون بالعدو السريع.

هذه الحالة كانت معروفة عندنا إلى أوائل العهد السعودي أي إلى سنة (١٣٤٧هـ) ألف وثلاثمائة وسبع وأربعين هجرية. ثم من بعد هذه السنة المذكورة كثرت السيارات عندنا، فصار البريد يرسل بالسيارات إلى جميع المدن، كما يرسل بالطائرات إلى داخل المملكة وخارجها. وتطور عندنا نظام البريد تطوراً عظيماً فاستراح الناس فيه راحة تامة.

هذا ولقد طلبنا من سعادة الشيخ عبدالله عبدالرحمن طيب مدير بريد مكة المكرمة أن يفيدنا بالتفصيل عن تطور حالة البريد عندنا بمكة، فجاءنا منه الجواب الآتي في منتصف جمادى الأولى سنة (١٣٨٥) هجرية.

البريد في مكة

عرفت مكة إدارة البريد منذ العهد العثماني باسم "البوستة" وقد كانت خدمات البوستة ضيقة في حدود معينة لا تعدو عن نقل بعض خطابات عادية ومسجلة بين مدن الحجاز، بين مكة وجدة، وبين مكة والمدينة وبينها والطائف. ومن الوسائل التي كانت تستعمل لنقل البريد "الحمير" وكان ساعي البريد الذي ينقل الخطابات يطلق عليه (موزع الحمَّارة) بتشديد الميم، وظل موزع الحمارة اسماً معترفاً به في البريد إلى عهد قريب جداً.

ومن المباني التي عرفتها إدارة البريد بمكة مبنى الإسعاف الخيري فهو أول مبنى شبه أنموذجي تأسس لإدارة بريد مكة والبرق والتلفون واللاسلكي وكان يدير العمل فيه موظفان اثنان. والعمل عبارة عن جمع أعمال البرقيات والخطابات والتلفونات وبعض موزعين.

وصدرت طوابع بريدية حجازية في عهد الحسين بن علي ثم وشحت هذه الطوابع في أوائل العهد السعودي بجملة "سلطنة نجد والحجاز" ولم تلبث أن صدرت طوابع سعودية باسم المملكة العربية السعودية... في بداية العهد الجديد الذي أخذت المرافق العامة كلها تحظى بعناية الدولة. وتكونت إدارة عامة لمصلحة البرق والبريد واللاسلكي تحت إدارة مديرها العام الشيخ عبدالله كاظم واتخذ لهذه المصلحة مبنى كبير في القشاشية ثم انتقل البريد بعد أن توسعت أعماله وتحسنت خدماته العامة وتعددت أقسامه إلى عمارة الأشراف في أجياد وفي أوائل عام ١٣٧٩هـ ابتاعت وزارة المواصلات المبنى الحالي بسوق المعلا.

تتكون إدارة البريد حالياً من أكثر من خمسة عشر قسماً أهمها أقسام الواردة والصادرة والحوالات والمؤمنات والترحيل والتوزيع... ويوجد للبريد الحالي ثمانية شعب منبثة في مختلف أنحاء مكة... أهمها شعبة القشاشية وأجياد والمسفلة والشبيكة وجرول ... وقد تطورت إدارة بريد مكة تطوراً ملحوظاً في الأيام

الأخيرة وتحسنت الخدمة البريدية تحسناً ملموساً حتى أن ذلك دعى إلى تسيير بريد متنقل أيام الحج ، ولا سيما أيام التشريق بمنى ليسهل الخدمة البريدية للحجاج .

وقد بلغ مجموع ما استقبلته إدارة البريد من خطابات في اليوم الواحد في أيام موسم الحج عام ١٣٨٤هـ مائة وخمسين ألف خطاب صادرة من مكة إلى مختلف أقطار الأرض كما استلمت من الخطابات الواردة ما يربو عن مائتي ألف رسالة في يوم واحد . ومن منذ سنة تقريباً تم الاتصال المباشر بين بريد مكة وبعض المراكز البريدية العالمية والعربية ، منها الهند والباكستان وإندونيسيا ومصر ، وبعض دول أوروبا ، والدول العربية . وقد كان قبل هذا الاتصال يتوسط مركز بريد جدة بين مكة وبقية المراكز العالمية .

وإدارة بريد مكة تتصل اتصالاً مباشراً في مهامها بوكالة المصلحة لمنطقة مكة ووكيل المدير العام في هذه الوكالة هو الأستاذ جعفر ثابت ، وفي عهد سعادته خطت مصلحة البريد خطوات واسعة المدى في سبيل التطور وتيسير الخدمة البريدية . وميزانية البريد بمكة جزء من ميزانية المصلحة التي هي جزء من ميزانية وزارة المواصلات .

ولم تعرف مكة عهداً مثل هذا العهد بالنسبة للخدمات البريدية العامة وتسهيلها ودقتها . والفضل في ذلك يعود إلى ما متع الله به هذه البلاد من استقرار وأمن في عهد مليكها ورائدها جلالة الملك فيصل المعظم أطال الله عمره وأبقاه .

١٥ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ — مدير البريد بمكة المكرمة

عبدالله عبدالرحمن طيب

التلغراف بمكة المكرمة

لقد بدأ في اختراع التلغراف "البرق" ثلاثة أشخاص من أوروبا ، وذلك في سنة (١٨٣٢) ألف وثمانمائة واثنتين وثلاثين ميلادية ، وهم :

(١) صامويل ف. ب. مورس وهو من أمريكا . (٢) مستر رونالدز وهو من لندن . (٣) وليم فوز –رجل كوك– وهو من أوروبا . فهذا الشخص الثالث وهو "وليم" كان ضابطاً في جيش المدوراس وهو من أهل أوروبا ، وكان له ذكاء ونشاط، يقضي أيامه في التجول في دور المتاحف والكليات العلمية ، فبينما كان في

إحدى الصالات بمدينة (هدالبرج) إذ رأى جهازاً مخصصاً لتوضيح بعض نقاط المحاضرات التي تلقى عن الكهرباء، وفيه مفتاح لإرسال أو إمساك التموجات الكهربائية، فقال كوك في نفسه: ولماذا لا يمكن إرسال هذه التموجات بهيئة علامات مصطلح عليها، إلى مسافات بعيدة. فلما وصل إلى لندن، كان من حسن حظه أن استمال إليه أحد أساطين العلوم العملية في هذا العصر، وهو الأستاذ (آلان سير) تشارس وتيسن مخترع آلة (السبكتر سكوب)، وعمل كلاهما على تحقيق فكرة إنشاء التلغراف وحصلا على امتياز به ليحمياه من سطو بعض الأدعياء. وحصلت أول تجربة عمومية في ٢٥ يوليو سنة (١٨٣٧) وقد وقف أحد هذين المخترعين في مدينة "كامدن" ووقف الآخر في "بوستن" وكانت النتيجة نجاحاً باهراً، ووصلت بينهما الإشارة المتفق عليها.

ولنعد إلى ذكر الشخص الأول وهو "صامويل مورس" فلقد كان مسافراً في سفينة صغيرة من ميناء "الهافر" قاصداً نيويورك في شهر أكتوبر من عام (١٨٣٢) ميلادية، واجتمع مع بعض الرجال الكهربائيين فعلقت بذهنه إرسال الموجات والرموز في سلك من التيار الكهربائي. ثم لما قفل راجعاً من سفرته إلى بيته عكف على دراسة الكهرباء واستولى على فكرة اختراع آلة التلغراف، واهتم بهذا اهتماماً عظيماً، وطبعاً لقي في سبيل ذلك صعوبات جمة وتعباً عظيماً وإرهاقاً فكرياً لا يتصور، لكنه في آخر الأمر نجح نجاحاً باهراً في اختراع التلغراف.

وكان لا بد للتلغراف من عمل محطة صالحة لإرسال الإشارات وتلقيها. فمكث "صامويل مورس" يعمل مدة سنتين بغير انقطاع حتى أتم عمل محطة جيدة صالحة. ثم إنه في سنة (١٨٣٧) ميلادية، دعا مورس بعض أصدقائه ومعارفه إلى الاستديو لمشاهدة التلغراف الذي صنعه، فأسفرت التجربة عن نجاح بعيد المدى، واقتنع الحاضرون بفائدة هذا المشروع العظيم. فقدم له شخص ميكانيكي ماهر من الذين شاهدوا اختراعه، أموالاً كثيرة وآلات متعددة، وطلب منه أن يدخل في اختراعه هذا تحسينات عظيمة، وبذلك تمكن صامويل مورس من إتمام اختراعه على أكمل وجه وأحسنه، ثم سعا في أمريكا وفي الممالك الأخرى للحصول على الامتياز، فتمكن من حصوله في سنة (١٨٤٠) ميلادية. ثم عرض أمر التلغراف الذي صنعه على البرلمان الأمريكي، وطلب مساعدته بمبلغ وفير لإنشاء خط

تلغرافي من واشنجتون إلى بلتيمور ، فساعدوه بإعطائه ثلاثين ألـف دولار ، وذلـك في سنة (١٨٤٣) ميلادية .

فقام مورس يضع أسلاك التلغراف تحت الأرض ، ثم عـدل عـن هـذه الطريقـة فجعل الأسلاك على أعمدة مرتفعة عن الأرض ، فهذا العمل أكثر نفعاً وأقل نفقة ، وركب على رؤوس الأعمدة عازلات زجاجية لمنع التيار الكهربـائي مـن التسـرب إلى أجسام الأعمدة فتبدد في الأرض ، فلما تم إنشاء هذا الخط ، صار أمر التلغراف مشهوراً لدى الشعب الأمريكي .

ثم في أوائل شهر إبريل سنة (١٨٤٥) كان الخط التلغرافي قـد فتـح للجمهـور وتعين لـه عمـال وكتـاب وإدارات ، ثـم مـا زال التلغـراف يدخـل فيـه التعديـلات والتحسينات ، حتى وصل اليوم إلى أرقى درجات الكمال . وقـد امتـدت خطـوط التلغرافـات إلى جميـع الممـالك والبلـدان ، حتـى صـار التلغـراف أمــراً لازمــاً مــن ضروريات الحياة لا يستغني عنه الأفراد ولا الحكومات في جميع أقطار الأرض .

هذا فالتلغراف كان موجوداً بمكة المكرمة منذ زمن طويـل ، مـن عهـد الدولـة التركية العثمانية ، ولقد توسعت إدارته عندنا توسعاً عظيماً حسب ازدياد السـكان في البلاد – ولقد أصدرت وزارة المواصلات عندنا في المملكة العربية السعودية مـن نحو خمس سنوات ، كتابـاً صغيراً ، بينـت فيـه نشـاط الـوزارة وأعمالها في خدمـة الجمهور من ناحيـة المواصـلات ، سـواء كـانت بواسـطة الـبريد ، أو بـالتلفون ، أو بالتلغراف ، وهذا الكتاب على صغره فيه معلومات هامة قيمة .

هذا مـا ذكرنـاه عـن اختـراع التلغـراف ولقـد طلبنـا مـن سـعادة مديـر الـبرق واللاسلكي بمكة المشرفة نبذة عن التلغراف واللاسلكي بمكة المشـرفة ، فأرسـل لنـا البيان الآتي:

اهتمت حكومتنا السنية بهذا البلد المقدس ونهضت به إلى أعلـى القمـم لما لـه من قداسة في قلب أسد الجزيرة وإمام المسلمين صاحب الجلالة الملك فيصل خاصة وفي قلوب العالم الإسلامي عامـة وأن صـاحب الجلالـة أول مـا اهتـم بـه النهـوض بكافـة المشـاريع الحيويـة في هـذا المضمـار وأعـني الأهـم منهـا إدارة الـبرق والـبريد واللاسلكي لما لهذا القسم من أهمية عظمى في عالم اليوم لما يقوم بـه مـن خدمـات عامة باستقبال كافة البرقيات الداخلية والخارجية والقيام بتسـليمها لأصحابهـا مـن المواطنين والدوائر الحكومية والوفود لهذه الأراضي المقدسـة في أقـرب وقـت ممكـن

واهتمام المسؤولين بإيجاد الآلات الفنية للاستقبال السريع وتأمين وسائل النقل الحديثة علماً أنه كان العمل سابقاً جارياً بأبسط الآلات السلكية وبتوالي السنين، وتوفر أحدث الأجهزة الفنية تطور حقل البرق والبريد وانتشرت المراكز اللاسلكية في كافة أنحاء المملكة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها حتى أصبحت كل مدينة وقرية بها مركزاً لاسلكياً حديثاً.

إضافة على اهتمام المسؤولين بتأمين أحدث الآلات المبرقة الحديثة لتأمين المخابرات فيما بين جدة ومكة والطائف والتي كانت سابقاً تؤمن بطريق اللاسلكي (المورس) وزيادة على ذلك إيجاد الوسائل بتشجيع أبناء الوطن بالتمرين والعمل على الآلات الحديثة حتى أصبح كافة القائمين بالعمل بهذا المرفق هم من رعايا الحكومة السنية وأن هذا بفضل الله ثم بفضل (صاحب الجلالة) حامي حمى الحرمين وحرص المسؤولين بهذه المصلحة. ونستمد من المولى جلت قدرته العون في المضي في أعمالنا لما يحقق ازدهار البلاد ورقيها في كافة مرافق الحياة تحت ظل صاحب الجلالة (الملك فيصل المعظم) وبالله التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

مدير البرق واللاسلكي بمكة المكرمة

عمر عراقي

٥ جمادى الثانية سنة ١٣٨٥

انتهى ما ذكره سعادة مدير البرق واللاسلكي بمكة المكرمة.

التليفونات بمكة المكرمة

كان الكسندر جراهام بل، هو أول مخترع للتليفون، اخترعه في فبراير سنة (١٨٧٦) ميلادية، وقد ولد الكسندر بل المذكور في سكوتلاندا وتلقى تعليمه في إنكلترا، ثم سافر هو وأبوه إلى كندا ثم ذهب إلى بوستن لتعليم الصم البكم ثم اشتغل بدراسة الأصوات وبممارسته لتعليم تلامذته الصم علم كثيراً عن الأصوات التي تؤثر على طبلة الإذن الغضة، فصنع قرصين جديدين يشبهان طبلة الأذن، ووصل بينهما بسلك كهربائي، فكانت الأصوات التي ترسل من أحدهما تتصل بالقرص الثاني بواسطة السلك، والقرص الثاني يرددها كما هي. وقد نجح في إنشاء هذه المواصلة التلفونية بهذا الشكل البدائي على مسافات قصيرة، ثم عكف

على تعلم الكهرباء، ثم بعد تجارب كثيرة وأتعاب مضنية، توصل إلى اختراع التلفون ونقل الأصوات فيه بوضوح تام، فظن بعض رجال الأعمال أن هذا من قبيل لعب الأطفال وذلك في سنة (١٨٧٦) ميلادية. وقد ظهرت شركة لإظهار هذا الاختراع العظيم، اختراع التليفون، فصار اليوم للتلفونات فوائد كبيرة أعظم من فوائد الرسائل البريدية.

هذا وقد أوفدت حكومتنا السعودية، عن طريق مديرية البرق والبريد العامة أول بعثة للتلفونات الفنية، وكان ذلك قبل سنة (١٣٦٧) وإليك أعضاء هذه البعثة:

(١) محمد كاظم، (٢) أسعد قنق، (٣) عبد الواحد خوج، (٤) يحيى عبد الجبار، (٥) سعيد حمزة، (٦) عبدالكريم بشاوري، (٧) وجدي طحلاوي، (٨) فريد توفيق، (٩) رشاد زبيدي، (١٠) محمد نور سلامة.

ولقد أتم هؤلاء دراساتهم في أعمال هندسة التلفونات الأتوماتيكية وغيرها، ثم عادوا إلى بلادهم وتسلموا أعمالهم الرسمية، كما ذكرهم صديقنا الفاضل الأستاذ صالح جمال الحريري، وفق الله تعالى العاملين لخدمة بلادهم وإخوانهم آمين.

عدد التليفونات بمكة المكرمة

وجود التليفون والتلغراف بمكة المشرفة وفي غيرها من البلاد قديم يرجع عهده إلى زمن الأتراك العثمانيين، لكن عدد التليفونات بمكة شرفها الله تعالى في زمن الشريف الحسين بن علي ملك البلاد الحجازية الأسبق رحمه الله، لا يتجاوز العشرين من التليفونات فقط، وذلك عند كبار موظفي حكومته، إلى أن انتهى مدة حكمه رحمه الله تعالى وذلك في أوائل سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية، فمكة كانت في ذلك الزمن صغيرة الرقعة قليلة السكان.

فلما استولت الحكومة السعودية على الحجاز في السنة المذكورة، تقدمت مكة المكرمة شيئاً فشيئاً في جميع مرافق المدينة والعمران، حتى بلغت في سنتنا الحاضرة سنة (١٣٨٥) خمس وثمانين وثلاثمائة وألف، مساحتها شيئاً كثيراً بحيث

امتد العمران في جميع نواحي مكة ، وصارت المنازل والدكاكين فيها أضعاف أضعاف الأزمان السابقة ، وكذلك كثرت فيها محلات التجارة كثرة محسوسة ملموسة ، وبالطبع أن كل هذه المنازل والمحلات التجارية والدوائر الحكومية المتعددة ، في حاجة شديدة إلى تليفونات عديدة ، فصار عدد التليفونات بمكة المكرمة في زماننا هذا أي إلى السنة المذكورة خمسة آلاف تليفون تقريباً ، وهي متفرقة بين الدوائر الحكومية والمحلات التجارية والمنازل الأهلية ، فسبحان مغير الأحوال ، لا إله إلا هو الكبير المتعال ، وهذه التلفونات هي التي تستعمل بواسطة المراكز والسنترالات وقد بلغنا أنه ستبدل هذه التلفونات قريبا بتلفونات تستعمل بواسطة الأرقام والنمر .

البنوك بمكة المكرمة

لم يألف الناس في الأزمان السابقة وضع نقودهم وأماناتهم في البنوك ، وإنما كانوا يحفظونها في منازلهم في الصناديق والدواليب ، وإذا سافروا إلى جهة من الجهات ، في داخل البلاد أو خارجها ، أخذوها معهم ، وبعضهم كانوا يحولون نقودهم إلى الخارج بواسطة التجار ، فلما ظهرت البنوك ووجدت وسارت أمورها بانتظام ، صار الناس يحولون نقودهم إلى أي جهة من الجهات بواسطتها ، وبذلك تفادوا كثيراً من الأخطار التي كانت تعترض أموالهم ، بل إن تحويل النقود بواسطة البنوك أضمن لوصول الحوالات إلى أصحابها ، لتحققهم من الشخص الذي يستلمها .

فأول ما ظهرت البنوك بمكة المكرمة ، كان في محرم (١٣٧٤) عام ألف وثلاثمائة وأربع وسبعين هجرية . فأول بنك أنشئ في مكة المكرمة ، هو البنك الأهلي التجاري ، وبعده وفي جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، أنشئ البنك الثاني واسمه البنك العربي ، وأخيراً أنشئ البنك الثالث واسمه بنك الرياض ، وذلك في ربيع الثاني عام ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية (١٣٧٧).

وساعدت هذه البنوك على خدمة حجاج بيت الله الحرام على أكمل وجه ، حيث يستطيعون بهذه البنوك تسلم وتحويل نقودهم من جميع أنواع العملات من مختلف بقاع الأرض بسهولة ويسر .

وهذه المعلومات عن البنوك بمكة المكرمة ، أخذناها مع الشكر من الأستاذ حسين غيث الأردني ، الموظف في بنك الرياض بمكة المكرمة .

ثم كتبنا لمدير البنك الأهلي التجاري بمكة المكرمة ، وهو الشيخ سعيد باحفوظ ، ليخبرنا عن البنوك بمكة المكرمة فقط ، وعن نبذة صغيرة من أعمالها ، فأرسل لنا الجواب الآتي بتاريخ غرة ربيع الثاني سنة (١٣٨٥) هجرية ، وبرقم (١٥٥٤٩) ، وهذا نص جوابه :

حضرة المكرم الفاضل الشيخ محمد طاهر الكردي المحترم

تحية وسلاماً

وبعد : تلقينا بمزيد السرور خطابكم المؤرخ ٨٥/٣/٨ المحتوي على استفساراتكم عن البنوك الموجودة بمكة المكرمة . وننقل لكم فيما يلي المعلومات التي استفسرتم عنها :

عدد البنوك:

١- مؤسسة النقد العربي السعودي فرع مكة

٢- البنك الأهلي التجاري «

٣- البنك العربي «

٤- بنك الرياض «

تواريخ تأسيسها:

باستطاعتنا إفادتكم عن تاريخ تأسيس فرعنا البنك الأهلي التجاري وهو أول محرم عام ١٣٧٤هـ. وأما تواريخ البنوك الأخرى الموجودة هنا فبإمكانكم معرفتها إذا كتبت إلى كل بنك منها.

أعمال هذا البنك:

إن أعمال هذا البنك متعددة ومتشعبة نورد لكم فيما يلي بعضاً من أعماله بطريقة مختصرة جداً على سبيل الإلمام :

١- منذ أن بدأت أعمال توسعة الحرم المكي الجبارة التي أخذت حكومتنا الرشيدة على عاتقها القيام بها فقد تم صرف جميع التعويضات التي تبلغ مئات الملايين عن طريق هذا البنك الذي قام بهذا العمل خير قيام .

٢- يقوم هذا البنك بأعمال تحويل المبالغ داخل وخارج المملكة ، فعندما يرغب مواطن في أن يحول مبلغاً ما إلى خارج أو داخل المملكة فإن أمامه ٣ طرق يستطيع البنك أن يحول بواسطة أية واحدة منها. فهو إما أن يحول المبلغ برقياً أو خطابياً أو أن يتسلم المحول شيكاً من البنك ويبعثه هو بنفسه بداخل خطاب مسجل .

٣- يقوم هذا البنك بأعمال التحصيل . فتجار السيارات أو الأثاثات المنزلية مثلاً الذين يبيعون بضائعهم بالتقسيط يبعثون بكمبيالاتهم الموقعة من قبل عملائهم إلى البنك ليقوم البنك باستحصال قيمة الكمبيالة في موعد استحقاقها . والمصدرون الذين يبيعون بضاعتهم على أساس دفع المبلغ مقابل تسليم لمستندات يبعثون بمستندات البضاعة التي يصدرونها يبعثونها إلى البنك لاستحصال قيمتها من المسحوب عليه .

٤- يقوم البنك أيضاً بفتح الاعتمادات بكافة أنواعها المستندية والشخصية وخلافهما . فالبنك في هذه الحالة يقوم مقام الواسطة بين المستورد والمصدر . فيأتي المستورد إلى البنك ويملأ استمارة فتح الاعتماد ويُضمّنها كافة مواصفات وشروط البضاعة حسب المتفق بينه وعميله المصدر ويدفع التأمين ثم يبلغ البنك مراسله في الخارج ليقوم الأخير بدوره بتبليغ المصدر بفتح الاعتماد ومواصفاته وشروطه . وعندما يتم شحن البضاعة يقدم المصدر المستندات إلى البنك المراسل ويستلم في مقابلها القيمة ويبعث المراسل بالمستندات بعد أن يحسم القيمة من حسابنا ولدى وصولها نستوفي باقي القيمة من الفاتح .

٥- كذلك يقوم البنك بتقديم الضمانات .

٦- ومن أعماله قبول أموال عملائه الذين يودعون أموالهم لدى البنك .

وفي الختام نتمنى لكم التوفيق في مهمتكم والله ولي التوفيق .

عن البنك الأهلي التجاري - بمكة

عدد نزول المطر في سنة ١٣٨٥ بمكة

إن الأمطار تنزل بمكة قليلاً ، يعني ينزل المطر بها في كل عام مرة أو مرتين تقريباً ، وإذا نزل فلا يدوم نزوله أكثر من ساعة أو ساعتين ، وفي النادر جداً يكون

نزوله مدة ست ساعات تقريباً ، أي من الصباح إلى الظهر مثلاً تكون هذه الحالة بعد عدة سنوات ، وفي هذه الحالات يكثر جريان السيل بمكة المشرفة .

لكن في سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانون هجرية ، نزل المطر فيها مراراً عديدة ، ففي شهر ربيع الثاني نزل المطر بمكة أربع مرات ، وفي شهر جمادى الثانية نزل بها ست مرات ، وفي شهر رجب نزل المطر بها ثلاث مرات ، وفي شهر شعبان نزل المطر بها ثلاث مرات ، وفي شهر رمضان نزل المطر بها ثلاث مرات ، وفي رابع يوم من شهر شوال نزل المطر بها عند الظهر . ثم لم نحسب نزول المطر بعد هذه المرة، لأننا أرسلنا هذا المبحث إلى المطبعة ، والله تعالى أعلم بعدد نزوله في بقية السنة المذكورة .

ففي كل هذه المرات تكون مدة نزول المطر نصف ساعة أو أقل أو أكثر ، ونزول المطر عدة مرات بمثل هذه الحالات في العام الواحد ، يكون بعد عدة سنوات من بعد نحو خمس عشر سنة فأكثر ، ويفرح الناس عندنا بنزول المطر كثيراً ، لأن الجو يتلطف ، والهواء يتغير ، وترق النسمات ، وتكثر الخضراوات ، وتنبت الحشائش والزروع ، ويكون المرعى للمواشي طيباً ، وتكثر الألبان والجبن ، نسأل الله تعالى أن يزيدنا من نعمائه وخيراته بفضله ورحمته آمين .

الأمطار بمكة في سنة ١٣٨٦ هجرية

لقد تقدم ذكر الأمطار بمكة المشرفة في سنة ١٣٨٥ هجرية ، والآن نكتب هنا الأمطار عندنا في سنة ١٣٨٦ هجرية ، فقد نزلت الأمطار عندنا كما يأتي :

عدد	وقت نزول المطر	ملحوظات
١	في ليلة ١٣٨٦/٥/٦	نزل في الساعة الرابعة ليلاً وكان رشاشاً قليلاً.
٢	في يوم ١٣٨٦/٥/٢١	نزل في الساعة التاسعة قبل العصر ودام نحو ثلث ساعة.
٣	في يوم ١٣٨٦/٥/٢٩	نزل في الساعة الحادية عشر قبل المغرب وكان رشاشاً خفيفاً.
٤	في آخر يوم ١٣٨٦/٥/٣٠	نزل مع أذان المغرب نزل بقوة ودام نصف ساعة.
٥	في يوم ١٣٨٦/٦/٣	نزل قبل المغرب بنصف ساعة وكان رشاشاً

عدد	وقت نزول المطر	ملحوظات
		خفيفاً.
٦	في يوم ١٣٨٦/٦/٤	جاء بعد العصر بنصف ساعة.
٧	في يوم ١٣٨٦/٦/١١	جاء بعد العصر وكان رشاشاً خفيفاً.
٨	في يوم ١٣٨٦/٦/١٢	جاء بعد العصر ونزل نصف ساعة.
٩	في يوم ١٣٨٦/٧/١٧	نزل مطر قوي من قبل الظهر بساعة إلى العصر.
١٠	في يوم ١٣٨٦/٧/٢١	نزل قليلاً من بعد المغرب.
١١	في يوم ١٣٨٦/٧/٢٧	نزل من العصر إلى قبل المغرب بساعة وكان قوياً.
١٢	في يوم ٩ /١٣٨٦/٨	نزل قبل العصر ودام قبيل المغرب.
١٣	في يوم ١٣٨٦/٨/١١	نزل قبيل المغرب إلى الساعة السابعة ليلاً وكان غزيراً.
١٤	في يوم ١٣٨٦/٨/١٢	نزل قبل العصر بساعة ودام إلى قبل المغرب بساعة وربع.
١٥	في ليلة ١٣٨٦/٨/١٣	نزل من بعد العشاء بساعة ودام إلى نصف الليل.
١٦	في يوم ١٣٨٦/٨/١٣	نزل مطر عند أذان الظهر ودام إلى بعد الظهر بساعة ، وهذه أربعة أيام متوالية تنزل فيها الأمطار ، ومثل هذا يكون عندنا نادراً.

لقد عددنا مرات نزول الأمطار بمكة المشرفة في سنتين في وقتنا الحاضر وهما سنة (١٣٨٥) وسنة (١٣٨٦) من الهجرة ، لأن نزولها في كل عام قليل جداً ، أما بالنسبة للممالك الأخرى من البلاد الإسلامية وغيرها ، فإن نزولها في مواسمها كثير جداً ، وكل ذلك لحكمة لا يعلمها إلا من بيده الأمر كله مدبر أمور السموات والأرض ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

جوازات السفر ورخص الإقامات وإحصاء النفوس بمكة المكرمة

لم تكن في العصور المتقدمة تعرف إحصاء النفوس ، ولا جوازات السفر بمكة المشرفة ، كما كان الشأن في جميع الممالك والبلدان ، وغاية الأمر أن الناس كانوا

يعرفون أهل بلدتهم ، وما كان يترتب على ذلك شيء لو أخطأوا ، وكان السفر من بلدة إلى أخرى ، ومن قطر إلى قطر في غاية اليسر والسهولة ، خصوصاً في جميع الممالك الإسلامية ، وأن المسافر إلى جهة من الممالك ، لا يحتاج إلى أكثر من حمل ورقة صغيرة لإثبات شخصيته وأنه تابع للدولة العلية العثمانية التركية ، وبموجبها يمكنه السفر إلى أي جهة كانت ، وقطع تذكرة سفره في البواخر إن أراد السفر من البحر ، أو السفر بالدواب من قطر إلى قطر . كان هذا هو الحال في جميع الممالك الإسلامية التي كانت كلها تابعة للدولة التركية العثمانية ، فلما زالت عنها الخلافة الإسلامية ، وزال حكمها عن جميع الممالك والأقطار التي كانت تابعة لها ، ظهرت في كل مملكة وقطر قوانين ودساتير مختلفة ، وأخرجت كل مملكة منها جوازات السفر خاصاً باسمها ، وذلك من سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية تقريباً ، وبذلك صار السفر من مملكة إلى مملكة ، ومن قطر إلى قطر صعباً ، بالنسبة لاستخراج جواز السفر من بلدة المسافر ، ثم حصول التأشيرة عليه من قناصل وسفراء الدولة التي يسافر إلى بلادها ، ثم الحصول على تأشيرة الدخول والخروج منها ، لأن كل ذلك يحتاج إلى إجراءات مع دفع الرسوم اللازمة ، وبغير هذا لا يمكنه السفر إلى البلاد التي يريدها .

وأنه بعد زوال حكم الأتراك عن الحرمين الشريفين وغيرهما في السنة المذكورة ، وتتويج الشريف الحسين بن علي ، رحمه الله تعالى ، ملكاً على الحجاز ، أمر بإصدار جوازات السفر باسم حكومته (الحكومة العربية الهاشمية) فكانت جوازات السفر هذه هي أول جوازات تصدر بمكة المكرمة بل بالحجاز .

وأما إدارة إحصاء النفوس لأهل البلاد ، أي التابعية التي تعطى لهم ، وكذلك إعطاء الجنسيات والإقامات للأغراب ، بحسب الترتيبات والإجراءات الموجودة اليوم ، فلم تكن معروفة في زمن الأتراك ولا في زمن الشريف الحسين المذكور ، ملك الحجاز الأسبق . إن كل ذلك لم يعرف عندنا إلا في أوائل العهد السعودي ، أي من سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية تقريباً ، لكن إدارات الإقامة وإحصاءات النفوس ، كانت معروفة من قبلنا بسنوات في البلدان الأخرى ، فنظن أن بدء إحصاءات النفوس في الممالك والأقطار ، كان معروفاً من بعد سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة من الهجرة ، وأن بدء إدارات الإقامة للأجانب كان من سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين تقريباً .

فصار سفر الناس من بلادهم إلى بلاد أخرى بالجوازات صعباً نوعاً ما ، وكذلك إقامتهم في بلاد أخرى صارت شاقة ، لما يحتاج ذلك من الإجراءات ومن الأسئلة والأجوبة الكثيرة ، وما يدفعونه في سبيل ذلك للحكومات المختلفة من المال . وأن من قرأ رحلة ابن جبير وابن بطوطة رحمهما الله تعالى ، اللذين كانا قبلنا بقرون عديدة ، إن من قرأ رحلتهما ، علم ما كان الناس يتمتعون بحرية التنقل والأسفار بين المشرقين والمغربين ، وإن كانت الأسفار في تلك القرون السابقة والعصور الماضية لا تخلو من أخطار قطاع الطرق والقراصنة . وفي عصرنا الحاضر زالت الأخطار والمشقات في الأسفار و لله الحمد . إن لكل عصر وزمان مزاياه ومساوئه ، ولكل مضاره منافعه .

والظاهر والله تعالى أعلم أن جميع الحومات الإسلامية والإفرنجية ، لم تتخذ جوازات السفر والإقامات إلا زيادة في محيط الأمن العام ، حتى تشل من حركات الجواسيس والمجرمين ، وإن كانت لا تخلو بلدة من البلدان منهم ، لكن ذلك أفضل من ترك الحبل على الغارب ، فالعمل على تقليل الشرور واجب ، إن لم يمكن حذفها بتاتاً ، فإنه ليس بمستطاع البشر رفع الشر والفساد من الأرض ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، ولكن فريق في الجنة وفريق في السعير . نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق بفضله ورحمته آمين .

استعمال الحطب والفحم وغيرهما بمكة

كان العرب وجميع الناس منذ العصور القديمة الأولى ، لا يستعملون في طبخهم وتدفئتهم غير الحطب المقتطع من الأشجار والفحم المتخذ من الحطب . فالفحم والحطب هما أساس الوقود منذ قديم الأزمان ، كما أخبر الله عز وجل عن ذلك في آخر سورة يس بقوله: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ .

لقد كان استعمال الحطب والفحم سائداً على وجه الأرض في جميع بلاد العالم إلى أول القرن الثالث عشر للهجرة ، أي إلى سنة (١٣٠٠) هـ ، فلما ظهرت المدنية الحديثة وتقدم الناس في اختراع أنواع وسائل الحياة المعيشية ، اختلفت عاداتهم التي درجوا عليها . فمن ذلك استبدلوا استعمال الحطب والفحم بالكهرباء وأنواع الزيوت والغاز ، واخترعوا لذلك من الآلات والأدوات ما يحير العقول .

وبطبيعة الحال كان أهل أوروبا هم أول الناس إقداماً على تبديل الأمور المعيشية ، لأنهم هم المخترعون لوسائلها من الآلات والأدوات ، ثم أخذ الناس عنهم ذلك تدريجياً وكان لا بد للبلاد العربية نصيب من تلك الأمور . ولا نريد أن نسرد ما ظهر من المخترعات فذلك مما يطول شرحه وبيانه ، ولكن نتكلم فيما نحن بصدده من الكلام عن الوقود فنقول :

كان الناس في بلاد الحجاز وفي مكة المشرفة يستعملون الفحم والحطب في الطبخ والخبز والتدفئة أيام البرد ، وكانوا يجعلون في بيوتهم ومنازلهم وأفرانهم مكاناً خاصاً للفحم والحطب ، كان هذا عادتهم وديدنهم إلى سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، ثم تغيرت الحالة تدريجياً في الحرمين الشريفين لوجود الكهرباء وأنواع الغاز ، فما جاءت سنة (١٣٧٣) هجرية إلا وقلّ استعمال الفحم والحطب ، وصار بدلهما استعمال الكهرباء وأنواع الغاز والبوتوغاز ، وحتى صارت الأفران أيضاً تستعمل فيها الكهرباء والغاز ، وما بقى أحد يستعمل الفحم إلا لشوي اللحم وعمل الكباب ، أو لتعمير رأس الشيشة لشرب التنباك والجراك ، وصار أصحاب المنداة والبخارية الذين يخبزون التمييز يستعملون الحطب في تحمية أزيارهم . أما عرب البادية والبدو الذين يعيشون في الصحاري والقرى ، فإنهم ما زالوا يستعملون الفحم والحطب ، لكثرة الأشجار الموجودة في باديتهم وقراهم ، ولعدم قدرتهم على شراء أدوات الغازات الوقودية ، ولعدم وجود الكهرباء في محلاتهم وباديتهم . إن دوافير الكاز والطباخات التي تشتعل بالفتايل لم تعرف عندنا ولم تكثر إلا من بعد سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية . والله تعالى أعلم ما يكون بعدنا من وسائل المدينة والعمران . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

أول مصحف يطبع بمكة المكرمة

كان مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط ، هو أول من فكر في كتابة وطبع مصحف شريف بمكة المشرفة موضع نزول القرآن الكريم ، فقام بكتابته من أول سنة (١٣٦٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وستين هجرية ، وقد مكث سنوات في كتابته ثم في تصحيحه بدقة تامة وعناية بالغة ، ثم تألفت شركة بمكة لطبعه ، فطبع في سنة (١٣٦٩) ألف وثلاثمائة وتسع وستين هجرية في عهد الملك

عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى وأحسن إليه ، ثم أعيد طبعه مرات عديدة بأحجام مختلفة ، فكان هذا المصحف الكريم واسمه (مصحف مكة المكرمة) أول مصحف يكتبه خطاط مكي وأول مصحف يطبع بمكة المكرمة ، فغفر الله تعالى لكاتبه المذكور ولمن قام بطبعه وتصحيحيه ولمن قرأ فيه ونظر إليه آمين . والحمد الله رب العالمين .

انظر: صورة رقم ٣٢، أول صحيفة من هذا المصحف الكريم من طبعته الأولى

الفنادق في الحجاز

الفنادق " بالفتح " جمع فندق ، والأوتيلات "بالضم " جمع أوتيل ، ومعناهما " الخان " ، والخان كما في المنجد محل نزول المسافرين وتعني " الفندق " والجمع خانات والكلمة دخيلة . والخان أيضاً لقب السلطان عند الأتراك . انتهى من المنجد . فالفندق في اصطلاح عصرنا عبارة عن قصر كبير به غرف عديدة متجاورة بكامل مرافقها ، وهو مبني بشكل خاص غير طراز المنازل والبيوت ، ويتكون من طابقين أو أكثر ، وفي بعض الفنادق نحو ثلاثين غرفة وفي بعضها نحو ثلاثمائة غرفة أو أكثر ، بحسب صغر الفندق وكبره وبحسب كثرة المسافرين والسواح وقلتهم . وقد يكون في كل غرفة سرير واحد وقد يكون أكثر .

وهذه الفنادق أو الأوتيلات تبنى خاصة للإيجارات العامة للنزلاء فيها ، وقد تكون الإيجارات يومية وقد تكون بالشهر ، وقد تكون الأجرة للنوم والراحة فقط ، وقد تكون لهما مع تقديم الطعام حسب رغبة النزيل فيها ، وقد تكون الأجرة في بعضها قليلة مناسبة لحالة الفقراء والضعفاء ، وقد تكون في بعضها مرتفعة غالية تتناسب مع حالة الأمراء والوزراء والأغنياء ، وهي الفنادق العظيمة الممتازة ذات الأثاث الفاخر .

ولم تكن الفنادق والأوتيلات موجودة في الحجاز قبل العهد السعودي الزاهر مطلقاً لا صغيرة ولا كبيرة أي قبل سنة (١٣٥٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وخمسين هجرية ، وإنما كان الناس إذا نزلوا من مكة إلى جدة أو طلعوا منها إلى مكة أو سافروا إلى المدينة المنورة أو غيرها ، نزلوا في بيوت بعضهم على وجه الضيافة إذا كانت لهم بأصحابها معرفة ، أو أنهم ينزلونها بالإيجار لمدة قصيرة أو طويلة . وإذا

كان المسافر له منزلة حكومية فانه ينزل في دار الضيافة الحكومية الرسمية ، أما الحجاج فإن المطوفين ووكلاءهم هم المسئولون عن إسكانهم وراحتهم .

وفي هذا المعنى قال الأديب المصري الكبير الأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني رحمه الله تعالى في كتابه "رحلة الحجاز" التي كانت قبل السنة المذكورة ، حينما وصل هو ورفقاؤه من مصر إلى جدة ما يأتي :

"وليس في جدة فنادق ينزل فيها القاصدون إليها ، وإنما ينزل الناس في بيوت الأهالي ، فمن شاء استأجر منزلاً بأسره ، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة على مثال "البنسيون" في مصر مع فروق طبيعية... الخ" . انتهى كلامه .

نقول : أما اليوم فإن الفنادق والأوتيلات قد انتشرت في جميع المملكة العربية السعودية ، لكثرة السكان عن الأعوام السابقة وكثرة القادمين والمسافرين إليها لمختلف الأعمال الكثيرة والأشغال المتنوعة ، وتوجد منها بمكة شرفها الله تعالى نحو أربعة فنادق، وأول فندق بني بمكة كان سنة (١٣٥٥) خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، وهو أجمل وأكبر فندق بها ، ويقع في محلة أجياد أمام وزارة المالية ، قام ببنائه على طراز الفنادق الحديثة " بنك مصر " لكن على حساب وزارة المالية ، ثم إنه في سنة (١٣٦٦) ست وستين وثلاثمائة وألف هجرية اشترى هذا الفندق الشيخ صدقة كعكي ولا يزال في حوزته إلى اليوم ، وهو أحسن وأفخم أوتيل بمكة .

أما بالمدينة المنورة ففيها ثلاث فنادق أو أربعة ، وأما بجدة ففيها نحو عشرة فنادق بعضها فخم محترم .

وفي بعض البلدان بالمملكة توجد بعض الفنادق لسنا في صدد الكلام عنها وتعدادها .

الفنادق بمكة المكرمة

لم يكن بمدن الحجاز كلها فنادق لنزول المسافرين وإنما كانوا ينزلون عند بعض معارفهم ، أو ينزلون كما ينزل الضيف عند ذوي المروءات – أما في مكة المكرمة فالحالة كذلك ، غير أن الحجاج ينزلون عند مطوفيهم – كانت هذه الحالة جارية عندنا من قديم العصور إلى سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين

هجرية تقريباً، ثم تطورت أحوالنا حسب التمدن الحديث، فأنشئت بمكة الفنادق تدريجياً، فأول فندق كان بمكة المكرمة هو فندق مصر أنشئ في السنة المذكورة تقريباً، حتى صار اليوم عندنا بمكة من الفنادق ثمانية وهي كما يأتي بدون مراعاة لترتيب الإنشاء:

(١) فندق مصر.

(٢) فندق التيسير.

(٣) فندق السلام.

(٤) فندق شبرا.

(٥) فندق الحرم.

(٦) فندق أم القرى.

(٧) فندق عرفات.

(٨) فندق مكة بالاس.

ومعنى بالاس باللغة الإنكليزية: القصر، وجميع هذه الفنادق يأوي إليها المسافرون القادمون في مختلف الأوقات، وكلها تمتلئ بالحجاج في كل موسم، والله أعلم بما سيحدث في المستقبل من الفنادق.

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في آخر الجزء الأول عن الفنادق ما يأتي: "باب في الخانات" الفنادق لنزول المسافرين – قد استنبط بعضهم ذكر الخانات من قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ ذكره غير واحد، منهم الروضي في شرح الأنموذج، وفي طبقات ابن سعد واتخذ عمر دار الرقيق وقال بعضهم الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر... الخ، انتهى من الكتاب المذكور.

وسبب نزول آية: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وهي في سورة النور – أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت آية الاستئذان، قال: يا رسول الله كيف بالبيوت التي بين مكة والشام على ظهر الطريق والخانات أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت هذه الآية.

جاء في تفسير الألوسي عند هذه الآية : ﴿بيوتاً غير مسكونة﴾ أي : موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط ، بل ليتمتع بها من يحتاج إليها كائناً من كان من غير أن يتخذها سكناً ، كالرباط والخانات "بالخاء المعجمة" والحوانيت والحمامات وغيرها فإنها معدة لمصالح الناس كافة . انتهى من الألوسي .

نقول : يعلم مما تقدم أن الخانات كانت موجودة من قديم الزمان فيما بين البلدان ، ولكنها كانت على صفة بدائية غير منظمة بل كانت هذه الخانات "بالخاء المعجمة" في العصور السابقة مبنية على صفة تتسع للمسافرين ودوابهم من الجمال والبغال والحمير ، ولا بد أنهم كانوا مستعدين لإطعام دواب المسافرين ، وهذه الخانات كانت منتشرة في الممالك الأخرى بكثرة . أما في الحجاز فلم يكن لها ذكر لقبولهم للضيافات حسب العادة العربية ، فلما تدرج الناس في التمدن وفي معرفة كيفية التمتع بنعائم الله تعالى ، عرفوا كيف ينظمون أمر هذه الخانات ويرتبون مرافقها على حسب سنن تطور العصور ، حتى وصلوا في تنظيمها إلى يومنا هذا كما نرى . كما يؤخذ مما تقدم من اتخاذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دار الدقيق لضيافة من يرغب به ، واتخاذ الحكومات داراً للضيافة ينزل بها القادمون باسم الحكومة ، وسواء كانت هذه الدار خاصة للضيوف أو أن الحكومة تأمر بإنزالهم في الفنادق الكبيرة المحترمة ، وهي تقوم بدفع نفقات ضيافتهم كما تقضي بذلك الواجبات الرسمية .

جاء في الجزء الأول من كتاب "التراتيب الإدارية" عند الكلام على اتخاذ الدار لنزول الوفد في زمانه عليه الصلاة والسلام ما يأتي :

"زقلت" في الوفاء للسيد السمهودي صحيفة ٥٥٥ من الجزء الأول ، ذكر ابن شبة في دور بني زهرة ، أن من دور عبدالرحمن بن عوف التي اتخذها الدار التي يقال لها الدار الكبرى دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، وإنما سميت بالدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحد المهاجرين بالمدينة ، وكان عبد الرحمن ينزل فيها ضيوف رسول الله ﷺ فكانت تسمى أيضاً دار الضيفان ، فسرق فيها بعض الضيفان فشكى ذلك عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ ، وقد بنى عليه السلام فيها بيده فيما زعم الأعرج اهـ منها ، واختصر ذلك السمهودي في خلاصة الوفا راجع ص(١٨٧) منها .

ذكر أبو الربيع الكلاعي في الاكتفاء عن الواقدي أن حبيب بن عمرو كان يحدث قال: قدمنا وفد سلمان على رسول الله ﷺ ونحن سبعة نفر، فانتهينا إلى باب المسجد فصادفنا رسول الله ﷺ خارجاً منه إلى جنازة دعي لها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله السلام فقال رسول الله: وعليكم السلام من أنتم؟ قلنا: قوم من سلمان قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام ونحن على من ورائنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة وفيها نخل وفيها وفود من العرب وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية وساق الحديث. (زقلت) وقد ترجم في الإصابة لحبيب بن عمرو المذكور وأورد قصته هذه وساق سند الواقدي فيها وأفاد أن قدومه كان في شوال سنة عشر من الهجرة. انتهى من الكتاب المذكور.

أسماء الحارات والمحلات بمكة قديماً وحديثاً

كانت لمكة، زادها الله تعالى شرفاً وأمناً ورخاءً وخيراً، من زمن الجاهلية حارات ومحلات وأسواق، كسوق الليل، وسويقة، والقرارة، وأجياد، إذ لا بد لكل قرية أو بلدة مهما صغرت أن تكون بها محلات وحارات تعرف بها منازلهم ويهتدى إلى أماكنهم.

وكانت لمكة المكرمة من قديم الزمن إلى آخر عهد الأشراف في زمننا هذا، أي إلى أن استولى عليها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، من الحارات والمحلات ما يأتي:

(١) سوق الليل (٢) وشعب علي (٣) وشعب عامر (٤) والسليمانية (٥) والمعابدة (٦) وجرول (٧) والنقا (٨) والفلْق (٩) والقرارة (١٠) والشامية، ويدخل فيها قاعة الشفا (١١) وأجياد (١٢) والقشاشية (١٣) والشبيكة ويدخل فيها الهجلة (١٤) وحارة الباب، ويدخل فيها ريع الرسام (١٥) والمسفلة.

هذه هي الحارات القديمة الأصلية لمكة.

ثم في العهد السعودي في عصرنا الحاضر أيضاً بعد أن كثر المال في أيدي الناس، اتسعت رقعة مكة اتساعاً عظيماً فامتد العمران والمنازل إلى أطراف مكة من جميع جهاتها، وكثر بها استيطان الأجانب من كافة الأقطار الإسلامية -صار

من الضروري حدوث محلات وحارات جديدة حوالي مكة المشرفة ، ولا بد من إطلاق أسماء على هذه المحلات لمعرفة مواقعها وسرعة الاهتداء إلى منازل المقيمين بها ، ويعتبر اتساع العمران بمكة وازدياد سكانها بشكل ملموس من سنة (١٣٦٠) ستين وثلاثمائة وألف هجرية تقريباً ، ولا زال العمران والسكان في ازدياد إلى اليوم بمكة وفي غير مكة .

فعليه تكون الحارات والمحلات المستحدثة بمكة في عصرنا الحاضر هي كما يأتي :

(١) العتيبية (٢) والهنداوية (٣) وحوض البقر ويسمى الآن بحي العزيزية (٤) وحي الشِّشَّة (٥) وحي الروضة (٦) وحي الخانسة (٧) وحي الزاهر (٨) وحارة الطندباوي وفيه شارع المنصور (٩) ومحلة الرصيفة (١٠) ومحلة المشعلية (١١) ومحلة النزهة .

وإليك صورة عمدة كل محلة ، وليعذرنا من لم تصلنا منه صورته لوضعها هنا ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد للجميع.

استعمال أقلام الجيب في الحجاز

كانت الدوائر الحكومية كلها بالحجاز تستعمل أقلام البوص "القصب" ، وكذلك جميع المحلات التجارية بل وأفراد الأمة ، وكانوا يكتبون بالحبر الأسود لا يعرفون غيره ، حتى كتابة الحجج في المحاكم الشرعية كانت تكتب بذلك ، أما العلماء والمؤلفون فكانوا يستعملون الحبر الأسود والأحمر أيضاً لكتابة عناوين مؤلفاتهم وأبوابها وفصولها ووضع العلامات والإشارات فوقها .

وبهذا كان لدى كل فرد منهم "مطوة" وتسمى بالحجاز "مقلمية" لبري الأقلام ، ودواية للحبر الأسود ، وكانت الدوايات على أشكال وأحجام مختلفة بعضها ذات قيمة ممتازة ، يتفنن في صنعها الفابريقات ، وكانوا يستعملون الرمل في تنشيف حبر الأوراق المكتوبة "أي في تجفيفها" رملاً خاصاً يأتي إلينا من الخارج ، ويكون ملوناً منه الأحمر والأخضر والأزرق ، وهذا الرمل يكون لدى خواص الناس والكتّاب ، أما العوام فإنهم يجففون الحبر بالتراب يضعونه فوق الورق

المكتوب ثم ينفضونه . ولقد ورد في ذلك حديث ضعيف رواه الترمذي وهو "إذا كتب أحدكم كتاباً فليتربه فإنه أنجح لحاجته" .

ثم بعد الحرب العالمية الأولى أي منذ سنة (١٣٣٠) ثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية بدأ استعمال أقلام الجيب في الحجاز مع ما يتبعه من الحبر الخاص له بجميع الألوان ، ولا يزال يكثر استعماله حتى انقرضت الآن أقلام القصب من السوق ، وكاد الحبر الأسود أن ينقرض الآن أيضاً ، فقد بطل استعماله بتاتاً من الدوائر الحكومية والمحلات التجارية ومن جميع الناس ، ولا يستعمله مع أقلام القصب غير الخطاطين فقط ، وبالطبع انقرضت الدوايات الخاصة بالحبر الأسود ، فجميع العالم يستعمل أقلام الجيب ، وهو من الكثرة ورخص السعر بحيث صار الفقير يمكنه شراؤه - أما استعمال الرمل أو التراب في تجفيف الحبر فلم يبق له أثر مطلقاً في جميع البلدان ، بسبب ظهور ورق النشاف.

استعمال الآلات الكاتبة في الحجاز

لم يكن استعمال الآلات الكاتبة شائعاً بالحجاز إلى سنة (١٣٤٥) خمس وأربعين وثلاثمائة وألف تقريباً ، فجميع كتّاب الدوائر الحكومية والمحلات التجارية كانوا يكتبون مذكراتهم الرسمية وأعمالهم التجارية ومخاطباتهم الشخصية ، بأيديهم سواء بالحبر الأسود أم بالحبر الأزرق .

ومنذ السنة المذكورة ابتدأ الناس بالحجاز في استعمال الآلات الكاتبة بالتدريج حتى أنه الآن عمّ استعمالها جميع الدوائر الرسمية والدواوين الحكومية والمحلات التجارية وحتى الأفراد يستعملونها لمصالحهم الشخصية .

والحقيقة أن الكتابة بالآلات تمتاز بشيئين : النظافة والسرعة ، ولكن ينشأ عنها من إهمال عام في تحسين الخط ، ولذلك نرى تلامذة المدارس أصبحت خطوطهم ضعيفة غير حسنة ، لأنه كانوا يشترطون في الوظائف حسن الخط ، والآن بانتشار الآلات الكاتبة أصبح هذا الشرط في حكم الإلغاء ، لهذا لا يعتنى بتعليم الخط وتحسينه على الوجه المرضي ، وعدم الاعتناء بتدريس الخط في المدارس يؤدي إلى ضياع رونقه وجماله ، وربما في المستقبل بعد مضي قرن أو قرنين لا نجد من الخطاطين من يحسن الكتابة بقواعد الخط المعروفة .

على أن لجميع أنواع الآلات الميكانيكية التي تستعمل في مرافق الحياة اليوم، لها منافعها ولها مضارها . وهذا شأن الحياة الدنيا في كل شيء .

نسأل الله السلامة من كل شر والتوفيق لكل خير آمين .

أول من فرض العشور بمكة

المراد بالعشور وضع الضريبة على البضائع والأشياء الواردة للبلاد ، فالعشور هو ما نسميه باصطلاحنا في عصرنا الحاضر الجمرك ، وتسمى العشور بالمكس وبالجباية ، وبالخراج .

فكان أول من فرض العشور بمكة المكرمة وأخذها شخصان من أولاد إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، (فالأول) مضاض بن عمرو الجرهمي وهو ملك جرهم ، وكان بأعلا مكة ، وكان يأخذ العشور ممن يدخل مكة من أعلاها و(الثاني) سميدع ، وهو ملك قسطورا ، وكان يأخذ العشور ممن يدخل مكة من أسفلها . فمضاض وسميدع كانا من ولاة مكة المكرمة ومن حكامها بعد نبي الله تعالى إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك قبل مبعث نبي آخر زمان نبينا "محمد" صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بنحو ثلاثة آلاف سنة . ولكن لما بعث الله تعالى نبينا "محمد" ﷺ ، بدين الحق وهو دين الإسلام الحنيف أبطل العشور والجمارك ونهى عن أخذها لأنها تؤخذ ظلماً بدون حق شرعي .

والملوك والحكومات كانت تأخذ العشور وتضع الجمارك على البضائع الواردة للاستعانة بما يجمعونه من هذه العشور على تقوية الجيوش لمقاتلة أعداء الإسلام على أنه وجد في التاريخ أن بعض الملوك قد أبطل العشور والجمارك ، بل إنه يوجد عمود من أعمدة المسجد الحرام بمكة المشرفة التي عليه قباب المسجد وهو يقع بقرب باب العمرة على يسار الداخل من هذا الباب إلى المسجد الحرام ، قد كتب على هذا العمود أي السارية وهو من الحجر المرمر الرخام أن أحد ملوك المسلمين قد أبطل أخذ العشور من جميع البضائع ومن جميع أنواع الأطعمة من اللحوم والفواكه والثمرات والخضروات ، ومن جميع أنواع الحبوب الواردة إلى مكة المكرمة ، كتب ذلك نقراً على نفس حجر المرمر وقد نشرنا كل ذلك منذ أربع

سنوات في إحدى الجرائد بمكة المكرمة ، ولولا أني مريض في هذا الوقت لنقلت كل ما كتب على هذا العمود المرمر الرخام .

فحبذا لو أن جميع الحكومات الإسلامية اتفقت كلمتهم على إبطال المكوس وهي العشور والجمارك ، من جميع الممالك الإسلامية ، خصوصاً وقد فتح الله تعالى على كثير من الحكومات كنوز الأرض من ينابيع البترول ومختلف أنواع المعادن والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ذكر المكوس والعشور وإبطالها

جاء في تاريخ الغازي عن ذلك نقلاً عن خلاصة الكلام ما نصه : وفي أيام الشريف مكثر بن عيسى أمير مكة أبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر المكس المأخوذ من الحجاج في البحر عن طريق عيذاب وكان من لم يؤد بعيذاب يؤخذ منه بجدة وهو سبعة دنانير مصرية على كل إنسان وكان يأخذ ذلك أمير مكة وكان سبب إبطاله أن الشيخ علوان الأسدي الحلبي حج . فلما وصل إلى جدة طولب بذلك فأبى أن يسلم لهم شيئاً وأراد الرجوع فلاطفوه وبعثوا إلى صاحب مكة وكان الشريف مكثر بن عيسى فأمر بإطلاقه ومسامحته فلما طلع إلى مكة اجتمع به واعتذر إليه بأن دخول مكة لا يفي بمصالحنا وهذا الحامل لنا على هذا فكتب الشيخ علوان إلى السلطان صلاح الدين وذكر له حاجة أمير مكة وعرفه أن البلد ضعيفة وأنها ما تدخل ما يكفيه وأن ذلك هو الذي حمله على هذه البدعة الشنيعة فأنعم عليه مولانا السلطان صلاح الدين بثمانية آلاف إردب قمح وقيل بألفي دينار وألفي إردب قمح وأمره بترك هذه المظلمة جزاه الله خيراً ، انتهى .

وقال ابن فهد : ذكر الشيخ كمال الدين عمر بن العديم في تاريخه لحلب في ترجمة الشيخ أبي عبدالله علوان بن الأستاذ عبدالله ابن علوان الأسدي الحلبي أنه هو الذي أبطل المكس عن أهل مصر والمغاربة فإن العادة كانت جارية عندهم أنهم يخرجون إلى جدة ويأخذون على كل إنسان سبعة دنانير ويهينوهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء . فلما بلغه ذلك قال للملك الناصر : سيرني في مركب ومر صاحب المركب متى قلت له ارجع يفعل ذلك . فسير في مركب صغير فلما وصلوا إلى المرسى جاءهم إنسان أسود من مكة ومعه ميزان وطالبهم بذلك المعهود

من المكس. فقال: أدوا الحق فقال له علوان: ويلك وما الحق؟ فقال الحق على كل رأس سبعة دنانير فلطمه وقال: تسمون المظالم حقاً؟ وقال لصاحب المركب ارجع فعاد فاستغاثوا إليه على رسلك يعلم الأمير فوقف إلى أن طلعوا لصاحب مكة بأمره فقال أطلقوه وجميع من معه في المركب ففعلوا ذلك. فلما وصل مكة اجتمع به صاحب مكة واعتذر له وقال: نحن قوم ضعفاء وما لنا إلا هذه الجهة والملوك قد استولوا على البلاد لا يبرونا بشيء. فعند ذلك كتب الشيخ علوان إلى الملك الناصر يعني صلاح الدين بن أيوب فشفع فيهم وطلب لهم منه شيئاً فأقطعهم الإقطاع المعروف بهم بمصر وبطل ذلك المكس الذي يؤخذ من الحاج و لله الحمد انتهى.

وفي تاريخ العصامي: وفي سنة (٥٥٢) اثنين وخمسين وخمسمائة أسقط السلطان صلاح الدين المكس عن الحجاج إلى مكة على طريق عيذاب لأنه كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب الضرائب والمكس ومن دخل منهم ولم يفعل ذلك حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة ولو كان فقيراً لا يملك شيئاً. ثم ذكر ابن جبير شيئاً من أخبار هذا المكس فقال: إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية ونصف فإن عجز عن ذلك عوقب بأنواع العذاب الأليم من تعليقه بالخصيتين وغير ذلك وكانت هذه البلية في دولة العبيدين المتخلفين بمصر جعلوها معلوماً لأمير مكة فأزالها الله تعالى على يد السلطان صلاح الدين وعوض أمير مكة ما تقدم ذكره. انتهى.

وفي تحصيل المرام: وفي سنة (٧٥٧) سبع وخمسين وسبعمائة أسقط المكس المأخوذ بمكة من الحب والتمر والغنم والسمن وارتفع من مكة الجور والظلم وانتشر العدل كل ذلك بهمة السلطان حسن بن قلاوون صاحب مصر بتجهيزه العساكر إلى مكة وإصلاح أمرها من أشراف مكة حكاه الفاسي. وفي سنة ستين وسبعمائة رسم السلطان حسن بن قلاوون بإسقاط المكوس من مكة ورتب لصاحب مكة ثمانية وستين ألف درهم من بيت المال بمصر وألف إردب حب وقرر ذلك في ديوان السلطان المذكور وأمضى ذلك الولاة بالديار المصرية إلى تاريخه وكتب ذلك في أساطين المسجد الحرام جهة باب الصفا وغيره فطابت نفس أمير مكة المشرفة وعمل به هو ومن بعده من أمراء مكة. انتهى.

وفي المنتقى: وفي سنة (٧٦٦) ست وستين وسبعمائة رسم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر بإسقاط ما على الحجاج من المكوس بمكة في سائر ما يحمل إليها من المتاجر سوى الكارم وتجار الهند وتجار العراق وأسقط المكس المتعلق بالمأكولات وبلغنا أن المكس الذي كان يؤخذ من المأكولات بمكة مد حب جدي وهو مدان مكي من كل حمل حب يصل من جدة ومد مكي وربع من كل حمل حب يصل من جهة الطائف وبجيلة وثمانية دنانير مسعودية على كل حمل من التمر اللبان الذي يصل إلى مكة وثلاثة دنانير مسعودية على كل حمل تمر محشي يصل إلى مكة وستة دنانير مسعودية على كل شاة تصل إليها وسدس ثمن ما يباع بمكة من السمن والعسل والخضر وذلك أن يحصى ثمنها مسعودية فإذا عرف أخذ على كل خمسة دنانير دينار مسعودي ويؤخذ أيضاً دينار مسعودي من ثمن السلة التمر إذا بيعت بالسوق من النهار الذي باعها يتعيش فيها والمأخوذ على التمر أولاً من جالبه إلى مكة ويؤخذ بشيء مما يباع في السوق من غير ما ذكرناه وكان الناس يقاسون شدة بحيث بلغنا أن بعض الناس جلب شاة فلم تسوي المقدار المقدّر عليها فسمح بها في ذلك فلم تقبل منه فأزال الله جميع هذا الباطل على يد الأمير بلسفا المعروف بالخاسكي مدبر المملكة الشريفة في دولة الملك الأشرف المذكور بتنبيه بعض أهل الخير له على ذلك وعوض صاحب مكة عن ذلك ثمانية وستين ألف درهم من بيت المال المعمور بالقاهرة وألف إردب قمحاً وقرر ذلك في ديوان السلطان المذكور وأمضى ذلك الولاة بالديار المصرية إلى تاريخه وكتب خبر هذا الإسقاط في أساطين المسجد الحرام في جهة باب الصفا وغيره.

وفي درر الفرائد: وفي سنة (٧٦٩) سبعمائة وتسع وستين اتفق الحال مع الشريف عجلان صاحب مكة أن يرتب له من بيت المال في كل سنة مائة وستون ألف درهم نقرة تحمل إليه من مصر وألف إردب قمح ويترك الجبا من مكة في كل ما يوكل ويجلب إليها من الحبوب والخضروات والثمار والغنم والخشب والسمن والعسل وأشهد على نفسه بذلك وكتب ثلاث محاضير يجعل واحد بمكة وواحد بالمدينة وواحد بقلعة الجبل بالقاهرة وقيد ذلك في ديوان الأشرف شعبان وأمضى الولاة بعد ذلك إلى أن انقطع. انتهى.

وفي إتحاف الورى : وفي سنة (٨٠٤) أربع وثمانمائة في صفر حصل للسيد حسن بن عجلان خمسة وستون ألف مثقال وأزيد فيما قيل عن القاضي شهاب أحمد بن القاضي برهان الدين المحلي وجماعة من تجار الكام لأن المركب الذين كانوا فيه انصلح بقرب مكة فأعطوه هذا المقدار عوضاً عن الربع الذي يأخذه ولاة البلد فيما ينصلح في بلادهم من الجلاب واشتد غضب القاضي برهان الدين المحلي بسبب ذلك على السيد حسن وسعى في إرسال شخص من خواص السلطان بمصر يطالبه بذلك فوصل إليه في آخر رجب وبلغ رسالته فاعتذر بتفرق ذلك من يده ووعده بالخلاص وماطل فيه . انتهى .

وفي الإعلام : أن السلطان أبا الفتح سيف الدين خطر الظاهري قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهب تحمل له من خزينة مصر في كل عام وجعل ذلك في مقابلة ترك المكس على الخضرة والفواكه والحبوب وغيرها بمكة وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد الحرام من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا بإسقاط المكس الذي كان يؤخذ على الخضرة والفواكه من المأكولات وأن لا يكلف شريف مكة على أخذ القرض منهم والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة في المسجد الحرام إلى الآن . انتهى .

قال البتنوني في الرحلة الحجازية على بعض عمد الحرم كتابة محفورة فيها تدل على ما كان لبعض الملوك من العمارة في المسجد أو من الأعمال التي فيها نفع للمسلمين كإبطال المكوس ونحو ذلك ومن هذه الأعمدة بقرب باب الحزورة لا يزال منقوشاً عليه عهد كتبه الأشرف شعبان سلطان مصر بإبطال المكوس التي كانت تأخذها أشراف مكة على الحجيج وأغلب هذه العمد مطلي بالجبس لأن بعض أمراء مكة سامحهم الله كانوا إذا أرادوا نقض العهود المحفورة عليها عمدوا إلى تلك النقوش وكسوها بعجينة من الجبس فلا يظهر لها أثر . اهـ .

وفيه أيضاً : وفي أول ولاية السلطان قايتبائي أرسل إلى مكة مراسيم تتضمن بإبطال جميع المكوسات والمظالم وأن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام . انتهى .

وفي إتحاف الورى : وفي سنة (٨٢٨) ثمان وعشرين وثمانمائة بلغ صاحب مصر وصول مراكب من الهند إلى بندر جدة فأحب أخذ مكوسها فبعث بعض مسالمة القبط سعد الدين بن المرة فقدم مكة وصادف وصول أربعة عشر مركبا

موسوقة بضائع من الهند فأخذ منها العشر وهذا أول ما أخذ العشر لصاحب مصر بجدة وسبب وصول المراكب الهندية إلى جدة أنها كانت تأتي عدن وتنجل أمتعتها من عدن في الجلاب إلى جدة فكثر الظلم عليهم في عدن فتركوه وصاروا يعدون إلى بندر جدة فاستمر بندر جدة يعمر ويتلاشى أمر عدن إلى أن ضعف بسبب ذلك صاحب اليمن وقل مدخوله وضعف متحصله وكان المتحصل في هذه السنة من عشور بندر جدة ما ينوف عن سبعين ألف دينار ذهباً حملت إلى خزينة مصر . انتهى .

وفي تاريخ السنجاري : وفي سنة (٨٢٨) ثمانمائة وثمان وعشرين أحدث الأشرف برسبائي مظلمة العشور بجدة لما سمع بورود المراكب الهندية فبعث بعض مسالمة القبط وهو سعد الدين إبراهيم لذلك فقدم مكة وصحبته الأمير رأس نوبة أو نبفا وشاد الديوان شاهين العثماني إلى ساحل جدة فصادف وصول إبراهيم الناخودة من بلاد الهند في أربعة عشر مركباً موسقة بضائع من أصناف المتاجر فأخذ منها العشور فقط لأمر السلطان بذلك ووجد التجار راحة بجدة بخلاف ما كانوا يجدونه بعدن من المظالم فتركوا بندر عدن واتخذوا جدة بندراً ولم يزل جدة تتزاين في العمارة ويتلاشى أمر عدن وصار قطر جدة وظيفة سلطانية يخلع على متوليها ويتوجه إليها في كل سنة وإن وردوا المراكب إليها متول جديد ويأخذ ما على التجار من العشور ويحضر بها إلى القاهرة ، وبلغ ما حمل إلى الخزانة من ذلك زيادة على سبعين ألف دينار ذهب . قال القطب الحنفي : وزادت هذه مظلمة في زماننا حتى ما يؤخذ من الواردين ما يزيد على العشر بكثير قلت : قال السنجاري : وفي زماننا هذا زادت زيادات كثيرة وصار صاحب جدة يأخذ ما يريد ولا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم. انتهى ما في تاريخ السنجاري .

وقال ابن فهد بعد ذكر هذه الواقعة : فجاء الناس ما لا عهد لهم قبله فإن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة تفرق في أشرافها ومجاوريها فانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة ويلزم أشرافها بحمله ومع ذلك منع التجار أن يسيروا في الأرض يبتغون من فضل ا لله وكلفوا أن يأتوا إلى القاهرة حتى يؤخذ منهم المكوس على أموالهم فإن في هذه السنة في أيام الموسم منع التجار أن يتوجهوا من مكة إلى بلاد الشام بما ابتاعوه من أصناف تجارات الهند وألزموا أن يسيروا مع الركب إلى مصر حتى يؤخذ منهم

مكوس ما معهم فتوجهوا مع الحاج فلما نزل الحجاج بركة الحاج خارج القاهرة خرج مباشراً والخاص وأعوانهم واستقصوا تفتيش محاير القادمين من الحجاج والتجار وأحمالهم وأخرجوا سائر ما معهم من الهدية وأخذوا مكسها حتى أخذوا من المرأة الفقيرة مكس النطع الصغير عشرة دراهم فلوس . انتهى .

وفي درر الفرائد المنظمة : ومن الغرائب إجهار النداء في يوم عرفة بالموقف الأعظم لجميع الناس عامة من اشترى بضاعة للبحر وسافر بها إلى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان فسافر التجار القادمون من الأقطار مع الركب المصري ليؤخذ منهم مكوس بضائعهم بها ثم إذا سافروا من القاهرة إلى بلادهم يؤخذ منهم المكس بالشام أيضاً وغيرها فلا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم. انتهى . ذكر ابن فهد أنه كان ذلك في سنة ثلاثين وثمانمائة .

وفي سنة (٨٣٢) ثمانمائة واثنين وثلاثين في يوم الخميس تاسع ربيع الأول وصلت المراسم من الأشراف صاحب مصر بالألغام على الشريف بركان بن حسن بثلث ما يتحصل من عشور المراكب الهندية وأن الثلثان يحملان إلى الخزانة فحصل للشريف بذلك غاية السرور .

وفي سنة (٨٣٠) ثمانمائة وثلاثين كتب السلطان صاحب مصر بأن يؤخذ من التجار الشاميين والمصريين إذا وردوا جدة ببضائع اليمن عشران وأن من قدم إلى جدة من التجار اليمنيين ببضاعة يؤخذ ببضاعتة بأجمعها للسلطان من غير ثمن يدفع له عنها وسبب ذلك أن تجار الهند في هذه السنين صاروا عندما يعبرون من باب المندب يجوزون عن بندر عدن حتى يرسو بساحل جدة فأقفرت عدن عن التجار واتضع حال ملك اليمن لقلة متحصله وصارت جدة هي بندر التجار ويحصل لسلطان مصر من عشور التجار مال كبير وصار نظر جدة وظيفة سلطانية فإنه يؤخذ من التجار الواردين من الهند عشور بضائعهم ويؤخذ مع العشور رسوم تقررت للناظر والشاد وشهود القبان والصَيرفي ونحو ذلك من الأعوان وغيرهم وصار يحمل من قبل سلطان مصر مرجان ونحاس وغير ذلك مما يحمل من الأصناف إلى بلاد الهند فيطرح على التجار ويتشبه به في ذلك غير واحد من أهل الدولة فضاق التجار بذلك ذرعاً ونزل جماعة منهم في السنة الماضية إلى عدن فتنكر السلطان بمصر عليهم لما فاته من أخذ عشورهم وجعل عقوبتهم أن من اشترى بضاعة من عدن وجاء بها إلى جدة إن كان من الشاميين أو المصريين أن يضاعف

عليه العشر بعشرين وإن كان من أهل اليمن أن تؤخذ بضاعته بأسرها فمن لطف الله تعالى بعباده أنه لم يعمل بشيء من هذا الحادث لكن قرأت هذه المراسم تجاه الحجر الأسود فراجع السيد بركات أمير مكة السلطان صاحب مصر في ذلك حتى عفى عن التجار وأبطل ما رسم به ، كذا في إتحاف الورى .

وفي سنة (٨٤٠) ثمانمائة وأربعين وصل قاصد من مصر للسيد بركات ومعه كتاب من صاحب مصر مذكور فيه أنه أنعم عليه بنصف عشور جدة من المراكب الهندية .

وفي سنة (٨٤٣) ثمانمائة وثلاث وأربعين وصلت مراسيم تتضمن أن جميع الجلاب الواصلة من البحر إلى جدة من سائر البلاد ليس لصاحب مكة من عشرها إلا الربع والثلاثة الأرباع تحمل لصاحب مصر وأن جميع من مات بمكة من غير أهلها ليس لصاحب مكة من تركه شيء وكله لصاحب مصر وأن صاحب مكة ليس له إلا تركة من مات من أهل مكة وأن السيد بركات قد أعفاه السلطان من تقبيل خف الجمل الذي يأتي بالمحل وأن لا يأخذ من التجار الواردين غير العشر فقط ويؤخذ صنف المال من كل عشر وأن يبطل ما كان يأخذه غيره العشر من الرسوم ، كذا في تاريخ السنجاري .

وفي تاريخ ابن فهد : وفي سنة (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة وصل صحبة الحاج إلى مكة المشرفة مرسوم يتضمن إعفاء السيد بركات من تقبيل خف الجمل المحل فشكر هذا من فعل السلطان وأن لا يؤخذ من التجار الواردين في البحر إلى جدة سوى العشر فقط ويؤخذ صنف المال من كل عشرة واحد وأن يبطل ما كان يؤخذ سوى العشر من رسوم المباشرين ونحوهم وأن يمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة وجلسوا بالحوانيت في المسعى وحكروا المعاش وتلقوا الجلب من ذلك وأن يخرجوا من مكة فشكر ذلك أيضاً لأن هؤلاء البياعين كثر ضررهم وتقووا بحماية المماليك لهم فغلوا الأسعار وأحدثوا بمكة إحداثا لم يعهد لها وعجز الحكام عن منعهم لتقوية المماليك المجردين لهم بما يأخذونه منهم من المال .

وفي سنة (٨٨١) إحدى وثمانين وثمانمائة ثاني عشر ذي القعدة وصل إلى مكة المشرفة نائب جدة قراجا عتيق الدوادار الكبير جاني بك ومعه مراسيم للشريف محمد بن بركات وقاضي القضاة برهان الدين الشافعي وأخيه القاضي كمال الدين وباش الترك قايتباي فدخلوا جميعاً إلى المسجد الحرام وجلسوا بالحطيم فقرئ

مرسوم الشريف ثم برهان الدين ثم أخيه ثم باش الترك وتاريخ المراسيم رابع عشر شوال من السنة ومضمونهم واحد وهو أن الواصل إلى مكة من المرجان وغيره مما هو من بضائع الهند لا يترك شيء منه يذهب به إلى اليمن حتى لا تبقى المراكب الهندية تدخل اليمن والواصل من اليمن من بضائع الهند يكون بين السلطان وبين الشريف نصفين و لم تجر بذلك عادة قبل ذلك بل كان ذلك مما يختص بالشريف ومن مات بجدة ومكة و لم يكن له وارث يكون من أشرفي إلى ألف أشرفي للشريف وما فوق ذلك للسلطان ومن مات وله وارث غائب لم يختم على مال الميت القاضي على العادة بل ذلك إلى نائب جدة قراجا والفلفل الواصل إلى جدة من الهند يؤخذ منه للسلطان بسعر العام الماضي والذي قبله ولا يعارض نائب جدة في شيء مما يريده والتوصية عليه وأنه من المقربين . انتهى من الغازي .

نقول : وبمناسبة ذكر المكوس والعشور وإبطالها نذكر : أنه يوجد في أحد أعمدة المسجد الحرام الرخامية الواقع بين باب الباسطية وبين باب العمرة ، مكتوب على هذا العمود أن بعض الملوك والسلاطين أمر بإبطال المكوس والعشور في الحرمين الشريفين خصوصاً في مكة المشرفة فلا يؤخذ شيء على البضائع الواردة إليهما بكافة أنواعها من الأطعمة والأقمشة واللحوم والألبان والزروع والثمار والحيوانات والدواجن وغير ذلك ، وقد كتبنا مقالة في هذا الصدد في الجرائد والصحف المحلية بمكة المكرمة ، ونحن لم نتمكن من قراءة اسم الملك المكتوب على العمود الرخامي لطوله وارتفاعه عن الأرض فنظن أن ذلك كان من نحو خمسمائة سنة تقريباً فجزى الله تعالى ولاة المسلمين الأقدمين الذين كانوا يقيمون الشريعة وحدود الله وكانت سريرتهم بيضاء وقلوبهم خاشعة لذكر الله وعفا الله تعالى عن أهل زماننا وعاملنا بما هو أهله لا بما نحن أهله بفضله ورحمته آمين .

إحصاء الحجاج القادمين إلى مكة المشرفة في بعض الأعوام

قد يظن بعض الناس إذا سمع أنه كان مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع ألفاً أو أكثر كما تقدم تفصيله ، أنه عدد تقريبي حيث أن العرب ما كانوا يعدون الحجاج أو ما كانوا يعدون بعضهم عند اللزوم .

والحقيقة أن العرب كانوا يعرفون العد والحساب ، بل في صدر الإسلام عندما كان رسول الله ﷺ يدخل الحرب ويغزو القبائل ، كانوا يعرفون عدد جيوشهم

وجيوش أعدائهم وكم قتل أو جرح من الطرفين، وهذا شيء كان يعرف عندهم بالسليقة وطبيعة الأمر فلا يتوقف على التعليم أو الدرس لأن النفوس جبلت على معرفة ما لديها من مال أو نعم أو جيش . فلقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الوصايا في باب كتابة الإمام الناسي : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني كتبت في غزوة كذا وكذا وامرأتي حاجة ، قال : ارجع فحج مع امرأتك" فهذا دليل واضح أنهم يكتبون أسماء الجنود في الحرب والغزوات .

ولقد أمر رسول الله ﷺ بإحصاء المسلمين . فقد جاء في صحيح البخاري في الكتاب المذكور وفي الباب المذكور أيضاً : عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : " اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل ، فقلنا : نخاف ونحن ألف وخمسمائة ، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف " وفي رواية أبي حمزة عن الأعمش فوجدناهم خمسمائة ، قال أبو معاوية: ما بين ستمائة إلى سبعمائة .

وجاء في صحيح مسلم في كتاب الإيمان في باب جواز الاستمرار للخائف : عن حذيفة قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : احصوا لي كم يلفظ الإسلام ، قال : فقلنا : يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة ؟ قال : إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا قال : فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً .

قال في كتاب "مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار" عند هذا الحديث في آخر الشرح ما يأتي : فإن قلت ما وجه الجمع بين هذه الروايات قلت أجيب بأن المراد بقولهم خمسمائة: المقاتلون ، وبقولهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة الرجال خاصة ، وبقولهم ألف وخمسمائة النساء والصبيان والرجال، لكن هذا الجواب باطل لأنه قد جاء برواية البخاري في أواخر كتاب السير " فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل " فالجواب الصحيح والله تعالى أعلم أن يقال لعلهم أرادوا بقولهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة رجال المدينة خاصة ، وبقولهم فكتبنا له ألفاً وخمسمائة إياهم مع من حولهم من المسلمين . انتهى من الكتاب المذكور .

من المستحيل إحصاء الحجاج الذين يقفون بعرفات كل عام ، سواء كانوأ من داخل البلاد أو خارجها منذ ظهور الإسلام إلى اليوم ، لأن ولاة مكة المكرمة لم

يكن يهمهم ذلك لأمرين (الأول) عدم وجود جوازات السفر للمسافرين، (والثاني) عدم أخذ الرسوم من القادمين الحجاج، فلماذا يحصونهم ولماذا يكتبون أسماءهم في السجلات والدفاتر؟.

فلما تقدم الناس في وسائل المدنية ومرافق الحياة، تنبهوا لإحصاء الحجاج والقيام بخدماتهم اللازمة ومصالحهم العامة لقاء أجر معلوم، ونحن نذكر هنا عدد الحجاج الذين أمكن إحصاؤهم في بعض الأعوام من أوائل القرن الرابع عشر للهجرة. وقد ذكر المؤرخون: أنه في السنة الثالثة عشر من البعثة قبيل هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، وقف في حج هذه السنة من المشركين من الأوس والخزرج خمسمائة نفر، ثم انصرفوا إلى المدينة، ولم يكن الحج قد فرض على المسلمين، فإنه فرض في السنة الخامسة من الهجرة، لكن لا بد أنه وقف أيضاً من قريش نحو ألف نفر، والله تعالى أعلم.

وذكروا أيضاً: أن عدد من خرج مع النبي ﷺ، من المدينة من المسلمين في حجة الوداع تسعون ألفاً، ويقال مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويقال أكثر كما حكاه البيهقي، هذا ما ذكره صاحب تاريخ الخميس.

ولكن لا ندري هل ذكر المؤرخون عدد من وقف معه ﷺ بعرفات في حجة الوداع، أم لا؟ فإننا لم نبحث عن ذلك، ولا بد أنه قد تجمع من الطريق ومن مكة وأطرافها ومن الممالك الأخرى من المسلمين عدد غير قليل، ليحجوا ويقفوا بعرفات مع رسول الله، ﷺ. فتأمل كيف كان المسجد الحرام يسع هذا العدد الكبير، مع أنه كان صغيراً غير متسع في زمنه، ﷺ. ولا يبعد أنهم كانوا يأتون إليه زمراً زمراً، وفوجاً فوجاً، من المحل الذي نزلوا فيه مع رسول الله ﷺ بظاهر مكة وهو البطحاء جهة الحجون، بل ورد ذلك صريحاً في تاريخ الأزرقي عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، وجده، قال: رأيت رسول الله ﷺ، مضطرباً بالحجون في الفتح يأتي لكل صلاة. اهـ. أي يأتي المسجد الحرام لكل صلاة، ومعنى مضطرباً بالحجون أن النبي ﷺ لما أتى مكة، أبى أن ينزل في بيوتها، وإنما نزل بالحجون وضربت له الخباء هناك.

ثم تأمل وقارن بين عدد من وقف من المسلمين بعرفات في حجة الوداع، وعدد من يقف من المسلمين من جميع الأقطار في عصرنا الحاضر. ومن غرائب الأمور ما ذكره رفعت باشا في كتابه (مرآة الحرمين) في أول الجزء الثاني منه،

قال : إنهم لما وصلوا مكة في غرة ذي الحجة عام (١٣٢٠) ، ذهبوا لزيارة شريف مكة الشريف عون الرفيق ، فقال لهم : إني مسرور من قلة الحجاج في هذا العام مراعاة للحالة الصحية . اهـ . فكأنهم كانوا يحبون قلة الحجاج خوفاً من حدوث الأمراض ، أما في زماننا هذا ، فلا يوجد أحد بمكة إلا ويحب كثرة الحجاج ، وازدياد عددهم في كل سنة ، وسنذكر هنا إن شاء الله ، عدد الحجاج في زمن صاحب مرآة الحرمين .

وها نحن نذكر لك هنا عدد الحجاج الواردين إلى مكة من مختلف البلدان والأقطار ، ولنبدأ بعامي (١٣١٥) و (١٣١٦) نقلاً عن تاريخ الغازي المخطوط وهو نقلاً عن مجلة "المنار" التي كانت تصدر بالقاهرة بمصر . وإليك ما ذكره .

إحصاء الحجاج لعام ١٣١٥هـ

جاء في تاريخ الغازي ، في الجزء الثاني بصحيفة ٤٢٨ عند الكلام على إحصاء الحجاج لعام ١٣١٥ للهجرة ما نصه :

ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في مجلته ، أي "المنار" : بلغ عدد الحجاج الذين مروا من قناة السويس جائين من طريق بور سعيد والاسكندرية "٨٣٥٢" عثمانياً و(١١١٣) إيرانياً ، والذين جاؤا من طريق البصرة إلى السويس ومروا من القنال (١٩٠)، والذين لم يمروا منه "١٥٣" ، وبلغ عدد الحجاج من بوسنة وهرسك "٨٦" ومن مغاربة الجزائر "٢٧" ، وذلك لأن فرنسا أحصرت مسلمي بلادها منذ خمس سنوات ، ومن مغاربة الدولة العلية "١٤١" وبلغ عدد الروسيين الذين جاؤا عن طريق الاسكندرية "٢٠٩" ، وبلغ عدد المصريين "٤٥٤١" وزد على ذلك "٢٤٠" حاجاً من المغاربة والتكارنة والسودان سافروا من وابورات الشركة العثمانية مجاناً لأنهم فقراء ، ذكرت جريدة المؤيد بهذا الإحصاء بزيادة تفصيل ، وقال إنه أضبط إحصاء حصل للحجاج . بلغ عدد الحجاج الذين غادروا منى بعد التضحية مائتي ألف نفس .

إحصاء الحجاج لعام ١٣١٦هـ

وجاء فيه أيضاً لعام ١٣١٦ للهجرة ما نصه :

من طريق مصر بلغ عدد الحجاج الذين قصدوا الأقطار الحجازية عن طريق الاسكندرية لغاية ١٦ ذي القعدة "٧٦٠٢" ، والذين برحوا هذا الثغر في ذلك اليوم فقط : "٨٠١" منهم "٥٠٩" عثمانيون ، و"١٢٦" مصريون " ، و"٥٨" روسيون ، و"٤٠" فارسيون " ، و"٢٩" من اليزولوس ، " و"٣٦" من البوسنيين ، و"٣" من البرتغاليين . أما الذين سافروا من القاهرة فيبلغ عددهم إلى اليوم نحو الثلاثمائة حاج " المؤيد" . انتهى . انتهى نقلاً من تاريخ الغازي . هذا ما ورد في العامين المذكورين (١٣١٥) و (١٣١٦).

ثم اطلعنا على الجزء الثاني من كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ، رحمه الله تعالى ، فوجدنا أنه ذكر فيه عدد الحجاج الذين كانوا مع المحمل في عامي (١٣٢١) و (١٣٢٥) هجرية حينما ركبوا الباخرة من السويس فأحببنا نقله هنا ، وهذا نصه :

قال في صحيفة ٥٨ : " لتمام الساعة الخامسة بعد ظهر الاثنين ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٢١ هجرية ، ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ ، أقلعت باخرة الرحمانية من السويس قاصدة جدة وكان بها من الحجاج ٥٩٩ منهم ٢٤ في الدرجة الأولى وكلهم من موظفي المحمل عدا ثلاثة ، ومنهم ثلاثة وثلاثين في الدرجة الثانية من بينهم ٧ من موظفي المحمل ، ومنهم ٥٤٢ في الدرجة الثالثة من بينهم ٢٩٦ تبع موظفي المحمل والباقي من الأهالي ومن هؤلاء ٩١ من محافظة مصر و٤ من المنوفية و٤ من الجيزة و١٨من محافظة دمياط و٢ من محافظة السويس و١٤ من المنيا و٢١ من الغربية و٩٢ من القليوبية . أما باخرة مسير فإنها قامت من المرفأ في الساعة ١٢ والدقيقة ٣٥ ، وكان بها من الحجاج ٤٤٨ منهم ٢٤ في الدرجة الأولى من بينهم ٤ من موظفي المحمل وتابعيهم ومنهم ٩ في الدرجة الثانية بينهم ٤ من موظفي المحمل وباقي الراكبين في الدرجة الثالثة وعددهم ٤١٥ منهم ١٩ موظفون في المحمل والباقي ٢٥ من محافظة مصر و٥٨ من المنوفية و١٥٣ من الشرقية و٩٦ من الدقهلية و٤٤ من الغربية وعلى ذلك فجملة الحجاج (١٠٤٧) من بينهم ٣٥١ موظفون في المحمل أو تابعون لموظفيه . اهـ".

وقال في صحيفة (١٨٥) إن حجاج ركب المحمل في سنة (١٣٢٥) بلغوا "٢٤٠٠" انتهى كل ذلك من مرآة الحرمين .

هذا ما ذكره صاحب مرآة الحرمين عن عدد الحجاج الذين رافقوا ركب المحمل ولم يذكر عدد الحجالج الذين لم يرافقوا المحمل.

ثم رأينا أيضاً في الجزء الثاني من مرآة الحرمين أيضاً بصحيفة ٢٦٠ بياناً لعدد الحجاج لست سنوات، من سنة ١٩٠٣ ميلادية إلى سنة ١٩٠٨، المرافقين للمحمل وغير المرافقين. ونحن قد وضعنا السنة العربية بجانب السنة الإفرنجية زيادة في الإيضاح وهذا هو البيان:

السنة الهجرية	السنة الميلادية	جملة الحجاج المصريين	الحجاج الذين سافروا برفقة المحمل	الحجاج الذين سافروا بغير مرافقة المحمل
١٣٢١	١٩٠٣	-	٢٨	-
١٣٢٢	١٩٠٤	١٠٣١٩	٦٩٦	٩٦٢٣
١٣٢٣	١٩٠٥	١٤٣٦٦	١٦٠٥	١٢٧٦١
١٣٢٤	١٩٠٦	١١٦١٥	٨٤٧	١٠٧٦٨
١٣٢٥	١٩٠٧	١٨١٧٠	١٥٨٤	١٦٥٨٦
١٣٢٦	١٩٠٨	١٥٨٥٦	١٨٢٩	١٤٠٢٧

وتجد في هذا البيان أنه في سنة ١٣٢١ هـ، الموافق لسنة ١٩٠٣م لم يسافر أحد إلى الحج بغير مرافقة المحمل، وسبب ذلك: أن مجلس النظار المصري أصدر قراراً بمنع الحج لكل من يتوجه برفقة المحمل، وذلك خوفاً من عودة الوباء للقطر المصري – انتهى من مرآة الحرمين.

هذا، ولا يفوت القارئ النبيه، أن ابتداء السنة الهجرية لا تتفق مع ابتداء السنة الميلادية، فلا بد أن تسبق إحداهما الأخرى. ونحن في هذا البيان أضربنا عن ذكر الفرق الذي بينهما خوف التشويش.

ولقد وقف بعرفات عام ١٣٧٢ من الهجرة، خمسمائة ألف حاج أتوا: من طريق البحر (١١٨٢٠٠) شخص، ومن طريق الجو (١٦٩١٧.) شخصاً، ومن طريق البر ما عدا اليمن (١٠٠٣٢) شخصاً، ومن طريق البر من اليمن (١٦٠٠٠) شخص، والباقون وردوا من أطراف المملكة العربية السعودية حسبما ذكرته جريدة أم القرى بعد حج عام (١٣٧٢) هجرية.

وهنا نذكر إحصاء عاماً بعدد الحجاج الواردين من خارج المملكة العربية السعودية بشتى وسائل المواصلات سواء كان عن طريق البر والبحر والجو، ولا

نذكر من وقف بعرفات من أهل مملكتنا من جميع الجهات لأنه يتعذر إحصاؤهم. وهنا نذكر عدد الحجاج ابتداء من سنة (١٣٤٣) لغاية (١٣٧٣) هجرية نقلاً عن جريدة البلاد السعودية الصادرة بمكة في ٢٠ ذي الحجة سنة (١٣٧٢) وهو هذا:

السنة الهجرية	عدد الحجاج
١٣٤٣	١٠٠٠٠٠
١٣٤٤	١٥٠٠٠٠
١٣٤٥	١٩٠٦٦٢
١٣٤٦	٩٦٢١٢
١٣٤٧	٩٠٧٦٤
١٣٤٨	٨١٦٦٦
١٣٤٩	٣٨٠٤٥
١٣٥٠	٢٩٠٦٥
١٣٥١	٢٠١٨١
١٣٥٢	٢٥٢٩١
١٣٥٣	٣٣٨٩٨
١٣٥٤	٢٣٨٣٠
١٣٥٥	٤٩٥١٧
١٣٥٦	٦٧٢٢٤
١٣٥٧	٥٩٥٧٧
١٣٥٨	٣٢١٥٢
١٣٥٩	٩٠٢٤
١٣٦٠	٢٣٨٦٣
١٣٦١	٢٤٧٤٣
١٣٦٢	٦٢٥٩٠
١٣٦٣	٣٧٨٥٧
١٣٦٤	٣٧٦٣٠
١٣٦٥	٦١٣٨٦
١٣٦٦	٥٥٢٤٤
١٣٦٧	٧٥٦١٤
١٣٦٨	٩٥٠٣٣
١٣٦٩	١٠٧٦٥٢
١٣٧٠	١٠٠٥٧٨
١٣٧١	١٤٨٥١٥
١٣٧٢	١٤٩٨٤١

ولقد ذكرت مجلة الحج التي تصدر بمكة المشرفة في عدد شهر محرم عام ١٣٧٢هـ إحصاء عاماً مثل إحصاء جريدة البلاد السعودية، غير أن هناك فرقاً بسيطاً بينهما في تعداد الحجاج في بعض السنوات، وليس ذلك بمهم، حيث أننا في معرض التشويق والترغيب، لا في معرض التحقيق والتدقيق.

ونذكر هنا أيضاً إحصاء لأجناس الحجاج عن الثلاث السنين الأخيرة وهي ١٣٧٠ و ١٣٧١ و ١٣٧٢ هجرية نقلاً عن جريدة البلاد السعودية الصادرة أيضا في التاريخ المذكور آنفاً، وهو هذا:

أجناس الحجاج	عددهم في عام ١٣٧٠	عددهم في عام ١٣٧١	عددهم في عام ١٣٧٢
مصريون	٢٢٩١٦	٢٧٦١١	٢١٦٧٥
سوريون	٢٣٧٩	٥٦١٩	٣٥٧١
لبنانيون	٥٧٨	١٧٣٣	٨٧٦
فلسطينيون	١٣٠	٣٧٩	١١٩٥
عراقيون	١٨٥٨	٢٦٤٠	٢٨٠٤
مغاربة	٥٢٨٤	٧٨٦٨	٧٣٠٦
بخارية	٣٢٨	٩٥	١٦٧
إيرانيون	٦٩٥	٣٥٦٩	١٧٢٣
أتراك	٤٢٣	٩٦٢٣	١١٣٢٩
شرق الأردن	١٣٩	٩١٤	٤٨٨
يمنيون	١٨	١١٧٨٥	١٤٣٩٣
حضارمة	٧٨٧	٣٦٢٠	٣٦٩٢
عدنيون	١٢١	٤٠٩	٢٣١
يوغنده	١٤١	٧٥	١٧٥
تكارنة	١٧١٥	٧٣٧٧	٢١٥٣٧
شناقطة	٦٣	١٣٤	٢١٣
سودانيون	٥٥٣٥	٩٢٣٣	٦٣٩٤
سنغال	٥٧٠	٨٥٣	٨٤٩
صومال وأريتريا ومصوع	٦٦	٥٥١	٢٠٨
كبتون	١٠٠	٦٩	١٤٧
أثيوبيا ، أحباش	٣٢٠	٢٦٩	٥٢٨
زنجبار	٢٧٠	٣٣	٥٨
مقديشو	٧١	٦٢	٤١
صينيون	٦	٢٢	٥٨
نيجريا وليقوش	٤٤٣	١٠٥٥	١٠٦
ليبيون	–	–	٢٨٣
جيبوتي	–	٣٠	٢١

أجناس الحجاج	عددهم في عام ١٣٧٠	عددهم في عام ١٣٧١	عددهم في عام ١٣٧٢
أفغانيون	٦٤٩	١٦٣٤	٢٢٠٤
سواحل	–	–	٣٨
بورما	١٣	٢٢	٦٢
باكستانيون	٣١٣٣٩	١٨٣١٤	١٣٣٠٥
مسلمو الهند	١١٨٣١	١٠٢١٨	٨٨٦٥
سيلان	–	٥٣	٩٤
إندونيسيون	١٨٥٦	١٠٦٤٥	١٣٩٣٨
سيام	١٢٧٠	٦١٠١	١٣٧٦
ملايو	٥٧٦٧	٣٨٣١	٥٩٦٧
فليبينيون	٢٢٧٧	٦٦٧	٧٩٨
كويت	١٩٠	٨٠٨	١٦٧٥
بحرين	١١٥	٣٤٦	٦٩٥
مسقط	٣	١١٧	١٧٢
دبي	١١٦	٥٣	١١٩
موريس	–	–	١٥
الهند الصينية	٢١	–	١٤
الخليج الفارسي	١٤٠	–	٤٣
قطر	١٠	٢٠	٣٧٤
مسلمو أمريكا	–	١	١
تركستان الشرقية	–	–	١٨
ممباسا (الحبشة)	١٦	٤٠	–
مسلمو ألمانيا	١	–	–
تنجانيقا	–	١٦	–
كنديون	٢	–	–
مدغشقر	٤	–	–
المجموع	١٠٠٥٧٨	١٤٨٥١٥	١٤٩٨٤١

إحصاء الحجاج في سنة (١٣٧٣) هجرية

أجناس الحجاج	عدد الحجاج
مصر	٢٠٧٥٥
السودان	٦٠١٥
فلسطين	٢٧٣٦
تونس والجزائر	٤٢٠٣
تركيا	١١٧٠٨
الأردن	٤٣٦٣
الهند	٧٨٩٤
باكستان	١٩٣٥٢
ملايا	٥٦٥٨
إندونيسيا	١٠٢٣٤
إيران	٣٩٨١
العراق	١٤٢٥
الكويت	٣٣٦
حضر موت	١٩٨٣
سوريا	٧٦٤٨
أفريقيا	١٦٩٥١
اليمن	٢٧٨٦٦
لبنان	١٩٦٣
أفغانستان	١٧٧٧
كبتون	٧٢
زنجبار	١٢١
السنغال	١٢٦٩
مقديشو	٤٣
أفريقيا الغربية الفرنسية	٣٢٢
ليبيا	٦٤٠

أجناس الحجاج	عدد الحجاج
بخارى	١١١
الصومال	٢٤٥
أثيوبيا	٣٧١
كينيا	٣٨
أوغندا	٣٣٥
ممباسة	٣٦
قبرص	٤
الصين	١٤
جزيرة موريس	١٩
نيجريا	١٥
بورما	٤٠
سيلان	٦٣
سيام	٤٦٤
الهند الصينية	٢١
البحرين	١٣٣
دبي	١٣
الشارقة	١٩
الفلبين	٥
مدغشقر	٨
يوغسلافيا	٣
المجموع	١٦٤٠٧٢

إلى هنا قد ذكرنا إحصاء الحجاج بأجناسهم المختلفة مفصلاً، وسنذكر إن شاء الله تعالى فيما يأتي من السنين عددهم إجمالاً بدون تفصيل حتى لا يطول بنا الكلام:

السنة الهجرية	عدد الحجاج بالأرقام	عددهم بالأحرف
١٣٧٤	٢٣٢٩٧١	مائتان واثنان وثلاثون ألفاً وتسعمائة وواحد وسبعون
١٣٧٥	٢٢٠٧٢٢	مائتان وعشرون ألفاً وسبعمائة واثنان وعشرون
١٣٧٦	٢١٥٥٦٥	مائتان وخمسة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وستون
١٣٧٧	٢٠٩١٩٧	مائتان وتسعة آلاف ومائة وسبعة وتسعون
١٣٧٨	٥٥٧٨٠١	خمسمائة وسبعة وخمسون ألفاً وثمانمائة وواحد
١٣٧٩	٥٣٢٢٠٠	خمسمائة واثنان وثلاثون ألفاً ومائتان
١٣٨٠	٢٨٥٩٨٤	مائتان وخمسة وثمانون ألفاً وتسعمائة وأربعة وثمانون
١٣٨١	٢١٦٤٥٥	مائتان وستة عشر ألفاً وأربعمائة وخمسة وخمسون
١٣٨٢	١٩٧٠٣٩	مائة وسبعة وتسعون ألفاً وتسعة وثلاثون
١٣٨٣	٢٦٠٢٨٤	مائتان وستون ألفاً ومائتان وأربعة وثمانون
١٣٨٤	٢٨٣٣٣٩	مائتان وثلاثة وثمانون ألفاً وثلاثمائة وتسعة وثلاثون

هذا ما أمكن لنا إحصاء الحجاج إلى سنة طبع هذا الكتاب ما عدا من يحج من أهل البلاد، وبعد ذلك فليعلمهم من شاء فيما يأتي من الأعوام الآتية، ولا نظن القارئ يجد في غير هذا الكتاب إحصاء الحجاج بدقة تامة للأعوام السابقة.

أسباب قلة الحجاج وكثرتهم

إذا أمعنا النظر نجد أن عدد الحجاج في الجاهلية في عهد قريش، لا يتجاوز بضعة آلاف ممن يقف بعرفات ومزدلفة، بل ما كان الواقفون يزيد عددهم عن عشرة آلاف شخص بل أقل، وكلهم من كفار قريش من مكة، فإن أهل الجاهلية كانوا يحجون كل عام.

ثم لما أشرقت شمس الدين الإسلامي الحنيف، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، زاد عدد الواقفين بعرفات، وكان رسول الله ﷺ، يرسل من المدينة

المنورة بعض كبار أصحابه ليقيم للناس الحج ويعلمهم أحكامه ، فلما كان في حجة الوداع في السنة العاشرة خرج الناس مع رسول الله ﷺ يريد الحج معه ، فكان عدد الواقفين مع النبي عليه الصلاة والسلام ، بعرفات تسعين ألفاً ، وقيل : أكثر من ذلك إلى مائة وأربعين ألفاً ، كلهم من عرب الحجاز من مكة والمدينة وما حولهما ، لأن المدن والأقطار لم تفتح بعد ، فما فتحت إلا في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، وما زالت الفتوحات في عهدهم تتوالى وتكثر ، ويدخل من الممالك والأقطار في دين الإسلام إلى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، أي : إلى ما بعد سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية بقليل ، لأن جميع سلاطين الأتراك العثمانيين الذين كانت فيهم الخلافة ، كانوا يقاتلون الكفار الذين يجاورونهم ويغزون ملوك الإفرنج ، ولذلك كان يلقب كل سلطان منهم يخرج للغزو في سبيل الله "بالغازي" ، وأغلبهم كان يغزو عاماً ويحج عاماً ، فلما ذهبت الخلافة منهم في سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربعة وثلاثين هجرية ، وصار كل قطر ومملكة إسلامية مستقلاً بذاته وتفرقت كلمة المسلمين واختلفوا فيما بينهم ، لم يعد هناك غزو من المسلمين على بلاد الإفرنج وأوروبا ، وكل هذه التفرقة بين المسلمين كانت من سياستهم ومكرهم ، فإن الإفرنج وبلاد أوروبا جميعاً كانوا يشتغلون بأسباب تفرقة المسلمين منذ مئات السنين ، وما زالوا كذلك إلى اليوم ، وسيرد الله تعالى كيدهم في نحرهم بفضله ورحمته ، ومن أراد البحث في هذا الموضوع فعليه بكتاب "حاضر العالم الإسلامي" ففيه ما يشفي الغليل .

ومن بعد الفتوحات الإسلامية صار يأتي بالحج آلاف مؤلفة من كل فج عميق من كافة أقطار الأرض وجهاتها ، وصار يزداد عدد الحجاج في كل عصر وزمان بحسب تيسير وسائل السفر وأسبابه ، من أعداد المحطات في طريق الحج ، ومن الدواب من البغال والحمير والجمال ، ومن تعمير خزانات المياه ، وحفر الآبار وتجهيز الأطعمة اللازمة ، وتأمين طرقات الحج ووضع الحراسة الكافية فيها ، وكل هذا عن طريق البر في الأزمان الماضية ، وأما عن طريق البحر ، فيأتون بواسطة المراكب الشراعية التي تمشي بسبب الهواء والرياح ، وسواء كان طريق الحج من البر أو من البحر ، فقد كان السفر في غاية المشقة والتعب ، مع طول الطريق ، فلقد كان بعض الحجاج لا يصل من بلاده إلى مكة المشرفة بأقل من ثلاثة أشهر ، ومثل ذلك للعودة ، وأن بعضهم يصل إلى مكة في ستة أشهر ، وبعضهم أكثر من ذلك ،

ويحتاجون إلى مثل هذه المسافة في العودة، لذلك كان عدد الحجاج في العصور الماضية أقل بكثير من عصرنا الحاضر.

أما في وقتنا هذا فإن عدد الحجاج يكاد يكون بدون حساب، وذلك بسبب توفر وسائل الانتقال والسفر، فإن في عصرنا الحاضر قد اخترعت الطائرات العظيمة التي تحمل كل طائرة منها نحو مائة وخمسين شخصاً بجميع حوائجهم وأثقالهم، وهي تصل من أقصى الدنيا، من الهند والسند والصين وأمريكا وإيطاليا وفرنسا وإنكلترا، إلى جدة في نحو سبع ساعات أو ثمانية، وتصل من مصر والعراق والشام واليمن في نحو ساعتين أو ثلاثة، أي: يقوم الإنسان من بلاده في الصباح عند شروق الشمس بالطائرة، فيصل إلى مكة المكرمة قبل الظهر. كما اخترعت البواخر التي تحمل كل باخرة منها أكثر من ألفي شخص مع أثقالهم وحوائجهم، فتسير بهم في وسط البحور العميقة، فتصل من بلادهم إلى جدة في أيام قلائل. وكذلك اخترعت السيارات الكبيرة الثقيلة، فتحمل كل سيارة منها نحو خمسين راكباً بل أكثر، فتسير بهم في البراري والقفار، فتصل من العراق مثلاً في ثلاثة أيام إلى مكة المكرمة.

ومن هنا كان عدد الحجاج في وقتنا الحاضر كثيراً جداً، فلقد وصل إلى مكة في سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربعة وثمانين هجرية، نحو ثلاثمائة ألف حاج بالطائرات والسيارات والبواخر، وكلما ظهرت المخترعات العجيبة السريعة من وسائل النقل، ازداد عدد الحجاج على ممر السنين والأعوام، والله تعالى أعلم ماذا يحدث في مستقبل الأيام.

لقد كان عدد الحجاج كبيراً في السنة المذكورة أي سنة (١٣٨٤) هـ بحيث امتلأت بيوت مكة وشوارعها منهم ومن سياراتهم، ولقد كانوا يبيتون أيام الحج بمنى في خارجها من الجهتين، أي من جهة مكة بعد جمرة العقبة بمسافة بعيدة، ومن جهة مزدلفة بعد حد منى بمسافة أيضاً، ولا يخفى أن هاتين الجهتين لا يجوز المبيت فيهما أيام الحج، فإنه لا بد من المبيت ليلاً في نفس مِنى. والله تعالى أعلم ماذا يحدث في مستقبل الأيام إذا كثر الحجيج بسبب اختراع أحدث وسائل النقل السريعة المدهشة، ولا يبعد أن تفكر الحكومة في بناء طبقة متسعة فوق أرض منى ليشغلها قسم من الحجاج. والله تعالى هو المدبر لأمور خلقه في السموات والأرض.

لقد ذكرنا عدد الحجاج فيما تقدم في السنة المذكورة، وإذا حسبناهم مع من حج من أهل المملكة العربية السعودية فيكون عدد من وقف في السنة المذكورة بعرفات هو مليون شخص.

وإن العاقل المفكر إذا رأى هذا العدد الهائل للحجاج الكرام، ليندهش وتأخذه الحيرة، إذا فكر في أكلهم وشربهم وراحتهم، ويقول في نفسه كيف يكفيهم الأكل والشرب في بلدة صغيرة كمكة شرفها الله تعالى، وأدام أمنها وأمانها وخيرها ورخاءها، ولكنه إذا نظر إلى قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها﴾، إذا نظر المؤمن العاقل في هذه الآية الكريمة آمن بمضمونها وسلم الأمر إلى الله عز وجل. فمكة بلده الأمين، وفيها بيته الحرام المطهر، والعباد عباده أتوا من كل فج عميق لزيارة بيته الحرام، فهم إذاً ضيوف الله تعالى، والله عز وجل هو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، لا بد أن يضيفهم ويكرمهم ويقبلهم ويغفر لهم ذنوبهم، حتى يرجعوا إلى بلادهم وهم مطهرون على أحسن حال، إنه بعباده لطيف خبير.

نعم لو ذهب هذا العدد الهائل إلى أكبر بلدة لما كفاهم الخبز والماء، فوجود هذه النعم والخيرات في مكة المشرفة وهي واد غير ذي زرع، أمر خارق للعادة، إنه دعوة أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم كما جاء في الآية الكريمة ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾. فالحمد لله رب العالمين.

هذا ولقد سمعنا أنه في سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية، وصل إلى الحديدة من أطراف اليمن نحو خمسة آلاف شخص يريدون الحج وانتظروا فيها خمسة أيام لورود باخرة تحملهم إلى جدة، ففي هذه الأيام الخمسة انعدم الخبز من أسواق الحديدة، حتى أنهم ما كانوا يجدون الخبز إلا بصعوبة، فكيف لو انكب عليهم هذا الحجيج الأعظم ولمدة طويلة.

فالأسباب الأساسية لكثرة الحجاج ثلاثة: (الأول) كثرة وسائل النقل الحديثة، و(الثاني) الأمن والأمان في طرقات الحج من جميع الجهات، و(الثالث) كثرة توفر الزاد والأغذية في الحرمين الشريفين.

هذه هي الأسباب الأساسية لورود الحجاج بكثرة وافرة ، وكلها متوفرة عندنا في وقتنا هذا و لله الحمد . فالحمد لله الذي خص بلده الأمين بأمور كثيرة خارقة ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

إقامة المظلات والقهاوي في طريق الحج

ومن حسنات حكومتنا الموفقة عمل المظلات العامة في طريق الحج ، فيما بين منى وعرفات ليستظل تحتها مشاة الحجاج وضعفائهم ، أما ما بين مكة ومنى فلا يحتاج لإقامة المظلات لأن دور مكة وبيوتها كادت أن تصل إلى منى ، وعند هذه المظلات الماء والثلج مسبل لوجه الله تعالى ، يشرب الحجاج الماء المثلج في هذه الصحراء ويستريحون ، ثم يستأنفون السير صوب وجهتهم .

هذا غير ما يوجد في الطريق من القهاوي العديدة المتخذة من العشاش والخيام ، فيها الأكل والشرب والقهوة والشاي والمثلجات والفواكه ، كل هذا موجود في طريق الحج ، من عرفات إلى مكة ، ومنها إلى جدة ، ومنها إلى المدينة المنورة مثوى رسول الله ﷺ .

فوجود هذه الاستراحات لا شك أنها عمل إنساني جليل ، وبالأخص وجودها في وقت الحج في أطراف هذه الصحراوات الواسعة ومرور آلاف الحجاج في الطريق.

جاء في كتاب التراتيب الإدارية ، في آخر الجزء الأول ما يأتي : وفي طبقات ابن سعد أن عمر ، رضي الله تعالى عنه ، استأذنه أهل الطريق يبنون ما بين مكة والمدينة ، فأذن لهم وقال : ابن السبيل أحق بالماء والظل . اهـ . ص٢٢٠ ج ٣ . انتهى من الكتاب المذكور .

فرضي الله عن عمر ورضي عن جميع الصحابة الذين جعلوا لكل مسألة أساساً ولكل مبحث مسلكاً ، حتى نهتدي بهديهم ونسير على سننهم ، فلو مشينا على طريقتهم لم تتشعَّب بنا الأهواء ، و لم نركن إلى زخارف الدنيا ، لكان لنا اليوم شأن غير هذا الشأن . نسأل الله الرضا والتوفيق ، والسلامة من الفتن ما ظهر وما بطن .

سيول مكة العظيمة

إن مكة ، شرفها الله تعالى ، واقعة في واد تحف به الجبال من كل جانب ، فإذا نزلت الأمطار عليها بشدة نزلت المياه من جميع الجبال ومن المرتفعات وغيرها إلى المواضع المنخفضة بمكة فتجمعت في أزقتها وشوارعها ، ونزلت مع المياه من الجبال والأماكن الحجارات والأتربة ، وإذا زادت الأمطار في ضواحيها جاءت السيول من أعاليها من جهة منى إلى داخل مكة ، وجرفت معها ما كان في طريقها ، فتدخل المسجد الحرام ، فتحدث به أضراراً كثيرة ، كما تحدث أضراراً في بيوت مكة القديمة .

لذلك كانوا يعملون سدوداً من قديم الزمان ، كسد عمر رضي الله عنه ، وما عمله من الردم عند المدعا حيث كانت الكعبة ترى من هذا الموضع لعلوه ، وذلك صوناً للمسجد الحرام من دخول السيل ، فتحول مجرى السيل بسبب ذلك إلى وادي إبراهيم ، بعد أن كان السيل ينحدر من المدعا إلى المسعى من ناحية المروة ، وكان ذلك سنة (١٧) سبع عشرة من الهجرة ، بعد انتهائه من وضع مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في موضعه ، وبعد انتهائه أيضاً من عمارة المسجد الحرام والزيادة فيه . ولقد كان سد عمر ، رضي الله عنه ، سداً عظيماً محكماً ، بناه بالضفائر والصخور العظام وكبسه بالتراب ، فلم يعله سيل بعد ذلك مدة مائتي سنة تقريباً ، ويسمى هذا الردم ردم "بني جمح" ، وسمي بذلك ربما لأن منازل بني جمح كانت بهذا الموضع ، وهذا الردم هو أول سد عمل بمكة المكرمة . قال الإمام الأزرقي في تاريخه : وكل واد في الحرم فهو يسيل في الحد ، ولا يسيل من الحل في الحرم إلا من موضع واحد عند التنعيم عند بيوت غفار . انتهى .

وذكر السيول التي جاءت إلى مكة من عهد الجاهلية إلى اليوم بالتفصيل مما يطول شرحه ، ولكن نذكرها هنا باختصار مع بيان السنين ، ملخصاً من تاريخ الأزرقي وملحقاته ، ومرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا رحمهما الله تعالى . وإليك بيان ذلك في هذا الجدول :

جدول سيول مكة

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
١	سيل	في الجاهلية	جاء في زمن جرهم حينما كانوا ولاة البيت فهدم الكعبة فبنتها جرهم.
٢	سيل فارة	في الجاهلية	ذكر الأزرقي أن هذا السيل كان زمن خزاعة ، وفارة اسم امرأة ماتت في هذا السيل فسمي باسمها.
٣	سيل آخر	في الجاهلية	ذكر الأزرقي في أن هذا السيل كسا ما بين الجبلين .
٤	سيل أم نهشل	١٧ من الهجرة	جاء في خلافة عمر رضي الله عنه فاقتلع مقام إبراهيم عن موضعه ، وأم نهشل اسم امرأة ماتت فيه فسمي باسمها.
٥	سيل الجحاف	٨٠ من الهجرة	جاء في خلافة عبدالملك بن مروان ، كان سيلاً عظيماً جاء دفعة واحدة فجر يوم التروية والحجاج آمنون فذهب بأمتعتهم ، وكان يحمل الجمال وعليها الأحمال فدخل المسجد الحرام وهدم الدور على الناس فقتلهم ورقى الناس الجبال واعتصموا بها.
٦	سيل	٨٨ من الهجرة	جاء على إثر دعاء عمر بن عبدالعزيز ودعاء من معه حينما وصل إلى التنعيم.
٧	سيل	١٢٠ من الهجرة	جاء في ولاية هشام بن عبدالملك .
٨	سيل المخبل	٨٤ من الهجرة	سمي بذلك لأنه أصاب الناس منه شبه الخبل كما أصابهم المرض في

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			جسادهم وألسنتهم ، وكذلك حصل سيل آخر في هذه السنة ، قيل كان سيل المخبل عام ١٠٤ والله أعلم .
٩	سيل ابن حنظلة	٢٠٢ من الهجرة	سمي بذلك نسبة إلى أمير مكة يومئذ يزيد بن محمد بن حنظلة ، وذلك في خلافة المأمون وهدم الدور وذهب بناس كثير ، وأصاب الناس بعده مرض شديد.
١٠	سيل	٢٠٨ من الهجرة	جاء في خلافة المأمون أيضاً والناس غافلون وهذا أعظم من سيل ابن حنظلة فامتلأ المسجد الحرام بالطين والبطحاء فكان أهل مكة ومن فيها من الحجاج يخرجون ذلك بأيديهم حتى كانت النساء والعواتق يخرجن التراب التماس الأجر والبركة .
١١	سيل	٢٢٥ من الهجرة	وبسبب هذا السيل كثر ماء زمزم بعد أن كانت قليلة .
١٢	سيل	٢٤٠ من الهجرة	وهذا السيل هدم كثيراً من المنازل وخرب مسجد الخيف بمنى .
١٣	سيل	٢٥٣ من الهجرة	دخل هذا السيل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة وهدم دوراً كثيرة .
١٤	سيل	٢٧٩ من الهجرة	وجاء سيل آخر في السنة التي بعدها
١٥	سيل	٢٨٠ من الهجرة	أيضاً ٢٨٠ وكان سيلاً عظيماً فكثر ماء زمزم وارتفع حتى قارب رأسها ، فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا نحو سبعة أذرع وعذبت ماؤها حتى كان أعذب مياه مكة .

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
١٦	سيل	٢٦٢ من الهجرة	بسبب هذا السيل ذهب بحصباء المسجد الحرام كلها.
١٧	سيل	٢٩٧ من الهجرة	كان سيلاً عظيماً حتى بلغ باب الكعبة وحتى فاضت بئر زمزم .
١٨	سيل	٣٤٩ من الهجرة	قال في مرآة الحرمين : لما برز الحج قافلاً جاءهم سيل فأخذهم عن آخرهم وألقى بهم في البحر وما أتى مصر منهم أحد ، نسأل الله السلامة والعافية .
١٩	سيل	٤١٧ من الهجرة	هذا السيل لما دخل المسجد الحرام وصل إلى خزائن الكتب فأتلف كثيراً منها.
٢٠	سيل	٤٨٩ من الهجرة	جاء بقرب وادي نخلة فذهب بكثير من الأنفس والأموال.
٢١	سيل	٥٢٨ من الهجرة	تضرر كثير من الناس بمكة بسبب هذا السيل والمطر .
٢٢	سيل	٥٤٩ من الهجرة	أسال وادي ، ونزل من المطر برد بقدر البيض .
٢٣	سيل	٥٦٩ من الهجرة	كان سيلاً كبيراً دخل المسجد الحرام من باب بني شيبة.
٢٤	سيل	٥٧٠ من الهجرة	كثرت الأمطار والسيول هذا العام حتى سال وادي إبراهيم خمس مرات .
٢٥	سيل	٥٩٣ من الهجرة	قيل جاء هذا السيل عام "٥٩٣" ، كان سيلاً عظيماً حتى دخل الكعبة فبلغ قريباً من الذراع ووصل الماء إلى فوق القناديل التي في وسط المسجد

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			وطاف بعضهم سباحة وهدم دوراً كثيرة .
٢٦	سيل	٦٢٠ من الهجرة	كان سيلاً كبيراً دخل الكعبة ومات منه جماعة وبعضهم وقعت عليه الدور .
٢٧	سيل	٦٥١ من الهجرة	لم يذكر عنه المؤرخون تفاصيل وافية.
٢٨	سيل	٦٦٩ من الهجرة	كان سيلاً كبيراً عظيماً لم يسمع بمثله ، دخل المسجد الحرام كالبحر .
٢٩	سيل	٦٨٧ من الهجرة	جاء في حسن المحاضرة أنه في رابع عشر ذي القعدة في السنة المذكورة جاء سيل عظيم بحيث دخل المسجد الحرام ودخل الكعبة المشرفة وهدم جملة من أساطين المسجد الحرام ووجد في المسجد من الغرقاء سبعون إنساناً وخارج المسجد خمسمائة نفس ، فكان ارتفاع السيل في المسجد سبعة أذرع وثلث ذراع ، ومكث الماء في المسجد من يوم الأربعاء إلى يوم السبت ولم تصل الجمعة فيه ، وقد أخرب كثيراً من بيوت مكة ، قالوا: ولم يعهد مثل هذا السيل لا في الجاهلية ولا في الإسلام .
٣٠	سيل	٧٣٠ من الهجرة	جاء هذا السيل من غير مطر وملأ المسجد الحرام وأقام الماء فيه يومين .
٣١	سيل	٧٣٢ من الهجرة	في أواخر ذي الحجة وقعت أمطار

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			وسيول وصواعق قتل بها خمسة من الرجال .
٣٢	سيل	٧٣٨ من الهجرة	جاءت أمطار كأفواه القرب وسيل وغيم ورعود مزعجة وبروق مخيفة .
٣٣	سيل	٧٥٠ من الهجرة	نزل مطر وصاعقة وريح سوداء أوقعت جميع أعمدة المطاف المتجددة .
٣٤	سيل	٧٧١ من الهجرة	هذا السّيل دخل المسجد الحرام ووصل إلى قفل باب الكعبة وقد نزل مع المطر برد كبير وهدم نحو ألف بيت وقتل نحو ألف نسمة. وحمل قافلة بأربعين جملاً.
٣٥	سيل	٨٠٢ من الهجرة	كان سيلاً عظيماً دخل المسجد الحرام فوصل إلى باب الكعبة بل علا عتبتها بقدر ذراع وخرب عمودين في المسجد وخرب دوراً كثيرة سقط بعضها على سكانها ، ومات بسبب ذلك نحو ستين نفراً .
٣٦	سيل	٨١٤ من الهجرة	جاء هذا السيل وقت الظهيرة فهدم سدود العين .
٣٧	سيل	٨٢٥ من الهجرة	جاء عقيب صلاة الصبح ودخل المسجد الحرام فوصل إلى باب الكعبة وهدم دوراً كثيرة وخرب سور المعلاة.
٣٨	سيل	٨٢٧ من الهجرة	جاء هذا السيل بعد الغروب عقب مطر غزير ودخل المسجد الحرام وقارب الحجر الأسود .

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
٣٩	سيل	٨٣٧ من الهجرة	دخل المسجد الحرام فوصل إلى محاذاة باب الكعبة وخرب نحو ألف دار .
٤٠	سيل القناديل	٨٣٨ من الهجرة	كان سيلاً عظيماً دخل المسجد الحرام وكسر باب زمزم وخرب ما يقرب من ثمانمائة دار .
٤١	سيل	٨٦٥ من الهجرة	دخل المسجد الحرام وبلغ الماء نحو نصف ذراع من عتبة الكعبة وعلا على خرزة زمزم مقدار ذراع .
٤٢	سيل	٨٦٧ من الهجرة	وقع مطر غزير عقبه سيل دخل المسجد الحرام من جميع أبوابه الشرقية واليمانية وعلا الماء على عتبة الكعبة ذراعاً ونصف.
٤٣	سيل	٨٧١ من الهجرة	دخل المسجد الحرام ودخل الكعبة وزمزم وخرب دوراً كثيرة .
٤٤	سيل	٨٨٠ من الهجرة	هذا السيل كان من أعظم السيول التي وقعت في الجاهلية والإسلام وكانت الخسائر كبيرة في النفس والنفيس وقد مات بسببه في المسجد الحرام فقط مائة وثمانون نسمة ، وقد انفرد أيوب صبري باشا صاحب مرآة الحرمين بذكر هذا السيل نقلاً عن السمهودي (ج١ ، ص٦٨٢).
٤٥	سيل	٨٨٣ من الهجرة	في الخامس عشر وفي الثالث والعشرين من رمضان من السنة المذكورة جاء سيلان بعد المطر.
٤٦	سيل	٨٨٧ من الهجرة	وقعت أمطار شديدة في رابع ذي القعدة فجاء هذا السيل فمات به

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			خلائق لا تحصى وتهدمت دور كثيرة .
٤٧	سيل	٨٨٨ من الهجرة	مات في هذا السيل مائة نسمة.
٤٨	سيل	٨٨٩ من الهجرة	حصلت بسبب هذا السيل خسائر كبيرة.
٤٩	سيل	٨٩٥ من الهجرة	دخل المسجد الحرام ووصل إلى نحو الحجر الأسود ووقعت دور كثيرة.
٥٠	سيل	٨٩٧ من الهجرة	هذا السيل دخل المسجد الحرام بعد مطر شديد.
٥١	سيل	٩٠٠ من الهجرة	كان سيلاً كبيراً حتى وصل إلى باب الكعبة المشرفة وتهدمت دور كثيرة .
٥٢	سيل	٩٠١ من الهجرة	وقع مطر شديد جاء على إثره هذا السيل فدخل المسجد الحرام ووصل إلى ما بين قفل الكعبة والحلق وغرقت قناديل المطاف .
٥٣	سيل	٩٢٠ من الهجرة	دخل المسجد الحرام وعلا باب الكعبة نحو ذراع وملأ قناديل المطاف وزمزم .
٥٤	سيل	٩٣١ من الهجرة	جاء بعد مطر ونزل فيه برد كبير الحجم فوق العمرة في طريق الوادي فتكدس حتى صار أكواماً وكان الجمالون يجلبون للبيع في مكة مدة أسبوعين لما انتهى .
٥٥	سيل	٩٧١ من الهجرة	بلغ هذا السيل إلى قفل باب الكعبة وبقي يوماً وليلة .
٥٦	سيل	٩٨٣ من الهجرة	بلغ إلى ما يحاذي قفل باب الكعبة.
٥٧	سيل	٩٨٤ من الهجرة	دخل المسجد الحرام وعلا باب

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			الكعبة ثم انحدر عنها وانساب إلى أسفل مكة .
٥٨	سيل	٩٨٩ من الهجرة	نزلت أمطار غزيرة والحجاج بمنى فانحدرت السيول من كل جانب وذهب بكثير من الأمتعة .
٥٩	سيل	١٠٠٩ من الهجرة	وقع مطر كثير يرافقه سيل عظيم.
٦٠	سيل	١٠١٩ من الهجرة	جاء هذا السيل عقب مطر قوي فدخل المسجد الحرام.
٦١	سيل	١٠٢١ من الهجرة	أشار إلى هذا السيل إبراهيم رفعت باشا صاحبة مرآة الحرمين و لم يذكر تفاصيله.
٦٢	سيل	١٠٢٣ من الهجرة	هذا السيل جاء عقب مطر ونزل معه برد كبار .
٦٣	سيل	١٠٢٤ من الهجرة	تهدمت بعض البيوت في هذا السيل.
٦٤	سيل	١٠٣٣ من الهجرة	وقع في السابع من جمادى الثانية وبلغ الحجر الأسود .
٦٥	سيل	١٠٣٩ من الهجرة	وقع مطر غزير بمكة وضواحيها لم يسبق له مثيل فجاء هذا السيل فدخل المسجد الحرام ودخل الكعبة وبلغ الماء إلى القناديل المعلقة حول المطاف ومات في هذا السيل نحو ألف نسمة ، وبسببه هدمت الكعبة المشرفة عصر اليوم التالي فبناها السلطان مراد الرابع رحمه الله تعالى كما هو مفصل في التاريخ .
٦٦	سيل	١٠٥٣ من الهجرة	وقع هذا السيل بعرفة والحجاج وقوف هنالك فاستمر الناس وقوفا

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			إلى آخر الليل حيث خف السيل فقطعوه بالمشقة.
٦٧	سيل	١٠٥٥ من الهجرة	دخل المسجد الحرام حتى علا عتبة الكعبة بذراع كما علا بئر زمزم بنحو قامة . وصار المسجد كالبحر الزاخر و لم يحدث ضرر في الأنفس .
٦٨	سيل	١٠٧٣ من الهجرة	هجم السيل على المسجد الحرام فبلغ الماء أعلا من قفل باب الكعبة بذراع .
٦٩	سيل	١٠٨١ من الهجرة	دخل المسجد الحرام وبلغ الماء باب الكعبة.
٧٠	سيل	١٠٩٠ من الهجرة	ذكره أيوب صبري وحصلت بسببه خسارة في الأمتعة.
٧١	سيل	١٠٩١ من الهجرة	دخل المسجد الحرام وبلغ الماء نصف الكعبة ، ومن غريب الاتفاق أن السيل حمل جملاً بحمله ودخل به المسجد الحرام ، فلم يزل السيل يدفعه حتى رقى على منبر الخطيب بعد أن انقطع حمله و لم يزل به إلى صباح اليوم التالي. ومما هو جدير بالذكر أنه كان جهة المعلا شجرة جوز كبيرة تقوم على جوانبها مقاه ، فلما جاء السيل كان في تلك المقاهي نحو مائة وخمسين رجلاً فتسلقوا الشجرة خوف الغرق ، ولكن السيل كان قوياً فاقتلع الشجرة بمن عليها فجرفهم حتى باب الصفا ، وجرف

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			السيل أيضاً نحو خمسة آلاف حيوان .
٧٢	سيل	١١٠٨ من الهجرة	أمطرت السماء مطراً غزيراً كأفواه القرب فبلغت المياه إلى قرب باب الكعبة .
٧٣	سيل	١١٥٣ من الهجرة	كان سيلاً كبيراً وصل إلى نحو باب الكعبة .
٧٤	سيل	١١٥٩ من الهجرة	جاء هذا السيل بعد مطر شديد أيام منى والحجاج فيها ، وكان ذلك آخر الليل وأظلمت الدنيا حتى لم يعد يرى الإنسان ما بجانبه .
٧٥	سيل أبو قرنين	١٢٠٨ من الهجرة	دخل المسجد الحرام وبلغ قفل باب الكعبة.
٧٦	سيل	١٢٤٢ من الهجرة	خرب بسبب هذا السيل دبول عين زبيدة .
٧٧	سيل	١٢٧٨ من الهجرة	هجم هذا السيل ودخل المسجد الحرام دفعة واحدة قبل صلاة الصبح ، فوصل الماء إلى قناديل الحرم وطفحت بئر زمزم وتعطلت الجماعة خمسة أوقات وقد غرق فيه جماعة خارج المسجد وداخله .
٧٨	سيل	١٢٩٣ من الهجرة	جاء هذا السيل على إثر مطر وكان أقل شأناً من سابقه.
٧٩	سيل	١٣٢٥ من الهجرة	في ٢١ ذي الحجة من السنة المذكورة نزل مطر شديد فجرى السيل من كل جهات مكة بشكل لم يسبق له مثيل وكان أشبه بماء النيل

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			المنحدر ، ودخل المسجد الحرام من أبوابه ، وانقطع المرور من الطرق إلا بالسباحة ، وكانت رحال الإبل والشقادف سابحة في الماء .
٨٠	سيل الخديوي	١٣٢٧ من الهجرة	نسبته إلى خديوي مصر (أي حاكمها) وهو عباس حلمي باشا الثاني ، الذي حج في السنة المذكورة ، جاء هذا السيل في الثالث والعشرين من ذي الحجة فدخل المسجد الحرم وملأه بالتراب والماء نحو قامتين وسد دبول عين زبيدة بالأتربة حتى انقطع الماء عن مكة . ولم ير خديوي مصر عباس حلمى باشا المذكور هذا السيل حيث إنه بعد أن حج خرج من مكة يوم ١٤ ذي الحجة قاصداً المدينة المنورة.
٨١	سيل	١٣٢٨ من الهجرة	جاء هذا السيل من طرف وادي نعمان بقوة حتى دخل مكة.
٨٢	سيل	١٣٣٠ من الهجرة	جاء هذا السيل أيضاً من وادي نعمان.
٨٣	سيل	١٣٣٥ من الهجرة	في هذه السنة دخل إلى مكة سيلان في محرم وفي شعبان .
٨٤	سيل	١٣٤٤ من الهجرة	جاء هذا السيل أيضاً من وادي نعمان.
٨٥	سيل	١٣٥٠ من الهجرة	هطلت الأمطار بمكة كأفواه القرب واستمر نزولها ثلاث ساعات ونصف ، فسال على إثره وادي

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			إبراهيم بسيل عظيم ، ودخل المسجد الحرام وبلغ ارتفاع الماء في صحن المطاف ما يقرب من متر ونصف ، وقد أحدث المطر والسيل أضراراً جمة في الأموال والبيوت .
٨٦	سيل الربوع	١٣٦٠ من الهجرة	بدأ نزول المطر في شهر ربيع الأول ألف وثلاثمائة وستين هجرية ، من الصباح حتى بعد العصر فكان مطراً غزيراً قوياً جاء السيل على إثره فدخل المسجد الحرام ووصل إلى باب الكعبة وتعذر الصلاة فيه والطواف بالكعبة لأن المسجد الحرام امتلأ بالماء حتى صار كالبحر الزاخر وامتلأ المسجد بالأتربة كما امتلأت الشوارع بها أيضاً . وقد ذهب هذا السيل بأمتعة كثيرة مما كان في الدكاكين وسوق الحراج وخربت قبور المعلا وتهدمت المنازل القديمة وقد كان مؤلف هذا الكتاب ، محمد طاهر الكردي الخطاط ، أحسن الله تعالى إليه وغفر له ، بمكة حيث انتقلت وظيفته من جدة إليها في أول السنة المذكورة ، فشاهد المطر والسيل وما حدث بسببهما من الخراب .
٨٧	سيل	١٣٧٦ من الهجرة	جاء مطر غزير في السنة المذكورة وهي ألف وثلاثمائة وست وسبعين

الرقم المتسلسل	اسم السيل	السنة	ملاحظات
			هجرية ، وكان ذلك عند توسعة المسجد الحرام ، وسال السيل بحالة متوسطة ولم يحصل منه ضرر .
٨٨	سيل	١٣٨٢ من الهجرة	أتانا مطر غزير وسال السيل في السنة المذكورة وهي سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وثمانين هجرية ، وكان السيل أقل من السيل السابق.
٨٩	سيل	١٣٨٤من الهجرة	ابتدأ المطر بمكة في يوم الأربعاء قبل العصر بساعة واحدة في الخامس من شهر شعبان من السنة المذكورة ، وهي سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية فنزل بغزارة من الساعة الثامنة والنصف قبل العصر إلى ما بعد الساعة الرابعة ليلاً ، فسال منه السيل وكان أقوى من السيلين السابقين ولم يحصل منه ضرر.

اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً فأرسل السماء علينا مدراراً ، اللهم ارزقنا من الأمطار ما تنبت لنا من الزرع وتدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض واكشف عنا من البلاء والغلاء ما لا يكشفه غيرك ، اللهم اسقنا غيثاً هنيئاً مريئاً سحاً عاماً غدقاً طبقاً إلى يوم الدين ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن رحمتك أوسع من غضبك وعفوك أعظم من عقوبتك فارحمنا رحمة الأبرار واجعلنا من عبادك الأخيار بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذا ما ورد عن سيول مكة المشرفة ، ذكرناها بصورة مختصرة كما جاء في التاريخ ، وربما كانت هناك سيول لم يذكرها المؤرخون لعدم علمهم بذلك ، والله

سبحانه وتعالى أعلم بغيبه ، فهو علام الغيوب وكاشف الكروب ، لا إله إلا هو إليه المصير .

وقد ذكر إبراهيم باشا رفعت رحمه الله تعالى : "أنه في سنة (١٠٩٣) ألف وثلاث وتسعين هجرية عملت في المسفلة (أي أسفل مكة) قناة عظيمة لتصرف السيل إلى بركة ماجن " . اهـ .

فانظر رحمك الله تعالى ، كيف اعتنى المؤرخون ببلد الله الحرام بذكر أمطارها وسيولها وأحوالها وأمورها ، فلا توجد في أقطار الأرض بلدة اعتنى الناس بها كاعتنائهم بمكة . اللهم زدها شرفاً ورزقاً وأمناً وخيراً ونوالاً ، ووفق أهلها لمرضاتك واغفر لهم وارحمهم فإنك أنت الغفور الرحيم ، وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

أنظر: صورة رقم ٣٣ ، مياه السيل وقد غطت أرض المطاف والطائفون حوله
أنظر: صورة رقم ٣٤ ، مياه السيل وقد غمرت رحاب المسجد الحرام (١٣٨٠هـ)
أنظر: صورة رقم ٣٥ ، مياه السيل داخل المسجد الحرام

مجرى السيل بمكة

كان قديماً ينزل السيل من جهة منى ومن جهة حراء إلى مكة ، فيمر بالمحصَّب فالحجون ، ثم ينزل إلى بطن الوادي من طريق المدعا أي من الموضع الذي كان يرى منه البيت الحرام ، وكان هذا الموضع في عهده ﷺ غير مرتفع ، ولم يرتفع إلا بعد أن ردمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بالضفاير والصخور العظام ليمنع السيل عن المسجد الحرام ، ويسمى هذا الردم بردم بني جُمَح "بضم الجيم وفتح الميم" .

فامتنع السيل من الدخول إلى المسجد الحرام من جهة المدعا بعد ردم عمر رضي الله عنه ، لكنه يدخل من الشارع العام من سوق الليل ومن جهة الغزة الذي يقع في يسار المدعا لمن يأتي من المعلا ، إلى جهة المسجد الحرام وينحدر منها إلى جهة المسفلة .

أنظر: صورة رقم ٣٦ ، مياه السيل محيطة بالكعبة المشرفة
أنظر: صورة رقم ٣٧ ، السيل بالمسجد الحرام

جاء في تاريخ القطبي المسمى "بالإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ما نصه : ولما ردم هذا المكان " أي مكان ردم عمر رضي الله عنه بالمدعا " صار السيل إذا وصل من أعلا مكة لا يعلو هذا المكان ، بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذي بناه عمر رضي الله عنه ، فلا يصل هذا السيل إلى المسعى ولا إلى باب السلام إلى الآن ، وصارت هذه الجهة من يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعة عن ممر السيل ، وصار السيل الكبير كله ينحدر إلى جهة سوق الليل ، ويمر بالجانب الجنوبي من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة .

وهذا سيل وادي إبراهيم ، ويكاد يمنع جريان هذا السيل إلى مكة سيل آخر يعترضه يسمى "سيل جياد" ويمر عرضاً إلى أن يصدم الركن اليماني من المسجد ، وينحرف إلى أسفل مكة ، وقوة جريان هذا السيل يمنع من جريان سيل وادي إبراهيم ، فيعقف ويتراكم ويدخل المسجد الحرام .

ويقع مثل هذه السيول بمكة في كل عشرة أعوام تقريباً مرة ، فيدخل المسجد الحرام ويحتاج الناس إلى التنظيف وتبديل الحصا ونحو ذلك ، وقد عمل المتقدمون والمتأخرون لذلك طرقاً واهتموا لذلك تمام الاهتمام ، ثم اندثرت أعمالهم لطول الزمان ، و لم يتفطن الملوك بعدهم لذلك ، فاستمرت السيول العظيمة بعد كل مرة تدخل المسجد الحرام ، ولسنا الآن بصدد شرح ذلك . انتهى ما قاله العلامة قطب الدين صاحب التاريخ المذكور .

نقول : إن ما ذكره القطب في تاريخه من أن السيول تدخل المسجد الحرام في كل مرة ، هو مطابق للحقيقة الواقعة ، فالعلامة قطب الدين توفي في سنة (٩٨٨) ثمان وثمانين وتسعمائة من الهجرة ، فمن عصره بل من قبل عصره والسيول لا تزال تدخل المسجد الحرام إذا عظمت وقويت إلى عصرنا هذا ، أي إلى سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية .

ثم لما ابتدأوا بتوسيع المسجد الحرام في السنة المذكورة عملوا نفقاً خاصاً للسيول خلف المسعى من جهة الصفا تمر منه السيول وتخرج إلى المسفلة من جهة السوق الصغير ، فلا تدخل المسجد الحرام ، اللهم إلا ما يتجمع من مياه الأمطار النازلة عليه. فلما صدر أمر جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود بتوسعة المسجد الحرام ، وباشروا العمل فعلاً في أول سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين

وثلاثمائة وألف ، جعلوا ممر السيل عن طريق الهجلة بالمسفلة تحت الأرض في نفق خاص لذلك .

عمل السدود بمكة

مكة شرفها الله تعالى وأدام أمنها ورخاءها ، ليست في شكلها وصورتها كالبلدان الأخرى سهلة منبسطة ، وإنما خلقها الله ، عز وجل صخرية حجرية التربة ، في أرضها انخفاض وارتفاع ، وبسط وانحدار ، تكتنفها الجبال الصخرية الصماء ، العاليات الشاهقات الشماء ، والكعبة المشرفة واقعة بالمسجد الحرام في وسط هذه الجبال في قلب مكة ، تدور حولها البيوت اليوم من كل جانب في واديها وجبالها ، وقد ارتفعت أرضها الآن عما كانت عليه قديماً بنحو ثلاثة أمتار ، بسبب ما تأتي به الأمطار والسيول من الأتربة والأحجار والرمال.

وإذا علمنا أن المسجد الحرام ، وما حوله ، كان من أصل الخلقة منخفضاً بوسط الجبال ، وإذا علمنا أيضاً أن مكة تنقسم إلى قسمين :

(الأول) : المعلاة ، وهي من المدعا والقشاشية إلى جهة الحجون فما فوقها إلى منى فعرفات ، هذه الجهات عالية عن المسجد الحرام ، لذلك تسمى عوالي مكة .

(الثاني): المسفلة ، وهي من المسجد الحرام إلى جهتي بركة ماجن والشبيكة فما بعدها إلى الشميس فجدة ، هذه الجهات أسافل مكة ، لذلك تسمى المسفلة .

إذا علمنا كل ذلك ، عرفنا أن مياه الأمطار والسيول تنحدر من أعالي مكة من جهات منى وجبل حراء والحجون وتنزل إلى وسط مكة والمسجد الحرام ، حتى تخرج من المسفلة وربما تصب إلى بحر جدة إن كانت كثيرة قوية . يقول الأزرقي بصحيفة ٢٢٩ من الجزء الثاني من تاريخه : "والجمار كلها تسكب في بكة ، وبكة الوادي الذي به الكعبة" . اهـ . ويقصد بالجمار الجمرات الثلاثة التي بمنى ، أي أن سيل منى يسكب في بكة ، وهو كلام صحيح إلى اليوم . وبطبيعة الحال تجرف هذه السيول كل ما تصادفه في طريقها من كل شيء ، كما أنها تهدم البيوت والمنازل وتحدث بالناس أضراراً جمة ، وتسوق أمامها أتربة الوديان ووحولها ، وأحجار الجبال وصخورها ، وقد تحدث خراباً في مجاري المياه والعيون ، لذلك كله يجب اتخاذ السدود والحواجز لدى مجاري السيول وأماكنها ، لعدم حدوث

الأضرار بالناس ، ومحافظة على بناء الكعبة والمسجد الحرام ، فكم مرة هدمت الكعبة وحصل خراب بالمسجد الحرام بسبب دخول السيول .

وإليك بعض السدود التي حصلت :

١- سد خزاعة

ودخول السيل إلى قلب مكة معروف في الجاهلية والإسلام ، فمن سيول مكة في الجاهلية "سيل فارة" ، فقد كان هذا السيل سيلاً عظيماً ، وذلك زمن خزاعة ، فإنها كانت تلي أمر الكعبة ، فقد أحاط بالكعبة ورمى بالشجر في أسفل مكة ، وجاء برجل وامرأة ميتين ، أما الرجل فلم يعرف ، وأما المرأة فهي من بني بكر اسمها (فارة)، فلذلك نسب السيل إليها ، فقيل "سيل فارة" .

فعندئذ بنت خزاعة حول الكعبة بناء أداروه عليها وأدخلوا في هذا البناء حجر إسماعيل ، وذلك ليحصنوا البيت الحرام من السيول . فهذا البناء الذي عملته خزاعة لتحصين البيت ، هو ما يقال له السد ، وربما كان هذا أول سد عمل بمكة .

(فإن قيل): لماذا بنت خزاعة هذا السد حول الكعبة فقط ، و لم تجعله بأعلا مكة لتحصين مكة وبيوتها من دخول السيل ؟

(نقول): في زمن خزاعة لم يكن الناس بكثرة في مكة ، وأن خزاعة ما كانت تسكن حول الكعبة تعظيماً لها ، فكانت تسكن بين الجبال والوديان ، ومن المعلوم أن بيوت العرب كانت من شعر أو من الأخبية التي هي من الوبر أو الصوف على عمودين أو ثلاثة ، أو أنهم يسكنون بقرب الجبال أو في المغارات ، فإذا ما شعروا بخطر أو أرادوا سفر طووا بيوتهم وأخبيتهم وحملوها على الابل وساروا.

فما دامت حياتهم على هذه الصفة فهم في غير حاجة إلى تحصين البلدة وبيوتهم من السيل أو من غيره ، مع العلم بأنه لم تكن لديهم من الأشياء الثقيلة ما لدينا نحن اليوم من نحو الفراش والأواني والصناديق والدواليب .

٢- سد عمر رضي الله عنه

ومن السيول الشهيرة في الإسلام "سيل أم نهشل" وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه ، فقد أقبل هذا السيل من أعلى مكة ودخل المسجد الحرام واقتلع مقام إبراهيم عليه السلام ، وذهب به إلى أسفل مكة ، كما ذهب بامرأة يقال لها أم

نهشل بنت عبيد إلى أسفل مكة أيضاً ولذلك نسب السيل إليها فقيل سيل أم نهشل .

فلما بلغ خبر ذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وهو بالمدينة ، خرج فزعاً فدخل مكة بعمرة في شهر رمضان ، وذلك سنة سبع عشرة من الهجرة ، فأتى بالمقام ووضعه في مكانه الموجود فيه اليوم ، ثم بعد فراغه من أمر المقام عمل الردم المعروف بردم عمر برأس المدعا ، وبناه بالضفائر والصخور والعظام وكبسه بالتراب والأحجار ، وهو الذي نقول له السد ، فلم يعل هذا الردم سيل بعد ذلك مع كثرة ما جاء من السيول العظام ، ودام هذا السد و لم ينكشف إلا في سيل ابن حنظلة ، وذلك سنة اثنين ومائتين .

فانظر رحمك الله تعالى إلى قوة سد عمر بن الخطاب ، ومكثه هذه المدة الطويلة لا تخربه السيول ولا تعلوه ، مع أنه كبسه بالتراب والأحجار ، بدون نورة ولا جص ولا إسمنت مسلح ، ولا بناء بالآلات الفنية والمقاييس المبتكرة الحديثة ، وما كان عنده من المهندسين الفنيين المتخرجين من أوروبا وأمريكا ، وإنما بناه بإخلاص النية والتقوى ، وبناه بأيدي عمال خير القرون ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

٣- سد ابن الزبير

قال الأزرقي في تاريخه بصحيفة ٢٣٩ من الجزء الثاني : وعند السويقة "وهي على فوهة قعيقعان" ردم عمله ابن الزبير حينة بنى دوره بقعيقعان ليرد السيل عن دار حجير بن أبي إهاب وغيرها ، وفوق ذلك ردم بين دار عفيف وربع آل المرتفع ردم عن السويقة ، وردم الخزاعيين ، ودار الندوة ، ودار شيبة بن عثمان . انتهى كلام الأزرقي .

٤- سد معاوية بن أبي سفيان

ذكر الأزرقي ضفاير معاوية رضي الله عنه التي عملها عند دار أويس جهة سوق الصغير ، وذكره ضمنا بصحيفة ١٣٦ عند الكلام على سيل الجحاف .

٥- سد عبدالملك بن مروان

ومن السيول الشهيرة "سيل الجحاف" وكان ذلك في خلافة عبدالملك بن مروان سنة ثمانين من الهجرة في يوم التروية أي في اليوم الثامن من ذي الحجة ، وقد نزل الحجاج في وادي مكة واضطربوا الأبنية ، فجاءهم السيل العظيم دفعة واحدة قبل صلاة الصبح ، فذهب بهم وبمتاعهم ودخل المسجد الحرام ، وأحاط بالكعبة وهدم الدور والشوارع على الوادي ، وقتل ناس كثير في الهدم ، ورقى الناس في الجبال واعتصموا بها ، وجرف كل شيء أمامه وذهب به ، فلذلك سمي "سيل الجحاف" .

فكتبوا بذلك إلى عبدالملك بن مروان ، ففزع لذلك ، وبعث بأموال عظيمة إلى عامله بمكة يأمره بعمل ضفاير وحواجز للدور الشارعة على الوادي ، ويعمل ردم على أفواه السكك يحصن به دور الناس من السيول ، وبعث رجلاً نصرانياً مهندساً في عمل ضفاير المسجد الحرام ، وعمل ضفاير للدور الواقعة على جانبي الوادي ، فنقلوا الصخور العظام على العجل ، وكانت الإبل والثيران تجر تلك العجل ، حتى ربما أنفق في المسكن الصغير لبعض الناس مثل ثمنه مراراً ، ولقد بقيت آثار السد والردم الذي عمله عبدالملك إلى زمن الأزرقي كما صرح بذلك في تاريخه .

٦- سد الحجاج بن يوسف

لا ندري أين عمل الحجاج بن يوسف السد ، فقد ذكر الإمام الأزرقي في تاريخه بصحيفة ٢٢٧ من الجزء الثاني أنه عمل الحجاج ثلاثة سدود تحبس الماء . لكن لم نفهم شيئاً من كلامه ، فمن أراد الوقوف عليه فليراجع الصحيفة المذكورة .

٧- سد خالد بن عبدالله القسري

لما أمر سليمان بن عبدالملك بن مروان خالد بن عبدالله القسري أن يجري عيناً من الماء العذب تخرج من الثقبة وتظهر عند بئر زمزم بالمسجد الحرام ، عمل خالد القسري ما أمره به سليمان بن عبدالملك ، فأخرج الماء من الثقبة في بركة هناك

تسمى بِركة القسري ، وشق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام في قصب من الرصاص ، ثم بعد ذلك بني سد الثقبة وأحكمه إحكاماً .

والثقبة ، بفتح أوله وثانيه وثالثه ، ثنية بأصل جبل ثبير جهة حراء ، وبويع بالخلافة لسليمان بن عبدالملك في سنة ست وتسعين ومات في سنة تسع وتسعين.

وخالد القسري كان أمير مكة ، وتوفي في سنة مائة وخمس وعشرين تقريباً .
وهذا السد الذي عمله خالد القسري بقي إلى زمن المأمون ، قال الأزرقي : وفي خلافة المأمون جاء سيل أعظم من سيل ابن حنظلة في شوال سنة ثمان ومائتين والناس غافلون ، فامتلأ السد الذي بالثقبة ، فلما فاض انهدم السد فاجتمعت السيول وجاءت جملة ، فاقتحم المسجد الحرام وأحاط بالكعبة ، ورفع المقام من مكانه خوفاً عليه أن ينهب ، فكبس المسجد والوادي بالطين والبطحاء... الخ .

نقول : ربما كان أصل السد القديم الموجود الآن عند حراء مبنياً في مكان هذا السد الذي عمله خالد القسري والله تعالى أعلم .

ويظهر مما تقدم من أول هذا المبحث إلى هنا ، أن عمل السدود ما زال يرتفع من ناحية المسجد الحرام شيئاً فشيئاً ، حتى وصلت إلى ناحية جبل حراء كما هي في هذه الناحية إلى اليوم ، وذلك تبعاً لامتداد بيوت مكة وعمرانها .

جاء في تاريخ الغازي نقلاً عن بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى : وفي سادس رمضان سنة (٩١٦) ست عشرة وتسعمائة ، جاء أمر السلطان إلى الأمير باش خير الدين بك المعمار ، بعمل السد الذي عند جبل حراء ، حتى لا يدخل السيل مكة ، وإن دخلها كان دخوله ضعيفاً ، واسم السلطان قانصوه الغوري . اهـ.

وجاء فيه أيضاً في موضع آخر نقلاً عن سلاح العدة :

ومن مآثر الأمير شبكة سنجق وأمير بجدة الذي كان مستمراً فيها إلى عام إحدى وخمسين وتسعمائة بناء السد الذي عند جبل حراء . اهـ.

وجاء فيه أيضاً: نقلاً عن السنجاري في حوادث (١٠١٩) تسع عشرة وألف : أن سليمان آغا ميرياخور السلطان محمد خان زاد في درج أبواب المسجد الحرام من الخارج حتى تمنع السيل من الدخول ، كما أنه عمر الأماكن المأثورة . انتهى من تاريخ الغازي .

نقول : ويفهم من نص ما أورد الغازي أن بناء السد الذي عند جبل حراء بواسطة الأمير باش خير الدين المعمار وبواسطة سليمان آغا ميرياخور السلطان محمد خان ، إنما حصل في مكان السد القديم الذي كان قبلهما ، لا أنهما عملا سداً جديداً ، ونظن أن هذا السد هو نفس السد الذي عمله خالد بن عبدا لله القسري ، وا لله تعالى أعلم بالغيب .

٨- سد أجياد

ويوجد إلى يومنا هذا سد قديم بأجياد ، ويسمى سد أجياد ، وهو سد معروف عمل في سفح الجبل ليرد السيل النازل منه إلى الشارع العام ، ولولا هذا السد لكان السيل قوياً من هذه الجهة .

ولا ندري متى بني هذا السد ، ونظن أن بناءه يرجع إلى مائة سنة أو مائتين ، وا لله تعالى أعلم .

بقي علينا أن نقول : إن ما نراه الآن من السيل في داخل مكة ، ليس بسيل قوي يخاف منه ، لأنه لم يأتها من خارجها ، لأن السيل بعد عمل السد جهة حراء إذا جاء إنما يتحول أكثره من السد المانع له من الدخول إلى ناحية جدة ، وربما يمشي حتى يصب إلى بحر جدة إذا كان قوياً .

فالسيل الذي في داخل البلدة إنما يتكون من الأمطار النازلة على نفس مكة ، وعلى ما في داخلها من الجبال ، فتتكون مياه الأمطار مع جزء من السيل الآتي من جهة حراء مما يلي السد وتجري في الشوارع العامة حتى تخرج من المسفلة .

ويتكون السيل بمكة سريعاً جداً من مياه الأمطار لأن تربة أرضها حجرية لا تشرب كثيراً من المياه ، بخلاف البلدان الأخرى كمصر والشام والعراق ، فإن أراضيها الزراعية صالحة لشرب مياه الأمطار وابتلاعها ، وإذا كانت شوارع بعض البلدان مرصوفة مسفلتة كالاسكندرية ، فإن مياه الأمطار تنصرف سريعاً إلى البحر مع البلاليع والمجاري الخاصة بذلك .

"و لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء" .

المدعا وفيه ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمنع السيول عن المسجد الحرام

المدعا : مكان معروف عال قريب من نفس المروة ، وفي المدعا عمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الردم المعروف باسمه ، وبناه بالضفائر والصخور العظام ، صوناً للمسجد الحرام أن تدخله السيول ، فلم يعله سيل بعد ذلك ، ويسمى هذا الردم بردم بني جمح ، بضم الجيم وفتح الميم ، وهم بطن من قريش نسبوا إلى جمح بن عمرو بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك .

وقال القطبي في تاريخه : أقول المراد بهذا الردم الموضع الذي يقال له الآن المدعا ، وهو مكان يرى منه البيت أول ما يرى ، وكان الناس يرونه خصوصاً من يريد الحج من ثنية كداء ، وهي الحجون ، إذا وصلوا هذا المحل شاهدوا منه البيت الشريف ، والدعاء مستجاب عند رؤية بيت الله تعالى وكانوا يقفون هناك للدعاء ، وأما الآن فقد حالت الأبنية عن رؤية البيت الشريف ، ومع ذلك يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة ، وعن يمينه ويساره ميلان للإشارة إلى أنه المدعا .

قال مولانا القاضي جمال الدين محمد أبو البقاء بن الضياء الحنفي ، في كتاب البحر العميق في مناسك الحج إلى بيت الله العتيق : أنه يرى في زمانه رأس الكعبة لا كلها من رأس الردم يعني المدعا ، فإذا ظهر له يقف ويدعو ويسأل الله حوائجه ، فإن الدعاء مستجاب عند رؤية البيت ، وكان القاضي أبو البقاء بن الضياء المذكور من أواسط المائة التاسعة ووفاته في سنة أربع وخمسين وثمانمائة .

ولا شك أن من عهد الصحابة ، رضي الله عنهم ، إلى زمانه ، كان الناس يقفون ويدعون عنده لمشاهدتهم الكعبة ، ولا أعلم هل وقف النبي ﷺ أم لا؟ وكان ذلك المحل غير مرتفع في عهده ، عليه الصلاة والسلام ، وما رفعه إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بالردم الذي بناه، فارتفع عن الأرض ، فصار البيت الشريف يشاهد منه حينئذ ، فوقف الناس عنده بعد ذلك لمشاهدة البيت الكريم منه ، وإنني أنظر في جميع عمري في المدعا يوقف فيه تبركاً ، فاللائق استمرار

وقوفِ الناس بهذا المحل الشريف ، والدعاء فيه تبركاً بوقوف من سلف للدعاء فيه ، وا لله تعالى أعلم .

انتهى ما ذكره العلامة قطب الدين الحنفي في تاريخه .

نقول : الذي نراه في زماننا وقت تأليف كتابنا هذا وهو يوافق سنة (١٣٧٨) من الهجرة ، أنه لا يسن الوقوف لداخل مكة من جهة الحجون والمعلا عند رأس المدعا لأجل الدعاء فيه ، لأن البيت الحرام لايظهر من المدعا مطلقاً لا كله ولاجزء منه ، بسبب إحالة الأبنية الكثيرة التي بينه وبين المدعا ، وحيث ان سنية الوقوف في المدعا لأجل الدعاء كانت من أجل رؤية البيت ، فلا يسن الوقوف هناك للدعاء إذا لم يظهر شيء من البيت عند حيلولة المنازل والأبنية من رؤيته ، هذا ما نراه وا لله تعالى أعلم .

جاء في تاريخ القطبي : ولما ردم هذا المكان "أي المدعا" الذي ردمه عمر بن الخطاب رضي ا لله تعالى عنه ، صار السيل إذا وصل من أعلا مكة لا يعلو هذا المكان بل ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذي بناه عمر رضي ا لله عنه ، فلا يصل هذا السيل إلى المسعى ولا إلى باب السلام إلى الآن ، وصارت هذه الجهة من يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعة عن ممر السيل ، وصار السيل الكبير كله ينحدر إلى جهة سوق الليل ويمر بالجانب الجنوبي من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة .

وهذا السيل وادي إبراهيم ، ويكاد يمنع جريان هذا السيل إلى مكة سيل آخر ويعترضه يسمى سيل جياد ، ويمر عرضاً إلى أن يصدم الركن اليماني من المسجد وينحرف إلى أسفل مكة ، وقوة جريان هذا السيل ، يمنع من جريان سيل وادي إبراهيم ، فيعقف ويتراكم ويدخل المسجد الحرام .

ويقع مثل هذه السيول بمكة في كل عشرة أعوام تقريباً مرة ، فيدخل المسجد الحرام ويحتاج الناس إلى التنظيف وتبديل الحصا ونحو ذلك ، وقد عمل المتقدمون والمتأخرون لذلك طرقاً ، واهتموا لذلك تمام الاهتمام ، فاندثرت أعمالهم لطول الزمان.

و لم يفطن الملوك بعدهم لذلك فاستمرت السيول العظيمة بعد كل مرة تدخل المسجد ، ولسنا الآن بصدد شرح ذلك .

نقول : وبالمدعا كان قبل خمسين سنة ، أي قبل عام (١٣٣٥) هجرية ، يباع فيه السمن بالجملة ، وكان السمن يوضع في القرب وتطرح في الشارع ، فمن أراد شراء شيء منه أخذ قربة من القرب ووزنها واشتراها بما فيها وبالمدعا بجهة الحرم توجد دار أبي سفيان ، التي تسمى مستشفى القبان ، بتشديد الباء وفتح القاف ، وبالفعل كان فيها مرضى وأطباء ، واليوم هي مخزن أدوية لوزارة الصحة . ونسبة المستشفى للقبان ، نسبة إلى ميزان القبان ، وهو ميزان خاص يوضع بوسط خشبة قوية ويثبت طرفه المتدلي بكيس الدقيق أو الرز أو الحب أو صفيحة السمن أو القربة ونحو ذلك ، فيرفعها رجلان ثم ينظرون إلى رمانة الميزان فيعرفون بها مقدار وزن المرفوع .

أنظر: صورة رقم ٣٨ ، ميزان القبان بالمدعى

لكن مع الأسف ليس بالمدعا اليوم شيء من السمن والجبن أو الحبوب ، فسبحان مغير الأحوال . لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

ذكر بعض البساتين الموجودة بمكة المكرمة

البستان والحديقة بمعنى واحد ، وهو كما جاء في المنجد : أرض أدير عليها جدار وفيها شجر وزرع . اهـ. جمع الكلمة الأولى بساتين ، وجمع الثانية حدائق .

ومكة حرسها الله تعالى وأدام عليها الأمن والرخاء ، لم تكن من أصل الخلقة ذات زروع وثمار ومياه وأنهار ، وإنما صارت في عصرنا الحاضر بفضل الله تعالى ، وبسبب تطور البشر من حسن إلى أحسن في تقدم مستمر من جميع النواحي العمرانية ، ومن ذلك البساتين التي أنشئت فيها ، ولنذكر هنا تسجيلاً للتاريخ ، فالله أعلم بما ستؤول إليه حالة مكة في المستقبل الآتي من الناحية الزراعية والعمرانية فنقول : تحيط بمكة البساتين الآتية وكلها في داخل الحرم ، وهي :

(١) البستان الذي عمره خوجة قيني محمد بن حمود أفندي قاضي مكة المشرفة سنة (٩٦٧) سبع وستين وتسعمائة ، ثم قدمة لخاتم سلطان بنت الوزير الأعظم رستم باشا وأمها والدة السلاطين خاصكي سلطان ، وقد كان أصل هذا البستان سبيلاً وحوضاً ينتفع بهما الناس والبهائم على يمين الصاعد إلى المعلاة ، بناهما بيرام خوجة الناظر على المسجد الحرام وذلك بهنة (٨٥٠) ، ثم صارا فيما بعد بستاناً كما تقدم . ذكر ذلك القطبي في تاريخه .

أنظر: صورة رقم ٣٩، بستان عين زبيدة بعرفات، المؤلف مع بعض شخصيات مكة

(٢) بستان عثمان حميدان وكان في المعابدة، وعثمان حميدان هو وزير أمير مكة الشريف سعد حوالي سنة (١١٠٥) خمس ومائة وألف، وكان بستانه كبيراً واسعاً عامراً من كل الزروع والثمار، وكان عثمان حميدان يقيم فيه كثيراً من المآدب والضيافات للعرب وأصدقائه. انتهى من تاريخ الغازي من الجزء الثاني بصحيفة (٢٥١) بتصرف وزيادة، ولكن اليوم ليس لهذا البستان من أثر ولا خبر.

(٣) بستان الشريف مسعود بن إدريس الذي توفي سنة (١٠٤٠) أربعين وألف، وكان بستانه في المعابدة أيضاً عند حوض أبي طالب، ثم اشتراه دخيل الله العواجي، فسماه الناس بستان العواجي. ولم يبق اليوم لهذا البستان من أثر أيضاً كما ذكره السباعي في تاريخه.

(٤) بستان شيخ السادة بمحلة الهجلة بين الشبيكة والمسفلة، وشيخ السادة هو السيد إسحاق العلوي وكان في زمن الشريف عبدالمطلب والوالي كامل باشا وذلك سنة (١٢٧٠) سبعين ومائتين وألف، كما ذكره السباعي في تاريخه، ولم يبق له أثر اليوم.

(٥) بستان بركة ماجن، وهو بالمسفلة، بينه وبين المسجد الحرام أقل من اثنين كيلو متر، ونعتقد أنه أقدم بستان بمكة، لأن بركة ماجن، بركة قديمة غزيرة الماء يرجع عهدها إلى القرن الثامن للهجرة، وربما كانت موجودة قبل ذلك، ولا بد أن أطراف هذه البركة العظيمة كانت مزروعة بالخضار التي تموِن مكة من قديم الزمن، ثم انتقلت ملكية الأراضي التي بجوار البركة من أناس إلى أناس إلى زماننا هذا، واليوم لا زال هذا البستان عامراً بالزروع ويسقى من هذه البركة ولا ندري من الذي يمتلكه الآن.

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن تحصيل المرام: ومن البرك بأسفل مكة، بركة يقال لها بركة الماجن. اهـ. أقول: هي الآن عمار ملآنة، وبجانبها بستان للشريف على بن المرحوم مولانا الشريف عبدالله يستقى منها، وقد رفع الشريف على جداراتها الأربع في سنة "لم تذكر السنة" بحيث لا يقدر أحد على النزول إليها، وكان الناس قبل ذلك ينزلون فيها، ويغتسلون منها، وكثيراً منهم كانوا يغرقون

ويعطبون فيها، وأما الآن فسلمت نفوس الناس عن الهلاك. وقد عمرت ونظفت هذه البركة في سنة ثمان وأربعين وثمانمائة.

(قال ابن فهد): وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة عمّر السيد حسن ناظر الاسكندرية البركة بأسفل مكة المعروفة ببركة الماجن، وأخرج ما كان فيها من التراب ورفع جداراتها الأربع. انتهى من تاريخ الغازي.

(٦) بستان الوزير عثمان نوري باشا، والي مكة من قبل الدولة العثمانية التركية- كان في أوائل تولية الشريف عون إمارة مكة، وهو أول من أنشأ بستاناً بمكة، وأباحه لأهلها يتنزهون فيه وأنفق عليه آلاف الجنيهات الذهبية. وكان بستانه مزدهراً بأنواع المزروعات، وكان بجرول، بينه وبين المسجد الحرام أقل من ثلاث كيلو متر، ثم حصل بينه وبين الشريف عون تنافر فسعى الشريف لدى السلطان حتى جاء الأمر بعزله وتخريب بستانه، فلم يبق له من أثر. وكان هذا حوالي سنة (١٣٠٥) تقريباً سنة ألف وثلاثمائة وخمس من الهجرة.

(٧) بستان الشريف عون الرفيق، الذي تولى إمارة مكة سنة (١٢٩٩) من الهجرة. ولد بمكة سنة (١٢٥٦)، وتوفي بالطائف سنة (١٣٢٣). والبستان بجرول بينه وبين المسجد الحرام أقل من ثلاث كيلو متر، وكان عامراً بكل أنواع الثمار والمزروعات يضرب به المثل، أنشأه بعد بستان الوزير عثمان باشا نوري أي حوالي سنة (١٣١٠) تقريباً سنة عشر وثلاثمائة وألف، وقد بقي هذا البستان عامراً إلى سنة (١٣٥٠) تقريباً، ثم خرب بتاتاً حتى لم يبق فيه أثر للزروع مطلقاً. وقد اشترى أرضه من آل عون حضرة صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود وسنتكلم عنه في آخر هذا الفصل.

(٨) بستان الشهداء، واقع في طريق التنعيم بينه وبين المسجد الحرام أقل من خمس كيلو متر، وهو عامر إلى اليوم، ونظن أنه أنشئ من نحو أربعين سنة ولا ندري من يمتلكه الآن.

(٩) بستان معالي الشيخ عبدا لله السليمان ، وزير المالية السابق ، وقد أنشأه حينما بنى بيته الذي بجرول سنة (١٣٥٣) تقريباً ، بينه وبين المسجد الحرام نحو اثنين كيلو متر وهو عامر إلى اليوم.

(١٠) بستان معالي الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية والاقتصاد الوطني حالياً ، وهو واقع عند أم الدرج على طريق جدة ، بينه وبين المسجد الحرام أكثر من أربعة كيلو متر ، وهو بستان جميل حاو لجميع المزروعات ، وقد بنى فيه معاليه مسكناً صغيراً لطيفاً لراحته .

(١١) بستان الشيخ عبدا لله الكعكي . واقع بالمسفلة ، بينه وبين المسجد الحرام نحو أربعة كيلو متر ، وهو بستان عامر لطيف يقصده الناس للنزهة وترويح النفس . أنشأه المذكور في عام (١٣٦٩).

انظر: الصور رقم ٤٠ ، ٤١ ويرى المؤلف مع عبدالستار الهندي في بستان الشهداء والصورة رقم ٤٢ ، وهي لأحد بساتين مكة.

(١٢) البستان الذي على يسار الذاهب من منى ، وكان فيه عدة أبيار وغرس فيه كثير من الأشجار ، حتى شجر التمر هندي . والذي بناه وعمله ووقف عليه مسقافاً بمكة ، إما جاني بك الذي كان مشداً على جدة ، أو أمير الترك بمكة شبيك الصوفي وطوغان شيخ الحرم ومحتسبه كما هو مذكور بصحيفة (١٩٣) من تاريخ القطبي ، فإننا لم نفهم كلامه حيث أنه كان مشوشاً . انتهى .

راجع منظر ٥٦، وهو صورة لبعض بساتين مكة. ومنظر ٥٧ ، وهو صورة لمحمد طاهر كردي في بستان بمكة .

هذه هي بعض البساتين الموجودة بمكة وا لله تعالى أعلم عما سيحدث فيها من البساتين أيضاً . أما البساتين البعيدة عن مكة ، كبستان عرفة ، فما نريد البحث والكلام عنها . ولما كان بستان الشريف عون الرفيق مذكوراً في كتب التاريخ ، صار من اللازم علينا ذكره بصفة خاصة . وإليك الكلام عنه تفصيلاً .

وصف بستان الشريف عون بمكة

الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون ، تولى أمر مكة سنة (١٢٩٩) هجرية ، وتوفي بالطائف سنة (١٣٢٣) هجرية . قال عنه البتنوني في كتابه "الرحلة الحجازية" أنه هو الذي أمر بتوسيع باب غار جبل ثور ، الذي خيم على بابه

العنكبوت حينما آوى إليه رسول الله ﷺ مع رفيقه أبي بكر، رضي الله عنه، عند هجرتهما إلى المدينة. وكان بابه لا يسع إلا نفراً واحداً يدخل منه زاحفاً على بطنه. ثم قال: وأنه استقدم أتوموبيلاً (سيارة) من أوروبا كان يركبه في طريق الطائف. اهـ. فعليه تكون سيارة الشريف عون هي أول سيارة دخلت الحجاز، والثانية هي سيارة الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق، ثم دخلت السيارات بدون حساب. لقد أنشأ الشريف عون الرفيق بستانه الشهير بمكة شمال محلة جرول، ولم نعلم متى أنشأه، لكن المظنون أنه كان قبل وفاته بنحو عشر سنين، والله تعالى أعلم. أخبرنا الشيخ حسن العشي أن الشريف عون صرف على بستانه هذا مائة وتسع وستين ألف جنيه ذهباً، وناهيك بقيمة الذهب في ذلك الوقت.

كان هذا البستان آية من الآيات وجنة من الجنات موضوعة بمكة، لم يسبق له نظير في ذلك العهد، وإليك وصفه التام الذي ذكره المرحوم إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين"، فقد قال عن هذا البستان ما يأتي:

هو حديقة غناء بجهة جرول، مستطيلة الشكل، طول ضلعها البحري (٢٧٠) متراً، والغربي (١٨٠) متراً، وارتفاع سورها المحيط بها متران، وفي وسطها خزان للماء مربع الشكل طول ضلعه ٦١ متراً، وسمك حائطه من الأعلى ثلاثة أمتار وربع، وارتفاعة أربعة أمتار، وهي مبنى بالحجر الأزرق، وجدره من الداخل والخارج مجصصة بالجير المخلوط بمسحوق الآجر، ويصعد إليه من الجهة الشمالية أولاً على أربع درجات ثم بعدها ١٦ درجة عن اليمين ومثلها عن اليسار، وله سلمان الأربعة الأولى، وفي آخر السلم درجة كبيرة في مستوى أعلى الخزان، والسلم مصنوع من حجر متين زادته الصنعه رونقاً وجمالاً. وفي زوايا الخزان الأربع من الداخل درج منتظم على شكل ربع الدائرة، كل زاوية فيها ١٤ درجة، طول العليا منها متر، والسفلى ستة أمتار ونصف، وهذا الدرج للنزول منه إلى قاع الخزان، وفي منتصف كل جدار من جدر الخزان بحذاء الأرض فتحتان، ارتفاع كل فتحة ثلاثة أرباع المتر في عرض نصفه، ولذلك لتصريف المياه منها إلى البستان. وهذا الخزان الكبير لا مثيل له في الأقطار الحجازية لهذا عنينا بوصفه، وبالبستان أيضاً خزانان بينهما أربعة أمتار، ارتفاع كل منهما ستة أمتار، وبأعلى كل منهما فتحتان تقذفان المياه إلى بركة يشرب منها الناس

ويغسلون أوانيهم وثيابهم منها ، وترى الماء حين نزوله أبيض اللون يمثل قطعاً فضية تلاحق رميها ، وإنه لمنظر جميل في بلاد قفرة ، قلّت فيها المياه.

والمزروع من أرض البستان نحو الربع ، وفيه شجر الجوافة والجوز الهندي والبرتقال والليمون والنخيل والعنب والورد والبرسيم الحجازي والكرنب والكرات والباذنجان والطماطم إلى غير ذلك . ولا يفوتنا ذكر ما فيه من شجر الكادي ، الذي يستخرج منه عطر الكادي ، ذو الرائحة الجميلة ، وشكل الشجر كالصبارة إلا أن طولها يفوق المترين ولها جذوع كثيرة ضاربة في الأرض ، وورقها عريض أشبه بسعف النخل من جانبه العريض وله شوك كثير .

وقد أذن لنا دولة الشريف عون بدخوله والاستظلال بشجره في ساعات القيلولة ، وكان معسكرنا بحذائه وشدت طنب بعض الخيام بجداره ، وقد تناولنا من الجوافة التي كانت به وقت لبثنا بمكة . انتهى من مرآة الحرمين .

وصاحب مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا ، رحمه الله تعالى ، كان أمير الحج المصري ثلاث سنوات ، وكان قومندان حراس المحمل ، أي قائده ، سنة واحدة وهي سنة (١٣١٨) كما ذكره بنفسه في أول كتابه المذكور ، لذلك يقول هنا : "وكان معسكرنا بحذائه وشدت طنب بعض الخيام بجداره".

ويقول المذكور في كتابه : إن أول بستان كان بمكة ، البستان الذي أنشأه الوزير عثمان باشا نوري بالقرب من معسكر المحمل ، وكان بستاناً بهجة للناظرين ، أنشأه وأباحه لأهل مكة يتنزهون فيه ، وأنفق عليه آلاف الجنيهات فما كان من الشريف عون إلا أن سعى به لدى الخليفة فعزله وأمر بإزالة البستان الذي أنشأه . اهـ.

نقول : إن بستان الشريف عون المذكور ، قد خرب الآن منذ سنوات عديدة ، لا ماء فيه ولا شجر ، وقد بني على جزء منه مستشفى للولادة ، وفي عام (١٣٦٧) اشترى هذا البستان صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالعزيز من آل عون . فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

والبركة التي في وسط هذا البستان هي متصلة بعين زبيدة ، وبجوارها مقسم العين ليجري الماء إليها دائماً ، فكانت مملوءة بالماء على الدوام ، ومنها يسقى هذا البستان .

والبركة مربعة الشكل متساوية الأضلاع واسعة عظيمة لا توجد بركة بمكة إلى اليوم أعظم منها ولا أقوى منها في البناء، فطول كل ضلع من أضلاعها الأربعة (٥٩) تسعة وخمسون متراً، وعمقها خمسة أمتار، وعرض جدرانها ثلاثة أمتار. وفي كل ركن من أركانها الأربعة درج نازلة إلى بطنها، وعدد درج كل ركن خمسة عشر درجة.

وأرض البركة من الداخل مفروشة بالطبطاب حتى لا تشرب الأرض الماء الذي بداخلها. ولقد اندثر هذا البستان ما عدا هذه البركة، فهي محفوظة إلى الآن كما هي سليمة صحيحة، غير أنه في هذه السنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف بدأوا في هدمها، ومن شهر جمادى الأولى وإلى آخر رمضان من السنة المذكورة، لم يهدموا منها سوى جهة واحدة فقط، لقوة بنائها مع أنها مبنية بالنورة البلدية فقط والحجارة الجبلية، والحق أنها بناية تستحق الإعجاب والفخر، فرحم الله من بناها ومن اشتغل فيها. وقد اشتغلوا في هدمها نحو ثلاث سنوات حتى أتموا هدمها تماماً وتساوت بالأرض، فسبحان مغير الأحوال والعادات.

هذا، وقد كثرت الحدائق في أطراف مكة المشرفة من بعد سنة (١٣٧٥) تقريباً ولا داعي لإحصائها وذلك لكثرة توفر المياه فيها، من العيون التي تمد عين زبيدة، فسبحان مغير الحال والأحوال.

ومما يجدر ذكره، أن الناس بعد ما سكنوا في نواحي مكة المكرمة، وذلك من سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية، أي من ابتداء هدم البيوت والمحلات لتوسعة المسجد الحرام، ذهب كثير من الناس إلى أطراف مكة ونواحيها، وبنوا فيها منازل بالإسمنت على الطراز الحديث، وجعلوا في منازلهم حدائق، فصار كثير من المنازل والبيوت فيها حدائق وزروع لتلطيف الجو وتجميل المنظر، فكثرة الحدائق اليوم في المنازل في نواحي مكة المشرفة، راجعة لأمرين: (الأول) اتساع الأراضي هناك، (والثاني) كثرة المياه عندنا. فالحمد لله رب العالمين.

الحجارات الطوال التي كانت بباب السلام سابقاً

كانت على باب السلام قبل التوسعة السعودية حجارات طوال، ثم رفعت هذه الحجارة وأزيلت في أوائل سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف

لتوسعة المسجد الحرام . ولقد ذكر الإمام الأزرقي هذه الحجارات الطوال بهذه الحكاية أيضاً في تاريخه عند الكلام على الزيارة الأولى للمهدي في المسجد الحرام ، والظاهر أن ابن فهد نقل عن الأزرقي ، ثم نقل الغازي عن ابن فهد رحمهم الله تعالى . واشتهرت لدى الناس بأن هذه الأحجار كانت تعبد في الجاهلية . ولكن هذا غير صحيح ، وإليك ما يؤيد ذلك .

جاء في تاريخ الغازي عند الكلام على أبواب المسجد الحرام ، نقلاً عن ابن فهد ما نصه : وكان يقال له "أي لباب السلام" باب بني عبد شمس . ويعرف بباب بني شيبة الكبير ، وهو ثلاث طاقات ، وفيه اسطوانتان ، وفي عتبة الباب حجارة طوال مفروش بها العتبة ، وهي حجارة كانت فضلت مما قلع القسري لبركته التي يقال لها بركة البردية بفم الثقبة . وأصل ثبير كانت حول البركة مطروحة حتى نقلت حين بنى المهدي المسجد الحرام ، فوضعت هناك . ومن قال إن هذه الأحجار الطوال كانت أوثاناً في الجاهلية تعبد ، فهذا لا علم له . انتهى منه .

وجبل ثبير بقرب منى عند حراء ، وهو الذي أهبط عليه الكبش الذي فدى به إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وتقول العرب : "أشرق ثبير كيما نغير" ، وقد فسره الأزرقي بقوله : أي أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة .

وقصة بركة خالد القسري ، وهي كما ذكر الغازي في تاريخه نقلاً عن ابن فهد ، قال : كتب سليمان بن عبدالملك بن مروان ، أن أجر عيناً تخرج منه ثقبة من مائها العذب الزلال حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود ، فعمل خالد البركة التي بفم الثقبة يقال لها بركة القسري ، وهي قائمة إلى اليوم بأصل ثبير ، فعملها بحجارة منقوشة طوال وأحكمها وأنبط مائها في ذلك الموضع ، ثم شق لها عتب تسكب فيها من الثقبة ، وبنى سداً للثقبة وأحكمه .

والثقبة لشعب يفرع فيه وجه ثبير ، ثم شق في هذه البركة عتب تجري إلى المسجد الحرام ، فأجراها في قصب من رصاص حتى أظهرها في فوررة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام ، فلما أن جرت وظهر ماؤها أمر المقري بجزر فنحرت بمكة ، وقسّمت بين الناس ، وعمل طعاماً فدعي عليه الناس ، وأمر منادياً فنادى : هلموا إلى الماء العذب ، واتركوا أم الخنافس "يعني زمزم" . ثم أمر صائحاً فصاح : الصلاة جامعة . ثم أمر بالمنبر فوضع في وجه الكعبة ، ثم صعد

فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، احمدوا الله تبارك وتعالى، وادعوا لأمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب الزلال النقاح بعد الماء المالح الأجاج الذي لا يشرب إلا صبراً "يعني زمزم". قال: ثم يفرغ تلك الفسقية في شرب من رصاص، تخرج إلى وضوء كان عند باب الصفا، في بركة كانت في السوق فكان الناس لا يقفون على تلك الفسقية ولا يكاد أحد يأتيها، وكانوا على شرب ماء زمزم أرغب ما كانوا فيها، فلما رأى خالد صعد المنبر فتكلم بكلام يؤنب فيه أهل مكة. انتهى من الغازي.

وقد تولى خالد القسري إمارة مكة في عهد سليمان بن عبدالملك سنة (٩٩) تسع وتسعين من الهجرة، كما كان تولاها قبل ذلك زمن الوليد بن عبد الملك.

وذكر أيضاً: أنه في سنة اثنين وثلاثين ومائة رفع داود بن علي العباسي، أثر قدومه إلى مكة، الفسقية التي جعلها خالد القسري في ولايته لمكة بأمر سليمان بن عبدالملك، وقيل بأمر أخيه الوليد بن عبد الملك بين زمزم والركن والمقام، وهدم البركة التي جعلها خالد أيضاً عند باب الصفا، وصرف العين إلى بركة كانت بباب المسجد فسر الناس بذلك سروراً عظيماً. انتهى منه.

وداود المذكور، هو الذي تولى إمارة مكة والمدينة واليمن واليمامة في السنة المذكورة من قبل السفاح.

ويظهر أن بركة القسري كانت كبيرة جداً، حتى كان فيها السمك، كما جاء ذلك في تاريخ الأزرقي حيث يقول في مبحث ما يؤكل من الصيد في الحرم، وما دخل فيه حياً مأسوراً، ما نصه:

عن ابن جريج أنه قال: سألت عطاء عن ابن الماء أصيد بر أو صيد بحر وعن أشباهه، قال حيث يكون أكثره صيداً. قال ابن جريج: وسأل إنسان عطاء وأنا حاضر عن حيتان بركة القسري، وهي بركة عظيمة في الحرم بأصل ثبير، فقال: نعم والله لوددت أن عندنا منها، وسألته عن صيد الأنهار وقلات المياه أليس من صيد البحر؟ قال: بلى، وتلا: ﴿هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طرياً﴾. انتهى من تاريخ الأزرقي.

ويقال لبركة القسري بركة البردى، بفتح أوله وثانيه. ولقد ذكر الأزرقي أيضاً بركة خالد القسري في تاريخه عند الكلام على ما عمل في المسجد من البرك والسقايات.

حَمَام الحرم

بمكة حمام مملوك وحمام غير مملوك ، أما الحمام المملوك فأجناس مختلفة وأشكال متباينة يقتنيه الناس كما في البلدان الأخرى . وأما الحمام غير المملوك ، فهو حمام الحرم الذي نعقد له هذا الفصل ، وقد أطلق عليه "حمام الحرم" لكثرته ، وعدم تعرضهم له بالصيد والذبح لا في الحرم ولا في الحل ، وإن كان يجوز أكله في الحل لغير المحرم .

ولهذا الحمام شكل خاص لا يختلف وخلقته لا تتغير ولا تتبدل ، ولونه واحد لا يختلف ما دام من جنس نسله ، أما إذا كان أحد الأبوين من حمام الحرم ، والثاني من الحمام المملوك ، فإن لونه وشكله يتغير .

انظر: صورة رقم ٤٣ ، حمام المسجد الحرام

وإليك وصف حمام الحرم : فمن رأسه إلى رقبته شديد الزرقة والبروق ، وطرف جناحيه وذنبه أسود ، وباقيه أزرق يضرب إلى البياض ، وفي جناحيه مما يلي ذنبه خطان أسودان لا يوجدان في غير حمام الحرم ، فهما له بمثابة "ماركة مسجلة" وشارة خاصة ، ويقال لحمام الحرم حمام مكة وحمام رب البيت ، وهو منتشر بالحجاز وبالأخص بمكة المشرفة ، فإنها تكاد تكون موطنه ومنبعه . أما في غير الحجاز ، فقد يوجد بها نادراً ، فقد رأينا منه بمصر قليلاً ، ويسمونه الحمام البري ، ورأينا منه في بلد الموصل بالعراق . وهو في غير مكة لا يأوي كثيراً إلى المساجد ، وإنما يكون مملوكاً . ويقال إنه يوجد في بعض جهات الهند من هذا الحمام ، بعضه مملوك ، وبعضه وحشي يصاد ، وكذلك يوجد منه في إيطاليا وغيرها من البلدان الإفرنجية .

ولقد تكلم بعضهم عن بدء وجود الحمام بمكة ، كالإمام الأزرقي ، فإنه قال ، رحمه الله تعالى ، إنه أول ما كانت بمكة حمام اليمام ، حمام مكة الحرمية ذلك الزمان "أي زمان حادثة الفيل الشهيرة" ، يقال إنها من نسل الطير التي رمت أصحاب الفيل حين خرجت من البحر في جدة . هذا ما ذكره الأزرقي عن بعض المكيين .

لكن نحن نرى أن كل ما ذكروه ، إنما هو من باب الحدس والتخمين ، فإن الكلام عن بدء وجود أي حيوان في بلدة ما ، لا بد من استناده إلى دليل قاطع وبرهان ساطع ، حتى لا يتطرق الشك والاحتمال إليه .

نعم يمكننا أن نقول : إن الحمام مطلقاً أي الحرمية وغير الحرمية ، كان موجوداً بمكة أيام الجاهلية ، أما كون حمام الحرم متى نشأ بمكة ، ومتى جاء إليها ، وهل هو من نسل الطير التي رمت أصحاب الفيل ، أو من نسل الحمامتين اللتين عششتا على غار ثور حينما اختبأ فيه رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فكل ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

ولما كان الدين الإسلامي الحنيف منع الصيد في الحرم ، صار هذا الحمام لا يخاف من الناس ، بل يقرب منهم ، وربما وقع على رأس بعضهم أو كتفه إذا كان في يديه حب يلقيه إليه . وكان ابن عمر يغشاه الحمام على رجله وطعامه وثيابه فلا يطرده ، وأن رجلاً قال لعطاء : اجعل بيضة دجاجة تحت حمام مكة ، قال : لا ، أخشى أن يضر ذلك بيضها . وقتل غلام من قريش حمامة من حمام الحرم ، فقال ابن عباس : فيها شاة .

فهذا مما جعل حمام مكة لا يستوحش من الناس ، ويا ليته ابتعد عنهم بعد الصقر والغراب ، فقد تضرروا منه ضرراً بليغاً ، فإنه يدخل عليهم في منازلهم ويقع على طعامهم ويلوث بذرقه الأرض والفراش ، وكلما طردوه رجع إليهم ما دام يرى عندهم ما يؤكل . وهو يرى كثيراً في طريق مكة وجدة ، حيث يركب فوق الجمال المحملة بالحنطة والحبوب ، ويخرق أكياسها بمنقاره القوي ، ولا يطير حتى يشبع .

وقد لاحظنا على حمام الحرم فقط بمكة جملة أمور ، منها :

(١) أن حمام الحرم لا يألف حماماً من غير جنسه ولا يتزاوج منه إلا إذا حبس شخص حمامة من حمام الحرم يشارك المملوك في أكله وشربه ، إذا وجد إلى ذلك سبيلاً بخلاف العكس .

(٢) حمام الحرم أشد منهما وأكثر أكلاً من الحمام الآخر ، وإذا طرد حين يأكل فلا يطير سريعاً ويرجع حالاً إذا طار .

(٣) حمام الحرم أعظم نشاطاً وأسرع حركة من الحمام المملوك سواء في طيرانه ، وحلة نظره ، وخصامه مع جنسه ، وانقضاضه لالتقاط الحبوب ، فلا تفوته الفرصه قط .

(٤) إذا نثر أحد حبوباً في المسجد الحرام أو في أي مكان تجد حمام الحرم يسقط لالتقاطها بالآلاف من غير عدد ولا تجد بينها حمامة واحدة من غير جنسه .

(٥) إذا نثر شخص حبوباً أياماً متوالية في مكان مخصوص وفي وقت معلوم ، فإن حمام الحرم يأتي إلى ذلك المكان في نفس الوقت المحدد على الدوام .

(٦) حمام الحرم إذا بنى عشه لبيضه وفراخه ، لا يبنيه في الخرابات والجبال ، وإنما يبنيه في وسط العمران ومنازل الناس ، وفوق الأبواب والطاقات ، وبين الفجوات .

(٧) حمام الحرم له شكل خاص وخلقة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل على ممر السنين والأعوام ، ما دام محافظاً على نسل جنسه . أما إذا سافد غير جنسه من الحمام الأبيض أو الملون ، فإن شكله يتغير بدون شك ، كما ذكرنا في أول الكلام .

بهذه الأمور يمتاز حمام الحرم عن غيره ، ويشترك معه في الصفات الخاصة بمطلق حمام ، كاتخاذه زوجة واحدة ، وغيرته على أنثاه ، وهيامه بها ، وشوقه وحنينه إليها... الخ .

ماجاء في كتاب الرحلة الحجازية عن حمام الحرم أيضاً

ويقول الأستاذ محمد لبيب البتنوني المصري ، رحمه الله تعالى ، عن حمام المسجد الحرام في كتابه "الرحلة الحجازية" ما نصه : حمام الحرم المشهور بحمام الحي يملأ سطوح المسجد الحرام ومنافذه وطاقاته ، فتجده معششاً هنا وهناك ، ويجتمع زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم ، وعلى الخصوص في الجهة الشرقية ، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه ، وبجواره مكان يلقى فيه حب القمح المرتب له في أوقات مخصوصة . وكثيراً ما تراه في الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقائه إلى جيوش هذه الحمامات المستأنسة ، التي تكاد ترفرف على رؤوس الناس ، لأنها لم تعرف منهم في حياتها إلا كل لطف وأنس . وليست هذه الخصيصة قاصرة

على نوع الحمام ، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن ، حتى ذهب بعضهم إلى عدم قتل الحية أو العقرب في الحرم ، احتراماً له وإكراماً لها فيه . وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه إلا لسهولة أنسه ، وقلة جفائه . ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرته في الحرم ، لم يشاهد منه شيء على الكعبة إلا نادراً جداً . وفي الجهة الشرقية من مكة ، تحت جبل أبي قبيس ، بئر يقال لها بئر الحمام ، يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحرية ، ثم ينذهب إلى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جداً ، وأظنها من زمن الجاهلية . كما أني أظن أن احترام الحمام هنا أيضاً من زمن بعيد . وعلى كل حال فهو مكرم للبيت ، سواء قبل الإسلام وبعده . والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التي عششت في الغار على النبي ﷺ ، إنما يزيد في احترامه وإعظامه . وليس الحمام بمحترم فقط هنا ، بل هذه عادة قديمة جداً فبنو نوح كانوا يكرمونه لأنه أول من بشرهم بظهور اليابسة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس ، لأنه يمثل عندهم روح القدس ، ويقولون أنه عندما كانوا يغسلون المسيح في نهر الأردن ، وهو صغير ، جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها في كنائسهم ، وعلى صورهم الدينية بكثرة .

ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوروبا ، وخصوصاً في كنائس إيطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذه الكنائس إلى منافذ المساكن وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها . فإذا ذهبت إلى فينا أو روما مثلاً وجدته هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أي إنسان ، وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذي لا يزال في مدينة القسطنطينية إلى يومنا هذا ، وتراه على الخصوص في مسجد با يزيد ومسجد أبي أيوب الأنصاري . غير أن أهل الآستانة قد بالغوا في إكرامه حتى حرموا ذبحه ، منهم لا يأكلونه أبداً سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم .

أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الآستانة من ذرية حمام الغار ، الذي يقولون عنه أنه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون ، فإنه لا أصل له عندهم ، كما أن لا أصل في دينهم لتلك المأمورية التي كان يؤديها حمام الغار . والشيعة من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد في حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذي أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين ، رضي الله عنه ، والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف بختهم على مثل ما يستعمله بعض

الأروام الآن في طرقات مصر ، فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شيء من الخير والشر ، فتأتي الحمامة وتستخرج بمنقارها واحدة يكون منها فألهم ، ويسمون هذه الحمامة باك - كوب - بن ، يعني الحمامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للإله غشطورت ، وكان عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه عند العرب في الجاهلية لم يأت إلا من هذا الطريق . ولذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل . ولقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة ، أن النبي ﷺ لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت ، دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة ، فلما دخلها ، وجد فيها حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ثم طرحها . على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله ، أنيساً في نوعه ، جميلاً في صورته ، نظيفاً في لباسه ، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية ، فإنا نرى فيه درساً عائلياً كبيراً ، نرى الذكر منه مع أنثاه يعملان لحياتهما وحياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين ، حتى إذا فرغا من واجبهما الأهلي تفرغا إلى حياتهما الزوجية ، فتراهما بين توامق وتعاشق وتعانق ، لا ينفصلان إلا ليتصلا ولا يفترقان إلا ليجتمعا ، في جلابيب جمال ، وأساليب دلال ، مما لا يرى له مثال ، في زوجين من غير نوعهما على كل حال ، على أن الحمام له على الإنسان خدمة تذكر فتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين الأمم المختلفة ، حتى أعلن مرسي ووطسون سنة ١٨٤٤ م تلغرافهما الكهربائي ، الذي لا يشك أحد في أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة ، وكان من أكبر الأشياء التي ساعدت على التمدن العصري وانتشاره بسرعة ، ولكن هل هذه الفوائد الجسام تنسينا فضل ذلك الحمام ؟

ولتكملة الفائدة نقول لك : إن أول من استعمل الحمام في الزجل ، هو رجل من جزيرة أوجين (من جزر اليونان) ، أتى في سنة ٧٧٦ قبل المسيح إلى آثينا ليحضر الألعاب الأولمبية ، واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين أفراخها . فلما برز في هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها ، وفي قدومها علم أهل الرجل بنجاحه في مأموريته . ومن ثم استعمله اليونان والرومان والعرب

والمصريون في مراسلاتهم . وكان لمصر ، وخصوصاً زمن الأيوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل ، وكان بها في كل جهة بيت للحمام ، وكله غريب من جهات متعددة ، فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أي مكان ، أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة . إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حمامتين بعد الذي حصل في حصار الفرنجة لعكا ، ذلك أن المسلمين في عكا ، أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم فتتبعها طير جارح وضربها ، فسقطت في معسكر العدو الذي عرف منها مواقع الضعف من عدوه . ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط سنة ١٢٧٠ م ، وسار بجنده إلى المنصورة ، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل ، فسير إليه جيوشه لوقفه فأوقفه عند حده ، وكان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة ، وأسر لويس وسجنه بها ، إلى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر ، فأطلقه وسافر إلى تونس ومات بها . وفي حبسه يقول بعضهم :

قل للفرنسيس وإن أنكروا ... حبس لويس في مقال صحيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

والحمامة تقطع في طيرانها من سبعين إلى ثمانين كيلو متراً في الساعة ، ولها صبر على الجوع جملة أيام ، ولكنها لا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام في حصار ألمانيا لباريس ، بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧١ أكبر فضل في ربط أجزاء المملكة الفرنساوية بعاصمتها .

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا يمس جنس الحمام بسوء ، حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأذى الصيادين وخلافهم ، فيؤدي مأموريته وهو في غاية الهدوء والطمأنينة .

ولقد كان عباس باشا الأول ، والي مصر ، رجع إلى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه . ولكنه مات ، رحمه الله ، قبل أن يتم غرضه . وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الفئة ، ولكنهم اختصروا على تربيته وتطييره في محيط ديارهم ، وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى إذا التحم بحمام غريب طار معه إلى أن تنفذ قواه ، ثم يرجع به إلى صاحبه ، الذي يكون فرحه به لا يقدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها : الجزغندي ، والريحان ، والمزرزر ، والقزازي ، والأبلق ، والعنبري ، والفزار ، والعشاقي وغيرها ، إلا أن هذه الفئة لم تقف عند أفنية الأغنياء

بل تعدتهم إلى الفقراء، وهم إلى الآن يضيعون فيها وقتهم الذي هم وعيالهم في حاجة إليه لعمل حيوي مفيد . ولقد شاهدت في بستان سراي يلدز الداخلي، بعد خلع السلطان عبد الحميد، داراً كبيرة من السلك وفيها ما لا يحصى من أنواع الحمام، وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم. وربما كان يتسلى به في سجنه الذي قضى على نفسه به طول حياته، سامحه الله. انتهى من كتاب الرحلة الحجازية.

وقوع الحمام على الكعبة المعظمة

كثير من الناس يظن أن حمام مكة لا يعلو الكعبة المشرفة حرمة لها، وإن وقع عليها فإنما ذلك للاستشفاء من مرض أصابه. فهذا الظن في غير محله، لأن حمام الحرم قد يقع على الكعبة في النادر كما نشاهده، أما غيره من الحمام الأبيض وبقية الطيور، فلا يقع على الكعبة مطلقاً، بل لا يأتي المسجد الحرام على سعته، والسبب في عدم وقوع الحمام على الكعبة المعظمة بكثرة هو ما يأتي :

(١) أن الحمام يتطلب العلو والكعبة المشرفة بالنسبة لما حولها من البيوت قصيرة.

(٢) جميع الطيور من الحمام أو غيره، لا يحب الجلوس على سطح مستو ناعم مفروش بالرخام، إلا إذا كان فوقه حب فيأكله ويطير، وإنما يحب الجلوس على ما برز من الأخشاب والأعواد والحجارة والشرفات والأغصان الممدودة وغيرها من كل ما يمكنه أن يستمسك عليه بمخلبه، كما يحب المشي والوقوع على التراب، والكعبة ليس بها شيء بارز يستمسك عليه، بل إنها مغطاة بالكسوة الحريرية، وسطحها مفروش بالرخام الأملس معرض لحرارة الشمس المحرقة، وليس عليه حبوب حتى يلتقطها الحمام، أما ميزابها فالحمام يقع أحياناً لبروزه.

(٣) الحمام من طبعه أن يدخل في كل فجوة وفي كل خرق بين الشبابيك والجدران، وليس في الكعبة شيء من ذلك يجلب إليها الحمام.

انظر: صورة رقم ٤٤، الكعبة وفوق سطحها حمامة، وحمامتان طائرتان فوقها

وأما قولهم إذا شاهدوا حمامة فوق الكعبة أنها ما وقعت عليها إلا للاستشفاء، فهو غير صحيح وغير معقول لما يأتي :

(١) أن جميع الحيوانات لا يعقلون ، فكيف نسند إليهم طلب الاستشفاء ، وأيضاً أنهم غير مكلفين ، فكيف نقول أن الحمام لا يعلو الكعبة حرمة لها ، ثم من أين لنا أن نحكم بذلك ونحن لا نفهم لغتها ، وهي لا تفهم لغتنا ؟

(٢) لو كان وقوع الحمامة فوق الكعبة للاستشفاء ، يكون معناه أنها عرفت قدسية الكعبة وشرف المكان ، فكيف إذاً ترمي ذرقها عليها وعلى كسوتها وعلى أرض المسجد الحرام ؟

(٣) لو كانت الحيوانات تعرف حرمة الكعبة فكيف إذاً كانت القطط تصيد الحمام من المسجد ، ثم تدخل في جوف الكعبة فتأكله وتتلوث أرضيتها الطاهرة بدمه وريشه ، وذلك حينما هدمها السيل سنة ١٠٣٩ هجرية وقبل أن يشرع السلطان مراد في عمارتها ، وقبل أن يجعل أمير مكة يومئذ ستارة من الخشب وغيره حول ما سقط من البيت الشريف مؤقتاً إلى أن تتم عمارته ، كما ذكره الغازي في تاريخ إفادة الأنام ، نقلاً عن رسالة للشيخ محمد علي ابن علان الصديقي الشافعي ، في عمارة البيت الحرام .

ولقد روى الإمام الأزرقي أن الحمام كان يقع على الكعبة فتتناثر حجارتها ، وذلك حينما احترقت أيام ابن الزبير رضي الله عنهما .

(٤) إذا دقق الإنسان النظر في علو ثوب الكعبة مما يلي سطحها لوجد عليه كثيراً من ذرق الحمام ، فلو عقل الحمام حرمه الكعبة ، لما رمى بذرقه على ثوبها . فعلم مما ذكرناه أن ما يشاع لدى الناس بأن حمام الحرم لا يعلو الكعبة المشرفة وإن علاها فإنما هو للاستشفاء وهمٌ لا حقيقة له ، ودعوى لا دليل عليها . ولقد شاهدنا بأنفسنا جلوس الحمامة على بيضها في طيات ستارة باب الكعبة حتى أنها لتأتي بالقش لتبيض فوقه وتفرخ ، ولولا أن السيد محمد نوري الذي يخيط الكعبة لا يترك بيض الحمامة على ستارة باب الكعبة ، لشاهد الناس فراخها على الستارة .

تنظيف المسجد الحرام من الحمام

لم يتخذ الحمام المسجد الحرام مسكنه ومأواه في صدر الإسلام ، حيث كان صغيراً ، و لم يكن له سور ولا سقف ، أما الآن ، ففي المسجد الحرام من الحمام ما

لا يحصى ولا يعد ، لاتساعه العظيم ولكثرة ما فيه من الأروقة والشرفات البارزة والأعواد الممدودة والفجوات العديدة ، والذي يغلب على الظن ، أن الحمام لم يستوطن المسجد الحرام إلا في عهد الدولة العثمانية ، حيث أنها خصصت له كل عام كمية كبيرة من الحبوب تنثر له في أرض المسجد ولا يزال الناس إلى اليوم يرمون له الحبوب فيه ، خصوصاً الحجاج ، فأصبح المسجد الحرام مرعى خصباً للحمام فيه الأمن والطعام والماء والمسكن .

ومن المؤلم حقاً أن نرى هذا المسجد الأعظم الذي هو أفضل المساجد على الإطلاق ، والذي فيه أول بيت وضع للناس ، وفيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ملوثاً بذرق هذا الحمام ، ومستقذراً بخرئه النجس في بعض المذاهب حتى كاد أن يتعذر فيه المشي والصلاة ، فتضايق الناس منه ، وقد ينبعث من المسجد رائحة كريهة بسبب خرئه إذا نزل المطر ولو كان قليلاً ، وكم سمعنا من كبار الحجاج وأعيان الوافدين إلى بيت الله الحرام الشكاية من هذه الحالة ، وهم يقولون لنا : أفلا تجدون لتنظيف المسجد الحرام من وساخة الحمام وغيره من علاج ، والعالم في تقدم سريع مستمر نحو كل ما يهم الإنسان وينفعه .

ولئن مضى على هذا الحال زمن طويل فقد آن الأوان إن شاء الله تعالى للعمل على تنظيف المسجد الحرام من الحمام ، كما آن الأوان في توسعته هذه التوسعه الكبرى . لذلك نتقدم بهذا الاقتراح الآتي لترحيل الحمام من المسجد الحرام ، أعظم مساجد الدنيا وأشرفها ، وهو أن ترحيل الحمام منه يكون بالطرق الآتية :

(١) منع الناس والحجاج من رمي الحبوب داخل المسجد بصورة صارمة حازمة .

(٢) التنبيه على خدمة المسجد بطرد الحمام من المسجد ، بأن يمسك كل فرد منهم بجريدة من النخل فيطوفون بأنحاء المسجد لطرده وتنفيره في كل وقت .

(٣) تخصيص كيس أو كيسين من الحبوب يومياً ترمى للحمام خارج بلدة مكة ، إما على طريق جدة أو على طريق عرفات ، مع جعل أحواض تملأ بالماء في تلك الجهات ، فإن الحمام تأوي إلى نفس المكان الذي تجد فيه الماء والطعام . قال الشاعر :

والطير يسقط حيث يلتقط الحب ... وتغشى موائد الكرماء

(٤) بناء مئات الأبراج للحمام خارج مكة في الموضع الذي فيه الماء والطعام، لتأوي إليها ليلاً ونهاراً.

هذه الوسائل الأربعة، لو عملنا بها، لرحل الحمام عن المسجد الحرام بطوعه واختياره، وبسلام وأمان، بدون ضرر ولا إضرار، واستراح الناس من أذاه، ويحمدنا العالم الإسلامي الذي يحج إلينا في كل عام، ويصلي بالمسجد الحرام، إلى قيام الساعة. فحبذا لو قامت مديرية الأوقاف المشرفة على شؤون المسجد الحرام بطرد الحمام منه، من غير وصول ضرر إليه، بالكيفية التي ذكرناها، وبذلك يستريح الناس من أذاه، وينظف المسجد العتيق المكرم من وساخته، ويصان من قذارته. فإن المساجد بيوت الله يذكر فيها اسمه، فحقها التنظيف والتجمير والتطهير والتبخير، وأحرى بذلك المسجد الحرام.

واعلم أنه لا حرج في طرد الحمام ونحوه للمصلحة العامة أو الخاصة، ففي القاعدة الفقهية "الضرورات تبيح المحظورات"، فيجوز طرد الحمام ونحوه من بقعة في الحرم إذا تضرر منه الإنسان، بشرط أن لا يحصل للحمام ونحوه تلف في نفسه أو بيضه أو فرخه، فإن حصل في إطارته وطرده تلف له ضمن ذلك بالجزاء المعروف في كتب الفقه، بدون أن تقع عليه حرمانية، أما إذا طرده الإنسان من غير أن يتضرر منه فتلف بسببه حرم عليه ذلك وعليه الجزاء أيضاً.

فقد جاء في كتاب "القرى لقاصد أم القرى" تأليف الحافظ الطبري، عن مالك بن دينار، قال: دخلت على مجاهد، بيته مكة، فرأيت في يده سعفة يطرد بها الحمام. أخرجه سعيد بن منصور. وجاء فيه أيضاً عن نافع بن عبد الرحمن، أن عمر دخل دار الندوة فعلق زاده، فوقع عليه طائر، فخاف أن ينجسه فطيره، فنهشته حية، فقال: أنا طيرته حتى نهشته الحية، فسأل من كان معه أن يحكموا عليه، فحكموا عليه بشاة. أخرجه الشافعي.

وروى الإمام الأزرقي، عن عبدالله بن نافع، عن أبيه، قال: كان ابن عباس يرخص أن يكشكش للحمام. وروي أيضاً عن مجاهد، قال: أمر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بحمامة فأطيرت فوقعت على المروة، فأخذتها حية، فجعل فيها عمر شاة. قال: وأمر عثمان، رضي الله عنه، بحمامة فأطيرت من واقف، فوقعت على واقف فأخذتها حية، فدعا نافع بن الحارث الخزاعي فحكما فيها عنزاً عفراء. اهـ.

فهذا دليل واضح على جواز طرد الحمام ونحوه في الحرم من غير أن يطرد إلى خارجه ، ومن غير أن يلحقه أذى ولو لم يكن ذلك جائزاً لما رخص ابن عباس أن يكشكش للحمام ، ولما أمر عمر وعثمان بإطارته ، أما كوننا ضمننا الحمامتين بشاة وعنز فلموتهما بسبب الإطارة، فطرد الحمام شيء ، وتلفه شيء آخر ، فحكم الأول الجواز ، وحكم الثاني الجزاء . قال العلامة المحقق الشيخ عبد الغني بن ياسين اللبدي النابلسي الحنبلي ، رحمه الله ، في كتابه "دليل الناسك لأداء المناسك" ما نصه : ويسن قتل كل مؤذ مطلقاً ، أي لمحل ومحرم في الحل والحرم ، فعلى هذا إذا حصل الأذى من الحمام الموجود في مكة المكرمة في بعض البيوت ، فإنه يكثر ذرقه ويوسخ بعض الأماكن ، بحيث يعجز أصحابها عن إزالة ذلك لكثرته ودوامه ، ولا سيما عند من يرى نجاسة ذلك . فالظاهر جواز طرده ، فإن لم يزل بالطرد ، فله قتله أو مسكه وذبحه وهل يجوز أكله حينئذ محل نظر ، والله تعالى أعلم ، انتهى كلامه .

رمز الحمام

ويرمز الناس إلى السلم والسلام بصورة الحمام ، ويقولون عنه أنه رسول السلام ، ولم نجد لهذا علة نستأنس إليه ، إلا ما رواه الإمام الأزرقي ، الذي توفي في القرن الثالث للهجرة ، فقد قال في الجزء الأول من تاريخه ما يأتي :

عن عكرمة ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كان مع نوح ، عليه الصلاة والسلام ، في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم ، وأنهم كانوا أقاموا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، وأن الله تعالى ، وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها الله تعالى إلى الجودي ، قال : فاستقرت عليه .

فبعث نوح عليه السلام ، الغراب ليأتيه بخبر الأرض ، فذهب فوقع على الجيف وأبطأ عنه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين ، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية . قال : فكان لا يفقه بعضهم عن بعض ، وكان نوح عليه السلام يعبر عنهم . انتهى كلام الأزرقي رحمه الله تعالى .

نقول : لهذا صار الحمام رمزاً للأمن والسلام ، ولهذا أيضاً يرسمون حمامة وهي تحمل ساقاً صغيرة من النبات ، فالحمام حيوان أليف محبوب ، وشكله جميل ، وهديله وحركاته تثير شجن العشاق ، والهديل صوت الحمام ، قال في مختار الصحاح : "والهديل أيضاً فرخ كان على عهد نوح ، عليه الصلاة والسلام ، فصاده جارح من جوارح الطير ، قالوا : فليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه...".

وانظر إلى ذكاء الحمامة التي أرسلها نوح ، عليه الصلاة والسلام من سفينته لتأتيه بخبر الأرض ، فجاءت إليه ، وقد لطخت رجليها بالطين ، إشارة إلى أن الماء قد غار في الأرض وانتهى أمر الطوفان ، وحملت إليه ورق الزيتون دون غيره من الأشجار ، لأن الزيتون شجرة مباركة ينتفع بثمرها وورقها وزيتها وخشبها .

وانظر إلى الغراب بعثه نوح عليه السلام ، فوقع على الجيف وأبطأ عليه ، فالغراب خسيس أحمق ، لا يألف ولا يؤلف ، لحمه لا يؤكل لخبثه ، وهو من الفواسق الخمس . فقد قال رسول الله ، ﷺ : "خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفارة ، والكلب ، والكلب العقور" ، رواه البخاري ومسلم عن عائشة ، رضي الله تعالى عنها .

ففرق كبير بين الحمام رسول السلام ، وبين غراب البين الذي يتشاءم منه .

ومن ألطف ما قيل في الحمام ، ما جاء في تاريخ المسعودي : أن ابن السماك دخل على الرشيد ، وبين يديه حمامة تلتقط حباً ، فقال له صفها وأوجز ، فقال : كأنما تنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفت هاتفة	آذنها ألف بين
ذات طوق مثل عطف الـذ	ون أقنى الطرفين
وتراها ناظرة نحـ	ـوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثقـ	ـبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتين	لها قادمتين
ولها لحيان كالصد	غين من عرعرتين
نسجت فوق جناحيـ	ـها برنوستين
وهي طاووسية اللو	ن يبان المنكبين
تحت ظل من ظلال الأ	يك يك صافي الكتفين

فقــــدت ألفـــاً فنــــا　　حــت مــن تبــاريح وبـــين
فهـــي تبكيـــه بـــلا دمــــ　　ـــع جمـــود المقلتـــين
وهـــي لا تصبـــغ عينـــا　　هـــا كمـــا تصبـــغ عيـــني

والحمام رمز للسلام، ورمز للحب والعشق وإظهار معانيهما بأجلى الحركات، ولقد تمثل الشعراء به لذلك قديماً وحديثاً، وقالوا فيه كثيراً من الأشعار، ولولا خوف الإطالة لأتينا بأقوالهم، ولكن لا بأس بذكر أربعة أبيات فقط وهي:

ورب حمامة في الدوح صارت　　تجيد النوح فناً بعد فن
أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا　　فمنها النوح والعبرات مني

وباللغة العامية المصرية:

الليـــل بهمومـــو جـــاني　　يـــا حمـــام نـــوح ويـــاي
نـــوح واذكـــر أشـــجاني　　ذا جواك مـن جنس جواي

وفيما تقدم تفصيل واف عن مسألة حمام الحرم من جميع النواحي، فافهم كل ذلك فإنك لا تجده في كتاب، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

عدد المستشفيات بمكة المكرمة

لم يكن بمكة المشرفة في عهد الأتراك العثمانيين، وفي عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق، رحمه الله تعالى، من المستشفيات إلا مستشفى أجياد، ومستشفى القبان بالمدعا فقط، وبهما من الأطباء نحو خمسة أنفار فقط، وكان فيهما الأدوية اللازمة للمرضى، ولم يكن بمكة من الأجزاخانات سوى أجزاخانة واحدة، هي أجزاخانة "حسنين" بالمروة. ثم كان في محل "قاعة الشفا" بجوار المسجد الحرام باب القطبي وباب الباسطية، بضعة دكاكين عطارة، يباع فيها شيء من الأدوية المستخرجة من الأعشاب والحبوب الهندية، وفيها بعض الأطباء الهنود الذين يعالجون المرضى بالعقاقير اليونانية، ولما كانت رقعة مكة صغيرة وسكانها قليلين، كان هذا القدر من الأطباء والعقاقير الهندية اليونانية كافياً لهم،

علاوة على حسن نيتهم ، وقلة الأمراض الناتجة من حسن توكلهم على الله تعالى ، وعدم انتشار الفساد بينهم .

ثم لما كان زمن الحكومة السعودية ، اتسعت رقعة مكة المكرمة اتساعاً عظيماً فامتد العمران في جميع النواحي ، وكثر الناس بها كثرة عظيمة ، وهذا يستلزم انتشار الأمراض المختلفة ، كما يستلزم هذا كثرة وجود الأطباء والدكاترة المتعلمين في البلاد الأوروبية ، فاستحضرت الحكومة السعودية كثيراً من الأطباء من مختلف الأجناس وفتحت مستشفيات عديدة ، وصيدليات كثيرة ، وفيها من الأدوية المستحدثة الشيء الكثير الذي يدهش المطلع عليها .

فيوجد في مكة المكرمة وحدها فقط: مستشفى الزاهر وفيه من الأطباء نحو ستة عشر طبيباً مختصين في مختلف الأمراض ، وبه أكثر من مئة سرير ، ويراجعه يومياً من المرضى نحو ألف شخص ، وهو مجهز بكافة الأدوية واللوازمات . أما في موسم الحج فيكون المراجعون له من المرضى كثيرين لوجود الحجاج بمكة .

كما يوجد بمكة أيضاً مستشفى أجياد وفيه من الأطباء والسرر والأدوية واللوازمات بقدر ما يوجد في مستشفى الزاهر ، وكلاهما من المستشفيات الكبيرة المهمة ، وفي مكة أيضاً يوجد مستشفى واحد للولادة ، مزود بالأطباء والأدوية واللوازمات وإن شاء الله تعالى سينشأ بمكة قريباً مستشفى خاص للرمد ، وهناك في كل محلة بمكة مستوصف خاص ، فيه طبيب أو طبيبان وفيه من الأدوية واللوازمات ما يكفي المراجعين . كما توجد في مكة من الصيدليات ومخازن الأدوية أكثر من خمسة عشر صيدلية في مختلف الجهات . والله المستعان ، وهو اللطيف بعباده .

جمعية الإسعاف بمكة المكرمة

لقد كنا كتبنا لمدير جمعية الإسعاف بمكة المشرفة ، ليخبرنا عن تأسيس هذه الجمعية في البلاد ، فجاء الجواب من سعادة الدكتور عبدالعزيز مدرس ، رئيس جمعية الهلال الأحمر السعودي ، نبذة عن هذه الجمعية منذ تأسيسها عندنا في سنة (١٣٥٤) هجرية ، ثم طرأت عليها تطورات تقدمية حتى صار اسمها (جمعية الهلال الأحمر) ، وقد اعترف بها دولياً ، وأصبحت هيئة مساعدة للقوات المسلحة السعودية في السلم والحرب .

وإليك نص ما كتبه لنا سعادة رئيسها المذكور:

نبذة تاريخية

لقد كان حجاج بيت الله الحرام في الماضي، يلاقون صعوبات جمة من ناحية العلاج والوصول إلى المستشفيات لأخذ العلاج اللازم، لذلك فكر المحبون للخير بإنشاء جمعية أهلية لتقديم الإسعافات الأولية والخدمات الصحية، وكان من بينهم المرحوم طلعت حرب باشا، الذي تبرع بسيارة إسعاف للمشروع، وتكونت جمعية الإسعاف الخيرية في عام ١٣٥٤ هـ حين صدر القرار السامي رقم ٣٣٠٦ في ٥٤/٣/٢ هـ بتشكيل الجمعية تحت رعاية جلالة المغفور له الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية، وبرئاسة سمو ولي العهد المعظم الأمير فيصل بن عبد العزيز. وتعتبر هذه الجمعية أول نواة لجمعية الهلال الأحمر السعودية. وقد استمرت جمعية الإسعاف الخيري الوطني في القيام بواجبها الإنساني في تدعيم الخدمات الطبية، وإغاثة المصابين من ضحايا الحوادث بشتى أنواعها وفي حدود إمكانياتها، معتمدة في ذلك على مواردها الغير ثابتة التي تعتمد على الإعانة الملكية، وعلى التبرعات من الحجاج والمواطنين، وما تقدمه وزارة المالية. وقد استمرت الجمعية في أعمالها مدة طويلة، فافتتحت العيادات الخارجية لهذا الغرض حتى أنه في عام ١٣٧٧ بلغ عدد المستفيدين من خدمات الجمعية ٨٥٣٣٢ شخصاً.

وفي أول عام ١٣٧٨ هـ تعطل بند التبرعات الذي كان أكبر مورد تعتمد عليه الجمعية في أعمالها، فتقلص نشاطها وأصبحت ملزمة بمجابهة الكثير من صرفياتها نظير ما تقدمه من خدمات إنسانية ونظراً لذلك فقد أصدر المقام السامي أمره الكريم لزيادة بند المساعدة الذي تقدمه الدولة، وقد استمرت في أداء رسالتها حتى انبثقت فكرة تطوير الإسعاف الخيري إلى جمعية الهلال الأحمر لتتمكن الجمعية من تقديم خدماتها على نطاق واسع وفقاً للنظم الدولية الخاصة بالصليب والهلال الأحمر، لذلك صدر المرسوم الملكي رقم ١ تاريخ ١٦/ ١/٣٨٣هـ بإنشاء جمعية الهلال الأحمر، وكان لذلك أكبر الأثر في نفوس العالم الخارجي، وعلى إثر ذلك فقد تقدمت الحكومة بطلب رسمي للانضمام إلى منظمة الصليب والهلال الأحمر العالمي، وبذلك أصبحت العضو الواحد والتسعين في منظمات الصليب والهلال

الأحمر، واعترف بها، وكان ذلك بتاريخ ١٩٦٣/٨/١٨م. وساهمت الدولة بمبالغ كبيرة في تأسيس جمعية الهلال الأحمر ومساعدته، فصدر المرسوم الملكي رقم ١٥ وتاريخ ١٣٨٣/٦/٢٦هـ برصد مليون ريال في الموازنة العامة للدولة من بند التبرعات كإعانة للجمعية.

بدأت الجمعية بتأسيس المركز العام الموجود بالرياض، والذي يتولى إدارة المكاتب الرئيسية للجمعية في كل من المنطقة الغربية والوسطى، كما أن جمعية الهلال الأحمر السعودي بدأت بتقوية المراكز الإسعافية السابقة وتدعيمها بجميع ما يلزم وتعميم مراكز الإسعاف في المملكة ولذلك افتتح مركز للإسعاف بمدينة الرياض، وآخر بالمنطقة الشرقية في الدمام، وفي بقية المدن الكبيرة بالمملكة، بجانب ستة مراكز ثابتة موجودة فعلاً في مناطق الحج، وهي: (مكة، جدة، المدينة، الطائف، بحرة، رابغ)، ومركزين مؤقتين بجدة أحدهما بالميناء البحري، والآخر بالميناء الجوي، وأيضاً عشرة مراكز مؤقتة في كل من عرفات ومزدلفة وطرق الحج.

ومن برامج الجمعية مستقبلاً هو:

١- أ) نشر التوعية الصحية بواسطة أجهزة الإعلام كالإذاعة والصحافة وعرض الأفلام والنشرات، وقد جرى اتصال بهذا الخصوص بمنظمة الصليب الأحمر الدولي لمد الجمعية بالأفلام الثقافية والصحية اللازمة، كما أن ممثل هيئة الأمم المتحدة الموجود بالمملكة أبدى استعداده لتزويد الجمعية بالأفلام اللازمة.

ب) تدريس مبادئ الهلال الأحمر لطلبة المدارس والكشافة.

ج) تنظيم فروع تدريبية للمتطوعين لعمليات الإسعاف.

٢- كما أن الجمعية ماضية بسبيل إعداد مخازن تشمل مهمات الإغاثة من خيام وبطاطين وملابس لمساعدة الضحايا أثناء النكبات العامة كالأمطار والسيول والحرائق.

٣- نظراً لقلة هيئة التمريض بالمملكة، ونظراً للحاجة إليهم فقد درست الجمعية موضوع افتتاح مدارس للتمريض وستبدأ في السنة القادمة بهذا الخصوص، حتى تؤهل أكبر عدد ممكن لسد حاجة البلاد.

٤- كما أن الجمعية ماضية في دراسة افتتاح مراكز لنقل الدم، وتعميمها في المدن الكبرى بالمملكة، وقد حصل اتصال بالجمعيات التي باشرت العمل في مثل هذه المشاريع وعند الانتهاء من دراستها سوف يبدأ التنفيذ.

٥- كما أن الجمعية بسبيل افتتاح مستشفى نموذجي لكي يساعد الطلبة على مباشرة الدروس العملية به، وأيضاً تقديم الخدمات للجمهور. انتهى.

المحجر الصحي والكورنتينات

كثيراً ما كنا نحب الوقوف على تاريخ المحجر الصحي والكورنتينات، ومن أي زمن ابتدأ ذلك، وكان من حسن المصادفات أن وجدنا البحث الوافي عنه في كتاب "الرحلة الحجازية" للأستاذ محمد لبيب البتنوني المصري، فقد قال فيه رحمه الله تعالى، ما نصه:

لفظ كورنتينة أو كارانتينة أصله فرنساوي (Quarantaine) ومعناه الشيء الذي يبلغ عدده تقريباً إلى أربعين. والفرنج في جمهورية فينسيا (البندقية) لما رأت أن الأوبئة كانت تأتي إلى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال إفريقيا، اهتمت لهذا الأمر لأن مراكبها هي التي كانت تصل الشرق بالغرب، وعينت لأول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية، أي ميلادية، ضباطاً صحيين، كانو يقومون بتفتيش السفن التي كانت تأتي من الخارج إلى ثغورها البحرية. وفي سنة ١٤٠٣ أقامت أول محجر صحي سمته لازاريت (lazarette) وجعلته في جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الإدرياتيكي، اسمها سانت ماري دو نازاريه، وكانت تحجر فيها على البضائع والأشخاص القادمين على بلادها من الشرق. ومشى على إثرها في القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الأبيض المتوسط العظمى، فأقامت جنوة محجراً صحياً سنة ١٤٦٧، وأقامت مرسليا محجراً في سنة ١٥٢٦. وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون في بلاده هو الملك رينيه، ملك نابولي، في سنة ١٤٧٦م وزادت العناية بها في سنة ١٦٥٦م التي فشا الطاعون فيها ببلاد إيطاليا كلها، حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم.

ولما ظهر الوباء الأصفر في كاتالونيا (مقاطعة بأسبانيا عاصمتها برشلونة)، اهتمت أوروبا لهذا الأمر وعملت فرنسا قانوناً للكورنتينات في ٣ مارس سنة ١٨٢٢ وهو أساس النظامات الصحية للمحاجر. وقد أدخل على هذا القانون

تعديلات مهمة في ١٧ أغسطس سنة ١٨٤٧، ثم في ١٠ أغسطس سنة ١٨٤٩، ثم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠.

هذا ما كان في أوروبا بخصوص الكورنتينات، أما بمصر فإن (محمد علي) ذلك المصلح الكبير، فكر في ضرورة إنشاء مجلس صحي بها، وشكل في سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلساً كان أعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليه، وفي سنة ١٨٢٥ أدخل كلوت باشا على هذا المجلس نظامات جمة وسماه مجلس الصحة العمومي. ولما دخلت الكوليرا في مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد علي بهذا المجلس، وأدخل إليه نظامات الكورنتينات بأوروبا خدمة للأمور الصحية والتجارية في جميع البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر في الأمور الخاصة بالكورنتينات، وأصدر بذلك دكريتو في ٨ أكتوبر سنة ١٨٣١، وفي سنة ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحي (lazarette) في الشاطبي ولا يزال الاسكندريون يسمونها مظريطة أو الأظاريطة إلى الآن.

وكان من ضمن هذا المجلس، عضو مصري اسمه طاهر بك، وكانت له الكلمة العليا في أعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التي كان يبذلها في مصادمته ذلك الوباء، الذي ذهب بأغلب السكان في الوجه البحري. وفي أواخر سنة ١٨٣٩، ألغى محمد هذا المجلس القنصلي، ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه في هذا الصدد، وشكل إدارة الصحه العمومية بمصر، وجعل رئيسها ناظر الأشغال العمومية والتجارة، وجعل لها سبعة أعضاء: منهم طاهر بك السابق ذكره، وستة انتخبتهم الحكومة المصرية من أعيان التجار.

وفي مدة عباس باشا الأول أهملت هذه النظامات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع إلى النظامات الأولى القنصلية، فلم يجب طلبها بل ولم يعرها أية التفاتة. فأخذت فرنسا تسعى جهدها في تشكيل مؤتمر دولي صحي من الدول ذوات المصلحة في البحر الأبيض المتوسط، فتم لها ذلك، واجتمع هذا المؤتمر في باريس، وكان فيه أعضاء من فرنسا ومرسليا والنمسا وأسبانيا وإيطاليا واليونان والبرتغال وسردينية والروسيا وتسكانيا وتركيا، وعملوا قانوناً في ٤ يونية سنة ١٥٨٣ راعوا فيه السهولة في الحجر خصوصاً على البضائع، لأن العلم كان قد وصل باكتشافاته

المفيدة ، إلى أن أغلب الأوبئة ليست معدية . و لم توافق إنكلترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانيها .

وكان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس صحي دولي في الآستانة ومجلس في الاسكندرية ووظيفتهما إعلان أمر الأوبئة عند ظهورها ، وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف في وجهها حتى لا تصل إلى أوروبا ، ولقد تقرر أيضاً تعيين بعض أطباء يركبون البحر على الدوام إلى الشرق الأقصى ليرسلوا إلى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التي يمرون عليها.

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل في سنة ١٨٥٤ مجلساً صحياً وألحقه بنظارة الداخلية في ٢١ إبريل سنة ١٨٥٧، وجعل من حقه النظر في الأمور الصحية من داخل البلاد ، كما شكل لجنة للنظر في الأمور البحرية الصحية (الكورنتينية) ، وكانت يد هذه المصلحة الأخيرة مغلولة عن التصرف ، بدون إرادة الحكومة المصرية إلى سنة ١٨٨١ التي صدر في ٣ يناير منها دكريتو بفصل إدارة المصلحتين عن بعضهما ، وذلك بناء على اتفاق من الدول مباشرة ، وسميت الأولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر ، وسميت الثانية بمجلس الصحة البحرية والكورنتينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية ، ثم تغير هذا الدكريتو بدكريتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونية سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس ، المنعقد في السنة المذكورة .

وهذه الكورنتينات كلها ، لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لأن سفرهم من وإلى مكة كان عن طريق البر ، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الأوبئة ، إلا أن شدة كوليرا سنة ١٨٥٨ في بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها إلى مصر من طريق البحر على القصير ، فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الأمر ، وضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق القصبة فإنها منعتهم من الدخول إلى السويس ، وضربت عليهم الحجر في عجرود .

ومن هذا العهد رأوا ضرورة إقامة محجر صحي في الطور ، إلا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه ، لأن سواد الحجاج كان يسافر عليه برا ، واستمر الحجر فيه أو في رأس ملعب على ركان القوافل ، وفي الطور أو

عيون موسى على ركاب البحر، كلما كانت تقضي بذلك الضرورة إلى سنة ١٨٧٧، التي من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر. وهنالك أخذت الحكومة المصرية في إكمال الاستعدادات في الطور حتى صارت في سنة ١٨٩٣ وافية بالغرض منها. ومن ثم أصبحت هي المكان الوحيد الذي تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين، أو الذين يمرون على مصر، ولا تزال الاصلاحات تدخل إليه من وقت إلى آخر.

ومن المعجب أنه قد ورد في مادة (لزيطة) بقاموس لاروس الكبير، أن بعض الإفرنج قال إن أصل هذا اللفظ آتي من الكلمة العربية (الأزهرية)، وذلك لأن الأزهر بمصر إنما هو ملجأ للعميان والشيوخ والمتقاعدين، وهو كلام أساسه الجهل المطبق، أو التحامل علي الأزهر والأزهريين، ولو أنصف القوم لعرفوا لهذه الجامعة الإسلامية حقها في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها. فكم لها آيات من العرفان على بني الإنسان تذكر فتشكر. ولا غرو فاهتمام الجناب العالي الخديوي وحكومته السنية بالأزهر الآن، لا بد وأن يجعله يوماً من الأيام، في مصاف الجامعات الكبرى نظاماً وأحكاماً.

أما كلمة لازاريت فهي لاتينية معناها (ليدر) يعني الأبرص أو المجذوم. وكانت الدولة الرومانية تبالغ في الحجر على المجذومين، بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم، وكان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص، وهو قانون حق، لولا أنه مبالغ في شدته، وقد ورد في الحديث الشريف: "فر من الجذوم فرارك من الأسد". وقد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ في أنحاء دولته وجمع إليها المجذومين، وأجرى عليهم الأرزاق، وهو أول من أقام الملاجئ من هذا القبيل.

هذا هو تاريخ الحجر الصحي عند الإفرنج. ولكن يرى المطلعون على التاريخ، أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم. فقد ورد في تاريخ ابن الاثير، في أخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه:

وكان عمر بن الخطاب قدم الشام في مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذي فتك بأهل الشام فتكاً ذريعاً)، فلما كان يسرع وهو موضع قرب الشام، بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الأجناد منهم أبو عبيدة الجراح، فأخبروه بالوباء وشدته، وكان معه كثير من المهاجرين والأنصار، لأنه خرج بهم غازياً.

فجمع المهاجرين الأولين والأنصار فاستشارهم ، فاختلفوا عليه ، فمنهم القائل : خرجت لوجه الله ، فلا يصدك عنه هذا . ومنهم القائل : إنه بلاء وفناء ، فلا نرى أن تقدم عليه. فقال لهم قوموا . ثم أحضر مهاجرة من قريش فاستشارهم ، فلم يختلفوا عليه ، وأشاروا بالعود ، فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر ، فقال أبو عبيدة : أفرار من قدر الله ؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعني لانتقمت منه) ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان : إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدرٍ منه ، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر ، فأخبر أنه سمع النبي ﷺ حديثا في ذلك وهو قوله ، ﷺ : "إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه" . فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر ، رضي الله عنه ، فانصرف الناس بالناس إلى المدينة .

وقد ورد هذا الحديث بالبخاري في الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص : حدثنا حفص ابن عمر ، حدثنا شعبة ، قال : أخبرني حبيب بن أبي ثابت ، قال سمعت أسامة بن زيد يحدث سعداً عن النبي ﷺ ، قال : "إذا سمعتم بالطاعون بأرض ، فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها" . وقال شراح الحديث ، إن المنع من الدخول ، لا يتناول من كانت للمرضى مصلحة في دخوله كالأطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث الشريف إلا قانوناً صحياً وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقية) بثمانية قرون . انتهى كل ذلك من الرحلة الحجازية للبتنوني .

ومن اللطائف قول بعض شعراء عصرنا ، ونظن أن الشاعر كان من لبنان :

فهواك قد نال السبقا   بسواه لساني ما نطقا

وفؤداك قبلا ما عشقا   لكن مذ مر به علقا

فكأن هواك "كرنتينا"

قال العلامة المحدث الشهير ، السيد الكتاني ، في كتابه القيم العجيب ، الذي لم يؤلف مثله المسمى "بالتراتيب الإدارية" بصحيفة ٤٦٦ ، من الجزء الأول ما نصه :

"باب في أصل ما يعرف الآن في الإدارات الصحية بالكرنتينة" في الصحيحين وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول الله ، ﷺ، يقول: "إذا

كان الوباء بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به في أرض ، فلا تقدموا عليها" .

وقد رجع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بسبب هذا الحديث لما خرج إلى الشام وأخبر أن الوباء قد وقع بها ، وأن عمر حمد الله وانصرف .

قال ابن طرخان: في نهيه ﷺ، عن الدخول للأرض التي حلها الطاعون فائدتان:

إحداهما: لئلا يستنشقوا الهواء الذي قد عفا وفسد فيمرضون .

والثانية: لئلا يجاورون المرضى الذين قد مرضوا بذلك فتتضاعف عليهم البلية ، وقد روي عن النبي ، ﷺ، أنه قال : "من القرف تلف" ، وفسر بأنه ملابسة الداء ومداناة المرضى .

وبالجملة قوله: "لا تقدموا عليها" إثبات للحذر والنهي عن التعرض للتلف ، وحديث أبي داود المذكور من حديث فروة بن مسيك ، قال : قلت: يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبيق "قرية إلى جانب البحر من ناحية اليمن" وهي أرض ريفنا – كل أرض فيها زرع ونخل –وفرتنا– الطعام المجلوب من بلد إلى بلد – وأنها وبئة – كثيرة الوباء – فقال ﷺ: وباؤها شديد ، فقال عليه السلام : دعنها عنك فإن من القرف ، ملابسة الداء ومداناة المرضى – التلف – الهلاك.

قال الخطابي وابن الأثير : ليس هذا من باب الطير والعدوى ، وإنما هذا من باب الطب ، لأن استصلاح الهواء من أعون الأشياء على صحة الأبدان ، وفساد الهواء من أضرها وأسرعها إلى إسقام البدن عند الأطباء ، وكل ذلك بإذن الله تعالى ومشيئته . اهـ.

ومن هذا الباب ما أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي ، كان النبي ، ﷺ، إذا أرمدت عين امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها .

ومن العجب ما وقفت عليه في مكتوب السلطان أبي العباس المنصور كتب لولده أبي فارس وهو خليفته على مراكش بتاريخ (١٠١١) في أمر وباء حدث إذ ذاك بسوس ، قال فيه ما نصه : والبطاقة التي ترد عليكم من سوس من عند أعمامكم ، أو ولد خالكم ، لا تقرأ ولا تدخل داراً ، بل تعطى لكاتبكم وهو يتولى قراءتها ، ويعرفكم مضمنها ، ولأجل أن كاتبكم يدخل مجلسكم ، ويلابس

مقامكم ،-حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تغمس في خل ثقيف وتنشر حتى تيبس ، وحينئذ يقرؤها ويعرفكم بمضمنها إذ ليس يأتيكم من سوس ما يوجب الكتمان عن مثل كاتبكم . اهـ.

وهذا هو عمل الإفرنج اليوم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة ، المعروفة في باب الوقاية ودوائر الصحة ، وقد كانت وقعت المحاورة بين عالمي تونس أبي عبدا لله محمد المناعي المالكي ، والشيخ أبي عبدا لله محمد بيرم الحنفي في إباحتها وحظرها ، فألف الأول في الحرمة وألف الثاني في الجواز ، مستدلاً ، على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة ، انظر رحلة الشيخ رفاعة الطهطاوي لباريز.

وفي إرشاد الساري ، في تفسير سورة النساء ، لدى قوله تعالى : ﴿وخذوا حذركم﴾ دل ذلك على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة . ومن ثم علم أن العلاج بالدواء ، والاحتراز عن الوباء ، والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب . اهـ. وانظر كلاماً لصاحب الاستقصاء في النازلة ، جعل ذلك مقيداً بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية ، وا لله أعلم . انتهى من كتاب التراتيب الإدارية.

ومما يجب ذكره في هذا المبحث ، هذه الحادثة الآتية التي تدل على مبلغ قوة إيمان أهل الزمن السابق الذين كانوا يتحصنون بالآيات ، ويلتجئون إلى ا لله تعالى في المحادثات.

قال الغازي رحمه ا لله تعالى في تاريخه نقلاً عن الحضراوي ، في تاج تواريخ البشر : وفي سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف ، كان بمدينة خير الأنام ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، وباء حتى مات جملة من الزوار في شهر رجب من أهل مكة وغيرهم ، فصدرت أوامر الدولة العلية والمصرية بإرسال حكماء الصحة لعمل كرنتينة على القادمين في تلك البطاح المعطرة بوادي الزاهر من أرض مكة المشرفة ، فصدر أمر أمير مكة ، سيدنا الشريف عبدا لله باشا بن المرحوم الشريف محمد بن عون ، بعد حضوره من الطائف إلى أربعة من الفقهاء ، بقراءة ختمة قرآن مدارسة مرتلة ، يدورون بها حول مكة المشرفة ، تحويطاً لها من السوء ، مبتهلين إلى ا لله تعالى في قبول ذلك .

فابتدأوا من ناحية المصافي "بجياد" ، جاعلين دور مكة على اليسار ، مارين بحدودها من أعالي الجبال ، إلى أن وصلوا إلى جبل حراء ، ثم انحدروا على طريق

العشر إلى أن نزلوا من أعالي الزاهر، فمسكوهم العساكر المحافظين للصحة في تلك الجهات، وتعلقوا بهم ظناً أنهم ممن ينبغ عليهم المحافظة، فخلصهم السيد هاشم بن شرف العبدلي لأنه كان مأموراً عليهم، وما زالوا سائرين إلى أن طلعوا من خلف الحفاير من أعالي الزاهر، ثم نزلوا على بركة الماجن بأسفل مكة، ثم ختموا بالمصافي، من حيث ابتدؤوا.

ثم في ثاني الأيام، جاؤوا إلى حجر إسماعيل عليه السلام وبجوار البيت المعظم، وقرأوا سورة يس وسورة الأنعام.

ثم صدر الأمر العالي من حضرة صاحب الإمارة الجلية، على سائر علماء الحرم، بقراءة صحيح البخاري تجاه البيت المعظم، وابتهلوا إلى الله تعالى أن يدفع الله السوء عن أهل هذا البلد، وعن سائر المسلمين وجلسوا الزوار ثلاثة أيام بالزاهر، ثم دخلوا مكة المشرفة، وقد حفظ الله الأول منهم والآخر، وصرف الله السوء. انتهى ما ذكره الغازي.

فانظر أيها القارئ الكريم كيف كانوا في الزمن السابق يتضرعون إلى الله تعالى في النوازل والشدائد، أما في زماننا هذا فإن الناس يهرعون إلى الأطباء والدكاترة عند شعورهم بأي ألم بسيط. نسأل الله العفو والعافية والصحة التامة.

لقد بحثنا مسألة الكرنتينة في الزمن السابق، أما مسألتها في زماننا هذا فإليك نبذة مختصرة عنها:

قامت حكومة جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز، بكافة مايلزم لحجاج بيت الله الحرام خير قيام، فكان من ضمن ذلك وضع المحاجر الصحية الفنية بمدينة "جدة"، لحماية الحجاج والسكان من الأمراض والأوبئة المعدية، وقد كان في جدة من قبل محجر صحي لا تزال آثاره موجودة إلى اليوم، في مكان من البحر يسمى "بالجزيرة" بقرب جدة، وذلك من أيام عهد الأتراك.

وهنا يسرنا أن نذكر بعض ما جاء عن محجرة جدة نقلاً عن النشرة اللطيفة التي طبعتها وزارة الصحة السعودية، بمناسبة افتتاح "مدينة المحاجر بجدة" رسمياً في ٢١ شعبان سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية، التي توافق ٣ إبريل (١٩٥٦) ميلادية، فقد جاء فيها ما خلاصته:

كانت عمليات الحجر الصحي في الماضي تجري عند الحاجة إليها في جزيرتين صغيرتين بالقرب من ساحل جدة، وكانت إحداهما للإدارة وفيها أماكن لحجز ركاب الدرجتين الأولى والثانية والجزيرة الأخرى معدة لركاب الدرجة الثالثة، وكانت هذه الأماكن مزودة بالاستعدادات التي لا غنى عنها لمواجهة الطوارئ، كالمباخر والوحدة الكهربائية، وجهاز تكثيف المياه.

وقد استخدمت هذه المحاجر في مناسبات كثيرة قبل سنة ١٩١١ ميلادية، ثم انقطعت الحاجة إليها بفضل التقدم الصحي، وإحكام الرقابة الصحية، فلم تدع الظروف لاستعمالها إلا عندما ظهرت الكوليرا في مصر سنة ١٩٤٧ ميلادية، فاستخدمت هذه المحاجر لحجز القادمين من مصر الذين لم يكونوا قد أتموا دور الحصانة عند وصولهم إلى هذه البلاد، فكان هذا الحاجز آخر ما استخدمت فيه مرافق هاتين الجزيرتين آنذاك.

وكانت الحكومة العربية السعودية قد طالبت بإلغاء بعض المواد في الاتفاقية الصحية الدولية لعام ١٩٢٦ من الميلاد، المبرمة في باريس، وتعديل بعض المواد الأخرى منها، بالنظر لعدم مطابقتها للأوضاع الفنية. على إثر ذلك وصلت إلى المملكة لجنة خبراء دوليين زارت المنشآت الكورنتينية في جدة، وقررت أن المنشآت المذكورة على استعداد كاف للقيام بالخدمات المحجرية اللازمة لاستقبال الحجاج، واقترحت توسعة المنشآت المذكورة، وإدخال بعض التحسينات على المرافق الصحية، وكانت الحكومة العربية السعودية قد باشرت تطبيق برنامجها الصحي الطويل الأمد، ومن أهم مشروعات هذا البرنامج إنشاء المحجر الصحي بجدة.

أما محجر جزيرة "كمران" فإنه في سنة ١٩٥١ ميلادية تقرر إلغاء هذا المحجر الذي كان يقوم بعمليات التفتيش الصحي على السفن والحجاج القادمين إلى جدة من الجنوب، وذلك بناء على تعهد الحكومة العربية السعودية بأن تتولى عملية التفتيش المشار إليها، بواسطة سلطاتها الصحية في ميناء جدة التي يمكن أن تحل محل محجر "كمران".

ومحجر جدة يتألف من ١٥٠ مبنى، أقيمت على ٢٢٩٠٠٠ متر مربع تقريبا، في مكان على بعد كاف من العمران وأحيط بأسلاك شائكة لمنع الاختلاط، ويتصل هذا المحجر بالشاطئ بطريق خاص.

وتضاء جميع أبنية المحجر بالكهرباء ، ويوجد فيه مكاتب الإدارة ، وسنترال التليفونات ، ومستودعات السيارات والحديقة ، وورشة النجارة ، والحمامات ، ودورة المياه ، والمطابخ ، والمغاسل ، والمباخر ، ومبنى المختبر مزود بكافة الآلات والأجهزة اللازمة ، وهو مكيف تكييفاً مركزياً بالأجهزة الخاصة ، وفيه مدرسة التدريب الصحي ، وفي غرب هذه المدرسة يقع مبنى الثلاجات المخصصة بعضها لحفظ اللقاحات والأمصال ونحوها ، والبعض الآخر لحفظ اللحوم والخضروات والفواكه اللازمة لنزلاء المحجر .

وبالمحجر مستشفى عام ، وصيدلية ممتازة ، وقسم للأشعة ، وغرف للمرضى ، ومساكن للأطباء والموظفين ، إلى غير ذلك مما هو من مستلزمات المحاجر والمستشفيات .

نسأل الله تعالى العفو والعافية والصحة التامة ، والتوفيق إلى كل عمل ديني وإنساني ، والله في عون المرء ما دام المرء في عون أخيه .

أول ظهور الجدري والحصبة بأرض الحجاز

ذكر الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى رحمة الأبرار ، في كتابه تاريخ مكة : أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب في عام حادثة الفيل ، وأنه أول ما رؤي بها من مراير الشجر الحرمل والحنظل والعشر ، في العام المذكور . انتهى منه . والعشر بضم أوله وفتح ثانيه ، هو نبات مر معروف عندنا .

نقول : إن أصحاب الفيل قد أهلكهم الله تعالى بالمغمس ، وهو بعد عرفات ببضع كيلو مترات إلى جهة الزيمة ، فهذه الأمور التي ظهرت بأرض العرب ، يكون ظهورها طبعاً بمكة المكرمة ، قبل جميع أراضي العرب ، لقرب هلاك أصحاب الفيل من مكة المشرفة ، ولا يبعد أن يكون ذلك من الوباء الذي وقع عن تعفن جثثهم ، والله تعالى أعلم .

على كل حال هذه العلل والأمراض ، لا بد أن يكون لها سبب من الأسباب .

التقارير الصحية بنظافة الحج

جرت العادة في عصرنا الحاضر أن ترفع التقارير الصحية بنظافة الحج من الأوبئة والأمراض المعدية، وترسل بذلك البرقيات إلى الجهات المختصة لعمل الترتيبات اللازمة من قبل الكورنتينات والمحاجر الصحية، لتسهيل مرور الحجاج ودخولهم البلدان لخلوهم من الأمراض الوبائية، فلو وجد فيهم شيء من ذلك لا قدر الله، فإن المحاجر الصحية تحجزهم لديها أياماً وتعالجهم إلى أن تتحقق من نظافتهم، فعند ذلك تسمح لهم بالسفر إلى بلادهم.

وإليك التقرير الصادر من وزارة الصحة بمكة المشرفة بنظافة حج عام ١٣٧٧هـ وسلامته من الأمراض:

جاء في جريدة البلاد السعودية، في العدد الصادر بتاريخ ١٥ ذي الحجة ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين من الهجرة، ما يأتي:

يسر وزارة الصحة بعد اطلاعها على قرار الهيئة الطبية العليا لحج عام ١٣٧٧هـ الموافق ١٩٥٨م ميلادية، وعلى تقارير المؤسسات، والوحدات، والمراكز الصحية المعنية بشؤون الحج أن تعلن نظافة حج عام ١٣٧٧هـ الموافق ١٩٥٨م وسلامته من جميع الأوبئة والأمراض المحجرية (الكورنتينائية) وتحمد الله على ذلك.

ولم تكن هذه العادة جارية في العصور السابقة، غير أن عادتهم كانت بإرسال المبشر بسلامة الحجاج. فقد ذكر الإمام السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة" ما يأتي:

ذكر قدوم المبشر سابقاً يخبر بسلامة الحاج، كان ذلك في عهد الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فمن بعدهم، وله حكمة لطيفة قل من يعرفها، قال الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه في قصته: حصر عثمان رضي الله عنه، واستمر الحصار بالديار المصرية، حتى مضت أيام التشريق ورجع البشير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوهم عن أمير المؤمنين. وأخرج مالك في الموطأ عن ابن دلان عن أبيه: أن رجلاً من جهينة كان يشتري الرواحل، فيتغالى بها، ثم

يسرع السفر فيسبق الحاج، فأفلس، فرفع أمره إلى عمر، فقال: أما بعد أيها الناس إن الأسيفع أسيفع جهينة رضي من دينه وأمانته أن يقال سبق الحاج، ألا وإنه ادان معرضاً، فأصبح وقد رين به فهمد، فمن كان له عليه دين فليأته بالغداة، فقسم ماله بين غرمائه، ثم كمل الدين. انتهى من الكتاب المذكور. والأسيفع طائر كالعصفور يكون بقرب الماء، وهو أيضاً المتباعد عن الأعداء والحسدة، والأسيفع تصغير أسفع أطلق على الرجل لسرعة رحيله ومفارقته الحاج.

فائدة

جاء في تاريخ الغازي المسمى إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، في الجزء الأول ما نصه:

وذكر الحضراوي في تاج تواريخ البشر، وفي سنة ١٢٨٨، كان بمدينة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، وباء حتى مات جملة من الزوار في شهر رجب من أهل مكة وغيرهم، فصدرت أوامر الدولة العلية التركية والمصرية، بإرسال حكماء الصحة لعمل كرنتينة على القادمين في تلك الأباطح المعطرة بوادي الزاهر من أرض مكة المشرفة، وبادر أمر أمير مكة سيدنا الشريف عبدالله باشا بن المرحوم الشريف محمد بن عون، بعد حضوره من الطائف إلى أربعة من الفقهاء لقراءة ختمة قرآن مدارسة مرتلة يدورون بها حوالي مكة المشرفة، تحويطاً لها من السوء، مبتهلين إلى الله تعالى في قبول ذلك، فابتدؤا من ناحية المصافي جاعلين دور مكة على اليسار، مارين بحدودها من أعالي الجبال إلى أن وصلوا إلى جبل حراء، ثم انحدروا على طريق العشر إلى أن نزلوا من أعالي الزاهر، فمسكوهم العساكر المحافظين للصحة من تلك الجهات وتعلقوا بهم ظناً أنهم ممن ينبغي عليهم المحافظة، فخصلهم السيد هاشم بن شرف العبدلي، لأنه كان مأموراً عليهم، وما زالوا سائرين إلى أن طلعوا من خلف الحفاير من أعالي الزاهر، ثم نزلوا على بركة الماجن بأسفل مكة، ثم ختموا بالمصافي من حيث ابتدؤا، ثم في ثاني الأيام جاؤا إلى حجر إسماعيل عليه السلام، بجوار البيت المعظم، وقرأوا لديه سورة يس وسورة الأنعام، ثم صدر الأمر العالي من حضرة صاحب الإمارة الجليلة على سائر علماء الحرم بقراءة صحيح البخاري تجاه البيت المعظم، وابتهلوا إلى الله تعالى، أن

يدفع الله السوء عن أهل هذا البلد وعن سائر المسلمين ، وجلس الزوار ثلاثة أيام بالزاهر ، ثم دخلوا مكة المشرفة ، وقد حفظ الله الأول منهم والآخر ، وصرف الله السوء . انتهى .

الجمال والسيارات بمكة المكرمة

بلاد العرب قاطبة كانت موطن الجمال والخيول والبغال والحمير ، وبالأخص بلاد الحجاز ، لكثرة الواردين إليها من الحجاج ، قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ وقال في أول سورة النحل : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ۞ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ۞ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم﴾ .

إن بلاد الحجاز وخاصة أهل الحرمين الشريفين كانوا يعتنون بالجمال والخيل والحمير أشد العناية في أكلها وشربها وراحتها ، أما البغال فهي قليلة لديهم ولا يستعملونها إلا في جر العربات ، وفي الخارج يستعملونها في جر العربات أيضاً وفي حمل أجزاء المدافع الثقيلة ، والطلوع بها إلى الجبال للعساكر ، وفي بلاد اليمن ، البغال كثيرة هنالك ، يستعملونها في أسفارهم وحمل أمتعتهم .

وفي بادية الحجاز ، عند العرب ، اعتناء عظيم بالجمال ، ولهم بها ولع شديد ، ولهم بأجناسها معرفة عظيمة ، كمعرفتهم بأجناس الخيل ، خصوصاً في بادية نجد والأحساء ، فمن الجمال ما يجعل للأسفار البعيدة ، وتسمى بالركائب أو النجائب أو الهجن "بضمتين" ، وهذه لا يركب عليها إلا شخص واحد أو شخص آخر يركب في مؤخراتها جهة ذيولها ، ولا يحمل عليها إلا الأمتعة الخفيفة اللطيفة ، فهذه الركائب سريعة المشي بطبيعة الحال ، فهي تقطع المسافات في أقل من الجمال العادية . ومن الجمال ما يجعل لحمل الأثقال والأمتعة الكثيرة الثقيلة ، وقد يجعل لركوب شخصين أو ثلاثة في هودج أو شقدف ، وهو منفصل إلى قسمين كالسريرين بطول الإنسان ، يكون في كل قسم شخص واحد ، ويكون الجمل في وسط الشقدف ، أي بين القسمين منه ، وربما جلس على ظهر الجمل شخص ثالث ، وهذا الشقدف يسير بفراش من الحنابل وغير بحيث يقي الجالس فيه الشمس نهاراً ، والهواء البارد ليلاً ، كما يقيه الأمطار عند نزولها حال مسيرهم ،

ومن الجمال ما لا يركب عليها عادة بل تحمل عليها الأمتعة والصناديق وأكياس الحبوب ونحوها ، وهذه الجمال والتي قبلها بطيئة المشي ، ولو لم يكن عليها حمل ، فهي تقطع المسافة التي بين مكة وجدة في ليلتين ، وتمكث نهاراً في منتصف الطريق بينهما ويسمى "بحرة" ، مع أصحابها وركابها من أول النهار إلى قرب المغرب ثم تستأنف السير ، ويسمى عندنا مسير ليلة بالمرحلة ، كما تقطع ما بين مكة المشرفة والمدينة المنورة في إحدى عشرة ليلة ، تسير بالليل وتقيل بالنهار .

هكذا كانت وسائل النقل والانتقال والأسفار ، بواسطة الحيوانات المذكورة ، في جميع الممالك والبلدان على وجه الأرض ، منذ العصور القديمة الأولى ، إلى أن اخترعت القطارات والسيارات والطائرات في أوائل القرن العربي الحالي ، أي إلى أوائل سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية ، فإنه من بعد هذه السنة المذكورة استبدل الناس في جميع الممالك تدريجياً النقل والانتقال بواسطة هذه المخترعات الحديثة وتركوا ما ألفوه من الانتقال بالحيوانات المذكورة ، فتطور الكون وهو من سنة الله تعالى في خلقه .

أما الحجاز وفي مقدمتها "مكة والمدينة" ، فلم يكن العرب يعرفون وسائل الانتقال إلا الجمال فقط ، فكنت تجد بمكة المشرفة في موسم الحج الذي كان يبدأ في ذلك الزمن في شهر رجب من كل عام ، آلافاً مؤلفة من الجمال ، أتى بها أصحابها من الصحراء والبادية لحمل الحجاج إلى مشاعر الحج ، من ينبع ورابغ وجدة ، فمكة المكرمة ومنى ومزدلفة وعرفات ، ثم الرجوع منها بعد الوقوف إلى مكة المكرمة ، ثم منها إلى المدينة المنورة ، كل ذلك بطريق البر من المحطات المعروفة من قديم الزمن .

إنك أيها القارئ الكريم لو كنت معنا في ذلك الزمن المبارك ، ورأيت تلك الآلاف المؤلفة من الحجيج على مختلف أجناسهم ، فلقد كان أول من يأتي من الحجاج إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، هم حجاج جاوا ، وكان يأتي منهم في بعض الأعوام سبعون ألفاً من الحجاج ، وكانوا في أول شهر رجب يحضرون إلى مكة المكرمة ويصومون رمضان بها ، كما كان يأتي من الحجاج المصريين نحو أربعون ألفاً ، وقس على ذلك بقية أجناس المسلمين .

ولو كنت معنا في ذلك الزمن المبارك ، ورأيت الآلاف المؤلفة من الحجاج يمشون في بطن مكة ويختلطون بأهلها ، ولو رأيت أيضاً الآلاف المؤلفة من الجمال

والحمير والشقادف والصناديق التي في بطونها أمتعة الحجاج ، والآلاف المؤلفة من المطوفين والخدم والحشم والجمَّالة ورؤسائهم ، كل ذلك لو رأيته في أيام الحج قبيل الوقوف ببضعة أيام ، ولو رأيت معنا أيضاً كيف كان ماء زبيدة تكفي هذا الحجيج الأعظم بدوابهم وحيواناتهم ، وكيف كانت بطاح مكة وبيداء منى ومزدلفة ، وساحة عرفات ، تعج بهم عجيجاً وتتجاوب الجبال والصخور والأحجار مع تلبيتهم وتهليلهم وتسبيحهم ، ومكة في ذلك العهد صغيرة الرقعة ، كثيرة المنعطفات والتعاريج ، ضيقة الشوارع والحارات ، فكيف كانت تسع تلك الجموع الزاخرة التي تشبه المحشر يوم القيامة ، إنه أمر الله تعالى وإرادته . لو رأيت أيها القارئ الكريم كل ذلك معنا في ذلك الزمن الفائت ، لأخذك العجب العجاب ، ولما وسعك بعد أن تشهد إلا أن تقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له بالملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله الكبير المتعال ، له ما في السموات وما في الأرض ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

ومن أراد زيادة الإيضاح والبيان عن الجمال والشقادف ، وطريق الحج بالبر ، والمحطات للقوافل ، وعن عوائد العرب والبدو ، وعن الحجاج في كل عام ، فليراجع كتاب "مرآة الحرمين" لإبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى .

هذا ، وإننا و لله الحمد والشكر ، رأينا تلك الأيام المباركة ورأينا هذه الأيام الزاهرة ، فهناك فرق كبير بين العهدين ، وبون شاسع بين الزمنين ، فأين ذهبت تلك الجمال وتلك الشقادف والهوادج ، فإليك تفصيل ذلك :

سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا ينتقلون منذ العصور القديمة بواسطة الحيوانات والأنعام ، فلما اخترعت الوسائل الحديثة من القطارات والسيارات والطيارات ، صاروا ينتقلون بهذه الوسائل المبتكرة ، ولكن لم يكن شيء من تلك الوسائل وصلت إلى الحجاز بعد . ففي سنة (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية ، وصلت أول سيارة لملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن علي بمكة المكرمة ، رحمه الله تعالى ، قدمها إليه هدية التاجر الهندي المسمى "بالكندواني" ، لكنه رحمه الله تعالى ، ما كان يستعملها إلا نادراً ، حيث لم تكن الطرقات معبدة وحيث لم يألف إلا ركوب الخيل .

فلما استولى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، على الحجاز في سنة (١٣٤٣) هجرية، شاء الله عز وجل، أن تتطور البلاد من حالة إلى حالة أعظم في المدنية والعمران، فكان أول بادرة لهذا التطور، وجود السيارات بمكة المشرفة وجدة والمدينة المنورة وغيرها، وذلك في سنة (١٣٤٦) فتألفت من أهالي البلاد بعض الشركات لإحضار السيارات من الخارج، فاشتغلوا بها برهة من الزمن، والأرض لم تتعبد بالإسفلت لسير السيارات، فكانت الجمال إذا رأت هذه السيارات وسمعت صوتها، نفرت عنها وهربت من طريقها سواء كانت داخل البلدة أو خارجها، ثم أخرجت الأرض كنوزها من معدن الزيت، حتى صارت الحكومة السعودية من أغنى الحكومات العربية، فتقدمت حياة الناس في جميع المرافق تقدماً محسوساً ملحوظاً.

فكانت الحكومة تستورد الكثير من السيارات على اختلاف أنواعها، لجميع أفراد الأسرة المالكة كبيراً كان أم صغيراً ولموظفي الحكومة أيضاً، وقامت الشركات وبيوت التجارة تستورد منها أنواعاً مختلفة لبيعها من الناس، وقامت الحكومة تعبد الطرقات والشوارع والمسالك بالإسفلت، حتى صارت جميع مدن المملكة مرتبطة ببعضها، واستغنى الناس عن ركوب الحيوانات، وهجروا استعمال الجمال والخيل والحمير. أما وجود البسكليتات والدراجات النارية، فقد كانت موجودة قبل سنة (١٣٤٣) هجرية بالحجاز، لكن بصورة قليلة جداً بعدد الأصابع، فكان الناس يسمون البسكليتات حمار الشيطان، لأنها تمشي بسرعة وعلى عجلتين، فلما أصلحت الطرقات والشوارع وعبدت بالاسفلت، وكثرت السيارات، كثرت أيضاً البسكليتات والدراجات النارية.

فما أتت علينا سنة (١٣٧٣) هجرية، وهي السنة التي توفي فيها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى، إلا وليس بالحرمين الشريفين جمال وشقادف لنقل الحجاج مطلقاً، حتى لقد صارت كلمة "شقدف" من الكلمات الغريبة التي تحتاج إلى شرح وبيان، أما الشقادف فهي معمولة من أعواد الخشب والحبال، فقد ذابت أو صارت طعمة للنيران، ولكن أين ذهبت تلك الآلاف المؤلفة من الجمال التي كانت تحمل الحجاج قبل السيارات؟ إنها ذهبت في بطون الأودية وشعاب الجبال، تذبح فتؤكل لحومها، أو تحمل ضعاف البدو من مكان إلى مكان، فلم تبق لهم بها عناية كعنايتهم السابقة، فسبحان الكبير المتعال

رب العزة والجلال، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو العزيز الجبار.

ومما يجب ذكره: أن مكة شرفها الله تعالى وأدام أمنها وأمانها كانت من سنة (١٣٤٨) ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين هجرية، فما قبلها إلى العصور السابقة، إلى عصر الإسلام وما قبله أيضاً، يسودها الهدوء والسكينة في جميع أنحائها ليلاً ونهاراً. فلما كثرت بها السيارات من بعد السنة المذكورة إلى الآن، كثر الضوضاء فيها وزاد الضجيج بها من هدير السيارات وأصوات عجلاتها، فسبحان مغير الأحوال.

انظر: صورة رقم ٤٥، ناقتان على كل منهما راكب من العرب.
وانظر: صورة رقم ٤٦، جملان يقودهما أحد الأعراب.
وانظر: صورة رقم ٤٧، الجمال باركة بشارع المعلا بمكة وبجوارها السيارات.
وانظر: صورة رقم ٤٨، بعض الجمال وفوقها أكياس الحبوب بالمدينة المنورة.
وانظر: صورة رقم ٤٩، قافلة من الجمال تمشي في أحد شوارع منى.
وانظر: صورة رقم ٥٠، جزء من قافلة الحجاج وهم على الشقادف فوق الجمال في أحد شوارع جدة قاصدين مكة المشرفة قبل سنة ١٣٤٥هـ.
وانظر: صورة رقم ٥١، الجمال وهي محملة بالشقادف يجلس فيها الحجاج.
وانظر: صورة رقم ٥٢، رتل من السيارات ناقلات الحجاج.

المشقات التي كانت تعترض الحجاج سابقاً

وبيان مسافات الطرق

مما لا جدال فيه، أن طريق الحج من جميع جهات مملكتنا في عهدنا الحاضر السعيد، طريق معبد للمسير والسيارات ممهد بجميع اللوازم والضروريات التي قد يحتاج إليها الحاج، من زاد وماء ووقود وإسعافات، أما الأمن والأمان، والأرزاق الوافرة بدون حساب، فحدث عنها ولا حرج، وقد شاع ذلك في الخافقين، كل هذا أولاً بفضل الله عز شأنه وبرحمته العميمة، ثم بعناية حكومة جلالة مليكنا الملك فيصل بن عبدالعزيز، زاده الله توفيقاً وعزاً.

أما في الأزمان السابقة والعصور الماضية، فقد كانت طريق الحج محفوفة بأنواع المخاطر والمشقات، ولنذكر ما حكاه بعض المؤرخين عن ذلك فنقول: قال صاحب الرحلة الحجازية، الذي حج في عام (١٣٢٧) هـ، في كتابه المذكور

عند الكلام على الطريق إلى الحرمين ما نصه: كانت طريق الحجيج إلى بيت الله الحرام كلها مشقات وأخطاراً في الزمن السابق، بما كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التي كانت تفتك بسوادهم في الطريق من حر الصيف وقر الشتاء، أو جفاف ماء الآبار في هذه الصحراء المحرقة، وما كان يدهمهم فيها من السيول التي أشد ما حصلت في سنة (١١٩٦)، حيث اجتاحت نصف الحجيج المصري بين مكة والمدينة، وعدا هذه الشدائد الطبيعية، فكثيراً ما كانت توقع بهم يد أشرار الأعراب، وأقص ما وقع لهم في سنة (١٢٠٠)، وكان أمير الحج المصري أمسك بعض لصوص حرب في طريق المدينة، ووسمهم بالنار على خدودهم فصرخت صرختهم، وتلاحقت به قبائل حرب، وحملوا عليه، فهرب مع عسكره، ووقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم، وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة. وكثيراً ما كان تجاذب السلطة بيد أشراف مكة وبعضهم، أو حربهم مع قبائل الأعراب، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر، يقفل في وجوه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم إلى هذه أو تلك، فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك، وعن الثانية بدون زيارة مسجد الرسول ﷺ ويعودون إلى بلادهم، وقد أضافوا على متاعبهم الأولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيتهم، فتضعف قواهم وتخور عزائمهم، وغالباً ما كانت تشتتهم يد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف إلى النهب والسلب، كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام. والناس لا يمنعهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين، اللهم إلا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي والوهابي، لأن الطريق كانت مقطوعة عليهم، ولم يسمع بأن جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقاً، ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدأ الإسلام إلى الآن، إلا في سنة (٦٥٤) التي لم يحج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الأشراف على إمارة مكة.

لذلك كان الحجاج إذا طلعوا إلى أداء هذه الفريضة كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون إلى دار حرب، لا إلى دار قد أمن الله فيه حياة الإنسان والحيوان، بل وحياة الأشجار، فإذا عادوا إلى بلادهم استقبلهم أهلوهم وذووهم بالطبول والزمور، فيقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح، بعد أن يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفاهيتهم، من نقش الدور وتجديد ما قدم عهده فيها من فرش وغيره، لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير. وكانت الطبقة الصغرى، وهي سواد

الحجاج وأكثرهم مشقة طبعاً، تزوق لهم واجهات منازلهم: فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه، ويرسمون إلى جانبها نخلة قد ربط إلى جذعها سبع وضبع في سلسلتين من حديد، وبقرب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده إشارة إلى أن صاحبنا حفظه الله، تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهالك.

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان، فإذا قيل لواحد منهم: يا حاج فلان، يعني يا أيها الشهم الشجاع، أما إذا لقب به الشيوخ والكهول، فإنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذي تحملوا في طريقه الأهوال التي تشيب منها الأطفال.

على أن طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه في أمسه، لذلك ترى الحاج في عودته بأبسط مما كان يستقبل به في الزمن السابق. وقليلاً ما تراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة، اللهم إلا محملاً يسير في جنده وإلى جانبه مركب بخاري، أو قطار سكة حديد، مما لا شيء فيه من معنى المشقة التي كان يصادفها الحاج في طريقه في الزمن السابق. وفي الحقيقة فإن طريق الحاج اليوم أقل صعوبة وأكثر أمناً منه بالأمس، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرة، ما دام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العلية، فلا بد أن يأتي يوم قريب يتذلل ما بقي فيه من الصعوبات، خصوصاً إذا تحقق خبر تسيير الطريق الحديدي بين المدينة ومكة، وبين هذه وجدة، والله الهادي إلى سواء السبيل. انتهى من الرحلة الحجازية.

فنحمد الله تعالى الذي أذهب تلك المشقات عن طريق الحج في عهدنا الزاهر الميمون، وجعله سهلاً ميسوراً لكل قاصد من غني أو فقير، اللهم أكثر علينا من خيراتك وفضلك، وعاملنا بإحسانك ورحمتك، وأصلح أحوالنا باطناً وظاهراً حتى نكون أهلاً لرضائك وإكرامك بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

الطريق من مكة إلى المدينة سابقاً

نذكر هنا الطريق التي كان الحجاج يسلكونها من مكة إلى المدينة في العصر السابق ، لأن في ذكرها معرفة الأماكن التي هجرت اليوم ، بسبب وجود السيارات (الأتومبيلات) والتي لها طريق ممهدة بالإسفلت ، وبسبب الطائرات أيضاً .

قال البتنوني في كتابه "الرحلة الحجازية" عن ذلك ما يأتي:

تقوم قوافل الحجاج من مكة إلى المدينة المنورة ، فيسيرون في واحدة من أربع طرق ، على حسب تبعية المقوم والجمالة إليها ، وهذه الطرق هي : السلطاني ، والفرعي ، والغاير ، والشرقي.

والطريق السلطاني هو أحسنها سيراً وأكثرها ماء . فإذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة ، وسارت إلى الشمال الغربي ، وتمر على المحطات الآتية :

وادي فاطمة	ويجري فيه ماء عذب يأتي من السيول التي تنزل من جبال الطائف ، وبه مزارع كثيرة ، ويسكن فيه عرب الأشراف ، من ذوي حسين وذوي غالب ، ويسكن في المنطقة التي بينه وبين مكة إلى بحرة بنو لحيان .
عسفان	ماؤها قليل ، وفي طريقها عقبة لا تسع إلا جملاً جملاً ، والعرب الذين يسكنون في هذه الجهة بشور (بشر) وحمران .
خليص	بها بئر التفلة ، وماؤها غزير ويسكنها قبائل زبيد ، وبقرب منها واحة بها مياه جارية ، وفيها بساتين ونخل .
القديمة	(القضيمة) قرية على البحر ، ومساكنها أكواخ صغيرة ، وماؤها من الحفر التي يخزنون فيها ماء الأمطار ، وأهلها من زبيد ، ويشتغلون في الغالب بصيد البحر ، ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .
رابغ	وهي قرية على البحر الأحمر ، وفيها قلعة بها بعض الجند العثماني ، وماؤها من الحفر والآبار ، وأهلها من زبيد . ويأتي إلى مياهها بعض السفن الصغير ليشتري ما يصيده أهلها من الأصداف وغيرها ، وينزلون إليها خفية كثيراً من الدخان وغيره من الأشياء الممنوعة ، وعلى الخصوص الأسلحة وما يلزمها من ذخيرتها ، ويبيعونها بأثمان رخيصة

	جداً .
مستورة	ماؤها غض (ومنها طريق إلى بدر ، إلى الصفراء ويسمونه الملف)، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح في بدر ، والأحامدة في الصفراء .
بئر الشيخ	وتسكنها قبائل صبح . والمياه على طول هذا الساحل لا ترغي الصابون .
ديار بني حصاني	ماؤها غض ، ويسكنها صبح والحوازم .
الحمراء	وهي قرية بها نهر عذب ، وفيها بساتين ونخيل ، ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز والحناء ، ويزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك ، ويسكنها الحوازم ، ومنها ينثني الطريق إلى الشمال الشرقي .
الجديدة	وهي قرية ماؤها عذب ، وبها قبر ولي الله سيدي عبد الرحيم البرعي المصري ، وتسكنها قبائل الحوازم والأحامدة . ومنها يميل الطريق قليلاً نحو الشرق.
بئر عباس	ويسكنها جانب من الحوازم وصبح والأحامدة ، وماؤها قليل ، ومنها يميل الطريق إلى الشرق قليلاً .
بئر درويش	ويسكن هذه الجهة قبائل الأحامدة والرِّحَلة (بكسر الراء وفتح الحاء).
آبار علي	ويسكنها قبائل عوف وعمرو ، وماؤها عذب وهي على مسافة نحو خمسة كيلو متراً من المدينة ، وتترك فيها القوافل شقادفهم وسحالبهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولها على المدينة ، ومن يريد أن يدخلها بمحمله دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه ، وربما طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتدبر .

الطريق الفرعي

والطريق الفرعي يبتدئ من رابغ متجهاً إلى الشمال الشرقي ، ويمر على المحطات التالية : وادي حرشان .

نقر الفار – وهو محجر ضيق منحدر ، تمر منه الجمال جملاً جملاً ، ويسكنه بنو سالم .

بئر رضوان – وماؤها عذب .

أبو ضباع أو أم ضباع – وماؤها عذب ، ويسكنها بنو عوف .

الرياض أو وادي الريان – وماؤها عذب وشجرها كثير ، ويسكنها بنو عمرو .

الغدير – وفيه مجرى ماء .

وادي المعظم – ماؤه عذب .

بئر الماشي – ماؤها عذب حلو ، ويسكنها بنو عوف .

طريق الغاير

وطريق الغاير يبتدئ من رابغ أو من مستورة ، ويقطع جبل الغاير إلى الشمال ، وهو أقل هذه الطرق مسافة فإذا وصل المسافر إلى الغاير صعد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جداً ، بحيث لا يسع إلا دابة دابة . وهذا الطريق خطر في صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركاب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لأنها متعودة عليه ، ومسافة الصعود إلى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات . ويسكن الغاير ومنحدراته قبائل اللهبة ومسروح ، وهما شر العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدني ، لأن أهل المدينة يستسهلونه في حجهم لقربه ، فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم ويسيرون فيه قوافل قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء ، ويقيمون فيها ريثما يأكلون ويصلون ، ثم يستأنفون السير إلى مكة . وكثير من الحجاج الأقوياء الخفاف الأثقال ، وخصوصاً من المصريين ، كانوا يصحبونهم من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة عقب أيام التشريق مباشرة ، وينتظرون بالمدينة ، حتى إذا جاءت القوافل إليها انصرفوا معها إلى ينبع .

وكانت حارة من المدينة تكون قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة ، ويسمون ذلك ركباً فيقولون : "ركب فلان حضر إلى مكة ، أو قام منها في يوم كذا" وكذلك الحال في زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب .

الطريق الشرقي

والطريق الشرقي يخرج من مكة من باب المعلى ، ويتجه إلى البياضية ، ثم يسير في طريق ، شمال طريق منى ، ويتجه إلى الشرق ، ويمر على المحطات الآتية :

بئر البارود	ماؤها عذب .
وادي الليمون	ويكثر فيه شجر الليمون والنارنج والليمون الحار ، ويزرع فيه البطيخ والخضر . وفيه ماء جار ينزل إليه من جبال الهدى ، ويسير في مجرى مبني إلى بساتينه وغياضه . ومنه يتجه الطريق نحو الشمال .
الحفاير	(الضربية) مياهها عذبة ، وقريبة من سطح الأرض .
بركة سمرة	لا ماء فيها مدة الصيف.
بركة المسلح	(حارة) ماؤها غزير وبساتينها كثيرة .
الحبيط	(الضيعة).
سفينة	(صفينة) وبها نخل وآبار عذبة .
السويرجية	(السويرقية) قرية يسكنها سادات من بني حسين وبها آبار ومزارع كثيرة .
الحجرية	ويبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة .
غرابة	أو غراب ، وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الأرض .
الغدير	أو الحنك ، وبعضهم يكتبها الحنق ، وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الأمطار .
سيدنا حمزة .	المدينة المنورة .

وعربان هذا الطريق من التريود واللهبة وعتيبة ومطير والرحلة ، وهم أبعد العرب عن الحضارة .

انتهى من الرحلة الحجازية للبتنوني .

نظام القوافل

ثم بعدما تقدم من الكلام، قال صاحب الرحلة الحجازية المذكور تحت عنوان "نظام القوافل" ما يأتي:

قلنا أن الحجاج لا يخرجون من مكة إلى المدينة إلا في ركب القافلة التي تكون جمالتها من أهل الطريق الذي يسيرون فيه، وغالباً ما تكون جمال الحجاج تابعة لجمال واحد، وهو الأحسن، أما لو كانت تابعة لجمالين، فتكون مشغوليته أكبر، وتعبه بينهما أعظم. وعلى كل حال فعلى الحاج أن يجتهد في تخفيف أحماله وأثقاله، فإذا كملت شحنة القافلة، نهضت الجمالة بجمالهم، وأخذوا يقطرونها في بعضها قطاراً واحداً أو قطارين بجوار بعضهما، وفي المقدمة يكون غالباً أكبر الركب وجاهة وعصبية، وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جمله، ومنهم من يرى تقدمها على جمله حتى تكون على الدوام تحت نظره، خوفاً عليها من عبث العابثين.

والجمل عندهم ينقسم إلى قسمين، جمل الشقدف: ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤنتهما اليومية، وجمل الحمل، ويقال له العصم، يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان، إن كان المتاع قليلاً. وأجرة العصم في الغالب ثلثا أجرة جمل الشقدف الذي يكون من الجمال المتينة القوية، حتى يتيسر له حمل ما فوقه. وليس لهذه الأجرة من رابطة، بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالي، على حسب أهوائهما وتحت رحمتهما بضيوف الله، ثم ينادي بها المنادي في الأسواق، ولذلك تراها كالترمومتر ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ولاة الأمور بمكة. ولقد كانت أجرة الشقدف في سنة ١٣٢٨ ست ليرات عثمانية من مكة إلى المدينة إلى ينبع، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيهاً مصرياً ونصف، كانت تؤخذ من الحاج في مكة بواسطة المطوف، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمّال في طريقه من طلبه زيادة على الأجرة المذكورة مدعياً بأنه لم يصله شيء من أجرته.

وعليه، فإذا كان الحاكمون في بلاد العرب من الأخيار البعيدين عن المطامع، كانت الجمالة على أخلاقهم، والعكس بالعكس، (والناس على دين ملوكهم).

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون غالباً إلى المدينة في قافلتهم بحجة المحافظة عليهم ، وكثيراً ما يغرر الجمالة بضعاف الحجاج ، فيأخذون الأجرة منهم ، ويخبرونهم بأن الجمال خارج البلد ، ويرجونهم في أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس ، وهو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع ، وليست لها قيمة مخصوصة ، بل ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ذوي الكلمة هناك ، وربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور ، مع أن الذي يرد لخزينة الدولة منها ستة قروش فقط) ، فإذا خرج الحجاج المساكين من مكة لا يجدون إلا جمالاً ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة ، وكثيراً ما يتركونها ويسيرون على أقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها .

والقافلة لا تنتظم عادة إلا بعد أول محطة ، حيث ينظم الجمالة جمالهم ، ويرتبون قطاراتهم التي لا يخالفونها طول سفرهم .

والجمالة في الغالب نحيفو الجسم رفيعو الساقين قصار القامة ، يكاد أن لا يكون في جسمهم عضل بالمرة ، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابة ، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد ، ولقد رأيت رجلاً منهم يعدو وراء جمل شارد ، حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجري ، ثم أمسك بزمامه ، أما ملابسهم فهي قميص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير ، وفي أيديهم عصا غليظة قصيرة ، يسمونها المطرقة ، وعلى رؤوسهم تلك الصمادة "الكوفية" التي يلفونها عليها بأشكال مختلفة ، وبعض عرب الشروق واليمن يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة ، إن لم تكن هي ، ويسمونها الظلة .

وبعض الجمالة يلبس نعلاً في رجله تقيها من حرارة الأرض وحصبائها . أما نظافة ملابسهم ، فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير أنها إذا اتصلت بجسومهم لا يخلعونها مطلقاً حتى تنخلع هي عنها ، وهذا لا يكون إلا إذا أكل عليها الدهر وشرب ، والمترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة في موسم الحج ، وبعضهم يلبس عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مشلحاً ، ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال ، فتراها صفراء قاتمة أو حمراء طوبية ، وربما كان اختيارهم لهذه الألوان حتى لا ترى بسهولة من بعد ، بل يشكل فيها الأمر على

الرائي ، وفي ذلك ما لا يخفاك من الفكرة التي أساسها الخبث والغدر ، وربما أخذ من هذا تغطية الاستحكامات الجديدة في أوروبا بطبقة ترابية ، تشبه أرض المنطقة المحيطة بها ، وبعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوخ الأحمر ، فيفرحون بها فرحاً عظيماً ، وتقع في نفوسهم موقعاً حسناً ، ويتباهون بها على اقرانهم ... إلى آخر كلامه الطويل عن وصف الجمالة التي أضربنا عنها صفحاً ، لعدم احتياجنا إليها ، مكتفين بما ذكرناه . انتهى من الرحلة الحجازية للبتنوني .

الطريق المسلوك من مصر إلى مكة

وبمناسبة كلامنا عن طريق الحج ، نذكر أيضاً ما جاء في كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" للإمام السيوطي رحمه الله تعالى ، للإحاطة والتبصرة . فقد قال فيه ما يأتي : ذكر الطريق المسلوك من مصر إلى مكة ، شرفها الله تعالى . قال ابن فضل الله في المسالك : المحامل السلطانية وجماهير الركبان لا تخرج إلا من أربع جهات وهي : (مصر، ودمشق ، وبغداد ، وتعز اليمن) ، قال: فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطاني ، والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين والمجبرين والأدلاء الأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضي والشهود والدواوين والأمناء ومغسل الموتى ، في أكمل زي وأتم أبهة ، وإذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلا تدق الكوسات وينفر النفير ليؤذن الناس بالرحيل والنزول . فإذا خرج الركب من القاهرة ، نزل البركة على مرحلة واحدة ، فيقيم بها ثلاثة أيام أو أربعة ، ثم يرحل إلى السويس في خمس مراحل ، ثم إلى نخل له خمس مراحل ، وقد عمل فيها الأمير إلى ملك الجوكندار المنصوري ، أحد أمراء المشورة في الدولة الناصرية ابن قلاوون بركا ، واتخذ لها مصانع ، ثم يرحل إلى أيلة في خمس مراحل وبها العقبة العظمى ، فينزل منها إلى حجز بحر القلزم ، ويمشي على حجزه حتى يقطعه من الجانب الشمالي إلى الجانب الجنوبي ، ويقيم به أربعة أيام أو خمسة ، وبه سوق عظيم فيه أنواع المتاجر ، ثم يرحل إلى حفل مرحلة واحدة ، ثم إلى بر مدين في أربع مراحل ، وبه مغارة شعيب عليه الصلاة والسلام ، ويقال إن مأوها هو الذي سقى موسى ، عليه الصلاة والسلام غنم بنات شعيب . ثم يرحل إلى عيون القصب في مرحلتين ، ثم إلى المويلحة في ثلاث مراحل ، ثم إلى الأزلم في أربع مراحل ، وماؤه من أقبح

المياه ، وهناك خان بناه الأمير إلى ملك الجوكندار وعمل هناك بئراً أيضاً . ثم إلى الوجه في خمس مراحل وماؤه من أعذب المياه ، ثم إلى أكرى في مرحلتين وماؤه أصعب ماء في هذا الطريق ، ثم إلى الحوراء ، وهي على ساحل بحر القلزم ، في أربع مراحل ، وماؤها شبيه بماء البحر لا يكاد يشرب . ثم إلى نبط في مرحلتين وماؤه عذب ، ثم إلى ينبع في خمس مراحل ويقيم عليه ثلاثة أيام ، ثم إلى الدهنا في مرحلة ، ثم إلى بدر في ثلاث مراحل ، وهي مدينة حجازية وبها عيون وجداول وحدائق وبها فرضة المدينة الشريفة . ثم يرحل إلى رابغ في خمس مراحل ، وهي بإزاء الجحفة التي هي الميقات ، ثم يرحل إلى خليص في ثلاث مراحل ، وبها بركة عملها الأمير أرغون الناصري ، ثم إلى بطن مر في ثلاث مراحل ، وفي طريقه بئر عسفان ، ثم يرحل من بطن مر إلى مكة المشرفة مرحلة واحدة ، ثم يرجع في منازله إلى بدر فيعطف إلى المدينة الشريفة ، فيرحل إلى الصفراء في مرحلة إلى ذي الحليفة في ثلاث مراحل ، ثم إلى المدينة الشريفة في مرحلة ، ثم يرجع إلى الصفراء ويأخذ بين جبلين في فجوة تعرف بنقب علي ، حتى يأتي الينبع في ثلاث مراحل ، ثم يستقيم على طريقه إلى مصر . انتهى من حسن المحاضرة .

وجاء في الجزء الرابع عشر من كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي ، الذي فرغ من تأليفه سنة (٨١٤) أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة ، عن المراحل الموصلة إلى الحرمين ما يأتي :

معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية

على ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، إذا كانت من تتمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة

وكما ضبطت تلك بالمراكز فقد ضبطت هذه بالمراحل ، وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأثقال ودبيب الأقدام ، ويقطعونها كلها في شهر بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام ، أما من يسافر على النجب مخفاً مع الجد في السير ، فإنه يقطعها في نحو أحد عشر .

ثم ذكر القلقشندي أسماء المراحل من مصر إلى مكة ، ونحن نذكرها هنا عنه ، لكن لا على ترتيب كتابه ، وإنما نحن جعلناها على شكل جدول ، وهو هذا :

عدد	أسماء المراحل	ملاحظات
١	من القاهرة إلى البركة	وهي معرفة ببركة الحاج
٢	البويب	......
٣	الطليحات	......
٤	المنفرح	......
٥	مراكع موسى	......
٦	عجرود	وبها بئر ومصنع ماء متسع يملأ منها
٧	المنصرف	......
٨	وادي القباب	وهو كير الرمل
٩	أول تيه بني إسرائيل	وهو واد أفيح متسع
١٠	العنق	......
١١	نخل	وبها ماء طيب
١٢	جسد الحي	......
١٣	بير بيدرا	......
١٤	تمد الحصا	......
١٥	ظهر العقبة	......
١٦	سطح العقبة	وهو عرقوب البغلة على جانب طرف بحر القلزم ، وفيها ماء طيب من الحفائر
١٧	حفن	على جانب بحر القلزم "وهو البحر الأحمر" وفيها ماء طيب من الحفائر
١٨	عش الغراب	......
١٩	آخر الشرفة	......
٢٠	مغارة شعيب	وبها ماء ومصنع
٢١	وادي عفان	......
٢٢	ذات الرخيم	......
٢٣	عيون القصب	وبه ماء نابع ، وأجمة قصب نابتى فيها
٢٤	المويلحة	وبهاء ماء في آبار
٢٥	المدرج	......
٢٦	سلمى	مجاور بحر القلزم ، وبهاء ماء ملح

عدد	أسماء المراحل	ملاحظات
٢٧	الأثيلات	......
٢٨	الأزنم	والناس يقولون الأزلم باللام بدل النون ، وبه آبار بها ماء رديء يطلق بطن من شربه ، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال ، وهو نصف الطريق
٢٩	وادي عنتر	......
٣٠	الوجه	وبه آبار قليلة الماء وهو داخل الوادي يعز الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حفائر ، ويقال إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب ماؤه ، وفيه يقول من حج من الشعراء وعز عليه وجود الماء فيه: إذا قلّ ماء "الوجه" قلّ حياؤه ولا خير في (وجه) بغير حياء ، والحيا المطروفية تورية . وفي رواية: إذا قل ماء "الوجه" قل حياؤه ولا خير في "وجه" إذا قل ماؤه .
٣١	المحاطب	......
٣٢	أكرا	......
٣٣	رأس القاع الصغير	......
٣٤	قبر القروي	......
٣٥	كلخا	......
٣٦	آخر القاع الصغير	......
٣٧	الحوراء	وبهاء ماء غير صالح
٣٨	العقيق	بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيق صعب
٣٩	مغارة نبط	وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه
٤٠	وادي النور	......
٤١	قبر أحمد الأعرج الدليل	......
٤٢	آخر وادي النور	......
٤٣	رأس السبع وعرات	......

عدد	أسماء المراحل	ملاحظات
٤٤	دار البقر	......
٤٥	ينبع	وهي النصف والربع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم .
٤٦	المحاطب في الوعر	......
٤٧	رأس وادي بدر	وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق
٤٨	رأس قاع البزوة	......
٤٩	وسط قاع البزوة	......
٥٠	رابغ	وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر ، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي ﷺ ، بنقل حمى المدينة إليها بقوله : "وانقل حماها إلى الجحفة ، فلو مر بها طائر لحم" .
٥١	قديد	بضم القاف
٥٢	وعقبة السويق	......
٥٣	خليص	وبه مصنع ماء
٥٤	عسفان	......
٥٥	مدرج علي	وهو كثير الوعر
٥٦	بطن مر	والعامة يقولون "مرو" بزيادة الواو ، وبه عيون تجري وحدائق
٥٧	مكة المشرفة	شرفها الله تعالى وعظمها
٥٨	منى	وبها ماء طيب من آبار تحفر
٥٩	المشعر الحرام المزدلفة	......
٦٠	عرفة	وهي الموقف وإليها ينتهي سفر الحجاج

انتهى كل ما ذكر من كتاب صبح الأعشى ، ونحن قد وضعنا نص كلامه على هذه الصورة في هذا الجدول .

الطريق من مصر إلى الحرمين قديماً وحديثاً

تختلف المدة اللازمة للإنسان ليصل إلى الحرمين الشريفين من بلدته بحسب قرب الأقطار أو بعدها، فقد ذكر العلامة الباجوري، رحمه الله تعالى أن عادة أهل مصر الخروج منها للحج في اليوم السابع والعشرين من شوال، وعوده إليها في آخر شهر صفر اهـ.

يعني: أن الحاج المصري يقضي في طريق الحج أربعة أشهر كاملة ذهاباً وإياباً في عصر لم تكن فيه بواخر سريعة ولا قاطرات ولا سيارات ولا طائرات، فإذا كانت المدة تطول إذا أتى الحاج من البلاد البعيدة والأقطار النائية، كمن يأتي من أقصى السودان وأقصى العراق وتركستان وبخارى والهند والسند والصين وجاوة وغير ذلك، وبالضرورة تكون النفقات اللازمة كثيرة أيضاً، بحسب بعد المسافات وقربها، وبحسب وسائل الركوب القديمة والحديثة. ذكرت جريدة المدينة المنورة بعددها (٦٤٣) في ٦ ذي الحجة عام ١٣٧٥هـ أن رجلاً من البنقال من باكستان الشرقية وصل إلى المدينة حاجاً ماشياً على قدميه من بلاده، وقد مر بصحراء راشبوتا بالهند، وصحراء بلوجستان الخطيرة، وصحراء دشبتلوت بإيران، وقدم المدينة عن طريق النجف وحائل، وغادر المدينة إلى مكة ماشيا أيضاً، وقد قال هذا الحاج إن له أكثر من سنتين ونصف وهو يمشي قاصداً الحج اهـ. وليس بمستغرب أمر هذا الرجل حيث لم يستعمل شيئاً من وسائل الركوب.

أما المسافر بوسائل الركوب الحديثة العصرية الآن، كالطائرات والسيارات والقطارات والبواخر العظيمة السريعة، فيكفي أسبوع واحد أو أقل للحاج المستعجل لقدومه ورجوعه إذا ركب طائرة، والله تعالى أعلم بما سيحدث في المستقبل من الاختراعات العجيبة، التي لم تكن تخطر بالبال.

ولنذكر هنا كيفية الوصول سابقاً من مصر إلى الحرمين الشريفين "مكة والمدينة"، وقد اختصينا الكلام عن مصر دون سائر البلدان لأمرين: الأول: لما لمصر من المكانة المرموقه الثابتة في قلوب جميع الأمم. والثاني: لأن حجاج أغلب الممالك كانوا في السابق يخرجون من بلادهم فيهبطون مصر أولاً، ثم يسيرون إلى الحرمين، كبلاد المغرب والسودان والسنغال وبلاد التكرور وبلاد الشام والترك والقوقاز وبخارى وغيرها.

ولننقل هنا ما جاء عن طريق الحج في الأزمان السابقة من كتابين :

(الأول) : كتاب تاريخ مكة المطبوع سنة ١٣٧٢هـ ويقع في ٤٥٠ صحيفة ، ومؤلفه صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي المكي ، فقد ذكر طريق الحج في كتابه في أربعة مواضع بصورة مختصرة مفيدة .

(الثاني) : كتاب الرحلة الحجازية للأستاذ محمد لبيب البتنوني المصري ، وقد طبع للمرة الثانية سنة (١٣٢٩) ، ويقع في ٣٣٤ صحيفة ، وقد ذكر طريق الحج وطريق المدينة بصورة مطولة مفيدة فائدة جليلة .

ولنبدأ بما جاء في كتاب تاريخ مكة المذكور لما فيه من الاختصار المفيد الذي يرسخ سريعاً في الأذهان ، فنقول : جاء فيه بصحيفة ١٤٧ ما نصه :

وقد كان الحجاج أغلب ما يفدون في هذا العهد "أي عهد الفاطميين" من طريق مصر ، يصلون إليها من الأندلس والمغرب وإفريقيا ، براً وبحراً ، كما يصلون إلى الشام من بلاد الترك والقوقاز وبخارى والقرم والقازان وشمال روسيا وسيبريا وجزائر البحر الأبيض ، ثم يسافرون إلى مصر ليجتمعوا مع من اجتمع فيها من غيرهم بالقاهرة ، ومن ثم يفصل بعضهم بعد شهر رمضان إلى السويس ، حيث تقلهم المراكب الشراعية إلى جدة ، ويمضي الكثيرون مصعدين في الصعيد إلى قوص برا ، أو من طريق النيل ويستغرق ذلك نحو عشرين يوماً ، ثم يتجهون إلى عيذاب أو القصير في أعلى الصعيد على شاطئ البحر الأحمر ، حيث ينتظرون المراكب التي تقلهم إلى جدة ، وقد يستغرق انتظارهم في الميناء نحو شهر ، كما يستغرقهم السفر منها إلى جدة عشرة أيام .

وكانوا يستقلون مراكب غير محكمة وأشرعتها من حصير ، وأصحابها يتعسفون بالحجاج ، ويشحنون فيها أكثر من حمولتها ، ولذلك كانوا يتعرضون لأخطار البحر ، كما أن بعض المراكب كان يغرق بالفعل .

وكان يحكم عيذاب والقصير بدوي من عرب البجاه ، ومندوب يمثل حكومة مصر ، وكان الحاكمان يتوليان استيفاء رسوم الحجاج في عيذاب ، نيابة عن صاحب مكة ويقتسمان معه الواردات .

وكان عرب البجاه يتولون كذلك نقل الحجاج في صحراء الصعيد فوق جمالهم ، وفي البحر إلى جدة على مراكبهم الشراعية ، وكانوا يرهقون الحجاج

باستغلالهم ، وربما عرضوهم للطريق المعطش ليموتوا فيستولوا على متاعهم . انتهى .

وعرب البجاه أو البجه ، يقال إنهم من البربر وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحزية في صحراء قوص ، اهـ.

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ١٦٩ ما نصه : وفي هذا العهد "أي عهد الأيوبيين" ، بدأ سبيل الحج يتحول معظمه من طريق عيذاب والقصير في الصعيد ، إلى العقبة شرقي مصر حيث ينحدرون براً إلى شمالي الحجاز ، فقد سافرت شجرة الدر على رأس قافلة من الحجاج من ذلك الطريق ، فتحولت القوافل إليه ، وكان يقلها (محمل) على شكل هودج ، اتخذ فيما بعد شعاراً لقافلة المصريين ، ثم قلدهم فيه بعض الأمم من المسلمين .

وحج ابن جبير في هذا العهد من طريق عيذاب ، فوصف القوافل التي كانت تسير بين قوص وبينها ، وقال إن المترفين فيها كانوا يمتطون (الشقاديف) وهي أشباه المحامل ، يوصل منها اثنان بالحبال وتوضع على البعير ولها أذرع قد وضعت بأركانها ، ويكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله ، يطالع فيها متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ، ومن شاء فمن يستجير اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكهاً .

والذي أقوله ، أن هذا الوصف يشبه وصف (الشقاديف) التي كنا نركبها فوق الإبل ولا تزال بقاياها إلى اليوم . ويفهم من هذا أن استعمال الشقادف لم يكن خاصاً بالحجاز ، بل كان مستعملاً في مصر ، انتهى .

نقول : قال في كتاب قاموس الأمكنة والبقاع ، لجامعه علي بهجت ، وكيل دار الآثار العربية بمصر ، عن عيذاب ما يأتي : قال ياقوت : هي بليدة على ساحل بحر القلزم "البحر الأحمر" ، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد ، ومنها تعدي إلى جدة . وقال المقريزي : وهي ثغر على البحر الأحمر مسامة تعوص بينهما مسيرة سبعة عشر يوماً ، وكانت من أعظم مراسي الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحاج الصادرة والواردة ، وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى ، وكان لهم على كل حمل يحملونه للحاج ضريبة مقررة وكانوا يكارونهم الجلاب (مراكب مخصوصة) التي تحملهم إلى جدة ، ومن جدة إلى عيذاب ، فيجتمع لهم من ذلك مال كثير .

وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ في جزائر قريبة منها ، يخرج إليها الغواصون في وقت معين من كل سنة في الزوارق فيقيمون هنالك أياماً ، ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ. والمغاص فيها قريب القاع ، وكان تجار الهند واليمن والحبشة متى وصلوا ببضائعهم إلى عيذاب ، يسلكون الصحراء إلى قوص ، ومنها يحرون إلى مدينة مصر ، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحاج والتجار ، حتى كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحوهما توجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يتعرض لها أحد ، إلى أن يأخذها صاحبها ، أقول وقد دثرت هذه المدينة . انتهى من كتاب قاموس الأمكنة والبقاع .

وجاء في تاريخ مكة أيضاً ، بصحيفة ٢٣١ ما نصه : وكان طريق الحجاج قد انتقل في أواخر عهد الأيوبيين من القصير وعيذاب إلى طريق العقبة ، كما أسلفنا ذلك ، ثم ما لبث أن أخذ هذا الطريق أهميته في عام (٦٦٠) ، حيث سير الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحجاج منه ، وأرسل معها كسوة الكعبة ومفتاحها الذي صنعه لها . ثم عنى الشراكسة بتنظيم السير في هذا الطريق عما كان في عهد الأيوبيين ، وأول من نظم شؤون السير ، هو أحد الأمراء المصريين واسمه جمال الدين ، فقد سافر والده أميراً للمحمل في عام (٨٠٩) ، فعني الولد بترتيب القافلة عند وصولها إلى عجرة وهي محطة قبيل السويس ، فأمر بكتابة أكابر الحجاج ، ورتب سيرهم في مكان معين من القافلة ، بعد أن ضبط طليعة القافلة وساقتها بجماعة من العسكر ، وجعل الأموال تتوسطها .

والطريق بين السويس والعقبة شاق جداً ، تسوخ في رماله خفاف الجمال ، ويتيه في بيدائه المسافرون فلا يهتدون إلا بأنصاب من الحجر بنيت على الطريق لهدي المسافرين ، وكان الحجاج يعانون فيه من قلة الماء ما يعانون ، وكانت المسافة بين السويس والعقبة زهاء (٣٠٠) كيلو ، تقطعها قافلة المحمل ، وهي أسرع القوافل سيراً ، في أكثر من عشرة أيام . وتصعد القوافل في العقبة وتنيخ في مدينتها للراحة ، فقد كانت محطة من محطات الحج المصري في هذا العهد الذي ندرسه ، وكانت مصر تحشد من جنودها في قلعتها ما يكفي لتأمين طريق الحجاج ، وكانت العقبة إلى ذلك ملتقى الحج السوري بالمصري ، فقد كانت قوافل السوريين تصل إليها من غزة ، فتلتقي بقوافل المصريين ، ثم ينحدرون إلى قرية أيلة ، وهي المدينة القديمة التي اندثرت وقامت العقبة على أنقاضها .

وتنتقل قوافل الحجاج بعد ذلك إلى مدينة الوجه ، فتصلها في أقل من نصف شهر ، وكان في الوجه محافظ يحكم المدينة من الشراكسة ، وقاض ينظر في قضاياهم الشرعية ، وجند يحافظون على الأمن ، وسوق عام تعرض فيه السلع الواردة من الشمال والجنوب والغرب ، وكان الطريق يتشعب بعد الوجه إلى العلا شرقاً وينبع جنوباً والمدينة المنورة من الناحية الجنوبية الشرقية ، وبذلك كان سير القافلة يستغرق في العادة نحو شهر ونصف إلى المدينة أو مكة ، وذلك للقافلة ذات السير السريع .

وكانت ثمة طرق أخرى أكثرها برية تمضي فيها قوافل الشام والقدس، أهمها طريق العريش وطريق العلا ، وهو الطريق الذي يقطعه المحمل الشامي من دمشق إلى المدينة في مدة لا تقل عن أربعين يوماً .

وظلت هذه الطرق عامرة بقوافل الحجاج إلى سنة (١٣٠١هـ) حيث اتخذ الحج المصري طريقه من السويس إلى جدة في المراكب الشراعية قبل استعمال البواخر كما سيأتينا . انتهى.

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ٣٢٨ ما نصه : وظل طريق الحجاج طوال هذا العهد (أي عهد العثمانيين الأول) على حاله في عهد المماليك يأخذ سبيله من العقبة إلى الشام أو مصر ، وقد عنى الخلفاء من بني عثمان بمحطاته على طول الطريق ، وكانوا ينفقون على تحصين القلاع في العقبة والمويلح وضبا والوجه من أموال الخزينة التركية المصرية . وقد ظلت على ذلك إلى العهد العثماني الثاني ، حيث انتقل فيه طريق الحج من السويس بحراً في سنة (١٣٠١)، واستحوذ العثمانيون على قلاع العقبة والوجه ، ثم ألحقوها بإمارة مكة سنة (١٣١٠) ألف وثلاثمائة وعشرة ، وكان حجاج الهند يصلون إلى مكة براً من إيران والعراق ، ثم ركبوا السفن الشراعية في أوائل هذا العهد من ميناء سورت بجوار بومباي .

انتهى كل ما ذكرناه من (تاريخ مكة) للأستاذ أحمد السباعي ، وهو كما لا يخفى ، كلام مختصر مفيد .

أما ما جاء في "الرحلة الحجازية" ، فإنه كلام مطول مفيد جداً ، لا يستغني عنه الباحث المستقصي ، حتى أنه جاء فيه أسماء المحطات التي كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة إلى مكة المشرفة ، والمسافة التي بين كل محطة وأخرى مبينة بالساعات ، ففي كل ذلك من الفوائد المتعددة ما لا يخفى .

وإليك ما جاء فيها بصحيفة ٢٧ وهذا نصه :

كانت مصر ، ولا تزال ، طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، في نصف الكرة الأرضية الغربية ، باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم ، أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار إلى محيط جميع دائرة الأقطار ، فالأندلسي الذي كان يسكن في غرب أوربا ، والمغربي الذي في غرب إفريقيا ، وما دونه من مسلمي البربر فالسنغال ، فبلاد التكرور ، والسودان الغربي والشرقي ، كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحراً أو براً ، ولهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز والقريم وبخارى وقازان ، وغيرهم من مسلمي شمال الروسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض المتوسط . ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان ، ثم يسيرون منها إلى قوص ، ومسافتها ٦٤٠ كيلو متراً كانوا يقطعونها براً أو في النيل في نحو عشرين يوماً ، ثم تسافر قوافلهم منها في الصحراء الشرقية مدة ١٥ يوماً ، يقطعونها في نحو ١٦٠ كيلو متراً إلى عيذاب أو إلى القصير على البحر الأحمر . وكان كل من هاتين القريتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان ، أي أنهما كانتا من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن . وكانت الأولى منهما أهم من الثانية ، وكلتاهما كانتا في أيدي عرب البجاه الذين كانوا يتولون نقل الحجاج .

قال صاحب الرحلة بصحيفة ٢٨ : قبائل البجاه أو البجه يقال إنهم من البربر ، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحذية في صحراء قوص ، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد ، وفيها مغاير وآبار قديمة لاستخراجها ، وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين ، وبعضها من عمل محمد علي باشا والي مصر ، وكانت العرب تستخرج منها المعادن وخصوصاً (التبر) في القرن الأول والثاني للهجرة ، وذلك باتفاق مع ملك البجه الذي كان مقره (أسوان)... الخ . ثم ذكر ما كان بين ملك البجه وبين عبدالله بن الجهم الذي أرسله إليه أمير المؤمنين المأمون ، ونص الاتفاق الذي حصل بينهما . ولم ننقل ذلك حتى لا يطول بنا الكلام .

(ولنرجع إلى موضوعنا) ليتصل الكلام بعضه ببعض قال صاحب الرحلة: على إبلهم في هذه الصحراء وكانت أخلاقهم على غاية من الفظاعة ، لا شفقة فيهم

ولا رحمة ، وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع ، وهو أن ركابها يموتون عطشاً ، فيستولون على متاعهم .

وفي هذه الصحراء قبر العارف بالله أبي الحسن الشاذلي قرب مكان يقال له (أمتان)، توفي فيه سنة ٦٥٦ في طريقه من المغرب الأقصى إلى الحجاز ودفن به . وأهل هذه الجهة يعملون له مولداً سنوياً من أول ذي الحجة إلى التاسع منه ، ويقصد زيارته في هذا المولد كثير من أهل الصعيد ، والعربان المغاربة .

وكان الحجاج يقيمون في عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان في انتظار الفلايك التي تحملهم إلى جدة ، ويسمونها جلابا (واحدتها جلبة) ، وهي سفن صغيرة غير محكمة الصنع ، وشراعها في الغالب من الحصير . وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج ، فيشحنونها بأكثر من حمولتها ، وكثيراً ما كانت تغرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج ، الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الأشرار ، ومن وصل به طول عمره إلى جدة ، وصلها في نحو أسبوعين ، يتقلب في أثنائها بين تحكم الملاح ، وتبرم الرياح ، وانزعاج الماء واضطراب الهواء .

ولقد حج من هذه الطريق ابن جبير الأندلسي سنة ٥٧٩ ، فقطع المسافة بين القاهرة وجدة في نحو شهرين ونصف ، قضاها في أسوأ حال ، بين مشقات وأهوال ، مما هو مبين في رحلته ، وفي سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر إلى عيذاب ، ولكنه لم يجد فيها مركباً تحمله إلى جدة مع من قصدها من الحجاج ، لأن السفن التي كانت بمينائها أحرقت في واقعة حصلت هناك بين الترك وعرب البجاه ، فعاد منها إلى مصر ، ومنها إلى بلاد الشام ، ثم إلى بغداد وسافر منها مع المحمل العراقي في السنة التالية . وكان يسكن في هذه القرية (عيذاب) حاكمان : حاكم بدوي من طرف شيخ قبائل الباجة ، وآخر تابع لحاكم مصر وكانا يأخذان عوائد مرور عشرة جنيهات عن كل حاج مغربي ، وسبعة على الحجاج الآخرين ، ويقتسمان ما يتحصل بينهما وبين أمير مكة !! واستمرت هذه المكوس حتى أبطلها صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٩٠ ، زمن الشريف مكثر بن عيسى ، ورتب له شيئاً عوضاً عن نصيبه ، ثم أعادها الأشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى مكة ، حتى ألزم الملك الناصر محمد بن قلاوون الشريف عطيفة بن أبي نمي سنة ٧٢١ بإبطالها ، في نظير ما رتبه إليه من القمح الذي كان يحمل إليه من مكة كل سنة .

والطريق بين قفط والقصير قديم جداً ، فتحه رمسيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، لتداول التجارة بين مصر وبلاد اليمن والهند وبلاد العرب ، الذين كانوا كثيراً ما يهاجرون منها إلى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها . وفي سنة ٣٢٠ قبل المسيح ، أخذت هذه الطريق أهمية عظمى زمن بطليموس فيلادلغوس ، وصارت القصير هي الميناء الوحيدة التي تصل تجارة البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندي وبالعكس ، وهو الذي حفر أغلب الآبار التي في هذه الطريق وبنى على طولها مخازن للتجارة ، وأقام بجوارها قلاعاً ورتب لها الخفر اللازم لحراستها ، وهو الذي بنى مدينة بيرنيس ، وقامت على أنقاضها فيما بعد قرية عيذاب (انظر عيذاب في الخطط التوفيقية). وفي هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة ، ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة أوفير التي كان سليمان بن داود يرسل بني إسرائيل إليها ، في القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها وورد ذكرها في التوراة في الإصحاح التاسع من أخبار الملوك الأول .

وما زال هذا الطريق هو الطريق الوحيد للحاج المصري من القرن الأول إلى سنة ٦٤٥ ، التي سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج إلى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة . وفي سنة ٦٦٠ ، أخذ هذا الطريق الأخير أهمية حيث سير الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحاج منه ، وأرسل معها الكسوة التي عملها للكعبة ، والمفتاح الذي أمر بصنعه لبابها الشريف ، ومن ثم أخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق عيذاب ، ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب .

ويظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئاً فشيئاً ، بنسبة زيادة أهمية القصير ، نظراً لأن لها خليجاً طبيعياً يجعل مياهها على الدوام في أمن من التغيرات البحرية ، حتى تلاشى أمرها بالمرة ، ولا تزال أنقاضها في جنوب القصير بمسافة عشرة كيلو مترات .

ولقد اهتم العزيز محمد علي باشا بطريق القصير عند سوق العساكر المصرية إلى بلاد الحجاز لحرب الوهابية ، فمهد سبله ، وأصلح آباره ، واستمرت عنايته به بعد ذلك لاشتغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب والنحاس .

وهذا الطريق مطروق إلى الآن ، وبه دروب كثيرة تسمى مطارق ، وأول محطة له بئر عنبر ، ويسير إليها المسافر من قنا أو من قفط . وهذه البئر كانت ساقية قديمة أصلحها المرحوم إبراهيم باشا نجل محمد علي باشا ، وبنى بجوارها سبيلاً

لسقي المواشي ، وإلى جانبها مكاناً له قباب معقودة لاستراحة المسافرين ، وقرر في الرزنامجه إلى خادم هذه البئر ستة جنيهات سنوياً ، لا تزال تصرفها المالية إلى من يقوم بأمرها . ومن هنا يسير الطريق إلى الشمال الشرقي في درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مغاير مصرية قديمة كان بها جثث كلاب كثيرة محنطة) ، حتى يصل إلى محطة اللقيطة ، ويقيم بها أناس من قبيلة العشابات من عرب العبابدة ، وهم فخذ من البجاه ، وفي هذه المحطة نخيل وجملة آبار ، بعضها من عهد البطالسة . ولا يزال الطريق حتى يصل إلى محطة الوكالة ، وبها آثار قديمة . ومنها يسير في مطرق يسمى مطرق جيف العجول (وهناك مغاير كانت بها عجول كثيرة محنطة من التي كان يقدسها قدماء المصريين) ، ثم في مطرق الحمامات وفيه خزانات مياه طبيعية ، ثم في مطرق الكافر (وفيه آثار فرعونية وبئر حلزونية من الرخام ، ينزل إليها بمائة وثلاثة وأربعين درجة) ، ومن هناك يستمر الطريق إلى بئر الإنكليز (التي حفروها عندما وصلت جنودهم بحراً إلى القصير ، ومنها ساروا إلى تلك الجهة متعقبين عساكر الفرنساويين وقت احتلالهم لمصر)، وماء هذه البئر يبعد عن سطح الأرض بنحو أربعة أمتار . ومنها يسير الطريق إلى العنبجة ، وبها نبع معدني مياهه كبريتية ، ويقصده بعض الناس للاستشفاء به ، وهناك مستنقعات كثيرة ينبت فيها السمار والحكومة تبيعه سنوياً للمصريين ، ومنها يستمر الطريق إلى القصير . ولقد كانت هذه المدينة في القرن الماضي عامرة ، آهلة بالسكان الذين كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس ، وكانت من ضمن محافظات القطر المهمة .

وما زالت طريق القصير مستعملة للتجارة ، حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة إلى السويس ، في مدة سعيد باشا ، عوضاً عن العربات التي كان يسيرها محمد علي باشا سنة ١٨٤٥ م بواسطة الخيل في طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة إليها ، وكان لها ديوان مخصوص ، يسمى ديوان المرور على يسار الداخل إلى الموسكي ، وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم. ومع كل هذا فقد استمرت القصير ميناء مهمة بين مصر العليا والحجاز تنقل منها الحبوب إلى جدة ، وينقل من هذه السجاد والفلفل والبن والسنا المكي ، وخلاف ذلك من واردات الهند وغيرها . وكانت لها سوق كبيرة في قنا ، حتى إذا حفر قنال السويس ، وصارت ترسل كل هذه المحاصيل إلى أوروبا رأساً ، قلت أهميتها ، وأصبحت من

نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة تابعة لمديرية قنا وإن كانت إدارتها في يد مصلحة خفر السواحل .

وكان بعض الحجاج يسافرون من السويس إلى جدة بواسطة المراكب الشراعية ، فيقطعون مسافتها في نحو عشرين يوماً ، ولكن غالبهم كان يسير براً عن طريق العقبة مع المحمل ، أو مع غيره من القوافل التي كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد علي وغيرهم ، فيصل إلى مكة في نحو خمسين يوماً . وأول من رتب ركب الحاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من البركة ، الأمير جمال الدين الاستادار ، عندما سافر ولده شهاب الدين أميراً للمحمل سنة ٨٠٩ ، فكان إذا وصل الركب إلى عجرود (وهي محطة قبيل السويس) يأمر الأمير بكتابة أكابر الحاج ، ويرتب كلاً في مكان معين من القافلة وذويه وخدمته ، ثم يجمع الركب من الطليعة إلى الساقة ، ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر ، بعد أن يسير أصحاب الحمول والأموال في وسط الركب .

وطريق البر شاق جداً ، وخصوصاً في المنطقة التي بين السويس والعقبة ، وهي لا تقل عن ثلاثمائة كيلو متر ، كلها أرض رملية ناعمة ، تسوخ فيها اخفاف الجمال قبل أقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها إلى الطريق إلا بواسطة نواطير أشبه شيءٍ بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية ، وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير ، وقد كان في بعض القرى التي عليه ، مخازن للميرة والذخيرة ومؤن الجمال وأمتعة الحجاج الذي كانوا يرسلونها إليها قبل سفرهم على سبيل الأمانة ، في نظير أجرة مخصوصة ، تتوفر بها عليهم مشقة حملها في الطريق ، وكان في هذه القرى فرق من الجند لحراستها . وبالجملة فإنا نورد لك أسماء المحطات التي كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة إلى مكة ، ومسافة الركوب بين كل محطة والتي تليها بقافلة المحمل ، التي هي أسرع من القوافل الأخرى لانتظام سيرها ، وإحكام أمرها ، وجودة جمالها .

ساعة	من القاهرة
٦	إلى بركة الحاج .
١٤	إلى الدار البيضاء ، وبها قصر عباس باشا الأول ويليها الدار الخضراء.
١٢	إلى عجرود ، وتوجد في الجنوب الغربي من السويس على مسافة عشرين كيلو متر منها ، ومن هناك كان يرجع المرضى المنقطعون والمتعبون .

ساعة	من القاهرة
٠٨	إلى الناطور الأول ، والثاني والثالث ، والأرض في هذه المسافة رملية ناعمة متنقلة من جهة إلى جهة أخرى عند هبوب الرياح بشدة .
٠٦	إلى العلوة .
١١	إلى جنادل حسن ، وأرضها رملية .
١٢	إلى قرية نخل ، وفيها نخل وشجر وقلعة وخان من عمل الغوري ، وساقية من عمل الملك الناصر حسن ، وإلى جانبها ثلاثة أحواض تسع ٣٠٠٠ قربة تملأ في زمن الحج.وكان يرسل إليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة ، فلاتزال تدور في الساقية لملئ الحيضان حتى ترجع مع قوافل الحاج إلى مصر .
١٢	إلى بئر قريص ، وسميت أخيراً بئر أم عباس ، لأن والدة عباس باشا الأول أصلحتها ، وماؤها عطن .
٠٧	إلى العقبة ، ويصعد إليها المسافر بمنحه من مسافة طويلة من الغرب ، حتى يصل إلى قمتها ، فإذا أراد أن ينزل إلى الجهة الشرقية ، صار نازلاً صاعداً وصاعداً نازلاً في أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أو زلطية ، إلى أن يمر في مضيق لا يسع إلا جملاً جملاً ، ويسمى قطع لاز . وطريق هذا القطع حلزوني تقريباً ، أصلحه ابن طولون في القرن الثالث الهجري ، ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن ، ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فإن المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ، ويسير على قدميه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولاً ، وضعفها صعوداً ، ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها أيلة ، وفيها يفصل الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقرهم ، ويعطيهم المؤنة اللازمة من البقسماط ، ثم يستأجرون لهم سنبوكاً يسيره بهم إما إلى مصر أو إلى جدة ، وكثيراً ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة . ومن العقبة يتجه الحاج إلى جهة الجنوب .
٩	إلى ظهر حمار ، وفي طريقها بين جبلين على البحر ، لا يسع إلا جملاً جملاً .
١٤	إلى الشرفا ، ويسمونها أم العظام .
١٢	إلى مغاير شعيب ، وبها نخل وبساتين ومياه عذبة .
١٤	إلى عيون القصب ، وبها ماء ونخل وشجر سنط وعبل .

ساعة	من القاهرة
١٢	إلى المويلح ، وفيها قلعة أنشأها السلطان سليم العثماني ، بها بعض الجند لحراستها ، ومناخها رطب غير جيد للصحة ، وسكانها يتجرون في الفحم الذي يصنعونه من شجر الطرفا الذي ينبت بكثرة في الوديان المجاورة لها . ومنها طريق إلى تبوك مسافة مائة كيلو متر .
١٢	إلى سلمى (كفافه) وفي طريقها مضيق شق العجوز، تسير فيه الجمال جملاً جملاً ، وبهذا الوادي شجر الدوم والسنط والطرفا .
١٢	إلى اصطبل عنتر ، وهو مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار .
١٢	إلى الوجه ، وسيأتي عليه في طريق المدينة ، ومنه يتشعب الطريق إلى العلا شرقاً ، وإلى ينبع جنوباً ، وإلى المدينة المنورة جنوباً بشرق .
١٦	إلى عكرة ، ولا ماء فيها .
١٢	إلى الحنك ، ولا ماء فيها .
١٢	إلى الحوراء وفيها مضيق تسير فيه الجمال جملاً جملاً ، وأرضها ذات رمل ناعم .
١٥	إلى الخضيرة ، وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة .
١٠	إلى ينبع ، ويدخلها المحمل واكباً باحتفال عظيم ، وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الأحمر ، وستتكلم عليها في طريق المدينة .
١٨	إلى السقيفة ، وماؤها مالح .
١٠	إلى مستورة ، وماؤها حلو .
١٤	إلى رابغ ، وهي قرية بينها وبين البحر نصف ساعة ، وفيها قلعة بها بعض الجند لحراستها ، وفيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب المحمل وذخائره ، وفيها صهاريج عذبة، وهي الميقات لمكة ، ومنها يتفرغ الطريق إلى المدينة ثلاثة أفرع : الطريق السلطاني، والطريق الفرعي ، وطريق الغاير .
١٢	إلى بئر الهندي أو القضيمة (وبعضهم يكتبها القديمة) ، وهي قرية على البحر الأحمر ماؤها مالح ، ومنها يتجه الطريق إلى الجنوب الشرقي.
٠٦	إلى خليص ، وبالقرب منها عيون ماء كثيرة تحيط بها مزارع وبساتين.
٠٨	إلى عسفان ، وهناك بئر ماؤها حلو يسمونها بئر التفلة ، ويقولون إن ماؤها كان مراً ، فتفل فيه النبي ﷺ، فصار عذباً ، وفي طريقها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسعان إلا جملاً جملاً .

ساعة	من القاهرة
١٥	إلى وادي فاطمة (وادي مر) أو مر الظهران ، ومنه إلى قبر السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ ثم إلى العمرة الجديدة (التنعيم) وهي حد الحرم من هذه الجهة ، وأقرب حدوده إليه ، ومنه إلى الزاهر ثم إلى مكة المكرمة .
٣٣٧	المجموع

وعلى حساب أن الجمل يقطع في الساعة الواحدة أربعة كيلو مترات ، تكون المسافة من مصر إلى مكة من طريق البر ألفاً وأربعمائة كيلو متر تقريباً ، كانوا يقطعونها في نحو أربعين يوماً على الأقل .

أما الآن ، فالحاج المصري يركب السكة الحديدية إلى السويس ويبحر منها إلى جدة بغاية الراحة ، ومنها إلى مكة ، فيصل إليها في أقل من أسبوع ، ومن الناس من يسافر إلى المدينة أولاً بطريق السكة الحديد الحجازية ، وبعد الزيارة يسافر مع القافلة إلى مكة ، أو يرجع إلى مصر ومنها إلى جدة ، ومنهم من يسافر بعد الحج إلى المدينة بطريق البر ، ومنها يعود إلى ينبع فالطور ، أو يركب السكة الحديد الحجازية إلى الشام ، ولكنه في هذه الحالة يصادف كثيراً من المشقة في ضرورة عودته إلى الطور لقضاء الحجر الصحي هناك . لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التي في طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج إلى مصر ، وبعد انقضاء مدة الحج التي يلازمها الحجر الصحي عادة ، يسافرون إلى المدينة بالطريق الحديدي ، ويعودون منها إلى مصر مباشرة . انتهى كل ذلك من الرحلة الحجازية للبتنوني .

ولا يخفى أن كلام صاحب الرحلة الحجازية ، كلام طويل ، لكنه واف بالغرض ، وفيه جملة فوائد للمتأمل المفكر ، فأين تلك الأحوال من الحالة التي نحن عليها اليوم ، من انتشار الطائرات ، وسير السيارات والقطارات والباخرات ، والله يعلم ما سيحدث في المستقبل من وسائل التنقلات ، فسبحان الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو الغني عن العالمين .

كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء الخط الحديدي

جاء في الجزء الرابع من تاريخ الغازي عن ذلك ما نصه :

وذكر الفاضل الشيخ محمد كرد علي، في كتابه خطط الشام، كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء السكة الحديدية، وكيفية إنشائها فنذكر هنا ما ذكره بحذف واختصار:

قال المذكور: كان الحجاج المسلمون يأتون ألوفاً من جميع الأقطار الإسلامية إلى دمشق ويجتمعون فيها بانتظار سفر موكب الحج، وكان يتألف هذا الموكب في دمشق، ويسير منها متوجهاً نحو البلاد المقدسة تحت إدارة حاكم عثماني يلقب بأمير الحج، وكانت العادة أن يرحل أمير الحج من دمشق في الخامس من شهر شوال، في ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالأسلحة الكاملة، والمدافع الصغيرة، ويتبعه الحجاج زرافات ووحدات، والدمشقيون يقومون بتشييعهم إلى قبر أحمد باشا في الميدان إلى جامع العسالي، وتجري المراسم العسكرية والاحتفالات تكريماً لهذا الركب العظيم، وكانت الحكومة في دمشق تهتم اهتماماً زائداً بتشييعه، ويسير الموظفون وأصحاب الرتب العالية بألبستهم الرسمية أمام المحمل تحيط بهم صفوف الجند وهجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان، وكانت الموسيقى تصدح أثناء الموكب، والمدافع تطلق حين خروجه وعند وصوله إلى القدم، وبعد ذلك يسير الركب في تقدم إلى الكسوة، ثم يسير إلى المزيريب، فيبقى فيها أربعة أو خمسة أيام، وعندئذ يتألف الركب عسكرياً وعلى رأسه أمير الحج، فيسير قسم من الجيش في المقدمة والقسم الآخر يقوم بحفظ جناحي الركب. وفي كل صباح ومساء تطلق ثلاث طلقات نارية إعلاماً بوقت المسير والوقوف، وكثيراً ما يبلغ طول هذا الركب ثلاثة أو أربعة كيلو مترات.

وكانت المسافة بين دمشق ومكة المكرمة تقدر بأربعمائة وتسعين ساعة، وبأربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب إلى معان، ويجتاز الركب من المزيريب المغرق وعين الزرقاء والبلقاء والقطرانة، وهنا يشتد عليه الدرب صعوبة، ويدب الرعب والخوف في قلوب الحجاج، وذلك لأنه كانت المضايق غاصة بعصابات من اللصوص، والماء للشرب قليل، فإذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلاً ويتابع سيره، فيقطع العقبات المؤدية إلى النفود وهذا المضيق الصعب يبعد ثلاث عشرة ساعة من معان، فيترجل الحجاج عن دوابهم مشاة أمام أمير الحج الذي يصعد على رأس جبل صغير، ويجلس مشاهداً الجموع تمر أمامه، وبعد ذلك يسير الركب ولا يشاهد في طريقه سوى الرمال في سهل النفود القاحل حتى

مدائن صالح مدة (١١٤) ساعة، وفيها كثير من الآثار النبطية، فمنها يسير الركب إلى المدينة المنورة، وبعدها إلى مكة المكرمة.

هكذا كانت حالة الطريق المؤدية إلى البلاد المقدسة، وهذه هي المشقات التي كان يلاقيها الحجاج في طريقهم، وهذا ما دعا الحكومة العثمانية في ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات، فاهتم السلطان عبدالحميد الثاني، وقرر سنة ١٩٠٠م مد خط حديدي يصل الشام بالحجاز، ويسهل السفر على الحجاج، ويأتي بالفوائد المادية والمعنوية على البلاد والدولة، ولم تبدأ الحكومة بالعمل إلا بعد أن أعلنت عزمها على ذلك في جميع الأقطار الإسلامية مما هو داخل تحت سيطرتها أو خارج عنها، وأبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد الحج، واستمطرت أكف المسلمين تعضيداً لهذا المشروع الديني المحض، وبدأت الاكتتابات ترد من جميع البلدان الإسلامية.

انتهى من الغازي.

سفر الحجيج من المدينة المنورة إلى مصر

لقد ذكر الأستاذ محمد لبيب البتنوني، صاحب الرحلة الحجازية، الذي حج في سَنة ١٣٢٧ هجرية سبع وعشرين وثلاثمائة وألف، الطريق الذي يسلكه الحجاج حين عودتهم من المدينة المنورة إلى بلادهم، ونحن ننقل هنا كلامه في الرحلة الحجازية، للمقارنة بين زماننا وزمانه ولما في كلامه من الفوائد المتعددة فقد قالَ رحِمه الله تعالى، بصحيفة ٣٠١ ما نصه:

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج إلى أربعة طرق، طريق نجد ولا يسلكه الآن إلا عرب تلك الجهات غالباً، وطريق الوجه: وهو الذي سلكه المرحوم سعيد باشا والي مصر سنة ١٢٧٧هجرية، حينما قصد زيارة قبر النبي المصفى، عليه الصلاة والسلام. ومحطات هذا الطريق هي: المدينة المنورة ثم آبار عثمان (وفيها ماء ومزارع وبساتين)، ثم محطة الضعين (وماؤها قليل)، ثم محطة المليح (وماؤها حلو)، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير)، وكانت مجتمع ومفترق المحملين الشامي والمصري في سفرهما معاً براً، ثم محطة أبي الحلو (الحلاوة مائها)، ثم محطة الفقارات (ولا ماء فيها)، ثم محطة الفقير (وماؤها عذب) ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ثم محطة الخوثلة (وماؤها عذب)، ثم محطة أم حرز (ولا ماء فيها)،

ثم قرية الوجه . ومنها كانوا يسيرون إلى السويس براً وبحراً . وطريق ينبع : وهو الطريق الأكثر استعمالاً ، ومنه يرجع سواد الحجيج المصري والروسي والمغربي والسوداني واليمني والجاوي والهندي وغيرهم ، وهذا الطريق ينقسم إلى شعبتين : شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ، ومنها إلى ينبع البحر ، وعربان هذا الطريق من جهنية ، وأرضه رملية ناعمة ، والشعبة الأخرى بعد الحمراء وتمر على نقب الفار (نقب علي)، وهو ممر صعب بين جبلين شاهقين ، في طريقه كثير من الأحجار الضخمة على طول نحو ٢ كيلو متر ، ولا تمر منه الجمال إلا جملاً جملاً ، وفي الغالب ينزل عنها ركابها لتعسر السير عليها فيه ، ويسمون هذا النقب بقلعة حرب ، لمنعة الجبال التي تشرف عليه ، ومنه يخرج المسافر إلى الصحراء التي توصله إلى ينبع البحر .

وهذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقي للحوازم ، ونصفه الغربي للأحامدة ، ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة وينبع ٢٣٠ كيلو متر ، فإذا أضفنا إليها ٤٥٠ كيلو متراً ما بين المدينة ومكة ، و٤٠ من مكة إلى عرفة ذهاباً وإياباً ، و٨٠ من جدة إلى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلو متر ، وهي كل ما يركبه الآن الحاج المصري براً ، فإذا وصل الحجاج إلى ينبع انتظروا بها المراكب التي تنقلهم إلى بلادهم ، وغالباً ينتظرون فيها أياماً كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ عن قلة المراكب . وهناك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم ، وتشتد فاقتهم ، وتفتك فيهم الأمراض لكثرة الأقذار التي تحيطهم من فضلاتهم ، وخصوصاً من عدم صلاحية مياه الشرب .

وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كونداسة في زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ، ولكن عملها غير منتظم ، وماؤها لا يصرف إلا بإذن خصوصي لا يصل إليه فقراء الحجيج . ولا أظن إلا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية أن تشدد عليهم كل التشديد في القيام بواجبهم .

ويا حبذا لو انتبهت إلى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة ، وأسعفتها شركات السفن وخصوصاً الشركة الخديوية فإنهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيراً من عنائهم مما تشكرهم عليه الإنسانية .

ومن ينبع يصل حجاج مصر إلى الطور لتمضية أيام الكورنتينا ، إن كان هناك حجر صحي : وهو مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و٣٧ دقيقة ، وعرض ٢٨

درجة و١٤ دقيقة، وبينه وبين السويس ١٢٥ ميلاً، ومن هناك تأتي بشائر الحجاج بوصولهم إلى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد، وكانت قبلهما تصل عن يد بعض الأفراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص ويعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحجاج بسلامتهم، نظير البقاشيش التي كانوا يأخذونها.

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقي، وأغلب سكانها من الأقباط والأروام، وفي ضواحيها كثير من البدو، ويقرب منها عين ماء ساخن، عليها بناء لعباس باشا الأول يسمونه حمام موسى، ويقولون إنه نافع للأمراض الروماتزمية، وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور، وفيه بساتين تنتج كثيراً من الفاكهة، وفي شماله بشرق جبل المناجاة الذي كلم الله عليه موسى وذكره في القرآن الكريم في غير موضع، ويقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس، فيزورونه ثم يرجعون إلى بلادهم. وفي شرق هذه القرية محجر الطور، وهو في نقطة صحية جداً، وفيه مباخر وافية بالغرض وأحذية مرتبة، وبناؤها نظيف، وفيه اسبتاليات (أي مستشفيات) على غاية من النظام، ولكل مرض قسم مخصوص منها. ولقد أصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحي في العالم. ولا شك أن بعض الصعوبات التي يلاقيها فيه الحجاج لا بد وأن تزول قريباً بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجاج.

أما الطريق الرابع، فهو طريق السكة الحديدية إلى الشام، وهو الذي افتتحته الدولة العلية رسمياً بأول قطار للمدعوين إلى هذا الاحتفال، وصل المدينة المنورة في ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ هجرية، الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨ ميلادية. وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا، وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة.

وإنا تتميماً للفائدة نقول لك: إن المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو متر، وإلى حيفا ١٣٣٣ كيلو متر، تقطعها الوابورات في أربعة أيام تقريباً، ومتوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة. وسير القطارات من الشام إلى معان على متوسط ٣٠ كيلو في الساعة، ومن معان إلى المدينة على متوسط ١٥ كيلو في

الساعة . وأجرتها في الدرجة الأولى ، من حيفا إلى المدينة ، ذهاباً وإياباً ، أربعة عشر جنيهاً ، وفي الدرجة الثالثة نصف هذا القدر ، وليس فيها درجة ثانية .

إلا أن عربات الدرجة الأولى ضيقة ، وفي كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة ، والمسافر فيها إلى المدينة المنورة يعاني مشقات كبيرة ، وخصوصاً في الليل الذي يقضيه كما يقضي النهار جالساً ، وكان الأولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلاً إلى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها . لذلك ترى كثيراً من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة ، وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم وينامون ويجلسون على راحتهم . وأملنا في رجال الدولة ، حرسها الله ، أن يفكروا في ذلك حتى تكون عربات الدرجة الأولى وافية براحة المسافرين في هذه المسافة الطويلة .

وهاك جدولاً بمحطات الطريق الحديدي من دمشق إلى المدينة :

أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	ارتفاع عن سطح البحر	الماء
قدم شريف	..	٦٨٦	@[١]
كسوة	٢١	٧٣٥	@
دير علي	٣١	٧٠٠	
مسجد	٥٠	٦٢٠	@
جباب	٦٣	٦٤٣	
خبب	٦٩	٦٢٤	
محجة	٧٨	٦٠١	
شفرة	٨٥	٥٩٩	
أذرع	٩١	٥٨٧	
خربة الغزالة	١٠٦	٥٧٥	
الدرعا[٢]	١٢٣	٥٢٩	@
حالات عمار	٥٩٥	٧٦١	
ذات الحج	٦٠٨	٦٩١	@

(١) العلامة الموجودة أمام المحطات التي فيها ماء .

(٢) ومن محطة الدرعا يخرج فرع حديدي إلى حيفا ومحطاته هي : المزيريب ، تل شهاب ، زيزون ، وادي كليب ، المقارن ، شجرة صماخ ، الحمد ، جسر المجامع ، بيسان ، العفولة ، الشمال ، حيفاء .

أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	ارتفاع عن سطح البحر	الماء
ذات الحج	٦٠٨	٦٩١	@
بئر هرماس	٦٣٢	٧٤٧	@
الهضم	٦٥٤	٧٥٤	
المحطب	٦٧٧	٧٥٠	
تبوك	٦٩٢	٧٧٥	@
وادي الأثيل	٧٢٠	٨٤٤	
دار الحج	٧٤٤	٩٠٤	
مستبقة	٧٥٥	٩٥٠	
الأخضر	٧٦٠	٨٨٢	@
جميس	٧٨٢	٩٠٨	
نصيب	١٣٦	٥٨٦	
المفرق	١٦٢	٧١١	@
خربة السمراء	١٨٥	٥٥٨	
الزرقاء	٢٠٣	٦١٧	@
عمان	٢٢٢	٧٣٧	@
القصر	٢٣٤	٩٤١	
لوين	٢٤٩	٧٧٢	
الجيزة	٢٦٠	٧٢١	@
الضبعة	٢٧٩	٧٥٢	
خان زبيب	٢٩٥	٧٨٢	
دي يسعد	٨٠٥	٩٦٤	
المعظم	٨٢٢	٩٨١	@
خشم صنعاء	٨٥٣	١٠٣٣	
الدار الحمراء	٨٨٠	١١٠٣	
المطلع	٩٠٤	١١٥١	
أبو طاقة	٩١٨	٩٦٦	
المرجم	٩٣٠	٩١٤	
مدائن صالح	٩٥٥	٧٨١	@

أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	ارتفاع عن سطح البحر	الماء
البدايع	٩٩٩	٦٠٣	@
سواق	٣٠٩	٧٥٨	
قطرانة	٣٢٦	٧٨٣	@
منزل	٣٠٨	٨٤٠	
فريفرة	٣٦٧	٨٩٣	
الحسا	٣٧٨	٨٢٢	@
جروف الدراويش	٣٩٧	٩٥٨	@
عنزة	٤٢٣	١٠٥١	
وادي الجردون	٤٤٠	١٠٨٠	
معان	٤٥٩	١٠٨٤	
غدير الحج	٤٧٥	١٠٠٠	
بئر الشيدية	٤٨٧	٩٩٦	
عقبة	٥١٤	١١٥٢	
بطن الفول	٥٢٠	١١٢٥	
وادي الرتم	٥٣٠	٩٩٤	
تل الشحم	٥٤٦	٨٥٠	
الرملة	٥٥٥	٨٠٦	
المدورة	٥٧٢	٧٣٤	@
مشهد	١٠١٢	٦٧٠	
سهل المطران	١٠٣٤	٦٠٠	
زمرد	١٠٤٩	٧١٤	
البتر الجديد	١٠٧٢	٧٣٩	
الطويرة	١٠٩٠	٦٧٠	
المدرج	١١١٦	٤٦٠	
هدية	١١٣٣	٣٨٥	
جداعة	١١٥٥	٤٥٧	@
أبو النعم	١١٤٣	٤١٨	
اصطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	@

أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	ارتفاع عن سطح البحر	الماء
اصطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	@
بوير	١٢٠٨	٤٧٢	
ديار ناصف	١٢٢٨	٤٨٩	
بواط	١٢٤٧	٥٣١	@
الحفيرة	١٢٦٨	٥٤٠	
المخيط	١٢٨٧	٧٥٠	
المدينة المنورة	١٣٠٢	٦١٩	

انتهى كل ذلك من الرحلة الحجازية .

المسافات بين مكة والمدن الإسلامية الكبرى

حسن جداً أن يذكر إبراهيم رفعت باشا ، رحمه الله تعالى ، في كتابه (مرآة الحرمين) في الجزء الأول ، بصحيفة ٣٦٧ ، مقدار المسافات بين مكة المكرمة ، وكبرى المدن الإسلامية في جدول خاص .

قال : وهذا الجدول نقلناه عن درر الفرائد ، المؤلف في القرن العاشر ، والذي عندنا منه نسخة خطية .

قال : وبمقارنة ما ذكر هنا عن المسافة بين مكة والمدينة بما نذكره بعد عن المسافة بينهما ، يمكنك أن تعرف مقدار الميل في القرن العاشر. اهـ .

جدول المسافات

بين مكة وأمهات المدن الإسلامية

أمهات المدن	ميل	الموقع بالنسبة لمكة
المدينة	١١٢	في شمالها
القدس	٨٤٠	في شمالها الغربي
الفسطاط	٨٥٤	....
دمشق	٧٢٧	في الشمال

أمهات المدن	ميل	الموقع بالنسبة لمكة
بغداد	٦٤٢	في الشمال الشرقي
تعز	٤٧٦	في الجنوب
زبيدة	٤٧٦	في الجنوب الغربي
البلقاء	٦٨٠	في الشمال الغربي
الموصل	٧٨٤	في الشمال
أصفهان	٩٤٠	في الشمال الشرقي
السلطانية	١٠٦٤	....
توريز	١٠٨٠	....
نيسابور	١١٠٠	....
هراة	١٣٤٤	....
بلخ	١٥٩٠	....
غزنة	١٧٣٨	....
مرو الشاهجان	١٣٠٠	....
هرمز	٢٠٧٠	....
كابل	١٦٤٢	....
الملتان	١٦٥٢	....
رلي	٣٢٢٠	....
الأحساء	٣٣٣	في الشرق
مهرة	٥٢٨	في الجنوب الشرقي
الطائف	٤٠	في الجنوب الغربي
البصرة	٦١٠	في الشمال الشرقي
الكوفة	٥١٠	....
عيذاب	١٢٤	في الغرب
الطور	٨٠٠	في الشمال الغربي
بلاد صاعون	١٩٧٤	في الشمال الشرقي
كاشغر	١٩٧٤	....
اسفيجاب	١٩٠٤	....
فرغانة	١٧٤٠	....

أمهات المدن	ميل	الموقع بالنسبة لمكة
أطرار	١٣٩٠	....
أسروسنة	١٧٨٠	....
بدخشان	١٧٥٦	....
ترمذ	١٥٩٦	....
بخارى	١٢٨٨	....
سمرقند	١٦٣٨	....
كركاج	١٣٢٥	....
السراي	١٢٤٦	....
البلغار	٢٠١٦	....
القرم	١٥٧٠	في الشمال الغربي
تانة	١٤١١	في الشمال الشرقي
كنبايت	١٨٠٦	....
الكولم	٣٧٨٠	في الجنوب الشرقي
سرنديب	٣٠٥٢	....
الخنسا	٥٤٣٢	....
الزيتون	٢٦٣٠	....
خان بالق	٣٩٣٤	في الشمال الشرقي
قراقرم	٤٩٩٨	في الشمال الغربي
أشبيلية	٣٣٦٠	....
قرنيطة	٣٢٦٦	....
أسني	٣٨٨٨	....
سبتة	٣٢٢٠	....
مراكش	٢٦٣٢	....
فاس	٢٤٤٨	....
تلمسان	١٧٧٤	....
طرابزون	١٣٥٠	في الشمال الغربي
كسطمونية	١٥١٢	....
قمصون	١٤٢٨	....

أمهات المدن	ميل	الموقع بالنسبة لمكة
قونية	١٢٣٢	....
القسطنطينية	١٦١٠	....
رومية	١٩٣٢	....
غرناطة	٣٢٥٠	....
تونس	٢٠٧٢	....
غانة	٢٢٤٠	في الجنوب الغربي
جيمي	٢٤٤٠	....
جزمي	١٠٢٢	....
أوقات	١٣٣٠	في الشمال الغربي
بيدسو	١١٤٨	في الجنوب الشرقي
قافة	١٤١١	....

انتهى جدول المسافات بين مكة وأمهات المدن الإسلامية ، من كتاب (مرآة الحرمين) ، ولا يخفى على القارئ الكريم غرابة أسماء بعض البلدان في هذا الجدول التي لم نسمع بها في عصرنا ، بينما توجد الآن كثيراً من البلدان الإسلامية الشهيرة لم تذكر في هذا الجدول .

وقد قال صاحب كتاب مرآة الحرمين ، أنه نقل هذا الجدول من كتاب "درر الفرائد" المؤلف في القرن العاشر .

وفي سنة (١٣٦٨) تقريباً ، طبعت رسالة بمكة المكرمة في مسافات الطرق بين بلدان المملكة العربية السعودية مبين فيها جميع المدن والمحطات بالكيلومتر ، أحببنا أن ننقلها هنا ، ولكن لطول الشرح تركنا ذلك ، غير أننا نقلنا منها ما هو ضروري لازم للحجاج وأهل البلاد ، وهو كما يأتي:

عدد	المسافة بين البلدان	كيلو متر
١	بين مكة وجدة	٧٤
٢	بين مكة والطائف	١٣٥
٣	بين مكة ومنى	٨
٤	بين منى ومزدلفة	٥
٥	بين مزدلفة وجبل الرحمة بعرفات	١٢

عدد	المسافة بين البلدان	كيلو متر
٦	بين مزدلفة ومسجد نمرة	٨
٧	بين مكة ورابغ	٢١٢
٨	بين رابغ ومستورة	٤٠
٩	بين مستورة والمدينة المنورة	١٩٨
١٠	بين مكة والمدينة المنورة	٥٠٠
١١	بين مكة والرياض	٩٥٧

بناء البيوت والمقاولات عليها بمكة

بناء البيوت والقصور بمكة المشرفة عمل معروف من قديم الزمان ، وربما تكلمنا عنه في مبحث الكلام على أمانة العاصمة أو في غيره ، فبناء البيوت والقصور القديمة الموجودة منها إلى اليوم هو من عمل أهل مكة ، فالبناؤن المكيون قد عرفوا عمل البناء على أكمل وجه بالتمرين والممارسة العملية ، لا بالتعليم في المدارس ، ففيهم من البنائين الحذاق والمهندسين المفكرين المهرة ، من يفوقون الرجال المتعلمين في الخارج ، بل إن هؤلاء ليقفون حيارى أمام معرفة البنائين الجهلاء والمهندسين الأميين ، وهذه أعمالهم في بناء المنازل والقصور قائمة إلى اليوم وشاهدة على ذلك ، وليس هذا بمستغرب على أهل مكة الفضلاء النبلاء ، الذين نشأوا حول بيت الله الحرام ، ووقفوا على المشاعر العظام ، وشربوا من ماء زمزم شراب الأبرار الكرام ، ونسأل الله تعالى لنا ولهم حسن الختام ، والسداد على الدوام .

انظر: صورة رقم ٥٣ ، الفن المعماري القديم في المملكة العربية السعودية

إن البنائين والعمال الذين يشتغلون تحت أيديهم وبإرشادهم ، لهم درجات وألقاب بينهم ، فلا ينتقل أحدهم من عمل إلى عمل أرقى ، إلا بعد إذن من المعلم الكبير ، وإذا صلح أحدهم بعد التمرين والعمل الكثير لأن يكون بناء يستقل في بناء البيوت بنفسه ، أذن له المعلم الكبير بذلك بعد أن يشرب الجميع عنده قهوة اللوز المعمولة بالحليب . وكانوا إلى سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية يبنون من حجارات جبال مكة بعد تكسيرها ، فلما جاء الإسمنت إلى البلاد صاروا يبنون به.

أما بناء البيوت والمنازل الحديثة الموجودة اليوم، وعمل المقاولات على هندستها وبنائها على الطراز الإفرنجي، فإنها لم تكن إلا من بعد ورود الإسمنت من الخارج إلى المملكة، وذلك من سنة (١٣٦٥) ألف وثلاثمائة وخمس وستين هجرية، حيث كثرت الأموال لدى الناس كثرة زائدة فائقة عن العهود الماضية، وبذلك تطورت أحوالهم ومعيشتهم، وخصوصاً بعد سفرهم إلى البلاد الأوروبية ومشاهدتهم هنالك مختلف الأمور والأحوال، ومن طبيعة الإنسان أن لا يصبر على حالة واحدة، مع العلم بأن البيوت المبنية بالإسمنت أشد حرارة من البيوت المبنية بالحجارة والطوب.

انظر: صورة رقم ٥٤، الشيخ على هليكة من مشاهير المعلمين في البنايات القديمة

وألقاب الذين يشتغلون في بناء البيوت والعمارات بمكة المشرفة كالآتي:

(١) الريِّس وهو مهندس المنازل والعمارات، وتحت إمرته جميع العمال، وكلهم يشتغلون بأمره، والريس وجميع أنواع العمال كلهم من مكة المشرفة ليس بينهم أحد غريب، وهذا قبل عصرنا الحاضر.

(٢) والمعلم وهو الذي يشتغل بيده في البناء، وهو المسؤول عن قوة البناء وضعفه، يشتغل في البناء حسب ما رسمه له الريس من الهندسة والتخطيط.

(٣) والقراري وهو الذي يصلح الأحجار المأخوذة من الجبال، بمعنى أنه يكسر من أطراف الحجر كل ناتئ منه، وكل ما ضعف من أجزائه المستدقة، حتى يبقى نفس الحجر صلباً من جميع الأطراف كالمخدة.

(٤) الفلاتي بفتح الفاء واللام المخففة، وهو الذي يأتي بالأحجار عند القراري ليصلحها.

(٥) المروِّج بضم الميم وفتح الراء وكسر الواو المشددة، وهو الذي يناول المعلم النقل، بفتح النون والقاف، وهو الذي يناول المعلم الحجارات الصغار، والحجارات الخفيفة الرقيقة ليضعها تحت الحجارات الكبيرة أو بينهما، حتى تستقيم ولا تتحرك.

(٦) الخلاّط وهو الذي يخلط التراب بالنورة ويعرف قياسهما ومقدارهما ، ثم يعجن ذلك بالماء ويجعله طينا صالحاً للبناء .

(٧) الطيّان بتشديد الياء المفتوحة ، وهو الذي يناول الطين للمعلم ليبني به ، يناوله في المركن بكسر الميم وسكون الراء ، وهو ماعون خاص يوضع فيه الطين بقدر ما يحتمله الرجل ويمكنه رفعه ومناولته للمعلم .

كل هذه الأمور كانت في عمل بناء البيوت والعمارات بالأحجار الجبلية والنورة البلدية بمكة المكرمة المشرفة ، وقد تغيرت بعض الأوضاع في العمارات الحديثة التي بالإسمنت المسلح ، بل لقد اندثر العمل والبناء بالأحجار والنورة البلدية ، فأصبحت البنايات كلها بالإسمنت والحديد ، ويا ليت البناء بالإسمنت منع عن مكة المكرمة حتى لا يدخل شيء يماثل التراب كالإسمنت من خارج البلاد إلى حرم مكة المكرمة .

هذا ، وكان نقل الحجارات التي تكسر من جبال مكة المكرمة ، لبناء البيوت والعمارات في داخل البلدة ، بواسطة الحمير ، فيعملون لكل حمار من أخشاب الأشجار القوية، أربع مثلثات متساويات الساقين ، ثم يجعلون كل مثلثين متقابلين بينهما نحو نصف متر ، ثم يوصلون رأسهما بخشبة ، كما يوصلون رؤوس ساقيهما بخشبة أيضاً ، ثم يجعلون بين ساقيهما خشبتين أيضاً ، فيكون كل مثلثين بمثابة قطعة واحدة وسطها خال ، ثم يضعون كل مثلثين في جانبي الحمار من فوق البردعة ، بعد ربط أطراف ساقيهما ببعض بحبل غليظ قوي ، ثم يجعلون قطع الأحجار المكسرة من الجبال في داخل المثلثين من الجانبين ، في كل جانب نحو أربعة أحجار أو خمسة بحسب كبر الحجارة وصغرها ، ثم يأتون بها فوق الحمير من محل تكسير الجبال إلى داخل البلدة في محل البناء .

وكذلك كان نقل النورة بواسطة الحمير بعد وضعها في كيس من الخش ، هكذا كان الحال في بناء المنازل والبيوت قبل وجود الإسمنت ووجود السيارات ، فمنذ وجودهما عندنا ، وبناء العمارات والبيوت بالإسمنت المسلح ، بطل أخذ الحجارات من الجبال ، وبطل استعمال الحمير ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

انظر: صورة رقم ٥٥ ، عقد لديوان فني جميل في أحد بيوت مكة المكرمه

بناء الصنادق والعشاش بمكة

الصنادق جمع صندقة ، وهي صفائح من التنك تسمر على أعواد من الخشب ، وتكون كهيئة الألواح الطويلة العريضة ، طول بعضها أربعة أمتار وعرضها متران ، وقد تزيد وقد تنقص ، فتعمل من هذه الصناديق محلات وغرف أرضية بطبقة واحدة فقط ، فتكون من هذه الصنادق مساكن شرعية كاملة تامة ، ولهم في عملها مهارة تامة .

أما العشاش فجمع عشة ، وأطلق عليها ذلك تشبيهاً لها بعش الطائر ، لأنها سهلة البناء والعمل ، كما أنها سهلة الهدم والتخريب . وهذه العشاش تعمل من جريد النخل أو من أعواد الأخشاب والحطب الطويلة ، وتكون كل عشة على هيئة القبة وأسفلها واسع بمقدار أربعة أمتار من جميع أطرافها المستديرة ، وقد يعمل بعضهم على الأرض حوشاً واسعاً ، ويبني فيه عشاشاً متعددة ، فعشة للرجال ، وعشة للنساء ، وعشة لخزن الأطعمة ، وعشة للنوم وهكذا ، وبعضهم قد يزرع في الحوش بعض الرياحين وشجرة النبق ، ويحاط هيكل العشة وسقفها بالحصير ، ولهم في عملها مهارة فائقة ، بحيث لو جاءت الأمطار لم ينزل عليهم من العشة شيء من الماء ، اللهم إلا بعض قطرات .

وعمل العشاش والصنادق بمكة المكرمة قديم من الأزمان الماضية ، وقد كانت إلى عهد قريب محلة المسفلة ، ومحلة جرول ، مليئتان بالعشاش والصنادق ، ولا زالت فيهما بقية من ذلك ، وغالب سكان هذه العشاش والصنادق من السودانيين والهنود ، وقد زال كثير من هذه العشاش والصنادق من مكة المكرمة منذ سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية ، فلم يبق اليوم منها إلا القليل في أطراف محلة جرول ومحلة المسفلة ، وهي على وشك الزوال أيضاً .

ولا ندري بالضبط من أين أتت إلينا صناعة العشاش والصنادق ، والظاهر أنها أتت من أهل السودان "التكارنة" ، ومن أهل جاوه ، ومن أهل الهند ، فإن فقراءهم يعملون هذه العشاش وهذه الصنادق ، وقيل لنا إن بعض أهل جاوه يصنعون بيوتهم في بلادهم من الخشب لسهولة نقلها من مكان إلى مكان ، حيث تأتيهم المياه في بعض الأوقات بكثرة ، والله تعالى أعلم بالغيب .

من علامات الساعة ظهور بناء البيوت على الجبال المحيطة بالكعبة المعظمة وكثرة وجود المياه بمكة المشرفة

علامات اقتراب قيام الساعة كثيرة ، صرح ببعضها الأحاديث الواردة الصحيحة وقد جمع علاماتها بعض العلماء ، وبعضهم ألف في ذلك كتباً ، ككتاب (الإشاعة في أشراط الساعة) للعلامة البرزنجي ، ولبعض عرب قريش بمكة المكرمة في صدر الإسلام ، نظريات صائبة وفراسات قوية ، فلقد روى الإمام الأزرقي في تاريخه في الجزء الأول في آخر ما جاء في أسماء الكعبة ، ولم سميت الكعبة ما نصه : حدثني جدي عن مسلم بن خالد عن ابن خيثم ، عن يوسف بن ماهك قال : كنت جالساً مع عبدا لله بن عمرو بن العاص في ناحية المسجد الحرام ، فنظر إلى بيت مشرف على أبي قبيس ، فقال : أبيت ذلك؟ قلت : نعم . قال : إذا رأيت بيوتها -يعنى بذلك مكة- قد علت أخشبيها وفجرت بطونها أنهاراً ، فقد أزف الأمر . قال أبو الوليد : قال جدي : لما بنى العباس بن محمد بن علي بن عبدا لله بن عباس داره التي بمكة على الضيافة ، حيال المسجد الحرام ، أمر أقوامه أن لا يرفعوها ، فيشرفوا بها على الكعبة ، وأن يجعلوا أعلاها دون الكعبة ، فتكون دونها إعظاماً للكعبة أن تشرف عليها ، قال جدي : فلم تبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة إلا هدمت ، أو خربت ، إلا هذه الدار ، فإنها على حالتها إلى اليوم .

انتهى من تاريخ الإمام الأزرقي ، رضي ا لله تعالى عنه .

فانظر ، رحمنا ا لله وإياك إلى عظيم أدبهم وحرمتهم للكعبة المعظمة بيت ا لله الحرام ، وذلك منذ أيام الجاهلية وفي صدر الإسلام ، وما بعده ، إلى ما بعد القرون الثلاثة التي هي خير القرون ، وانظر إلى قلة أدبنا وتهاوننا بحرمة الكعبة المشرفة والمشاعر العظام ، بل وتهاوننا بأمور ديننا الحنيف في هذا الزمن العصيب .

وانظر أيضاً كيف امتلأت جبال مكة المشرفة على الكعبة المعظمة بالبيوت والمنازل ، حتى علت على الكعبة ، وكيف امتدت مواسير المياه في بطون أرض مكة المكرمة ، وكثرت خزانات المياه فيها ، فلقد جرت المياه في مكة في زماننا هذا كالأنهار ، بعد أن لم يكن بمكة في الجاهلية وصدر الإسلام ، غير ماء زمزم وبضعة

آبار في أطرافها ، لقد صدق كلام عبدا لله بن عمرو بن العاص ، رضي ا لله تعالى عنه ، ووقع ما أخبر به ، وهو كان في أول ظهور الإسلام ، فلو كان حياً يرزق بيننا ماذا كان يحكم علينا ؟ لقد اقتربت الساعة وا لله ، وكادت القيامة أن تقوم ، فلقد ظهر إلى عصرنا الحاضر كثير من علامتها ، فلم يبق منها إلا بعض العلامات الكبرى .

نسأل ا لله تعالى أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يختم حياتنا على الإيمان الكامل والعمل الصالح ، وهو عنا راض بفضله ورحمته آمين .

نحت الحجارات من جبال مكة لبناء المنازل

بناء المنازل والقصور بمكة المكرمة يكون من الحجارات الصماء ، المأخوذة من جبال مكة المشرفة ويبنونها من تراب مكة ونورتها ، وبقدر ما يزاد من النورة في البناء تكون البيوت أقوى وأشد ومناجم النورة في مكة كثيرة . وللعمال من أهل مكة مهارة فائقة في تكسير الجبال والصخور بالحديد والألغام منذ زمن بعيد ، وكانوا يبيعون الحجارات لعمل البناء بالمئات ، فالمائة من الحجارة كانت تساوي كذا من الريالات ، وكانوا ينقلون هذه الحجارات على ظهور الحمير من الجبال القريبة من مكة إلى نفس محل العمارة بها ، وكان هذا حالهم إلى سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمسة وسبعين هجرية ، وهي السنة التي ورد فيها الإسمنت إلى مكة المشرفة بكثرة وافرة ، وبعد السنة المذكورة صار الناس يبنون بيوتهم بالإسمنت ، وأهملوا عمارتها بالحجارات ، وبذلك بطل تكسير الجبال وأخذ الحجارة منها للعمارات .

ولأهل مكة مهارة عجيبة في نحت الحجارات الصماء ، وتكييفها بالشكل الذي يريدونه ، فمنها الملساء ، ومنها الخشن ، ومنها المستدير ، ومنها المربع ، ومنها الأسطواني ، ومنها المخروطي ، ومنها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الغليظ ، ومنها الرفيع ، ومنها المنقوش المزخرف ، ومنها السادة التي لا نقش فيها .

الحاصل ، ما كان يوجد من يعرف ذلك في بلدة من البلدان ، مثل معرفة أهل مكة ، ومثلهم في ذلك أهل المدينة المنورة ، وليت هذه الصناعة لم تندثر .

منجم النورة البلدية بمكة المكرمة

يوجد بمكة المكرمة منجم عظيم للنورة البلدية ، يبتدأ من بعد عمرة التنعيم بمسافة طويلة ، أي يبتدأ أول المنجم من نحو خمسة عشر كيلو متراً من المسجد الحرام ، أي من بعد قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله تعالى عنها ، ويمتد في باطن الأرض ببضع كيلو مترات من جهة الشمال الغربي على اليسار ، ومعه أيضاً منجم آخر للرخام البلدي ، ولا يقصد به حجر الرخام الصلب الذي تفرش به أرضية المساجد ، والمنازل وأسطحتها ، فالرخام يطلق عندنا بمكة على الأحجار المأخوذة المكسورة من مناجمه ، وهي إذا وضعت في الماء تفور وتغلي حتى تصبح الماء حامية جداً ، بحيث لا يمكن أن يلمسه إنسان حتى يبرد ، فإذا طرحت أحجار الرخام في الماء تفتتت واختلطت به ، فالمرخمون يأتون بأحجار الرخام ويضعونها في برميل مملوء بالماء ، ويضعون أيضاً فيه ملح الطعام مقداراً معلوماً لديهم ، ثم يتركونه ليلة واحدة ليختمر ، فإذا أصبحوا ، حركوا ما في داخل البرميل من أحجار النورة والملح حتى تختلط بالماء اختلاطاً تاماً ويكون لونه كاللبن ، ثم يأخذون من هذا الماء ، فيرخمون المنازل من الداخل والخارج ، كما يرخمون جميع غرفها ، ويأخذون من هذا الماء بالمكنسة أو بفرشاة كبيرة ، فيرشون بها الجدران ، فإذا نشفت بيضت الغرف والجدران .

ومنجم النورة والرخام المذكور ، كالعروق في باطن الأرض ، تمتد من منبعها إلى مسافات طويلة ، ولا تنفذ مهما أخذ منه ، وأهل مكة يأخذون الرخام لتبييض المنازل ، ويأخذون النورة فيخلطونها بتراب مكة ، ثم يعجنون الخليط بالماء حتى يكون طيناً ، فيبنون به جميع البيوت والعمارات ، هذه عادتهم من قديم الأزمان . والنورة قوية جداً ، تمسك الطين فلا يتفتت سريعاً إذا وضع بمقدار معلوم ، ولكن مع الأسف حل محل النورة البلدية عندنا ، النورة الإفرنجية -وهي المسماة بالإسمنت- وذلك ابتداء من سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية تقريباً . ويا ليت أن الإسمنت لم يدخل إلى حرم مكة المشرفة ، حتى لا يكون فيه شيء من البلاد الأجنبية -مراعاة لبعض أقوال العلماء- فالنورة والرخام المذكورتان هنا ، تشبهان الجبس والجير المعروفان بمصر ، مع فارق بينهما .

صناعة الآجر ومراكن الزرع بمكة

الآجر ويسمى عندنا باللغة العامية "الآجور"، وهو الذي يسمونه بمصر "الطوب"، يصنع بمكة المكرمة من ترابها من قديم الأزمان، ويعمل في قوالب خاصة، ثم يوقد عليه بالحطب حتى يحرق ويستوي. ومنذ سنوات قليلة بدأوا يعملوا الطوب من الإسمنت المخلوط بالرمل، لكن لم يتقنوا صناعته، لأن الطوب الإسمنت يتفتت وينكسر بسرعة، مع أن الإسمنت في غاية من القوة والمتانة، وعما قريب سيحسنون صنعه، وكذلك يعملون مراكن الزرع من طين مكة، فيزرعون فيها أنواع الرياحين والنرجس والأزهار.

إنارة شوارع مكة بالكهرباء

كانت شوارع مكة المكرمة وحاراتها تضاء ليلاً بلمبات الكاز أي النفط، منذ قديم العصور كبقية جميع الأقطار والممالك، فكانت اللمبات توضع في داخل الفوانيس وتعلق على جدران المنازل والبيوت في الحارات والشوارع، فلما انتشر الكهرباء وعم جميع المملكة استبدلت الفوانيس باللمبات الكهربائية، وطبعاً كان ذلك بالتدريج أي شيئاً فشيئاً، فما جاءت سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية إلا وقد عم الكهرباء جميع مساجد مكة المكرمة وشوارعها وحاراتها وأزقتها، بل وجبالها المسكونة أيضاً، أما المسجد الحرام فلقد تكلمنا عن تدرج إضاءته وإنارته إلى وجود الكهرباء في مبحث آخر، فإنارة جميع مكة كانت في العهد السعودي الزاهر، وكذلك زيادة العمران وازدياد السكان، وسفلتة الشوارع والميادين وجميع الطرقات التي تصل بين البلدان والمحطات في كافة أطراف المملكة العربية السعودية. فسبحان مدبر الأمور ومغير الأحوال.

عدم مرور الطائرات من هواء مكة

هذا، ومن الجدير بالذكر أن الطائرات قلما تمر من سماء مكة المشرفة، احتراماً لبيت الله الحرام الكعبة المعظمة، فربما مرت طائرة من الطائرات في هواء مكة المكرمة في العام أو العامين مرة واحدة قاصدة بعض الجهات، كمدينة الطائف. نعم لقد قامت طائرة من مدينة جدة قاصدة مكة المشرفة لأخذ مساحة جوية لها،

وتصويرها بالفوتوغراف من الجو ، وذلك في اليوم الحادى عشر من شهر شوال سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، ولبثت أسبوعاً واحداً تأتي إلى مكة المكرمة متوالية ، حتى أتمت مهمتها ثم انقطعت ، فلا توجد حول مكة مطارات لنزول الطائرات ، كما أنه ليس لها طريق في سماء مكة لتمر منه إلى بعض الجهات ، فسبحان الذي شرف بلده الأمين ، وآمن أهله من الخوف والجوع ، فالحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة وما فيها من النعم والبضائع

مكة المكرمة ، بلد الله الأمين وبلد خاتم النبيين ، ومهبط جبريل الأمين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، هي منبع الأنوار والخيرات ، ومركز الرحمات والبركات ، فيها من الأرزاق والخيرات والثمرات ما يحير الألباب ، مع أنها واد غير ذي زرع ، وهذه ببركة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لأهلها ، حيث قال في سورة إبراهيم : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ .

والله إن رزق أهل مكة ليأتيهم من كل مكان ، وفي كل زمان ومكان ، نسأل الله تعالى أن يرضى عنا ، ويوفقنا لطاعته ، ولشكر نعمه وفضله .

إن مكة المكرمة مرزوقة على الدوام بالخضروات المتنوعة وبالفواكه والخيرات والثمرات . كما أن فيها من أصناف البضاعات وأنواع التجارات ما لا يوجد في غيرها ، مع أنها أرض قاحلة ناشفة صخرية ، تحيط بها الجبال من كل مكان . إن فيها أنواع الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية ، وأنواع المصاغات الذهبية والفضية ومختلف الجواهر والحلي من المرجان والياقوت والزمرد واللآلئ الأصلية والصناعية ، والجواهر المختلفة، والألماس والبرلنت والعقيق والأساور والخواتم وعقود الجيد ، وأنواع الملابس للرجال والنساء والأطفال والشيوخ والشبان ما لا يدخل تحت الحساب .

وتوجد فيها من أنواع الحبوب كالأرز والحنطة والدقيق والعدس والحمص والفول والبازاليا والدخن والذرة واللوبيا وغيرها ، وفيها من أنواع العيش ، أي الخبز ، شيء كثير ، وفيها من الأطعمة المعلبة وغيرها ، وفيها أنواع كثيرة من الجبن

والزيتون والطرشي الإفرنجي وغيره ، وفيها كثير من أنواع علب السردين والتونة بل حتى السمك الطري الأخضر ، يأتيها من جدة والسواحل الغربية منها .

الحاصل يوجد بمكة المكرمة أنواع الخضروات والثمار والفواكه والرياحين والعطورات البلدية والهندية والإفرنجية ، وأنواع المأكولات من الحبوب وغيرها ، وأنواع الملبوسات والأقمشة والمجوهرات والمصاغات ، كل ذلك يأتيها من الهند والسند والصين ومصر والشام واليمن والعراق ، ومن بلاد الإفرنج كإنكلترا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا وأستراليا وروسيا والعجم ، ومن بلاد جاوة والسودان والحبشة وغير ذلك من جميع أقطار الأرض ، لذلك توجد بمكة المكرمة أطعمة بلدية وأطعمة جاوية وأطعمة مصرية وأطعمة بخارية وأطعمة يمنية وأطعمة هندية وأطعمة إفرنجية ، وكلها جاهزة حاضرة يستطيع كل إنسان أن يأكل ما يشتهيه ويهوى ، وفيها من أنواع السيارات وأدواتها ، وأدوات الكهرباء وأنواع أجهزة الراديو ، وأنواع المكائن الكهربائية والماتورات والكماليات ، ما لا يدخل في حساب ، فلا يقدر أحد أن يحصي الخيرات والنعم التي في بلد الله الأمين .

لقد كتبنا هذه النبذة الصغيرة للعلم بها في الجملة . فإن كثيراً من الأجانب البعيدين عن الحجاز يعتقدون أن بلادنا خالية من الأمور الحيوية ، ليس فيها من النبات إلا العشب ، ولا من الأطعمة إلا الخبز والتمر ، وهؤلاء معذورون لأن الكتابة عن مرافق حياة بلادنا في الجرائد والصحف الأجنبية معدومة .

فسبحان القادر على كل شيء ، يرزق من يشاء بغير حساب ، لا إله إلا هو العزيز الغفار ، وصلى الله على سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم .

صلاة الجمعة في المسجد الحرام

صلاة الجمعة هي بضم الميم وإسكانها ، وتسمى الصلاة بالجمعة لاجتماع الناس لها ، وهي من خصوصيات هذه الأمة المحمدية ، وهي فرض عين لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ ، وهذا الأمر هنا للوجوب ، قيل أول من سماه بالجمعة كعب بن لؤي ، وهو أول من جمع الناس بمكة وخطبهم وبشرهم ببعث النبي ﷺ ، وأمرهم باتباعه .

وصلاة الجمعة فرضت مع الصلوات ليلة الإسراء بمكة ، و لم يصلها رسول الله ﷺ لأنه كان مستخفياً لا يتمكن من إظهارها والقيام بخطبتها علناً في المسجد الحرام ، وأول من فعلها بالمدينة المنورة قبل الهجرة سعد بن زرارة رضي الله تعالى عنه ، وهو من السابقين في الإسلام ، فقد أسلم يوم العقبة الأولى مع رفقته حينما حضروا من المدينة إلى مكة ، وكانوا اثني عشر رجلاً . ولما هاجر الرسول ﷺ ، ووصل إلى قباء بالمدينة أقام فيها أياماً أسس فيها مسجد قباء ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى ، ثم إن رسول الله ﷺ ، تحول من قباء إلى قلب المدينة المنورة ، والأنصار محيطون لديه ، ويمشون في ركابه ﷺ ، متقلدي سيوفهم ، وأهل المدينة في سرور عظيم مستبشرين بمقدمه ﷺ عليهم ، فسار النبي عليه الصلاة والسلام ، والناس وراءه ما بين ماشي وراكب يتنازعون زمام ناقته ، كل واحد منهم يريد أن يكون رسول الله ﷺ نزيله . فأدركته عليه الصلاة والسلام ، صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف ، فنزل وصلاها ، فهذه أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ ، وأول خطبة خطبها رسول الله ﷺ . وبعد الصلاة سار ﷺ والناس معه ، وكلما مر على دار من دور الأنصار تضرع إليه أهلها أن ينزل عندهم ويأخذون بزمام ناقته ، وهو عليه الصلاة والسلام يبتسم لهم ويقول : "دعوها فإنها مأمورة" فلم تزل ناقته سائرة حتى بركت أمام دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه ، فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في منزله ، فرحاً مستبشراً ، وجاء سعد بن زرارة رضي الله تعالى عنه ، وأخذ بزمام ناقته ﷺ ، فكانت عنده وعم الفرح أهل المدينة ، وخرجت ولائد بني النجار يقلن :

نحن جوار من بني النجار   يا حبذا (محمد) من جار

ثم بعد أن استراح رسول الله ﷺ ، قام يبني مسجده الشريف في قلب المدينة المنورة ، ومن يومئذ انتشر الإسلام ، فكان المسلمون يقيمون صلاة الجمعة بمسجده ﷺ ، ويقتدون به في جميع الصلوات ، حيث إنه لم يكن هناك مسجد غير هذا المسجد النبوي الكريم . ثم انتشرت المساجد بالمدينة المنورة شيئاً فشيئاً إلى عصرنا الحاضر وما زال الناس إلى يومنا هذا يقيمون صلاة الجمعة بالمسجد النبوي الشريف ، فلا تتعدد صلاة الجمعة بالمدينة المنورة لصغرها .

نعم ، تقام صلاة الجمعة بالمدينة المنورة في مسجد قباء وهو بعيد عن قلب المدينة ، تقام فيها الجمعة منذ قديم الأزمان إلى يومنا هذا ، والسبب في ذلك

أمران ، أحدهما : أن قباء بعيد عن قلب المدينة ، وثانيهما : لأن مسجد قباء هو الذي قال الله تعالى عنه في سورة التوبة : ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ ، فمسجد قباء له شرف عظيم ، فإنه أول مسجد بناه رسول الله ﷺ عند وصوله المدينة المنورة ، ثم تحول منه بعد أيام إلى قلب المدينة فبنى مسجده النبوي المطهر .

ثم لما كثر سكان المدينة وازداد العمران صارت صلاة الجمعة تقام في مواسم الحج في عصرنا الحاضر في المساجد الآتية :

(١) مسجد المصلى – وهو المعروف بمسجد الغمامة .

(٢) مسجد السبت – وهو واقع خارج باب الشامي.

(٣) مسجد الخريجي – الواقع في المناخة .

كما أفادنا بذلك فضلية الشيخ عبدالعزيز بن صالح ، إمام وخطيب المسجد النبوي ورئيس المحاكم الشرعية بالمدينة المنورة في وقتنا الحاضر . ومسجد الخريجي نسبة إلى تاجر معروف في زماننا بالمدينة المنورة ، بناه فنسب إليه ، وتقام صلاة الجمعة بالمدينة أيضاً في مسجد ذي الحليفة بضم الحاء ، دائماً وأبداً لأن ذي الحليفة موضع يبعد كثيراً عن المدينة وهو ميقات الإحرام لأهلها أو من يأتي منها ، وذو الحليفة بضم الحاء المهملة وفتح اللام ، هو المعروف اليوم بآبار علي .

أما عندنا بمكة المشرفة ، فإنه بعد أن فتحها رسول الله ﷺ ، في السنة الثامنة للهجرة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وعبدوا الله تعالى جهاراً ليلاً ونهاراً أقيمت فيه صلاة الجمعة كبقية الصلوات ، فكان الناس منذ العهد الأول يقيمون صلاة الجمعة بالمسجد الحرام إلى عصرنا الحاضر ، فلا تتعدد صلاة الجمعة بمكة المشرفة أبداً . وكان الناس يحضرون إلى المسجد الحرام لصلاة الجمعة من أماكن بعيدة ، كالمعلا والحجون والمعابدة ، وكالمسفلة وجرول ، يحضرون إلى المسجد الحرام بحب ورغبة صيفاً وشتاء ، ولو في شدة الحر والقيظ ، بواعز نفسي ودافع ديني ، مع وجود مساجد كثيرة في مكة المكرمة .

ثم لما كان في عهد الحكومة السعودية ، أي في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، أي لدى ابتداء توسعة المسجد الحرام ، صارت مكة المشرفة فسيحة الأرجاء واسعة الأطراف ، حتى وصل العمران والبنيان فيها إلى

أكثر من خمسة كيلو مترات في جميع أطرافها ، وبطبيعة الحال ومقتضيات الضرورة أنشئت فيها مساجد كثيرة يبلغ عددها (١٥٠) مسجداً ، فسمحت الحكومة السعودية من السنة المذكورة بإقامة صلاة الجمعة في بعض مساجد مكة تيسيراً على الناس ، ومن هذا الوقت تعددت صلاة الجمعة في مكة المكرمة .

نسأل الله تعالى القبول والعفو والغفران مع مزيد من الفضل والإحسان ، إنه بعباده لطيف خبير .

والمساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة بمكة المكرمة في الوقت الحاضر ابتداء من سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، كما أخبرتنا بها أوقاف العاصمة بمكة المشرفة في مذكرتها المؤرخة في ٤ ذي القعدة سنة (١٣٨٤) هي كما يأتي :

عدد	اسم المسجد	المكان
١	مسجد الجن	بالشارع العام بمحلة السليمانية
٢	مسجد الجمّيزة	بأول محلة المعابدة
٣	مسجد الأميرة حصة	بالحجون
٤	مسجد حمدان الفرح	بالعتيبية
٥	مسجد ابن رشد الهمزاني	بمحلة المعابدة
٦	مسجد الملك عبدالعزيز	بمحلة المعابدة بجوار القصر العالي
٧	مسجد حي التوفيق	بمحلة جرول خلف ورشة خميس نصار
٨	مسجد الملك عبدالعزيز	بمحلة الزاهر
٩	مسجد بئر الحمام	بمحلة شعب عامر
١٠	مسجد الأمير بندر	بمحلة المعابدة
١١	مسجد حسن آل الشيخ	بشارع المنصور
١٢	مسجد الكويتي	بشارع المنصور
١٣	مسجد الطبيشي	بجرول خلف القشلة
١٤	مسجد الكعكي	بجرول بجوار المنطقة الخامسة
١٥	مسجد البدوي	يسمى مسجد الجودرية بمحلة الجودرية قبيل المدعا وهذا المسجد يسمى أيضاً بمسجد الراية وهذا صحيح كما تحققنا من ذلك ، وقد سبق

عدد	اسم المسجد	المكان
		الكلام عليه في هذا الكتاب في غير هذا المحل.

هذه المساجد فقط هي التي تقام فيها صلاة الجمعة بمكة المشرفة منذ السنة المذكورة أعلاه ، أما المسجد الحرام وهو أول المساجد العظام ، فإنه تقام فيه صلاة الجمعة منذ الفتح الأعظم لمكة المكرمة في عهد رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة .

الصلاة في الطابق الأعلى من المسجد الحرام

كانت جميع الصلوات في المسجد الحرام بمكة المكرمة تقام في الطابق الأرضي من المسجد الحرام ، فلم يكن أحد يصلي الفرائض مؤتماً بإمام المسجد الحرام في موضع مرتفع يصعد إليه بدرج ، إلا في موضعين فقط ، الأول في المقام الشافعي الذي كان بأعلا بئر زمزم ، والثاني في مقام الحنفي الذي كان بآخر حدود الطائف القديم ، بجهة باب الزيادة ، وهذان الموضعان يُصعد إليهما بدرجات قليلة لا يتجاوز عددها إحدى عشر درجة ، ومساحة كل موضع منهما نحو أربعة أمتار عرضاً في سبعة أمتار طولاً تقريبا ، وعدد من يصلي في كل واحد من الموضعين ، لا يتجاوز الخمسين شخصاً ، غير أن المقام الحنفي كان أوسع من المقام الشافعي بقليل ، أما المقام الحنبلي والمقام المالكي ، فلم يكونا مرتفعين عن الأرض بل كانا على الأرض في حدود المطاف القديم .

فلما ابتدأت توسعة المسجد الحرام في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، في عهد الحكومة السعودية ، أزيلت هذه المقامات الأربعة بتاتاً ، ثم بنيت عمارة تحيط بالمسجد الحرام من جميع جوانبه ، وكانت في هذه العمارة الجديدة طابق علوي . وعندما تمت هذه العمارة صار بعض الناس يصعدون إلى فوقها ، ويقيمون الصلوات المفروضة من الجمعة ، والجماعات في هذا الطابق العلوي مؤتمين بإمام المسجد الحرام ، وبعضهم يقيمونها في نفس أرض المسجد الحرام ، وذلك ابتداء من سنة (١٣٧٩) ألف وثلاثمائة وتسع وسبعين هجرية ، وكان قبل هذه السنة ، وهذه العمارة السعودية تقام الصلوات المفروضة في نفس أرض المسجد الحرام .

نسأل الله تعالى القبول والتوفيق والفضل والإحسان وصلاح الحال والأحوال ، بفضله ورحمته ، إنه بعباده لطيف خبير .

افتتاح طريق الطائف من جبل كرا

بعد إصلاحه وسفلتته لأول مرة في التاريخ

مدينة الطائف أعظم مصيف في الحجاز، وأهل مكة لا يستغنون عن الطائف في الصيف مطلقاً، وللطائف طريقان: طريق قديم، وهي عن طريق السيل، وهي طريق اليمانية، فبين مكة والطائف عن هذه الطريق بالجمال ثلاثة أيام، ولا تزال السيارات إلى اليوم تسير في هذه الطريق أيضاً، أما سير الجمال والدواب فقد بطل مسيرها.

وللطائف أيضاً طريق قديم عن طريق الهدَىَ بفتح أوله وثانيه، وطريق الهدى يمر من عرفات فشداد فالكُرّ بضم الكاف وتشديد الراء، فجبل كَرَا بفتح أوله وثانيه، فالهدَىَ بفتح أوله وثانيه، فعلو وادي محرم فبحرة قَرْن بفتح أوله وسكون ثانيه فجباجب فمسرة فمعشي فالطائف.

فتكون المسافة بين مكة والطائف، عن طريق كرا الجديد، حوالي ٨٥ خمسة وثمانون كيلو متراً.

ثم ان الحكومة السعودية افتتحت طريقاً جديداً بين مكة والطائف عن طريق كرا، افتتحها جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود في اليوم الثالث من شهر صفر سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية.

انظر: صورة رقم ٥٦، أحد الشوارع الجديدة الجبلية بالطائف

انظر: صورة رقم ٥٧، مدخل مسجد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالطائف

انظر: صورة رقم ٥٨، مسجد عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما بالطائف

وهذا الطريق الجديد يمر من عرفات فشداد فالكُر، فكرا فالهدى فوادي محرم فبحرة قرن فجباجب فمسرة فمعشي فالطائف. فطريق كرا الجديد هو المشي في نفس جبل كرا، وكل الجبل ملفات مسفلتة بالإسفلت.

وأسماء القرى الواقعة في الطريق القديم هي كما يأتي:

من مكة: (١) بعض قرى بني صخر، (٢) وقرية الغشامرة، (٣) وقرية القصران، (٤) وقرية الكمّل بتشديد الميم، (٥) وقرية الأعمق ومنها قرية الذراوة،

(٦) وقرية الحصيان ، (٧) وقرية المِطرة بكسر الميم ، (٨) وقرية الشُّنبان بضم الشين المعجمة ، (٩) وقرية المغارية، (١٠) وقرية البني ، (١١) وقرية الحجران . وهذه القرى واقعة على الطريق القديم .

وأما القرى الواقعة على الطريق الجديد فهي : (١) قرية ابن مسعِود بكسر الواو ، (٢) وقرية بني صخر ، (٣) وقرية الغِرَبة بكسر أوله وفتح ثانيه ، (٤) وقرية اللِّمَضة بكسر اللام وفتح الميم والضاد ، (٥) وقرية الخولة وبيت القزاز .

واعلم بأن جبل "كرا" هو أعلا جبل بين مكة والطائف ، فإنه يرتفع عن سطح البحر بنحو ستة آلاف قدم ، حتى أن بحر جدة كان يرى من قمته إذا كان الإنسان قوي النظر ، وإذا نظر في الصباح الباكر قبيل طلوع الشمس ، فإذا طلعت فإن شعاعها يحجب رؤية بحر جدة لبعد المسافة ، وقد رأى البحر من فوق جبل كرا بعض أصدقائنا ممن لا نشك في صدقهم ، فرؤية البحر من أعلى الجبل حقيقية لا وهمية ، ولا من فعل السراب ، فإن السراب لا يظهر إلا بعد الضحى العالي عند اشتداد الحر .

انظر: الصور أرقام ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ وهي للطريق المسفلت بجبل كرا عام ١٣٨٥هـ

والمسافة من مكة إلى الطائف تبلغ نحو خمسة وثمانون كيلومتراً ، وهذا عن طريق كرا من عرفات ، والطريق من مكة إلى الطائف كلها مسفلتة بالإسفلت ، وطول جبل كرا نحو خمسة عشر كيلو متراً ، فالسيارات تسير الآن بعد إصلاح الطريق وسفلتته في وسط هذا الجبل الأشم الأصم الصلد ، ويبلغ عرض الطريق المسفلّت في وسط هذا الجبل نحو اثني عشر متراً ، وطول الجبل كما هو مذكور ، ولقد مكثوا في إصلاح هذا الجبل العظيم العالي نحو سبع سنوات ، وما كان هذا العمل في هذا الجبل يخطر على بال أحد في الأزمنة السابقة . إن جبل كرا كان في سالف العهود مملوءا بالقرود ، ينزلون إليه من الطائف والجبال المجاورة ، فلما بدئ العمل في إصلاح الجبل بالألغام هربت القرود منه ، فسبحان الله مغير الحال والأحوال .

والحق يقال أن إصلاح طريق جبل كرا هو من فكرة جلالة مليكنا المعظم الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود ، فلقد فكر في إصلاحه منذ أن كان ولياً للعهد ، فلما اختمرت الفكرة في رأسه أظهرها للوجود ، فأمر بالبدء في العمل منذ سنوات ، وخصص مبالغ طائلة لهذا المشروع العظيم الجبار ، فما مرت سنة واحدة

على توليته الملك ، إلا وقد انتهى العمل في هذا الجبل العالي العظيم ، فافتتحه بنفسه في التاريخ المذكور والفرحة تغمره وتغمر الناس جميعاً ، فسبحان الموفق للخيرات والملهم للصواب ، وفقه الله تعالى لصالح العباد والبلاد بفضله ورحمته ، إنه جل جلاله هو البر الرحيم .

هذا ، ولقد أخرج القائمون بتنفيذ هذا المشروع كتاباً قد بينوا فيه خلاصة العمل في إصلاح جبل كرا ، ووضعوا فيه بعض الصور والرسوم ، فنحن ننقل منه النبذة الآتية وهي:

كيلو متر	بيان الموضوعات
٨٩	طول الطريق من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى الطائف
٢١	طول الطريق من مكة إلى عرفات
٢٣	طول الطريق من عرفات إلى الكُرّ ، وهو بأسفل الجبل
٢٢	ونصف طول الطريق من الكر إلى قمة جبل كرا ، أي إلى الهدى
٢٠	ونصف طول الطريق من الهدى إلى الطائف
..	ترتفع مكة المكرمة عن سطح البحر (٢٩٠) متراً
..	وترتفع عرفات عن سطح البحر (٣٢٠) متراً
..	ويرتفع الكُرّ في سفح الجبل عن سطح البحر (٧٥٠) متراً
..	ويرتفع الهدى عن سطح البحر (١٩٥٠) متراً ومثله ارتفاع كرا
..	ويرتفع الطائف عن سطح البحر (١٥٥٠) متراً ، فالطائف أقل من الهدى

وبلغت تكاليف إصلاح هذا الطريق مائة وثمانون مليون ريالاً سعودياً ، وإن شاء الله تعالى ستجني البلاد من فتح هذا الطريق خيراً كثيراً بفضل الله تعالى ورحمته ، والحق يقال أن إصلاح الطرقات وسفلتتها في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية في الحجاز ونجد ، لم تكن إلا في عهد الحكومة السعودية ، وفق الله تعالى العاملين لكل خير آمين .

تاريخ الإذاعة السعودية

أصدرت صحيفة "الأضواء" ، التي تصدر بجدة ، عدداً خاصاً عن وثبة الإذاعة السعودية ، اقتبسنا منه ومما جاء فيه من مقالات وتحقيقات عن تاريخ الإذاعة السعودية ما يأتي :

إن الحقيقة التي يجب أن تعرف وأن تسجل على صفحات التاريخ ، هي أن الإذاعة السعودية ، مدينة في مولدها ونشأتها إلى جلالة الملك سعود .

فعندما كان ولياً للعهد تبنى فكرة إنشاء إذاعة عربية سعودية ، إيماناً منه بخطر الإذاعة وأهميتها في العصر الحديث ، من حيث كونها لسان حال الحكومة ومظهر وعي الشعب وتقدمه ، ومن حيث كونها صلة الشعب بغيره من الشعوب من جهة ، وصلة الشعب ببعضه من جهة أخرى .

فكان مولد الإذاعة العربية السعودية في أواخر عام (١٣٦٨)هـ، الموافق (١٩٤٩)م ، ومع بزوغ فجر يوم عرفات المبارك من تلك السنة ، انطلق أول صوت في الأثير يحي العالم الإسلامي والعربي : (هنا مكة المكرمة... أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها... سلام الله عليكم من الأرض الطاهرة).

فبدأت الإذاعة السعودية عهدها مثلما تبدأ كل إذاعة في العالم حين تأسيسها... بدأت طفلاً وليداً يحبو ، ولكنه يترعرع وينمو ويكبر ، فيستكمل عناصر قوته وحيويته .

فكانت تبث برامجها في ذلك الوقت بمرسلة قوتها (٣) كيلوات فقط . وبقيت قوتها كذلك ، حتى وفق الله تعالى مليكنا إلى إصدار مرسومه الملكي في السادس والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٤هـ بإنشاء مديرية عامة تسمى "المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر" ، وأسند رئاستها إلى سكرتير جلالته الأستاذ عبدالله بلخير ، فكان ذلك بداية عهد جديد للإذاعة السعودية ، إذ أخذ سعادة الأستاذ بلخير على عاتقه النهوض بالإذاعة وتقوية إرسالها ، فخطى سعادته بها خطوات سريعة واسعة ، وكانت خطوته الأولى في عام (١٣٧٥هـ) ، الموافق لعام (١٩٥٥م)، إذ تمكنت المديرية المشار إليها من إنشاء مرسلة جديدة بقوة (١٠) كيلوات حتى تستطيع بث البرامج المتعددة المتنوعة إلى نطاق أوسع من ذي قبل .

وكان من البديهي أن توسع الاستديوهات مع زيادة البث، ولذلك ابتنت المديرية استديوهين جديدين في جدة، إلى جانب الاستوديو القديم.

أما خطوته الثانية، فكانت في عام ١٣٧٧هـ الموافق لعام ١٩٧٥م، وفي شهر صفر بالتحديد، إذ افتتح جلالة مليكنا المرسلة الجديدة قوة خمسين كيلوات. وهذه المرسلة الجديدة مفخرة من مفاخر الإذاعة السعودية، وطاقة جبارة تضع الإذاعة السعودية في مصاف أقوى الإذاعات في الشرق الأوسط.

وستتبع هذه الخطوة خطوات، وما هذه القوة ذات الخمسين كيلوات إلا جزءاً بسيطاً من مشروع ضخم كبير يكلف تحقيقه مئات الألوف.

والمديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر جادة في سبيل إنجاز هذا المشروع الكبير، والعمل قد بدأ بعد أن أقره جلالة الملك، وأمر بتنفيذه في الحال.

وهذا المشروع سيرفع من قوة الإذاعة فيجعلها بقوة أربعمائة وخمسين كيلوات... وبذلك يكون للملكة العربية السعودية إذاعة عالمية تنقل رسالتها إلى الدنيا كلها.

ولن تمضي سنتان ونصف حتى يكون المشروع قد أنجز بأكمله، وعندها تحقق معجزة عالمية في الأثير، هي من صنع جلالة الملك فيصل المعظم أدامه الله ووفقه لكل ما يحب ويرضى، إنه السميع المجيب.

ومما يجدر ذكره، أن الإذاعات لما انتشرت في الممالك والأقطار، وحضرت الأجهزة إلى المملكة السعودية، كان فتحها لسماع الأغاني ممنوعاً منعاً باتاً، ومن فتح الراديو واستمع إلى الأغاني تعاقبه الحكومة السعودية وتكسر له الراديو، ثم ما زالوا يتساهلون في الأمر تدريجياً حتى وصلت الحالة عندنا إلى ما نراه اليوم.

قال الأستاذ سراج خراز من مكة المشرفة في تحية الإذاعة السعودية قصيدة طويلة نقتطف منها ما يأتي:

حيِّ الإذاعة معلناً إكبارها	وأنشد على مر الزمان فخارها!
فأحق بالإعجاب منك إذاعة	شادت على أسس الثقافة دارها
في الصبيح والإمساء تسجع طيرها	فاسمع فديتك فيهما أطيارها
ألقت بسمع الكون ما هاجت به	شجو النفوس وحركت أوتارها
هي منبر صدحت به أقلامهم	أسمعت في جنباته قيثارها؟

تهب الكبار من العقول معارفنا	وتمد بالقصص البديع صغارها
فتداعب الأطفال فرحة باسم	مرح، زوت عنه الدنيا أكدارها
إن الإذاعة إن دعتكم إنما	تدعو البلاد لمجدها أحرارها
هي رمز نهضتنا الفتية فاحذروا	أن تطفئوا بأكفكم أنوارها
فقفوا لنصرتها الجهود وراقبوا	نحو التقدم والعلا أطوارها

انظر: صورة ٦٢، المؤلف وموظف الإذاعة وآخرين بالقرب من منى عام١٣٧٥هـ

قصيدة في تحية دار الإذاعة

احتفلت دار الإذاعة المصرية في شهر إبريل سنة (١٩٣٧) ميلادية، بانتهاء العام الثالث من إنشائها، ودعت لذلك نخبة من رجال العلم والأدب في مصر، ليذيع كل منهم كلمة في هذا الصدد، فقال الأستاذ علي الجارم رحمه الله تعالى، هذه القصيدة:

دار الإذاعة أنت بنت ثلاثة	مرت كومض البارق اللماح
كم فيك للقرآن رنة قارئ	تحلو لدى الإمساء والإصباح
كشفت عن النفس الملول حجابها	فتوجهت للخالق الفتاح
الدين سلوى النفس في آلامها	وطبيبها من أدمع وجراح
دار الإذاعة كم نشرت ثقافة	جلت مآثرها عن الإفصاح
كم جاز صوتك من بحار سجرت	وفدافد شعث الفجاج فساح
أصبحت أستاذ الشعوب وكافحت	نجواك جيش الجهل أي كفاح
وملأت بالعلم البلاد فنوره	في كل منعطف وبهرة ساح
تتلقف الدنيا حديثك مثلما	يتلقف الأبرار وحي ألواح
دار الإذاعة أنت أمرح أيكة	صدحت فكانت أيكة الأفراح
صاحت بلابلك الحسان فأخملت	في الجو صوت البلبل الصياح
من كل شادية كأن حنينها	همس المنى لليائس الكداح
الليل إن نادته ماس بعطفه	فتراه بين المنتشي والصاحي
كم فيك من لهو ري النهى	وفكاهة محبوبة ومزاح

النفس تسأم أن تطاول جدها ... فاكشف سآمة جدها بمباح

* * *

زمر الشباب ولى ملامة ناصح ... لو تسمعون نصيحة النصاح
بالعلم "مركوني" تسلق للعلا ... وبعزمة الوثابة الطماح
رحل عصامي الأرومة لم ينل ... مجداً "بآمون" ولا "بفتاح"
تتطلع الدنيا إليه وتمتطي ... ذكرى مآثره متون رياح
إن التفاخر بالقديم تعلة ... والجهل للمجد المؤثل ماحي
والعلم مصباح الحياة فنقبوا ... من قبل أن تثبوا عن المصباح
بلي السلاح مع القديم وعهده ... والآن صار العلم خير سلاح
اليوم فكرة عالم في مصنع ... تغني عن الأسياف والأرماح
وتصد كل كتيبة موارة ... خضراء تقذف بالكماة رداح
أمضوا الجهود وأخلصوا لبلادكم ... في الجد والإخلاص كل نجاح
لا يرتجى من أمة مفتونة ... باللهو والتسويف أي فلاح
خوضوا الصعاب ولا تملوا إنما ... نيل المنى بالصبر والإلحاح

وصف الحاكي أي "الفنوغراف"

ومما يناسب مبحث الكلام على الإذاعة، ما جاء في كتاب المحفوظات المختارة عن وصف "الفنوغراف" بفاء ونون مضمومتين، وقد كان اختراعه قبل اختراع الراديو بنحو خمسين سنة تقريباً، وهو ما يأتي:

مثال القوة الناطقة، من غير إرادة سابقة، يقتطف الألفاظ اقتطافاً، ويختطف الصوت اختطافاً، مطبعة الأصوات ومرآة الكلمات، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية، نقل كلام عمر إلى سارية أشد من الصدى في فعله، في إعادة الصوت إلى أصله.

يحفظ الكلام ولا يبيده ومتى استعدته منه يعيده من غير أن يبقي لفظاً في صدره، أو كتم شيئاً من أمره، كأنما حفظ الوديعة في نفسه طبيعة، فلو تقدم له الوجود في مرتبة الزمن ما احتجنا في الأخبار إلى عنعنة ولا في الدعاوي إلى بينة، بل كان يسمعنا كلام السيد المسيح في المهد، وصوت عازر من اللحد، وكانت

الفلاسفة استودعته حكمتهم ، وأنشدوه كلمتهم ، فرأينا به غرائب اليونان ، وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان وشعر سيدنا حسان بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من الأزمان .

لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه في لحظة معيداً قوله ، ناقلاً صوته ولفظه .

نديم ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا ينسب إليه تقصير ، تسكنه وتستعيده وتنقصه وتستزيده ، وهو في كل هذه الأحوال ، راض بما يقال ، لا يكل من تحديث ولا يمل من حديث . نمام ، كما ينم لك ينم عيك ، وينقل لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصور لكل فن ، المتكلم بكل لغة ، المحدث عن كل إنسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر الناثر المغني العارف ، لا تعجزه العبارة ، ولا تجهده الإدارة ، ولا يضره اختلاف شكل ، ولا تباين أصل . انتهى .

الحاكي

هل علم الغريد في وكره ... شأن الذي خفض من قدره

وهل درى المطرب ماذا الذي ... يسترجع الملحود من قبره

يا عجباً من ناطق صامت ... تأتلف الألحان في صدره

يستخرج اللحن بمسنونه ... تزيل ذاك اللبس من أمره

تخط في أعطافه أحرفاً ... كأنما تبحث عن سره

يروي أحاديث أناس مضوا ... كأنها مرت على فكره

انتهى.

ظهور التلفزيون

أما اختراع (التلفزيون) فأول من فكر فيه رجل إنكليزي اسمه كامبل سوينتون ، وذلك سنة (١٩٠٨) ميلادية ، ولكن هندسة صنع الصمام اللاسلكي في ذلك الوقت لم تكن متقدمة تقدماً كافياً ، فلم تتحقق فكرته . ثم في سنة (١٩٢٥) ميلادية ، عرض (ج-ل بيرد) أول تلفزيون في العالم ، إلا أن الصور لم تكن واضحة ، ومنذ ذلك الوقت أخذت هندسة التلفزيون في تقدم مطرد .

وقد ظهر التلفزيون لأول مرة في مصر سنة (١٣٧٨) هجرية ، الموافقة لسنة (١٩٥٩) ميلادية .

وبالطبع كان ظهوره في أوروبا قبل ظهوره في بلاد الإسلام . أما التلفزيون في البلاد السعودية ، فإلى طبع كتابنا هذا لم يكن له ظهور عندنا ، ولقد سمعنا أن الحكومة السعودية ستعمل وتحقق ظهور التلفزيون عندنا في العام الآتي ، أي في سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية ، والله تعالى أعلم .

ولقد أخذت الحكومة السعودية في نشر التلفزيون بالمملكة ، وربما ظهر التلفزيون عندنا قبل شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية . والله تعالى أعلم بما سيحدث في مستقبل الأعوام ، من أنواع الراديو والتلفزيون وغيرهما .

في شهر ربيع الثاني سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية ، ظهر بمكة المكرمة التلفزيون وعرضوه في بعض المعارض ، وهو في دور التكوين والإصلاح والتجربة ، فلا يمر هذا العام إلا وقد انتشر في جميع بلدان المملكة العربية السعودية .

الميكرفون في المسجد الحرام

كان لكل منارة في المسجد الحرام مؤذن واحد بل أكثر ، وكان الذي يقيم الصلاة ويبلغ حركات الإمام للمأمومين ، يطلع إلى المقام الحنفي لهذا الأمر ، ثم لما ظهر في عصرنا الراديو والميكرفون ، استعملوا الميكرفون لسماع خطب الوعظ والإرشاد وإلقاء المحاضرات والتنبيهات والتعليمات ، حيث إنه يكبر الصوت ويوصله إلى أماكن بعيدة ، فإنه يكفي أن يقف رجل واحد أمام آلة الميكرفون ، فيلقي ما شاء من الخطب والتعليمات ، ليسمعه آلاف الناس في الميادين والمحلات ، وحين رأى الناس فائدة الميكرفون وضعوه في المساجد وفي المآذن وعند المحراب ولدى المبلغين وأمام قرّاء القرآن والمنشدين ونحو ذلك ، حتى يسهل سماع القرآن والخطب لجميع الناس .

ولقد سمحت الحكومة السعودية باتخاذ الميكرفون في المسجد الحرام والمسجد النبوي ، ووضعوه على المنارات ومقامات المبلغين وعند الإمام وقت الصلوات وعلى المنبر ، وكان وضعه في المسجد الحرام في أول عام (١٣٨٦) ثمان وستين

وثلاثمائة وألف ، وقد وضع في المقام الحنفي جهة باب الزيادة ، لأن في هذا المقام يبلغ حركات الإمام للمأمومين .

والحق أن للميكرفون فائدة كبرى ، لا ينكرها إلا كل أخرس أصم .

الجبال وفوائدها وألوانها

الجبال في الأرض موضع التأمل والنظر لدى أهل الفكر وذوي الألباب ، فهي دلالة على قدرة الله عز شأنه ، الذي قال في سورة الغاشية : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۞ وإلى السماء كيف رفعت ۞ وإلى الجبال كيف نصبت ۞ وإلى الأرض كيف سطحت ۞ فذكر إنما أنت مذكر﴾.

وقال تبارك وتعالى في سورة النبأ : ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً ۞ والجبال أوتاداً ۞ وخلقناكم أزواجاً﴾ . وقال جل جلاله في سورة فاطر : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ۞ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾.

فالله تبارك وتعالى ، الذي له الحكمة البالغة ، لما جعل الأرض مهيأ لنا لننتفع بها من جميع الوجوه ، كالمهد الذي يفرش ويهيأ للصبي ليرتاح فيه ، جعل الجبال عليها أوتاداً تستقر وترسو كما يرسو البيت بالأوتاد ، قال الشاعر :

والبيت لا يبنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وفي الحديث ، خلق الله تعالى الأرض ، فجعلت تميد فوضع عليها الجبال فاستقرت ، فقالت الملائكة : ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال: نعم الحديد . فقالت : ربنا ، هل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . فقالت : ربنا ، هل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال: نعم ، الماء . فقالت : ربنا ، هل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الهواء . فقالت : ربنا ، هل خلقت خلقاً أشد من الهواء ؟ قال نعم ، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفي ذلك عن شماله .

فالجبال علاوة على أنها جعلت أوتاداً على الأرض ، فإن فيها منافع كثيرة ، منها الاستظلال حولها إذا سلطت الشمس حرارتها على الأرض ، ومنها تخرج المياه أحياناً من بين حجاراتها عذبة صافية كالماء المقطر ، ومنها أن في الجبال

كهوفاً ومغـاور طبيعية تصلح للسكن والراحة التامة فيها، ومنها أنهم كانوا يتخذون بيوتاً في الجبال يعملونها نحتاً بأيديهم كما قال الله تعالى عنهم في سورة الأعراف: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾. وقال سبحانه في سورة الحجر: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ۞ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ۞ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾. وقال أيضاً في سورة النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾، وقال فيها أيضاً: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾.

قيل: كانوا ينحتون الجبال بيوتاً لطول أعمارهم، وكانت الأبنية تبلى قبل أن تبلى أعمارهم.

يظن بعض الناس أن الجبال اسودت واغبرت من تأثير حرارة الشمس القوية التي مرت عليها آلاف الأجيال، وهذا الظن ليس في محله، إذ لو كان الأمر كذلك لوجدنا باطن الجبال بلون غير لون ظاهرها، والحال أن باطنها وظاهرها بلون واحد.

فلقد خلق الله تعالى الجبال بألوان مختلفة، ففيها البيض وفيها السود وفيها الحمر وفيها الخضر وفيها غير ذلك من الألوان كما في الآية المتقدمة، ومعنى كلمة "وغرابيب سود" الغربيب هو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه، ومنه الغراب لأنه شديد السواد، ومن الجبال ما هو صلب شديد ورخو فتيت، وما هو مدور وما هو مستطيل، وما هو صغير وما هو كبير، وما هو وحده مستقل، وما هو متصل بغيره متسلسل ممتد إلى أميال بعيدة، وما هو كالقطعة الواحدة، وما هو متكون من أحجار وصخور بعضها فوق بعض من أصل الخلقة والطبيعة، وما هو منقور منحوت، وما هو مخروق ذو منافذ وطرائق، وما هو أملس ناعم، وما هو خشن يابس، ومنها ما هو آهل بالسكان وما هو خال من العمران، ومنها ما فيه أنهار وزروع وثمار، ومنها ما لا ينبت فيها زرع ولا يصلح للعمار، وبين هذا وذاك سبل ووديان ينتفع منها الإنسان والحيوان.

ومن الجبال ما هو شامخ عال. قال تعالى في سورة المرسلات: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾.

وأعلى جبال الأرض جبال هملايا وإفرست ، فإن هذه الجبال قل من وصل إلى قمتها من البشر ، لعلوها الشامخ واستمرار الثلوج عليها صيفاً وشتاءاً .

وفي الجبال نقطة دقيقة وطرفة فنية عجيبة تغيب عن كثير من الناس ، وهي أن الله تعالى، جلت قدرته خلق الجبال على أحسن صورة وأجمل منظر ، فهي على تباينها واختلاف أشكالها وتفرق مواضعها ، وعدم تنظيمها ، تجد فيها روعة وجلالاً تأخذ بمجامع القلوب ، وتشرح الأفئدة والصدور ، تجد هنا جبيل صغير وتلال صغيرة ، وتجد هناك جبالاً مرتفعة وصخوراً ناتئة ، وتجد أمامك سلسلة جبال تسد الطريق ، فإذا وصلت إليها وجدت الطريق بينها مسلوكاً وتجد نفسك أحياناً محصوراً تحيط بك الجبال في دائرة ضيقة ، إذا بك تخرج من بينها في فضاء فسيح ، وقد تفرقت الجبال عنك ، وتجد قمم الجبال ورؤوسها مختلفة متنوعة ، كما تجد ظهورها وتسنمها بأشكال متباينة ، وتجد في تعاريجها وتلافيفها وارتفاعها صعوبة الرقي ، لكنها تغري الناظر بالصعود ، فإذا رقى عليها ورأى ما تحتها وما حولها ، انشرح صدره وود لو لم ينزل عنها ، وما أحلى منظر الجبال في البكور والأصيل والليالي المقمرة ، ولا يعرف متعة الصحراء إلا أهل الصحراء ، ولا يفهم كلامنا إلا من رأى البلاد التي تكثر فيها الجبال ، وتتجلى هذه المعاني بوضوح لمن كان مسافراً ما بين مكة وجدة ، وما بينها وبين المدينة ، أو مسافراً حوالي البلاد الحجازية .

فلو اجتمع أهل الرسم والتصوير ، ونبغاء الفنون والابتكار من أطراف العالم ، على أن يعملوا جبالاً صناعية فيها هذه الروعة والجلال والمناظر والجمال ، لباؤا بالفشل ورجعوا بخيبة الأمل . فسبحان مبدع الكائنات الذي أحسن كل شيء خلقه ، والذي وضع في كل شيء من الجاذبية والقوة الكامنة والحكمة البالغة ما يحير ذوي العقول والألباب فسبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم .

وصف الصحراء

جاء في الجزء الثالث من كتاب "المطالعة العربية" عن الصحراء نقلاً عن كتاب "صحراء ليبيا" تأليف أحمد حسنين ، ما يأتي :

قد يكون للصحراء متاعبها ، ولكن لها أيضاً مفاتنها ، تستهوي عشاقها وتجذبهم إليها ، افتتن بها كل من جاب نواحيها ، افتتن بعظمتها المتمثلة في فضائها الواسع ، وسكونها العميق ، وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر.

تبسم الصحراء فما أحلى ابتسامها ، وتعبس فما أقبح عبوسها ، تضحك نجومها فتستهوي عابرها ، ويحتكم فضاؤها في القلب ، فتوقعه في أسرها فيسير مغتبط النفس هانيها ، سير المطمئن ، المؤتنس بها ، المولع بجمالها ، ولكن شيمتها الغدر ، فلقد تريك غاية الغضب والقسوة التي لا متجاوز بعدها ، بعد أن تضفي عليك السرور ، وترضيك تمام الرضا .

الصحراء ساحرة جذابة ، إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر ، ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها ، ولا سبب خلابتها وكل ما تعرفه أنها تناديك ، فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك ، وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال إليها راضياً مغتبطاً ، يسوقك الحنين وتدفعك الذكرى .

تلازم القافلة ساجي العينين ، تجرر قدميك المقروحتين على وقع خطا الإبل ، وقد جف الريق ، وتشقق الحلق ، ولا أثر لبئر ، يسير رفقاؤك في هدوء وسكون قد خفتت أصواتهم ، وقلص الجهد وجوههم ، وحالت إلى لون الدم عيونهم ، ملؤها اليأس ، تستطلع الأفق وتستوضح ذلك الخط الذي تلتقي عنده زرقة السماء وصفرة الرمال ، فإذا هو دائماً ناصل بعيد السكون شامل ، لا تشقه إلا خضخيضة النزر اليسير من الماء في القرب المتهدلة على جوانب الإبل المتهالكة ، إننا في الصحراء لا نتحدث كثيراً ، فالصحراء تعلم الصمت والوجوم ، وإذا أحدق الخطر بنا تحامينا أن ينظر بعضنا إلى بعض ، وساد السكوت ، وماذا يجدي الكلام ، كل منا يعرف ما هو واقع ، وكل منا يحتمله بصبر وجلد، إذا التضجر ضرب من السخط ، والسخط معصية لا يقدم عليها بدوي ، ففي عقيدته أن الله كتب عليه هذه الحياة ، وقدر عليه سلوك هذه الطريق ، وقد تودي به فلا بد من الرضا ، والبدوي يقول: لا مفر مما كتبه الله وقدره أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وفي مثل هذه الساعات تقطع على نفسك العهود والمواثيق ، ألا تعود إلى الصحراء أبداً إذا قدر الله لك أن تخرج منها حياً .

ثم ينتهي اليوم ، وتحط الرحال ، ولا تنصب الخيام ، لأن الرجال مجهدون غافلون عن التفكير في أنفسهم ، وكأن الشمس قد نالها ما نالنا من التعب ، وكأنما

النهار الذي قطعته معنا في نضال الصحراء أدمى وجهها فـإذا قرصهـا يرسـل أشـعة حمراء، كأنها خيوط الدم، وكأنما الشمس قد عمدت مثلنـا إلى الانـزواء، تضمـد ثخين جروحها وتجدد منهوك قواها، حتى إذا تم لها ذلك عادت وعدنـا في نورهـا إلى مصارعة الصحراء، ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعنا وتصرعها... قصة كل يوم.

يهبط الظلام شيئاً فشيئاً، تطارد طلائعه فلول النور، ويسـجو الليـل، زاهـر النجوم، أو وضاح البدر، وربما كان ليل الصحـراء أعجـب نواحـي الحيـاة فيهـا، يسري نسيم الليل عليلاً، فينعش روح القافلة ولا تمضي دقائق حتى يبدأ النقر على الصفائح الفارغة، ويدور الرقص والغناء، ويتجمع شمل الرجال حول النار الخابية، فيتوسم كل منهم وجوه رفقائه، ليطمئن عليهم، ويستيقن سلامتهم، ويحاول كل منهم أن يكون أشد بهجة من جاره، ليقوي عزيمته ويجدد في نفسـه الثقـة والأمـل والطمأنينة. وقد نعمد إلى مغالطة أنفسنا بأن نبعث في ظلام صيرتنا ومتاعبنـا نـوراً فيقول أحدنا: "إن جمال القافلة بخير"، ويقول آخر: "لقد تعهدت الجرح، فـإذا بـه أخف مما كنت أظن"، ويقول ثالث إنـه رأى ثـارة البئر علـى مقربـة إلى اليمـين، وهكذا نستدرج أنفسنا لنقنعها بأن كل شيء على مـا نـود ونرغـب، وربمـا كـان هذا كله تغريراً منا بأنفسنا أمام الصحراء التي خلبت ألبابنا، وتغلب سـحرها على عقولنا، تبسم لك الصحراء ليلاً، فتنسى كل شيء، تنسى متاعبك وآلامك.

تنسـى الصعـاب الـتي لاقتـك، والمشـقات الـتي تنتظرك، تنسـى كـرب الحـر والعطش وتنسى أنك كنت قد أشرفت اليوم على الهلاك، وأن الموت يرقبك غداً، وأنه كامن لك في كل خطوة، تبسم لك الصحراء، فلا يبقى بعدها مكان أجـدر بأن تعيش فيه، ولا تطيب لك الحياة في غيرها، تبسـم الصحـراء فيعـاودك حبهـا، وتقبل عذرها، وتغفر ذنبها، وتنقض عهد هجرانها. قليل من أهل المدن يدركـون لذة الجلوس في حلكة الظلام ورعي النجوم، ولا عجـب إن كـان العـرب أسـاتذة علم الفلك، فالأعرابي إذا انتهى من عمل يومه، خلا إلى نفسه، وانقطع إلى ترسم حركات النجوم وإمتاع روحه، بما تبعثه فيه من الراحة، والشعور بالسـمو إلى مـا فوق العالم الأرضي، وتقع النجوم من نفسه موقع الأصدقاء الأقربين الذين يلقـاهم كل يوم حتـى إذا دارت قبـة الفلـك لم تغب فجـأة، وإنمـا تحتجـب تدريجاً كمـا يتوارى الراحل عن مودعه على أمل اللقاء القريب.

وينصل الليل، فينبعث من أول متيقظ من رجال القافلة: "حي على الصلاة، الصلاة خير من النوم"، فيستيقظ القوم، وكأنهم يجمعون عظامهم، ومع ذلك، فما أعظم ما طرأ عليهم، سرى فيهم الأمل وتولدت الثقة بل قد يعتقدون في ضمائرهم أن سيجري كل شيء على ما تهوى نفوسهم والدنيا بعدُ فضاء مكفهر رطب، ونيران الصباح وحدها تذهب ببرودة نسيم الشمال، فإذا كان الجو صحواً، لا سحاب فيه ولا مطر، انتشر في السماء نور ضئيل يرمي خلف الرجال والإبل ظلالاً مستطيلة رواغة تدق حتى ما تكاد تسميها ظلالاً، ثم يتخضب الفضاء بحمرة تبعث الدفء حتى إذا ما بدت ذُكاء، لم يبق في الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة وصفرة، ثم تنصل الزرقة شيئاً فشيئاً، حتى إذا انتصف النهار أمحت الألوان من السماء.

ويخلق الصباح قوة جديدة، تلك هي الساعات التي يتجلى فيها للإنسان سحر الصحراء وجمالها، في سكون هذا الفضاء المتسع يدق الإحساس ويرهف، حتى ليشعر قاطع الصحراء أحياناً بقرب (واحة) عامرة وتغلب غريزته أيضاً، فيحس بمئات الأميال التي تبعده عن كل كائن حي، وفي تلك اللانهائية الساكنة، يصحو الجسم، وتصفو الروح فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عز وجل، ويحس قوة قاهرة، ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها، ويتسرب إلى نفسه الإيمان بالقدر الغالب فيصبح شديد الاستسلام، حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم، وهناك حقاً أوقات يشعر الإنسان فيها بأن الحياة قليلة الوزن هينة، وتكشف الصحراء من الإنسان عن جوانبه الشريفة، فإنك إذا واجهت أهل المدن بالخطر، ناضل كل عن نفسه، أما في الصحراء فتسمو النفس، وتختفي الأثرة ويبدو الإيثار، فيفرغ كل قصارى جهده في خدمة زملائه، فإذا هدد الخطر قافلة من القوافل، وعنّ لأحد أفرادها سبيل النجاة، تنكب عنها، ولم يترك رفقاءه لينجو بنفسه. وأشد ما يهولك في الصحراء أن يقل الماء، وربما دار بخلدك في مثل هذه الحال أن تستبقي لنفسك ما لديك منه، ولكنك بدلاً من هذا لا تلبث أن تجدك حاملاً زجاجة الماء، وهي إذ ذاك أثمن ما تملك، تدور بها على الرفاق، تسأل كل منهم، هل يريد جرعة، تسألهم غير آبه ولا مكترث، كأنما خيل إليك أن الماء موفور غزير فائض عن حاجتك، تسألهم دون أن تفكر في سلامتك، وهكذا يكون الإيثار، وتكون التضحية.

لا يزال يزداد الإعجاب بالبدوي، كلما فكرنا في ثباته وسكينته وشجاعته التي لا يزعزعها شيء، يدخل البدوي الصحراء وعماده ثلاثة: الجمال، والماء، والدليل. أما الجمال، فقد يخور أقواها، وينفق لغير سبب ظاهر، ويقوم أضعفها يتمايل تحت حمله، يقارب في خطواته، حتى يبلغ آخر الشوط، وموت جمل من جمال القافلة كارثة في إلقاء جل أحماله، إن لم يكن كلها. أما الماء فيحمل أكثره في قرب، وقد تتصدع القربة، أو يبخر منها الماء، وربما اصطدم جملان، فتنشق قربة أو قربتان، وهذه هي الطامة الكبرى. بقي الدليل، فقد يقول -والأسباب كثيرة- أن الأرض تدور برأسه، وأن رأسه طاح، وقد يضل الطريق إذا غامت السماء بضع ساعات، أو أخطأ في ترسم معالمه.

عماد البدوي في اجتياز الصحراء، كما قدمت: الجمال والماء والدليل، ولكنها جميعاً لا تغني عن شيء آخر هو الإيمان، الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع، الإيمان الراسخ الوطيد، ولو رجع كل رحالة إلى نفسه، ما استطاع أن يقول: فعلت، بل كل ما يستطيع أن يقوله: وفقت، وما التوفيق إلا من عند الله.

قد تتجمل الصحراء ويلين مهادها، وقد يكون رجال القافلة متهللين نضر الوجوه، وقد تعبس الصحراء، فإذا تهدلت رؤوس الإبل من العطش والإعياء، ونزر الماء، وما من أثر لبئر قريبة، ووجم رجالك، وتطرق اليأس إلى نفوسهم، وسألت دليلك، فهز كتفيه وقال: الله أعلم، وذرعت بنظرك الأفق، فإذا هو ذلك الخط الغائم المضطرب، وجلت ببصرك في كل ما يحيط بك، فما رأيت شارة ولا علامة تبعث على بصيص من الأمل، وضاقت دائرة الأفق، حتى أصبحت على رحبها طوقاً يضيق حول عنقك، فهنا يشعر البدوي بافتقاره إلى القدرة القادرة، وهنا يجأر باستدرار رحمه الله ولطفه، حتى إذا ضلت دعواته، ضم جسده الذاوي، وتهالك على الرمال ينتظر الموت المحتوم في سكينة واستسلام، هذا هو الإيمان الذي لا بد منه لمجتاز الصحراء.

انتهى من كتاب المطالعة الوافية.

ذكر بعض أشهر جبال مكة

جاء في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ما نصه: قال الله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾، قال المفسرون: خلق الله عز وجل،

الأرض على الماء فمادت وتكفأت ، كما تتكفأ السفينة ، فأثبتها بالجبال ، ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً.

وروى أبو حاتم في كتاب العظمة ، أن النبي ﷺ ، قال : إن الله تعالى ، لما خلق الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من خلق الجبال ، وقالت : يا رب هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال : الحديد ، قالت : فهل من خلق أشد من الحديد ؟ قال : النار ، قالت : فهل من خلق أشد من النار ؟ قال : الماء ، قالت : فهل من خلق أشد من الماء ؟ قال : الريح ، قالت : فهل من خلق أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم ، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض . فبعث الله ريحاً فعصفت الماء ، فأبرز من حشفة في موضع البيت ، فدحا الأرض من تحتها ، فمادت فأوتدها بالجبال .

فكان أول جبل وضع ، جبل أبي قبيس ، وهو الجبل المطل على الكعبة ، انتهى من كتاب نهاية الأرب .

ومن قول السموأل في الجبال :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا ينال طويل

نقول: إن الحرم في أطراف مكة وجهاتها متسع ، فحدود الحرم المكي يحرم التعرض لصيده ونباته للآتي من جهة التنعيم ثلاثة أميال ، ومن العراق والطائف سبعة أميال ، ومن الجعرانة تسعة أميال ، ومن جدة عشرة أميال . وهذه الحدود لها من الحكم ما لمكة لأنها محيطة بها ، وهذه الحدود غير حدود المواقيت .

فمكة وما يتبعها من الحرم ملآنة بالجبال ، ونرى من العسير جداً عدها وإحصاءها ، فكيف أمكن للإمام الأزرقي أن يعدها وأن يحصرها في اثني عشر ألف جبل .

ونحن مع كثرة مطالعتنا لتاريخ الإمام الأزرقي ، لم نر فيه أنه ذكر عدد جبال الحرم ، فما ندري في أي صحيفة منه وجد الغازي رحمه الله ، أنه ذكر عدد جبال الحرم حتى نسبها إليه .

هذا ولا نريد إطالة الكلام عن جبال مكة وذكرها جبلاً جبلاً، ففي كتب التاريخ بيان كل ذلك، ولكن لا بد لنا من ذكر أهم جبالها وأشهرها، ولنقتصر من ذلك على سبعة جبال فقط وهي:

(١) جبل أبي قبيس - ويقع في الجهة الشرقية للمسجد الحرام.

(٢) وجبل قعيقعان - ويقع في الجهة الغربية، وهذان الجبلان هما أخشبا مكة.

(٣) وجبل حراء - ويقع في الشمال الشرقي، وفيه أول ما نزل من القرآن.

(٤) وجبل ثور - ويقع في الجهة الجنوبية، وفيه اختفى النبي ﷺ مع أبي بكر حين الهجرة.

(٥) وجبل خندمة - ويقع خلف جبل أبي قبيس.

(٦) وجبل عمر - ويقع في الجهة الغربية تقريباً.

(٧) وجبل ثبير - ويقع في الجهة الشرقية.

واعلم أن مكة شرفها الله تعالى وأكثر رزقها وخيرها ورخص أسعارها، وزادها أمناً وأماناً وبراً وإحساناً، وغفر لأهلها ووفقهم لمعرفة فضلها والأدب فيها، وأدام رضاءه وتوفيقه عليهم، وعلى من جاورهم ليقوموا بطاعته خير قيام كلها محاطة بالجبال الشاخة، وهذه الجبال متصلة بعضها ببعض، وما نراه في بعض الأماكن المسكونة من استواء الأرض، إنما حصل بفعل البشر من إصلاح الطرق ومواضع المساكن، وإلا ففي أصل الخلقة بعض أراضيها غير مستوية بهذا المقدار، خصوصاً ما كانت محيطة بالمسجد الحرام ومطلة عليه.

قال الغازي في الجزء الأول من تاريخه بصحيفة ٣٤٢ : قال الإمام الأزرقي: وبحرم مكة، شرفها الله تعالى، اثنا عشر ألف جبل.

جبل أبي قبيس وارتفاعه ٤٢٠ متراً

روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: "أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت، ثم مدت منه الأرض، وإن أول جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس، ثم مدت منه الجبال". قال العزيزي في شرحه على الوقع الصغير، قال الشيخ: حديث صحيح لغيره اهـ.

وروى الإمام الأزرقي في تاريخه : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أنه قال : لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، بعث الله تعالى ريحاً هفافة فصفقت الماء ، فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة ، فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم مادت ، فأوتدها الله تعالى بالجبال ، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس ، فلذلك سميت مكة أم القرى اهـ.

وجبل أبي قبيس هو أحد أخشبي مكة ، وكان أبو قبيس يسمى في الجاهلية الأمين ، لأن الركن الأسود كان فيه مستودعاً عام الطوفان ، فلما بنى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام البيت نادى أبو قبيس أن الركن مني بموضع كذا وكذا ، وقيل أتى به جبريل عليه السلام من الجبل وسلمه إلى إبراهيم .

أما الأخشب الثاني فهو جبل قعيقعان الذي نسميه الآن "بجبل هندي" وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

قال الأزرقي : وبلغني عن بعض أهل العلم من أهل مكة أنه قال : إنما سمي أبا قبيس أن رجلاً أول من نهض بالبناء فيه كان يقال له أبو قبيس ، فلما صعد فيه بالبناء ، سمي جبل أبي قبيس ، ويقال كان الرجل من إياد ، ويقال اقتبس منه الركن فسمي أبا قبيس ، والأول أشهرهما عند أهل مكة . اهـ .

واعلم أنه يمتاز جبل أبي قبيس عن بقية الجبال بما يأتي :

(١) أنه أول جبل وضع على وجه الأرض .

(٢) أن الله تعالى استودعه الحجر الأسود زمن طوفان نوح عليه السلام .

(٣) أنه يشرف على الكعبة المعظمة ، بل إن الربوة التي بنيت عليها الكعبة تتصل بأصل جبل أبي قبيس .

(٤) أن انتشار الدعوة إلى الإسلام جهراً لأول مرة ، كان في الدار التي بأسفل أبي قبيس المسماة "بدار الأرقم" والشهيرة بدار الخيزران ، فقد كان النبي ﷺ يختبئ فيها هو ومن آمن معه ، ويصلون بها سراً ، حتى أسلم عمر رضي الله عنه ، فجهروا بالإسلام ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر .

(٥) أن أصل الصفا الذي يبدأ السعي منه يقع في أسفل أبي قبيس في مقابلة ركن الحجر الأسود .

(٦) أن انشقاق القمر حصل عليه، وذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

(٧) كان نصب المنجنيق زمن محاربة ابن الزبير رضي الله عنهما، على أبي قبيس وعلى قعيقعان.

وكفى بجبل أبي قبيس شرفاً أنه بمكة مطل على بيت الله الحرام، بينهما أمتار معدودة، ومع هذا نعجب كيف لم تؤخذ منه الصخور والأحجار لأساس الكعبة وبنائها كما أخذت من الجبال الأخرى. مع أنه هو أول جبل وضع على وجه الأرض ثم منه امتدت الجبال.

قال الغازي في تاريخه في الفصل الأول، عند ذكر جبال مكة ما نصه: (فمنها) الجبل المعروف بأبي قبيس، وهو الجبل المشرف على الصفا، وهو أحد أخشبي مكة، وسمي بأبي قبيس باسم رجل من إياد يقال له أبو قبيس، ذكره الأزرقي، وقيل إن الرجل من مذحج، ذكره ابن الجوزي، وقيل سمي بأبي قبيس باسم رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه مية فنذرت أن لا تكلم، وكان شديد المحبة لها، فحلف ليقتلن قبيساً فهرب منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبره. وقال الأزرقي: الأول أشهر عند أهل مكة، وقيل إنه اقتبس منه الحجر، وكان يسمى في الجاهلية الأمين لأن الحجر الأسود استودعه الله فيه من الطوفان على قول، فلما بنى الخليل الكعبة نادي أبو قبيس: الركن مني بمكان كذا وكذا. وقيل إن آدم اقتبس منه نار الدنيا، وعن مجاهد: أول جبل وضع على وجه الأرض أبو قبيس، ثم مدت الجبال منه، ذكره الأزرقي والواحدي، كذا في تحصيل المرام.

وقال أيضاً: وفي الإعلام: سمي بأبي قبيس لأن رجلاً من إياد يكنى أبا قبيس، صعد فيه، وبنى فيه بناء فعرف به. قال الفاكهي: اعلم أن الدعاء فيه يستجاب، وأن وفد عاد قدموا إلى مكة للاستسقاء لقومهم، فأمروا بالطلوع إلى أبي قبيس للدعاء، وقيل لهم: لم يعله خاطئ يعرف الله منه الإنابة إلا جابه إلى ما دعاه إليه. وفيه على إحدى الروايات قبر آدم وحواء وشيث عليهم السلام، قال الذهبي في تاريخ مدة آدم وبنيه ما نصه: وخلف بعده شيث ابنه ونزلت عليه خمسون صحيفة وعاش تسعمائة سنة، ودفن مع أبويه في غار أبي قبيس، انتهى. وقال وهب بن منبه: حفر لآدم في موضع من أبي قبيس في غار يقال له غار الكنز، قال الفاسي: وهذا الغار لا يعرف الآن، فاستخرجه نوح عليه السلام يوم

عرفة، فجعله في تابوت معه في السفينة، فلما نضب الماء رده إلى مكانه، انتهى. وقيل غير ذلك، وفيه موضع يزعم الناس أن القمر انشق فيه للنبي ﷺ، وليس لذلك صحة، كذا ذكره السيد التقي الفاسي، قال: وهو أول جبل وضعه الله تعالى في الأرض، انتهى ما في الإعلام.

وفي تحصيل المرام قال القرشي: كون وقع انشقاق القمر في الموضع الذي يقوله الناس اليوم، فلم أر ما يدل على ذلك، انتهى.

قال: واعتادت الناس أكل الرأس فوقه، ويظنون أنه سُنّة ويأكلون ذلك في رأس الجبل، وفي وسط صهريج معد للماء لما كان على رأسه قلعة لبعض ملوك مكة بناها مكثر أخو داود بن عيسى يتخلص بها عند انهزامه من أخيه داود، ثم بعد ذلك نقضها مكثر لما ولي مكة بدل أخيه داود، وذلك في سنة خمسمائة وثمان وثمانين، كذا في تاريخ مصطفى الشهير بجنابي، وعامة الناس يسمون ذلك المحل حبس الحجاج وليس كذلك، وهو الآن خراب قد انهدم سقفه.

وفوق أبي قبيس مسجد مشرف على الكعبة والحرم بناه رجل هندي كما أخبرني بذلك والدي سنة ألف ومائتين وخمس وسبعين، وكانت حجارة مرضومة في ذلك المحل يقال إنه مسجد إبراهيم وليس هو خليل الرحمن وإنما هو رجل آخر.

وفي ذلك المحل شبح صخرة من جهة المشرق يقول الناس أن هذا المحل كان الحجر الأسود فيه زمن الطوفان إلى زمن إبراهيم عليه السلام، فأخذه من هذا المحل، ولم أر أثراً ولا خبراً صحيحاً ما يدل على ذلك أنه كان في هذا المحل بعينه، والله أعلم. انتهى ما في تحصيل المرام.

وذكر السيد أحمد دحلان في سالناماته الحجازية أن القزويني ذكر في عجائب المخلوقات أن من خواص جبل أبي قبيس أن من أكل فيه الرأس المشوي يؤمن من وجع الرأس، فصار كثير من الغرباء يحرصون على فعل ذلك، لا سيما حجاج الجاوا. قال العلامة المنلا علي القاري في شرح اللباب أن ذلك كلام باطل لا أصل له. انتهى من تاريخ الغازي.

وجاء أيضاً في كتاب "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف"، للعلامة ابن ظهيرة القرشي عن جبل أبي قبيس ما نصه: الجبل المعروف بأبي قبيس أحد أخشبي مكة المشرف على الصفا، وهو مشهور لا يحتاج إلى

بيان ، ويروى عن وهب بن منبه رضي الله عنه ، أن قبر آدم صلوات الله عليه في غار في جبل أبي قبيس ، يقال له غار الكنز بالنون والزاء المعجمة ، وأن نوحاً عليه السلام لما جاء الطوفان استخرجه من الغار وجعله في تابوت حمله في السفينة ، فلما غيض الماء أعاده إلى الغار ، والله أعلم بذلك ، وهذا الغار لا يعرف الآن ، وقيل إن قبره بمسجد الخيف بعد أن صلى عليه جبريل عند باب الكعبة ، وقيل ببيت المقدس ، وقيل ببلاد الهند ، وصحح الحافظ ابن كثير في تفسيره ، ونقل عن الذهبي أن قبر حواء وشيث في جبل أبي قبيس ، والله أعلم بالحقائق .

ومن فضائله : أنه كان يدعى الأمين في الجاهلية ، لأن الحجر الأسود استودع فيه عام الطوفان ، فلما بنى الخليل الكعبة ناداه الجبل : الركن مني بمكان كذا وكذا ، فجاء به جبريل فوضعه موضعه .

(ومنها) : أنه أول جبل وضع على وجه الأرض حين مادت ، روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

(ومنها) : أن الدعاء يستجاب فيه كما ذكره الفاكهي ، واستشهد لذلك بحكاية الوفد الذين استسقسوا فيه ، فأجيب لهم وسقوا .

(ومنها) : انشقاق القمر عليه كما ذكره القطب الحلبي وغيره ، ونقل عن بعض العلماء أنه أفضل جبال مكة حتى حراء ، وعلل بكونه أقرب الجبال إلى الكعبة الشريفة ، قال الفاسي رحمه الله ، وفي النفس شيء من تفضيله على حراء لكونه ﷺ كان يكثر إتيانه للعبادة ، ويقيم به لأجلها شهراً في كل عام ، وفيه أكرم بالرسالة ، و لم يتفق له ﷺ مثل ذلك في جبل سواه ، وذلك مما يقتضي امتيازه بالفضل . والموجب لتفضيل دار خديجة رضي الله عنها ، على غيرها من دور الصحابة طول سكناه عليه السلام بها ، ونزول الوحي عليه فيها ، لا لأجل القرب من الكعبة إذ كثير من البيوت أقرب إليها منه ، كدار العباس بالمسعى ، ودار الأرقم بالصفا ، والله أعلم . انتهى .

ثم في تسميته بأبي قبيس أقوال أرجحها أنه سمي باسم رجل من إياد يقال له أبي قبيس بنى فيه .

(فائدة) نقل القزويني في كتابه عجائب المخلوقات من خواص جبل أبي قبيس ، أن من أكل فيه الرأس المشوي يأمن أوجاع الرأس ، وكثير من الناس يفعلون ، والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى من الكتاب المذكور .

جبل قُعيقعان (أي جبل هندي)

جبل قعيقعان ارتفاعه (٤٣٠) متراً، هو الجبل الثاني من أخشبي مكة، والأخشب الأول جبل أبي قبيس، وقعيقعان هو ما نسميه اليوم " بجبل هندي "، وسمي بقعيقعان لتقعقع السلاح به في حرب جرهم مع قطورا، وهما يومئذ أهل مكة، فكانت جرهم بأعلا مكة وقعيقعان وملكهم يسمى مضاض بن عمرو، وكانت قطورا بأسفل مكة وأجيادين وملكهم يسمى السميدع.

وقيل: سمي بقعيقعان لوجود سلاح تبع به حينما قدم مكة، وكان خيل تبع بأجياد فلذلك سميت أجياداً.

وفي الحقيقة الأخشب الثاني هو الجبل الصغير الذي بأسفل قعيقعان المطل على الكعبة، وهو الذي كان يسمى "بالأحمر"، كما كان يسمى بالجاهلية "بالأعرف" ولكن لما كثر السكان والبيوت بالجبل اختلط الجبلان ببعض فصارا كالجبل الواحد، وفيه كانت بيوت ودور عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما، وعليه نصب المنجنيق أيضاً في محاربته مع الحجاج، فإن وجهه الشرقي يطل على الكعبة والمسجد الحرام ويقال جبل أبي قبيس. وجبل قعيقعان جبل عظيم طويل ممتد، وفي أصله تقع المروة من جهة المدعى أي في الشمال الشرقي للمسجد الحرام، قال صاحب العقد الفريد: الواقف على درج المروة يرى ميزاب البيت وما اتصل به.

ومن عجيب ما رواه الغازي في تاريخه ناقلاً عن ابن فهد، أنه قال: وفي سنة (٨١٧) سبعة عشر وثمانمائة أنشأ عطية المطير سبيلاً بالمروة وكان موضع هذا السبيل قبل ذلك معداً للشنق، فقال شعبان الآثاري في ذلك:

بمكة دار كان للشنق ركنها ... فأضحت سبيلاً بعد كل بلية

وأضحى لسان الحال منها يقول قد ... رضيت من المولى بخير عطية

وقال بعضهم أيضاً:

بمسعى رسول ا لله دار معدة ... لشنق فصارت للأنام سبيلا

واليوم جبل قعيقعان جميع جهاته وأطرافه ورأسه عامرة بالمنازل والبيوت والسكان من جميع الأجناس، ففيها من أهل الحجاز ومن أهل اليمن ومن أهل الترك والهنود والشوام وغيرهم. انتهى من الغازي.

قال الغازي في تاريخه : جبل قعيقعان هو جبل مشرف على مكة وجهه إلى أبي قبيس ، ذكره الياقوت في معجم البلدان .

جبل الأحمر ذكره الأزرقي في ذكر أخشبي مكة وقال : الجبل الذي يقال له الأحمر ، وكان يسمى في الجاهلية الأعرف ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان وعلى دور عبدا لله بن الزبير ، وفيه موضع يقال له الجر والميزاب ، إنما سمي الجر والميزاب لأن فيه موضعين يمسكان الماء إذا جاء المطر يصب أحدهما في الآخر ، فسمي الأعلى منهما الجر ، والأسفل منهما الميزاب ، وفي ظهره موضع يقال له قرن أبي ريش ، وعلى رأسه صخرات مشرفات يقال لها الكبش عندها موضع فوق الجبل الأحمر يقال له قرارة المدحا ، كان أهل مكة يتداحون هناك بالمداحي والمراصع . انتهى من تاريخ الغازي .

الدور التي بقعيقعان لابن الزبير

قال الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى في تاريخه : ولعبدا لله بن الزبير الدور التي بقعيقعان الثلاث المصطفة ، يقال لها دور الزبير ، ولم يكن الزبير يملكها ، ولكن عبدا لله ابتاعها من آل عفيف بن نبيه السهميين ومن ولد منبه ، وفيها دار يقال لها "دار الزنج" ، وإنما سميت دار الزنج لأن ابن الزبير كان له فيها رقيق زنج ، وفي الدار العظمى منهن بير حفرها عبدا لله بن الزبير ، وفي هذه الدار طريق إلى الجبل الأحمر وإلى قرارة المدحا ، موضع كان أهل مكة يتداحون فيه بالمداحي والمراصع ، وكانت لعبدا لله بن الزبير أيضاً دار بقعيقعان يقال لها "دار الحشني" وكانت له دار البخاتي كانت بين دار العجلة ودار الندوة ، وكانت إلى جنبها دار فيها بيت مال مكة ، كانت من دور بني سهم ، ثم كان عبدالملك بن مروان قبضها بعد من ابن الزبير ، ثم دخلت الدار التي كان فيها بيت المال في دار العجلة حين بناها يقطين بن موسى للمهدي أمير المؤمنين ، وصارت الأخرى للربيع ، ثم هي اليوم في الصوافي ، وهي التي يسكنها صاحب البريد ، وإنما سميت تلك الدار دار البخاتي لأن ابن الزبير جعل فيها بخاتياً كان أتى بها من العراق ، ولهم دارا مصعب بن الزبير اللتان عند دار العجلة كانتا للخطاب بن نفيل العدوي ، ولهم دار العجلة ابتاعها عبدا لله بن الزبير من آل سمير بن موهبة السهميين ، وإنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير حين بناها عجل وبادر في بنائها ، فكانت تبنى بالليل والنهار ، حتى فرغ منها

سريعاً ، وقال بعض المكيين : إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اتخذها على البخت والبقر .

انتهى كلام الإمام الأزرقي .

جبل عمر

جبل عمر يمتد من الشبيكة إلى المسفلة ، وهو آهل بالسكان ، وغالب حجاج اليمن يسكنون به اليوم ، وهو جبل واقع من الجهة الغربية لمكة

قال الغازي في تاريخه : وفي تحصيل المرام وهذا الجبل يعرف الآن بجبل عمر ، وهو الجبل المشرف على الهجلة ، ومسجده قد بناه بعض تجار الهنود . انتهى من الغازي .

نقول : الهجلة محلة تحت جبل عمر ، وهي من الأماكن التي كان يباع بها الحطب سابقاً .

قال الغازي : وفي هذا الجبل موضع يقال له مولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأهل مكة يسمونه جبل النوبي ، اهـ .

وقال عنه القطبي : ومنها موضع في أعلا جبل يقال له جبل النوبي ، يقال أنه مولد سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يطلع الناس إليه للسير والفرجة ، اهـ . انتهى .

قال الفاسي عن مولد عمر بن الخطاب بجبل النوبي "جبل عمر" ولا أعلم في ذلك شيئاً يستأنس به اهـ.

نقول ، وهذا هو الحق ، فمن أين نعلم موضع ولادة عمر ، رضي الله تعالى عنه .

ويقول الأزرقي عن جبل عمر في صحيفة (٢٣٦) من الجزء الثاني : جبل عمر الطويل المشرف على ربع عمر ، اسمه العاقر ، وقد قال الشاعر :

هيهات منها إن ألّم خيالها سلمى إذا نزلت بسفح العاقر

ويقول عنه في صحيفة ٢٣٩ : جبل عمر ، الجبل المشرف على حق آل عمر ، وحق آل مطيع بن الأسود ، وآل كثير بن الصلت الكندي ، وعمر الذي ينسب

إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان يسمى في الجاهلية ذا أعاصير . انتهى كلام الأزرقي .

نقول : إن ما يشاع على ألسنة العوام أنه على ظهر هذا الجبل موضع يسمى "مبرك الناقة" أي مبرك ناقة عمر رضي الله عنه ، فهذا من الخرافات التي اخترعها الدجاجلة .

جبل ثور

جبل ثور ، بالثاء المثلثة ، واقع جهة المسفلة على طريق اليمن وارتفاعه (٧٥٩) متراً ، ويبعد هذا الجبل عن المسجد الحرام بثلاث كيلو مترات أو أربعة ، وفي هذا الجبل الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ ، مع صاحبه أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، حينما قصد الهجرة إلى المدينة ، قال البتنوني : ومساحة الغار نحو مترين مربعين .

جاء في تاريخ الخميس : وفي القاموس يقال له ثور أطحل ، واسم الجبل أطحل نزله ثور بن عبد مناف ، فنسب إليه ذلك الجبل . انتهى منه .

وجاء في تاريخ الأزرقي ما نصه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني محمد بن أبي عمر العدني عن سعيد بن سالم القداح ، عن عمر بن جميل الجمحي ، عن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ ، لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور جعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ ، وخلفه مرة ، قال : فسأله النبي ﷺ ، عن ذلك ، فقال : إذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك وإذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك ، حتى انتهى إلى الغار وهو في ثور ، قال أبو بكر رضي الله عنه ، لما انتهيا : حتى أدخل يدي فأحسه ، فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك ، قال : وبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رضي الله عنه ، رجله ذلك الجحر فرقاً أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ ، انتهى منه .

ولقد ورد خبر الغار في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ الآية .

وورد في الصحيحين عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" .

قال شيخنا ، الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى ، في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند هذا الحديث ما خلاصته :

وسبب هذا الحديث كما في الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي بكر رضي الله عنه ، قال ، نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال : " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" .

قال القرطبي : والحديث ظاهر في قوة توكله ﷺ ، وعظم منزلة أبي بكر رضي الله عنه بهذا القول ، والغار المذكور في القرآن ، وفي قول الصديق ونحن في الغار ، هو كما قاله السهيلي وغيره : غار بجبل ثور أحد جبال مكة شرفها الله تعالى ، وقد زرته وبت فيه بعض الليالي تبركاً بآثار رسول الله ﷺ ، على عادة السلف الصالح كابن عمر رضي الله عنهما ، وقرأت فيه تفسير قوله تعالى : ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ الخ الآية .

وحديث الهجرة من صحيح البخاري بطوله وسأذكره هنا للمناسبة عن قريب ، إن شاء الله تعالى .

وكان من حديث الغار ، كما قاله عياض وغيره : أن المشركين اجتمعوا لقتل رسول الله ﷺ وبيّتوه ، فأمر علياً أن يرقد على فراشه وقال : إنهم لن يضروك ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم على الباب ولم يروه ، ووضع على رأس كل واحد التراب ، وانصرف عنهم إلى غار ثور فاختفى فيه ، وأُخبروا أنه قد خرج عليهم ووضع التراب علي رؤوسهم ، فمدوا أيديهم إلى رؤوسهم فوجدوا التراب ، فدخلوا الدار فوجدوا علياً على الفراش ، فلم يتعرضوا له ، ثم خرجوا في كل وجه يطلبون النبي ﷺ ، ويقفون أثره بقائف معهم إلى أن وصلوا الغار ، فوجدوا العنكبوت قد نسجت عليه .

(قال الأُبي) : قال السهيلي : ولما وصل رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار تقدم أبو بكر رضي الله عنه في الدخول ليقيه بنفسه ، ورأى فيه جُحراً فألقمه عقبه لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ . قال ثابت في الدلائل : ولما دخلاه أنبت

ا لله سبحانه وتعالى ، على بابه الراءة بالمد ، وهي شجرة من غلاة الشجر تكون مثل قامة الإنسان ، لها خيطان وزهر أبيض يحشى به المخاد كالريش في خفته ولينه . وفي مسند البزار : أن ا لله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين فعششتا على فم الغار ، وأن ذلك مما صد المشركين عنه ، وأن حمام مكة من نسل تينك الحمامتين ، وأن قريشاً لما انتهى بهم القائف إلى فم الغار ، وجدوا ما ذكر على فم الغار ، فحين رآهم أبو بكر رضي ا لله عنه ، اشتد خوفه على رسول ا لله ﷺ ، وقال : إن قتلتُ فإنما أنا رجل ، وإن قتلتَ أنت هلكت الأمة ، فحينئذ قال ﷺ لأبي بكر : لا تحزن إن ا لله معنا ، أي بالحفظ والكلاءة . اهـ .

نقول : إن شجر الراء المذكور هنا الذي له زهر أبيض يحشى به المخاد كالريش -هو المسمى عندنا بالحجاز "بالطِّرْف" بكسر الطاء وإسكان الراء ، ونحن أيضاً إلى اليوم نحشي به المخاد والفراش أي المساند والطواويل- والحكمة في ظهور هذا النبات على فم الغار دون غيره من النباتات ، هي أن نبات الراء "الطرف" ، شجر لين خفيف ينكسر سريعاً بأقل لمس ، فبقاؤه سليماً صحيحاً يدل على أنه لم يدخل الغار أحد ، كما دل على ذلك نسيج العنكبوت ووجود الحمامتين ، وا لله تعالى أعلم .

ثم قال : أما حديث الهجرة فيناسب أن أذكر قبله ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي ا لله عنهما ، قال : بعث رسول ا لله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين .

وحديث الهجرة الطويل ، هو ما أخرجه البخاري بلفظ : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث بن عقيل ، قال ابن شهاب : فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضي ا لله عنها زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول ا لله ﷺ ، طرفي النهار بكرة وعشية . فلما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ، وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري

الضيف وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جاراً ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش ، فقال لهم: إن أبا بكرٍ لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعلوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء الله ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : علمتَ الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجعَ إلي ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل ، والنبي ﷺ يومئذ بمكة ، فقال النبي ﷺ للمسلمين : إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : على رِسْلك فإني أرجو أن يؤذن لي ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك ، بأبي أنت وأمي ، قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر .

قال ابن شهاب ، قال عروة ، قالت عائشة : بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهرية ، قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ ، متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فدى له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ ، فاستأذن ، فأذن له فدخل

فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: نعم، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: بالثمن. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق. قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ، وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضفيهما حتى ينفق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خرّيتاً، والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفع إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبدالرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ، وأبي بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراه محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجة الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي

أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ ، وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عناء ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في ورقة من أديم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

قال ابن شهاب : فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسى الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بيض ، وسمع المسلمون بالمدينة ، فخرج رسول الله ﷺ ، من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ ، وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ ، بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف . وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ ، بالمدينة ، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله ﷺ ، الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : لا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله

ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ، ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي . قال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذ البيت اهـ بطوله ، بلفظ البخاري في صحيحه . انتهى من شرح زاد المسلم .

ولقد أخرج البخاري أيضاً حديث الهجرة في مناقب المهاجرين وفضلهم ، وفي علامات النبوة قصة حديث الهجرة مختصرة ، لا ضرورة لذكرها ، ففي الحديث المتقدم كفاية تامة . وقد قدمنا الكلام على الهجرة في فصل خاص في أوائل الكتاب عند سيرة النبي ﷺ ، وإليك صورة جبل ثور وصورة الغار.

انظر: صورة رقم ٦٣ ، لغار ثور من كتاب مرآة الحرمين لمؤلفه إبراهيم رفعت باشا

هذا ونكتفي هنا بالحديث الطويل الصحيح المذكور ، وقد ذكرنا هذا الحديث أيضاً مع التفصيل التام عن اختفاء النبي ﷺ بجبل ثور عند الكلام على هجرته إلى المدينة . فلنذكر الآن شيئاً يتعلق بنفس جبل ثور والغار الذي فيه :

فقد قال الغازي في تاريخه : ومنها جبل ثور "بالثاء"وهو بأسفل مكة ، وسماها البكري أبو ثور ، والمعروف فيه ثور كما ذكره الأزرقي والمحب الطبري ، وهو من مكة على ثلاثة أميال ، على ما ذكره ابن الحاج وابن جبير ، وقال البكري أنه على ميلين من مكة وفوقه الغار الذي دخله رسول الله ﷺ والغار ثقب في أعلى ثور ، وثور جبل على مسيرة ساعة من مكة ، وفي القاموس يقال له ثور أطحل ، واسم الجبل أطحل نزله ثور بن عبد مناف ، فنسب إليه ، وفي المعجم أنه من مكة على ميلين وارتفاعه نحو ميل وفي أعلاه الغار الذي دخله النبي ﷺ مع أبي بكر وهو المذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ ، وقصته مشهورة في السير ، كذا في تحصيل المرام .

وفي شفاء الغرام ذكر ابن جبير في رحلته أن طول الغار ثمانية عشر شبراً ، وطول فمه الضيق خمسة أشبار ، وسعته وارتفاعه عن الأرض مقدار شبر ، في

الوسط منه وفي جانبيه ثلثا شبر، وعلى الوسط منه يكون الدخول، وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار، انتهى. وقد وسع بابه في عصرنا الحاضر لأن بعض الناس ولج منه، فانحبس فيه، فنحت عنه الحجر حتى اتسع إليه، وذلك في سنة ثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، انتهى.

وقال ابن فهد: وفي سنة عشر وثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، سد الأمير تغري برمش التركماني الباب الضيق من الغار الشريف بجبل ثور بأسفل مكة، لكون كثير ممن يريد دخوله من بابه الضيق انحبس فيه لما ولج منه، وانتقد عليه كثيراً إمام الحنفية بالمسجد الحرام الشيخ شمس الدين المصيد، ومنعه من الأخذ عنه حتى يزيل ما سده، ويحدث توبة لبيب ذلك، انتهى.

وذكر الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، المتوفى سنة (٤٥٦) ست وخمسين وأربعمائة، في الجزء الثاني من كتاب الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل، في ذكر معجزاته ﷺ، ورميه بتراب عم عيونهم، وخروجه بحضرة مائة من قريش وهم لا يرونه، ودخول الغار وهم عليه لا يرونه، وفتح الباب في حجر صلد في جنب الغار لم يكن فيه قط، ولو كان هنالك يومئذ لما أمكنه الاختفاء فيه لأنه ليس بين البابين إلا أقل من ثمانية أذرع، وهو ظاهر إلى اليوم، كل عام وكل حين يزوره أهل الأرض من المسلمين، ولو رام فتح الباب الثاني في ذلك الحجر أهل الأرض ما قدروا على إزاحته سالماً عن مكانه، ولو كان ذلك الباب هنالك يومئذ لرآه الطالبون له بلا مؤنة لأنهم لم يكونوا إلا جموع قريش لعلهم مؤن كثيرة، وآثار رأسه المقدس في ذلك الحجر، وآثار كتفيه ومعصم وظاهر يده باقية إلى اليوم، انتهى.

وفي الإعلام: قال المرجاني في بهجة النفوس: ذُكر لي أن رجلاً كان له أموال وبنون، وأنه أصيب بذلك، فلم يحزن، ولم يزغ على مصابه لقوة صبره وتحمله، فسأله عن ذلك فقال: روي أنه من دخل غار ثور الذي كان أوى إليه النبي ﷺ، وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وسأل الله تعالى أن يذهب عنه الحزن لم يحزن على شيء من مصائب الدنيا، وقد فعلتُ ذلك فما وجدت قط حزناً. قال المرجاني: هذه الخاصية من تأثير قوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾. انتهى.

وهذا الغار مشهور معروف يتلقاه الخلف والسلف ويزوره النـاس ، ويدخلـون إليه من بابه الكبير الذي يروى أن جبريل عليه السلام ، ضربه بجناحه ، ففتحه وقَلّ أن يدخل إليه أحد مـن بابـه الضيـق ، لأن الدخـول منـه عسـر ويحتـاج إلى فطنـة ، والمشهور عند العوام أن من احتبس فيه لا يكـون ابـن أبيـه وذلـك كـلام بـاطل لا أصل له ، وقد تعوق فيه قديماً وحديثاً ، وفي عصرنا حبس فيه كثير من الناس وأخذ لهم حجارون من مكة ، فقطعوا عنه ، وتكرر ذلك كثيراً في كل عصر ، ومع ذلك لم يتسع كثيراً ، بل يتعوق الناس فيه للجهل بكيفيـة الدخـول ، خصوصـاً إذا كـان شخصاً بطيناً ، وطريق الدخول فيه أن الداخل إليه ينبطح على وجهه ويدخل رأسه وكتفيه ، ثم يحيل إلى جانب يساره فلا يجد ما يعوقه ، وليسلك مـائلاً إلى اليسـار ، وأما من لا يعرف طريـق الدخـول ، يدخـل رأسـه وكتفيـه ويسـتمر داخـلاً ببـاقي جسده ، فتعاديه صخرة أمامه وتعوقه ، فيرفع رأسه إلى فوق ويحبس بوسـطه ، فـلا يمكنه الولوج لسمنه ، وكلما شدد في الدخول تعوق ، وينحبس فيحتاج إلى حجار يقطع قليلاً ليخلصه ولا يتفطن للميل إلى الجهة اليسرى ليخلـص بسـهولة ، ولكـن الحذق قد اتسع كثيراً الآن ، انتهى .

قال الفاسي : وفيه من كل نبات الحجاز وشـجره ، وفيـه شـجر البـان ، وفيـه شجرة من حمل منها شيئاً لم تلدغه هامة ، ونقل في بعض الروايات عن ابـن عبـاس أن قتل قابيل أخاه هابيل كان في جبل ثور . انتهى .

انتهى من الغازي .

نقول : ما ذكره هنا من أن قابيل قتل أخاه هابيل في جبل ثـور غـير صحيـح ، ويبعد أن يقع أول قتل في الأرض في جبل ثور ، الذي هو واقع في أشرف بقعـة في حدود الحرم بمكة ، ومن يعلم في أي بقعة من الأرض كان قابيل وهابيل في العصـر الأول من عهد آدم عليه السلام ، لكن إذا صحـت الروايـة القائلـة بذلـك عـن ابـن عباس رضي الله تعـالى عنـه وعـن أبيـه العبـاس آمنـا وصدقنـا ، فـأين الدليـل وأيـن السند ؟ وما ذكره بأنه يوجد في هذا الجبل من كل نبات الحجاز وشجره ، هذا أمر لا وجود له اليوم ، فليس حول هذا الجبل شجر ولا نبات مطلقاً ، فربما كان ذلـك في عهد الجاهلية ، والله تعالى أعلم .

جاء في تاريخ الخميس ما نصـه : وكـان رسـول الله ﷺ ، قـد خلـع نعليـه في طريق الغار ، وكان يمشي على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثرهما على الأرض حتـى

حفيت رجلاه "أي : رقتا من كثرة المشي" فلما رآه أبو بكر وقد حفيت رجلاه حمله على كاهله ، وجعل يشتد حتى أتى الغار . كذا في دلائل النبوة .

ثم جاء فيه بعد هذا الكلام ببضعة أسطر ما يأتي : وروي عن أبي بكر أنه قال لعائشة : لو رأيتني ورسول الله ﷺ إذ صعدنا الغار ، فأما قدما رسول الله ﷺ فتفطرتا ، وأما قدماي فعادتا كأنهما صفوان ، قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ لم يتعود الحفية ولا الرعية . وروي عن أبي بكر أنه قال : نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار ، وقد قطرتا دماً فاستبكيت ، فعلمت أنه ﷺ لم يتعود الحفاء ولا الحفوة ، قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم ، أن الحسن البصري قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر إلى الغار قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ليقي رسول الله ﷺ بنفسه .

وفي معالم التنزيل : قال أبو بكر : يا رسول الله مكانك حتى أستبرئ الغار ، وكان الغار مشهوراً بكونه مسكن الهوام والوحش ، قال : ادخل ، فدخل فرأى غاراً مظلماً فجلس وجعل يلتمس بيده ، وكلما وجد جحراً أدخل فيه إصبعه حتى انتهى إلى جحر كبير فأدخل رجله إلى فخذه فأخرجه .

وفي رواية : كلما وجد جحراً شق ثوبه فألقمه إياه حتى فعل ذلك بثوبه كله ، فبقي جحر فألقمه عقبه .

وفي الرياض النضرة : فجعل الحيات والأفاعي يضربنه ويلسعنه ، انتهى . وعلى كل التقديرين لدغته الحية تلك الليلة . قال أبو بكر : فلما ألقمت عقبي الجحر لدغتني الحية وإن كانت اللدغة أحب إلي من أن يلدغ رسول الله ﷺ . انتهى . ثم قال أبو بكر : ادخل يا رسول الله فإني سويت لك مكاناً ، فدخل فاضطجع ، رسول الله ﷺ ، وأما أبو بكر فكان متألماً من لدغة الحية ، ولما أصبح رأى النبي ﷺ على أبي بكر أثر الورم فسأل عنه ، فقال : من لدغة الحية ، فقال النبي ﷺ : هلا أخبرتني ، قال : كرهت أن أوقظك ، فمسحه النبي ﷺ بيده فذهب ما به من الورم والألم ، ثم قال : فأين ثوبك يا أبا بكر ؟ فأخبره بما فعل ، فعند ذلك رفع النبي ﷺ يديه فقال : اللهم اجعل أبا بكر في درجتي يوم القيامة ، فأوحى الله إليه قد استجاب لك ، كذا في المنتقى ، خرجه الحافظ أبو الحسين بن بشر والملا في سيرته عن ميمون بن مهران عن بن محصن القنوني .

وعن ابن عباس : قال له رسول الله ﷺ ، رحمك الله صدقتني حين كذبني الناس ، ونصرتني حين خذلني الناس ، وآمنت بي حين كفر بي الناس ، وآنستني في وحشتي ، فأي منّةٍ لأحد علي مثلك ، خرجه في فضائله ، ذكره في الرياض النضرة .

وفي معالم التنزيل قال رسول الله ﷺ ، لأبي بكر : أنت صاحبي في الغار ، وصاحبي في الحوض .

قال الحسن بن الفضل : من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن ، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً ، انتهى من تاريخ الخميس .

باب غار ثور وتوسيعه

لم نتمكن إلى اليوم من الصعود إلى جبل ثور "بالثاء" ، حتى نَصِف الغار وصف مشاهدة ، فوصفنا له الآن على حَسَب ما جاء في كتب التاريخ على حد قول القائل :

وإذا لم تر الهلال فسلم   لأناس رأوه بالأبصار

فنقول وبالله التوفيق :

إن الغار يقع فوق جبل ثور ، وباب الغار يكون في أعلا الغار لا في جانبه ، وذلك زمن رسول الله ﷺ، أي قبل توسعة باب الغار ، كما يدل على ذلك ما يأتي :

ذكر الغازي في تاريخه نقلاً عن البكري ، أن جبل ثور على ميلين من مكة ، وفوقه الغار الذي دخله رسول الله ﷺ ، والغار ثقب في أعلا ثور ، وثور جبل على مسيرة ساعة من مكة اهـ .

والذي يدل على أن الباب في علو الغار ، ما جاء في الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، انتهى .

قال الغازي : وفي شفاء الغرام : ذكر ابن جبير في رحلته أن طول الغار ثمانية عشر شبراً ، وطول فمه الضيق خمسة أشبار ، وسعته وارتفاعه عن الأرض مقدار شبر في الوسط منه ، وفي جانبيه ثلثا شبر ، وعلى الوسط منه يكون الدخول ، وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار ، انتهى . وقد وسع بابه في عصرنا لأن بعض الناس ولج منه فانحبس فيه ، فنحت عنه الحجر حتى اتسع عليه ، وذلك في سنة ثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل ، انتهى من الغازي .

وقد تقدم هنا ما ذكره ابن فهد في تاريخه : أنه في سنة عشر وثمانمائة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل سد الأمير تغري برمش التركماني الباب الضيق من الغار الشريف بجبل ثور ، لكون كثير ممن يريد الدخول من بابه الضيق انحبس فيه لما ولج منه... الخ كلامه المذكور في هذا الباب .

وقال ابن ظهيرة في كتابه "الجامع اللطيف" : وللغار الذي في جبل ثور بابان واسع وضيق ، وكثير من الناس يتجنب دخوله من الباب الضيق لما يقال أن من لم يدخل منه وتعوق فليس لأبيه ، وهو باطل لا أصل له ، وقد وسع الباب الضيق في حدود عام ثمانمائة لأن بعض الناس أراد الدخول منه فانحبس ، فنحت منه حتى اتسع وتخلص . انتهى .

وفي عصرنا هذا وسع باب غار ثور الشريف عون الرفيق بعد توليته إمارة مكة شرفها الله تعالى ، فقد قال البتنوني في كتابه "الرحلة الحجازية" : إن شريف مكة ، الشريف عون الرفيق ابن محمد بن عون ، الذي تولى إمارة مكة سنة (١٢٩٩) هجرية ، أمر بتوسيع باب غار ثور "بالثاء" ، وهو الذي خيم على بابه العنكبوت بعدما أوى إليه رسول الله ﷺ، مع رفيقه أبي بكر عند هجرتهما من مكة إلى المدينة ، وكان بابه لا يسع إلا نفراً واحداً يدخل منه زاحفاً على بطنه -وكان الناس يزعمون أن لا يدخله إلا السعيد وأما الشقي فلا- فأراد الشريف عون بتوسيع هذا الباب إزالة هذا الوهم الفاسد ، إلا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكل أثر طبيعي مثل هذا من أجلّ الآثار ومن الأشياء التي كان الإنسان يقدر فيها تلك المعجزة التي خدمت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه وبين أعدائه . انتهى من الرحلة الحجازية .

وقال إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين" وهو يصف ذهابه إلى جبل ثور مع رفقائه : فخرجنا من مكة قبل فجر يوم ١٨ ذي الحجة سنة ١٣١٨ ثمانية

عشر وثلاثمائة وألف (٨ إبريل سنة ١٩٠١) ، قاصدين زيارة هذا الغار ، وكان بصحبتنا صاحبا الفضيلة الشيخ محمد طموم والشيخ محمد أحمد السيوطي صهرانا وجملة من الحجاج وثلة من الجنود نتقي بهم أشرار الأعراب في سبيل لا يمر به إلا القليل ، وقد انتحينا ناحية الجنوب في سيرنا ، وصلينا فرض الصبح قبل الوصول إلى الجبل ، وقد قطعنا المسافة بينه وبين معسكرنا بالشيخ محمود بجرول في ساعة و ٢٠ دقيقة بسير الخيل المعتاد ، وهي قريبة من خمسة أميال ونصف ، والطريق من مكة إلى الجبل تحفه الجبال من الجانبين وبه عقبة صغيرة يرتفع إليها الإنسان وينحدر منها ، ولم يستغرق قطعها إلا (٣) دقائق ، وبالطريق سبعة أعلام مبنية بالحجر ومجصصة فوق نشوز من الأرض يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار وقاعدته متر مربع ، وتنتهي بشكل هرمي ، وهذه الأعلام على يسار القاصد للجبل ، وبين كل اثنين منها بعد يتراوح بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ متر ، وكل واحد منها وضع عند تعريجة حتى لا يضل السالك عن الجبل ، وساعة بلغنا الجبل قسمنا قوتنا قسمين ، قسم صعد معنا إلى الجبل ، والآخر وقف بسفحه يرد عنا عادية العربان إن هموا بالأذى .

وقد تسلقنا الجبل في ساعة ونصفها ، بما في ذلك استراحة دقيقة أو اثنتين كل خمس دقائق ، بل في بعض الأحيان كنا نستريح خمس دقائق لأن الطريق وعر حلزوني ، وقد عددت (٥٤) تعريجة إلى نصف الجبل ، وكنا آونة نصعد وأخرى ننحدر حتى وصلنا الغار بسلام ، ولولا الاصلاح الذي أحدثه المشير عثمان باشا نوري الذي ولي الحجاز سنة (١٢٩٩هـ) تسع وتسعين ومائتين وألف ، والمشير السيد إسماعيل حقي باشا الذي كان والياً على الحجاز وشيخاً للحرم سنة (١٣٠٧هـ) ألف وثلاثمائة وسبع ، لازدادت الصعوبة وضل السائر عن الطريق ، ولم يهتد إلى الغار لعظم الجبل واتساعه وتشعب مسالكه (منظر رقم ٨٢) ، وكان من أثر إصلاحها جعل الطريق بهيئة سلالم تارة تتصعد وأخرى تنحدر ، على أنه مع ذلك لا يزال العروج صعباً ، فقد رأيت بعض الصاعدين امتقع لونه وخارت قواه فوقع على الأرض مغشياً عليه ، ولولا أننا تداركناه بجرعة من الماء شربها وصبابة منه سكبناها على رأسه حتى أفاق لباغتته المنية ، ولهذا ننصح للزائرين بأن يتزودوا من الماء ليقوا أنفسهم شر العطب .

ولما بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوفة في قنة الجبل أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى ولها فتحتان في مقدمها واحدة وفي مؤخرها أخرى ، وقد دخلت من الغربية زاحفاً على بطني ماداً ذراعي إلى الأمام ، وخرجت من الشرقية التي تتسع عن الأولى قليلاً بعد أن دعوت في الغار وصليت ، والفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار في شبرين تقريباً ، وهي الفتحة الأصلية التي دخل منها النبي ﷺ ، وهي في ناحية الغرب ، أما الفتحة الأخرى فهي في الشرق ، ويقال إنها محدثة ليسهل على الناس الدخول إلى الغار والخروج منه ، والغار من الجبل في الناحية الموالية لمكة ، وقد وجدنا بجانبه رجلاً عربياً يتناول الصدقات من الزائرين في مواسم الحج ويرشدهم إلى الغار إذ توجد هناك صخور تشبه صخرته ، ولكنها لا تماثلها تماماً ، وقد مكثنا فوق ظهر الجبل ساعتين أكلنا فيهما وشربنا وتناولنا الشاي وتفقدنا كثيراً من نواحي الجبل ، وقد نزل في خلالها القسم الذي زار وجاء القسم الذي تركناه بسفح الجبل ليزور ، وقد قدم علينا ونحن على ظهر الجبل نحو عشرين من حجاج الداغستان ، ففرحوا بنا ورافقونا إلى أن رجعنا إلى مكة . ولا يقصد زيارة هذا الغار وغار حراء إلا قليل من الأتراك والمغاربة والداغستانيين ، ولم يسبقنا إلى هذه الزيارة أحد من المصريين بل ولا من المكيين إلا ما ندر ، وقد بلغني من أناس يقيمون بمكة منذ أربعين سنة ، أنهم لم يصعدوا إلى هذين الجبلين ولا رأوا من المصريين أو مرافقي المحمل من قصدهما ، فلله المنة علينا . (انظر الغار في منظر ٨٣) الذي أهداه إلينا في سنة (١٣٤٢) حضرة أحمد أفندي صابر ناظر التكية المصرية بمكة ، فله منا الشكر الجزيل على هذه الهدية القيمة .

وارتفاع جبل ثور يزيد على ٥٠٠ متر ، والواقف في أعلاه يشرف على كل ما حواليه من الجبال ، ويرى مكة وما حولها واضحة ظاهرة ، وكذلك يرى حدة (بالحاء المهملة) بنخلها ، وبأعلى ثور علم يسترشد به الناس لمعرفة هذا الجبل ، وهو مبني بالحجر ومبيض بالجص ، ويشبه الأعلام التي وصفناها قبلاً في طريقه ، والجبل ذو ألوان مختلفة من ذهبي وفضي وفحمي وما يشبه الإسمنت وما يماثل المرمر ، وربما كانت له ألوان أخرى في جهات لم أرها . انتهى من مرآة الحرمين .

وقد سبق الكلام أيضاً على اختباء رسول الله ﷺ في غار جبل ثور بتفصيل تام وذلك عند الكلام على الهجرة ، فراجعه إن شئت .

نقول: إن أمر اختباء رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، في غار ثور في ظاهره أمر عادي يمكن حصوله لأي أحد، لكنه في الحقيقة أمر غير عادي، بل فيه عدة من المعجزات له عليه الصلاة والسلام، وهي كما يأتي:

(١) الاهتداء في ظلام الليل إلى هذا الجبل بالنفس، بينما أهل مكة اليوم لا يهتدون إليه بالنهار إلا بدليل لأنه تكتنفه عدة جبال، فليس من السهل الاهتداء إليه.

(٢) الاهتداء في ظلام الليل إلى نفس هذا الغار في رأس الجبل، بينما نحن لا نعرفه إلا بدليل يدلنا إليه.

(٣) الطلوع إلى هذا الغار في ظلام الليل لايتمكن لكل أحد، فإن الطلوع إلى هذا الغار في عصرنا هذا، وفي وضح النهار ومن طريق خاص معروف، يحتاج إلى نحو ساعتين من الزمن، بمعنى أن الإنسان إذا بدأ في طلوع الجبل من أذان العصر فإنه يصل إلى الغار مع غروب الشمس تقريباً، كما يحتاج في نزوله من الجبل إلى مثل هذا الوقت أيضاً، فتصور كيف تيسر ذلك لرسول الله ﷺ في ظلام الليل.

(٤) الاهتداء إلى باب هذا الغار الضيق. وقد عرفت فيما سبق صعوبة الدخول فيه بالنهار، فكيف بمن يدخله في ظلام الليل.

(٥) وصول المشركين إلى فم الغار نهاراً يبحثون عن رسول الله ﷺ وصاحبه فلم يروهما مع أنهما كانا أمامهم، فالله تعالى أعمى أبصارهم.

(٦) أمر الله تعالى العنكبوت، فنسجت سريعاً على باب الغار، تضليلاً للمشركين.

(٧) أمر الله تعالى حمامتين وحشيتين فعششتا وباضتا على فم الغار، تضليلاً للمشركين أيضاً.

إلى غير ذلك من المعجزات التي وقعت له وهو في طريقه إلى المدينة المنورة، وما أحلى كلام بعض الشعراء رحمه الله تعالى حيث يقول:

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصدق في الغار والصدّيق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقايةُ الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطُم

ويقول أيضاً :

ويح قوم جفوا نبياً بأرض ... ألِفته ضبابها والظباء
وسلَوه وحن جذع إليه ... وقلَوهووده الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار ... وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآه ... ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا ... قت إليه من مكة الأنحاء
وتغنت بمدحه الجن حتى ... أطرب الإنس منه ذاك الغناء
واقتفى أثره سراقة فاستهوته ... في الأرض صافن جرداء
ثم ناداه بعد ما سِيمت الخسف ... وقد ينجد الغريق النداء ...إلخ

وما ألطف قول بعضهم :

ودود القز إن نسجت حريراً ... يجمل لبسه في كل شي
فإن العنكبوت أجل منها ... بما نسجت على رأس النبي

اللهم صلي وسلم وبارك على هذا النبي الكريم ، نبينا وشفيعنا محمد الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين ، آمين آمين آمين .

جبل ثَبير

ومن الجبال الشهيرة بمكة "جبل ثبير" ، وهذا الجبل على يسار الذاهب من مكة إلى منى ، وهو يقابل جبل حراء ، ويمتد منه إلى أن يصل إلى أواخر منى ، لذلك فهو يقسم إلى عدة أثبرة كثبير غيناء وثبير النخيل وثبير النصع وثبير الأعرج ، كما سيأتي بيان كل ذلك . وجبل ثبير هو الذي أُهبط عليه كبش الفداء لإسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وبأصل هذا الجبل بفم الثقبة عملٍ خالد بن عبدا لله القسري بركته التي يقال لها بركة القسري ، ويقال لها أيضاً بركة البردى "بفتح أوله وثانيه" ، وكانت هذه البركة عظيمة بحيث صارت الحيتان تتربى فيها ، عملها بحجارة طوال منقوشة وأحكمها وأخرج ماءها في ذلك الموضع ، ثم شق من هذه

البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام، وأجراها في قصب من رصاص حتى أخرجها من فوارة تسكب في فسقينة من الرخام بين زمزم والركن والمقام، وذلك في عهد سليمان بن عبدالملك بن مروان في القرن الأول من الهجرة .

انظر: صورة رقم ٦٤، للطريق المسفلت المار بين الجبلين المقابلين لجبل حراء

جاء في تاريخ الأزرقي : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ، لما تجلى الله عز وجل للجبل تشظى، فطارت لطلعته ثلاثة أجبل فوقعت بمكة، وثلاثة أجبل فوقعت بالمدينة، فوقع بمكة حراء وثبير وثور، ووقع بالمدينة أحد وورقان ورضوى . اهـ .

ورضوى جبل بالقرب من ينبع، وينبع قريب من المدينة .

ومن ضمن جبل ثبير ما يسمونه الآن "جبل الرخم"، وهو الذي يرى من المعابدة، قمته العليا التي فيها بياض، وسمي بجبل الرخم لأن الطيور المسماة بالرخم تقع عليه في المساء، والبياض الذي على قمته أثر ذرق الرخم، هذا ما يقوله الناس، ولكننا نرى أن هذا البياض هو بياض أصلي طبيعي بالجبل، وليس هو بذرق الطيور، فلو كانت كذلك لمسحته الأمطار التي تنزل عليه، وإليك صورة جبل الرخم وترى عليه القمة العليا .

انظر: صورة رقم ٦٥، جبل الرخم بأعلا جبل ثبير بآخر المعابدة بمكة

ومن معنى امتداد جبل ثبير الذي بيناه يفهم الكلام الآتي:

قال الغازي في تاريخه : وفي الجامع الصغير ثبير اسم لثمانية أماكن، سبعة جبال منها بمكة وحرمها، وهي : (١) ثبير الأثبرة، (٢) وثبير الزنج، (٣) وثبير الأعرج، (٤) وثبير الأحدب ويقال له الأحيدب بالتصغير، (٥) وثبير الخضراء، (٦) وثبير النصع، (٧) وثبير غينا، (٨) وهذا الثامن اسم لماء في بلادنا مزينة أقطعه النبي ﷺ لشريس بن ضمرة المزني، وسماه شريحاً بحاء مهملة . انتهى.

فأما ثبير الأثبرة فهو على يسار الذاهب إلى عرفة الذي قال عنه الفقهاء: يستحب للحاج إذا طلعت الشمس عليه أن يسير من منى إلى عرفة، وأما ثبير غيناء وثبير الأعرج، فهما بمنى يصب بينهما واد من منى يقال له أفاعية "بضم الهمزة" . قال الأزرقي : ثبير الأعرج هو المشرف على حق الطارقين بين المغمس والنخيل، النخيل هي بساتين ابن عامر التي كانت في جهة عرفة بقرب عرفات .

وقال أيضاً في موضع آخر من تاريخه : جبل الأعرج في حق آل عبدا لله بن عـامر ، مشرف على شعب أبي زياد وشعب ابن عامر ، والأعرج مولى لأبي بكر الصديـق رضي ا لله عنه ، كان فيه فسمي به ونسب إليه .

وقال عن ثبير غيناء : هو المشرف على بير ميمون ، وقلته مشرفة علـى شـعب علي رضي ا لله عنه ، وعلى شعب الحضارمة بمنى . وجاء في هامش الأزرقـي عنـد ثبير غيناء أنه الجبل المشرف على حراء وبين الجبلين طريق العدل .

وأما ثبير النِصع -بكسر النون- فهو جبل مطيف بمزدلفة علـى يسـار الذاهـب إلى منـى . وهـو الـذي كـانوا يقولـون في الجاهليـة إذا أرادوا الدفـع مـن مزدلفــة : "أشرق ثبير كيما نغير" ، ولا يدفعون حتى يرون الشمس عليه كما قال الأزرقي .

وأما ثبير الأخضر ، فقال الفاسي : هو الجبل المشرف على الموضع الذي يقـال له الخضيراء بطريق منى .

وأما ثبير الزنج ، فهو جبل النوبي المعروف بأسـفل مكـة مـن جهـة الشـبيكة ، وسمي بذلك لأن سودان مكة كانوا يلعبون عنده .

وأما ثبير الأحدب أو الأحيدب ، فهـو جبـل بمنـى يقـال لـه الأحيـدب مقـابل مسجد الخيف ، بالقرب من ثبير الأثبرة على يسار الذاهـب إلى عرفـة ، كمـا قـال ابن ظهيرة رحمه ا لله تعالى .

وجاء في الجزء الأول من شفاء الغرام للفاسي عن جبل ثبير ما نصه :

ومن الجبال المباركة بحرم مكة جبل ثبير ، لأنا روينا في تاريخ الأزرقي ، قـال : حدثني محمد بن عيسى ، قال : حدثنا عبدالعزيز بن عمران عن معاوية ابـن عبـدا لله الأزدي ، عن معاوية بن قرة ، عن الخلد بن أيوب ، عن أنس بن مالك ، قال : قـال رسول ا لله ﷺ : لما تجلى ا لله عز وجل للجبل تشظى ، فطارت لطلعته سـته أجبـل فوقعت بمكة ثلاثة وبالمدينة ثلاثة ، فوقع بمكة حراء وثبير وثور ، ووقع بالمدينة أحُـد وورقان ورضوى .

وقـال أبـو عبـدا لله محمـد بـن محمـد القزويـني في كتابـه عجـائب المخلوقــات وغرائب الموجودات : جبل ثبير بمكة بقرب منى ، هو جبل مبارك يقصده الـزوار ، وهو الذي أهبط عليه الكبش الذي جعله ا لله تعالى فـداء لإسمـاعيل عليـه السـلام ، والعرب تقول: "أشرق ثبير كيما نغير" .

فقوله بمكة : سبق إليه الجوهري وهو تجوز لكونه بقرب مكة ، وقوله بقرب منى ، ينبني على قول من قال أنه جبل بالمزدلفة وهو قول مرجوح ، ويؤيده ما ذكره من أنه أهبط عليه الكبش الذى فدى به إسماعيل ، فلم يختلفوا في أن هذا الجبل بمنى ، وهو على يسار الذاهب إلى عرفات . انتهى وا لله أعلم .

وقال شيخنا قاضي القضاة مجد الدين الشيرازي في كتابه "الوصل والمنى في فضل منى" : أن أبا بكر النقاش المفسر قال في منسكه : إن الدعاء يستجاب في ثبير ، يعني ثبير الأثبرة الذي بلحفه مغارة الفتح ، لأن النبي ﷺ كان يتعبد فيه قبل النبوة وأيام ظهور الدعوة ، ولهذا جاورت به عائشة أم المؤمنين ، وذكر أن بقرب المغارة التي أنشأها بلحف ثبير معتكف عائشة انتهى بالمعنى ، ويعرف هذا الموضع بصخرة عائشة وا لله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى كل ذلك من شفاء الغرام .

نقول ، معنى قول القائل جبل ثبير بالمزدلفة : أن هذا الجبل ممتد إلى أواخر منى إلى قرب مزدلفة فيظهر منها ، لذلك كانت العرب في الجاهلية إذا باتوا بمزدلفة بعد رجوعهم من عرفات تقول : "أشرق ثبير كيما نغير" ، أي أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة . فمن قال أن جبل ثبير بالمزدلفة نظر إلى هذه العبارة ، والحقيقة أنه يمتد من جهة حراء بمكة حتى أواخر منى بما يقرب من المزدلفة ، فإن بعض الجبال تمتد إلى مسافات بعيدة ، وامتداده ليس على استقامة واحدة بل بتعاريج وانزواءات ، لذلك يتخلله شعاب وأمكنة بين الجبال الواقعة بقربه والمحيطة به .

جبل خندمة

الخَنْدَمَة : هو بفتح الخاء المعجمة وسكون النون وفتح الدال ، جبل معروف بمكة إلى اليوم ، وهو الجبل الذي يمتد من أبي قبيس إلى المعلا ، على طول شعب علي المسمى شعب بني هاشم ، وعلى طول شعب عامر .

جاء في آخر تاريخ القطبي المسمى "الإعلام بأعلام بيت ا لله الحرام" ما نصه :

ومنها جبل الخندمة ، وهو جبل كبير خلف أبي قبيس ، قال الفاكهي : حدثني أبو بكر أحمد بن محمد المليكي ، حدثنا عبدا لله بن عمر أسامة ، قال : حدثنا أبو صفوان عن ابن جريج ، عن عطاء عن ابن عباس رضي ا لله تعالى عنهما ، قال : ما مطرت مكة قط إلا و كان الخندمة غرة ، وذلك أن فيها قبر سبعين نبياً ، انتهى .

وهي مشرفة على أجياد الصغير وشعب عامر ، معروفة الآن عند الناس بمكة . انتهى من تاريخ القطبي .

نقول : (فإن قال قائل) لا يوجد أي أثر لقبر من تلك القبور في هذا الجبل . (نجيبه) : أنه إذا صحت هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما فتكون هذه القبور في أسفل الجبل تحت الأرض ، فإن جبال مكة لم تبق على حالتها الطبيعية ، فقد طمرت من الجبال نحو نصفها ، وذلك من أثر مرور آلاف السنين عليها ، فنزول الأمطار وجريان السيول مما يسبب تدحرج الصخور والأحجار من فوق الجبال إلى أسفلها ، وبتراكم الأتربة وتعمير الناس للمنازل والبيوت ترتفع الأرض ، وهذه الكعبة المشرفة قد بناها سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، على أكمة مرتفعة عن الأرض . وهذا المسعى لم تكن أرضه مستوية كما هي اليوم . انتهى .

وقال الأزرقي في تاريخه عن جبل خندمة ما نصه : والخندمة جبل في ظهر أبي قبيس من ظهرها المشرف على دار أبي صيفي المخزومي في شعب آل سفيان دون شعب الخوز ، وذلك الموضع عن يمين من انحدر من الثنية التي يسلك فيها من شعب ابن عامر إلى شعب آل سفيان ثم إلى منى... الخ كلامه . وقال في موضع آخر من تاريخه : الخندمة الجبل الذي ما بين حرق السويداء إلى الثنية التي عندها بير بن أبي السمير في شعب عمرو ، مشرفة على أجياد الصغير وعلى شعب ابن عامر ، وعلى دار محمد بن سليمان في طريق منى إذا جاوزت المقبرة على يمين الذاهب إلى منى ، وفي الخندمة قال رجل من قريش لزوجته وهو يبري نبلاً له ، وكانت أسلمت سراً ، فقالت له : لم تبري هذا النبل ؟ قال : بلغني أن محمداً يريد أن يفتتح مكة ويغزونا ، فلئن جاؤنا لأخدمنك خادماً من بعض من نستأسر ، فقالت: والله لكأني بك قد جئت تطلب محشا أحشك فيه لو رأيت خيل محمد ، فلما دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح أقبل إليها فقال : ويحك هل من محش؟ فقالت : فأين الخادم؟ قال لها : دعيني عنك ، وأنشأ يقول :

وأنت لو أبصرتنا بالخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد كالعجوز المؤتمة ... قد ضربونا بالسيوف المسلمة
لم تنطقي باللوم أدنى كلمة

قال : وأبو زيد سهيل بن عمرو ، قال : وخبأته في مخدع لها حتى أومن الناس .

وروى ياقوت الأبيات كما يلي:

إنك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فر صفوان وفر عكرمة
وحيث زيد قائم كالمؤتمة   واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة   ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

انتهى من تاريخ الأزرقي . وفي بعض التواريخ ورد البيت الأخير هكذا :

لهم نهيت خلفنا وهمهمة   لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

والرجل المذكور الذي قال هذه الأبيات هو حماس بن قيس ، أخو بني بكر ، وكان ممن تصدى لقتال خالد ، فلما هزمهم فر إلى بيته ، وقال لامرأته : أغلقي علي بابي ، فقالت له في ذلك ، فقال الأبيات المذكورة .

وصفوان وعكرمة المذكوران في الأبيات هما : صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، هؤلاء كانوا قد جمعوا ناساً من بكر والأحابيش وغيرهم بجبل خندمة ليقاتلوا المسلمين ويصدوهم عن دخول مكة يوم الفتح .

والأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة ، وبنو الحارث بن عبد مناف ابن كنانة ، وبنو المصطلق بن خزيمة ، وسموا بذلك لأنهم تحالفوا مع قريش على من عاداهم تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبش ، فسموا أحابيش قريش . ثم أسلم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، ولم نبحث عن سهيل بن عمرو هل أسلم أم لا .

وجبل خندمة معروف ، وهو عامر بالسكان اليوم ، ولما كان هذا الجبل بوسط مكة وضع المشركون أناساً ليقاتلوا المسلمين حين دخولهم مكة وجهاً لوجه ، ولكن الله عز شأنه نصر رسوله وفتح له فتحاً مبيناً ، ليتحقق الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ ، المذكورة في القرآن الكريم في آية : ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ .

ثنية كداء

ثنية كَداء - بفتح الكاف والدال ممدودة "أي في آخرها همزة" - وتسمى بالحجون، هي الطريق المؤدية من وسط مقبرة المعلا من الجبل المنحوت إلى جهة جرول، ولقد شق الطريق بين الحجون ملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، وذلك في سنة (١٣٣٨) ألف وثلاثمائة وثمانية وثلاثين تقريباً، ثم وسعت الحكومة السعودية هذا الطريق الذي بين جبلين بأكثر مما سبق وعبدته بالإسفلت. وبنت على الجانبين من الجبل جدارين لرد الحجارات النازلة من الجبل وليكون منظر الجبل جميلاً.

قال الفاسي عنها في شفاء الغرام ما يأتي: الخامس عشر "كداء" الموضع الذي يستحب للمحرم دخول مكة منه، وهو الثنية التي بأعلا مكة، التي يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالأبطح، ويقال لها الحجون الثاني، وما ذكرناه في تعريف كداء هذا، ذكر الفاكهي ما يوافقه لأنه قال في تعريفه لما في شق معلاة مكة الشامي كداء: الجبل الشارع على المقبرة والوادي، وله يقول حسان بن ثابت يوم الفتح:

عدمت ثنيتي إن لم تروها   تثير النقع عن كتفي كَداء

وقال الفاكهي بعد أن ذكر شعب المقبرة في هذه الجهة وشيئاً من خبره: ومن ثنية المقبرة، دخل رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وقال بعضهم: قيل: إن ثنية المقبرة هو كداء، وهو مشعر بتضعيف هذه المقالة لكونها حكيت بصيغة التمريض، لأن النبي ﷺ إذا كان دخل من هذه الثنية كداء، فلأن الأخبار وافرة صحيحة في أن النبي ﷺ حين حج من المدينة دخل إلى مكة من كداء، وفي تاريخ الأزرقي ما يوافق ما ذكره الفاكهي من دخول النبي ﷺ في حجة الوداع من هذه الثنية، وذلك يقتضي أن تكون هذه الثنية كداء للمعنى السابق، والله أعلم.

وفي كلام غير واحد من المتأخرين تسمية هذه الثنية بكداء، منهم سليمان بن خليل، والمحب الطبري، والنووي، وقال المحب: هي بالفتح والمد تصرف على إرادة الموضع وبتركه على إرادة البقعة، انتهى. وقد ذكر الأزرقي شيئاً من خبر هذه الثنية، وهي الآن بحاميم الأحداث التي بين دار السري إلى ثنية المقبرة، وهي التي قبر أمير المؤمنين أبي جعفر بأصلها، قال: يعرفها بالحاميم وأولها القرن التي ثنية الدمسين على رامسه بيوت ابن أبي حسين النوفلي، والذي يليه القرن المشرف

على دار منارة الحبشي ، فيما بين ثنية الدمسين، وهي التي كان ابن الزبير مصلوباً عليها ، وَكان أول من سهلها معاوية بن أبي سفيان رضي ا لله عنه ، ثم عملها عبد الملك بن مروان . ثم كان آخر من بنى ضفائرها ودرجها وجدرها المهدي ، انتهى . وذكر ذلك الفاكهي لأنه لم يجزم بكون معاوية أول من سهل هذه الثنية ، وحكى بصيغة التمريض ، وقال أيضاً : ويقال إن ابن الزبير أول من سهلها ، انتهى . فيستفاد مما ذكره الأزرقي والفاكهي قولان في أول من سهل هذه الثنية ، وا لله أعلم بالصواب .

وفي سنة إحدى عشرة وثمانمائة سهل بعض المجاورين بمكة ، أثابه ا لله ، في النصف الثاني من سنة سبع عشرة وثمانمائة طريقاً في هذه الثنية غير الطريق المعتادة وهذه الطريق تكون على يسار الهابط من هذه الثنية إلى المقبرة والأبطح ، وكانت حرجة ضيقة جداً ، فتحت ما يليها من الجبل بالمعاول حتى اتسعت ، فصارت تسع أربعة مقاطير من الجمال محملة ، وكانت قبل ذلك لا تسع إلا واحداً ، وسهلت أرضها بتراب ردم فيها حتى استوت وصار الناس يسلكونها أكثر من الطريق المعتادة ، وجعل بينهما حاجزاً من حجارة مرصوصة ، وكانت في بعض هذه الطريق قبور فأخفي أثرها . انتهى من شفاء الغرام .

ثنية كدى

ثنية كُدًى - بضم الكاف وبفتحتين على الدال مقصورة - وقيل - بضم الكاف وفتح الدال وتشديد الياء مصغراً ، لا يعلم موضعها تماماً . فبعض المؤرخين قال عنها : إنها طريق الخارج من مكة من جهة الشبيكة ، وهذا يقتضي أنها تمتد من الشبيكة إلى آخر ريع الرسام . وبعضهم قال : إنها بأسفل مكة يخرج منها إلى اليمن ، وهذا يقتضي أنها تمتد من السوق الصغير إلى جهة بركة ماجن بالمسفلة .

وإليك ما جاء عنها في شفاء الغرام وهو : السادس عشر "كدًى" الموضع الذي يستحب الخروج منه لمن كان في طريقه هو الثنية التي بأسفل مكة ، التي بني عليها بابها المعروف بباب الشبيكة ، على ما يقتضيه كلام المحب الطبري في شرح التنبيه لأنه قال فيه : وكدى التي يخرج منها الحاج مضمومة مقصورة ، وقد بني عليها باب مكة الذي يتوجه منه إلى عمرة التنعيم ، انتهى . وباب مكة الذي أشار إليه المحب ، هو باب الشبيكة لأن الناس تتوجه منه إلى عمرة التنعيم غالباً ، وذكر

النووي ما يؤيد ما ذكره المحب الطبري في ضبطها ومكانها ، لأنه قال في الإيضاح ، في الباب الثالث : الرابعة : السنة أن يدخل مكة من ثنية كَداء بفتح الكاف والمد ، وهي بأعلى مكة ينحدر منها إلى المقابر ، وإذا خرج راجعاً إلى بلده ، خرج من ثنية كُدًى بالضم والقصر والتنوين ، وهي بأسفل مكة بقرب جبل قعيقعان ، وإلى صوب ذي كوى ، انتهى . وذكر القاضي بدر الدين بن جماعة في منسكه ما يقتضي أن كُدًى هذه ، هي الثنية التي عندها الموضع المعروف بقبر أبي لهب بطريق العمرة ، ونص كلام ابن جماعة : وإذا خرج من ثنية كُدًى بالضم والقصر ، من أسفل مكة وهي الثنية التي يخرج إليها بباب مكة ، المعروف بباب الشبيكة ، وهي الثنية التي يخرج منها إلى المرجم المعروف بقبر أبي لهب ، يسلك منه إلى الزاهر المتقدم ذكره وغيره ، ومنه يخرج المعتمرون انتهى .

وكلام ابن جماعة ثَمَّ يخالف ما ذكره المحب الطبري الذي يعتد به في معرفة ذلك ، والله أعلم بالصواب . ومن هذه الثنية دخل قيس بن سعد بن عبادة يوم فتح مكة ، على ما ذكر الأزرقي ، وذكر ما يقتضي أن حسان بن ثابت عناها بقوله السابق في كَداء بالفتح ، وأنشد على غير ما أنشده الفاكهي ، لأنه قال :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كَداء

انتهى .

وبأسفل مكة ثنية يقال لها : كُديّ ، بالضم وتشديد الياء وتنوينها ، يخرج منها إلى جهة اليمن ، ذكر ذلك المحب الطبري ، قال : وقد بني عليها باب مكة الذي يدخل منه أهل اليمن ويخرجون ، هكذا قال في شرح التنبيه ، وقال في القرى : والثالثة كدى ، بالضم وتشديد الياء مصغر ، موضع بأسفل مكة ، والأوليان هما المشهورتان ، وهذه يخرج منها إلى جهة اليمن ، هكذا ضبط عن المحققين ومنهم أبو العباس أحمد بن أحمد العذري ، فإنه كان يرويه على أهل المعرفة بمواضع مكة من أهلها ، حكاه عنه الحميدي ، انتهى . وما ذكره من أنه بني على الثنية التي يقال لها كدي بالتصغير ، باب مكة الذي يدخل منه أهل اليمن ويخرجون ، يخالف ما يقوله الناس فيها ، لأنهم يذكرون أنها الثنية التي يهبط منها إلى خم ، وخم : شعب مشهور ، وليس هو الخم الذي قال النبي ﷺ عند غديره : من كنت مولاه فعلي مولاه الوارد في فضل علي بن أبي طالب ، فإنه موضع عند الجحفة وبينها وبين باب مكة ، الذي أشار إليه المحب الطبري ، غلوتان ، والله أعلم .

وممن ذكر هذا الموضع سليمان بن خليل لأنه قال : وأما كدي بالتصغير بضم الكاف وفتح الدال ، فإنه جبل بأسفل مكة ، يخرج منها إلى اليمن انتهى . وماذكرناه في ضبط كداء العليا وكدي السفلى ، التي بني عليها باب الشبيكة ، هو الصواب ، وضبط بعضهم العليا بالضم ، وهذه السفلى بالفتح . ونسب النووي قائل ذلك إلى الغلط والتصحيف ، وذكر صاحب المطالع ما يشهد لمن ضبط العليا بالضم، ولكن المشهور فيها الفتح ، وا لله أعلم .

وذكر الفاكهي ما يقتضي أن بأعلى مكة موضعاً آخر يقال له كداء ، غير كداء الذي هو ثنية المقبرة لأنه قال : كداء : الجبل المشرف على الوادي مقابل مقبرة أهل مكة ، اليوم تحته بيوت عبدالرحمن بن يزيد ، وابن خلف مولى العباس بن محمد ، وهو ممتد إلى دار الأراكة ، انتهى . ذكر هذا في تعريفه لما في شق معلى مكة اليماني ، وذكر ما سبق في كداء الذي هو ثنية المقبرة في شق معلاة مكة الشامي ، وتغاير الشقتين يقتضي مغايرة المكانين .

وذكر في موضع آخر ما يقتضي أن كدا موضعاً بأعلى مكة ، غير كداء الذي هو ثنية المقبرة ، ولم يتعرض لضبط ذلك ، فبقيت المواضع أربعة ، اثنان لا تعلق لهما بالمناسك ، واثنان لهما تعلق بالمناسك ، وهما كداء الذي هو ثنية المقبرة ، وكدي الذي هو في طريق المدينة ، وإنما استحب الخروج منه والدخول إلى مكة من أذاخر ، لكون النبي ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع ، وأما في فتح مكة فدخل من ثنية أذاخر بأعلى مكة، على ما ذكره ابن إسحاق في سيرته والأزرقي .

وذكر موسى بن عقبة ما يقتضي أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح من كداء بأعلى مكة ، وكذلك الزبير بن العوام رضي ا لله عنه ، وا لله أعلم بالصواب . وأما عمرته من الجعرانة ، فدخل ﷺ مكة من أسفلها وخرج من أسفلها ، كذا في خبر ذكره الفاكهي بإسناده ، وفيه من لم أعرفه ، وا لله أعلم . انتهى من شفاء الغرام .

جبل حِراء

جبل حِرَاء بأعلى مكة ، على يسار الذاهب منها إلى منى ، يرتفع (٦٣٤) متراً ، وعامة أهل مكة يسمونه "جبل النور" . جاء في الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، للعلامة ابن ظهيرة القرشي ، ما نصه : جبل حراء وهو ممدود فمن ذكّره صرفه ، ومن أنثه منعه من الصرف ويسمى جبل النور

بالنون ، وكأن ذلك لكثرة مجاورة النبي ﷺ وتعبده فيه ، وما خصه الله به فيه من الإكرام بالرسالة ونزول الوحي عليه في الغار الذي بأعلاه ، كما في صحيح البخاري ، حتى فجأه الحق ، وهو في غار حراء ، وهو معروف مشهور يأثره الخلف عن السلف ، ويقصده الناس بالزيارة ، ذكر الأزرقي أن النبي ﷺ اختبأ فيه من المشركين ، وكذا ذكره الفاكهي ، قال أيضاً : والمعروف أن النبي ﷺ لم يختبئ من المشركين إلا في غار ثور ، لكن يتأيد ما ذكر بما قاله القاضي عياض والسهيلي في روضه : أن قريشاً حين طلبوا رسول الله ﷺ كان على ظهر ثبير ، فقال له : اهبط عني يا رسول الله فإني أخاف أن تقتل وأنت على ظهري ، فيعذبني الله تعالى ، فناداه حراء إلى رسول الله ، وجمع القاضي تقي الدين رحمه الله ، فقال : إن صح اختفاؤه ﷺ بحراء ، فهو غير اختفاؤه بثور ، والله أعلم ، فيكون في حراء أولاً ، وفي ثور حين الهجرة ، وذكر بعض العلماء أن السر في كونه ﷺ ، لازم التعبد فيه دون غيره من الجبال من حيث إن فيه فضلاً زائداً : منه أن يكون فيه منزوياً مجموعاً لتعبده ، وهو يشاهد بيت ربه ، والنظر إلى البيت عبادة ، فحصل له اجتماع ثلاث عبادات : الخلوة ، والتعبد ، والنظر ، ومجموع ذلك أولى من الاقتصار على البعض ، وغيره من الأماكن ليس فيه ذلك المعنى ، وأيضاً أن هذا الجبل كان يختلي فيه أجداده ﷺ ، (أقول): وفيما ذكر نظر لأن غيره من الجبال يتأتى فيه ما ذكره من اجتماع العبادات الثلاث كأبي قبيس مثلاً ، ويزيد بقربه من البيت ، فكان أولى أن يتعبد فيه ، وإن كان المراد البعد عن الناس لخلو البال في التعبد ، فالجبال البعيدة كثيرة ، اللهم إلا أن يقال إن الغار الذي بحراء مستقبل الكعبة من غير انحراف ، وليس غيره كذلك فله وجه ، والأحسن أن يقال أن جبل حراء متعبد أجداده ، فاقتدى بهم في ذلك ، والله الموفق.

انتهى من الجامع اللطيف المذكور.

انظر: صورة رقم ٦٦ ، جبل حراء وبأعلاه الغار

انظر: صورة رقم ٦٧ ، جبل حراء ومدخله. ويرى المؤلف في سفحه

وجبل حِرَاء : بكسر الحاء المهملة وفتح الراء الممدودة ، هو اسم قديم له ، وأهل مكة يسمونه الآن "جبل النور" لظهور النبوة منه ، وهو على يسار الذاهب إلى منى ، وهو جبل معروف عال ، قمته تشبه الطربوش الذي يلبس في الرأس ، أو كسنام الجمل الأصيل السمين ، أو كالقبة للملساء ، فلا يوجد جبل بمكة ولا

بالحجاز ولا بالدنيا كلها يشبه جبل حراء ، فهو بين الجبال فريد الشكل والصورة ، والأساس الأول للكعبة من حجارته ، فهو جبل معظم حتى في الجاهلية ، فقد قال أبو طالب فيه في قصيدته التي ذكرناها في غير هذا المكان :

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق ليرقى في حراء ونازل

ولقد ورد ذكر حراء في بعض الأحاديث الصحيحة ، (فمن ذلك) ما جاء في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه : " جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء ، يعني جبريل عليه السلام ، فأخذتني رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، فدثروني فصبوا علي ماء ، فأنزل الله : ﴿يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر﴾" .

(ومنها) ما جاء في الصحيحين أيضاً عن جابر رضي الله عنه : " بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض ، فجئت منه فرقاً ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فدثروني فأنزل الله : ﴿يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر ۞ وربك فكبر ۞ وثيابك فطهر ۞ والرجز فاهجر﴾" .

(ومنها) ما جاء في صحيح البخاري في أول الجزء الأول منه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت :" أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم﴾ . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على

نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق... إلى آخر الحديث .

(ومنها) ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : " أُسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد . وعليه النبي عليه السلام ، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، ويروى : "اهدأ وعليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير" . قال في كتاب "مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار" : يعني روى بعض الرواة لفظ اهدأ مكان اسكن ، وذكر علياً مكان سعد ، قاله عليه الصلاة والسلام ، لما تحرك حراء وكان النبي ﷺ مع أصحابه المذكورين عليه . انتهى منه .

(ومنها) ما جاء في الأزرقي عن ابن أبي مليكة يقول : جاءت خديجة إلى النبي ﷺ بحيس وهو بحراء ، فجاءه جبريل فقال : يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيساً معها ، والله يأمرك أن تقرأها السلام وتبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، فلما أن رقيت خديجة قال لها النبي ﷺ : يا خديجة إن جبريل قد جاءني والله يقرئك السلام ، ويبشرك ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، فقالت خديجة : الله السلام ومن الله السلام وعلى جبريل السلام . انتهى من تاريخ الأزرقي ، قال في مختار الصحاح : الحيس بفتح الحاء تمر يخلط بسمن وأقط ، اهـ .

نقول : وقد جاء في الصحيحين : "بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب" ، رواه عائشة وعبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما . فما أسعد خديجة بخدمة رسول الله ﷺ ، وحبها العظيم له ، وما أسعدها بإقراء السلام لها من الله تعالى ومن جبريل ، فهنيئاً لها ذلك البيت في الجنة وهنيئاً لها برضاء الله ورسوله عنها ، اللهم ارض عنها وعن أزواج نبيك ، وارض عني واغفر لي بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

ويمتاز جبل حراء عن بقية الجبال بما يأتي :

(١) كان الأساس الأول القديم للكعبة من حجارة جبل حراء .

(٢) كان رسول الله ﷺ يتعبد فيه قبل البعثة .

(٣) كان بدء الوحي في غار حراء .

(٤) وقوف جبريل عليه السلام، في غار حراء وضمه النبي ﷺ وإقرائه له أول آية نزلت من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

(٥) ظهور جبريل عليه السلام للنبي ﷺ جالساً على كرسي بين السماء والأرض في بطن وادي حراء.

فما أبرك هذا الجبل، وما أسعد هذا الغار، والحقيقة أن حراء، وما حول حراء، لمكان منور مبارك إلى يوم القيامة، يعرف ذلك كل من أنار الله قلبه وبصره.

وقال إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين" وهو يصف صعوده إلى جبل حراء:

وهذا الجبل يقع في شمالي مكة، على يسار الذاهب إلى عرفات، بعيداً عن جادة الطريق بنحو ميل، وقال ياقوت في معجمه أنه على ثلاثة أميال من مكة، وأنه جبل شامخ أعلى من ثبير، وفي أعلاه قلة شامخة زلوج (انظر الجبل في منظر ٨٦) وفي ميسرة القمة نفس غار حراء.

وقد صعدنا هذا الجبل في ٣٥ دقيقة مع أن ارتفاعه حوالي ٢٠٠ متر، ولكنه يكاد يكون عمودياً، فلذا كان صعب المرتقى، واضطررنا إلى الاستراحة مرتين أثناء الصعود وأغمي على بعض الضباط، ولولا ما معنا من الماء الذي رششنا به وجهه لحصل ما لا تحمد عقباه، ولذا يجمل بمن رام صعوده أن يستصحب بعض المياه خصوصاً في آونة الحر. وقبل أن نصل إلى قنة الجبل بثلاث دقائق وجدنا خزاناً نحت بالجبل لحفظ مياه المطر يبلغ طوله ٨ أمتار في عرض ٦ وعمق ٤، وله درج للوصول إلى قاعه، وكان خاوياً من الماء، ووجدنا بجانبه امرأة عربية تصنع القهوة والشاي للزائرين في موسم الحج وتبيعهما بالثمن، وقد تناولنا من شايها وقهوتها، وفرشت لنا بساطاً من الصوف، ومكثنا في حضرتها نصف ساعة ونقدناها الثمن مضاعفاً مكافأة على ما قدمت، ثم تسنمنا ذروة الجبل، وإذا فيها بناء متين تعلوه قبة طولها ٦ أمتار في مثلها عرضاً في ٨ ارتفاعاً.

ثم قال بعد عدة أسطر ما نصه: وفي الجهة الجنوبية من القبة غار حراء، الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل البعثة، على ما أسلفنا لك، والإنسان ينحدر إليه من قنة الجبل على درج حجري غير منتظم أشبه بالسلم، والبعد بينه وبين قمة القبة نحو ٥٠ متراً، وهذا الغار عبارة عن فجوة بابها نحو الشمال، تسع نحو خمسة

أشخاص جلوساً، وارتفاعه قامة متوسطة، وقد صلينا فيه ودعونا، ووجدنا هنالك بعض الحجاج من الأتراك يزورون هذه الآثار، والواقف على قنة هذا الجبل يرى مكة وأبنيتها العظيمة وقلاعها الحصينة، كما يرى جبل ثور، ولون الجبل ذهبي حتى لو حدقت النظر في قطعة منه تخالها ذهباً إبريز، ولذلك إذا سطعت عليها الشمس ترى له منظراً من أجمل المناظر وأبهجها، انتهى باختصار من مرآة الحرمين.

نقول: القبة التي ذكرها هنا صاحب مرآة الحرمين، والتي كانت على الغار فوق الجبل، قد هدمت سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة بعد الألف، والظاهر من قول الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب بلوغ القرى لابن فهد، أن أول قبة بنيت على جبل النور كانت سنة (٩١٦) ست عشر وتسعمائة، ثم تجدد بناؤها بعد ذلك إلى أن هدمت في زماننا في السنة المذكورة. والله تعالى أعلم.

وقال المرجاني في فضل حراء:

تأمل حراء وهو في حال محياه	فكم من أناس في حلا حسنه تاهوا
فمما حوى من جا لعلياه زائراً	يفرج عنه الهم في حال مرقاه
به خلوة الهادي الشفيع محمد	وفيه له غار فقد كان يرقاه
وقبلته للقدس كانت بغاره	وفيه أتاه الوحي في حال مبداه
وفيه تجلى الروح في الموقف الذي	به الله في وقت البداءة سواه
وتحت تخوم الأرض في السبع أصله	ومن بعد هذا اهتز بالسفل أعلاه
ولما تجلى الله قدس ذكره	لطور تشظى فهو أحد شظاياه
ومنها ثبير ثم ثور بمكة	كذا قد أتى في نقل تاريخ مبداه

قال صديقنا العزيز السيد أحمد العربي في حراء:

هذا الحجاز تأملوا صفحاته	سفر الخلود ومعهد الآثار
في كل سطر من سطور سجله	عِبَر تفيض بأروع الأسرار
ومواقفٌ لم يشهد التاريخ مثل	خلالها في أمجد الأعصار
جثمت على تلك الأباطح والهضا	ب وأشرقت ترنو إلى الأقدار
ومضت تقص على العصور حديثها	والقوم في لهو وفي إدبار
ثبتت على رغم الكوارث والخطوب	تعيد سيرة مجدنا المنهار

وتهيب بالهمم الأبية أن تهب ... لبعث كنز تراثنا المتواري
هذا حراء سائلوه يجيبكم ... فلعله سفر من الأسفار
واستلهموا مواقف الوحي التي ... شع الهدى منها على الأقطار
وسلوه ماذا قد أقل من البطولة ... والحجا أكرم به من غار
أخلق بغار حراء أن يزهو على ... الإيوان والأهرام والآثار
كم بين صاحبه وبين بنائها ... من فارق أربى على الأقدار
شتان بين محرر الأقوام ... والمتعبدين سلاسل الأحرار

وقال أمير الشعراء شوقي بك رحمه الله تعالى في حراء في كتابه "دول العرب وعظماء الإسلام" :

كان ابتداء الوحي في حراء ... فاتحة الرسالة الغراء
الله خير خلقه أعطاها ... وحمل الأمر العظيم "طه"
أرسله قلادة النظام ... عصماء عقد الرسل العظام

(فإن قيل): فما حكمة ذهاب رسول الله ﷺ إلى جبل حراء للتعبد في غاره، مع أنه جبل يبعد عن الكعبة المعظمة بنحو أربعة كيلو مترات، ومع أن البيوت في أيام الجاهلية حول الكعبة بما لا يتجاوز عن مائتي متر تقريباً، أي ما كانت البيوت تبلغ محلة المدعا من الناحية الشمالية، ومثلها من جميع الجهات - فلو أن رسول الله ﷺ ذهب إلى جبل أبي قبيس أو إلى جبل قعيقعان وهما أخشبا مكة، أو إلى جبل أجياد أو إلى جبل بقرب المعلا لكان أيضاً بعيداً عن أعين الناس في ذلك الزمن؟

(نقول): إن ذهاب رسول الله ﷺ إلى جبل حراء للتعبد في غاره قبل بعثته، إنما هو بتوجيه من الله تبارك وتعالى فقط، لحكمة يعلمها جل جلاله، وأيضاً لقد اطلعنا أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا إذا وصلوا إلى مكة ذهبوا إلى هذا الجبل للتعبد، مع العلم بأن الملائكة الكرام عليهم السلام، كانوا يأخذون الحجارة من هذا الجبل فيرمونها في أساس الكعبة المعظمة عند بنيانهم لها لأول مرة قبل آدم عليه الصلاة والسلام، فأساس الكعبة إلى تخوم الأرض، هو من خمسة جبال منها جبل حراء، كما ذكرنا ذلك بالتفصيل، في محله من هذا الكتاب.

فعليه يكون جبل حراء من الجبال المباركة ، العريقة في البركة والخير ، ومن هنا يسمي أهل مكة أدام الله تعالى رضاه عليهم جبل حراء بجبل النور ، ولهم الحق في ذلك ، فقد انبثق نور الحق والقرآن من هذا الجبل المبارك العظيم ، إن هذا الجبل وما حوله من الجبال والأراضي إلى حدود الحرم من جميع الجهات كلها مباركة طيبة منيرة ، أليست كلها من مكة المكرمة ، وفي حرمها الآمن المستنير .

وقد طلع رسول الله ﷺ مرة بعد بعثته ، وربما بعد هجرته ، إلى المدينة المنورة على جبل حراء ، كما جاء ذلك في صحيح مسلم في الباب السادس من كتاب الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرك ، فقال رسول الله ﷺ : اسكن حراء ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد . عليه النبي ﷺ ، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، وجاءت عن أبي هريرة أيضاً في صحيح مسلم في هذا الباب رواية أخرى اكتفينا بما ذكرناه ، كما جاء في ابن ماجة رواية تماثل ما ذكرناه . ومثل ما جاء في جبل حراء بمكة جاء أيضاً في جبل أحد بالمدينة ، وذلك في صحيح البخاري .

وما أحلى قول بعض الأعلام عندما وصل إلى غار حراء :

أُمرِّغُ في حراء أديم وجهي ... وأبصر فيه من نور بهي
لعلي أن أمس بحرّ وجهي ... تراباً مسه قدم النبي
فكم من ذكريات كان فيه ... وكم فيه من الفضل الخفي
ألم يك ساس بيت الله منه ... قديماً قبل بنيان النبي
أليس المصطفى قد كان يرقى ... عليه للتعبد بالعشي
وذلك قبل بعثته إلينا ... كما هو ظاهر عند الذكي
فأول رؤية للوحي كانت ... له في داخل الغار الجلي
تبدى جبريل وقال اقرأ ... باسم الله مولانا العلي

إلى آخر القصيدة .

هذا ، والحق يقال أن جبل حراء وما حوله فيه من الأنوار المعنونة ما لا يخفى على أولي البصائر وأرباب القلوب ، بل وجميع مكة المكرمة إلى حدود الحرم من جميع الجهات كذلك ، ويعرفه أهل الذوق والإشارات لا من كثفت طباعه وغلظت حواسه ، وكيف لا تكون هذه الأماكن الشريفة كذلك ، أليست هي

محل نزول القرآن غضاً طرياً من السماء إلى الأرض المباركة ؟ أليست هي محلات تشرفت بوطئ أقدام رسول الله ﷺ، وتشرفت بنسمات جبريل والملائكة الكرام عليهم السلام ؟

إن من طلع فوق جبل حراء، ودخل ذلك الغار المبارك، ونظر إلى ما حوله من الجبال والسهول، يتجلى له روعة المكان وجمال المنظر وبهاء الأثر على حقيقته، ويتملكه شعور الأنس والصفاء كل واحد بحسب استعداده النفسي . إن لجبل حراء طابع خاص، إنه كجبل من جبال مكة المشرفة، ولكن الله تعالى خلق قمته التي بها الغار الشريف كالقبة الجميلة، إنه جبل فريد لا يماثله من الجبال لا بمكة ولا بغيرها . فسبحان الكبير المتعال لا إله إلا هو العزيز الغفار.

عدد السماوات والأرضين

نعقد هذا الفصل بمناسبة أن أساس الكعبة المعظمة واصل إلى تخوم الأرض السفلى، فنقول وبالله القوة والتوفيق:

إن عدد السموات سبع، كما ورد ذلك في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما حديث الإسراء والمعراج بخاف على الناس الذي فيه التفصيل التام في عروج رسول الله ﷺ إلى السموات السبع صحبة جبريل وكان يستفتح له أبوابها سماء سماء إلى السماء السابعة، والحديث مذكور في الصحيحين وأوله « بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آت ... إلى آخره » .

والسموات كلها مملوءة بالملائكة يعبدون الله لا يفتُرون . ففي الحديث : «أطَّت السماء ويحق لها أن تئط والذي نفس بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده » رواه ابن مردويه في تفسيره عن أنس بن مالك، قال العزيزي ورمز المؤلف لضعفه . اهـ.

والمعنى صوت السماء وحنت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة، وهو كناية عن ثقلها بكثرة الملائكة .

واعلم أن عدد الأرضين سبع أيضا كعدد السموات، وقد ورد ذلك صريحاً في قوله سبحانه وتعالى، في سورة الطلاق: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن

الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾.

جاء في تفسير الصاوي عند الآية المذكورة ما نصه : اعلم أن العلماء أجمعوا على أن السموات سبع طباقاً بعضها فوق بعض، وأما الأرضون فالجمهور على أنها سبع كالسموات بعضها فوق بعض، وفي كل أرض سكان من خلق الله، وعليه فدعوة الإسلام مختصة بأهل الأرض العليا لأنه الثابت والمنقول، ولم يثبت أنه ﷺ ولا أحد ممن بعده، نزل إلى الأرض الثانية ولا غيرها من باقي الأرضين وبلّغهم الدعوة . وهل جعل الله لما تحت الأرض العليا ضوء آخر غير الشمس والقمر، أو يستمدون الضوء منهما؟ قولان للعلماء . وقيل: إنها طباق ملزوقة بعضها ببعض، وقيل: ليست طباقاً، بل منبسطة تفرق بينها البحار، وتُظل الجميع السماء، والأول هو الأصح . انتهى من الصاوي .

وجاء في تفسير الجَمَل المسمى «بالفتوحات الإلهية» في تفسير سورة الطلاق عند قوله تعالى أيضاً: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ ما نصه :

أما كون السموات سبعاً بعضها فوق بعض فلا خلاف فيه لحديث الإسراء وغيره، وأما الأرضون فقال الجمهور: إنها سبع أرضين، طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة، كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكانٌ من خلق الله، وقال الضحاك: إنها سبع أرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات . قال القرطبي: والأول أصح، لأن الأخبار دالة عليه . وفي كتاب الفردوس عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: ما بين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة وبين الكرسي والعرش مثل ذلك، وما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، والأرضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك. اهـ .

قال الماوردي: وعلى أنها سبع أرضين، تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا ولا يلزم من في غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز .

وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان: أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها، قال ابن عادل: وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة . الثاني: أنهم لا يشاهدون السماء،

وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض كروية .

وحكى الكلبي عن ابن صالح ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض ، تفرق بينها البحار ، وتظل جميعهم السماء ، فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى ، اختصت دعوة الإسلام بهذه الأرض ، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام ، لإمكان الوصول إليهم ، لأن البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه ، واحتمل أن لا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمتهم لكان النص بها وارداً ، ولكان النبي ﷺ بها مأموراً .

وقال بعض العلماء : السماء في اللغة عبارة عما علاك ، فالأولى بالنسبة إلى السماء الثانية أرض وكذلك السماء الثانية بالنسبة إلى الثالثة أرض ، وكذلك البقية بالنسبة إلى ما تحته سماء ، وبالنسبة إلى ما فوقه أرض ، فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الأرض الواحدة سبع سموات وسبع أرضين . اهـ بحروفه . انتهى من تفسير الجمل .

وليس في القرآن آية تدل على عدد الأرضين غير الآية السابقة التي في سورة الطلاق على ما نظن ، وأما الأحاديث فقد ورد عددها صريحاً . روى البخاري في كتاب المظالم عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » .

وجاء في الصحيحين « من أخذ شبراً من الأرض ظالماً فإنه يُطوَّقه يوم القيامة من سبع أرضين » رواه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله تعالى عنهم . أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق في باب ما جاء في سبع أرضين ، وقول الله تعالى : ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن... الآية﴾ . وأخرجه أيضاً في كتاب المظالم ، وأخرجه مسلم في آخر كتاب البيوع في باب تحريم الظلم وغصب الأرض بأربع روايات كلها عن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه .

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه «زاد المسلم بما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند هذا الحديث المذكور في صحيفة ٢١٣ من الجزء الرابع ما نصه :

وفي هذا الحديث إثبات سبع أرضين كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾. والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام، من سبع أرضين أن كل واحدة فوق الأخرى. وفي حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً أن بين كل أرض والتي تليها خمسمائة عام.

قال القاضي عياض: الأرضون سبع طباق وإنما الخلاف هل فتق بعضها من بعض؟ فقال الداودي: الحديث يدل على أنها لم تفتق؛ لأنها لو فتقت لم يطوق بما ينتفع به غيره، وجاء في غلظهن وفيما بينهن خبر ليس بصحيح.

قال الأُبّي: وتقرير استدلال الداودي أن الرتق اتصال الشيء بالشيء، والفتق: فصل بعضه عن بعض، فإذا لم تفتق فمن ملك شبراً من أرض أمكنه أن ينتفع بما تحته من الأخرى لتلاصقهما، وإذا فتقت وصار بين الأرضين خلاء، فلا يمكن الانتفاع بما يقابله من الأرض التي تحتها، وإنما ينتفع به غيره من ساكن تلك الأرض إن قدّر أن بها ساكناً.

قال القاضي عياض: واستدل به بعضهم على أن من ملك ظاهر الأرض يملك ما تحته مما يقابله، فله منع من تصرف فيه أو يحفره. وقد اختلف العلماء في هذا الأصل، فيمن اشترى داراً فوجد فيها كنزاً أو وجد في أرضه معدناً، فقيل له، وقيل للمسلمين، ووجه الدليل من الحديث أنه غصب شبراً فعوقب بحمله من سبع أرضين.

قال الأُبّي: أما التمثيل بمن ملك الظاهر هل ملك الباطن في المعدن فبين، لأن المعدن من جنس الأرض، وأما بمن اشترى داراً فلا؛ لأن الكنز إن كان من دفن الإسلام فلقطة، وإن كان من دفن الجاهلية فركاز. قال القاضي عياض: وكذلك يملك ما قابل ذلك من الهواء يرفع فيه من البناء ما شاء ما لم يضر بأحد. وتأول بعضهم الحديث على أن المراد بالسبع أرضين السبعة أقاليم، وهو تأويل أبطله العلماء، لأنه لو كان المراد ذلك لم يطوق من غصب شبراً من إقليم شبراً من إقليم آخر، بخلاف طباق الأرض، فإن من ملك شبراً من أرض ملك ما تحته. انتهى من شرح زاد المسلم.

(نقول): الأُبّي المذكور (هو بضم الهمزة وكسر الباء المشددة) أحد العلماء الذين شرحوا صحيح مسلم، ونعتقد أن هذا الشرح مطبوع في القرن السادس أو

السابع الهجري ، ولم نبحث عن ترجمته ، رحمه الله تعالى لكن نظن أنه مغربي أو شنقيطي ، والله تعالى أعلم .

لقد علمت فيما سبق أن عدد الأرضين سبع بصريح الآيات والأحاديث ، ومن غريب المصادفات أن نطلع في «مجلة الهلال» التي صدرت بمصر بتاريخ شهر شعبان سنة ١٣٧٢هـ . وشهر مايو سنة ١٩٥٣م . وفي الصفحة ٢٩ ، على مقالة مأخوذة عن كتاب «ما وراء الدنيا» بعنوان (باطن الأرض مأهول بالسكان) وأن هناك ثلاث نظريات عن تكوين الأرض ، وإليك نص المقالة :

« **النظرية الأولى** » في أوائل القرن الماضي أرسل ضابط أمريكي خمسمائة رسالة مطبوعة لأعضاء الكونغرس ومديري الجامعات الأمريكية والمعاهد الأوربية ولفيف من العلماء البارزين جاء فيها :

« سانت لويس ، بشمال أمريكا في ١٠ إبريل ١٨١٨ »

أعلن أهل الدنيا جميعاً أن الكرة الأرضية مجوفة ، وأن باطنها آهل بالسكان ، وأنها تحتوي على عدد من الكرات الواحدة داخل الأخرى ، وكل منها لها فتحتان عند قطبيها الشمالي والجنوبي . وأنا واثق من صحة هذه النظرية ، ومستعد لإثباتها عملياً وكشف باطن الأرض المجهول إذا عاونتني الهيئات العلمية ومكنتني من القيام بهذا الكشف . « ج. كليفن . سيمز »

وأرفق بكل رسالة منشوراً آخر جاء فيه : إن نجاح المشروع يقتضي معاونة مائة متطوع مغامر مزودين بجميع معدات السفر ، وسنبدأ الرحلة من سيبريا في نهاية هذا الفصل حيث تغطي الثلوج الفتحة العليا للكرة الأرضية ، والتي يمكن الوصول عن طريقها إلى الكرات الداخلية حيث الدفاء والثروة الزراعية والحيوانية ، ثم نعود في الربيع المقبل .

وأرفق بهذين الخطابين شهادة تدل على سلامة عقل صاحبها . وكان هذا الضابط لا يفتأ يتكلم عن دنياه الجديدة في كل وقت ، ولكنه لم يكن موفقاً في تدعيم كلامه بحجج أو أدلة منطقية ، ولم يؤلف كتاباً في تأييد نظريته وإنما كانت حجته البالغة ، أن سنة الطبيعة جرت بأن يكون كل شيء مجوفاً ، فعظام الحيوانات والطيور وشعر الرأس وسيقان القمح وغيرها من النبات كلها جوفاء ، وإذن فلا بد أن تكون الكواكب مجوفة كذلك ، وأن الأرض خمس كرات الواحدة داخل الأخرى كما يبدو في الرسم .

« وعمل خمس دوائر داخلة في بعضها » وهي جميعاً مأهولة بالكائنات الحية من الداخل والخارج ، ولكل منها فتحتان عند قطبيها ، بحيث يستطيع سكان كل كرة أن يسافروا إلى أي مكان فيها في داخلها أو خارجها ، مثلهم في ذلك مثل نملة تدب على جدار وعاء مفتوح من ظهره لبطنه ومن بطنه لظهره ، وكان صاحب هذه النظرية يقضي الساعات الطوال يصف لسامعيه الأجناس والمخلوقات العجيبة التي كان يقول : أنها تعيش داخل هذه الكرات وخارجها .

وكان «سيمز» يرى أن القشرة الخارجية للكرة التي نعيش عليها ، يتراوح سمكها بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ميل ، وأن قطر فتحتها العليا التي تكسوها ثلوج القطب الشمالي يبلغ نحو ألفي ميل ، وقطر الفتحة السفلى ثلاثة آلاف ميل ، وأنهما منحرفتان عن الوسط قليلاً ، وكان الرجل متحمساً لنظريته حماسة دفعته إلى القيام بحملات للدعاية لها أشبه بالحملات السياسية ، فكان يجوب البلدان المختلفة ليلقي المحاضرات ويعقد المؤتمرات الصحفية ، كي يجيب عن الأسئلة التي توجه إليه ، والطريف أنه كلما طلب منه دليل على صحة ما يقول أجاب : بأنه كرجل من رجال الجيش المشهود لهم بالإخلاص والصدق ولا يمكن أن يكذب وأنه يؤمن كل الإيمان برأيه .

وطبيعي أن رجال العلم في أمريكا وأوروبا سخروا منه ، ولكن الروس ، قد كانوا يتوقون لكشف أراضي سيبريا الشاسعة المجهولة ، أظهروا اهتماماً بالغاً بالأمر ، وعرضوا على «سيمز» معاونته في رحلته إلى سيبريا ليبدأ من هناك بحثه ، ولكن الرجل ما لبث أن أصيب بمرض لم يمهله طويلاً ، ودفن باحتفال عسكري ، وقد ترك عدة صناديق مليئة بقصاصات الصحف والمذكرات ، وربما كان من مخلفاته أيضاً ذلك النموذج الخشبي للكرة الأرضية كما كان يتصورها ، والمعروض الآن في أكاديمية العلوم الطبيعية بفيلادلفيا . وقد ورث ابنه إيمانه بنظريته ، فحاول بعد وفاته عبثاً أن يجمع مذكراته في كتاب ، وقد أضاف على نظرية أبيه أنه يعتقد أن الشعوب والقبائل التي ورد ذكرها في بعض الكتب المقدسة ، والتي يظن أنها بادت واندثرت ، لا بد أنها دخلت إلى باطن الأرض من إحدى فتحتيها ، وإننا لا بد سنلقاها هناك لو دخلنا إليها .

(النظرية الثانية) وبعد وفاة «سيمز» بسنوات أعلن طبيب يدعى « سيروس ريد» عن نظرية جديدة ، زعم أن الوحي الإلهي هبط عليه في عام ١٨٦٩ وهو ما

يزال شاباً ، وكان هذا الطبيب يكتب عن نظريته في الصحف وغيرها من المطبوعات بالاسم المستعار «كورش» وتتلخص النظرية في أن طبقات الجو المحيطة بنا تشبه بجموعة من العدسات تعكس الإشعاعات الصادرة من النجم الكائن في جوف الأرض ، فيتراءى لنا ما نتوهمه قمراً وكواكب ، ويرجع تعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول إلى حركات هذا النجم ، وكان «ريد» يقدر سمك القشرة الأرضية بنحو مائة ميل ، وأنها تتألف من سبع طبقات من المعادن ، وخمس طبقات صخرية ، وخمس أخرى « جولوجية » .

(**النظرية الثالثة**) وظهرت نظرية ثالثة في أواخر عام ١٩٢٠ في ألمانيا ، تزعمها رجل يدعى «كارل نيوبرت» وتتلخص في أن الأرض فقاعة كروية ، وأن الجغرافيين قاسوا أطوالها قياساً دقيقاً ورسموا لها خرائط صحيحة ، ولكنهم أخطأوا في قولهم ، بأننا نعيش على سطحها الخارجي في حين أننا في الواقع نعيش في باطنها . وفوق رؤوسنا ثلاثة أجرام تتحرك بالقرب من مركز هذه الفقاعة هي الشمس والقمر والسماء ، وهي كرة ذات لون أزرق داكن تلمع فوقها أضواء يحسبها بجوها ، والليل ينشأ من اعتراض هذه الكرة لأشعة الشمس وهي في طريقها إلى الأرض ، وكان «نيوبرت» يقول : أن الجغرافيين يخطئون ، إذ يقولون أن الأشعة الضوئية تسير في خط مستقيم ، والواقع أنها مقوسة ، وأن الأشعة البنفسجية أكثر تقوساً وانحناء من الأشعة الحمراء ، والطريف أن كثيرين كانوا يؤمنون بصحة هذه النظريات حتى وقت قريب . انتهى من مجلة الهلال .

نقول : إن كاتب هذه المقالة يعتقد أن طبقات الأرض خمس كما صرح بذلك في مقالته ، واعتقاده هذا بناه على ما ظهر له من النظريات . وأما نحن المسلمين ، فإننا نعتقد سبع أرضين كالسموات السبع ، بدليل صريح القرآن الكريم والحديث الشريف ، ونحن مأمورون بالإيمان بذلك ، ولسنا مأمورين بالبحث عن كيفية الأرضين السبع ، ولا بمعرفة أنواع سكان كل طبقة من الأرض ، إذ أن الوصول إلى نتيجة البحث مستحيل تقريباً ، فنكل علم كل ذلك إلى الله تعالى الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض ، لا إله إلا هو العزيز الغفار .

ولئن قام الأفرنج الآن ببعض الاستكشاف عن الأرض ، فإن الإسلام قد أوضح كل ذلك من قديم .

خلق موضع الكعبة

قال الإمام الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد في أول كتابه «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» ما ملخصه :

قال كعب الأحبار : كانت الكعبة غُثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السموات والأرض بأربعين سنة ومنها دحيت الأرض ، والغثاء بالضم والمد ما يحمله السيل من القماش كما في مختار الصحاح .

وقال مجاهد : لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة ، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض بعث الله تعالى ريحاً هفافة فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم مادت ، فأوتدها الله تعالى بالجبال فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس ، فلذلك سميت مكة أم القرى . انتهى باختصار من تاريخ الأزرقي .

روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت ، ثم مدت منها الأرض ، وإن أول جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس ، ثم مدت منه الجبال » .

قال العزيزي في شرحه على الجامع الصغير : قال الشيخ : حديث صحيح لغيره . اهـ .

نقول : ومما تقدم أخذ بعضهم أن مكة المكرمة قلب الدنيا ووسطها وموضع الكعبة هو نقطة مركز دائرتها .

قال البتنوني في كتابه : «الرحلة الحجازية» : واليهود يقولون إن قلب العالم في المكان الذي به تابوت العهد بالقدس ، والنصارى يقولون : إنما هو في كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وفيها كرة من الرخام يبلغ قطرها نحو ثلاثين أو أربعين سنتيمتراً ، مرفوعة على قاعدة من الرخام أيضاً ، ويزعمون أن هذه الكرة موضوعة في المركز الحقيقي للكرة الأرضية . انتهى كلامه .

ورأينا في مسألة موضع وسط الدنيا أننا لا نميل إلى أحد الأقوال المتقدمة ، حيث إنه لم يرد نص صريح على ذلك في ديننا الحنيف والدنيا واسعة عظيمة لم يحط أحد بعلم جزء صغير منها تمام الإحاطة فضلاً عن جميعها ، فالأحسن والأولى تفويض ذلك إلى الله عز شأنه علام الغيوب والخلاق العظيم لا إله إلا هو الكبير المتعال .

بنايات الكعبة المعظمة

بنيت الكعبة المعظمة إحدى عشرة مرة بنتها: (١) الملائكة (٢) ثم آدم (٣) ثم شيث (٤) ثم إبراهيم (٥) ثم العمالقة (٦) ثم جرهم (٧) ثم قصي (٨) ثم قريش (٩) ثم عبدالله بن الزبير (١٠) ثم الحجاج (١١) ثم السلطان مراد ابن السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان ، وذلك سنة أربعين وألف هـ ، وقد نظم بعضهم أسماء هؤلاء فقال :

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم ... ورتبتهم حسب الذي أخبر الثقة
ملائكة الرحمن ،آدم ، ابنه ... كذاك خليل الله ، ثم العمالقة
وجرهم يتلوهم قصي ، قريشهم ... كذا ابن الزبير ، ثم الحجاج لاحقة
ومن بعدهم آل عثمان قد بنى ... « مراد » حماه الله من كل طارقة

وقال بعضهم أيضاً :

بنى البيت خلق وبيت الإله ... مدى الدهر من سابق يكرم
ملائكة آدم ، ولده ... خليل ، عمالقة ، جرهم
قصي ، قريش ، نجل الزبير ... وحجاج ، بعدهم نعلم
وسلطاننا الملك المرتضى ... « مراد » هو الماجد المكرم

وها نحن نذكر جميع ذلك بالتفصيل التام وبالترتيب المذكور . فتأمل كل بناية في عهدها مزيد التأمل ، ليظهر لك الأمر جلياً واضحاً فإليك ذكر ذلك .

الدليل على بناء الكعبة قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

اختلف المؤرخون في أول من بنى الكعبة المعظمة ، فقيل أول من بناها خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقيل أول من بناها الملائكة عليهم السلام ، و لم

يأت نص صريح في ذلك من كتاب أو سنة ، والقرآن الكريم ذكر فقط إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، رفع قواعد البيت مع ابنه إسماعيل ، عليهما الصلاة والسلام ، وقد أجمع المؤرخون قديماً وحديثاً أن الكعبة بنيت قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنتها أولاً الملائكة ، ثم آدم ، ثم ابنه شيث ، ثم إبراهيم على جميعهم الصلاة والسلام .. الخ . هذا الذي أتى لنا التاريخ ونحن نروي ما روى التاريخ .

هذا : ونحن نوافق على ما ذكره المؤرخون حيث يطمئن إليه قلبنا ونستدل على ذلك بما ذكره الإمام الأزرقي وهو إمام في العلم والحديث والتاريخ وهو من علماء مكة ومن أهل القرن الثاني للهجرة ، وتاريخه هو أول تاريخ لمكة المشرفة وصل إلينا ويعتمد عليه وكفى به حجة . فقد قال عند بناء إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، الكعبة ما نصه:

يقول ابن عباس : فقاما -أي إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام- يحضران عن القواعد ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ويحمل له إسماعيل الحجارة على رقبته ويبني الشيخ إبراهيم عليه الصلاة والسلام .. الخ .

وروى أيضاً في موضع آخر عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه أخبره قال: لما ابتعث الله تعالى إبراهيم خليله ليبني له البيت طلب الأساس الأول الذي وضع بنو آدم في موضع الخيمة التي عزى الله بها آدم عليه السلام من خيام الجنة حيث وضعت له بمكة في موضع البيت الحرام ، فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل إلى القواعد التي أسس بنو آدم في زمانهم في موضع الخيمة ، فلما وصل إليها أظل الله له مكان البيت بغمامة .. الخ ، ويقصد الإمام رحمه الله تعالى بقوله : «التي أسس بنو آدم في زمانهم» آدم وابنه شيث عليهما الصلاة والسلام . ولقد ذكر الإمام رحمه الله، تعالى في أول تاريخه أيضاً عن بناء الملائكة وآدم عليهما الصلاة والسلام : أن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً .. الخ .

وذكر الإمام الأزرقي أيضاً عند الكلام على بناء عبدالله بن الزبير ، رضي الله تعالى عنهما الكعبة فقال ما نصه : فلما هدم ابن الزبير الكعبة وسوّاها بالأرض ، كشف عن أساس إبراهيم فوجدوه داخلاً في الحجر نحواً من ستة أذرع وشبر ،

كأنها أعناق الإبل أخذ بعضها بعضاً كتشبيك الأصابع بعضها ببعض، يحرك الحجر من القواعد فتحرك الأركان كلها. فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرافهم وأشهدهم على ذلك الأساس، قال: فأدخل رجل من القوم كان أيداً يقال له: عبدالله بن مطيع العدوي، عتلة كانت في يده في ركن من أركان البيت فتزعزعت الأركان جميعاً، ويقال إن مكة كلها رجفت رجفة شديدة حين زعزع الأساس وخاف الناس خوفاً شديداً حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها وأعظموا ذلك إعظاماً شديداً وأسقط في أيديهم فقال لهم ابن الزبير: اشهدوا ثم وضع البناء على ذلك الأساس. انتهى منه.

فمثل هذه الحجارات الضخمة وإلقائها في أساس الكعبة وتشابكها مع بعضها كتشابك الأصابع أي كقطع العجين إذا رميت بعضها فوق بعض واشتبكت وتداخلت في بعضها، لا يكون من فعل بني آدم قط. وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنى الكعبة على الأساس السابق الذي كان قبله، وردم بفعل الأمطار والسيول أو بفعل طوفان نوح، عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن الملائكة لم تساعده في رفع قواعده أو رفع أساسه -الله تعالى أعلم بالغيب- فعلم من كل ذلك أنه لا مانع بالقول أن الكعبة المشرفة بنيت قبل خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مع العلم بأن هذه المسألة لها تعلق بالدين، نعم من أنكر بناء إبراهيم الكعبة يعد كافراً، إن تعمد ذلك، لأنه ثابت بنص القرآن الكريم. والله تعالى أعلم بالغيب.

البناية الأولى: بناء الملائكة عليهم السلام الكعبة

أول من بنى البيت الحرام هم الملائكة وذلك قبل خلق آدم عليه السلام، وتفصيل ذلك ننقله من أقدم كتب التاريخ الذي وصل إلينا وهو كتاب «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» للإمام الجليل أبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي، المولود في القرن الثاني للهجرة.

قال رحمه الله تعالى في كتابه المذكور عن بناء الملائكة ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني علي بن هارون بن مسلم العجلي عن أبيه قال: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري قال: حدثني محمد بن علي بن الحسين قال: كنت مع

أبي علي بن الحسين بمكة فبينما هو يطوف بالبيت وأنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول طويل، فوضع يده على ظهر أبي. فالتفت أبي إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله. إني أريد أن أسألك، فسكت أبي وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه، فدخل الحجر. فقام تحت الميزاب، فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتي أسبوعه ثم استوى قاعداً فالتفت إلي فقمت فجلست إلى جنبه فقال: يا محمد فأين هذا السائل؟ فأومأت إلى الرجل فجاء فجلس بين يدي أبي. فقال له أبي: عم تسأل؟ قال: أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت لم كان وأنى كان وحيث كان وكيف كان؟ فقال له أبي: نعم من أين أنت؟ قال: من أهل الشام. قال: أين مسكنك؟ قال: في بيت المقدس. قال فهل قرأت الكتابين؟ (يعني التوراة والإنجيل) قال الرجل: نعم. قال أبي: يا أخا أهل الشام احفظ ولا تروين عني إلا حقاً أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك سبحانه وتعالى قال للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة فقالت الملائكة: أي رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغون؟ أي رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها، ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك. فقال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا رداً على ربهم، عز وجل، وأنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش ورفعوا رؤوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم فوضع الله تعالى تحت العرش بيتاً على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء وسمي ذلك البيت الضراع ثم قال الله تعالى للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش قال: فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش وصار أهون عليهم من العرش وهو البيت المعمور الذي ذكره الله، عز وجل، يدخله في كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبداً، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم: ابنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله سبحانه من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. فقال الرجل: صدقت يا ابن رسول الله ﷺ هكذا كان. انتهى من تاريخ الأزرقي.

وروى في موضع آخر منه أيضاً عن محمد بن المنكدر أنه قال: كان أول شيء عمله آدم عليه السلام، حين أهبط من السماء، طاف بالبيت فلقيته الملائكة فقالوا: بَرّ نسكك يا آدم، طفنا بهذا البيت قبلك بألفي عام.

وروى أيضاً عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: حج آدم، عليه السلام، وطاف بالبيت سبعاً فلقيته الملائكة في الطواف. فقالوا: بَرّ حجك يا آدم، أما إنا قد حججنا قبلك هذا البيت بألفي عام، قال: فما كنتم تقولون في الطواف؟ قالوا: كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال آدم: فزيدوا فيها «ولا حول ولا قوة إلا بالله» قال: فزادت الملائكة فيها ذلك. قال: ثم حج إبراهيم عليه السلام، بعد بنيانه البيت، فلقيته الملائكة في الطواف فسلموا عليه. فقال لهم إبراهيم: ما ذا كنتم تقولون في طوافكم؟ قالوا: كنا نقول قبل أبيك آدم، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. فأعلمناه ذلك. فقال آدم عليه السلام: زيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال إبراهيم: زيدوا فيها «العلي العظيم» قال: ففعلت الملائكة ذلك. انتهى من الأزرقي.

ويقال إن الملائكة هم الذين أسسوا المسجد الأقصى لأول مرة، وقيل آدم، عليه السلام، وقيل سام بن نوح عليه السلام، وقيل يعقوب عليه السلام، وقيل داود عليه السلام، وقيل سليمان عليه السلام، وقيل إبراهيم عليه السلام، وقيل إن الأخيرين جددا ما خرب منه فقط وأما وضع أساسه فقد كان قبلهما والله تعالى أعلم.

البناية الثانية: بناء آدم عليه السلام الكعبة

(الثاني) ممن بنى البيت الحرام، أبونا آدم عليه الصلاة والسلام، قال الإمام الأزرقي في تاريخه ما نصه:

حدثنا أبو الوليد حدثنا جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض وهو مثل الفلك من رعدته قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلى ستين ذراعاً، فقال: يا رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم. ولكن اذهب فابن لي بيتاً

فطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطا فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت كل مفازة يمر بها خطوة وقبض له ما كان من مخاضٍ ماء أو بحر فجعله له خطوة ولم تقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وبركة حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً وأنه بناه من خمسة أجبل من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا والجودي، وحراء حتى استوت على وجه الأرض. قال ابن عباس: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام حتى بعث الله الطوفان قال: وكان غضباً ورجساً قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند قال: فدرس موضع البيت في الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعده وأعلامه وبنته قريش بعد ذلك وهو بحذاء البيت المعمور لو سقط، ما سقط إلا عليه.

حدثنا أبو الوليد حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني عن عبد الصمدي ابن معقل عن وهب بن منبه أن الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام أمره أن يسير إلى مكة فطوى له الأرض وقبض له المفاوز فصار كل مفازة يمر بها خطوة وقبض له ما كان فيها من مخاضٍ ماء أبو بحر فجعله له خطوة فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وبركة حتى انتهى إلى مكة.

وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان فيه من عظم المصيبة حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه ولتبكي لبكائه فعزاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نورٍ الجنة، ونزل معها الركن وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة وكان كرسياً لآدم عليه السلام يجلس عليه، فلما صار آدم عليه السلام بمكة وحرس له تلك الخيمة بالملائكة كانوا يحرسونها ويذودون عنها ساكن الأرض، وساكنها يومئذ الجن والشياطين فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة لأنه من نظر إلى شيء من الجنة وجبت له، والأرض يومئذ طاهرة نقية لم تنجس، ولم تسفك فيها

الدماء ، ولم يعمل فيها بالخطايا ، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الله الليل والنهار لايفترون ، وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفاً واحداً مستديرين بالحرم الشريف كله ، الحل من خلفهم والحرم كله من أمامهم فلا يجوزهم جن ولا شيطان ومن أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم ، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة وحرم الله عز وجل على حواء دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم عليه السلام من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت ، وأن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقاها فلم تزل خيمة آدم عليه السلام مكانها حتى قبض الله آدم ورفعها الله تعالى وبنى بنو آدم بها من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وخفي مكانه . فلما بعث الله تعالى إبراهيم خليله عليه السلام طلب الأساس فلما وصل إليه ظلل الله تعالى له مكان البيت بغمامة فكانت حفاف البيت الأول ثم لم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد حتى رفع الله القواعد قامة ثم انكشفت الغمامة فذلك قول الله عز وجل : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي : الغمامة التي ركدت على الحفاف لتهديه مكان القواعد فلم يزل يحمد الله منذ رفعه الله معموراً . قال وهب بن منبه : وقرأت في كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه أمر الكعبة فوجد فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من عند العرش محرماً ملبياً حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعاً بالبيت ويركع في جوفه ركعتين ثم يصعد .

وحدثني محمد بن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن عبد الله بن لبيد قال : بلغني أن ابن عباس قال : لما أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام وهو مثل الفلك من رعدته ثم أنزل عليه الحجر الأسود -يعني الركن- وهو يتلألأ من شدة بياضه فأخذه آدم عليه السلام فضمه إليه أُنساً به ثم نزلت عليه العصا فقيل له : تخط يا آدم فتخطا فإذا هو بأرض الهند والسند فمكث بذلك ما شاء الله ثم استوحش إلى الركن فقيل له : احجج قال : فحج فلقيته الملائكة فقالوا : بَرّ حجك يا أدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام .

وحدثني جدي قال : حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال : بلغني أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض حزن على ما فاته مما كان يرى ويسمع من الجنة من عبادة الله فبوأ الله له البيت الحرام وأمره بالسير إليه فسار إليه لا ينزل منزلاً إلا فجر الله له ماء معيناً حتى انتهى إلى مكة فأقام بها يعبد الله عند ذلك البيت ويطوف به فلم تزل داره حتى قبضه الله بها .

وحدثني جدي قال : حدثني سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لكعب : يا كعب أخبرني عن البيت الحرام قال كعب : أنزله الله تعالى من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم عليه السلام فقال له : يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي . ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من الحجارة ثم وضع البيت عليه فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش ويصلي عنده كما يصلى عند العرش فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء وبقيت قواعده .

حدثني جدي قال : وحدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن أبان بن أبي عياش قال : بلغنا عن أصحاب النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعباً ثم نسق مثل الحديث الأول . وحدثني جدي قال : وحدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضوان الله عليه قال : كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت وصلى فيه حتى بعث الله الطوفان . حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال : حدثنا عبدالله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن أبان : أن البيت أهبط ياقوتة لآدم عليه السلام أو درة واحدة . وحدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه قال : كان البيت الذي بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ ياقوتة من يواقيت الجنة حمراء تلتهب ، لها بابان أحدهما شرقي والآخر غربي وكان فيه قناديل من نور آنيتها ذهب من تبر الجنة وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض ، والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء .

حدثنا جدي قال : حدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى قال : حدثنا المغيرة بن زياد عن عطاء بن أبي رباح قال : لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا في الأرض فبلغوا صخراً أمثال الإبل الخلف قال فقالوا : إنا قد بلغنا صخراً معمولاً

أمثال الإبل الخلف قال: قال: زيدوا فاحفروا ، فلما زادوا بلغوا هواء من نار يلقاهم فقال : ما لكم؟ قالوا : لسنا نستطيع أن نزيد ، رأينا أمراً عظيماً فلا نستطيع ، فقال لهم : ابنوا عليه ، قال: فسمعت عطاء يقول : يرون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام.

وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس ، عليه السلام ، خر آدم ساجداً يبكي فهتف به هاتف فقال : ما يبكيك يا آدم؟ قال: أبكاني أنه حيل بيني وبين تسبيح ملائكتك وتقديس قدسك قيل له : يا آدم قم إلى البيت الحرام ، فخرج إلى مكة فكان حيث يضع قدميه يفجر عيوناً ، وعمراناً ، ومداين ، وما بين قدميه الخراب والمعاطش . فبلغني أن آدم عليه السلام تذكر الجنة فبكا فلو عدل بكاء الخلق ببكاء آدم حين أخرج من الجنة ما عدله ولو عدل بكاء الخلق وبكاء آدم عليه السلام ببكاء داود حين أصاب الخطيئة ما عدله . انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي .

جاء في تاريخ الخميس ما نصه :

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن الله تعالى أوحى إلى آدم أن لي حرماً بحيال عرشي فانطلقْ فابن لي بيتاً فيه ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشي فهنالك أستجيبُ لك ولولدك من كان منهم على طاعتي . فقال آدم : أي رب وكيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي لمكانه ، فقيض الله له ملكاً فانطلق به نحو مكة فكان آدم عليه السلام إذا مرَّ بروضة أو مكان يعجبه قال للملك : انزل بنا هاهنا فيقول له الملك : أمامك حتى قدم مكة فبنى البيت من خمسة أجبل من طور سيناء وحراء وطور زيتا ومن لبنان والجودي .

وفي رواية وهب بن منبه : وثبير واحد بدل لبنان والجودي . انتهى .

وبنى قواعده من حراء فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم .

وفي رواية قال ابن عباس: إنما سمي عرفات جمعاً ؛ لأنه اجتمع بها آدم وحواء .

وفي أنوار التنزيل: إنما سمي الموقف عرفة لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا، أو لأنه نعت لإبراهيم عليه السلام، فلما أبصره عرفه أو لأن جبريل كان يدور به من المشاعر فلما رآه قال: عرفت أو لأن الناس يتعارفون فيه.

وعرفات للمبالغة في ذلك وهي من الأسماء المرتجلة إلا أن يجعل جمع عرفة. فحج آدم وأقام المناسك.

قال وهب بن منبه: تلقته الملائكة بالأبطم فرحبت به وقالت: يا آدم إنا لننتظرك ولقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ثم قَدِم به الملَك مكة فطاف بالبيت أسبوعاً ثم رجع إلى أرض الهند فمات بها. انتهى من تاريخ الخميس.

وجاء في تاريخ الخميس ما نصه:

قال أبو جهم: وإن آدم عليه السلام أمر بأساسه فبناه هو وحواء وأسساه بصخر أمثال الخلفات يعني النوق التي في بطونها أجنة واحدتها خلفة أذن الله للصخر أن يطيعهما ثم نزل البيت من السماء من ذهب أحمر ووكل به من الملائكة سبعون ألف ملك فوضعوه على أسس آدم عليه السلام ونزل الركن وهو يومئذ درة بيضاء فوضع موضعه اليوم من البيت وطاف به آدم وصلى فيه فلما مات آدم عليه السلام وليه بعده ابنه شيث فكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام فلما كان الغرق يعني الطوفان بعث الله تعالى سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء كي لا يصيبه الماء النجس وبقيت قواعده وجاءت السفينة فدارت به سبعاً ثم دثر البيت فلم يحجه من بين نوح وبين إبراهيم أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وفي شفاء الغرام عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى أصابه الماء نودي من تحته حسبك يا آدم فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت تناسخته القرون. انتهى من تاريخ الخميس.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: قال وهب: إن آدم لما صار بمكة حرسه الله وحَرَس تلك الخيمة بالملائكة يحرسونه ويذودون عنه سكان الأرض، وسكانها يومئذ الجن والشياطين فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة لأن من ينظر إلى شيء من الجنة وجبت له الجنة، والأرض يومئذ طاهرة نقية طيبة لم تنجس ولم يسفك فيها الدماء ولم تعمل فيها الخطايا فمن أجل ذلك جعلها الله مستقرا

للملائكة ، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وكان موقفهم على أعلام الحرم صفاً واحداً مستديراً محيطاً بالحرم ، والحل كله من خلفهم ، والحرم كله دونهم ، وقال ابن عباس : إن للحرم حرمة البيت إلى السموات ثم إلى العرش وإلى الأرض السفلى ، فلا يجوزها جن ولا شيطان ، من أجل مقام الملائكة حرم الله الحرم حتى اليوم ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة . انتهى من تاريخ الخميس .

نقول : ما ذكر فيما تقدم من أن البيت الحرام رفع زمان الطوفان إلى السماء يفسر بالرواية التي تقول : إن البيت أنزل على آدم عليه السلام من الجنة وهو خيمة من خيامها ياقوتة حمراء من يواقيتها فيها ثلاثة قناديل من ذهب الجنة فيها نور يلتهب من نور الجنة .

فعلى هذه الرواية لا يبعد أن يرفع البيت زمن الطوفان إلى السماء لترجع هذه الخيمة التي نزلت من الجنة إلى مكانها الأول في الجنة ، فما كان أصله من الجنة يكون مآله إلى الجنة ولو بعد حين كالحجر الأسود فإنه يرفع أيضاً في آخر الزمان .

أما لو فسرنا رفع البيت إلى السماء زمن الطوفان بالرواية التي تقول إن آدم عليه السلام بنى البيت بالطين والحجارة ، فهذا بعيد غير معقول ، لأن ما كان من الأرض ليس من الشرافة والقداسة حتى يرفع إلى السماء ، والبيت الحرام هدم وبني مراراً واستبدلت حجاراته المهدومة بحجارات جديدة منحوتة من الجبال ، فليس في البيت الحرام اليوم حجر مقدس لذاته غير الحجر الأسود فهو الذي من الجنة ومآله إلى الجنة بدون شك .

فتأمل في هذا المبحث النفيس فالحمد لله على التوفيق.

ما جاء في حج آدم عليه الصلاة والسلام

قال الإمام الأزرقي رحمه الله في تاريخه ما نصه :

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: حُدثت أن آدم عليه السلام خرج حتى قدم مكة فبنى البيت فلما فرغ من بنائه قال : أي رب إن لكل أجير أجراً وإن لي أجراً قال : نعم فاسألني قال : أي رب تردني من حيث أخرجتني ، قال: نعم! ذلك لك قال : أي رب ومن خرج

إلى هذا البيت من ذريتي يقر على نفسه بمثل الذي قررت به من ذنوبي أن تغفر له قال: نعم ! ذلك لك. حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا محمد بن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن أبي المليح أنه قال: كان أبو هريرة يقول: حج آدم عليه السلام فقضى المناسك فلما حج قال: يا رب إن لكل عامل أجراً قال الله تعالى: أما أنت يا آدم فقد غفرت لك وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرت له، فحج آدم عليه السلام فاستقبلته الملائكة بالروم فقالت: بر حجك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا: كنا نقول سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال: فكان آدم عليه السلام إذا طاف بالبيت يقول هؤلاء الكلمات وكان طواف آدم عليه السلام سبعة أسابيع بالليل وخمسة أسابيع بالنهار، قال نافع: كان ابن عمر رحمه الله يفعل ذلك.

حدثني محمد بن يحيى قال: حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن عبدالله بن أبي سليمان مولى بني مخزوم أنه قال: طاف آدم عليه السلام سبعاً بالبيت حين نزل، ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين، ثم أتى الملتزم فقال: اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم ما في نفسي وما عندي فاغفر لي ذنوبي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي والرضا بما قضيت علي، قال: فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد دعوتني بدعوات فاستجبت لك، ولن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت غمومه وهمومه وكففت عليه ضيقته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغناء بين عينيه، وتجرت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها. قال: فمذ طاف آدم عليه السلام كانت سنة الطواف. انتهى من تاريخ الأزرقي.

ويقال أن آدم عليه الصلاة والسلام هو أول من أسس المسجد الأقصى، وقيل غيره. والله تعالى أعلم.

مقدار طول آدم عليه السلام

لقد اختلف الناس في طول آدم وحواء من الإفرنج فذهبوا مذاهب شتى، فقال المستشرق المسيو «هانريون» العضو في المجمع العلمي الفرنساوي، أن طول آدم

كان (١٢٣) قدماً وتسع بوصات أي (٣٧ متراً تقريباً)، وأن طول حواء كان (١١٨) قدماً وثلاثة أرباع البوصة (انظر مادة آدم في معجم لاروس الكبير) هذا ما هو مذكور في كتاب (الرحلة الحجازية) فهؤلاء المستشرقون أخذوا استنتاجهم من الموميات والهياكل التي يعثرون عليها في بطون الأرض.

ونحن المسلمون يجب علينا ألا نتبع آراءهم وأقوالهم فيما يمس بالدين، ولقد ورد عندنا الأثر الصحيح عن طول أبينا آدم عليه السلام و لم يرد عن طول حواء شيء، ولا بد أن طولها وخلقتها متناسبان مع شكل آدم عليه الصلاة والسلام.

ولنذكر فيما ورد في طول آدم، فقد جاء في الصحيحين وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر وهم من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طول ستين ذراعاً، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن».

قال العزيزي على الجامع الصغير عند هذا الحديث: وعند أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً، كان طول آدم ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً. اهـ.

وما ذكره ابن بطوطة في رحلته من أن طول قدم آدم الموجودة على الصخرة بجبل سرنديب أحد عشر شبراً معقول بالنسبة لطوله المذكور هنا في الحديث.

والذي نفهمه من هذا الحديث الصحيح ثلاثة أمور وهي:

(الأول) أن الله تعالى خلق أبانا آدم على الصورة التي نحن عليها من الشكل والهيئة الحسنة كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾، وفي هذا البرهان القاطع على أن بني آدم منذ خلق أبيهم آدم لم يتغير شكلهم وهيئتهم ولن يتغير ذلك أبداً إلى يوم القيامة.

ولقد ظهر بعض الإفرنج في عصرنا يقولون إن أصل الإنسان كان شكله كشكل القردة في سابق العصور، ثم إنه تطور بمرور الزمن حتى وصل إلى الشكل الذي نحن فيه.

فعجباً لهؤلاء الخياليين الوهميين من الإفرنج ومن تبعهم من الغوغاء، كيف يعتقدون ذلك؟ وكيف ينسبون أصلهم إلى القرود، فهل يحب الإنسان المثقف أن

ينتسب إلى أصل شريف لطيف أو إلى أصل وضيع خسيس؟ فكل من يرى هذا الرأي فهو بنفسه قرد ممقوت .

فإن قيل : إن رأيهم هذا مبني على عثورهم في بطون الأرض على هياكل إنسانية تشبه هياكل القردة .

نقول : على فرض عثورهم على هذه الهياكل فقد تكون هياكل بشرية مسخها الله تعالى قردة وخنازير لما كفروا بأنبيائهم وطغوا واعتدوا في يوم السبت كما قال تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ قال قتادة : صار الشبان قردة والشيوخ خنازير . اهـ .

مع العلم بأنه لم يبق للممسوخين نسل ولا عقب ، والقردة والخنازير جنس من المخلوقات ، وقد كانوا موجودين من قبل من مسخ من بني إسرائيل ، قال عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك » رواه مسلم وأحمد .

فلو قرأ الإفرنج دين الإسلام وتعمقوا في فهمه لما ذهبوا مع خيالاتهم وتوهماتهم كل مذهب ، بل لبادروا إلى اعتناقه واستظلوا برايته ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والحمد لله الذي وفقنا للعمل بأحكامه وفهمنا دقائق أسرارها ، اللهم ثبت قلوبنا على دينك واختم حياتنا بالعمل الصالح وارضى عنا ، يا أرحم الراحمين .

ونرى أن هذا الحديث الشريف الذي جاء في الصحيحين هو من معجزاته ﷺ حيث يكون برهاناً صادقاً قوياً عن نشأة أصل الإنسان لدى قوم من الإفرنج يظهرون بعد أربعة عشر قرناً يعتقدون أن أصلهم من القرود ، فهؤلاء يستحقون أن يمسخوا قردة.

ولا شك أن المؤمن المسلم بعد أن قرأ قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ وقرأ الحديث الشريف المتقدم الذي في الصحيحين ، لا يرى رأي الإفرنج ، ولا يرضى أن ينسب أصله إلى الحيوان والبهائم .

(الثاني) نفهم من هذا الحديث أن طول آدم ستون ذراعاً ، بذراعنا نحن لا بذراع نفسه ، فإن بعضهم يظن أن المراد بالذراع المذكور في الحديث ذراع نفس آدم عليه السلام .

والذي يؤيد قولنا ، هو أن المراد من الحديث بيان خلقة آدم ومقدار طوله ، فإذا فرضنا قياس طوله بذراع نفس آدم عليه السلام ، فإن الغموض لم يزل حاصلاً والطول لم يزل مبهماً ، فإنا لا نعلم مقدار قياس ذراعه ، فلو فرضنا أن قياس ذراعه ألف متر أو أكثر أو أقل فكم يكون طوله وإلى أي حد يصل؟ أما لو قلنا أن المراد بالذراع هو ذراعنا المتعارف فقد انتهى الإشكال وظهر حد طوله لكل إنسان . والمقام في الحديث مقام شرح وبيان .

(والثالث) نفهم من قوله ﷺ: « فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن » أنه صريح في أن الإنسان والحيوان أيضاً "أي كل ذي روح" كان في قديم الزمان من لدن آدم عليه السلام ، أضخم أجساداً بأضعاف أضعاف أضعاف ما نحن عليه والحيوانات في زماننا ، وأن هذه الضخامة والعظم نقصت بمرور الزمن شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى ما نحن عليه ، بل كذلك كان حجم الحبوب والثمار ، كما تدل على ذلك الهياكل الضخمة التي يعثر عليها الباحثون عن الآثار في طيات الأرض وثنايا الصخور للحيوانات التي كانت وانقرضت .

وفي شرح الجامع الصغير ما يأتي :

ذكر المقريزي أن بعض الثقات أخبره ، أنه سار في بلاد الصعيد على حائط العجوز ومعه رفقة فاقتلع أحدهم منها لبنة فإذا هي كبيرة جداً ، فسقطت فانفلقت عن حبة فول في غاية الكبر وكسروها فوجدوها سالمة من السوس ، كأنها كما حصدت ، فأكل كل منهم قطعة وكأنها ادخرت لهم من زمن فرعون ، فإن حائط العجوز بنيت عقب غرقه ، فلن تموت نفس حتى تستوفى رزقها . انتهى.

ونعتقد أنه انتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة المحمدية المرحومة ، واستقر الأمر على ذلك فلا ينقص بني آدم عما نحن عليه ، لأننا نحن في آخر الزمان فإن نبينا محمداً ﷺ وهو خاتم الأنبياء وقد بعث مع الساعة كما جاء في الصحيحين وغيرهما « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى» وإن شاء الله تعالى سيأتي الكلام على قياس قدم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في آخر مبحث مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام فراجعه إن شئت .

ولا يخفى أن آخر الزمان ليس كأوله . نسأل الله أن يختم حياتنا بالإيمان الكامل والعمل الصالح ، وأن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن . آمين .

قبر أمنا حواء بجدة

وبمناسبة ذكرنا طول أبينا آدم عليه الصلاة والسلام نذكر أيضاً قبر حواء بجدة فنقول:

اشتهر لدى الناس أن قبر أمنا حواء بجدة في الجبانة المعروفة، وكانت عليه قبة مشيدة من قديم الزمان، واشتهار قبرها لا يستند إلى دليل شرعي قاطع، ولا إلى تاريخ صحيح ثابت، ونحن نعتقد أن هذا كذب اختلقه المرتزقة منذ قرون مضت فرسخ ذلك في أذهان العامة. وسنتكلم عليه بما يشفي الغليل إن شاء الله تعالى.

قال البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» عن قبر أمنا حواء ما نصه:

أما مدافن المسلمين فإنها في جهة جدة الشرقية على مسافة نحو كيلو متر من بابها الشرقي الذي يسمونه « باب مكة » وعليها سور يفتح بابه للغرب ترى في مدخله، زمن الحج، كثيراً من الشحاذين صغاراً وكباراً من الأعراب والأغراب، فإذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع متر وفي عرض نحو ثلاثة أمتار، وهو ما يسمونه قبر أمنا حواء، وهو أشبه شيء بقناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر، وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها وفي كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم. وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار وفي وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين، وعند نهايتي القبر ترى أناساً متطوعين لإرشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال، وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها إلى الغرب، وفيها شباكان يشرفان على جهتي القبر، وفي وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة، فتحه لنا خادم المقصورة قائلاً: هذا مكان الصرة الشريفة، فنظرت فوجدت فيه حجراً من الصوان يبلغ طوله نحو متر، محفوراً من وسطه.

ثم قال البتنوني بعد صحيفة واحدة: ولا يبعد أن قبر حواء كان من الهياكل المقدسة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ومحا أثر الشرك من هذه البلاد، ودالت به دولة الوثنية، وهدمت هياكلها التي كان من ضمنها بالطبع هذا الهيكل، بقي أثره

في نفوس القوم براً بحق الأمومة ، وأقاموا له قبة (لا ندري متى كان تشييدها) لتكون مزاراً للناس كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة في رحلته المشهور في القرن السابع للهجرة ولم يذكرشيئاً عن القبر . ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ، ما ذكره ابن جبير في رحلته التي قام بها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله : « وبها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلاً لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة ، فبني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله والله تعالى أعلم » انتهى من الرحلة الحجازية .

ورأينا في قبر أمنا حواء بجدة ، والله تعالى أعلم بالغيب : أن وجود هذا القبر وبناء القبة عليه حادث لا محالة ، وأنه كذب مفتعل احتال على عمله بعض الدجالين المرتزقة لجمع الصدقات من الجهلة الذين تجوز عليهم الخرافات ، وبمرور الزمن الطويل على ذلك ولعدم إجراء تحقيق عليه ، صار عامة الناس يعتقدون أن في هذا القبر دفنت أمنا حواء .

ونستدل على هذا بأنه لما اشتكى الناس إلى عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه، الشدة التي يعانونها في ميناء الشعيبة ما فيها من الشعاب ، وطلبوا منه نقل هذا الميناء إلى جدة ، ذهب رضي الله عنه ، في جمع من الصحابة لمعاينة مكان جدة فوجده أحسن من الشعيبة ، فأمر بجعله ثغراً لمكة وسموه « جدة » حيث لم تكن معروفة بهذا الاسم من قبل . ولم ينقل عنه ولا عن أحد من الصحابة عن معرفتهم لقبر حواء بجدة وعثورهم عليه ، فلو كان قبرها الطويل العريض معروفاً لديهم لنقله التاريخ عنهم .

نعم ! ذكر بعضهم أن إبليس هبط بأيلة وهبطت حواء بجدة وهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود ، وهو بأعلى الهند نحو الصين ، جبل عال يراه البحريون من مسافة أيام ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام ، مغموسة في الحجر . وهذا الكلام الله أعلم بصحته .

وهل كانت جدة معروفة في تلك الأيام؟ كلا ، فجدة لم تسكن إلا في زمن عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه ، فهو الذي جعلها ميناء بدلاً عن الشعيبة كما هو معروف .

ثم إن ما بين هبوط آدم وحواء عليهما السلام، وبين زماننا هذا، لا ندري كم مضى من السنين وأن ما يقوله بعضهم بأن عمر الأرض مائة مليون سنة أو ألف مليون سنة أو أكثر أو أقل مردود غير مقبول لا يقبله عاقل ولا يصدقه باحث محقق، إذ لا يستند إلى دليل قوي من كتاب أو سنة، فما هو إلا رجم بالغيب وتخمينات وهمية وتخيلات ظلالية نشأت من انعكافهم على دراسة الآثار القديمة وقياسات بعض الأشياء على بعض. قال بعض علماء الشناقطة:

وكل ما ورد مما حدا ... لهذه الدنيا يرد ردا

إذ لم يرد حد عن المعصوم ... في خبر بسند قويم

فلا يَعلم كل ذلك إلا الخلاق العظيم الذي بيده ملكوت السموات والأرض فهو جل جلاله يعلم وحده مبدأ الكائنات ويعلم منتهاها. فعليه من الذي أخبرنا بأن قبر حواء في ذلك الموضع بجدة وعلى أي دليل يستند، ثم أليس الطوفان الذي عم الدنيا مسح عن الأرض كل أثر وغير كثيراً من الأمور عن مواقعها وأمكنتها، فلم يبق على وجه الأرض من يتنفس إلا من كان في سفينة نوح، عليه الصلاة والسلام فلا يمكن أن نصدق مثل هذه الأمور إلا إذا ورد شيء عن الصادق المعصوم ﷺ.

أمر الكعبة بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام

قال الإمام الأزرقي في تاريخه ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن ابن جريج عن مجاهد أنه قال: كان موضع الكعبة قد خفي ودَرَس في زمن الغرق بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال: وكان موضعه أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب فقلّ من دعا هنالك إلا استجيب له. وكان الناس يحجون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه فلم يزل منذ أهبط الله آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل، أمة بعد أمة وملة بعد ملة قال: وقد كانت الملائكة تحجه قبل آدم عليه السلام. انتهى من الأزرقي.

ولقد ذكر بعض المؤرخين : أن بين وفاة آدم وولادة نوح (١٢٦) سنة ، وأن بين ولادة نوح وولادة إبراهيم (٨٩٠) سنة ، فتكون ولادة إبراهيم قبل موت نوح بستين سنة وأن عمر نوح (٩٥٠) سنة ، وكان الطوفان في السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح كما في التوراة ، وأن إبراهيم اختتن وعمره (٩٩) سنة مع إسماعيل وعمره (١٣) سنة ، وأن بناء إبراهيم للكعبة كان حينما بلغ إسماعيل من العمر عشرين سنة وقيل أكثر.

فيكون ما بين الطوفان وبين ولادة إبراهيم (٢٩٠) سنة ، وما بين الطوفان وبين بناء إبراهيم الكعبة (٤٠٠) سنة تقريباً هذا إذاً فرضنا أن إبراهيم بنى الكعبة وعمره مائة وعشرة سنوات . والله تعالى أعلم .

وجاء في شرح كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» بصحيفة ١٥٨ من الجزء الثاني ما نصه :

قال ابن هشام : لم يكن بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، إلا هود وصالح عليهما السلام ، وكان بين إبراهيم وهود ستمائة سنة وثلاثون سنة ، وبين نوح وإبراهيم ألف ومائة وثلاثة وأربعون سنة . وقال الثعالبي : وكان بين مولد إبراهيم وبين الطوفان ألف سنة ومائتا سنة وثلاث وستون سنة ، وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة سنة وسبع وثلاثين ، وكان مولد إبراهيم في زمن نمرود بن كنعان لعنه الله تعالى ولكن اختلفوا في أي مكان ولد فقيل : ببابل من أرض السواد مدينة نمرود قاله ابن عباس ، وعن مجاهد بكوثى محلة بكوفة وعن عكرمة بالسوس وعند السدي بين البصرة والكوفة وعن الربيع بن أنس بكسكر ثم نقله أبوه إلى كوثى وعن وهب بحران والصحيح الأول ، وقال محمد بن سعد في الطبقات كنية إبراهيم أبو الأضياف وقد سماه الله تعالى بأسماء كثيرة منها : الأواه والحليم والمنيب قال الله تعالى : ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ ومنها الحنيف وهو المائل إلى الدين الحق ومنها القانت والشاكر إلى غير ذلك ، قلت هذه أوصاف له في الحقيقة ، ومات إبراهيم وعمره هو ابن مائتي سنة وهو الأصح ويقال مائة وخمس وسبعون سنة قاله الكلبي وقال مقاتل : مائة وتسعون سنة (ودفن بالمغارة التي في حبرون) وهي الآن تسمى بمدينة الخليل . انتهى من كتاب زاد المسلم المذكور .

نبذة عن ترجمة إبراهيم خليل الله

عليه الصلاة والسلام

بمناسبة تأليفنا هذا الكتاب الذي يبحث عن تاريخ مكة « بلد الله الأمين » وعن بناء الكعبة « بيت الله المطهر » صار من اللازم أن نذكر في الأول ترجمة مكتشف مكة والباني الأول لبيت الله الكريم ، أبي الأنبياء سيدنا « إبراهيم الخليل » عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فنقول وبالله التوفيق :

لا ندري ماذا نقول في ترجمة خليل الله المقرب ، ونبيه الكريم المفضل ، مكتشف مكة ومعمرها ، وباني الكعبة ومطهرها ، ماذا نقول ومقام الأنبياء لا يحيط به أمثالنا ، مذا نقول فيمن قال الله تعالى في حقه .. ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ وقال في حقه : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ وقال في حقه .. ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ وقال في حقه : ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وقال في حقه : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ۞ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۞ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقال في حقه : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ۞ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ وقال في حقه : ﴿وإن من شيعته لإبراهيم ۞ إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ وقال في حقه : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ وقال في حقه : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ وقال في حقه : ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ وقال في حقه : ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ إلى غير ذلك من فضائله التي لا يمكن حصرها .

وهنا نتشرف بذكر نبذة من ترجمته العالية المباركة من حيث ولادته، ووفاته وهجرته وما وقع له من الأمور التي هي عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تفكر وتدبر، فنقول وبالله التوفيق:

فضل إبراهيم الخليل على الأمة المحمدية

إن فضل إبراهيم الخليل وإحسانه، عليه الصلاة والسلام، واضح كالشمس على العرب والأمة المحمدية وبالأخص على أهل مكة وفقهم الله للخيرات.

فأما فضله على العرب والأمة المحمدية، فدعاؤه لهم بالهداية والتوفيق كما جاء ذلك في القرآن الكريم ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ وفي آية أخرى: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

وأما الفضل الخاص على أهل مكة: فإنه أول من اكتشفها ونزل بها وعمرها، وأسكن فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر، اللذين بسببهما ظهر ماء زمزم، وعلى يدي إبراهيم وإسماعيل بنيت الكعبة المعظمة، وأن إبراهيم ترك لديهم مقامه الكريم المحترم، وحرّم مكة وصيّرها مأمناً، ودعا لأهلها، وهو الذي أذّن في الناس بالحج ودعاهم إليه، فصاروا يقصدون مكة في أيام معلومات من كل فج عميق، وبذلك اتسعت عمرانها وكثرت أرزاقها وخيراتها، كما أتى كل ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

ففي سورة البقرة: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

ولقد استجاب الله تعالى منه جميع دعائه بفضله ورحمته، فجزاه الله عنا ما هو أهله.

نسب إبراهيم عليه السلام وموطنه

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه : إبراهيم عليه السلام هو ابن تسارخ بن ناحور بن ساروع بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وقيل : اسم أبيه تارخ بالخاء المعجمة وبالحاء المهملة أيضاً ، قال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم ، قال ابن كثير : وهذا الذي قاله محتمل . والله تعالى أعلم .

ويكنى إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان ، قيل إنه وُلد بغوطة دمشق في قرية يقال لها : برزة ، في جبل يقال له : قاسيون ، والصحيح أنه ولد ببابل في أرض الكلدانيين ، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً لابن أخيه لوط عليه السلام .

وبعد أن تزوج إبراهيم سارة ، بتخفيف الراء وقيل بتشديدها خرج بها من أرض بابل مع ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، قاصدين أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، وتسمى بلاد التيمن فأقاموا بحران من أرض الشام ، وكانوا يعبدون الأصنام والكواكب السبعة وكل من على وجه الأرض ، كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل عليه السلام وامرأته سارة وابن أخيه لوط عليه السلام .

ثم إنه حصل عندهم قحط وشدة فارتحلوا إلى مصر ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل له : إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: إنها أختي ، قال: فأرسل بها قال: فأرسل بها إليه ، وقال لها: لا تكذبي . قولي إنك أختي فإني قد أخبرته بذلك ، وإنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإنك أختي ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: (اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر) . قال: فغط حتى ركض برجله ، فقال لها: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت له فأرسل (ومعنى غط تردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله أي أصابه شبه الصرع) ثم قام إليها أيضاً فأُخذ مثلها أو أشد منها ، فأُرسل ثلاث مرات ، ثم دعا أدنى حشمه فقال: ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها «هاجر» فرجعت إلى إبراهيم وقالت له: كفاني الله كيد الظالم ، وأخذ مني هاجر

هدية وقد كان وقت ذاك إبراهيم عليه الصلاة والسلام يصلي لله ويدعو أن يحفظ أهله من هذا الملك الفاجر الجبار ، فعصمها الله منه ، وكُشف الحجاب عن إبراهيم فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه ، وقصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه وزوجته سارة مع ذلك الجبار مذكورة في الصحيحين ، فمسلم ذكرها في كتاب الفضائل والبخاري ذكرها في كتاب « بدء الخلق » وفي كتاب النكاح ، وفي الهبة والإكراه ، وفي كتاب البيوع في باب شراء المملوك . وإلى هذا يشير صاحب نظم عمود النسب بقوله :

ومر في فراره على الذي ... غصب سارة ولم تستنقذ
إلا بشل يده وصرعه ... وعصمت سارة من طَبَعه
ومن وراء الحجب الخليل ... عاين أن عصمها الجليل
وأتحف الملك زوجة الخليل ... بهاجر وأتحفت بها الخليل

والطبع بفتح الباء الدنس قاله في المصباح المنير ، وناظم عمود النسب هو العلامة الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي المتوفى سنة (١٢٢٠) هجرية تقريباً .

ثم إن إبراهيم عليه السلام رجع إلى الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال كثير ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ، وكانت زوجته سارة عاقراً لا يولد لها ، فقالت لإبراهيم: إن الله قد أحرمني الولد فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقنا منها ولداً ، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحملت منه ، ثم وضعت إسماعيل عليه السلام ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، وذلك قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة فخر لله ساجداً .

ولما ولدت هاجر إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من إبراهيم أن يغيبها عنها ، فذهب بها وبولدها إسماعيل وهو رضيع إلى مكة المشرفة ، كما أمره الله تعالى كما سيأتي بيانه ، ولقد ابتلي إبراهيم صلوات الله وسلامه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين بثلاث مصائب كل واحدة أكبر من أختها .

(الأولى) أراد ذلك الجبار الكافر اغتصاب زوجته سارة فعصمها الله تعالى منه ، فرجعت إليه طاهرة نقية منصورة إكراماً له عليه السلام ، فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر .

(الثانية) أمره الله عز وجل بذبح ولده فاستسلم لأمر الله هو وابنه فحين أضجعه كما تضجع الذبائح وأَمَرّ السكين على حلقه لم تقطع شيئاً ، فعند ذلك فداه الله تعالى برحمته بكبش أبيض أعين أقرن . قد رعى في الجنة أربعين خريفاً هبط عليه من ثبير، وله ثغاء، فذبحه بمنى ، فهذا هو البلاء المبين ، وقد ورد ذلك صريحاً في القرآن الكريم ، والثغاء : صوت الشاة والمعز وما شاكلها ، والثاغية : الشاة ، والراغية : البعير ، قاله في مختار الصحاح ، وثبير جبل بين مكة ومنى ، ويرى من منى، وهو على يمين الداخل منها إلى مكة ، قاله في المصباح المنير .

(الثالثة) إلقاؤه في النار بسبب مناظرته لأهل بابل الذين كانوا يعبدون الأصنام، وقد كانت مناظرة عقلية مفحمة انتصر بها عليهم حتى رجعوا إلى أنفسهم وقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم انقلبوا فقالوا إن وجدنا آباءنا لها عابدين ، ثم أجمعوا على إحراقه بالنار ، فرموه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً لم يمسسه سوء ، بل كان على أحسن حال مدة إقامته فيها ، والقصة مذكورة في القرآن العظيم .

وكذلك وقع لإبراهيم عليه السلام ، كثير من الأمور العظيمة المدهشة منها :

(١) مناظرته مع نمرود المذكورة في القرآن حيث يقول الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت...﴾ الآية .

(٢) طلبه من الله تعالى ، أن يريه كيف يحيي الموتى كما هو صريح في قوله تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير ...﴾ الآية .

(٣) أنه أول من عمر مكة وأسكن فيها من ذريته وبنى بها الكعبة المعظمة ، قال الله عز شأنه: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ...﴾ الخ . وسيأتي تفصيل بنائه لبيت الله الحرام.

توفي إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، عن مائة وخمس وسبعين سنة ، وقيل وتسعين سنة ، وقيل عاش مائتي سنة ، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق ، عليهما الصلاة والسلام ، ودفن عند امرأته سارة وكانت توفيت قبله بقرية (حبرون) بفتح

الحاء المهملة ثم موحدة ساكنة ، وهي البلدة المعروفة بالخليل اليوم ، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة ، فحزن عليها إبراهيم واشترى من رجل من بني حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك . فيكون قبره وقبر زوجته سارة وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود ، عليهما السلام ، ببلدة (حبرون) المذكورة من غير خلاف ، فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن المعصوم ، فينبغي أن تراعى تلك المحلة ، وأن تحترم احترام مثلها ، وأن تبجل وأن تجل عن أن يداس في أرجائها ، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تحتها . انتهى جميع ما ذكر من تاريخ ابن كثير ، رحمه الله ، باختصار وزيادة يسيرة .

وابن كثير هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة سبعمائة وأربع وسبعين هجرية ، كان محدثاً متقناً وفقيهاً بارعاً، وله جملة تصانيف منها تفسيره المعتبر ، وتاريخه المحرر ، وهما شهيران ومطبوعان .

قيل : إن يوسف بن يعقوب مدفون معهم أيضاً ، وقد جزم كثير من العلماء المحققين أن قبورهم في داخل الدائر الذي بناه عليهم سليمان بن داود في الغار الذي في وسط مسجد الخليل الآن ، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، أما قبر إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، فسيأتي أنه دفن بالحجر بمكة .

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يشبه نبينا محمداً ﷺ كما ورد ذلك صريحاً في بعض الأحاديث المذكورة في صحيح مسلم ، فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ، رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب رجل كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد إبراهيم به، ثم أتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر ، فقال : اشرب أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربته ، فقيل : أخذت الفطرة ، أما أنك لو أخذت الخمر غوت أمتك » .

وإن إبراهيم عليه السلام ، أول من أضاف الضيف وأول من رأى الشيب وأول من قص شاربه وأول من اختتن وأول من استحد وأول من لبس السراويل .

قال ابن عباس ، رضي ا لله عنهما : الإسلام ثلاثون سهماً وما ابتلي أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم . قال تعالى : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ فكتب ا لله له براءة من النار ، وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ قال : ابتلاه ا لله عز وجل بالطهارة ، خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس . وفي الجسد : تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . اهـ من تاريخ الطبري .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام هو جد غالب الأنبياء والمرسلين ، قال ابن كثير في تاريخه : فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من ا لله تعالى وكرامة له . اهـ .

قال بعض العلماء : إن عدد الأنبياء الذين ليسوا من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثمانية ذكرهم شيخنا العلامة المحدث الشهير محمد حبيب ا لله الشنقيطي ، رحمه ا لله تعالى ، في قصيدته التي مدح بها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث يقول:

هو قدس بغير شك لقدس   هو جد لجل رسل الجليل
لم يحد عنه غير رسل كرام   لم يكونوا من نسله عن دليل
هو أبو الخلق آدم ثم شيث   ثم إدريس ذو المكان الجميل
ثم نوح الذي أجيب سريعاً   إذ دعا ا لله بعد صبر طويل
ثم هود فيونس ثم لوط   صالح ثامن لرسل الوكيل
وسواهم من أنبياء كرام   هم بنوه أولو الثناء الأصيل

ولقد جمعهم أيضاً صاحب نظم عمود النسب في قوله :

وحاد عنه آدم شيث الوصي   إدريس نوح هود يونس يصي
لوط وصالح فهم ثمان   حادوا عن الخليل واستبانوا

قوله: يصي أي : يصل ، وقيل : إن يونس من ذريته ، عليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام . وا لله تعالى أعلم بالغيب .

تقدم أن ذكرنا نسب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، وموطنه وارتحاله إلى مصر، ثم رجوعه إلى الأرض المقدسة وما حصل له من الابتلاء، كما ذكرنا بعض صفاته الكريمة، وأنه عليه الصلاة والسلام جد غالب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والآن نذكر هنا ما اطلعنا عليه في كتاب «إبراهيم الخليل أبو الأنبياء» للأستاذ محمد حسني عبد الحميد، فيما يتعلق بالصحف التي أنزلت إليه، وبمدفنه والمغارة التي هو وبعض الأنبياء فيها.

فقد جاء في الكتاب المذكور عند صحف إبراهيم بصحيفة ١٥٢ وما بعدها ما نصه:

كانت صحف إبراهيم أمثالاً ولم نعثر مع الأسف الشديد في المراجع التي اطلعنا عليها والمؤلفات التي رجعنا إليها واقتبسنا منها على هذه الأمثال كلها وكم كنا نود أن نقرأ ويقرأ الناس صحف إبراهيم لكن شاء الله أن تختفي تلك الصحف عن الأنظار لتقادم العهد وأن تصبح في غير متناول الأيدي.

روى الثعلبي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ، يا رسول الله كم من كتاب أنزل الله عز وجل: قال رسول الله ﷺ: أنزل الله تعالى مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله تعالى على آدم، عليه السلام، عشر صحائف، وعلى إبراهيم الخليل عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وأنزل الله تعالى عليّ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان قال قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالاً.

ولم يرو الرواة هذه من الصحف غير مثالين فقط من تلك الأمثال وما أظن مؤرخاً أو راوياً جاء بالأمثال كلها وفيما يلي نص المثالين:

(١) أيها الملك المغرور المبتلى إني لم أبعثك لتجمع بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لتنصر دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر.

(٢) على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه ويتفكر في صنع الله، وساعة يحاسب نفسه فيما قدم وأخر، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال لا من الحرام في المطعوم والمشروب وغيرهما،

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه ، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : دخلت المسجد فقال رسول الله ﷺ: إن للمسجد تحية . فقلت : وما تحيته يا رسول الله؟ قال : ركعتان تركعهما . قلت : يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال : يا أبا ذر اقرأ : ﴿قد أفلح من تزكى ۞ وذكر اسم ربه فصلى ۞ بل تؤثرون الحياة الدنيا ۞ والآخرة خير وأبقى ۞ إن هذا لفي الصحف الأولى ۞ صحف إبراهيم وموسى﴾ قال: كانت عبراً كلها :

(عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل) .

وبعد ، فمما لا ريب أن صحف إبراهيم ثروة تاريخية لم يوفق للعثور عليها المؤرخون ولو أنهم وفقوا لمعرفتها كلها لسدوا نفصاً ظاهراً يثمر به المتعمق في الدراسات التاريخية الإسلامية القديمة .

وجاء فيه أيضاً من صحيفة ١٦٥ إلى صحيفة ١٧١ عند الحرم الخليلي ومدينة الخليل ما نصه :

وقد سميت مدينة الخليل حبرون قبل أن يضع عليها شرف اسمها الكريم "الخليل" ويكاد أن ينعقد الإجماع على أن سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ ثاو تحت ثراها في الحرم الخليلي بمكان تحته .

الحرم اسمه المغارة وبهذه المغارة يرقد إسحاق ويعقوب ، عليهما السلام ، وسارة رضي الله عنهم . عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : أول من مات ودفن في حبرون سارة وذلك أنها لما ماتت خرج الخليل عليه الصلاة والسلام ، يطلب موضعاً ليدفنها فيه ورجا أن يكون موضعاً بقرب حبرى فمضى إلى عفرون ، وكان مالك الموضع وكان مسكنه حبرى ، فقال له إبراهيم : بعني موضعاً أقبر فيه من مات من أهلي ، فقال المالك قد أبحتك ، فادفن موتاك حيث شئت من أرضي ، فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : إني لا أحب ذلك إلا بالثمن ، فقال له : أيها الشيخ الصالح ادفن حيث شئت فأبى عليه وطلب منه المغارة فقال له : أبيعكها بأربعة آلاف درهم كل درهم وزن خمسة دراهم وكل

مائة درهم ضرب ملك ، وأراد بذلك التشديد عليه كيلا يجد شيئاً من ذلك فيرجع إلى قوله . فخرج إبراهيم الخليل من عنده فإذا جبريل عليه السلام واقفاً ، فقال لـه : يا إبراهيم إن الله سمع مقالة المـالك لـك ، وهـذه الدراهـم ادفعهـا إليـه فإنهـا كمـا طلب، فأخذ إبراهيم ﷺ الدراهم فدفعها إلى مالك الأرض فقال له : من عند مـن؟ قال: من عند إلهـي وخـالقي ورازقـي ، فأخذهـا منـه وحمـل إبراهيـم عليـه الصـلاة والسلام ، سارة ودفنها في المغارة ، فكانت أول مـن دفـن فيهـا وتوفيـت ولهـا مـن العمر مائة وسبعة عشر سنة ، وقيل : مائة وسبع وعشرون سنة .

ثم توفي الخليل عليه الصـلاة والسـلام ودفـن بإزائهـا مـن جهـة الغـرب ، ولـما توفيت رفقة رضي الله عنها ، زوجة إسحاق عليه السلام ، دفنت تجـاه سـارة مـن جهة المحراب ، ولما توفي إسحاق عليه السلام ، دفن تجاه زوجته من جهـة الغـرب ، ثم توفي يعقوب عليه السلام ، فدفن عند باب المغـارة ، وهـو إزاء قـبر الخليـل عليـه الصلاة والسلام، من جهة الشمال ، ثم توفيت لائقة زوجة يعقوب فدفنـت بإزائـه من جهة الشرق ، ثم اجتمع أولاد يعقوب عليه السلام ، وقالوا : ندع باب المغـارة مفتوحاً ، وكل من مات منا دفناه فيها ، ثم أقـاموا حـول المغـارة سـورًا ، وأنشـأوا علامات القبور في كل موضع وكتبـوا علـى كـل قـبر اسـم صاحبـه وخرجـوا مـن المغارة ، وطبقوا الباب إلى أن جاء الروم فبنوا هناك كنيسة ما لبث المسـلمون حتـى هدموها .

حدث محمد بن بكران بن محمد خطيب مسجد الخليل ، عليه الصلاة والسلام يقول : خرجت مع القاضي أبي عمر وعثمان بن جعفر بن شـاذان إلى قـبر الخليـل عليه السلام ، فأقمنا به ثلاثة أيام فلما كنا في اليوم الرابع جاء إلى النقش المقابل لقبر رفقة زوجة إسحاق عليه السلام ، فأمر بغسله حتى ظهرت كتابته وتقـدم إلي بـأن أنقل ما هو مكتوب في الحجر فنقلته ورجعنا الى الحرملة فـأحضر أهـل كـل لسـان ليقرؤوه عليه فلم يمكن أحداً أن يقرأه ، ولكنهم أجمعوا على أن هذا باللغـة اليونانيـة القديمة ، فإنهم لا يعلمون أنه لقي أحدًا يقـرؤه غـير شيـخ كبـير بحلـب فعمـدوا إلى إحضاره ، فلما حضر عنده أحضرني فاذا شيخ كبير فأملى على الشيخ المحضـر مـن حلب ما نقلته في الدرج على التمثيل ، أوله: بسم إلهـي إلـه العـرش القـاهر الهـادي الشديد البطش العليم الذي لا يحد ، هذا قبر إبراهيم الخليل ﷺ والعلم الذي بحذائـه من جهة الشرق قبر زوجته سارة ، والعلم الأقصى الموازي لقبر إبراهيم الخليـل قـبر

يعقوب ، والعلم الذي يليه من الشرق قبر إليا زوجته صلوات ا لله عليهم أجمعين .
اهـ .

ولقد أسعدني ا لله بزيارة الرجل الوقور صاحب السماحة الشيخ يوسف طهبوب، عضو المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين ، وتحدثنا عن الخليل وبركاته ، فروى لي الشيخ قصة هزت وحركت مشاعري ، فقد صور الشيخ لي فيها سيدنا إبراهيم في لحيته البيضاء العظيمة المرسلة نائماً على مقعد مرتفع ونسيم المغارة المتشرفة بجسده الطاهر يلاعب لحيته ويحركها تحريكاً لطيفاً ، ولقد تصورت هذا المشهد وظل ماثلاً في خاطري حتى رأيت هذه الصورة في القول الآتي الذي دونه قاضي القضاة أبو اليمن محيي الدين الحنبلي في كتابه « الأنس الجليل » كما رواه بعض الرواة في كتب أخرى قال : قال الحافظ ابن عساكر : قرأت في كتب أصحاب الحديث ونقلت منها . قال محمد بن بكران بن محمد خطيب مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام : وكان قاضياً بالرملة في أيام الراضي با لله في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وما بعدها وله رواية في الحديث سمع من جماعة وحدث عن جماعة من أهل العلم . قال : سمعت محمد بن أحمد بن علي بن جعفر الأنباري يقول: سمعت أبا بكر الإسكافي يقول صح عندي أن قبر إبراهيم عليه السلام ، في الموضع الذي هو الآن فيه ، ولما رأيت وعاينت ذلك أنني وقفتُ على السدنة وعلى الموضع أوقافا كثيرة تقرب من نحو أربعة الآف دينار رجاء ثواب ا لله عز وجل وطلبت أن أعلم صحة ذلك حتى ملكت قلوبهم بما كنت عملت معهم من الجميل والكرامة والملاطفة والإحسان إليهم وأطلب بذلك أن أصل إلى ما يصح ، وجال في صدري ، فقلت لهم يوماً من الأيام وقد جمعتهم عندي : أسألكم أن توصلوني إلى باب المغارة كي أنزل إلى حضرة الأنبياء صلوات ا لله عليهم وأشاهدهم . فقالوا : قد أجبناك إلى ذلك ، لأن لك علينا حقًا واجبًا ، ولكن لا يمكن في هذا الوقت لأن الطارق علينا كثير ولكن حتى يدخل الشتاء ، فلما دخل كانون الثاني خرجت إليهم ، فقالوا أقم عندنا حتى يقع الثلج ، فأقمت عندهم حتى وقع الثلج وانقطع الطارق عنهم ، فجاؤوا إلى صخرة ما بين قبر إبراهيم الخليل وقبر إسحاق عليهما السلام ، وقلعوا البلاطة ونزل رجل منهم يسمى (صعلوك) وكان رجلاً صالحًا ، فيه خير ولين ، فنزلت أنا معه ، فمشى وأنا من ورائه ، فنزلنا اثنتين وسبعين درجة ، فإذا عن يمين أريكة عظيمة من حجر أسود ، وإذا عليها شبح خفيف العارض طويل اللحية ملقى على ظهره ، وعليه ثوب

أخضر ، فقال لي صعلوك : هذا إسحاق عليه السلام ، ثم سرنا غير بعيد ، وإذا بأريكة أكبر من الأولى ، وعليها شبح ملقى على ظهره وله شيبة ، قد أخذت ما بين منكبيه أبيض الرأس واللحية والحاجبين وأشفار العينين وتحت شيبته ثوب أخضر قد حلل بدنه ، والرياح تلعب بشيبته الجليلة يميناً وشمالاً ، فقال لي صعلوك : هذا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فسقطت على وجهي ، ودعوت الله عز وجل ، لما فتح علي وأقمت من مكاني ، ثم سرنا وإذا بأريكة لطيفة وعليها شبح لطيف آدم شديد الأدمة كث اللحية ، وتحت منكبيه ثوب أخضر قد جلله فقال لي صعلوك : هذا يعقوب النبي ، ثم إننا عدلنا يساراً لننظر إلى الحرم ، فحلف أبو بكر الإسكافي ، ما إن أتممت الحديث ، قال: فقمت من عنده في الوقت الذي حدثني فيه من وقتي إلى مسجد إبراهيم عليه السلام ، فلما وصلت إلى المسجد سألت عن صعلوك ، فقيل لي إنه الساعة يحضر ، فلما جاء قمت إليه وجلست عنده وطارحته بعض الحديث ، فنظر إلي بعين منكرة للحديث الذي سمعه ، فأومأت إليه بلطف تخلصت به من الإثم ، ثم قلت له : إن أبا بكر الإسكافي عمي فأنس عند ذلك فقلت : يا صعلوك بالله عليك لما عدلتما نحو الحرم ماذا كان ، ما الذي رأيتما ؟ فقال: ما حدثك أبو بكر ، فقلت : أريد أن أسمع منك أيضاً ، فقال : سمعنا من نحو الحرم صائحاً يصيح وهو يقول : تجنبوا الحرم رحمكم الله ، فوقعنا مغشياً علينا ، ثم أفقنا وقد يئسنا من الحياة وأيست الجماعة منا . قال : فقال لي الشيخ: وعاش أبو بكر الإسكافي بعدما حدثني زمناً يسيراً ، ومات وكذلك صعلوك رحمهما الله . اهـ .

وهذه الرواية يعرفها كل خليلي من سكان تلك المدينة التي شرفها الله بالحرم الخليلي وقد قصها علي أيضاً المرحوم الشيخ عبدالله طهبوب مفتي الخليل ، وقد ذهب معي سماحته إلى المكان الذي يقع فيه باب المغارة لمشاهدته ، وقال لي : إنه على إثر حادث صعلوك هذا عمد القائمون على أوقاف الخليل إلى مد باب المغارة بالبناء حتى لا يجسر أحد على النزول إليها .

ونميل إلى تصديق هذه الرواية بعد أن قص علينا علماء فلسطين الكثير عن حوادث مثلها جرت لزائرين معاصرين لا أرى بي حاجة إلى ذكرها هنا ، لأن كل ما يروى عن تكريم الله سبحانه لخليله إبراهيم في حياته وبعد مماته لا يستغرب ، فليس يستغرب أن يرى المتشرفون بزيارة المغارة جسد أبي الأنبياء على أريكة

عظمية ، وأن لحيته البيضاء مرسلة يلاعبها النسيم وأن يروا جثمانه الطاهر ووجهه الطلق الشريف ، فإن أجسام الأنبياء لا تبلى كما هو معروف .

روى الحسن بن عبدالواحد بن عبدالرزاق قال : قدم أبو زرعة القاضي بفلسطين إلى مسجد إبراهيم عليه السلام ، فجئت لأسلم عليه ، وقد قعد عند قبر سارة في وقت الصلاة ، فدخل شيخ فدعاه ، فقال له : يا شيخ أيما هو قبر إبراهيم بين هؤلاء؟ فأومأ الشيخ بيده إلى قبر إبراهيم عليه السلام ، ثم مضى الشيخ وجاء شاب فدعاه وقال له مثل ذلك ، فأشار إلى قبر إبراهيم عليه السلام ومضى ، ثم جاء صبي فدعاه وقال له مثل ذلك ، فأشار إلى قبر إبراهيم عليه السلام ، فقال أبو زرعة : أشهد أن هذا قبر الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولا شك فيه ولا خفاء ، نقله الخلف عن السلف كما قال مالك بن أنس رضي الله عنه ، أن نقل الخلف عن السلف أصح الحديث ، لأن الحديث ربما يقع فيه الخطأ ، والنقل لا يقع فيه الخطأ ، ولا يطعن فيه إلا صاحب بدعة ومخالف ، ثم قام ودخل إلى المقام فصلى الظهر ثم رحل من الغد .

وقال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي في كتاب البدائع في تفصيل مملكة الإسلام : حبرى هي قرية إبراهيم الخليل عليه السلام ، فيها حصن عظيم يقولون إنه من بناء الجن من حجارة منقوشة ووسطه فيه حجارة إسلامية على قبر إبراهيم عليه السلام وقبر إسحاق قدام في المغطى ، وقبر يعقوب في المؤخر ، وعند كل نبي امرأته ، وقد جعل الحصن مسجداً ، وبنيت حوله دور للمجاورين به ، واتصلت العمارة به من كل جانب ، ولهم قناة ماء ضعيفة ، وبهذه القريَة إلى نصف مرحلة من كل جانب قرى وكروم وأعناب وتفاح وعامتها تحمل إلى مصر ، وفي هذه القرية ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام مرتبون ، وهم يقدمون العدس بالزيت لكل من يأتي ويحضر عندهم من الفقراء ، ويقدم إلى الأغنياء إذا أخذوا .

ولقد أتيح لي أن أرى هذه الصورة التي رسمها أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي في كتاب البدائع ، رأيتها بعيني رأسي ، ورأيت الأحجار الضخمة التي في السور المحيط بالمقام الطاهر ، والتي قيل أن الجن قد بنوها بأمر سليمان عليه السلام ، ورأيت أشجار الفاكهة يعج بها الطريق إلى مدينة الخليل ،

والكروم الجبلية النابتة بين صخور الجبال تنتج الأعناب التي لا تقارن بها أعناب تنبت في أي بلد آخر .

وإنك لتسمع من كل خليلي إذا رأيته وصفاً لعنب الخليل وافتخاراً بهذا اللون من الفاكهة التي يظهرها الله لا على كرم عال بل على كرم ملاصق للأرض متغلغل في أحشاء الجبل ، ويسقى بماء من عند الله حيث لا جدول يسقيه ولا نهر يرويه ، بل الطبيعة تظهره وتنميه شهياً للآكلين . وأخبرني سماحة مأمور أوقاف الخليل أنه قد جرت العادة أن تولم مأمورية الأوقاف وليمة أسبوعية في يوم الأربعاء تقدم فيها حساء الخليل للفقراء والمساكين ، ويصفونها بكونها أطيب ما عرف الناس من ألوان الحساء ، وتمنى الرجل عليّ أن أزور مدينة الخليل في يوم الأربعاء لأرى بنفسي إقبال الناس عليها فقراء وأغنياء ، لأن الأغنياء يحرصون على أن يشتركوا في تذوقها ولو القليل منها تيمناً وتبركاً ، وتمنى سماحته أن أشهد معه وليمة الحساء فأذوق طعمها ، وأنعم بيمنها وبركتها ، ولولا اضطراري للسفر في يوم الثلاثاء إلى بيروت لبقيت على مقربة من مدينة الخليل حتى يوم الأربعاء ، وكان لي شرف شهود الوليمة التقليدية التي هي رمز لذلك الكرم المشهور الذي اتصف به خليل الله إبراهيم .

حكى الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة في تاريخه في وقائع سنة ثلاثة عشر وخمسمائة أن في تلك السنة ظهر قبر إبراهيم عليه السلام وقبر ولديه إسحاق ويعقوب عليهما السلام أيضاً بالقرب من بيت المقدس ، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة .

وجاء فيه أيضاً بصحيفة (١٧٣) عند السور السليماني ما نصه :

لما أتم سليمان عليه السلام تشييد بيت المقدس وبناء هيكله بالمسجد الأقصى ، أمره الله سبحانه وتعالى أن يقصد إلى حيث يرقد خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيقيم سوراً حول قبره الشريف فذهب سليمان ومعه رجاله وجنوده إلى تلك البقعة من أرض كنعان باحثاً منقباً عن قبر الخليل فلم يهتد إليه ، فعاد إلى بيت المقدس ، فنزل عليه وحي الله أنه حيث يرى عموداً من نور هابطاً من السماء إلى الأرض يقع قبر إبراهيم ، فقصد سليمان مرة أخرى إلى ذلك المكان ، وهناك خيل إليه أنه يرى نوراً في موضع اسمه (الرامة) بالقرب من مدينة الخليل من جهة الشمال قبلي قرية حلحول ، وهناك أمر الجنود فبنوا سوراً على مقربة من قبر يونس عليه

السلام ، فأوحى ا لله إليه أن ليس المكان الذي بنى عنده السور قبر إبراهيم ، وأمره أن يتعقب النور المتدلي من السماء إلى الأرض ، وأن ينى السور حوله ، فأخذ سليمان يبحث وينقب حتى اهتدى إلى المكان على مرتفع من الأرض في مدينة حبرون ، وتعقب النور فوجده هو وتثبت منه ، فأمر رجاله من الإنس والجن ، فبنوا السور العظيم الذي يعد من العجائب بما حوى من الأحجار التي تذهل الناظر ضخامتها وقد اعتبر الحرم المحاط بالسور مسجداً .

وقد روي عن ابن عمر رضي ا لله عنه أنه قال : إن آدم عليه السلام ، رأسه عند الصخرة الشريفة ورجلاه عند مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولمسجد الخليل عليه الصلاة والسلام ، ما لكل المساجد من حق صلاة الجماعة فيه وجواز الاعتكاف به ، وتحريم المكث على الحائض ، وتحريم دخول الجنب الخ ، بل إنه أعمر بيوت ا لله وأكثرها بركة بمن رقد تحته من السادة الأنبياء سلام ا لله عليهم .

قال قاضي القضاة أبو اليمن القاضي الحنبلي : وهذا المقام الكريم الذي هو داخل السور السليماني طوله في سعته قبلة بشمال من صدر المحراب الذي عند المنبر إلى صدر المشهد الذي به ضريح سيدنا يعقوب عليه السلام ، ثمانون ذراعاً بذراع العمل ينقص يسيراً نحو نصف ذراع أو ثلثي ذراع تقريباً ، وعرضه شرقاً يقرب من السور الذي به باب الدخول إلى صدر الرواق الغربي الذي به شباك يتوصل منه إلى ضريح يوسف عليه السلام ، نحو ثلث ذراع أو نصف ذراع تقريباً بذراع العمل المذكور ، وهو الذراع الذي تذرع به الأبنية في هذا العصر ، وسمك السور ثلاثة أذرع ونصف من كل جانب وعدد مداميكه في البناء خمسة عشر مدماكاً من أعلى الأماكن ، وهو الذي عند باب القلعة من جهة الغرب إلى القبلة ، وارتفاع البناء عن الأرض من المكان المذكور ست وعشرون ذراعاً بذراع العمل ، ويوجد غير البناء الرومي الذي فوق السليماني حجر عند مكان الطبلخانة طوله أحد عشر ذراعاً وعرض كل مدماك من البناء السليماني نحو ذراع وثلثي ذراع وعلى السور المذكور مغارتان إحداهما من جهة الشرق مما يلي القبلة ، والثانية من جهة الغرب مما يلي الشمال وبناؤها في غاية اللطف .

يشتمل المسجد على بناء معقود من داخل السور على نحو النصف من جهة القبلة إلى جهة الشمال ، والبناء من عهد الروم وهو ثلاثة أكوار الأوسط منها مرتفع عن الكورين الملاصقين له من جهة الشرق والغرب .

ويرتفع السقف على أربعة أسوار محكمة البناء، وفي صدر هذا البناء المعقود تحت الكور الأعلى يوجد المحراب إلى جانبه المنبر، وهو مصنوع من الخشب الفاخر، ويعد آية من آيات الصناعة المتقنة والجمال الفني، وقد وضع في زمن المستنصر با لله أبي تميم معد الفاطمي، خليفة مصر، بأمر بدر الجمالي مدير دولته، وقد تم صنع المنبر في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقد كتب عليه تاريخ صنعه بالخط الكوفي، وقد أمر بنقل المنبر إلى مسجد الخليل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتوجد تجاه المنبر أريكة للمؤذنين قائمة على عمد رخامية تعتبر نموذجاً للصنع الباهر الجميل.

وعلى الجدران من الجهات الأربع رخام مستدير، وقد صنع في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

وتقع قبور الأنبياء صلوات الله عليه وسلامه، تحت بناء المسجد على النظام الآتي: إلى جانب السارية التي عند المنبر قبر إسحاق عليه السلام، وأمامه قبر زوجته رفقة أو ريقة رضي الله عنها، إلى جانب السارية الشرقية، ويمكن اعتباره بناء قائماً بذاته.

ولهذا البناء ثلاثة أبواب تنتهي إلى صحن المسجد، أحدها وهو الأوسط ينتهي إلى الحجرة الخليلية الجليلة وهو مكان معقود على جدرانه رخام مستدير به إلى جهة الغرب الحجرة الشريفة التي بداخلها قبر الخليل ﷺ، وتجاهه شرقاً قبر زوجته السيدة سارة رضي الله عنها، وفي آخر الساحة شمالاً ضريح يعقوب عليه السلام، وأمامه شرقاً قبر زوجته لائقة رضي الله عنها. وبداخل السور أيضاً مقام ليوسف الصديق عليه السلام، وقد قيل إنه مدفون خارج المغارة ولكن لم يصح أي دليل على أن قبر يوسف الصديق بهذا المكان.

والأرضية التي بداخل السور مفروشة كلها بالبلاط السليماني البديع، ويوجد بظاهر السور السليماني شرقاً مسجد جميل بناه أبو سعيد سنجر الجاولي ناظر الحرمين الشريفين نائب السلطنة في زمانه، فعرف هذا المسجد باسم الجاولية، وهو من العجائب لأنه قائم في الجبل، وقد قيل إنه كان مقبرة يهود قائمة على هذا الجبل، فجرف الجاولي مكانها بعد أن هدمها وبنى سقفاً وقبة وأحالها مسجداً، وقد كتب على أحد جدرانه أن سنجر عمر هذا المسجد من حر ماله، و لم ينفق عليه شيئاً من مال الحرمين.

ويوجد قبلي الجاولية مطبخ تطهى فيه أكلة الدشيشة لزوار الخليل، عليه الصلاة والسلام، وعلى باب المطبخ تدق الطبلخانة (الطبول) في كل يوم بعد صلاة العصر عند مد السماط الكريم، وهذا السماط من عجائب التقاليد إذ يفد إليه سكان البلدة وضيوفها، ويصنع فيه خبز يوزع يومياً ثلاث مرات: الأول في الصباح الباكر، والثانية بعد الظهر، والثالثة بعد العصر.

وقد تقدم القول أن الأصل في هذا السماط ودق الطبول لدعوة الناس إليه، إذ أن إبراهيم ﷺ، كانت تفد إليه جموع الضيافة من كل مكان، فيصنع لهم الطعام ويوزعهم على عدة منازل للإقامة فيها، فإذا حان وقت تناول الطعام دقت لهم الطبول إشعاراً لهم بأن الطعام مهيئاً للضيوف في رحابه الفسيحات ﷺ.

انتهى كل ذلك من كتاب أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام.

نقول: إن ما ذكره من وجود إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، ومن معهم من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، في المغارة غير بعيد الوقوع مطلقاً، فإنا قد شاهدنا في زماننا هذا وسمعنا كثيراً عن وجود بعض أمواتنا في قبورهم بكامل أجسادهم وأكفانهم لم يمسهم البلاء، نعم إن الكثير والغالب من الأموات يفنون بعد مدة من دفنهم حتى لا يبقى لهم أي أثر، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يسلط على أجساد أنبيائه وأصفيائه من العلماء العاملين والعباد المخلصين الأرض والأرضة.

فقد جاء في كتاب «وفاء الوفاء» وروى البخاري في الصحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: لما سقط عنهم الحائط زمان الوليد بن عبد الملك أخذوا في بنائه، فبدت لهم قدم، ففزعوا وظنوا أنها قدم النبي ﷺ، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك، حتى قال لهم عروة: لا والله ما هي قدم النبي ﷺ، ما هي إلا قدم عمر.

ويستفاد مما تقدم أن السبب في هذا البناء سقوط الجدار المذكور بنفسه، ولعله بسبب المطر المشار إليه في الرواية المتقدمة، ويخالفه ما رواه أبو بكر الآجري من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي قال: كان الناس يصلون إلى القبر، فأمر به عمر بن عبدالعزيز فرفع حتى لا يصل إليه أحد، فلما هدم بدت قدم بساق وركبة، ففزع عمر بن عبد العزيز، فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر وركبته، فسري عن عمر بن عبد العزيز، انتهى من الكتاب المذكور.

وجاء أيضاً في الجزء الأول من تاريخ الخميس ما يأتي :

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ قال يومئذ : -أي يوم دفن قتلى أحد- حين أمر بدفن القتلى ، انظروا عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كان متصافيين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد .

وذكر مالك بن أنس في موطئه : أن السيل حفر قبرهما بعد زمان فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما فوجدا لم يتغيرا كأنما ماتا بالأمس ، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جراحته فدفن وهو كذلك فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم ثم أرسلت فرجعت كما كانت ، وكان بين يوم أحد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة .

وفي الصفوة عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأحد ، كتب إلى عامله بالمدينة بذلك ، فكتبوا إليه ، إنا لا نستطيع أن نخرجها إلا على قبور الشهداء ، فكتب معاوية : انبشوهم ، قال جابر : فلقد رأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام ، وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة فانبعثت دما ، وفي المنتقى مثله . انتهى من تاريخ الخميس .

وعلى كل حال مسائل البرزخ والقبور من الغيبيات التي ينبغي عدم الخوض فيها إلا بمقدار ما ورد به الشرع الشريف صريحاً . نسأل الله عز شأنه أن يكرمنا في الحياة وفي الممات بما هو أهله بفضله ورحمته إنه بعباده لطيف خبير . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

البناية الثالثة: بناء شيث عليه الصلاة والسلام الكعبة

بعد موت آدم عليه الصلاة والسلام ، بنى الكعبة الغراء ولده شيث عليه السلام ، لكن الإمام الأزرقي لم يذكر ذلك باسمه الصريح ، وإنما ذكر أن أبناء آدم بنوا الكعبة من بعده إلى زمان الطوفان .

وهذا نص ما ذكره الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه قال : لما رفعت الخيمة التي عزى الله بها آدم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت ومات آدم ، عليه السلام ، فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم

يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كانوا زمن نوح، عليه السلام، فنسفه الغرق وغير مكانه حتى بوئ لإبراهيم عليه السلام. انتهى ما ذكره الأزرقي.

ووهب بن منبه المذكور كان من أحبار اليهود ثم أسلم فأخذت الصحابة عنه أخبار من سلف من الأمم.

قال صاحب «تاريخ الكعبة المعظمة»: ذكر السهيلي في «روض الأنف» أن أول من بنى البيت شيث اهـ. والمعنى أن أول من بناه بعد آدم من أولاده شيث عليهما السلام. انتهى.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي الاكتفاء: أن شيث بن آدم هو أول من بنى الكعبة وأنها كانت قبل أن يبنيها خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة فرفعت وكان قد حج إلى موضعها من الهند. انتهى من الكتاب المذكور.

وشيث هو ابن آدم وهو نبي أنزل الله عليه خمسين صحيفة، فلا يستبعد أن يأمره الله تعالى ببناء البيت بعد أبيه آدم، وقد مات أبونا آدم وعمره ألف سنة، وقيل: تسعمائة وثلاثون سنة على ما في التوراة، ولقد ولد شيث وعمر آدم مائة وثلاثون سنة.

جاء في تاريخ ابن كثير المسمى «البداية والنهاية» ما نصه: قال محمد بن إسحاق، ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال: ويقال أن انتساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث وسائر أولاد آدم انقرضوا وبادوا. والله تعالى أعلم. انتهى.

البناية الرابعة: بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة

قبل أن نتكلم على نفس بناء إبراهيم خليل الله الكعبة يجب أن نذكر طرفاً من هجرته بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة شرفها الله تعالى لأول مرة، حتى يكون الكلام كله منسقاً مربوطاً بعضه ببعض، ولقد جاءت في كل ذلك روايات مختلفة الألفاظ لكنها متحدة المعنى والنتيجة، ونحن نأتي هنا بما هو مختصر مفيد كنا ذكرناه في كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» المطبوع بمصر وهو هذا:

هجرة إبراهيم إلى مكة لأول مرة

كانت لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام جارية اسمها « هاجر » (في القاموس هاجر بفتح الجيم أم إسماعيل ﷺ ويقال لها آجر أيضاً) وهي قبطية مصرية أهداها لها ذلك الملك الجبار الذي تقدم ذكره، فوهبتها لزوجها إبراهيم فولدت منه إسماعيل فكان أول ولده وبكره، فغارت سارة منها، لأنها لم تكن قد ولدت قط، ثم ولدت سارة إسحاق بعد ثلاث عشرة سنة من ولادة إسماعيل عليهما السلام، (وسارة بتخفيف الراء وقيل بتشديدها. قال في تاريخ الكامل لابن الأثير: إن سارة اسمها في التوراة سار أي أول الأمر، ثم سميت سارا لأن الهاء آخر الكلمة في العبرية لا ينطق بها، ونصها في العبرية ١٦٦ ومعناه الأميرة ومذكره ٦٢٢٢). ثم أنشدته سارة با لله أن يخرجهما من عندها، فأمره ا لله عز وجل أن ينقلهما إلى مكة، وأتى بالبراق فركب عليه هو وهاجر وإسماعيل وكان صغيراً يرضع، فخرج من الشام ومعه جبريل عليه السلام يدله على موضع البيت ومعالم الحرم حتى قدم مكة، وليس بها أحد ولا بناء ولا ماء، وما كانت مكة يومئذ إلا عضاة من سلم وسمر فوضعهما عند البيت ومعهما جراب من تمر وسقاء من ماء ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام فتبعته هاجر وقالت له: إلى أين تذهب، وإلى من تتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أحد؟ قال: إلى ا لله عز وجل. قالت: ا لله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم ثم رفع يديه بالدعاء وقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

(وهنا نكتة لطيفة) وهي أن أم إسماعيل عليه السلام، اسمها هاجر فكان لاسمها نصيب من الهجرة، فهاجرت من مصر إلى الشام وفلسطين ثم إلى مكة، فاستقرت بها ودفنت بأشرف مكان فيها. وفي المثل « لكل مسمى من اسمه نصيب » اللهم اجل لنا من اسمنا أوفى نصيب بفضلك وإحسانك آمين يا رب العالمين.

ثم جلست هاجر مع ابنها إسماعيل تحت شجرة كبيرة في مكان بئر زمزم حتى إذا نفد ذلك التمر والماء عطشت هي وولدها عطشاً شديداً، فخافت على ولدها

الهلاك ، فمشت بين الصفا والمروة سبع مرات وهي ترمل لعلها ترى أحداً ، فعند ذلك جاء جبريل عليه السلام وضرب بجناحيه مكان زمزم فخرج الماء فجعلت تحوط عليه وتقول: زمي زمي . وفي الحديث: « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً » ثم مرت بها قبيلة من جرهم فاستأذنوها في النزول عندها وقالوا لها : أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ففعلت فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فقدموا إليهم فتعلم إسماعيل منهم العربية، وكان يخرج معهم للصيد فأحبوه وزوجوه بامرأة منهم ، ثم ماتت أمه بعدما تزوج ودفنت في الحِجْر وذلك قبل بناء الكعبة .

جاء في صحيح البخاري في باب الشرب : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ : يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ، أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت عيناً معيناً ، وأقبل جرهم فقالوا أتأذنين أن ننزل عندك قالت : نعم ولا حق لكم في الماء قالوا : نعم .

إن في قصة هاجر لعبرة كبرى لأولى الألباب ، إن من قوة إيمانها بالله تعالى ، وتفويض الأمر إليه ، بلا مناقشة زوجها ، ومن صبرها على الإقامة بمكة وحيدة فريدة لا أنيس معها ولا جليس ولا ماء ولا طعام ، في هذا القفر الموحش وفي هذه البيداء الصامتة والجبال المحيطة الشامخة ، إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب ، وذكرى لمن كان له سمع ، لا يمكن التعبير عنها بالقلم ولكن إذا وضع الإنسان نفسه مكانها وتصور حالته وهو في وسط هذه الصحراوات ، وحيداً فريداً ، ليل نهار ، بلا طعام ولا ماء ، ولا بيت يأوي إليه ، ولا طير ولا وحش ولا طارق يطرق عليه ، ولا يدري ما الله صانع به ، فإنه يخرج من تأملاته بنتيجة يسطرها بماء الذهب . فتأمل جيداً وتصور طويلاً فإن ذلك مما يزيد الإنسان إيماناً بالله وثقة برحمة الله واطمئناناً إلى لطف الله وفضله .

إكرام إبراهيم عليه السلام لزوجته سارة

كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يحب زوجته سارة لقرابتها منه ولدينها وحسبها وجمالها ، فكان يكرمها ويعتني بأمرها كثيراً ، حتى إنه ما كان يأتي مكة لزيارة ابنه إسماعيل وأمه هاجر إلا بعد أن يستأذن سارة فتأذن له وتشترط عليه أن لا ينزل عندها فيوفي لها بهذا الشرط كما تقدم . وليس معنى

ذلك أنه كان تحت أمر زوجته سارة خاضعاً لإرادتها كما يخضع أهل زماننا لزوجاتهم في كل شيء ، فإن ذلك لا يجوز عليه ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزهون عن الخضوع والطاعة لزوجاتهم لمجرد الهوى وحب النفس ، وبالأخص خليل الله الذي أعطي النظر في ملكوت السموات والأرض ، وإنما كان استئذانه منها لزيارة ابنه إسماعيل وأمه هاجر لأمور أربعة:

(الأول): أن بينه وبين زوجته سارة صلة قرابة وكانت ذات دين وحسب .

(الثاني): أن هاجر كانت أمة مملوكة لسارة فوهبتها لزوجها إبراهيم فدخل بها فحملت منه بإسماعيل.

(الثالث): لما ولدت هاجر إسماعيل اشتدت غيرة سيدتها سارة منها ؛ لأنها لم تكن قد ولدت بعد ، وهذا أمر طبيعي في جميع النساء ، فطلبت من زوجها أن يبعدها عنها ، فأمره الله تعالى أن ينقل هاجر بابنها إسماعيل إلى مكة .

(الرابع): أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لعلى خلق عظيم وشمائل سامية ، وفي الحديث الشريف: « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » فليس من اللائق أن يزور إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل وأمه هاجر بمكة من غير أن يخبر بذلك زوجته سارة التي هي سيدة هاجر وهي التي وهبتها له . فهذه الأمور مما يدعو إبراهيم عليه السلام إلى جبر خاطر زوجته بالاستئذان منها للزيارة .

ثم إن سارة الكثيرة الغيرة من أمتها لا تلام إذا اشترطت على زوجها ، في زيارته لها ولولدها بمكة ، أن لا ينزل من البراق بل يكتفي برؤيتهما ليطمئن عليهما ثم يرجع من ساعته ، وسارة كانت واثقة تمام الثقة من وفاء زوجها بما اشترطته عليه ، ولا يبعد أن يكون كل ذلك بأمر الله عز وجل بدليل أن هاجر ما كانت تتألم وتشكو من هذه المعاملة ، ونبي الله إبراهيم ما كان يتبرم من سارة لقسوتها على أمتها هاجر، وجبريل الذي يدله على الطريق بالبراق ويلازمه في سفره ذهاباً وإياباً ما كان ليأمره بمخالفة زوجته سارة واللبث عند هاجر ولو يوماً واحداً ، فحالات الأنبياء لا تقاس على أحوالنا ، ولقد كانت عاقبة صبر هاجر محمودة ، فجاءها خير كثير ، والظاهر ، والله تعالى أعلم بالغيب ، أن سارة كانت تخشى إن نزل زوجها عند هاجر أن يقربها فتحمل منه ثانياً فتلتهب سارة غيرة منها ، ومن هنا يفهم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يقرب هاجر منذ أن أسكنها مكة والله أعلم ، على أنه دام الاشتراط عليه حتى بعد وفاة هاجر فما كان ينزل عند

إسماعيل ولا عند زوجته لا الأولى ولا الثانية . وأما نزوله الأخير عند ولده إسماعيل فلم يكن هناك شرط عليه لأن نزوله كان بأمر الله تعالى لبناء بيته الحرام ، ولا ندري أكانت سارة في هذه المرة الأخيرة على قيد الحياة أم أنها كانت توفيت .

ثم إن إبراهيم خليل الله عليه السلام ، لا يعقل بعد أن قبل اشتراط زوجته سارة في عدم النزول عند أمتها هاجر بمكة أن يخونها بالغيب فينزل عندها ، لأن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجل من ذلك . ومَن أوفى من الأنبياء الكرام بالوعد ، وبالأخص من قال الله عز وجل في حقه : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ .

هذه جملة أتينا بها استطراداً خوفاً من أن تزل قدم من لم يتمكن من معرفة مقامات الأنبياء المعصومين ، عليهم الصلاة والسلام ، فيظن أن خليل الله إبراهيم أبا الأنبياء كان يخضع لأوامر زوجته اتباعاً لهوى النفس وهو الذي قام بتنفيذ أمر الله تعالى في ذبح ابنه إسماعيل . نسأل الله السلامة من الخطأ والزلل ، والحفظ من الفتن الظاهرة والباطنة ، وأن يفتح علينا فتوح العارفين ، وأن ينعم علينا بما أنعم به على عباده الصالحين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد أبو القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثم إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جاء من الشام يقول حتى أطالع تركتي فقدم مكة فوجد امرأة إسماعيل فسألها عنه فقالت: هو غائب و لم تحسن مقابلته و لم تضيفه وقالت له : نحن في ضيق شديد وشكت إليه . فقال لها : قولي لإسماعيل قد جاء بعدك شيخ كذا وكذا وهو يقرأ عليك السلام ويقول لك : غير عتبة بيتك . فقالت ذلك لإسماعيل فقال لها : أنت عتبة بيتي فارجعي إلى أهلك ثم تزوج بأخرى ، ثم جاء إبراهيم إلى مكة فوجد إسماعيل غائباً ووجد امرأته الأخرى وهي رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وقد جاءته باثني عشر ابناً . ومضاض هو أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت بن إسماعيل ، عليه السلام ، وكان ملك جرهم والمطاع فيهم ، فسألها عنه فقالت له : ذهب إسماعيل يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله فلم ينزل فجاءته بحجر (قيل وهو المقام) فوضعته عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فبقي أثر قدميه على الحجر ثم أضافته وأكرمته وعرضت عليه الطعام والشراب . فقال : ما طعامكم وما شرابكم؟ قالت : اللحم والماء. قال : هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت : لا . قال : بارك الله لكم في اللحم والماء . قال

ابن عباس يقول رسول الله ﷺ: لو وجد عندها يومئذ حباً لدعا لهم بالبركة فيه فكانت أرضاً ذات زرع. قال سعيد بن جبير: ولا يخلى أحد على اللحم والماء في غير مكة إلا وجع بطنه وإن أخلى عليهما بمكة لم يجد كذلك أذى. اهـ من الأزرقي. ثم رجع إبراهيم وقال لها: قولي لإسماعيل قد جاء بعدك شيخ فقال: إني وجدت عتبة بيتك صالحة فأقررها. فلما رجع إسماعيل إلى أهله قال: هل جاءكم بعدي أحد؟ قالت: نعم قد جاء بعدك شيخ كذا وكذا وأشفقت عليه ويقول لك: إني وجدت عتبة بيتك صالحة فأقررها. قال لها: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك، وكان إبراهيم عليه السلام، يأتي مكة كل مرة راكباً البراق وجبريل يدله على الطريق. انتهى كل ذلك من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام.

وقصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، مع ذلك الجبار المتقدم ذكره الذي وهب هاجر لسارة مذكورة في البخاري ومسلم ونحب ذكر الحديث الصحيح هنا زيادة في البيان والفائدة، وننقله من بعض الشرح من كتاب شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى، المسمى «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» وقد شرحه شيخنا المذكور أيضاً وهو هذا:

جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات، اثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي فأتى سارة فقال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق.

فدعا بعض حجبته فقال: إنكم تأتوني بإنسان أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم قال: رد الله كيد الكافر أو الفاجر من نحره وأخدم هاجر» رواه أبو هريرة، رضي الله تعالى عنه.

ولفظ الكذب في الحديث ليس على ظاهره إذ يستحيل على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام الكذب، وإنما أطلق عليه الكذب تجوزاً لمجيئه على صورة الكذب

لا حقيقة . والكذب ينقسم على أقسام حكم الشرع الخمسة كما هو مفصل في محله.

ومعنى كلمة « مَهْيَم » الواردة في الحديث أي ما الخبر ، وهي بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الياء وسكون الميم ، وفي رواية « مهيا » بالألف وفي أخرى « مهين » بالنون وكلها بمعنى واحد ، ويقال : إن إبراهيم الخليل عليه السلام ، أول من قال هذه الكلمة ، ومعنى إبراهيم بالسريانية أب رحيم ، واسم ذلك الجبار صادوق فيما ذكره ابن قتيبة وهو ملك الأردن أو سنان أو سفيان بن علوان فيما ذكره الطبري أو عمرو بن امرئ القيس بن سبأ وكان على مصر فيما ذكره السهيلي .

وإلى قصة هذا الحديث الصحيح أشار صاحب نظم عمود النسب بقوله:

ومر في فراره على الذي غصب سارة ولم تستنقذ

إلا بشل يده وصرعه وعصمت سارة من طَبَعه

ومن وراء الحجب الخليل عاين أن عصمه الجليل

وأتحف الملك زوجة الخليل بهاجر وأتحفت بها الخليل

وسبيت من ملك القبط ابنته هاجر ذي وأنجبت ريحانته

إذ ولدت أبا عمود النسب ولا محيد عنه للمستعرب

قوله: من طبعه هو بفتح الباء مصدر من باب تعب ، وهو الدنس أي: عصمت من دنسه ، وقوله: إذ ولدت أبا عمود النسب ، أي : عمود نسب نبينا محمد ﷺ وهو إسماعيل عليه السلام وهو أبو عدنان جميعاً بالاتفاق ، ولذا قال: ولا محَيد عنه للمستعرب أي للعرب المستعربة جميعاً .

انتهى من كتاب « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم » وقد شرح هذا الحديث شرحاً وافياً شيخنا صاحب الكتاب المذكور ، فمن أراد زيادة الإيضاح فليرجع إليه .

قال الأزرقي في تاريخه : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرني محمد بن إسحاق قال : لما أُمر إبراهيم خليل الله تعالى أن يبني البيت الحرام أقبل من أرمينية على البراق معه السكينة لها وجه تتكلم ، وهي بعد ريح هفافة ، ومعه ملك يدله على موضع البيت حتى انتهى إلى مكة وبها إسماعيل وهو

يومئذ ابن عشرين سنة وقد توفيت أمه قبل ذلك ودفنت في موضع الحِجْر ، فقال : يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتاً ، فقال له إسماعيل : وأين موضعه؟ قال : فأشار له الملك إلى موضع البيت قال : فقاما يحفران عن القواعد ليس معهما غيرهما فبلغ إبراهيم الأساس ، أساس آدم الأول فحفر عن ربض في البيت فوجد حجارة عظاماً ما يطيق الحجر منها ثلاثون رجلاً ، ثم بنى على أساس آدم الأول وتطوقت السكينة كأنها حية على الأساس الأول ، وقالت : يا إبراهيم: ابن عليّ ، فبنى عليها ، فلذلك لا يطوف بالبيت أعرابي نافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة . فبني البيت وجعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً من الركن الأسود إلى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعاً وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً ، فلذلك سميت الكعبة لأنها على خلقة الكعب . قال : وكذلك بنيان أساس آدم عليه السلام ، وجعل بابها بالأرض غير مبوب حتى كان تُبّع (أسعد الحميري) هو الذي جعل لها باباً، وغلقاً فارسياً ، وكساها كسوة تامة ، ونحر عندها .

نقول : قال الأزرقي في صحيفة ٢٧ من تاريخه : إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما بنى الكعبة جعل طولها في الأرض أحد وثلاثين ذراعاً ، وقال في صحيفة ١٩٤ جعل طولها في الأرض من ثلاثين ذراعاً ، فتنبه لذلك مع العلم بأن الفرق بين عبارتيه قليل جداً .

ثم قال الأزرقي : وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشاً من أراك تقتحمه العنز، فكان زرباً لغنم إسماعيل ، قال : وحفر إبراهيم عليه السلام جباً في بطن البيت على يمين من دخله يكون خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى للعكبة وهو الجب الذي نَصَب عليه عمرو بن لحي ، هبل ، الصنم الذي كانت قريش تعبده ويستقسم عنده بالأزلام حين جاء به من هيت من أرض الجزيرة .

قال : وكان إبراهيم يبني وينقل لـه إسماعيل الحجارة على رقبته فلما ارتفع البنيان قرب له المقام فكان يقوم عليه ويبني ويحوله إسماعيل في نواحي البيت حتى انتهى إلى موضع الركن الأسود. قال إبراهيم لإسماعيل : يا إسماعيل ابغني حجراً أضعه هاهنا يكون للناس علماً يبتدئون الطواف . فذهب إسماعيل يطلب لـه حجراً ورجع وقد جاءه جبريل بالحجر الأسود وكان الله عز وجل استودع الركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح ، وقال : إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له . قال : فجاءه إسماعيل فقال له : يا أبة من أين لك هذا؟ قال: جاءني به من لم يكلني إلى حجرك جاء به جبريل. فلما وضع جبريل الحجر في مكانه وبنى عليه إبراهيم وهو حيئنذ يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه فأضاء نوره شرقاً ، وغرباً ، ويمناً ، وشاماً . قال : فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم . قال : وإنما شدة سوداه لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والإسلام .

فأما حريقه في الجاهلية ، فإنه ذهبت امرأة في زمن قريش تجمر الكعبة فطارت شرارة في أستار الكعبة فاحترقت الكعبة واحترق الركن الأسود ، واسود وتوهنت الكعبة ، فكان هو الذي هاج قريشاً على هدمها وبنائها . وأما حرقه في الإسلام ففي عصر ابن الزبير أيام حاصره الحصين بن نمير الكندي ، احترقت الكعبة واحترق الركن فتفلق بثلاث فلق حتى شد شُعَبَه ابن الزبير بالفضة فسواده لذلك . قال : ولولا ما مس الركن من أنجاس الجاهلية وأرجاسها ما مسه ذو عاهة إلا شفي . قال سعيد بن سالم : قال ابن جريج : وكان الزبير بنى الكعبة من الذرع على ما بناها إبراهيم عليه السلام قال : وهي مكعبة على خلقة الكعب فلذلك سميت الكعبة . قال : ولم يكن إبراهيم سقف الكعبة ولا بناها بمدر وإنما رضمها رضماً .

حدثني جدي قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن نجيح عن مجاهد قال : السكينة لها رأس كرأس الهرة ، وجناحان . حدثني مهدي بن أبي المهدي قال : حدثنا بشر بن السري قال : حدثنا قيس بن الربيع عن سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن علي بن أبي طالب قال : السكينة ، لها رأس كرأس إنسان ثم هي بعد ريح هفافة .

حدثنا مهدي بن أبي المهدي قال : حدثنا الغزاري عن جويبر عن الضحاك قال : السكينة الرحمة . انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي .

قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبناء الكعبة

جاء في صحيح البخاري في كتاب الأنبياء في باب يَزِفّون النَّسَلان في المشي: عن سعيد بن جبير قال ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : االله الذي أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾ حتى بلغ: ﴿يشكرون﴾ ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ: « فذلك سعي الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسها ثم تَسَمّعت ، فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غَواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ: «يرحم االله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف

من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريّاً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وقد أحبت الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرّ نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم! جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم! أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم. قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه»، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يُوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت : نعم : أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء؟ قالت : نعم ! هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ، فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

وجاءت هذه القصة في البخاري أيضاً برواية أخرى ، وهي :

حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، قال : حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ، ومعهم شَنّة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة ، فيدر لبنها على صبيها ، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ، ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فاتبعته أم إسماعيل ، حتى بلغوا كَداء ، نادته من ورائه يا إبراهيم ، إلى من تتركنا؟ قال : إلى الله . قالت : رضيت بالله ، قال : فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها ، حتى لما فني الماء قالت : لو ذهبتُ فنظرتُ لعلي أحس أحداً ، قال : فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحداً ، فلم تحس أحداً ، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطاً ، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل -تعني الصبي- فذهبت فنظرت فإذا هو حاله كأنه يَنْشَغ للموت ، فلم تقرها نفسها ، فقالت : لو ذهبت فنظرت ، لعلي أحس أحدا ، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحداً ، حتى أتمت سبعاً ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا هي بصوت ، فقالت : أغث إن كان عندك خير ، فإذا

جبريل قال فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ: لو تركته كان الماء ظاهراً، قال: فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها، قال: فمر ناس من جرهم ببطن الوادي، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذاك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها، فقالوا: يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك، فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مُطّلع تركتي، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له: إذا جاء، غير عتبة بابك، فلما جاء أخبرته قال: أنت ذاك فاذهبي إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله إني مُطّلع تركتي، قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد فقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ فقال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم، قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بركةٌ بدعوة إبراهيم» قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مُطّلع تركتي فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له. فقال: يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني له بيتاً. قال: أطع ربك، قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، قال: إذاً أفعل، أو كما قال، قال: فقاما فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ على نقل الحجارة، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. انتهى من صحيح البخاري.

وقال الشيخ عبدالله الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه ما نصه: وفي تفسير معالم التنزيل للعلامة أبي محمد الحسين بن محمد البغوي رحمه الله، قال الرواة: إن الله تعالى أمر إبراهيم بعدما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه فسأل الله تعالى عز وجل أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهي ريح خجوج لها إنسان شبيه الحية. فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوفت السكينة على موضع البيت كتطوف الحجفة هذا قول علي والحسن. قال ابن عباس: بعث الله أنه سبحانه على قدر

فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في طلبها إلى أن وافق مكة ووقفت على موضع البيت فنودي منها إبراهيم أن ابني على ظلها لا تزد وتنقص ، وقيل : وأرسل الله جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت ، فكان إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجر ، فذلك قوله تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ يعني أسها واحد لنا قاعدة ، وقال الكسائي : بصدد البيت قال ابن عباس : إنما بني البيت من خمسة أجبل : طور سيناء وطور زيتا ولبنان ، وهو جبل بالشام ، والجودي وهو جبل بالجزيرة ، وبنيا قواعده من حراء ، وهو جبل بمكة ، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود وقال لإسماعيل : ائتني بحجر حسن يكون للناس علماً فأتاه بحجر . فقال : ائتني بأحسن من هذا فمضى إسماعيل بطلبه ، فصاح أبو قبيس : يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها ، فأخذ الحجر الأسود فوضع مكانه . انتهى من تاريخ الغازي .

وجاء في تاريخ الخميس ما نصه : وقال أهل الأخبار : إن هاجر كانت لسارة فوهبتها لإبراهيم إذ لم يولد له ولد منها، وقالت : عسى الله أن يرزقك منها ولداً . فحملت هاجر بإسماعيل . فلما ولدته كان نور محمد ﷺ لامعاً من جبهته كما مر، فغارت سارة وقيل : إن إبراهيم أخبر سارة بأن الله وعده أن يرزقه ولداً طيباً وكانت ترجو أن يكون الولد منها فلما حملت هاجر بإسماعيل وولدته وظهر نور محمد ﷺ في وجهه ، اغتمت سارة وحزنت حزناً شديداً وغارت عليها غيرة ضاق بها صدرها ، فناشدت إبراهيم أن يخرجها من عندها وجوارها فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يطيع سارة في كل ما تقول وتأمر في هاجر وإسماعيل، وحلفت سارة على أن تقطع ثلاثة من أعضاء هاجر ، فلما علمت به هاجر تمنطقت وتهيأت للفرار .

قال ابن عباس : أول من اتخذ من النساء المِنْطقة أم إسماعيل اتخذت مِنْطَقاً لتُعَفِّي أثرها على سارة ، فأمر إبراهيم سارة أن تبر قسمها بثقب أذنيها وخفاضها ففعلت فصار ثقب الأذان والخفاض سنة من النساء . كذا في شفاء الغرام . انتهى من تاريخ الخميس . والمِنْطق على وزن منبر شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلا على الأسفل إلى الأرض والأسفل ينجر على الأرض .

وجاء في تاريخ الخميس أيضاً ما نصه :

وفي معالم التنزيل ، فوضعهما إبراهيم عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلا المسجد ، وليس بمكة يومئذٍ أحد وليس بها ماء ولا عمارة ولا زراعة .

وفي رواية ، وضعهما عند تل ستبنى الكعبة عليه . وفي الاكتفاء : فلما أراد إبراهيم أن يخرج ورأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس ولا ماءٌ ظاهرٌ تركت ابنها في مكانه وتبعت إبراهيم ، فقالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا ؟ فسكت عنها حتى إذا دنا من كَداء قال: إلى ا لله عز وجل أدعكم قالت: فا لله أمرك بهذا؟ قال: نعم ! قالت: فحسبي تركتنا إلى كاف . وانصرفت هاجر إلى ابنها وخرج إبراهيم حتى وقف على كداء ولا بناء ولا ظل ولا شيء يحول دون ابنه ، فنظر إليه فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده فقال : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ . وفي رواية: فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه إلى البيت بهذه الدعوات ، وعن مجاهد : لو قال : أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم . وفي الكشاف قيل لو لم يقل: "من" لازدحموا عليها حتى الروم والترك والهند ، وفي أنوار التنزيل : لحجت اليهود والنصارى والمجوس . وفي الاكتفاء : ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام ورجعت أم إسماعيل إلى ابنها وعمدت هاجر فجعلت عريشاً في موضع الحجر من سمر وثمام ألقته عليه ومعها شن فيه ماء ، وفي رواية : وضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء . انتهى منه .

وجاء في تاريخ الأزرقي « أخبار مكة » ما نصه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير قال : حدثنا عبد ا لله بن عباس قال : لبث إبراهيم ما شاء ا لله أن يلبث ، ثم جاء الثالثة فوجد إسماعيل عليه السلام قاعداً تحت الدوحة التي بناحية البير يبري نبلاً أو نبالاً له ، فسلم عليه ونزل إليه ، فقعد معه فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن ا لله تعالى قد أمرني بأمر ، فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك ، فقال إبراهيم : يا إسماعيل أمرني ربي أن أبني له بيتاً ، قال له إسماعيل : وأين؟ يقول ابن عباس : فأشار له إلى أكمة مرتفعة على ما حولها عليها رضراض من حصباء يأتيها السيل من نواحي ولا يركبها ، يقول ابن عباس : فقاما يحفران عن القواعد ويحفرانها ويقولان : ربنا تقبل منا إنك سميع الدعاء ، ربنا تقبل منا إنك أنت

السميع العليم ، ويحمل له إسماعيل الحجارة على رقبته ويبني الشيخ إبراهيم . فلما ارتفع البناء وشق على الشيخ إبراهيم تناوله قرب له إسماعيل هذا الحجر -يعني المقام- فكان يقوم عليه ويبني ويحوله في نواحي البيت حتى انتهى إلى وجه البيت . يقول ابن العباس : فلذلك سمي مقام إبراهيم لقيامه عليه . اهـ .

ثم قال الأزرقي : حدثني مهدي ابن أبي المهدي قال : حدثنا عبدا لله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير - يزيد أحدهما على صاحبه - عن سعيد بن جبير في حديث حدث به طويلٍ عن ابن عباس قال : فجاء إبراهيم وإسماعيل يبري نبلاً له أو نباله تحت الدوحة قريباً من زمزم . فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد لولده والولد بوالديه . قال معز : وسمعت رجلاً يقول : بكيا حتى أجابتهما الطير . قال سعيد : فقال : يا إسماعيل إن ا لله عز وجل قد أمرني بأمر . قال : فأطع ربك فيما أمرك قال : وتعينني قال : وأعينك قال : فإن ا لله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتاً هاهنا فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت .

حدثني جدي قال : حدثنا سعيد بن سالم قال : أخبرني ابن جريج قال : قال مجاهد : أقبل إبراهيم والسكينة ، والصرد والملك من الشام فقالت السكينة: يا إبراهيم اربض على البيت فلذلك لا يطوف بالبيت ملك من هذه الملوك ولا أعرابي نافر إلا رأيت عليه السكينة قال : وقال ابن جريج: أقبلت معه السكينة لها رأس كرأس الهرة وجناحان . اهـ .

ثم قال الأزرقي : وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج قال : قال علي بن أبي طالب : أقبل إبراهيم عليه السلام والملك والسكينة والصرد دليلاً حتى تبوأ البيت الحرام كما تبوأت العنكبوت بيتها ، فحفر فأبرز عن ربض في أسها أمثال خلف الإبل لا يحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلاً قال : ثم قال لإبراهيم : قم فابن لي بيتاً قال: يا رب وأين؟ قال : سنريك قال : فبعث ا لله تعالى سحابة فيها رأس ، تكلم إبراهيم فقال : يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة ، فجعل ينظر إليها ويأخذ قدرها فقال له الرأس : أقد فعلت ؟ قال : نعم؟ فارتفعت السحابة فأبرز عن أس ثابت من الأرض فبناه إبراهيم عليه السلام ، قال : وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرني محمد بن أبان عن ابن إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب في حديث حدث به عن زمزم قال : ثم نزلت السكينة كأنها

غمامة أو ضبابة في وسطها كهيئة الرأس يتكلم يقول : يا إبراهيم خذ قدري من الأرض ، لا تزد ولا تنقص ، فخط فذلك بكة وما حواليه مكة . اهـ .

ثم قال أيضاً : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه أنه أخبره قال : لما ابتعث الله تعالى إبراهيم خليله ليبني له البيت طلب الأساس الأول وضع بنو آدم في موضع الخيمة التي عزى الله بها آدم عليه السلام من خيام الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت الحرام ، فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل إلى القواعد التي أسس بنو آدم في زمانهم في موضع الخيمة . فلما وصل إليها أظل الله له مكان البيت بغمامة ، فكانت خفاف البيت الأول ، ثم لم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد حتى رفع القواعد قامة ثم انكشطت الغمامة فذلك قوله عز وجل: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي : الغمامة التي ركدت على الخفاف ليهتدي بها مكان القواعد فلم يزل والحمد لله منذ يوم رفعه الله معموراً . اهـ .

ثم قال الأزرقي : حدثني مهدي بن أبي المهدي قال : حدثنا عبدالرحمن بن عبدالله مولى بن هاشم قال : أخبرنا حماد عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب في قوله عز وجل : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۝ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ قال: إنه ليس بأول بيت . كان نوح في البيوت قبل إبراهيم وكان في البيوت ولكنه أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . هذه الآيات قال : إن إبراهيم أمر ببناء البيت فضاق به ذرعاً فلم يدر كيف يبني فأرسل الله تعالى السكينة وهي ريح خجوج لها رأس حتى تطوقت مثل الحجفة فبنى عليها وكان يبني كل يوم سافاً ومكة يومئذ شديدة الحر ، فلما بلغ موضع الحجر قال لإسماعيل: اذهب فالتمس حجراً أضعه هاهنا ليهدي الناس به فذهب إسماعيل يطوف في الجبال ، وجاء جبريل بالحجر الأسود وجاء إسماعيل فقال : من أين لك هذا الحجر؟ قال: من عند من لم يتكل على بنائي وبنائك ، ثم انهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش . فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تنازعوا فيه فقالوا : أول رجل يدخل من هذا الباب فهو يضعه ، فجاء رسول الله ، ﷺ فأمر بثوب فبسط ثم وضعه فيه ثم قال : ليأخذ من كل قبيلة رجل من ناحية الثوب . ثم رفعوه ثم أخذه رسول الله ﷺ فوضعه . اهـ .

ثم قال الأزرقي : حدثني جدي قال : حدثني سفيان بن عيينة عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب قال : أخبرني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة تدله حتى تبوأ البيت كما تبوأت العنكبوت بيتها فرفعوا عن أحجار الحجر يطيقه أو لا يطيقه ثلاثون رجلاً .

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال : حدثنا عبدالله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن قتادة في قوله عز وجل: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ قال: التي كانت قواعد البيت قبل ذلك . قال الخزاعي: وحدثناه أبو عبيد الله بإسناد عن سفيان مثله.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله مولى بني هاشم قال : حدثنا أبو عوانة عن ابن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أما والله ما بنياه بقصة ولا مدر ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه ولكنهما أعلماه فطافا به : اهـ .

نقول : إن إبراهيم الخليل عليه السلام ، لم يضع باب الكعبة في وسط جدارها الشرقي بل وضعها قريباً من ركن الحجر الأسود أي في موضعها الحالي الذي فيه الآن، ليكون ما بين الباب والركن ملتزماً للدعاء . والله تعالى أعلم بحكمة ذلك .

ثم قال الأزرقي : حدثني جدي ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي قال : لما أمِر إبراهيم أن يبني البيت وانتهى إلى موضع الحجر ، قال لإسماعيل: ائتني بحجر ليكون علماً للناس يبتدئون منه الطواف ، فأتاه بحجر فلم يرضه فأتي إبراهيم بهذا الحجر ، ثم قال : أتاني به من لم يكلني على حجرك .

حدثني جدي قال : حدثنا داود بن عبدالرحمن عن ابن جريج عن بشر بن عاصم قال : أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة والملك والصرد دليلاً يتبوأ البيت كما تبوأت العنكبوت بيتها فرفع صخرة فما رفعها عنه إلا ثلاثون رجلاً ، فقالت السكينة : ابن عليَّ فلذلك لا يدخله أعرابي نافز ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة .

حدثني مهدي بن أبي المهدي ، قال : حدثنا بشر بن السري البصري عن حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة قال : قال الله تعالى : يا آدم إني مهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي ، فلم يزل كذلك حتى كان زمن الطوفان فرفع ، حتى بوأ لإبراهيم مكانه فبناه من خمسة أجبل من حرا ، وثبير ، ولبنان ، والطور ، والجبل الأحمر .

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عمر بن سهل عن يزيد بن نافع عن سعيد عن قتادة في قوله عز وجل: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾ قال: ذكر لنا أنه بناه من خمسة أجبل من طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وحرا، وذكر لنا أن قواعده من حراء.

حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا مروان بن معاوية الغزاري قال: حدثنا العلاء عن عمر بن مرة عن يوسف بن ماهك قال: قال عبد الله بن عمرو إن جبريل عليه السلام، هو الذي نزل عليه بالحجر من الجنة، وإنه وضعه حيث رأيتم، وإنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانكم، فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجيء فيرجع به من حيث جاء به. انتهى كل ذلك من الأزرقي.

دعاء إبراهيم لأهل مكة بالأمن والرزق

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾.

قال الإمام الأزرقي، رحمه الله تعالى، في تاريخه عندما سأله إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام، الأمن والرزق لأهل مكة ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: وأخبرني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني موسى بن عبيدة الربذي عن محمد بن كعب القرظي قال: دعا إبراهيم عليه السلام، للمؤمنين وترك الكفار لم يدع لهم بشيء فقال الله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار﴾، وقال زيد بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ذلك لمن آمن به ثم مصير الكافر إلى النار، قال عثمان: وأخبرني محمد بن السايب الكلبي قال: قال إبراهيم ﷺ: رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلداً آمناً، وآمن فيه الخائف ورزق أهله من الثمرات، تحمل إليهم من الأفق، قال عثمان: وقال مقاتل بن حيان: إنما اختص إبراهيم في مسألته في الرزق للذين آمنوا فقال تعالى: الذين كفروا سأرزقهم مع الذين آمنوا ولكن أمتعهم قليلاً في الدنيا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، قال عثمان: وقال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمناً لا يخاف فيه من دخله.

وحدثني جدي قال : حدثني إبراهيم بن محمد بن المنتشر قال : حدثني سعيد بن السائب بن يسار قال : سمعت بعض ولد نافع بن جبير بن مطعم وغيره يذكرون أنهم سمعوا أنه لما دعا إبراهيم لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات نقل الله عز وجل، أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك رزقاً للحرم .

ثم قال الأزرقي في موضع آخر : حدثني جدي قال : حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : جاء إبراهيم يطالع إسماعيل، عليهما السلام، فوجده غائباً ووجد امرأته الآخرة وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، فوقف فسلم، فردت عليه السلام واستنزلته وعرضت عليه الطعام والشراب، فقال : ما طعامكم وشرابكم؟ قالت : اللحم والماء، قال : هل من حب أو غيره من الطعام؟ قالت : لا، قال : بارك الله لكم في اللحم والماء. قال ابن عباس رضوان الله عليه : يقول رسول الله ﷺ: لو وجد عندها يومئذ حباً لدعا لهم بالبركة فيه، فكانت تكون أرضاً ذات زرع .

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير مثله وزاد فيه قال سعيد بن جبير : ولا يخلى أحد على اللحم والماء بغير مكة إلا وجع بطنه وإن أخلى عليهما بمكة لم يجد كذلك أذى، قال سعيد بن سالم : فلا أدري عن ابن عباس يحدث بذلك سعيد بن جبير أم لا يعني قوله: ولا يخلى أحد على اللحم والماء بغير مكة إلا وجع بطنه .

ثم قال الأزرقي في موضع آخر أيضاً : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: وأخبرني ابن جريج : قال أخبرنا مجاهد قال : إن في حجر في الحِجْر «أنا الله ذو بكة صفتها يوم صفت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، مبارك لأهلها في اللحم والماء، يحلها أهلها، ولا يحلها أول من أهلها» وقال: لا تزول حتى يزول الأخشبان . قال أبو محمد الخزاعي : الأخشبان يعني الجبلين، قال : وأخبرني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرني ضعيف بن عبدالرحمن عن مجاهد قال : وجد في بعض الزبور : أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين وصفتها يوم صفت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء وجعلت رزق أهلها ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طرق من أعلى الوادي وأسفله، وكداء، وباركت لأهلها من اللحم والماء. انتهى من تاريخ الأزرقي .

ذكر حج إبراهيم عليه الصلاة والسلام

قال الإمام الأزرقي في تاريخه « أخبار مكة » ما نصه :

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني محمد بن إسحاق قال : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام جاءه جبريل فقال : طف به سبعاً فطاف به سبعاً هو وإسماعيل يستلمان الأركان كلها في كل طواف . فلما أكملا سبعاً هو وإسماعيل صليا خلف المقام ركعتين قال : فقام معه جبريل ، فأراه المناسك كلها ، الصفا والمروة ومنى ، ومزدلفة ، وعرفة قال : فلما دخل منى وهبط من العقبة تمثل له إبليس عند جمرة العقبة ، فقال له جبريل : ارمه، فرماه بسبع حصيات فغاب عنه ثم برز له عند الجمرة الوسطى فقال جبريل : ارمه، فرماه بسبع حصيات فغاب عنه ، ثم برز له عند الجمرة السفلى ، فقال له جبريل: ارمه ، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخذف فغاب عنه إبليس ، ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفة . فلما انتهى إليها قال له جبريل : أعرفت مناسكك؟ قال إبراهيم : نعم قال : فسميت عرفات بذلك لقوله: أعرفت مناسكك؟ قال : ثم أُمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج قال : فقال إبراهيم : يا رب ما يبلغ صوتي؟ قال الله سبحانه : أذّن وعليَّ البلاغ ، قال : فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها فجُمعت له الأرض يومئذٍ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعاً ، قال : فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمناً وشاماً وشرقاً وغرباً وبدأ بشق اليمن فقال : أيها الناس كُتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم ، فأجابوه من تحت التخوم السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها ، لبيك اللهم لبيك قال: وكانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية فكان أثر قدميه في المقام إلى اليوم قال : أفلا تراهم اليوم يقولون لبيك اللهم لبيك قال: فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم وإنما حجهم على قدر إجابتهم يومئذ فمن حج حجتين فقد كان أجاب مرتين ، أو ثلاثاً فثلاثاً ، وعلى هذا قال : وأثر قدمي إبراهيم في المقام آية وذلك قوله تعالى : ﴿فيه

آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ وقال ابن إسحاق : وبلغني أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم وحجه إسحاق وسارة من الشام ، قال : وكان إبراهيم عليه السلام يحجه كل سنة على البراق ، قال : وحجت بعد ذلك الأنبياء والأمم .

حدثني جدي قال : حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين ، قال أبو محمد عبيد الله المخزومي : حدثنا ابن عيينة بإسناده مثله .

حدثنا الأزرقي قال : وحدثني جدي قال : حدثنا يحيى بن سليم عن ابن خيثم قال : سمعت عبد الرحمن بن سابط يقول : سمعت عبدالله بن ضمرة السلولي يقول : ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبياً جاءوا حجاجاً فقبروا هنالك . انتهى من تاريخ الأزرقي .

وإلى معنى قوله : فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم عليه السلام، أشار ناظم أنساب العرب في طليعة نظمه بقوله :

وحين بالحج الخليل أذنا وفي كلا أذنيه إصبعاً ثنى
أيضاً كأطوال الجبال ارتفعا بها وكل من يحج أسمعا

الخلاصة في كيفية بناء إبراهيم عليه السلام

فخلاصة الكلام المتقدم ، كما ذكرناها في كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» هي أن إبراهيم الخليل بنى الكعبة الغراء بالرضم أي بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا جص ، وبناها على ربوة حمراء تأتيها السيول فتأخذ عن يمينها وشمالها -والربوة المكان المرتفع- وحفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبئر يلقى ما يهدى إليها تكون خزانة لها وكان عمقها ثلاثة أذرع كما ذكره الأزرقي ، ولم يجعل للكعبة سقفاً ولا باباً من خشب أو غيره وإنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقي للدلالة على وجه البيت .

والسبب في ذلك أنهم كانوا على الفطرة لا يعرفون الخيانة ولا السرقة ، وما كان عندهم من الأموال والذهب والفضة ما يسرق ، وما كانوا يسكنون في تلك العصور الأولى كما نسكن نحن في البيوت والقصور المشيدة .

وقد كان بناء إبراهيم للكعبة من خمسة جبال من طور سينا وطور زيتا ولبنان والجودي وحراء، وكانت الملائكة تأتيه بالحجارة من تلك الجبال، فكان هو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة فبناها على أساس آدم، وهذا الأساس حجارته من جبل حراء، كانت الملائكة تأتي بها وتقذف فيه وهو المسمى « بالقواعد »، وقد جعل إبراهيم عليه السلام، للكعبة ركنين فقط: الركن الأسود والركن اليماني، ولم يجعل لها أركاناً من جهة الحِجْر بل جعلها مدورة على هيئة نصف دائرة كجدار الحجر وجعل الحجر إلى جانبها عريشاً من أراك تقتحمه غنم إسماعيل، فكان زرباً لغنمه. وجعل الباب لاصقاً بالأرض وغير مبوب وجعل ارتفاعها من الأرض إلى السماء تسعة أذرع، وجعل عرض جدار وجهها الذي فيه الباب اثنين وثلاثين ذراعاً، وعرض الجدار المقابل له إحدى وثلاثين ذراعاً، وعرض الجدار الذي فيه الميزاب جهة الحجر اثنين وعشرين ذراعاً، وعرض الجدار المقابل له عشرين ذراعاً، وما ذكره صاحب كتاب تاريخ الكعبة المعظمة بأن إبراهيم عليه السلام، جعل لها أبواباً، هو وهم منه، والصواب أنه جعل لها باباً واحداً فقط كما يظهر ذلك عند التأمل في كتب التاريخ.

وقد يتساءل بعضهم: لماذا بنى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، الكعبة المعظمة بالرضم من غير طين ولا جص؟ ولم يجعل لها سقفاً وباباً من الخشب أو غيره؟ ولم يجعل لها بابين أحدهما للدخول والآخر للخروج؟ ولم جعل حجر إسماعيل مدوراً وجعله من شجر الأراك ولم يبنه بالرضم؟ ولماذا لم يكس البيت الحرام بعد الفراغ من بنائه؟

فالجواب: والله تعالى أعلم بالصواب: هو أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنى الكعبة الغراء بالرضم من غير طين ولا جص ومن غير سقف ولا باب، لأن ذلك العصر القديم لم يكن فيه شيء من وسائل البناء وأسباب الحضارة. فمن أين يأتي بالأدوات الحديدية والآلات المختلفة لحفر الأرض وخلط الطين ونشر الخشب ودق المسامير؟

وما دام لم يكن بمكة سوى إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام، ونفر من قبيلة جرهم، وما دام باطن الكعبة تراباً، وجدرانها من حجارة الصخور، فلا لزوم لعمل سقف لها ولا لعمل باب يغلق عليها، كما لا لزوم لعمل مدخلين فيها للدخول وللخروج لقلة السكان بمكة.

وأما جعله حجر إسماعيل مدوراً كما هو الآن ، فليتناسب شكله بشكل جدار الكعبة المقابل للحجر الذي كان مدوراً أيضاً ولينتهي إليه حدود البيت . وأما جعله من شجر الأراك من غير أن يجعله مبنياً بالرضم ، فليعلم أنه تابع للبيت ومن حدوده ومن غير أن يدخل في ذات بنائه . ولم يكس البيت لأنه لم يؤمر بذلك ، ثم لم تكن مكة عامرة بالناس إنما بها نفر من جرهم وما كانوا يعرفون صناعة النسيج في ذلك الزمن حتى يخيطوا له ثوباً .

وعلى كل حال ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لا يعملون شيئاً مما له مساس في الدين إلا بأمر الله تعالى هذا ما ظهر لنا والله أعلم بالغيب .

ارتفاع أرض مكة عما كانت عليه قديماً

تقدم أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، بنى الكعبة الغراء فوق ربوة مرتفعة تأتيها السيول فتأخذ عن يمينها وشمالها ، لأن وادي إبراهيم محاط بالجبال ، والكعبة على ربوة مرتفعة فلا تصل السيول إليها ، وهذا كان بطبيعة الأرض القديمة ، ثم بمرور السنين والأجيال ، أي من نحو أربعة آلاف سنة ، تغيرت وارتفعت ، ولقد تكلمنا عن هذه المسألة في كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام، وإليك نص ما جاء فيه :

أما الآن فقد انخفضت أرض المسجد الحرام وارتفعت أرض الشوارع المحيطة به بنحو ثلاثة أمتار وفي بعض الجهات بأكثر بسبب ما تأتي به الأمطار والسيول من الأتربة والحجارة من رؤوس الجبال وبطون الأودية وعدم إخراج ذلك.

أما في الزمن السابق أي قبل أربعمائة سنة فقد كان مجرى السيل من الجهة الشمالية أي جهة باب الزيادة ومن الجهة الجنوبية أي جهة باب أجياد يقطع ويحمل ترابه إلى خارج البلدة جهة المسفلة في كل عشرة أعوام مرة حتى لا تدخل السيول في المسجد الحرام ، ثم أهمل ذلك حتى ارتفعت الطرقات ولقد كان الخارج من المسجد الحرام من باب إبراهيم ينزل نحو خمس عشرة درجة حتى يصل إلى أرض الشارع أما الآن فإنه لم يبق منها سوى ثلاث درجات والباقي مطمور تحت الأرض وكان الخارج من المسجد من باب الزيادة ينزل ثلاث عشرة درجة حتى يصل إلى أرض الشارع أي بعدد درجات المسجد من الداخل .

ثم ارتفعت الأرض بسبب ما تأتي به السيول من الطين وغيره فلدفن منها ست درجات وذلك قبل سنة ألف وثلاثمائة وأما الباقي وهو سبع درجات فقد أدركناها وكنا نرقى عليها حتى نصل إلى باب المسجد ثم إنه في آخر شهر شعبان سنة ست وستين وثلاثمائة وألف هجرية فرشت أرض باب الزيادة بالتراب والحصى وبلطت بالنورة الإفرنجية المسماة « بالإسمنت » وبذلك دفن أيضاً خمس درجات منها فصار الباقي الآن درجتين فقط يصعد الناس منهما إلى المسجد .

وذكر ابن حجر في حاشيته على إيضاح النووي أنه كانت على الصفا اثنتا عشرة درجة وعلى المروة خمس عشرة درجة وأن الفرسان كانت تمر في المسعى والرماح قائمة فلا يرى من بالمسجد إلا رؤوسها . وذكر الأزرقي في تاريخه أن أول من بنى درج الصفا والمروة عبدالصمد بن علي في خلافة أبي جعفر المنصور. انتهى من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام .

ونقول أيضاً : إن في عصرنا هذا بل منذ سنة (١٣٧٥) التي بدأ فيها بتوسعة المسجد الحرام بمكة وتوسعة الشوارع ، والناس يشاهدون ارتفاع الأرض في محل من المحلات وانخفاضها في محلات أخرى بل يشاهدون إزالة بعض الجبال وتنحية الصخور عن أماكنها ، فسبحان من له الدوام وإليه يرجع الأمر كله ولا ينقص من ملكه شيء جل جلاله ولا إله غيره والله أكبر .

مميزات بناء إبراهيم الكعبة

(١) كانت بناية إبراهيم الكعبة على أساس بناية آدم عليهما الصلاة والسلام .

(٢) وكانت بناية الكعبة ، بالرضم حجارة بعضها فوق بعض من غير طين وجص ولا نورة .

(٣) وكانت الكعبة مستطيلة الشكل .

(٤) وكانت مدورة من جهة حجر إسماعيل التي فيها الميزاب وليس بها سوى الركن الأسود والركن اليماني .

(٥) وكان بها حفرة على يمين الداخل عمقها ثلاثة أذرع – وتسمى جب الكعبة وخزانتها .

(٦) وكان بها باب واحد فقط من الجهة الشرقية كما في عصرنا الحاضر، أي جعل بها فتحة للباب ولم يكن بها باب يفتح ويغلق لا من الخشب ولا من غيره.
(٧) وكان الباب لاصقاً بالأرض غير مرتفع.
(٨) وكان حجر إسماعيل مدوراً من شجر الأراك.
(٩) ولم يكن للكعبة سقف. وطبعاً لا يكون لها ميزاب إن لم يكن هناك سقف.
(١٠) ولم تكن لها كسوة، وإنما أول من كساها تُبّع الحميري وهو أول من جعل لها باباً.
(١١) وقد جعل ارتفاعها من الأرض نحو السماء تسعة أذرع.
(١٢) وجعل عرض جدار وجهها الذي فيه الباب اثنين وثلاثين ذراعاً.
(١٣) وجعل الجدار المقابل له أحداً وثلاثين ذراعاً.
(١٤) وجعل عرض الجدار الذي فيه الميزاب جهة الحجر اثنين وعشرين ذراعاً.
(١٥) وجعل الجدار المقابل له عشرين ذراعاً.
(١٦) وكانت بناية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، منذ أربعة آلاف سنة.

(تنبيه) الذراع المذكور هنا هو نفس ذراع إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وذراعه كذراع أهل عصرنا لأن طوله عليه السلام، كان كطولنا، بدليل وجود أثر قدميه في مقامه ﷺ الذي هو عند الكعبة المشرفة، وقدماه كأقدامنا سواء بسواء وقد رأيناهما و لله الحمد مراراً، وألفنا في مقامه كتاباً سميناه « مقام إبراهيم عليه السلام » وهو مطبوع بمصر بمطبعة البابي الحلبي وأولاده.

ذكر الأنبياء الذين ربتهم أمهاتهم

إذا تأملنا في قصة « هاجر وابنها إسماعيل » نجد أن نبي الله إسماعيل عليه السلام، تربى بواسطة أمه فقط، ليس لأبيه شأن في تربيته، بل ما اجتمع مع أبيه وهو كبير بلغ مبلغ الرجال، ولقد كان هذا الحال أيضاً شأن ثلاثة من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وهم « موسى وعيسى ومحمد » ورابعهم وهو الأول «إسماعيل » فكل واحد من هؤلاء الأنبياء الأربعة، عليهم الصلاة والسلام، ، قد عهد الله تعالى بتربيتهم إلى أمهاتهم الزاهرات الطاهرات، فقمن نحو أبنائهن بواجبات الأمومة وواجبات الأبوة خير قيام، وفي ذلك من الحِكَم والأسرار ما لا

يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكل من هؤلاء الأنبياء الأربعة « إسماعيل وموسى وعيسى ومحمد » عليهم الصلاة والسلام ، شأن عظيم وحياة شريفة ناصعة مليئة بعظائم الأمور وجليل الأعمال .

فإسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، بعد أن كان وحيداً مع أمه « هاجر » بمكة في ذلك القفر الموحش والصحراء الجرداء ، لا أنيس معهما ولا جليس ، وقد تعرض هو وأمه في صغره بعد وصولهما لمكة للموت والهلاك ، من العطش والجوع لنفاد ما كان معهما من ماء قليل وطعام من تمر يسير ، إذا به قد صار بعد مدة من الزمن أمة من الأمم ، العريقة في الحسب والنسب ، بل صار أباً للعرب المستعربة وأصلاً ثابتاً ينتسبون إليه .

كما كان هو أول من بنى مع أبيه إبراهيم الخليل ، عليهما الصلاة والسلام ، بيت الله الحرام قبلة كافة المسلمين ، فما أعظمه من شرف ثابت قائم إلى يوم الدين .

وموسى كليم الله ، عليه الصلاة والسلام ، بعد أن ألقي في اليم وهو حديث عهد بالولادة ، خوفاً عليه من فرعون ليذبحه كما ذبح آلافاً من الأولاد ، فحفظه الله من الغرق ورده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، فتولت هي إرضاعه وتربيته ونشأ في قصر عدوه اللدود فرعون . وبعد أن هرب منه في كبره خوفاً عليه من القتل ، وعمل أجيراً عدة سنوات ، إذا به يصطفيه الله تعالى بكلامه وبرسالته ويختاره لبني إسرائيل نبياً وزعيماً ، وينصره على عدوه فرعون بإغراقه مع قومه في البحر .

وقد جاء في سورة القصص آيات كثيرة في قصته عليه الصلاة والسلام ، منها ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليوم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ۞ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ۞ وقالت امرأة فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ۞ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ۞ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ۞ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ۞ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق

ولكن أكثرهم لا يعلمون ۞ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾.

وعيسى عليه الصلاة والسلام، ليس له أب لذلك ينسب إلى أمه فيقال: «عيسى ابن مريم» وقد جعله الله تعالى آية للناس ورحمة، وفي سورة مريم جاءت قصته واضحة صريحة، وفي الآيات الآتية ما تكلم به عيسى عليه السلام، وهو رضيع في المهد وهي: ﴿قال إني عبد الله آتـني الكتاب وجعلني نبياً ۞ وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ۞ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ۞ والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ۞ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ۞ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ۞ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

لقد فرت مريم بابنها عيسى إلى مصر لكي تنجو من الكيد والأذى، فأقامت هناك اثني عشر عاماً ترعى ابنها، وكانت تغزل الكتان وتلتقط السنابل في أثر الحصادين.

ويروي المؤرخون عن عنايتها بابنها «عيسى» أنها أخذته صغيراً إلى الكتاب وأقعدته بين يدي المؤدب، حتى أذن لها فعادت به إلى أورشليم «القدس».

ولما بلغ عيسى عليه الصلاة والسلام، ثلاثين سنة أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل، فانصرف عن أمه العزيزة الكريمة ليتفرغ بالدعوة، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى، في سورة المؤمنون: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ ويقول أيضاً في سورة الأنبياء: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ ويقول أيضاً في سورة مريم: ﴿ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾.

وأما نبينا «محمد» ﷺ الذي هو آخر الأنبياء، فقد مات بالمدينة أبوه عبد الله بعد أن حملت به أمه الكريمة آمنة بنت وهب بشهرين، فلما تمت مدة الحمل وأشرقت الدنيا بنور محياه، استبشر به جده عبدالمطلب وفرح به فرحاً شديداً وسماه «محمداً»، ثم إن أمه «آمنة بنت وهب» أسلمته إلى المرضعة «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية» ليتربى في البادية على حسب عادة العرب في مواليدهم، فمكث عندهم نحو أربع سنوات، ثم جاءت به مرضعته «حليمة السعدية» إلى أمه «آمنة»

فأخذته منها وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه، وبينما هي عائدة إلى مكة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء، فحضنته «أم أيمن» وكفله جده عبدالمطلب وكان يحبه أشد الحب، فلما بلغ عمره ثماني سنوات مات جده عبدالمطلب، فكفله عمه شقيق أبيه «أبو طالب» فكان يحبه ويكرمه إكراماً عظيماً، وحينما بعثه الله تعالى إلى الناس كان أبو طالب يحوطه بالرعاية وينصره ويحميه من كفار قريش، ثم لما بلغ ﷺ نحو تسع وأربعين سنة وبضعة أشهر مات عمه أبو طالب.

إن رسول الله ﷺ فقد والديه في صغره ولم يرث منهما شيئاً، ولما كبر وقدر على العمل صار يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط كما ذكره البخاري في صحيحه، ثم بعد ذلك صار يتجر وكان شريكه في التجارة السائب بن أبي السائب، وذهب إلى الشام بالتجارة لخديجة، رضي الله تعالى عنها، ولما رأت خديجة أمانته وبركته وما امتاز به من الكمال والفضل والأخلاق اختارته زوجاً وخطبته لنفسها ففازت بسعادة الدارين.

وقد امتن الله عز وجل عليه بما اختصه به وأنعم عليه في سورة الضحى بقوله: ﴿والضحى ۞ والليل إذا سجى ۞ ما ودعك ربك وما قلى ۞ وللآخرة خير لك من الأولى ۞ ولسوف يعطيك ربك فترضى ۞ ألم يجدك يتيماً فآوى ۞ ووجدك ضالاً فهدى ۞ ووجدك عائلاً فأغنى ۞ فأما اليتيم فلا تقهر ۞ وأما السائل فلا تنهر ۞ وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

هذه السورة الكريمة فيها كثير من المسائل، وفيها شفاء لصدور العلماء والصالحين ممن زوى الله عنهم الدنيا، ولا نريد شرح ذلك خوفاً من الخروج مما نحن بصدده، وهو لا يخفى على المتأمل الذكي واللبيب العاقل.

فانظر رحمك الله تعالى إلى حال من ذكرناهم من الأنبياء الأربعة وهم «إسماعيل، وموسى، وعيسى، ومحمد» عليهم الصلاة والسلام، تجد أن الله تعالى وكل أمر تربيتهم وهم صغار إلى أمهاتهم، ثم كانوا في شظف من العيش وحالة من الفقر بحيث كانوا يرعون الغنم لأهل بلدتهم، بل ما من نبي إلا وقد رعى الغنم كما هو ثابت في صحيح البخاري، لأن في رعيها جملة أمور:

(١) منها: البعد عن الخَلْق في طلبهم الرعي في البراري والقفار، وبذلك يأنسون إلى الوحدة فيعبدون الله تعالى بطمأنينة وراحة قلب، ويتفكرون في خلق

السموات والأرض -ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار- وفي الغالب أول ما ينزل عليهم الوحي ينزل في الخلاء.

(٢) ومنها: أن رعي الغنم يستدعي استعمال الرأفة واللطف والمشي معها بالهون والسكينة.

(٣) ومنها: أن في رعي الغنم تدرباً لرعي الخلائق ورعايتهم وحسن سياستهم ودعوتهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

(٤) ومنها: معرفتهم لأحوال البادية كما عرفوا أحوال المدن، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

والحقيقة أن المشاهدة التي لا تنكر: أننا نرى كثيراً من فطاحل العلماء، وكبار الفنانين النبلاء، ومشاهير المخترعين العظماء، قد لاقوا في أول حياتهم من الفقر المدقع والمصائب ما يشيب لها الأطفال، ثم تداركهم الله تعالى بلطفه ورحمته حتى أصبحوا من عظماء الرجال ومشاهير الأجيال، وكانوا موضع فخر أمتهم وسبباً في مجد أقوامهم، وخدمتهم التاريخ فسجل أسماءهم وأعمالهم، ومن قرأ كتب التراجم والطبقات، عرف ما لاقى هؤلاء في حياتهم الأولى من التعب والمشقات، ثم ما وصلوا إليه من الشهرة ورفيع الدرجات، وبعض هؤلاء لا يظهر فضلهم إلا بعد الممات وإلى هذا يشير القائل:

فترى الكريم كشمعة من عنبر ضاعت فإن طفئت تَضَوَّع نشرها

فحالات الدنيا في تغير «فلا فقر يدوم ولا غناء» ومن صبر نال ما تمنى، قال الشاعر:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فالرجل العظيم كعود العطر لا تظهر رائحته الزكية إلا بعد إحراقه، كذلك الأفذاذ من الرجال لا يظهر فضلهم ونبوغهم إلا بعد أن يذوقوا مرارة العيش ويحترقوا بنار الفاقة والابتلاء.

ويسأل بعضهم لماذا لا نرى النبغاء والمشاهير في العلوم والفنون من الأغنياء، ولماذا اختص الفقراء بذلك؟ فنقول:

لما كان المال من زينة الحياة الدنيا ، والدنيا بنفسها دار لهو وغرور ، صار الأغنياء وأولادهم منغمسين في الشهوات ، متنعمين بما لديهم من الملذات ، وكانت أفكارهم محصورة في استثمار الأموال وإنفاقها في لهوهم فنقول :

وأما الفقراء فليس لديهم من المال والدنيا ما يلهيهم ويشغلهم ، فإذا ما وجدوا القوت الضروري حمدوا الله تعالى وسكنوا إلى الراحة وخلوا بأنفسهم ، فإذا طرأ على بال أحد منهم أمر ، وجد في نفسه فراغاً ونشاطاً لبحث هذا الأمر من جميع نواحيه ، فإذا اتجهت نفسه للعلم تفرغ له ، وإذا اتجهت للفنون الجميلة أشبع رغبتها ، وإذا اتجهت إلى اختراع ما ينفع الإنسانية انقطع إليه ، حتى إذا استكمل بغيته وبلغ أمنيته إذا به في مصاف النبغاء والعظماء .

نعم إننا لا ننكر أن بين الأغنياء نوابغ في العلوم والفنون ، ولكن ذلك قليل ونادر والنادر لا حكم له ، قال الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

على أن بعض الأغنياء قد نبغوا في ناحية استثمار أموالهم ، ونهضوا بأعمال تعود بالنفع إلى أمتهم وقومهم ، كإنشاء المصانع ، وافتتاح البنوك ، وقيام الشركات ، وتوسيع تجارتهم بمختلف أنواعها ، فهؤلاء أيضاً لهم قيمتهم ومكانتهم التي لا تنكر ، ويعدون أيضاً من أفذاذ الرجال .

نسأل الله تعالى أن يزيد في الأمة الإسلامية من الرجال العاملين والعمال المخلصين ، حتى تزدهر بهم الحياة الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وقد قال سبحانه: ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ .

الكلام على زمزم وخروجه لإسماعيل وأمه عليهما الصلاة والسلام

لما كان ماء زمزم بمكة المشرفة ، من أقدم المياه ، وكان عند الكعبة في حد المسجد الحرام بينهما بضعة أمتار ، وكان هو شراب الأنبياء والأصفياء والأبرار ، وقد جاءت في فضله عدة أحاديث ، « بأنه طعام طعم وشفاء سقم وهو لما شُرب له » بل وضع فيه بعض المؤلفات منها (رسالة الجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم) تأليف العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن شمس الدين المكي ، رحمه الله تعالى ،

وجب أن نتكلم عنه بما يشفي الغليل من كافة الوجوه ، فنقول وبا لله التوفيق ومنه نستمد العون والسداد :

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : أخبرني مسلم بن خالد عن ابن جريج عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير قال : حدثنا عبدا لله بن عباس أنه حين كان بين أم إسماعيل بن إبراهيم وبين سارة امرأة إبراهيم ما كان أقبل إبراهيم نبي ا لله بأم إسماعيل وهو صغير ترضعه حتى قدم بهما مكة ومع أم إسماعيل شنة فيها ماء تشرب منه وتدر على ابنها وليس معها زاد ، ويقول سعيد بن جبير : قال ابن عباس : فعمد بهما إلى دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد -يشير لنا بين البير وبين الصفة- يقول فوضعهما تحتها ، ثم توجه إبراهيم خارجاً على دابته واتبعت أم إسماعيل أثره حتى أوفى إبراهيم بكدا يقول ابن عباس : فقالت له أم إسماعيل إلى من تتركنا وابنها؟ قال : إلى ا لله عز وجل ، قالت : رضيت با لله ، فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها حتى قعدت تحت الدوحة فوضعت ابنها إلى جنبها وعلقت شنتها تشرب منها وتدر على ابنها حتى فني ماء شنتها فانقطع درها فجاع ابنها فاشتد جوعه حتى نظرت إليه أمه يشمط قال : فحسبت أم إسماعيل أنه يموت فأحزنها ، يقول ابن عباس : قالت أم إسماعيل : لو تغيبت عنه حتى يموت لا أرى موته ، يقول ابن عباس : فعمدت أم إسماعيل إلى الصفا حين رأته مشرفاً تستوضح عليه -أي ترى أحداً بالوادي- ثم نظرت إلى المروة فقالت : لو مشيت بين هذين الجبلين تعللت حتى يموت الصبي ولا أراه يقول ابن عباس : فمشت بينهما أم إسماعيل ثلاث مرات أو أربع ولا تجيز ببطن الوادي في ذلك إلا رملاً ، يقول ابن عباس : ثم رجعت أم إسماعيل إلى ابنها فوجدته ينشع كما تركته فأحزنها فعادت إلى الصفا تتعلل حتى يموت ولا تراه ، فمشت بين الصفا والمروة كما مشت أول مرة ، يقول ابن عباس : حتى كان مشيها بينها سبع مرات ، قال ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ : فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة ، قال : فرجعت أم إسماعيل تطالع ابنها فوجدته كما تركته ينشع ، فسمعت صوتاً قد آب عليها و لم يكن معها أحد غيرها فقالت : قد أسمع صوتك فأغثني إن كان عندك خير قال : فخرج لها جبريل عليه السلام ، فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر -يعني زمزم- فظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل ، يقول ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ : فحاضته أم إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنها (يقول أبو القاسم ﷺ : ولو تركته أم إسماعيل

كان عيناً معيناً يجري) ، يقول ابن عباس : جاءت أم إسماعيل بشنتها فاستقت وشربت ودرت على ابنها .

فبينا هي كذلك إذ مرَ ركب من جرهم قافلين من الشام في الطريق السفلى فرأى الركب الطير على الماء فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أنيس ، يقول ابن عباس : فأرسلوا جريين لهم حتى أتيا أم إسماعيل فكلماها ثم رجعا إلى ركبهما فأخبراهم بمكانها . فرجع الركب كلهم حتى حيوها فردت عليهم وقالوا : لمن هذا الماء؟ قالت أم إسماعيل : هو لي ، قالوا لها : أتأذنين لنا أن نسكن معك عليه ؟ قالت: نعم ! يقول ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ: ألفى ذلك أم إسماعيل وقد أحبت الأنس فنزلوا وبعثوا إلى أهلهم فقدموا وسكنوا تحت الدوح ، واعترشوا عليها العرش فكانت معهم هي وابنها .

وقال بعض أهل العلم : كانت جرهم تشرب من ماء زمزم فمكثت بذلك ما شاء الله أن تمكث ، فلما استخفت جرهم بالحرم ، وتهاونت بحرمة البيت ، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها سراً وعلانية ، وارتكبوا مع ذلك أموراً عظاماً ، نضب ماء زمزم وانقطع ، فلم يزل موضعه يدرس ويتقادم وتمر عليه السيول عصراً بعد عصر حتى خفي مكانه . وقد كان عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي قد وعظ جرهماً في ارتكابهم الظلم في الحرم واستخفافهم بأمر البيت وخوفهم النقم ، وقال لهم : إن مكة بلد لا تقر ظالماً فالله الله قبل أن يأتيكم من يخرجكم منها خروج ذل وصغار فتتمنوا أن تتركوا تطوفون بالبيت فلا تقدروا على ذلك ، فلما لم يزدجروا ولم يعون وعظه عمد إلى غزالين كانا في الكعبة من ذهب وأسياف قلعية كانت أيضاً في الكعبة ، فحفر لذلك كله بليل في موضع زمزم ودفنه سراً منهم حين خافهم عليه ، فسلط الله عليهم خزاعة فأخرجتهم من الحرم ووليت عليهم الكعبة والحكم بمكة ما شاء الله أن تليه ، وموضع زمزم في ذلك لا يعرف لتقادم الزمان حتى بوأه الله تعالى لعبد المطلب بن هاشم لما أراد الله من ذلك فخصه به من بين قريش . انتهى من تاريخ الأزرقي .

الكلام على بئر زمزم

جاء في تاريخ ابن كثير المسمى « البداية والنهاية » في الجزء الأول عند الكلام على ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال «فاران» وهي أرض مكة ما نصه :

قال البخاري : قال عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن أبي شيبة : حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المِنْطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قضى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له: ا الله أمرك بهذا؟ قال: نعم! قالت: إذاً لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يلتوي أو قال : يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ: فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسها ثم تسمّعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم

فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ: « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم » أو قال: « لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً » فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ! ولكن لا حق لكم في الماء قالوا: نعم .

قال عبدالله بن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسَهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ في ضيق وشدة وشكت إليه ... إلى آخر القصة . انتهى المراد من تاريخ ابن كثير.

(فإن قيل) : حيث إن ماء زمزم خرجت لأم إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، على وجه الأرض فأحاطته بالتراب حتى لا تجري ، فمن الذي حفر بئر زمزم وبناها كما نراها اليوم ؟

(نقول) : إن غور بئر زمزم كان بسبب تعدد حفرها ، فإنه لما تهاونت جرهم بحرمة البيت والحرم نضب ماء زمزم وانقطع ، فلم يزل موضعه يدرس ويتقادم . ثم إن عمرو بن الحارث ابن مضاض لما وعظ جرهماً ليرتدعوا عن الظلم والاستخفاف بأمر البيت فلم يزدجروا ، حفر بئر زمزم وعمد إلى الغزالين اللذين كانا في الكعبة فدفنهما فيها .

فما زالت زمزم مدروسة حتى جاء عبدالمطلب بن هاشم فحفرها وأخرج الغزالين الذهب كما أخرج منها سيوفاً ودروعاً وسلاحاً ، قال الأزرقي : فحفر

حتى أنبط الماء في القرار ثم بحرها حتى لا ينزف، ثم بنى عليها حوضاً فطفق هو وابنه ينزعان فيملآن ذلك الحوض فيشرب منه الحاج.

ثم بعد ذلك تعاقب الإصلاح على بئر زمزم في كل عصر ووقت إلى يومنا هذا، فبنيت البئر مراراً من أعلاها وأسفلها، وحفر قعرها ونظف، وقد فصلنا كل ذلك في هذا الباب كما سيقف القارئ الكريم عليه.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: لما سمعت خبر النبي ﷺ أتيت مكة فسألت عن مكانه، فمال علي أهل الوادي وكانوا يضربونني حتى خررت مغشياً علي، ففررت منهم واختفيت بين أستار الكعبة، فرأيت في بعض الليالي رسول الله يطوف فحييت تحية الإسلام، فقال لي: مذ متى كنت هنا؟ قلت مذ ثلاثين يوماً، قال: فمن يطعمك؟ قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم. فقال عليه الصلاة والسلام: إنها مباركة إنها طعام طعم. ومعنى الطعام ما يؤكل، والطعم بضم فسكون مصدر بمعنى الأكل والذوق أي إنه طعام مشبع. اهـ.

وقد جاء في الصحيحين عن خروج زمزم لإسماعيل وبناء إبراهيم الكعبة، عليهما الصلاة والسلام، وبناء قريش لها أيضاً وفي غيرهما من كتب الأحاديث فراجعها إن شئت.

وجاء في تاريخ الخميس عندما وصل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة المشرفة ما نصه:

وفي معالم التنزيل: فوضعهما إبراهيم عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلا المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ولا عمارة ولا زراعة.

وفي رواية: وضعهما عند تل ستبنى الكعبة عليه. وفي الاكتفاء: فلما أراد إبراهيم أن يخرج ورأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس ولا ماء ظاهر تركت ابنها في مكانه وتبعت إبراهيم فقالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا؟ فسكت عنها حتى إذا دنا من كداء قال: إلى الله عز وجل أدعكم. قالت: فالله أمرك بهذا؟ قال: نعم! قالت: فحسبي تركتنا إلى كاف، وانصرفت هاجر إلى ابنها وخرج إبراهيم حتى وقف على كداء ولا بناء ولا ظل ولا شيء يحول دون ابنه فنظر إليه فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

وفي رواية : فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه إلى البيت بهذه الدعوات .

وعن مجاهد: لو قال: أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم.

وفي الكشاف قيل: لو لم يقل: « من » لازدحموا عليها حتى الروم والترك والهند .

وفي أنوار التنزيل : لحجت اليهود والنصارى والمجوس .

وفي الاكتفاء : ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام ورجعت أم إسماعيل إلى ابنها وعمدت هاجر فجعلت عريشاً في موضع الحجر من سمر وثمام القتة عليه ومعها شن فيه ماء . وفي رواية : وضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء .

وفي الاكتفاء : فلما نفد الماء عطش إسماعيل وعطشت أمه فانقطع لبنها فأخذ إسماعيل كهيئة الموت فظنت أنه ميت فجزعت وخرجت جزعاً أن تراه على تلك الحالة وقالت : يموت وأنا غائبة عنه أهون علي وعسى الله أن يجعل لي في ممشاي خيراً ، فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا فأشرفت عليه تستغيث ربها وتدعوه ثم انحدرت إلى المروة فلما كانت في الوادي خبت حتى انتهت إلى المروة .

وفي رواية : لما بلغت بطن الوادي غاب الولد عن عينها فرفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : فلذلك سعى الناس بينهما ، يعني صار ذلك من شعائر الحج .

وفي الاكتفاء : فعلت ذلك مرات كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها فتراه على حاله وإذا أشرفت على المروة فمثل ذلك ، وكان ذلك أول سعي بين الصفا والمروة وكان من قبلها يطوفون بالبيت ولا يسعون بين الصفا والمروة ولا يقفون المواقف حتى كان إبراهيم ، فلما كان الشوط السابع ويئست سمعت صوتاً فاستمعت، فلم تسمع إلا الأول فظنت أنه شيء عرض لسمعها من الظمأ والجهد ، فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك فأقامت على المروة ثم سمعت الصوت الأول فقالت: إني سمعت صوتك فأعجبني ، فإن كان عندك خير فأغثني، فإني قد هلكت وهلك ما عندي .

وفي رواية، قالت: أيها الذي قد سمعت إن كان عندك غوث فأغثني، وكان الصائت جبريل انتهى. فخرج الصوت يصوت بين يديها وخرجت تتلوه قد قويت له نفسها حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل، ثم بدا لها جبريل فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم فضرب بعقبه مكان البئر، فظهر الماء فوق الأرض حين فحص بعقبه. وفي الحدائق: فبحث بعقبه أو قال بجناحه على شك الراوي وفارت بالرواء وجعلت أم إسماعيل تحظر الماء بالتراب وتحوضه خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنها فاستقت وبادرت إلى ابنها فسقته. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت عيناً معيناً.

وفي الاكتفاء: فشربت فإذا ثدياها يتقطران لبناً فكان ذلك اللبن طعاماً وشراباً لإسماعيل وكانت تجتزئ بماء زمزم فقال للملك: لا تخافي أن ينفد هذا الماء، وأبشري فإن ابنك سيشب، ويأتي أبوه من الشام فيبنون هاهنا بيتاً يأتيه عباد الله من أقطار الأرضين، ملبين لله جل ثناؤه فيطوفون به ويكون هذا الماء شراباً لضيفان الله عز وجل الذين يزورون بيته. فقالت في جوابه: بشرك الله بكل خير. وطابت نفسها وحمدت الله تعالى وأقبل غلامان من العماليق يريدان بعيراً لهما أخطأهما، وقد عطشا وأهلهما بعرفة، فنظرا إلى طير تهوي قِبَل الكعبة فاستنكرا ذلك وقالا: إنما يكون الطير على غير ماء. فقال أحدهما لصاحبه: أمهل حتى نبرد ثم نسلك في مهوى الطير. فأبرد ثم تروحا فإذا الطير ترد وتصدر، فاتبعا الواردة منها حتى وقفا على أبي قبيس فنظرا إلى الماء وإلى العريش فنزلا وكلّما هاجر وسألاها متى نزلت؟ فأخبرتهما وقالا: لمن هذا الماء؟ فقالت: لي ولابني. فقالا: من حفره؟ فقالت: سقانا الله عز وجل. فعرفا أن أحداً لا يقدر أن يحفر هناك ماء وعهدهما بما هناك قريب وليس به ماء، فرجعا إلى أهلهما من ليلتهما فأخبراهم فتحولوا حتى نزلوا معها على الماء، فأنست بهم ومعهم الذرية فنشأ إسماعيل مع ولدانهم وكان إبراهيم يزور هاجر في كل شهر على براق يغدو غدوة فيأتي مكة ثم يرجع فيقيل من منزله بالشام فزارها بعد ونظر إلى من هناك من العماليق وإلى كثرتهم وغمارة للماء فسر بذلك. ولما بلغ إسماعيل أن يسعى مع إبراهيم في أشغاله ويعينه في حوائجه وأعماله وذلك حين كان ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل ابن سبع سنين، وقيل أربع سنين رأى إبراهيم في المنام أن يذبحه. انتهى من تاريخ الخميس.

حفر عبد المطلب جد النبي ﷺ زمزم

لما استخفت جرهم بحرمة الكعبة والحرم وطغوا وبغوا، غاص ماء زمزم ودرس موضعه حتى صار لا يعرف، وقيل: إن جرهماً طمست البئر حين نفيت من مكة، ثم بعد ذلك استخرجها عبدالمطلب بعد أن أهداه الله تعالى إلى مكانه، قال الفاسي في شفاء الغرام: وروينا في تاريخ الأزرقي عن الزهري ما يقتضي أن حفر عبد المطلب لزمزم كان بعد مولد النبي ﷺ؛ لأن الأزرقي روى بسنده إلى الزهري أن حفر عبدالمطلب لزمزم كان بعد الفيل، والنبي ﷺ ولد عام الفيل على الصحيح والله تعالى أعلم. انتهى.

ولقد ذكر الإمام الأزرقي في تاريخه قصته في حفر زمزم، فقد قال بعد أن ساق خبر إخراج جبريل زمزم لأم إسماعيل ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني مهدي بن أبي المهدي قال: حدثنا عبدالله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن الزهري قال: أول ما ذكر من عبدالمطلب بن هاشم جدّ رسول الله ﷺ أن قريشاً خرجت فارة من أصحاب الفيل وهو غلام شاب فقال: والله لا أخرج من حرم الله أبتغي العز في غيره قال: فجلس عند البيت وأجلت عنه قريش فقال:

لا هم إن المرء يمـ ... نع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ... وضلالهم عدواً محالك

قال: فلم يزل ثابتاً في الحرم حتى أهلك الله الفيل وأصحابه فرجعت قريش وقد عظم فيها لصبره وتعظيمه محارم الله عز وجل. فبينما هو في ذلك وقد ولد له أكبر بنيه فأدرك وهو الحارث بن عبدالمطلب فأُتي عبدالمطلب في المنام فقيل له: احفر زمزم خبئة الشيخ الأعظم فاستيقظ فقال: اللهم بيّن لي، فأتى في المنام مرة أخرى فقيل له: احفر زمزم بين الفرث والدم عند نقرة الغراب في قرية النمل مستقبلة الأنصاب الحمر، فقام عبدالمطلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينظر ما سمي له من الآيات فنُحرت بقرة بالحَزْوَرة فانفلتت من جازرها بحشاشة نفسها حتى غلبها الموت في المسجد في موضع زمزم، فحزرت تلك البقرة في مكانها حتى احتمل لحمها، فأقبل غراب يهوي حتى وقع في الفرث. فبحث عن قرية النمل فقام عبدالمطلب فحفر هنالك فجاءته قريش فقالت لعبد المطلب، ما

هذا الصنيع؟ إنا لم نكن نزنك بالجهل لم تحفر في مسجدنا؟ قال عبد المطلب : إني لحافر هذا البير ومجاهد من صدني عنها ، فطفق هو وابنه الحارث وليس له ولد يومئذ غيره فسفه عليهما يومئذ ناس من قريش فنازعوهما وقاتلوهما وتناهى عنه ناس من قرش لما يعلمون من عتق نسبه وصدقه واجتهاده في دينهم يومئذ ، حتى إذا أمكن الحفر واشتد عليه الأذى نذر إن وفى له عشرة من الولد أن ينحر أحدهم ثم حفر حتى أدرك سيوفاً دفنت في زمزم حين دفنت فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالوا : يا عبدالمطلب : أجزنا مما وجدت . فقال عبدالمطلب: هذه السيوف لبيت الله الحرام ، فحفر حتى أنبط الماء في القرار ثم بحرها حتى لا ينزف ثم بنى عليها حوضاً فطفق هو وابنه ينزعان فيملآن ذلك الحوض فيشرب به الحاج فيكسره ناس من حسدة قريش بالليل ، فيصلحه عبدالمطلب حين يصبح ، فلما أكثروا فساده دعا عبدالمطلب ربه ، فأري في المنام فقيل له : قل : اللهم إني لا أحلها لمغتسل ولكن هي للشارب حل وبل ثم كفيتهم ، فقام عبد المطلب -يعني حين اختلفت قريش في المسجد- فنادى بالذي أري ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش إلا رمي في جسده بداء حتى تركوا حوضه وسقايته .

ثم تزوج عبدالمطلب النساء فولد له عشرة رهط فقال : اللهم إني كنت نذرت لك نحر أحدهم وإني أقرع بينهم فأصب بذلك من شئت ، فأقرع بينهم . فطارت القرعة على عبدالله بن عبدالمطلب وكان أحب ولده إليه فقال عبدالمطلب : اللهم أهو أحب إليك أم مائة من الإبل؟ ثم أقرع بينه وبين المائة من الإبل ، فكانت القرعة على المائة من الإبل ، فنحرها عبد المطلب .

حدثني محمد بن يحيى عن الثقة عنده عن محمد بن إسحاق قال : حدثني غير واحد من أهل العلم أن عبد المطلب أري في منامه أن يحفر زمزم في موضعها الذي هي فيه فحفرها بين إساف ونائلة الوثنين اللذين كانا بمكة فلما استقام حفرها وشرب أهل مكة والحاج منها عفت على الآبار التي كانت بمكة قبلها لمكانها من البيت والمسجد وفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم في الموضع الذي ضرب فيه جبريل برجله فهزمه ونبع الماء منه ، قال ابن إسحاق : وكان سبب حفرها أن عبد المطلب بن هاشم بينا هو نائم في الحجر فأمر بحفر زمزم في منامه وهو دفين بين صنمي قريش : إساف ونائلة ، عند منحر قريش ،

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرشد بن عبد الله عن عبد الله بن يزيد اليافعي ، أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحدث حديث زمزم حين أمر عبدالمطلب بحفرها قال : قال عبد المطلب : إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة قال : قلت : وما طيبة؟ قال : ثم ذهب عني فرجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال : احفر برة، قال : قلت : وما برة؟ قال : ثم ذهب عني فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال : احفر زمزم ، قال : قلت : وما زمزم؟ قال : لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم عند قرية النمل ، قال: فلما أبان له شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق ، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب ليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر . فلما بدا لعبد المطلب الطي كبّر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب إنها بئر إسماعيل وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . فقال عبد المطلب : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم. قالوا : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاكمك فيها . قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بني سعد بن هذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام .

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر . قال : والأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة واستسقوا ممن معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا : إنا في مفاوز نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت قال : فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعه ركب جميعاً . قالوا: سمعنا ما أردت . فقام كل رجل منهم يحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا لعجز . لا نبتغي لأنفسنا حيلة . فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد . ارتحلوا فارتحلوا حتى إذا فرغوا ومن معهم من قريش ينظرون إليهم وما هم فاعلون ، تقدم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعث به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب . فكبّر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم

نزل فشرب وشربوا واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم . ثـم دعـا القبـائل الـتي معـه مـن قريش فقال : هلم إلى الماء فقـد سـقانا ا لله عـز وجـل فاشـربوا واسـتقوا . فشـربوا واستقوا فقالت القبائل التي نازعته : قد وا لله قضى ا لله عز وجل لك علينا يـا عبـد المطلب وا لله لا نخاصمك في زمزم أبداً الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة، هو الذي سقاك زمـزم ، فـارجع إلى سـقايتك راشـداً . فرجـع ورجعـوا معـه و لم يمضـوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم .

قال ابن إسحاق : وسمعتُ أيضاً من يحـدث في أمـر زمـزم عـن علـي بـن أبـي طالب، رضي ا لله عنه ، أنه قيل لعبد المطلب حين أمر بحفر زمزم : أُدع بالماء الرواء غير الكدر ، فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : أتعلمون أنـي قد أمرت أن أحفر زمزم؟ قالوا : فهل بُيّن لك أين هي؟ قـال : لا ، قـالوا : فـارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت إن يكن حقاً من ا لله بُيّـن لـك ، وإن يكـن من الشيطان لم يرجع إليك . فرجع عبد المطلب إلى مضجعـه ، فنـام فـأري فقيـل : احفر زمزم إن حفرتها لم تذم وهي تراث أبيك الأعظم . فلما قيل لـه ذلـك قـال : وأين هي؟ قال : قيل له : عنـد قريـة النمـل حيـث ينقـر الغـراب غـداً ، قـال: فغـدا عبدالمطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غـيره فوجـد قريـة النمـل ووجـد الغراب ينقر عندها بين الوثنين : إساف ونائلة . فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أُمر فقامت إليه قريش حين رأوا جده فقالت : وا لله لا ندعك تحفـر بـين وثنينـا هذيـن اللذين ننحر عندهما . فقال عبد المطلب للحارث : دعـني أحفـر وا لله لأمضين لما أمرت به . فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنـه فلـم يحفـر إلا يسيراً حتى بدا له الطي ، طي البئر ، فكبّر وعرف أنه قـد صـدق . فلمـا تمـادى بـه الحفر وجد فيهـا غزالـين مـن ذهـب -وهمـا الغـزالان اللـذان دفنـت جرهـم حـين خرجت من مكة- ووجد فيه أسيافاً قلعية وأدراعاً وسلاحاً فقالت لـه قريـش : إن لنا معك في هذا شركاً وحقاً قال : لا ، ولكـن هلـم إلى أمـر ننصـف بيـني وبينكـم نضرب عليها بالقداح ، قالوا : وكيف نصنع؟ قـال : أجعـل للكعبـة قدحـين ، ولي قدحين ، ولكم قدحين ، قالوا : أنصفت ، فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبدالمطلب ، وقدحين أبيضين لقريش . ثم قال : أعطوها من يضـرب بهـا عند هبل وقام عبدالمطلب فقال :

لاهـم أنـت الملـك المحمـود ربـي وأنـت المبـدئ المعيـد

من عندك الطارف والتليد ... فأخرج لنا الغداة ما تريد

فضرب بالقداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الأسودان على الأسياف والدروع لعبد المطلب وتخلف قدحاً فضرب عبد المطلب الأسياف على باب الكعبة وضرب فوقه أحد الغزالين من الذهب فكان ذلك أول ذهب حليته الكعبة وجعل الغزال الآخر في بطن الكعبة في الجب الذي كان فيها يجعل فيه ما يهدى إلى الكعبة، وكان هبل صنم قريش في بطن الكعبة على الجب فلم يزل الغزال في الكعبة حتى أخذه النفر الذي كان من أمرهم ما كان، وهو مكتوب أخذه، وقصته في غير هذا الموضع، فظهرت زمزم فكانت سقاية الحاج ففيها مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، يمدح عبد المطلب:

فأي مناقب الخيرات ... لم تشدد به عضدا
ألم تسق الحجيج وتنحر ... للدلابة الرفدا
وزمزم من أرومته ... وتملأ عين من حسدا

وكان عبد المطلب قد نذر الله عز وجل عليه حين أُمر بحفر زمزم لئن حفرها وتم له أمرها وتمام له من الولد عشرة ذكور ليذبحن أحدهم لله عز وجل فزاد الله في شرفه وولده، فولد له عشرة نفر: الحارث وأمه من بني سواءة بن عامر أخو هلال بن عارم، وعبد الله، وأبو طالب، والزبير وأمهم للمخزومية، والعباس وضرار وأمهما النمرية، وأبو لهب، وأمه الخزاعية، والغيداق وأمه الغبشانية خزاعية، وحمزة وللقوم وأمهما الزهرية.

فلما تمّ له عشرة من الولد وعظم شرفه وحفر زمزم وتم له سقيها، أقرع بين ولده أيهم يذبح فخرجت القرعة على عبدالله بن عبدالمطلب أبي رسول الله ﷺ، فقام إليه ليذبحه، فقامت له أخواله بنو مخزوم وعظماء قريش وأهل الرأي منهم وقالوا: والله لا تذبحه فإنك إن تفعل تكن سنة علينا في أولادنا وسنة علينا في العرب وقامت بنوه مع قريش في ذلك فقالت له قريش: إن بالحجاز عرافة لها تابع فسلها أنت على رأس أمرك إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته، قال: فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوا المرأة فيها يقال لها تخيير، فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره فقالت: ارجعوا اليوم عني حتى يأتيني تابعي فأسأله. فرجعوا عنها حتى كان الغد ثم غدوا عليها فقالت: نعم! قد جاءني الخبر كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل قال: وكانت كذلك، قالت:

فارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليها بالقداح وعلى صاحبكم ، فإن خرجت على الإبل فانحروها وإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشراً ثم اضربوا بالقداح عليها وعلى صاحبكم، حتى يرضى ربكم ، فإذا خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم .

قال : فرجعوا إلى مكة فأقرع عبدالمطلب على عبدا لله وعلى عشر من الإبل فخرجت القرعة على عبدا لله ، فقالت قريش لعبدالمطلب : يا عبدالمطلب : زد ربك حتى يرضى ، فلم يزل يزيد عشراً عشراً وتخرج القرعة على عبدا لله ، وتقول قريش : زد ربك حتى يرضى ففعل حتى بلغ مائة من الإبل ، فخرجت القداح على الإبل فقالت قريش لعبد المطلب : انحرها فقد رضي ربك وقرعت ، فقال : لم أنصف إذاً ربي حتى تخرج القرعة على الإبل ثلاثاً . فأقرع عبدالمطلب على ابنه عبدا لله وعلى المائة من الإبل ثلاثاً كل ذلك تخرج القرعة على الإبل .

فلما خرجت ثلاث مرات نحر الإبل في بطون الأودية والشعاب على رؤوس الجبال لم يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع ، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً وتجلبت الأعراب من حول مكة ، وأغارت السباع على بقايا بقيت منها ، فكان ذلك أول ما كانت الدية مائة من الإبل ، ثم جاء ا لله بالإسلام فثبتت الدية عليه ، قال : ولما انصرف عبدالمطلب ذلك اليوم إلى منزله مر بوهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وهو جالس في المسجد ، وهو يومئذ من أشراف أهل مكة ، فزوج ابنته آمنة عبدا لله بن عبد المطلب . انتهى كل ذلك من تاريخ الإمام الأزرقي رحمه ا لله تعالى .

وفي ذلك قالت آمنة بنت وهب أم رسول ا لله ﷺ عند وفاتها وهي تنظر إليه ﷺ وهو ابن خمس سنين ، جالساً عند رأسها :

بارك ا لله فيك من غلام	يا من الذي من حومة الحمام
نجا بعون الملك العلام	فدي غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام	إن صح ما أبصرتُ في المنام
فأنت مبعوث إلى الأنام	من عند ذي الجلال والإكرام
تُبعث في الحل وفي الحرام	تبعث بالتحقيق والإسلام
دين أبيك البر إبراهام	فا لله أنهاك عن الأصنام

أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت : وكل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كثير يفنى ، وأنا ميتة وذكري باق ، وقد تركت خيراً ، وولدت طهراً . ثم ماتت ، رضي الله تعالى عنها ، فما أبركها من امرأة ، وما أسعدها من أم أنجبت سيد ولد آدم فبعثه الله رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذريته وسلم تسليماً كثيراً . انتهى من تاريخ الخميس .

مسرحية شعرية تمثيلية

في قصة عبد المطلب عند إرادته لذبح ولده

عثرنا في إحدى مجلات الإذاعة السورية لسنة (١٣٧٧) هجرية على مسرحية شعرية تمثيلية للأستاذ محيي الدين الدرويش ، وهي تقع في فصل واحد وخمسة مشاهد ، تتضمن كيفية هلاك أصحاب الفيل ، ونذر عبدالمطلب بذبح أحد أولاده العشرة .

فرأينا أن ننقل هنا من المجلة المذكورة ما يختص بقصة عبدالمطلب فقط ، أما فيما يختص بقصة أصحاب الفيل ، فقد ذكرناه عند الكلام على قصتهم ، إننا قسمنا المسرحية إلى قسمين : الأول فيما يختص بأصحاب الفيل ، والثاني فيما يختص بقصة عبدالمطلب ، وهو كما يأتي :

المشهد الثاني

عبد المطلب لابنه عبدالله :

بني أرى في الغيب نوراً سيشرق ... وأنسامه في كل أرض ستعبق

هو الأمل المرجو

عبدالله :

بوركت يا أبي ... كأنك من نفسي تقول وتنطق

عبدالمطلب :

ولكنني أخفي كوامن في الحشا ... سراها بمكنون الضمير معلق

تذكرت نذراً ند عني وإنني ... لأحرى بأن أرضي النذور وأخلق

لئـن سـلم البيـت الحـرام فـإنني سـأذبح منكـم واحـداً أنـت مطلـق

أبو طالب :

لك الأمر فافعل ما تـراه ولا تحـد عـن الحـق يومـاً إنـه بـك أليـق

عبدالمطلب :

سأقسـم أقداحي عليكـم فـأيكم تميـل إليـه فهـو للذبـح أسـبق

عبدالله :

سمعنـا وأذعَنّـا لأمـرك كلنـا فعجـل بمـا ترضـاه أنـت الموفـق

• المشهد الثالث

أمام الكعبة يبدو عبدالمطلب مع أولاده وأمهاتهم وأقاربه والجزع باد على الجميع

يـا عالمـاً بالسـر والجهـر يـا كاشـف الآلام والضـر

أنـت المؤمـل في نوائبنـا فاجـبر بجـودك دائمـاً كسـري

أنـت العليـم بمـا نـذرت وقـد أمسـيت في لبـس مـن الأمـر

اسـكب علي اللطـف أحـظ بـه في سـاعة الـلأواء بالصـبر

إلى ضارب الأقداح :

ألق القـداح سريعـا

صاحب القداح :

لم تلـف إلا سميعـا

منعة زوجة عبدالمطلب :

رحمـاك يـا رب فينـا كـن حافظـاً ومعينـا

واكـلأ بـني بلطـف قـد كنـت فيـه قمينـا

الفرعة زوجته الثانية :

يـا رب لا تمتحـني بحـادث مرجحـن

وصـن حيـاة غـلام كـالفتى المطمئـن

سعدى زوجته الثالثة :

يـا رب صـن ولدينـا وامنـن بلطـف عليـا

فـالقلب أمسـى حريـاً والدمـع بـات عصيـا

فاطمة زوجته الرابعة :

يــــا ويـــح عبـــد منـــاف الطـــــــــــــــــاهر الأواه
وويـــــح نـــور تهـــادى في وجـــــــه عبـــــــدا لله

أحد اليهود المتلصصين لنفسه :

ليت القداح بعبدا لله قد نزلت فإنــه خطـر تخشــى قوارعــه
عنـه تحدثـت الآثـار مـن قـدم وأن مولــوده حـانت مطالعــه

عبدالمطلب :

يـــا ضـــارب القـــداح مــاذا جــرى يــا صــاح
مــا خنجـــري بالصـــاح ظمــــآن للجــــراح

ضارب القداح :

تبينـــت الحقيقـــة لا خفـــاء و (عبـدا لله) قـد كـان الفـداء

أبو طالب :

أخـي : لا : لـن يموت وقد بقينـا ســأبذل دونــه مــني دمــاء
أيقضـي صـاحب النـور المرجـى ومن يضفـي على الكـون الرواء؟

فاطمة أم عبدا لله :

وَاكَبــدي وأيــن مــني كبــدي وَا وَلَــدي وأيــن مــني ولــدي
لا .. لن يموت قبـل يوم مصرعـي دمـي فـداؤه ومـا تحـوي يـدي

عكرمة :

سأشـــير بـــالرأي الصـــواب والحـــق مـــا فيـــه ارتيـــاب
ســــيروا لكاهنـــــة لهـــــا رأي يجـــيء علـــى حســـاب
هــــي (أم ملخـــان) وقـــد عمـــت مآثرهـــا الشـــعاب

المشهد الرابع

"في صحراء نائية جرداء يبدو منزل أم ملخان الكاهنة"

أم ملخان :

يــا مرحبـــاً بالفتيـــة الأخيـــار الســـاكني البيـــت مـــع الأســـتار

خـذوا بقـول صـح في الآثـار   أنبئكـم بـالعلم والأخبـار
في مائـة مـن إبـل كبـار   تفديـة للولـد المختـار
لعـل أن يجعـل فيهـا البـاري   تحقيـق مـا قـد وسـعت آثـاري

المشهد الخامس

"أمام الكعبة وقد رميت القداح فخرجت على الإبل"

لنـا البشـارة أن السـهم قـد رسمـا   على الجمـال و (عبدالله) قد سـلما
فليهنـأ الكـون إيذانـاً بمولـد مـن   يعيـد شمـل نظـام العـرب ملتئمـا

عبد المطلب وقد ساد الفرح الجميع :

لك الحمد رب الكون قد وضح الأمر   وأشـرقت الدنيـا ولاح بهـا الفجـر
وصـان إلـه العـرش بيتـاً محببـاً   قواعـده قـد شـادها السـادة الغـر
وقـرت بعبـدالله عيـني فإنـه   حشاشـة قلبي فيـه يزدهـر العمـر
سـتكتمل الأفـراح يـوم ولادة   « لآمنة » الحسناء مـن صاغهـا الطهر

هاتف :

مـا علـى المضـني إذا مـا سـفحا   أدمع الأشـواق في ذكـرى الحبيـب
لا تلومـوا مغرمـاً قـد فرحـا   جفنـة مـن لاعـج الشـوق المذيـب
وإذا المحبـوب عنـا نزحـا   عظـم الشـوق إليـه والنحيـب
كيـف أسـلو وفـؤادي أغرمـا   بمفيـض النـور مـاحي الغلـس
سـيد الدنيـا ورأس العظمـا   هـي مـن مولـده في عـرس

العيون التي في قعر زمزم

قال الأزرقي في تاريخه عند ذكر غور زمزم : وفي قعرهـا ثـلاث عيـون : عـين حذاء الركن الأسود ، وعين حذاء أبي قبيس والصفا ، وعين حذاء المروة .

وفي تاريخ الغازي ما نصه : قال في تحصيل المرام : أمـا ماؤهـا فإنهـا تثـور مـن ثلاثة عيون ، ذكر القرشي من رواية الدارقطني أنه قـد وقـع فيهـا عبـد حبشـي ، فنزحت من أجله فوجدوا ماءها يثور من ثلاث أعين أقواها وأكثرها ماء عـين مـن ناحية الحجر الأسود ، وذكر الفاسي في شفاء الغرام أن العباس بن عبدالمطلب سأل

كعب الأحبار: أي عيونها أغزر؟ قال: العين الذي تجري من جهة الحجر، قال: صدقت. وذكر القرشي والحلبي أن العيون التي في قعرها ثلاثة: عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء الصفا وأبا قبيس وعين حذاء المروة.

قال: وفي نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر: روى القرطبي في تفسيره عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن في زمزم عيناً من الجنة من قبل الركن الأسود. وفي منسك ابن أمير الحاج قال: قال ابن شعبان: العين التي تلي الركن من زمزم من عيون الجنة.

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عدي قال: ضع دلوك من قبل العين التي تلي البيت فإنها من عيون الجنة. انتهى من تاريخ الغازي.

فضل ماء زمزم وميزته

بئر زمزم واقعة بجوار مقام إبراهيم أمام الكعبة المشرفة مما يلي الحجر الأسود، على بعد (١٨) متراً منه كما ذكره صاحب مرآة الحرمين. وهذه البئر هي حد المسجد الحرام في صدر الإسلام من الجهة الشرقية قبل توسعته الأولى.

ولم تكن زمزم معروفة في عهد آدم ولا في عهد نوح، وإنما كانت في عهد إبرَاهيم الخليل، عليهم الصلاة والسلام، حينما وصل إلى مكة بابنه إسماعيل وأمه «هاجر» وتركهما عند مكان البيت. فلما نفد الماء التي في سقائهما وعطشا عطشاً شديداً خصوصاً إسماعيل عليه السلام الذي أشرف على الهلاك من العطش، ضرب جبريل عليه السلام بجناحه الأرض فخرج الماء في مكان هذه البئر الموجودة اليوم، فشربا حتى ارتويا وفاض لديهما الماء ولم ينقطع عنهما بعد ذلك كما سيأتي بيانه، وسبب تسميته بزمزم: أنه لما خرج الماء جعلت هاجر تحوط عليه وتقول: «زمي زمي» وفي الحديث: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً».

ولقد فُضّل ماء زمزم على بقية المياه من عدة وجوه:

١- كان سبب وجوده ونبعه هو إسماعيل عليه السلام وأمه «هاجر».

٢- كان إخراجه بواسطة جبريل عليه السلام.

٣- خروجه في أقلس بقعة على وجه الأرض أمام الكعبة المشرفة في المسجد الحرام .
٤- منبعه تحت الأرض من ثلاث جهات من أشرف البقاع ، جهة الركن الأسود وهو أفضلها ، وجهة الصفا ، وجهة المروة .
٥- زمزم شرب منه الأنبياء والأصفياء والأتقياء والأبرار .
٦- زمزم غسل به قلب النبي ﷺ كما في الصحيحين « بينما أنا في الحطيم مضطجعاً .. الخ » .
٧- لما نزعوا للنبي ﷺ دلواً شرب منه ثم مج في الدلو ثم صبه في البئر . كما جاء ذلك في رواية الطبراني وغيره .
٨- الأحاديث الواردة في فضله ، كما ستأتي .

فماءٌ بهذه الصفة جدير بأن يكون ماء طيباً مباركاً ، فماء زمزم أفضل المياه بعد الماء النابع من أصابعه ﷺ ويليه ماء الكوثر ثم نيل مصر ، وقد نظم التقي السبكي ذلك بقوله :

وأفضل المياه ماء قد نبع ... من بين أصابع النبي المتبع
يليه ماء زمزم فالكوثر ... فنيل مصر ثم باقي الأنهر

قال العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن شمس الدين المكي الحنفي في رسالته المسماة « بالجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم » ما يأتي :

فائدة : إن قيل هل الفضيلة الثابتة لماء زمزم لعينه أم لأجل البقعة؟ (أجيب) بأنها له . إذ لو لم يكن كذلك للزم فيما إذا حفرت بئر أخرى في المسجد الحرام ثبوت ما يثبت لزمزم من الفضائل لها . وليس كذلك . ثم إن من القواعد الاستحبابية عندنا أن كل طواف بعده سعي ينبغي لطائفه إتيان زمزم بعد إتمام ركعتي طوافه والشرب منها ثم العود إلى الحجر الأسود واستلامه والخروج إلى الصفا من بابه للخروج عن عهدة السعي . وكذا يندب للواردين إلى بيت الله الحرام من الحجاج بعد فراغهم من طواف الصَّدَر وهو طواف الوداع أن يأتوا زمزم فيتضلعوا منها مع مراعاة آداب الشرب المتقدم ذكرها آنفاً ويصبون منها على وجوههم وإن أمكنهم الاغتسال من غير ضرر اغتسلوا وإلا فلا . انتهى من الجوهر المنظم .

وما أحلى قول العلامة الشيخ بدر الدين أحمد بن محمد المصري في زمزم:

لزمـــزم نفـــع في المـــزاج وقـــوة تزيد على ماء الشباب لـذي فتـك
وزمـزم فـاقت كـل مـاء بطيبهـا ولو أن ماء النيل يجري على مسك

هذا وإن بعض الأطباء الفضلاء قد كتب عن خواص ماء زمزم ومنافعه، لم ننقله هنا خوف التطويل، فإن من لم يقتنع بقول رسـول الله ﷺ فيه، فـلا يقتنع بقول الأطباء، وإن اقتنع بقول هؤلاء من منافعه الصحية و لم يشربه اقتداء بالنبي ﷺ فأين ذهب إيمانه وإسلامه؟ ومما يمتاز به مـاء زمـزم: أنـه لا يوجـد فيـه ديـدان ولا حشرات مطلقاً لا صغيرة ولا كبيرة كما توجد في غيره من مياه الآبار والعيون.

ماجاء في تاريخ الأزرقي عن زمزم

قال الإمام الأزرقي في تاريخه: حدثنا أبو الوليد، حدثني جـدي قـال: حدثنـا داود بن عبدالرحمن عن عبدالله بن عثمان بن خيثم عن وهب بن منبـه أنـه قـال في زمزم: والذي نفسي بيده إنها لفي كتاب الله مضنونة وإنها لفي كتاب الله تعـالى برة وإنها لفي كتاب الله سبحانه شراب الأبرار وإنها لفي كتاب الله طعام طُعْم وشفاء سُقْم.

حدثني جـدي عـن الزنجي عـن ابـن خيثـم قـال: قـدم علينـا وهـب بـن منبه فاشتكى، فجئناه نعوده فإذا عنده من ماء زمزم قال: فقلنا: لو استعذبت فإن هـذا ماء فيه غلظ، قال: ما أريـد أن أشـرب حتـى أخـرج منهـا غـيره. والـذي نفـس وهب بيده إنها لفي كتاب الله، زمزم، لا تنزف ولا تذم، وإنها لفي كتـاب الله برة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مضنونـة، وإنهـا لفـي كتـاب الله طعـام طعم وشفاء سقم، والذي نفس وهب بيده لا يعمد إليها أحد فيشرب منها حتـى يتضلع إلا نزعت منه داء وأحدثت له شفاء.

حدثني جدي قال: حدثنا داود بن عبدالرحمن عن عبيد الله بن أبي يزيـد عـن عبيد بن عمير عن كعب أنه قال لزمزم: إنا لنجدها مضنونة ضـن بهـا لكـم، أول من سُقي ماءها إسماعيل عليه السلام طعام طعم وشفاء سقم.

حدثني جدي قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجـاهد قـال: ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تريد شفاء شـفاك الله، وإن شـربته لظمـأ أرواك الله، وإن شربته لجوع أشبعك الله، وهي هزمة جبريل بعقبة وسـقيا الله إسمـاعيل

عليه السلام، قال أبو الوليد : والهزمة الغمزة بالعقب في الأرض ، وقال : زمزم شقت من الهزمة .

حدثني جدي قال : حدثنا سفيان عن فرات القزاز عن أبي الطفيل قال: سمعت علياً يقول: خير واديين في الناس وادي مكة وواد بالهند الذي هبط به آدم عليه السلام ومنه يؤتى بهذا الطيب الذي يتطيبون به ، وشر واديين في الناس واد بالأحقاف وواد بحضرموت يقال له : برهوت ، وخير بير في الناس بير زمزم ، وشر بير في الناس بلهوت وإليها تجتمع أرواح وهي في برهوت .

حدثنا جدي عن سفيان عن إبراهيم بن نافع عن ابن أبي حسين أن رسول الله ﷺ ، بعث إلى سهيل بن عمرو يستهديه من ماء زمزم فبعث إليه براويتين وجعل عليهما كرا غوطيا .

حدثنا جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج قال : حدثني ابن أبي حسين أنه قال : كتب رسول الله ﷺ إلى سهيل بن عمرو ، إن جاءك كتابي هذا ليلاً فلا تصبحن ، وإن جاءك نهاراً فلا تمسين حتى تبعث إلي بماء زمزم ، فاستعانت امرأته أثيلة الخزاعية جدة أيوب بن عبدا لله فأدلجناها وجواريهما فلم يصبحا حتى قرنا مزادتين وفرغتا منهما فجعلهما في كرين غوطيين ثم ملأهما وبعث بهما على بعير .

حدثني جدي قال : حدثنا عبد الجبار بن الورد ، حدثنا عبدالملك بن الحارث بن أبي ربيعة المخزومي عن عكرمة بن خالد قال : بينما أنا ليلة في جوف الليل عند زمزم جالس ، إذ نفر يطوفون عليهم ثياب بيض لم أر بياض ثيابهم لشيء قط ، فلما فرغوا صلوا قريباً مني فالتفت بعضهم فقال لأصحابه : اذهبوا بنا نشرب من شراب الأبرار ، قال : فقاموا ودخلوا زمزم فقلت : وا لله لو دخلت على القوم فسألتهم ، فقمت فدخلت فإذا ليس فيها من البشر أحد .

حدثني جدي قال : حدثنا عبدالجبار بن الورد عن رجل يقال له رباح مولى لآل الأخنس أنه قال: أعتقني أهلي فدخلت من البادية إلى مكة فأصابني بها جوع شديد حتى كنت أكوم الحصا ثم أضع كبدي عليه ، قال : فقمت ذات ليلة إلى زمزم فنزعت فشربت لبناً كأنه لبن غنم مستوحمة أنفاساً .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن عمر بن عبدا لله القيسي عن جعفر بن عبدا لله بن أبي الحكم عن عبدا لله بن غنمة عن العباس بن

عبدالمطلب ، قال : تنافس النـاس في زمـزم في الجاهليـة حتـى إن كـان أهـل العيـال يفدون بعيالهم فيشربون منها فتكون صبوحاً لهم وقد كنا نعدها عوناً على العيال .

حدثني محمد بن يحيى عن سليم بن مسلم عن سفيان الثوري عن العلاء بن أبي العباس عن أبي الطفيل قال : سمعت ابن عبـاس يقـول : كـانت تسـمى في الجاهلـة شباعة – يعني زمزم – ويزعم أنها نعم العون على العيال .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبدالحميـد بـن عمـران عـن خـالد بـن كيسان عن ابن عباس أنه قال : قال رسول ا لله ﷺ: التضلع مـن مـاء زمـزم بـراءة من النفاق .

وحدثني جدي عن سعيد عن عثمان قـال : حدثنـا أبـو سـعيد عـن رجـل مـن الأنصار عن أبيه عن جده أن رسول ا لله ﷺ قال : علامة ما بيننا وبين المنافقين أن يدلوا دلواً من ماء زمزم فيتضلعوا منها ، ما استطاع منافق قط يتضلـع منهـا . وعـن الواقدي عن الثوري عن مغيرة بن زياد عن عطاء أن كعب الأحبار حمل منها ثنـتي عشرة راوية إلى الشام ، وعن الواقدي عن ثور بن يزيـد عـن مكحـول عـن كعـب الأحبار أنه كان يحمل معه من ماء زمزم يتزوده إلى الشام ، وعن الواقدي عن ثـور بن يزيد عن مكحول عن كعب الأحبار أنه كان يحمل معه من مـاء زمـزم يـتزوده إلى الشام ، وعن الواقدي عن ابن أبي ذؤيب عن القاسم بن عباس عـن بابـاه مـولى العباس بن عبدالمطلب قال : جاء كعب الأحبار بإداوة من ماء إلى زمزم ونحن ننزع عليها فنحيناه عنها ، فقال العباس رضي ا لله عنه : دعوه يفرغها فيها واستقى منهما إداوة وقال : إنهما ليتعارفان –يعني إيليا وزمزم–.

حدثني جدي قال : حدثنا عيسى بـن يونـس قـال : حدثنـا عنبسـة بـن سـعيد الرازي عن إبراهيم بن عبدا لله الخاطبي عن عطـاء عـن ابـن عبـاس قـال : صلـوا في مصلى الأخيار، واشربوا من شراب الأبرار ، قيل لابن عباس : ما مصلـى الأخيـار؟ قال : تحت الميزاب ، قيل : وما شراب الأبرار؟ قال : ماء زمزم .

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرني ابن جريج قال : سمعت أنه يقـال : خـير مـاء في الأرض مـاء زمـزم وشـر مـاء في الأرض مـاء برهوت –شعب من شعاب حضر موت– وخير بقاع الأرض المساجد وشر بقـاع الأرض الأسواق .

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: حدثني عبدا لله بن أبي بريدة عن عبدا لله بن إبراهيم بن قارظ أن زبيد بن الصلت أخبره أن كعباً قال لزمزم مرة: مضنونة ضن بها لكم أول من أخرجت له إسماعيل ونجدها طعام طعم وشفاء سقم. قال ابن جريج: وأخبرني يزيد بن أبي زياد عن شيخ من أهل الشام قال: سمعت كعباً يقول: إني لأجد في كتاب الله تعالى المنزّل أن زمزم طعام طعم وشفاء سقم.

حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني الكلبي عن عون بن حميد بن مل عن عبدا لله بن الصامت ابن أبي ذر أنه قال: قال لي عمي أبو ذر: يا ابن أخي في حديث حدث به عن مقدم أبي ذر مكة على رسول الله ﷺ، وكان في حديثهما أن رسول الله، ﷺ قال: متى كنت هاهنا؟ قال: قلت: أربع عشرة بين يوم وليلة وما لي طعام ولا شراب إلا ماء زمزم فما أجد على كبدي سخفة وجع ولقد تكسرت عكن بطني فقال: إنها طعام طعم.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرني عبدالعزيز بن أبي رواد قال: أخبرني رباح عن الأسود قال: كنت مع أهلي بالبادية فابتعت بمكة فأعتقت فمكثت ثلاثة أيام لا أجد شيئاً آكله، قال: فمكثت أشرب من ماء زمزم فانطلقت حتى أتيت زمزم فبركت على ركبتي مخافة أن أستقي وأنا قائم فيرفعني الدلو من الجهد، فجعلت أنزع قليلاً قليلاً حتى أخرجت الدلو فشربت فإذا أنا بصريف اللبن بين ثناياي فقلت: لعلي ناعس فضربت بالماء على وجهي وانطلقت وأنا أجد قوة اللبن وشبعه.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني عبدالعزيز بن أبي رواد أن راعياً كان يرعى وكان من العباد فكان إذا ظمئ وجد فيها لبناً وإذا أراد أن يتوضأ وجد فيها ماء.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني مقاتل عن الضحاك بن مزاحم قال: بلغني أن التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق، وأن ماءها يذهب بالصداع وأن الاطلاع فيها يجلو البصر، وأنه سيأتي عليها زمان يكون أعذب من النيل والفرات، قال أبو محمد الخزاعي: وقد رأينا ذلك في سنة إحدى وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكة أمطار كثيرة فسال واديها بأسيال عظام في سنة تسع وسبعين وسنة ثمانين ومائتين، فكثر ماء زمزم وارتفع حتى كان

قارب رأسها فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبعة أذرع أو نحوها ، وما رأيتها قط كذلك ولا سمعت من يذكر أنه رآها كذلك ، وعذبت جداً حتى كان ماؤها أعذب من مياه مكة التي يشربها أهلها ، وكنت أنا وكثير من أهل مكة نختار الشرب منها لعذوبته وإنا رأيناه أعذب من مياه العيون ولم أسمع أحداً من المشايخ يذكر أنه رآها بهذه العذوبة ، ثم غلظت بعد ذلك في سنة ثلاث وثمانين وما بعدها ، وكان الماء في الكثرة على حاله وكنا نقدر أنها لو كانت في بطن وادي مكة لسال ماؤها على وجه الأرض لأن المسجد أرفع من الوادي وزمزم أرفع من المسجد ، وكانت فجاج مكة وشعابها في هاتين السنتين وبيوتها التي في هذه المواضع تتفجر ماء . انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي .

ماء زمزم لا تؤثر فيه الجراثيم والميكروبات

يقول بعض الأطباء في زماننا أنهم قد حللوا ماء زمزم ، فوجدوا فيه بعض الجراثيم والميكروبات التي تحمل بعض الأمراض ، تأتي إلى بئر زمزم من السيول والأمطار ومن بعض ما يتسرب إليها من رطوبات المنازل المجاورة لها ، فهو إذن لا يصلح للشرب . هكذا يحكمون على ماء زمزم .

فنحن نرد عليهم بما يأتي : إن ماء زمزم قد وجدت بمكة المشرفة منذ أربعة آلاف سنة في هذا القفر من الصحراء الواسعة الأطراف ، أخرجه الله تعالى لنبيه الكريم إسماعيل وأمه هاجر ، عليهما الصلاة والسلام ، حينما أتى بهما خليل الله تعالى إبراهيم، صلوات الله وسلامه عليه ، وتركهما في هذا المكان القفر وحدهما كما أمره الله عز وجل بذلك حسبما ذكرنا قصتهم حينما كان طفلاً رضيعاً .

إن ماء زمزم يمتاز عن مياه الدنيا بما يأتي :

(١) أن ماء زمزم أخرجه جبريل عليه السلام ، بأمر ربه لنبي الله إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام .

(٢) أنه ماء ينبع من تحت الكعبة المعظمة بيت الله الحرام ، ومن جهة الصفا وجهة المروة وهما من المشاعر العظام .

(٣) لقد كان نبينا (محمد) ﷺ يطلبه من مكة بعد هجرته إلى المدينة .

(٤) أن رسول الله ﷺ حث على شربه والتضلع منه بأن يملأ الإنسان ضلوعه منه أي يشرب منه كثيراً .

(٥) لقد ورد في فضل ماء زمزم بعض أحاديث منها . قوله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له» رواه الإمام أحمد وابن ماجة وغيرهما ، ومنها قوله ﷺ: (ماء زمزم لما شرب له فإن شربته تستشفي به شفاك الله ، وإن شربته مستعيذاً أعاذك الله ، وإن شربته لتقطع ظمأك قطعه الله ، وإن شربته لشبعك أشبعك الله ، وهي هزمة جبريل وسقيا إسماعيل) . رواه الدارقطني وغيره .
ومنها قوله ﷺ: (ماء زمزم شفاء من كل داء) . ومعنى هزمة جبريل بفتح الهاء وسكون الزاي أي : غمزته بعقب رجله . ومنها قوله ﷺ : (التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق) رواه الإمام الأزرقي في تاريخ مكة .
ومنها قوله ﷺ: (آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم) رواه البيهقي .

(٦) أن ماء زمزم قد غسل به صدر نبينا (محمد) ﷺ ، غسله جبريل عليه السلام ، بعد شقه كما هو ثابت في الصحيحين .

(٧) أن ماء زمزم قد شرب منه الأنبياء الأخيار الذين اصطفاهم الله تعالى ، وشرب منه العلماء العاملون والأئمة الأبرار ، وشرب منه الأولياء الصالحون أولو الهداية والأسرار ، ويشرب منه في كل وقت وحين جميع المؤمنين إلى أن تقوم الساعة يشرب الجميع بإيمان ويقين وصدق وإخلاص ، وحب ورغبة ، والشرب بالدلو من نفس بئر زمزم أحلى وأصفى وألذ وأطعم ، كما هو مجرب عند جميع الناس ، ومن عجيب أمر ماء زمزم أن لونه كلون جميع مياه الدنيا ولكن طعمه يختلف عنها ، إن طعمه لذيذ سائغ للشاربين ، إنه يمتاز بطعمه الخاص ومنافعه الخاصة .

فماء زمزم هذه ميزاته وهذه صفاته كيف تؤثر فيه الجراثيم والميكروبات كما يقوله الأطباء ، وهل هذه الجراثيم والميكروبات هي من مخلوقات زماننا هذا أم كانت موجودة من الأزمان القديمة؟ إننا لم نسمع قط من قديم العصور والدهور أن أحداً ممن كان يشرب من ماء زمزم قد أصابته الأمراض الخبيثة بسبب وجود الجراثيم والميكروبات في ماء زمزم الذي شربه ، بل إننا سمعنا كثيراً من قديم العصور والأزمان، أن كثيراً من المؤمنين با لله ورسوله كانوا يشربون من ماء زمزم بنية الشفاء من الأمراض ، أو بنية التوفيق والتوبة ، أو بنية العلم والفهم ، أو بنية إذهاب الهم والغم وإزالة الكرب ، إلى غير ذلك مما شربوه لأجله ، فنالوا بغيتهم وتحصلوا على مطلوبهم، بل وفي زماننا هذا ومن أهل مكة وغيرهم قد جربوه

وشربوه لمختلف المقاصد فنالوا مآربهم، وقصصهم موجودة في بطون الكتب والأخبار لا ينكر ذلك إلا جاهل بأمور دينه ومكابر لا يؤمن بالغيب وإنما يؤمن بالمحسوسات والمشاهدات.

إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن الميكروبات والجراثيم إذا دخلت مع السيول والأمطار في بئر زمزم، أو أن شخصاً أتى بها في قارورة أو إناء وصبها ورماها في بئر زمزم، أنها تتلاشى مفعولها ويذهب تأثيرها بقدرة الله الواحد الأحد حتى ولو كانت هذه الجراثيم والميكروبات في هيئة أجسام ظاهرة ملموسة، لا نعدم تأثيرها وذهب ضررها بمجرد رميها في بئر زمزم وملامستها للماء، وعندنا بعض الأدوية الشديدة الحساسية يقول عنها الأطباء: «احذروا عند استعمالها أن تلمسوها بأجسامكم أو تقع على فراشكم، فإنها إذا حصل ذلك لها بطل نفعها بتاتاً فلا فائدة من استعمالها – فإذا قرر الأطباء هذا، أفلا نقول ونحن المؤمنون بقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ، أن الجراثيم والميكروبات إذا وجدت في ماء زمزم لا تأثير لها ولا مفعول.

إن بئر زمزم في هذه الأزمنة المتأخرة أكثر صيانة وحفظاً ووقاية من الأزمنة الماضية، إن بئر زمزم في العصور الأولى منذ آلاف السنين، كانت في خلاء صحراوي، وكان الذين يستقون منها من الأعراب الأجلاف، على اختلاف طبقاتهم في نظافة أجسامهم وثيابهم، وكانوا يحضرون إلى البئر بمواشيهم لسقيها، فهل ورد في الأخبار والتواريخ أنهم أو مواشيهم أصيبوا بالأمراض الخبيثة لأنهم شربوا من بئر زمزم؟ كلا والله لم يرد ذلك قط. بل ورد عكس هذا الأمر من الشبع والشفاء.

عجباً والله لقول الأطباء وأكثرهم لا يؤدون فرائض الله تعالى يقولون إن ماء زمزم لا يصلح للشرب لوجود الجراثيم والميكروبات فيه، فهل نسمع لقولهم وهم لا يعرفون من الدين إلا اسمه، أم نسمع نبينا الحبيب (محمد) ﷺ، وهو الصادق الصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. كيف تؤثر الميكروبات والجراثيم في ماء أخرجه جبريل لإسماعيل وشرب منه إبراهيم الخليل والأنبياء من بعده على جميعهم أفضل الصلاة وأتم السلام؟ كيف تؤثر هذه الجراثيم والميكروبات غير الطاهرة في ماء شرب منه نبينا الأعظم ﷺ؟ شرب من دلو البئر ثم طرح هذا الدلو وما فضل فيه في نفس هذا البئر الطاهر الشريف. كيف تؤثر هذه الجراثيم والميكروبات في

ماء غسل به صدر نبينا (محمد) ﷺ ، غسله جبريل عليه السلام ، في طست من الذهب كما هو ثابت في كتب الحديث . كيف تؤثر هذه الجراثيم والميكروبات في ماء ينبع من تحت الكعبة المعظمة والمسافة بينهما منذ آلاف السنين إلى اليوم لا تتجاوز اثني عشر متراً . كيف تؤثر الجراثيم والميكروبات في ماء ينبع من تحت جبل الصفا وجبل المروة بقرب الكعبة وهما من المشاعر العظام؟ لا والله يستحيل تأثير الجراثيم والميكروبات في ماء زمزم وهو أفضل مياه الدنيا على الإطلاق ، والله سبحانه وتعالى لقادر على دفع جميع الأمراض والعلل من ماء زمزم .

إننا نخشى على الطبيب الذي يقول بوجود الجراثيم والميكروبات في ماء زمزم وينفّر الناس من شربه ، نخشى عليه من انتقام الله عز وجل . ولو قاله الأطباء في غير ماء زمزم لما أنكرنا عليهم ذلك ، أما شرب ماء زمزم فهو من الأمور الدينية التي تحتاج إلى إيمان ويقين ، والإيمان أقوى سلاح في يد الإنسان وفي هذا المبحث قد ظهر لك الحق من الباطل ، فاختر لنفسك ما يحلو ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين .

التضلع من ماء زمزم

روى الإمام الأزرقي في تاريخ مكة أن رسول الله ﷺ ، قال : « التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق » .

وقال رسول الله ﷺ : « إن التضلع من ماء زمزم علامة ما بيننا وبين المنافقين »، وروى الطبراني وغيره : أنه ﷺ جاء إلى زمزم فنزعوا له دلواً فشرب ثم مج في الدلو ثم صبه في زمزم ، ثم قال : لولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم ، وفي رواية أنه غسل وجهه وتمضمض منه ثم أعاده فيها . اهـ .

والتضلع هو الشرب من ماء زمزم حتى تمتلئ أضلاعه وهذا كناية عن الشبع منه، ففي مختار الصحاح ، تقول تضلع الرجل أي امتلأ شبعاً ورياً . اهـ .

ولقد ألف بعضهم رسائل في ماء زمزم منها رسالة (الجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم) للعلامة الشيخ أحمد بن محمد ابن شمس الدين المكي رحمه الله تعالى وهذه الرسالة مطبوعة بمصر سنة (١٣٣٢) هجرية مطبوعة ضمن ثلاث رسائل :

(الأولى) : منح المعين في شرح الأربعين .

(والثانية) : الإتحاف في فضل الطواف.

(والثالثة) : الجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم .

فالتضلع من ماء زمزم هو كالتضلع من شرب اللبن الحليب ، وللتضلع من ماء زمزم فوائد عظيمة خصوصاً إذا كان الشرب من دلو بئر زمزم وفي الصباح الباكر قبل أن يأكل الإنسان شيئاً ، وأهل مكة يتضلعون من ماء زمزم كثيراً ، فالتضلع من ماء زمزم يذهب كثير من الأمراض الباطنية كوجع البطن والمغص وتفتيت الحصا من المثانة ، وإطلاق البول وغير ذلك ، ومن تضلع من ماء زمزم في الصباح الباكر يلين البطن كالشربة وكل هذا معروف مشهور عندنا بمكة ، ولقد حصل لبعضهم قبض شديد في بطنه حتى أنه لم يتبّرز أياماً ، فذهب إلى المسجد الحرام وبعد صلاة الفجر ذهب إلى بئر زمزم فشرب منه كثيراً حتى امتلأت أضلاعه ، فما كان بعد ساعتين أو ثلاثة إلا وجاءه الفرج فانطلقت بطنه وخرج منه كل غثاء ، فاستراح راحة تامة وذهب عنه جميع الآلام والأوجاع وقد حصل لكثير من الرجال مثل ذلك .

والحكايات فيه شفاء المرضى وبلوغ المقاصد بعد أن تضلعوا من ماء زمزم مراراً بإخلاص وصدق وعزيمة كثيرة جداً لو أحصيناها لطال بنا المقام ، ولا غرابة في ذلك أليس رسول الله ﷺ قال وهو الصادق المصدوق: (ماء زمزم لما شرب له) والمؤمن ألا يصدق نبي الرحمة ورسول الأمة وهو الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ وعلى آله وأزواجه وذريته وصحابته أجمعين ، إنه عليه الصلاة والسلام ، قد حث أمته المرحومة على شرب ماء زمزم ورغبهم فيه ، أفلا يصدّق المؤمن هذا النبي الكريم ، عليه الصلاة والتسليم ، الذي لا ينطق عن الهوى؟ بلى والله إنه يصدق رغم أنفه ولو أخبر عن حتفه ، وإننا نحذر كل طبيب يقول بوجود الجراثيم والميكروبات في ماء زمزم وينفر الناس عن شربه ، أن مثل هذا القول يتعارض مع قول رسول الله ﷺ .وأي مسلم تطيب نفسه أن يعارض النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ، في أقواله الكريمة وأفعاله الشريفة . وفي المبحث السابق أبطلنا تأثير الجراثيم والميكروبات في ماء زمزم ، فإنه من الجائز أن الله سبحانه وتعالى يجعل في ماء زمزم خاصية تدفع عنه كل الجراثيم والميكروبات دفعاً قوياً سريعاً ، منذ ظهوره في أيام إسماعيل عليه السلام ، إلى قيام الساعة والله على كل شيء قدير .

ففي جميع المخلوقات من الحيوانات والجمادات، من الحكم والأسرار ما لا يعلمها إلا الله الواحد القهار. هذا وإننا نشبه قول الأطباء الذين يقولون بوجود الجراثيم والميكروبات في زمزم بصفة الدجال الذي أخبرنا رسول الله ﷺ عنه. فقد جاء في أواخر صحيح مسلم في باب ذكر الدجال أن الدجال يخرج وأن معه ماء وناراً فأما الذي يراه الناس ماء فناره تحرق وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب. اهـ.

نقول: إن هذا الحديث الصحيح هو أعظم امتحان يميز المؤمن من الكافر في آخر الزمان، فالمؤمن يطأطئ رأسه بإيمان ويقين في نار الدجال ليجده ماء عذباً بارداً، فكذلك المؤمن بقول رسول الله ﷺ في ماء زمزم فإنه يشربه ويتضلع منه غير ناظر إلى قول الأطباء بوجود الجراثيم والميكروبات فيه فاختر لنفسك ما يحلو.

أما التضلع بغير ماء زمزم فإنه يضر، لأن الشرب من المياه العذبة الأخرى يكون بقدر الحاجة، فإن زاد عن الحاجة ضر ولم ينفع، كما هو مجرب واقع معروف لدى جميع الناس، وهذا لا يحتاج إلى دليل ولا برهان ولا تطويل الكلام، والتجربة أكبر برهان لكل إنسان. والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله أننا لم نجد في جميع البلاد وجميع الحجاج في كل عام من يستمع لقول الأطباء وتوهماتهم في ماء زمزم بل جميع الناس يهجمون على ماء زمزم بإيمان وإخلاص وشوق ورغبة، فيشربون منه ملء بطونهم ويتضلعون منه ملء أضلاعهم ما داموا في مكة المكرمة.

قال مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي الخطاط غفر الله تعالى له، في ماء زمزم وفضله:

زمزم خارج بأمر الله ... أغاثه لابن خليل الله
وأمه هاجر حين سكنا ... بمكة وبعده زال العنا
والابن هذا هو إسماعيل ... ذاك النبي الصادق النبيل
ابن خليل الله إبراهيم ... عليهما الصلاة والتسليم
وكان إسماعيل وهو يرضع ... عند خروج الماء وهو ينبع
قد وصلت حالته من الضرر ... من عطش في منتهى من الخطر
خافت عليه أمه الموت ولا ... أنيس ولا وحش لديهم لا ولا

قامت لتسعى سعيها في الوادي فربما يغيثها منادي
إذ سمعت صوتا كصوت شخص فهرولت تسعى أشد الحرص
فرأت الماء يفور جاريا صارت تحوطه ليبقى باقيا
أخرجه جبريل رفقاً بهما صلى عليه ربنا وسلما
في ذلك العهد من الزمان بأمر رب الملك الديان
فشربت هاجر بعد أن سقت وليدها فرويا وفرحت
أغاثها رب العباد المنعم وصانها من الردى المحتم
بذا أتى الحديث في الصحيح فلا تمل عن قولنا الصحيح
والبئر عن محله القديم بقرب بيت ربنا الكريم
لم تنتقل بل هي باق لم تزل فهذه حكمته عز وجل
فماء زمزم تجد فيه الشفا من فاته منه الشراب أسفا
فاشرب بأي نية أردتها فإن شربت صادقاً وجدتها
فاشرب هنيئاً وتضلع منه بكثرة لتستفيد منه
هذا هو الوارد في الحديث فاسع إليه سعيك الحثيث
فالمؤمن الصادق في الإيمان ينفعه حديث أهل الشان

* * *

من تحت بيت الله يأتي الماء لبئر زمزم فنعم الماء
كذاك يأتي الماء من تحت الصفا وأسفل المروة عذباً وصفا
مسافة البيت لبئر زمزم عشرة أمتار أخي فافهم
فهو لذاك أفضل المياه وليس في ذا مطلق اشتباه
ماء لطيف سائغ شرابه من ذاقه دام له شرابه
فاشرب واتحف جارك الحبيبا وضيفك العزيز والقريبا
اشرب ولا تنظر لقول قائل من الأطباء وأهل الباطل
بأن ماء زمزم ملوث بالميكروبات إن زالا يحدث
وبالجراثيم التي فيها ضرر في قولهم هذا عليهم الضرر
إذ أنهم ينفرون الناسا من شربه غيرهم التباسا

أما رسولنا الحبيب المصطفى ... قد قال ماء زمزم فيه الشفا
ما بعد قول صاحب الشريعة ... قول فكل قولة خديعة
ما قد سمعنا في العصور الأول ... من قولة كمثل قول القائل
فاشرب هنيئاً منه فهو ماء ... ما مثله ماء فنعم الماء
فليس في الدنيا كبئر زمزم ... بئر يداني ماؤها لزمزم
موضعها في أشرف البقاع ... يشرب منها الناس بالصواع
بقرب بيت الله في المطاف ... فيا لها من شرف الأوصاف
فشرب زمزم كذا التضلع ... براءة من النفاق فاسمعوا
وإنه شاف من الأسقام ... ومشبع لجائع الطعام
بإذن رب الملك الكبير ... وراحم الضعيف والأمير
بذا أتى الحديث من خير البشر ... للمسلمين فاعرفوا هذا الخبر

* * *

يا أهل مكة ويا خير الأمم ... يا من لهم فضل وعز وشمم
قد أنعم الله عليكم بنعم ... كثيرة وفيرة وبالكرم
فبادروا بشكر رب البيت ... يرزقكم من الحلال البحت
وبالصبر والصلاة والصيام ... والحج والزكاة والقيام
لكل خير ولكل بر ... فانتموا أهل لكل بر
وإنما الأعمال بالنيات ... وإنما الأجر على الثبات
« والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا »
فامنن علينا بالرضا والعافية ... والعفو والغفران فهي الشافية
واختم حياتنا على الإيمان ... والعمل الصالح والإحسان
والحمد لله على الختام ... ثم صلاة الله بالسلام
على نبينا الحبيب المصطفى ... وآله وصحبه أولي الوفا

بقاء ماء زمزم إلى يوم القيامة

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن مقاتل عن الضحاك بن مزاحم، قال: إن الله عز وجل يرفع المياه العذبة قبل يوم القيامة، وتغور المياه غير زمزم وتلقي الأرض ما في بطنها من ذهب وفضة، ويجيء الرجل بالجراب فيه الذهب والفضة، فيقول: من يقبل هذا مني؟ فيقول: لو أتيتني به أمس قبلته. انتهى منه.

تحريم العباس رضي الله تعالى عنه الاغتسال بماء زمزم

روى الإمام الأزرقي في تاريخه، عن زر بن حبيش قال: رأيت عباس بن عبدالمطلب في المسجد الحرام وهو يطوف حول زمزم يقول: لا أحلها لمغتسل وهي لمتوضئ وشارب حل وبل، قال سفيان: يعني لمغتسل فيها، وذلك أنه وجد رجلاً من بني مخزوم، وقد نزع ثيابه وقام يغتسل من حوضها عرياناً. انتهى منه. ومعنى: حل، أي: محلل.

نقول: إن العباس بن عبدالمطلب رضي الله تعالى عنه، قد حرم الاغتسال من ماء زمزم عندما رأى رجلاً عرياناً يغتسل منه وهو في داخل المسجد الحرام قريباً من الكعبة المشرفة، وله الحق في ذلك غيرة منه على حرمة المسجد الحرام وحرمة الكعبة المشرفة وحرمة فضل ماء زمزم. فهذا التحريم منه على مذهبه الخاص. والمعتمد عند من أتى بعده من أصحاب المذاهب الأربعة أنه يجوز الاغتسال من ماء زمزم والأولى والأفضل ترك ذلك مراعاة لشرف ماء زمزم وفضله. لا زال ماء زمزم جارياً نابعاً إلى يوم القيامة بفضل الله تعالى ورحمته.

سقاية العباس

جاء في كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ما نصه: سقاية العباس حجرة كبيرة شرقي الكعبة وجنوبي زمزم ذات نوافذ، وسقفها جملي (جملوني) بارز عن جدرها ليستظل به الناس، وقد وصفها الناس في وقته فقال: إنها بيت مربع في أعلاه قبة كبيرة وفي جهاتها الأربع عدا الجنوبي منها شبابيك من حديد وفي جانبها الشمالي من الخارج حوضان بينهما الباب، وفي وسط البيت بركة كبيرة تملأ بالماء من زمزم بواسطة قناة سماوية من زمزم إلى جدر البيت ثم يسلك

قناة أرضية إلى البركة ، فيخرج منها الماء على شكل فوارة وقال : إنها عمرت في سنة ٨٠٧ هجرية . وقد كان العباس بن عبدالمطلب يسقي فيها الحجيج ، وقد ذكر الناس : أن مقدار ما بين هذه السقاية والحجر الأسود ثمانون ذراعاً بالذراع الحديد ٥٦ سنتيماً وسُبُعًا . انتهى من مرآة الحرمين.

جاء في تاريخ الغازي ما نصه : قال العلامة ابن فهد : سقاية العباس كانت بين الركن وزمزم بالقرب من مجلس سيدنا عبدا لله بن عباس فأخرها عبدا لله بن الزبير إلى موضعها الآن وكانت قبتها من خشب ثم عمرت بالحجر في زمن الخليفة المعتمد أحمد بن المتوكل العباسي في عام تسعة وخمسين ومائتين .

وقال شهاب الدين أحمد بن حسن : عمرها محمد بن هارون بن عباس بن إبراهيم لما حج بالناس من خشب العاج وسقفها به على حكم المقعد الظريف في بيت التربيع مزخرفاً بماء الذهب وجعل البركة كلها من رخام منقوش وكتب اسمه في نقش الرخام واستمر بناؤه إلى سنة ثلاثمائة وخمسين ، فحج بالناس أحمد بن محمد بن عيسى العباس فهدم ذلك وبناه على أربعة أعمدة مفتحة من سائر الجوانب الأربعة وسقفها بالخشب المذهب وأبقى البركة على بنائها الأصلي واستمر بناؤه إلى سنة ثلاثمائة وثلاثة وسبعين .

ولما حج بالناس جعفر بن علي بن سليمان العباسي ، سقفها لسقوطها وانهدامها وجعلها من حجر ونورة واستمر ذلك إلى سنة أربعمائة وثلاثين ، فحج بالناس عمر بن الحسن وقد انهدم ذلك البناء فبناها كلها على صفة بيت مربع وجعل لها بابان شرقي وغربي وأحسن عمارتها واستمر ذلك البناء إلى سنة خمسمائة وعشرين فجددها إبراهيم العباسي .

قال ابن فهد: ثم عمرها الجواد الأصفهاني صاحب الموصل في أول القرن السادس .

قال الفاسي في العقد الثمين : وآخر عهد عمرت فيه هذه السقاية سنة ثمانمائة وسبعة بعد سقوط القبة التي كانت بها وكانت من خشب من عمل الجواد الأصفهاني فعملت من حجر وقد عمرها وزير صاحب الموصل وأم الخليفة الناصر لدين ا لله العباسي .

قال ابن فهد في لطائفه : المستكفي في سنة خمسمائة وتسعة والملك المظفر عمر في سنة ستمائة وأربع وسبعين وأحمد بن عمر المرجاني في سبعمائة وعشرين ،

قال ابن فهد : ثم عمرها محمد بن قلاوون في سبعمائة وستة ثم في زمن الظاهر برقوق في ثمانمائة وسبعة وسبب هذه العمارة سقوط القبة ، قال الفاسي : وقد عمرها قايتبائي في سنة ثمانمائة وأربع وسبعين ثم عمرت في سنة ثمانمائة وأربع وتسعين .

قال الشيخ عبدالعزيز بن عمر بن فهد في بلوغ القرى : وفي يوم الأحد رابع عشر شهر رجب سنة (٨٩٣) ثلاث وتسعين وثمانمائة شرع في هدم قبة الشراب التي يقال لها قبة العباس . فهدمت إلا الجانب التي يلي بيت الزيت فترك وهدم أيضاً الشراريف التي فوق بيت الزيت بل وهدمت الدرجة التي به وهدم جوانب البركة وبعض القائم التي بوسطها وأذيب الرصاص في المسجد الحرام وجعل بين الحجارة التي في المطاف وما يتصل به ، وفي يوم الاثنين خامس عشر الشهر شرع في بنائها وفرغ منها في رمضان وعمل لها بوابة عظيمة مبنية بحجارة صفر منحوتة ملونة من داخلها وخارجها وبوسطها بركة كبيرة ولها شبابيك ثلاثة من حديد وحوضان ببزابيز يشرب منها الأنام وعلوها قبة عظيمة شاهقة مستقيمة .

وفي شهر رمضان من السنة المذكورة كمل عمل قبة العباسي وتبييضها وأعيدت على هيئته إلا أنها كانت مربعة فجعلت مثمنة وكان بها ستة شبابيك فجعلت أربعة وجعل عند سطحها أربع طاقات للنور وجعل لها شراريف و لم يجعل لبيت الزيت شراريف حتى لا يعلو وصفر جدر البركة ليتسع بطن القبة و لم يقدروا على إعادة بزابيز الفوارة التي بوسط البركة فإنهم كسروه قصداً وجعل تحت الشباكين اللذين بجنب الباب حوضين ببزابيز يشرب منها الناس وعلى الأربعة الشبابيك التي بالقبة أربعة شبابيك حديد ثم في خلفها أربعة شبابيك خشب للأربعة الطاقات المناور التي في أعلا القبة وفي هذا الشهر جعل في زمزم العمودان الرخام وكأنهما دعامة واحدة ويقال إن أحدهما كان بمكة والآخر جيء به من المدينة . انتهى .

قال في تحصيل المرام : وممن عمرها بالنورة وأحدث فيها دكة وجدد هلالها الوزير حسن باشا في حال وروده مكة من اليمن قاصداً البلاد الرومية أوسط ربيع الأول سنة مائة وستة عشرين بعد الألف وبنى قبل هذه السنة مكاناً للوقادين بآخر المسجد عند باب بازان ذكره الشيخ خليفة الزمزمي ثم قال: وأما صفتها الآن فهي قبة كبيرة مثمنة إلى نصفها يدخلها الإنسان من باب شامي له عتبتان وعلى يمين

الداخل دكة كبيرة إلى نصف القبة من دائر ولها شباك غربي وشباك آخر يشرف جهة باب علي وبوسطها بركة مثمنة باشرت زرعها بيدي فوجدت طولها خمسة أذرع إلا قيراطين بالذراع الحديد وعرضها دائر اثنا عشر ذراعاً وأربعة عشر قيراطاً وعمقها زيادة عن قامة وفي وسط البركة عمود يصل إليه الماء من خشبة في زمزم يصب الماء فيها ثم ينزل في حاصل ومنه لدبل يحازي بطرف قبة الفراشين إلى باطن العمود المذكور فيفيض الماء فيه ويملأ البركة المذكورة فتدخل الناس وتشرب من البركة بمغاريف انتهى.

وقال الشيخ عبدالرؤوف المنادي: سقاية العباس كانت حياضاً بالمسجد الحرام والآن تسقى في بركة وأصلها بيد قصي ثم لابنه عبد مناف ثم لابنه هاشم ثم لابنه عبدالمطلب ثم لابنه عباس ثم لابنه عبدالإله بن عباس ثم لابنه علي وهكذا ثم صارت لغيرهم.

وقال الجلال السيوطي في رسالته الأساس في مناقب بني العباس: ثم من بعد علي بن عبدا لله صارت لابنه محمد ثم لابنه عبد الإله ثم لابنه المنصور أبي جعفر ثم لابنه المهدي بن عبدا لله محمد ثم لابنه أبي جعفر هارون الرشيد إلى أن قال: ثم لابنه الموفق علي إلى أن قال: ثم ليعقوب المقتدر بأمر ا لله ثم لابنه عز الدين المستنجد بأمر ا لله. انتهى.

وكانت لهم نواب إلى أن بقيت في ذرية أولاد الشيخ علي بن محمد بن داود البيضاوي المعروفين الآن ببيت الريس، وقد تركت الآن سقاية العباس وصارت الحجاج والناس يشربون من دوارق وأزيار توضع بالمسجد محبة من أهل الخير.

قال ابن حجر: وسقاية العباس لآل العباس أبداً وكانت لهم نواب. انتهى ما في تحصيل المرام.

وفي السالنامة الحجازية: وفي سنة ألف ومائتين وتسع وخمسين صدر الأمر من مولانا السلطان عبد المجيد بوضع كتبخانة في المسجد الحرام لأجل أن يراجع فيها العلماء وطلبة العلم وينتفعون بها وأرسل من دار السلطنة كتباً كثيرة فوضعت في القبة التي في المسجد وكانت تلك القبة تسمى سقاية العباس وجعلوا لتلك الكتب حافظاً ناظراً عليها ومعه معاونون ورتبوا لهم معاشات جزيلة وافية وأجرة مسكن لرئيسهم وتعيينات.

وكانت المصاحف والكتب الموقوفة موجودة في زمن الشيخ ثابت بن إسماعيل الزمزمي في قبة السقاية في سنة ٨٨٧ سبع وثمانين وثمانمائة كما يفهم من عبارة ذكره العلامة الحضراوي رحمه الله في تاج تواريخ البشر وهذه عبارته : نقل الشيخ العارف بالله تعالى أبو الفتح أحمد بن أبي الفتح الزمزمي في أول ديوان عمه الشيخ ثابت الزمزمي من أنه وقع سيل كبير دخل المسجد الحرام وكان الشيخ بسقاية ثابت بسقاية سيدنا العباس رضي الله عنه على عادة سلفه يرفع المصاحف والكتب التي كانت موقوفة بالقبة المذكورة فداركه السيل ودخل عليه فيها من الباب والشبابيك وأتلف ما فيها من الكتب والمتاع ودخل زمزم وفاض منها الماء وذلك في يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشر ذي القعدة الحرام سنة سبع وثمانين وثمانمائة . انتهى .

وصدر الأمر أيضاً من مولانا السلطان عبدالمجيد بوضع ساعات فلكية في المسجد الحرام أرسلت من دار السلطنة في قبة أخرى في المسجد وكانت تلك القبة تسمى قبة الفراشين وأقاموا موقتاً لها ومعاوناً بمعاشات فحصل من تلك الكتب والساعات منفعة كثيرة للناس . انتهى .

وفي تحصيل المرام : ورد في جمادى الأول سنة ألف ومائتين وثمانية وثمانين خطاب من الدولة العلية إلى سيدنا الشريف عبدالله بن الشريف محمد بن عون لما بلغها من معمر باشا أن هذه القبة أي قبة الكتب والتي بجانبها تمنع مشاهدة الكعبة لمن بتلك الجهة فورد ذلك الخطاب بالكشف عن ذلك الأمر فعقد مجلساً على ذلك ببيته التي بالغزة وفيه العلماء فأخبروه أن أحد القبب سقاية العباس يعين محلها فقال : نجعل محلها قبة صغيرة على أربعة أعمدة وفيها حوض باسم مولانا السلطان بحيث أن تلك القبة لا تمنع مشاهدة البيت لمن بتلك الجهة . فاستحسن ذلك القول فلله ما أحسن رأيه الذي وافق على ما كانت عليه في زمن أحمد بن محمد العباسي فكتب بذلك إلى الدولة و لم يأت بعد ذلك خبر بالهدم .

ثم في سنة ثلاثمائة وألف ورد الأمر بهدمهما وذلك في سلطنة مولانا المعظم السلطان عبدالحميد بن السلطان عبدالمجيد خان وأمير مكة يومئذ الشريف عون بن الشريف محمد بن عون وكان والي الحجاز وشيخ الحرم الوزير المعظم عثمان باشا ، فكان ابتداء الهدم بعد صلاة الجمعة اثنا عشر صفر وشاهد الهدم الشريف الموماً إليه والوزير عثمان باشا .

وذكر السيد أحمد دحلان في سالنامته : وفي سنة ثلاثمائة وألف هدمت القبتان الكائنتان في المسجد وهما قبة الكتب وقبة الساعات وذلك لتضيقهما المسجد وللخوف من السيل لأنه دخل سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف وحصل تلف في الكتب ووضعت الساعات بمحل عمل بها في هواء المسجد الحرام بين باب علي وباب بازان .

ونقلت الكتب في القبة المتصلة بمدرسة السليمانية عند باب دريبه وهذا في مدة إمارة الشريف عون باشا بن المرحوم محمد بن عون وولاية الوزير المفخم السيد عثمان نوري باشا . انتهى من تاريخ الغازي .

أول من عمل باباً لزمزم وأعطى مفتاحه لبيت الريس

جاء في تاريخ الغازي : قال الشيخ خليفة بن فرج بن محمد الزمزمي البيضاوي في كتابه « نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس » كان بيت زمزم ليس له باب ولا غلق إنما هو مفتوح لمن دخل وورد إليها ومع ذلك كان التكلم للجد عليها بطريق النيابة عن الخلفاء العباسين . فلما صار أمر البير إلى الشيخ عبدالسلام بن أبي بكر الزمزمي أنهى بمحضر إلى خليفة ذلك الزمن العباسي بأن زمزم في أوقات الصلاة تكثر فيها الناس والازدحام فيشوشون على الإمام والمصلين وطالما دخلت الكلاب والبس بالليل فيطيحون فيها والقصد باباً يجعل عليها يمنع ما ذكر . فأجابه إلى سؤاله وجعل عليها باباً ثم أنه لما صار أمر زمزم بالسقاية إلى ذرية الشيخ عبدالعزيز بن عبدالسلام المذكور أنهى إلى خليفة زمنهم المتوكل العباسي أن بيدهم خدمة زمزم وسقاية العباس والقصد أن يجعلوا ضبة على باب زمزم يصكونها الليل وفي أوقات الصلاة وأن يكون المفتاح عند الأكبر منهم ثم من ذريتهم فأجابهم خليفة زمنهم بمرسوم شريف عال ، وهذه صورته .

رسم بالأمر الشريف العالي المولوي الإمام الأعظم الهاشمي العباسي سيدنا ومولانا الإمام الأعظم والخليفة المكرم المتوكل على ا لله أمير المؤمنين وإمام المسلمين وابن عم سيد المرسلين وسليل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين أعز ا لله به الدين وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين : إنه لما حضر إلى أبوابنا الشريفة وأعتابنا العالية المنيفة الشيخ الفاضل سراج الدين عمر بن الشيخ عبدالعزيز الزمزمي مفتي مكة

المشرفة والقائم عنا بخدمة زمزم الشريفة وسقاية جدنا العباس وعرفنا أن باب زمزم لم يكن عليه ضبة يغلق بها ولا يغلق إلا بعصفور من داخلها يفركه الداخل والخارج وقصده بوضع الضبة خشية على المكان المشار إليه من دخول ما فيه ضرر على المسلمين مما يحصل منه نجاسات وأن في وضع الضبة نفع من حيث ذلك فأردنا جبر خاطره وإخوته بما قصدوه والإنعام عليهم مما رجوه من فضلنا وأملوه وصحبناه مرسوم شريف ثاني إلى مكة المشرفة زادها الله شرفاً للجناب العالي والأميري الكبيري مغلباي الأمير بمكة المشرفة وناظر الحسبة الشريفة عظم الله شأنه بامتثال ما بيد الشيخ عمر المذكور من مرسومنا الشريف المسطور وعدم التعرض له في ذلك وأن يباشر بنفسه وضع الضبة المذكورة هناك ويعمل بيد الشيخ عمر مفتاح ويقيموا من شاؤا من جهتهم من يتولى غلق الباب وفتحه لمن يقصد زمزم فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ويعمل بحسبه ومقتضاه حرر في العشرين من شوال سنة (٨٢٦) ستة وعشرين وثمانمائة . انتهى .

وفيه أيضاً أصل دخول وظيفة زمزم وسقاية العباس على جدنا الأكبر علي بن محمد البيضاوي (بيضا أحد بلاد فارس قرية من شيزار) قدم مكة عام ثلاثين وستمائة وتوفي في حادي عشر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وستمائة بمكة المشرفة ودفن بالمعلاة . ولما قدم مكة من العراق باشر عن الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن خدمة زمزم فلما ظهر له خيره نزل له عنها وزوجه ابنته فولدت منه أولاداً وصار لهم أمر البئر وسقاية العباس . انتهى من الغازي .

انظر: صورة رقم ٦٨، المؤلف على باب زمزم قبل هدمه سنة ١٣٦٨هـ

خلاصة أمر السقاية

وخلاصة الكلام على من تولى سقاية زمزم إلى اليوم هو كما يأتي : جاء في هامش تاريخ الأزرقي بعد الكلام على صفة سقاية العباس : ذكر المؤرخون أنه لما توفي عبد المطلب بن هاشم، تولى أمر السقاية ابنه أبو طالب فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم، فصرفها، وجاء الموسم و لم يكن معه شيء فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف درهم إلى الموسم القابل، فشرط عليه إذا جاء الموسم و لم يقضه أن يترك له السقاية فقبل ذلك، وجاء الموسم و لم يقضه فترك

له السقاية ، فكانت بيد بني العباس بن عبد المطلب فابنه إلى أن انقضت خلافتهم وهم يضعون عليها نوابهم .

قال أيوب صبري : ولما تولى بنو العباس الخلافة ، حالت أعمال الملك دون قيامهم بأمر السقاية ، فكانوا يعهدون إلى آل الزبير المتولين التوقيت في الحرم الشريف القيام بأعمال السقاية بالنيابة ، ثم طلب الزبيريون من الخلفاء العباسيين ترك السقاية لهم ، فتركوها لهم بموجب منشور إلا أنه نظراً لكثرة الحجاج قد أشركوا معهم آخرين في العمل باسم « الزمازمة » انتهى .

قلنا : ثم إن الأتراك العثمانيين أثبتوا آل الزبير في عمل السقاية ولا تزال رآستها بيدهم إلى اليوم ، وآل الزبير هؤلاء يعرفون اليوم « ببيت الريس » انتهى من هامش تاريخ الأزرقي .

تعمير فم بئر زمزم ووضع الشباك في داخلها

بناء تنور بئر زمزم

يقول ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى ، في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية عن بناء تنور بئر زمزم وهو وجه زمزم وفمه الذي يدور عليه ما يأتي :

ومن أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم -وهو مَنْ ليس من جنس العرب- ذوي الملك والثراء أنه وصل إلى الحرم الكريم مدة جد الأمير مكثر بن عيسى (وهو الأمير فليته الذي توفي سنة ٥٢٧) فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها فاجتمع بالأمير وقال له : أريد أن أتأنق في بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته وأبلغ في ذلك الغاية الممكنة وأنفق فيه من صميم مالي ولك في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك الغرض المقصود ، وهو أن تجعل ثقة من قِبَلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك فإذا استوفى البناء التمام وانتهت النفقة منتهاها وتحصلت محصلة بذلك ، لك مثلها جزاء على إباحتك لي ذلك . فاهتز الأمير طمعاً وعلم أن النفقة في ذلك تنتهي إلى آلاف من الدنانير على الصفة التي وصفها له فأباح له ذلك وألزمه مقيِّداً يحصي قليل الإنفاق وكثيره وشرع الرجل في بنائه واحتفل واستفرغ الوسع وتأنق وبذل المجهود ، فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضاً حسناً والمقيِّد

يسود طواميره بـالتقييد والأمـير يتطلـع إلى مـا لديـه ويؤمـل لقبـض تلـك النفقـات الواسعة بسط يديه إلى أن فرغ البناء على الصفة التي تقـدم ذكرهـا أولاً عنـد ذكـر بئر زمزم قبته فلما لم يبق إلا أن يصبح صـاحب النفقـة بالحسـاب ويستقضي منـه العدد المجتمع فيها خلا منه المكان وأصبح في خبر كان وركـب الليل جمـلاً وأصبـح الأمير يقلب كفيه ويضرب أصدريه و لم يمكنه أن يحدث في بناء وضع في حـرم ا لله تعـالى حادثـاً يحيلـه أو نقضـاً يزيلـه وفـاز الرجـل بثوابـه وتكفـل ا لله بـه في انقلابـه وتحسين ما به وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خـير الرازقـين وبقـي خـبر هـذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجباً ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك . انتهى من رحلة ابن جبير .

قال ابن جبير الأندلسي أيضاً في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمـان وسـبعين وخمسمائة يصف بئر زمزم حينما وصل إلى مكة في السنة المذكورة ما يأتي :

وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود ومنها إليه أربع وعشـرون خطـوة ، والمقـام المذكور أي مقام إبراهيم عليه السـلام ، الـذي يصلـى خلفـه عـن يمـين القبـة ومـن ركنها إليه عشر خطوات « قال ابن جبير قبـل هـذا الكـلام بورقـة : الخطـوة كلهـا ثلاثة أشبار » وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط إلى جهـة الجـدار الـذي يقـابل البيـت المكـرم وعمقهـا إحدى عشر قامة حسبما ذرعناه وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر وباب القبة ناظر الشرق وباب قبة العباس وقبة اليهودية ناظران إلى الشمال والركن من الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبـة المنسـوبة إلى اليهوديـة يتصـل بـالركن الأيسـر مـن الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية فبينهما هـذا القـد مـن الانحـراف وتلي فيه بئر زمزم ومن ورائها قبة الشراب وهي المنسوبة للعباس رضـي ا لله عنـه ، وتلي هذه القبة العباسية علـى انحـراف عنهـا قبـة تنسـب لليهوديـة وهاتـان القبتـان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغـير ذلـك والقبـة العباسية تخل من نسبتها الشرابية لأنها كانت سـقاية الحـاج وهـي حتـى الآن يـبرد فيها ماء زمزم ويخرج مع الليل ليسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق كل دورق منها ذو مقبض واحد وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضـه ببعـض إلصاقـاً لا تحيله الأيام وأفـرغ في أثنائـه الرصـاص وكذلـك داخـل التنـور وحفـت بـه أعمـدة الرصاص الملصقة إليه إبلاغاً في قوة لزه ورصه اثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لهـا

رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبراً وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها نحو شبرين وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها وعمقها نحو شبرين وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس إليها ويتوضؤون عليها .

تعمير فم البئر ووضع شباك في داخلها

قال الغازي في تاريخه : وفي تاج تواريخ البشر نقلاً من كلام الشريسي شارح المقامات (فائدة) : بئر زمزم من عند الماء أسفل إلى فوق بالحجر المبلط بالنورة المحكمة والجبس ومن الأرض من محل البنيان إلى المحل الذي يقوم عليه الجابد رخام قائم وفي أعلا هذا البنيان دائر من رصاص أيضاً ومنه إلى الأرض عمد لطيفة من رصاص لحفظ الرخام لصغره من السقوط في البئر ثم من محل وقوف الجابد إلى نصف قامته عمد لطيفة من نحاس بين كل واحد فتحة نحو ذراع بطوق دائر عليها من فوق مسبوك فيه رصاص وهذا البناء من عمل الوالي الأجل خوشكلدي في زمن المرحوم السلطان الأعظم سليمان ، عليه رحمة الملك الرحمان ، وذلك في أوسط سنة (٩٧٣) ثلاثة وسبعين وتسعمائة .

ثم قال : أقول وهذا الذي ذكره قد أزيل وتجدد الدائر والرصاص برخام وحديد في زمن مولانا السلطان عبد الحميد خان ثم في زمن مولانا السلطان عبد المجيد خان عليهما رحمة الرحيم المنان ، انتهى ما ذكره الحضراوي .

وفي إتحاف فضلاء الزمن : وفي سنة اثنتا عشر ومائة وألف عمر إبراهيم بيك دائرة بئر زمزم بالتلبيس والتبييض خارجاً وداخلاً ثم غير الرفوف الخارج على بئر زمزم مما يلي مقام الحنبلي وجددوا أخشابه ولبسوها ألواح الرصاص وزينوها بأنواع الدهانات ومنها مقام الحنفي نقضوا جميع أخشابه التي على الطبقة العليا محل المكبرين وجددوا ما كان يحتاج إلى التغيير وطلوا حلتها بالذهب وجددوا المقامات وسقاية العباس فإنها خربت من كثرة الأهوية وتطاول السنين ونقضوا القبة جميعها إلى الساسي وجددوها بالحجارة الشمسية وزينوها بأنواع التبيض وجعلوا لها

خزانتين وفتحوا لها طاقة من الجهة الشرقية وجعلوا لها من باطن الطاقة حوضاً للسبيل ورمموا الحاصل الذي ملاصق بالقبة . انتهى .

وقال العلامة الدحلان في سالنامته : وفي مدة السلطان عبد الحميد الأول في سنة ألف ومائتين حصل تعمير في المسجد الحرام بتعديل بعض العواميد المائلة وتعمير بعض القبب التي في سقف المسجد وتعمير بئر زمزم وتعمير أيضاً في بعض منائر المسجد منها منارة باب العمرة وذلك كله في مدة السلطان المذكور ومدة إمارة الشريف سرور بن الشريف مساعد ولذا كتب على بئر زمزم ثلاثة أبيات للعلامة الشيخ محمد طاهر سنبل هي هذه :

سرور لسلطان البرية والورى عبد الحميد البر بحر المكارم

ونصر له أيضاً وفتح ورفعة بتجديد هذا المآثر المتقارم

حضيرة إسماعيل أعني ابن هاجر وركضة جبريل على عهد آدم

ومكتوب على الشباك الشرقي مما يلي باب القبة من الجهة الشمالية (ماء زمزم شفاء من كل داء) ، ومكتوب أيضاً (آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم) ، ومكتوب تحت الحديثين السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ ، ومكتوب على الشباك الجنوبي مما يلي باب قبة زمزم أيضاً (ماء زمزم لما شرب له) (لا يجمع ماء زمزم ونار جهنم في جوف عبد) السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هجرية .

ومكتوب على جدار قبة زمزم الشمالية مما يلي الجهة الغربية ﴿وسقاهم ربهم شرباً طهوراً﴾ ، وكتب أيضاً على حَجَر قديم ألصق على الجدار الشمالي بقبة زمزم بالخط البارز أمر بترخيم المقام الشريف وهذا الحطيم المعظم السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور خان خادم الحرم الشريف في سنة أربع وعشرين وسبعمائة . انتهى كذا من تاريخ عمارة المسجد الحرام .

وقال العلامة المذكور أيضاً في سالنامته : صدر الأمر من السلطان أحمد بن السلطان محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان الأول بن سليم الأول فاتح مصر بعمل شباك حديد يجعل في بئر زمزم يمنع الغرق عمن وقع في البئر المذكورة فجعل على قدر تدوير البئر وجعل له ست سلاسل وربطت بالحديد في دائرة البئر الأعلى وجعل الشباك المذكور في داخل البئر وصار الماء فوقه قدر ثلثي

قامة فصار من يقع في البئر يمنعه الشباك من الغرق والهلاك، وقبل وضعه كان من يقع في البئر يغرق ويموت . انتهى .

ومن تاج تواريخ البشر وتتمة جمع السير : اعلم أنه ورد الأمر السلطاني الأحمدي العثماني على يد الباشا الأعظم حسن أفندي بفعل شباك حديد يمنع ما يطيح فيها من آدمي وغيره فجعل الشباك المذكور في مدة مديدة وجعله من حديد ونحاس ممتدة في بعضه البعض على قدرته ويرغم بئر زمزم المباركة من أسفل بستة سلاسل غلاظ مسبوكة في الحديد الفوقاني الدائر على فمها مشاهدة لكل واحد طول كل واحد منهن اثنين وعشرين ذراعاً وربع ذراع بذراع اليد وصار الماء طافياً على الشباك المذكور نحو ثلثي قامة وركب في زمزم المباركة ضحوة يوم الأحد تاسع عشرين من شعبان المعظم سنة ١٠٢٥ خمس وعشرين بعد الألف ثم وقع في رابع عشري ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين بعد الألف تغير ماء زمزم من الحديد والنحاس المجعولين في الشباك والسلاسل ثم إذا وقع الدلو أسفل الشباك أمسكه عن أن يصعد فاتفق مجيء الأفندي السيد الشريف محمد بن السيد مصطفى القناوي ليلة من الليالي فأنكر طعم الماء وسأل عن الحال فأخبر بأنه بسبب الشباك والسلاسل ووقع للدلو ما وقع فاشتبك ولم يطلع فعدى إلى الجهة الأخرى فوقع ما أراده الله سبحانه وتعالى كذلك وزاد طعم الحديد والنحاس في الماء فأمر صبيحته بقلعه وإخراجه من زمزم هو والسلاسل وألقي عند قبة العباس والسلاسل في داخلها مرة من الزمن ثم أخذت وصار الشباك ملقى على حاله إلى الآن وزال ذلك الطعم وتيسر طلوع الدلو ونزوله . انتهى من تاريخ الغازي .

أول من عمل الرخام في زمزم

قال الغازي في تاريخه : وأول من عمل الرخام على زمزم وعلى الشبابيك وفرش أرضها بالرخام أمير المؤمنين أبو جعفر في خلافته ثم عمل المهدي في خلافته ثم غير في خلافة أمير المؤمنين المعتصم سنة عشرين ومائتين وكانت مكشوفة قبل ذلك إلا قبة صغيرة على موضع البير فغيرها عمر بن فرج فسقف زمزم كلها بالساج المذهب من داخلها وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء وأشرع لها جناحاً صغيراً كما تدور بتربيعها وجعل في الجناح كما يدور سلاسل فيها قناديل يستصبح بها في الموسم وجعل على القبة التي بين زمزم وبين الشراب الفسيفساء

وكانت قبل ذلك تزوق في كل موسم عمل ذلك في سنة عشرين ومائتي سنة . انتهى .

وقال القرشي في البحر العميق : الحجرة التي فيها بير زمزم في زماننا فهو بيت مربع مسقف في جدرانه تسعة أحواض للماء تملأ من بئر زمزم يتوضأ الناس منها والخلوة التي جانب هذه الحجرة عملت على ما هي عليه اليوم في سنة سبعة وثمانمائة وكانت قبل ذلك على غير هذه الصفة وإنما بنيت الأحواض على هذا الموضع الآن ليتوضأ الناس من البزابيز التي عملت في أسفلها . انتهى .

قبة بئر زمزم

قال الغازي في تاريخه : وقد غيرت قبة زمزم ، غيرها السلطان أحمد خان علي يد سليمان بيك شيخ الحرم الشريف سنة ألف واثنين وسبعين . انتهى .

قال صاحب تحصيل المرام : وهي الموجودة الآن في زماننا وهي بيت مربع وفي جدرانه ثمانية شبابيك ثلاثة مواجهة الكعبة وثلاثة جهة المدرج واثنان بجانب الباب والباب في وسط وفي هذين الشباكين حوضان تملآن من زمزم للشراب وفوق قبة البير بيت آخر مقام على أعمدة لشيخ زمزم أي : رئيس المؤذنين يصعد إليه بدرج من جهة مقام الحنبلي فيطلع رئيس المؤذنين وهو شيخ زمزم ليؤذن ويتبعه سائر المؤذنين في جميع الأوقات .

قال : وقد جددت في زماننا شبابيك بيت زمزم ورخام أرضها وأصلح فمها والدرابزين الذي على فم البير كل ذلك على يد سيدنا الشريف عبدالله بن الشريف محمد بن عون والحاج عزت باشا في سلطنة السلطان عبد العزيز خان وكان ذلك العمل في سنة ألف ومائتين وتسعة وسبعين . انتهى .

وقال السنجاري في منائح الكرم : وفي سنة ثمانمائة وسبعة عشر عمرت ظلة المؤذنين التي فوق زمزم ، وكانت من خشب فبنيت بالحجر الصوان وفرغ منها في رجب من العام المذكور . انتهى من تاريخ الغازي .

الغرفة التي بجوار زمزم

جاء في تاريخ الغازي : قال في نزهة الفكر : نقل ابن فهد أن الخلوة التي بجانب زمزم كان يجلس فيها سيدنا عبدا لله بن العباس ، رضي ا لله عنه ، وأيضاً التقي الفاسي ذكر مثله بقوله : وفي المحل الذي بجانب زمزم وهي الخلوة كان يجلس فيها الحبر سيدنا عبدا لله بن عباس رضي ا لله عنهما على مقتضى ما ذكره الأزرقي والفاكهي . وقيل : إنها محل سقاية العباس وإنما حولها عن هذا المكان ابن الزبير لما كثر الناس وقيل بناه المهدي لابنته زبيدة تكون به إذا أرادت الشرب من زمزم والغسل فيه ذكره المراكشي في الروض الجامع . انتهى .

وفي الأرج المسكي : أفاد التقي الفاسي أنه كان إلى جانب زمزم خلوة فيها بركة للماء تملأ من زمزم ويشرب بها من دخل إلى الخلوة وكان لها أي الخلوة باب إلى جهة الصفا ثم سد وجعل في موضع الخلوة بركة مقبوة وفي جدرها الذي يلي الصفا بزابيز يتوضأ الناس منها على أحجار نصبت عند البزابيز وفوق البركة المقبوة خلوة فيها شباك إلى الكعبة المشرفة وشباك إلى جهة الصفا وطابق صغير إلى البركة وكان عمل ذلك على هذه الصفة في سنة سبع وثمانمائة ثم إنه هدم ذلك حتى بلغ الأرض في العشر الأول من ذي الحجة الحرام سنة سبع عشرة وثمانمائة لما قيل إن بعض الجهلة يستنجي هناك وعمر عوض ذلك سبيل السلطان الملك المؤيد أبي النصر شيخ ينتفع الناس بالشرب منها وجاءت عمارته حسنة وفرغ منها في رجب سنة ثمانية عشر وثمانمائة وابتدأ عمله في أثر سفر الحج وفي موضع هذه الخلوة كان يجلس سيدنا عبدا لله بن عباس رضي ا لله عنهما ، على مقتضى ما ذكره الأزرقي والفاكهي قلت : وهذه الخلوة التي أشار إليها السبيل المعروف الآن بسبيل الخاصكية . انتهى .

وفي تاريخ عمارة المسجد الحرام للشيخ باسلامة أمر جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل السعود أن يعمل على حسابه الخاص سبيلان أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي باب قبة زمزم على الجناح الجنوبية ، والثاني بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم بجانب السبيل القديم على نحو السبيلين اللذين سيعملان باسمه الخاص فعمل السبيل الذي بجوار باب قبة زمزم بالحجر الرخام المرمر وجعل له ستة فوهات وعمل السبيل الثاني بجوار حجرة الأغوات

وجعل له ثلاث فوهات وجدد عمارة السبيل القديم وقد كتب على السبيل الأول هذا السبيل أنشأه الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود . وكتب على الثاني أنشأ هذا السبيل الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود وكتب على الذي يليه جدد هذا السبيل الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود وتم إنشاء السبيل الذي يلي حجرة الأغوات سنة ١٣٤٥ ، وتم عمل السبيل الذي يلي باب قبة زمزم سنة ١٣٤٦ . انتهى .

وصف بئر زمزم في عصرنا

أما بئر زمزم في عصرنا الحاضر ، فهو كما يصفها الشيخ حسين باسلامة المكي رحمه الله تعالى ، مؤلف «تاريخ عمارة المسجد الحرام» بصحيفة ١٨١ فقد قال فيها ما نصه :

أما حالة بئر زمزم التي عليها اليوم فهو بئر مدور الفوهة عليه قطعة من الرخام المرمر على قدر سعة فمه ويبلغ ارتفاعها عن بلاط الأرض التي حول البئر من داخل القبة ذراعين ونصف ذراع اليد أو ١٢٠ سنتم تقريباً وأرض بيت زمزم وداخل قبة زمزم مفروش بالرخام الأبيض ويحيط بفم البئر من أعلاه دربزين معمول من الحديد الثخين وفوق الدربزين شبكة من حديد وضعت فوق ذلك الدربزان سنة ١٣٣٢ وكان السبب في وضعها هو أن رجلاً من الأفغان ألقى بنفسه في بئر زمزم فلما أخرج اهتمت الحكومة التركية لذلك الحادث وخشيت من تكراره فارتأت أن تعمل حائلاً يمنع من أراد أن يلقي نفسه في البئر فتقرر عمل الشبكة المذكورة وقاية لذلك ووضعت بسرعة وقد شاهدت ذلك بنفسي .

وأما البناء القائم علي بئر زمزم فهو بناء مربع الشكل من الداخل طول كل ضلع منه أحد عشر ذراعاً بذراع اليد وسطح البئر مغموس بالحجر والنورة وفي الجهة الشرقية باب قبة زمزم وعلى جناح الباب الشمال طاقة عليها شباك ثخين وكان في جدار الطاقة سبيل قديم ثم أبطل عمله وكذلك على جناح الباب الجنوبي طاقة عليها شباك ثخين وكان أيضاً في جدار الطاقة سبيل قديم قد أبطل عمله من الجهة الشمالية ثلاث منافذ عليها ثلاثة شبابيك لكل منفذ شباك ، ومن الجهة الغربية مما يلي الكعبة المعظمة ثلاث منافذ ولكل منفذ شباك ثخين وعلى نحو نصف سطح البئر من الجهة الغربية المقابلة للكعبة المعظمة مظلة قائمة على أربع يتر

بنيت في النصف الأمامي من سطح البئر وعلى أربع أساطين لطاف وضعت اثنان منها على جدار البئر الأمامي مما يلي الكعبة المعظمة واثنان على حد منتصف سطح البئر من الجهة الشرقية ، وأما نصف السطح الشرقي فهو شمس ليس عليه ما يظله وفوق هذه المظلة الأمامية سقف معمول من الخشب القوي وفوق السقف جملون مصفح بألواح من الرصاص على شكل بديع ويحيط بالظلة من جهاتها الثلاث : الشمالي والغربي والجنوبي خمسة شبابيك أحدها من جهة الشمال وثلاثة من الجهة الغربية وواحد من الجهة الجنوبية وذلك معمول من السلك الحديد الدقيق والمظلة مدهونة بصباغ أخضر .

وهذه المظلة خاصة برئيس الموقتين الذي يبلغ المؤذنين الأذان في الأوقات الخمسة وهم على منابر المسجد الحرام السبعة المحاطة به ، وهو أيضاً يبلغ عموم المبلغين في الصلاة الجمعة والعيدين ويبلغ كل إمام يؤم الناس خلف مقام إبراهيم في بعض الصلوات الخمس وهذه العائلة يطلق عليها (آل الريس) ورئيسها الحالي الشيخ عبدالعزيز بن علي ريس .

ومن ضمن بيت زمزم حجرة واقعة في الجهة الجنوبية تابعة لأغوات الحرم يضعون فيها أدوات تنظيف صحن المطاف المدار المرصوف بالحجر الصوان الذي عليه المقامات الثلاثة وكذلك الشموع (الشماعدين) التي توضع كل ليلة على باب الكعبة من الغروب إلى بعد صلاة العشاء ومن الفجر إلى الإسفار وغير ذلك من لوازمهم ويجانب حجرة الأغوات المذكورة باب الدرجة المصعدة إلى المظلة التي يعلو بئر زمزم .

قال : ومما هو جدير بالذكر أنه قد أمر جلالة ملك المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل السعود أن يعمل على حسابه الخاص سبيلان أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي باب قبة زمزم على الجناح الجنوبية ، والثاني بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم بجانب السبيل القديم المعمول في زمن سلاطين آل عثمان وأن تجدد عمارة السبيل القديم على نحو السبيلين اللذين سيعملان باسمه الخاص وقام بهذا العمل الشيخ عبدالله الدهلوي فعمل السبيل الذي بجوار باب قبة زمزم بالحجر الرخام المرمر على شكل بديع الصنع وجعل له ستة فوهات وعمل السبيل الثاني بجوار حجرة الأغوات كذلك بشكل بديع وجعل له ثلاث فوهات وجدد عمارة السبيل القديم وعمله بشكل بديع يماثل

الذي بجواره وقد كتب على السبيل الأول الذي يلي باب زمزم هذا السبيل أنشأه الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود ، وكتب على الذي يلي حجرة الأغوات أنشأ هذا السبيل الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود ، وكتب على الذي يليه جدد هذا السبيل الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود ، وكانت هذه الكتابة بخط عربي بديع بارز قد خطت بعلو كل سبيل من هذه الثلاث وطلي ذلك بالذهب والألوان البديعة وصارت هذه السبل الثلاثة سهلة لمن يريد شرب ماء زمزم من الحجاج والمواطنين والمجاورين آناء الليل وأطراف النهار وقد صرف على إنشائها ما يربو على ثلاثمائة جنيه ذهب وتم إنشاء السبيل الذي يلي حجرة الأغوات سنة ١٣٤٥ وتم عمل السبيل الذي يلي قبة زمزم سنة ١٣٤٦ . انتهى من تاريخ عمارة المسجد الحرام .

نقول : ولقد حصلت بناية جديدة صغيرة أمام باب بئر زمزم وفي جزء من جانبيه، وهي عبارة عن جدران مسقوفة ، فيها فتحات بشبابيك من الحديد ليستظل الشاربون تحتها وموضوع في جانبيها عدة بزابيز « حنفيات » يشرب الناس منها ماء زمزم . قد عمل الدرج الموصل إلى أعلا البئر من الخارج بعد أن كان قبل ذلك في أصل البناء القديم وله باب .

وكانت هذه البناية الجديدة الصغيرة سنة (١٣٧٤) أربع وسبعين وثلاثمائة وألف.

صورة رقم ٦٩ ، المؤلف فوق مظلة بئر زمزم الجديد قبل هدمها في سنة ١٣٨٣هـ

ثم إنه في عام ١٣٨٣هـ . هدموا بناية زمزم لتوسعة المسجد الحرام ، وأزالوا قسم البئر وغطوه حتى يتساوى بأرض المطاف ، ثم فتحوا باباً آخر للبئر من الجهة الشمالية من أسفل الأرض ، وما زال العمل جارياً إلى اليوم .

ما جاء من الأحاديث في زمزم

لقد وردت في ماء زمزم عدة أحاديث ، فرأينا أن ننقلها مما جمعه الحضراوي في كتابه « العقد الثمين في فضائل البلد الأمين » فإنه قال في الفصل السادس ما يأتي :

اعلم أن العلماء رحمهم الله تعالى أجمعوا على أن ماء زمزم أفضل من جميع المياه على الإطلاق إلا الماء الذي نبع من بين أصابعه ﷺ ، كما هو مقرر في أماكنه . فعن أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ أنه ﷺ ما اشتكى جوعاً قط ولا عطشاً ، كان يغدو إذا أصبح ، فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول : أنا شبعان ، رواه القرشي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ماء زمزم لما شرب له ، فإن شربته تستشفي شفاك الله ، وإن شربته مستعيذاً أعاذك الله ، وإن شربته لتقطع ظمأك قطعه ، ذكره القرشي أيضاً ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا شرب زمزم قال : اللهم أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء ، رواه الحاكم في المستدرك وهذا لفظه والدارقطني . قال ابن العربي : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة ، يعني العلم والرزق والشفاء لمن صفت نيته وسلمت طويته ولم يكن به مكذباً ، ولا يشربه مجرباً ، فإن الله مع المتوكلين وهو يفضح المجرمين ، وفي حديث إسلام أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : إنها مباركة ، إنها طعام طعم ، رواه مسلم وأبو داود وزاد : وشفاء سقم . وعن عبدالله ابن المؤمل عن ابن الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « زمزم لما شرب له » أخرجه أحمد وابن ماجة والبيهقي .

- وروي أن عبدالله بن المبارك أتى زمزم فاستسقى منه شربة ثم استقبل الكعبة فقال : اللهم إن أبا الموالي ، حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له وهذا أشربه لعطشي يوم القيامة ثم شرب » ، أخرجه الحافظ شرف الدين الدمياطي وقال : إنه على رسم الصحيح ، وفي مناسك ابن العجمي والبحر العميق للقرشي نقلاً عنه ينبغي لمن أراد شربه للمغفرة أن يقول عند شربه : اللهم إنه بلغني أن رسولك ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له ، اللهم وإني أشربه لتغفر لي اللهم فاغفر لي » . وإن شربه للاستشفاء به من مرض قال : اللهم إني أشربه مستشفياً به ، اللهم فاشفني . وذكر القرشي حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه جاء إلى زمزم فنزعوا له دلوا فشرب ثم مج في الدلو ثم صبوه في زمزم ثم قال : « لولا تغلبوا عليها لنزعت بيدي » رواه الطبراني وغيره .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق » رواه الأزرقي .

وعن رسول الله ﷺ قال: « لا يجتمع ماء زمزم ونار جهنم في جوف عبد أبداً » رواه الشيخ محب الدين الطبري وغيره، ويروى أن مياه الأرض العذبة ترفع قبل يوم القيامة غير زمزم، حكاه القرشي، وفي الصحيح أنه لما قدم أبو ذر ليسلم أقام ثلاثين بين ليلة ويوم وليس له طعام إلا زمزم، فسمن حتى تكسرت عكن بطنه، ولم يجد على بطنه سخفة جوع. وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: أين مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل له: وما شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم. رواه الحسن البصري، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « الحمة من فيح جهنم فأبردوها من ماء زمزم » رواه أحمد وأبو بكر بن أبي شيبة وابن حبان في صحيحه وانفرد به البخاري بإخراجه وقال: فأبردوها بماء أو بماء زمزم.

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: « فُرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغهما في صدري ثم أطبقه ». رواه البخاري، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: « خمس من العبادة: النظر إلى المصحف، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى الوالدين، والنظر في زمزم وهي تحط الخطايا، والنظر إلى وجه العالم » رواه الفاكهي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: خير بئر على وجه الأرض ماء زمزم. أخرجه ابن حبان والطبري بسند رجاله ثقات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يتحف الرجل سقاه من ماء زمزم. رواه الحافظ شرف الدين الدمياطي وقال: إسناد صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تحمل ماء زمزم وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله. رواه الترمذي.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن في زمزم عيناً من الجنة من قبل الركن. رواه القرطبي في التفسير وفي مناسك ابن الحاج.

قال ابن شعبان: العين التي تلي الركن من زمزم من عيون الجنة، وعن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فجاء رجل فقال: من أين جئت؟ قال: من زمزم، قال فشربتَ منها كما ينبغي؟ قال: فكيف؟ قال: إذا شربت منها فاستقبل القبلة واذكر اسم

الله تعالى وتنفس ثلاثاً وتضلع فإذا فرغت فاحمد الله عزوجل فإن رسول الله ﷺ قال : آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من زمزم . رواه ابن ماجة وهذا لفظه والدارقطني والحاكم في المستدرك وقال : إنه صحيح على شرط الشيخين . والتضلع : الإمتلاء حتى تمتد الأضلاع . والمراد من التنفس ثلاثاً : أن يفصل فاه عن الإناء مرات يبتدئ كل مرة ببسم الله ويختم بالحمد لله . هكذا جاء مفسراً في بعض الطرق .

وعن السائب أنه كان يقول : اشربوا من سقاية العباس فإنه من السنة . رواه الطبراني في الكبير وحكاه ابن المنذر في الترغيب .

وعن أبي الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنا نسميها شبّاعة يعني زمزم وكنا نجدها نعم العون على العيال . رواه الطبراني في الكبير وهو موقوف صحيح الإسناد .

ويجوز إخراج مائها وغيره من مياه الحرم ونقله إلى جميع البلدان . لما روي أن النبي ﷺ كتب إلى سهيل بن عمرو يستهديه من ماء زمزم فبعث إليه براويتين . رواه الأزرقي والقرشي وتقدم حديث عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تحمل ماء زمزم وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله . رواه الترمذي ، ويجوز التوضؤ والاغتسال من غير كراهة فيه ويكره الاستنجاء به لأنه يجلب داء البواسير . ومن عجائب ماء زمزم أنه يذكر بعض العامة أن من كان أكولاً يشرب منه ويتضلع وفي نفسه يقول : يا زمزم زمي فإنه يقل أكله ويستريح جسمه ويستفيق في نفسه وهو مجرب . انتهى كل ذلك من العقد الثمين .

صورة رقم ٧٠ ، دوارق زمزم

وبمناسبة الحديث « ماء زمزم لما شرب له » وما ورد عن زمزم أنه طعام طعم وشفاء سقم . أن أحد أطباء الإفرنج ألف كتاباً في عصرنا الحاضر يقول فيه :

إذا اقتصر الإنسان المريض بالروماتزم وغيره على شرب الماء فقط بدون طعام ولا شراب أبداً بحيث لا يدخل في جوفه سوى الماء لمدة عشرين يوماً أو لمدة أربعين يوماً فإنه يشفى بإذن الله تعالى من جميع الأمراض التي يشكو منها ، وبشرط أن يتعاطى المسهل في كل خمسة أيام مرة ، فإذا انتهت المدة المذكورة وأراد أن يأكل فلا بد أن يأكل تدريجياً قليلاً قليلاً جداً في كل مرة ، لأن الصائم على هذه الحالة تكون أمعاؤه شبه ضامرة وضعيفة ، فليقتصر لمدة أيام على السوائل :

كعصير الفواكه والشوربات ، فإذا اشتدت قوة معدته بعد أيام فليأكل ما شاء حسب عادته وذلك بعد اطمئنان على قوة صحته . ولقد أخبرنا من جرب هذا ممن نثق في كلامه أنه صام على هذه الحالة فشفي من أمراض كثيرة بإذن الله تعالى ، والله على كل شيء قدير فإذا كان هذا الاقتصار على الماء العادي فقط ، فالشفاء محقق إن شاء الله تعالى مع الاقتصار على ماء زمزم ، شراب الأبرار ، وهذا الذي ينبع من تحت أرض الكعبة المشرفة فنحن نعتقد اعتقاداً جازماً أن الاقتصار على ماء زمزم فقط مدة أسبوعين أو ثلاثة يشفي من الأمراض والعلل مهما كانت عسيرة ، أي أن المريض يتعاطى ماء زمزم فقط ، بدون أن يخلط معه شيئاً من أنواع الطعام والفواكه لا قليلاً ولا كثيراً حتى أنه لا يتعاطى الخبز أيضاً إذ ربما بعض الأطعمة لا تتفق مع المرض في الحالة كالطبيب الذي يعطي الدواء للمريض ويمنعه من بعض الأطعمة والفواكه . والله تعالى أعلم وهو الشافي بدون دواء إذا شاء وهو اللطيف الخبير .

صورة رقم ٧١، أحد الزمازمة يحمل دورقين مملوئين من ماء زمزم

طعم ماء زمزم

يذكر الناس أن ماء زمزم فيها ملوحة ، ونحن نقول : أن ماء زمزم له طعم خاص غير طعم جميع مياه الدنيا ، لذلك من ألف شربه وعرف طعمه يميزه عن بقية المياه سريعاً ولو مرت عليه أعوام عديدة لم ينقه ، والحقيقة أنه يصعب وصف طعمه ، فلا هو بالمالح الممجوج ولا هو بالمالح الممنوج ، لا يعرفه إلا من ذاق طعمه بنفسه . نعم فيه ملوحة خفيفة لكنها مستملحة مقبولة محببة إلى نفس المؤمن ، وفي هذه الملوحة سر إلهي دقيق . وهو أن هذه الملوحة الخفيفة يعود طعمه للمؤمنين الموقنين حلواً لذيذاً سائغاً شرابه كطعم اللبن الحليب تقريباً ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما عن ماء زمزم : أنه شراب الأبرار .

وقد تكون هذه الملوحة الخفيفة على من كان شاكاً فيه ضعيف الإيمان ماء أجاجاً لا يستسيغ شربه فتعافه نفسه ولا يشربه ، ولذلك قال ﷺ: « آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم » وقال أيضاً : « إن التضلع من ماء زمزم علامة ما بيننا وبين المنافقين » .

ومن اللطائف قول العلامة الشيخ محمد بن علان في ملوحة زمزم :

وزمزم قالوا فيه بعض ملوحة ... ومنه مياه العين أحلى وأملح
فقلت لهم قلبي يراها ملاحة ... فلا برحت تحلو لقلبي وتملح

ومن اللطائف ما رواه الغازي في تاريخه عن ملوحة ماء زمزم فإنه قال : قال العلامة السنجاري رحمه الله تعالى في منائح الكرم -لطيفة- ذكر العلامة الباغوني أنه كتب لوالده يسأله عن تعليل ملوحية زمزم ، فأجابه وذكر ذلك في أبيات ، قال :

سألت أبا العباس والدي الذي ... على فهمه في المشكلات يعول
سؤالاً لطيفاً قد تعسر فهمه ... علي إلى أن خلته لا يؤول
فقلت أطال الله عمرك في الورى ... وأبقاك في عز به الخير موصل
تفكرت يا مولاي في بير زمزم ... بمكة أرض فخرها لا يمثل
وكون ما فيها من الماء مالحاً ... على أنها من سائر الماء أفضل
وقلت له : هل من جواب مبين ... وهل عندكم فيه مقال فينقل
فإني لقلَّ اتبعت فكري له فما ... ظفرت بما فيه يقال وينقل
فإن كان فيه عندكم من لطيفة ... بروحي أفديكم علي تفضلوا
ومنّوا بإبداء الجواب تكرماً ... وفضلاً كما عودتموني عجلوا

* * *

فقال أمد الله في عمره على الـ ... بديهة قولاً للجواهر يخجل
نعم عندنا فيه الجواب وإنه ... لكالسحر أو كالدر أو هو أمثل
جواب غدا مثل النسيم لطافة ... أزال عن الأفهام ما كان يشكل
فلا تعجبوا منه فذلك ظاهر ... كشمس الضحى يبدوا لمن جاء يسأل
فمكة عين الأرض والعين ماؤها ... كما قد علمتم مالحاً ليس يجهل

كيفية شرب النبي ﷺ من ماء زمزم

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد ، قال : أخبرني جدي قال حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبدالرحمن بن الحارث بن عباس عن زيد بن علي

عن أبيه عن عبدا لله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه ، في حديث حدث به عن النبي ﷺ ثم أفاض رسول ا لله ﷺ فدعا بسجل من ماء زمزم فتوضأ به ثم قال : انزعوا عن سقايتكم يا بني عبد المطلب فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم .

حدثني جدي قال : أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال : أخبرني ابن طاوس عن طاوس قال : أمر النبي ﷺ أصحابه أن يفيضوا نهاراً وأفاض في نسائه ليلاً فطاف بالبيت على ناقته ثم جاء زمزم فقال : ناولوني فنول دلواً فشرب منها ثم تمضمض فمج في الدلو ثم أمر بما في الدلو فأفرغ في البير ثم قال : لولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم ، قال ابن جريج : أخبرني من سمع طاوساً يقول : جاء النبي ، ﷺ زمزم فقال : ناولوني فنول دلواً فشرب منها ثم مضمض ثم مج في الدلو ثم أمر بما في الدلو فأفرغ في البير ثم قال نحواً مما قال ابن طاوس في النزع ، ثم مشى إلى السقاية سقاية النبيذ ليشرب فقال العباس : إن هذا قد ساطته الأيدي منذ اليوم وقد أنفل وفي البيت شراب صاف ، فأبى النبي ﷺ أن يشرب إلا منه ، فعاد عباس لذلك القول فأبى النبي ﷺ أن يشرب إلا منه حتى عاد عباس ثلاث مرات فأبى النبي ﷺ أن يشرب إلا منه فسقي منه قال : فكان طاوس يقول : الشرب من النبيذ من تمام الحج ، قال ابن جريج : وأخبرني ابن طاوس عن أبيه أن النبي ﷺ شرب من النبيذ ومن ماء زمزم وقال : لولا أن يكون سنة لنزعت ، قال ابن عباس : ربما فعلت أي ربما نزعت .

حدثنا ابن جريج أيضاً عن عطاء قال : رأيت عقيل بن أبي طالب شيخاً كبيراً يفتل الغرب ، وكانت عليها غروب ودلاء ، فرأيت رجالاً منهم بعد ما معهم مولى ، في الأرض يلقون أرديتهم فينزعون في القمص حتى أن أسافل قمصهم لمبتلة بالماء ، فينزعون قبل الحج وأيام منى وبعده . قال ابن جريج : وأخبرني حسين بن عبدا لله بن عباس عن داود بن علي بن عبدا لله بن عباس ، أن رجلاً نادى ابن عباس والناس حوله فقال : سنة تتبعون بهذا النبيذ أم هو أهون عليكم من العسل واللبن؟ فقال ابن عباس : جاء النبي ﷺ عباساً فقال : اسقونا ، فقال : إن هذا شراب قد مغث ومرث أفلا نسقيك لبناً وعسلاً؟ فقال : اسقونا مما تسقون منه الناس ، قال : فأتى النبي ﷺ ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار بعساس النبيذ ، فلما شرب النبي ﷺ عجل قبل أن يروي فرفع رأسه فقال : أحسنتم هكذا اصنعوا ،

فقال : ابن عباسٍ : فرضاء رسول الله ﷺ بذلك أحب إلينا من أن تسيل شعابنا علينا لبناً وعسلاً ، قال ابن جريج قال عطاء : فلا يخطئني إذا أفضت أن أشرب من ماء زمزم ، قال : وقد كنت فيما مضى أنزع مع الناس الدلو التي أشرب منها اتباع السنة فأما مذ كبرت فلا أنزع ، ينزع لي فأشرب وإن لم يكن لي ظمأ اتباع صنيع محمد ﷺ قال : فأما النبيذ فمرة أشرب منه ومرة لا أشرب منه .

حدثني جدي قال : حدثنا سفيان عن ابن طاوس عن أبيه أن النبي ﷺ أفاض في نسائه ليلاً وطاف على راحلته يستلم الركن بمحجنه ويقبل طرف المحجن ، ثم أتى زمزم فقال : انزعوا فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت ، فقال العباس ، رضي الله عنه : إن يفعل فربما فعلت فداك أبي أمي ، ، ثم أمر بدلو فنزع منها فشرب فمضمض ثم مج في الدلو وأمر به فأهريق في زمزم ثم أتى السقاية فقال : اسقوني من النبيذ ، فقال عباس : يا رسول الله إن هذا شراب قد مغث وثفل وخاضته الأيدي ووقع فيه الذباب وفي البيت شراب أصفى منه ، قال : منه فاسقني، يقول ذلك ثلاث مرات ، وأعاد النبي ﷺ قوله ثلاث مرات كل ذلك يقول : منه فاسقني ، فسقاه منه فشرب ، قال ابن طاوس : فكان أبي يقول : هو في تمام الحج .

حدثني جدي قال : حدثنا ابن عيينة عن عاصم الأحول عن الشعبي عن ابن عباس قال : رأيت النبي ﷺ نزع له دلو من ماء زمزم فشرب قائماً .

حدثني جدي قال حدثنا ابن عيينة عن مسعر بن عبد الجبار بن وائل بن حجر عن أبيه ، أن النبي ﷺ أتي بدلو من ماء زمزم فاستنثر خارجاً من الدلو ومضمض ثم مج فيه ، قال مسعر: مسكاً أو أطيب من المسك .

حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان قال : أخبرني حنظلة بن أبي سفيان الجمحي أنه سمع طاوساً يقول : أتى النبي ﷺ السقاية فقال : اسقوني ، فقال عباس : إنهم قد مرثوه وأفسدوه أفأسقيك؟ فقال رسول الله ﷺ: اسقوني منه فسقوه منه ثم نزعوا له دلواً فغسل فيه وجهه وتمضمض فيه فقال : أعيدوه فيها، ثم قال : إنكم على عمل صالح لولا أن يتخذ سنة لأخذت بالرشاء والدلو .

حدثني جدي عن عبدالمجيد عن عثمان بن الأسود عن مجاهد عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في صفة زمزم ، فأمر بدلو فنزعت له من البير فوضعها على شفة البير ثم وضع يده من تحت عراقي الدلو ثم قال : بسم الله ثم كرع فيها فأطال ثم أطال فرفع رأسه فقال : الحمد لله ، ثم عاد فقال : بسم الله

ثم كرع فيها فأطال وهو دون الأول ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله ثم كرع فيها فقال ، بسم الله فأطال وهو دون الثاني ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله ثم قال ، ﷺ : علامة ما بيننا وبين المنافقين لم يشربوا منها قط حتى يتضلعوا . انتهى كل ذلك من الأزرقي .

ميزة ماء زمزم

أما ميزته فقد ميزه الله تعالى بطعم عجيب لذيذ ، يعرفه من ذاقه ولو نقل من بلد إلى بلد بخلاف المياه الأخرى .

فمن عجيب أمره : أنه ألذ ما يكون وأطعم ما يكون في الفجر وعند نزحه من البئر والشرب من نفس الدلو ، فإنه يكاد يكون طعمه كطعم اللبن الحليب ، وأن طعمه يختلف باختلاف بعض العوامل ، فمثلاً : طعمه من الدلو حال خروجه من البئر غير طعمه من الدوارق والقلل إذا برد فيها ، وطعمه فيها غير طعمه بوضع الثلج فيه ، ومن عجيب أمره : أن الإنسان إذا شرب منه كثيراً حتى تضلع وامتلأ بطنه في الصباح الباكر قبل أن يأكل شيئاً فإنه يلين بطنه كالشربة الخفيفة ، وإذا ملأ بطنه في الصباح من ماء آخر حصل له الضرر ، ومن عجيب أمره أيضاً : أن الصائم بمكة يشتهي ماء زمزم شهوة قوية وتنفذ رائحته في أنفه قبل الإفطار ، وما أحلى الإفطار في رمضان بالمسجد الحرام على التمرة وماء زمزم .

روي عن أبي الطفيل قال : سمعت ابن عباس يقول : كانت تسمى في الجاهلية شباعة -يعني زمزم- ويزعم أنها نعم العون على العيال . ومن ميزة ماء زمزم بقاؤه إلى قيام الساعة . فقد روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن الضحاك بن مزاحم : إن الله تعالى يرفع المياه العذبة قبل يوم القيامة وتغور المياه غير زمزم ، وتلقي الأرض ما في بطنها من ذهب وفضة ويجيء الرجل بالجراب فيه الذهب والفضة فيقول: من يقبل هذا مني؟ فيقول: لو أتيتني به أمس قبلته. انتهى .

الحكايات الواردة عن بعض الناس عن شربهم لماء زمزم

وبمناسبة طعم ماء زمزم ولذته نروي بعض ما جاء من الحكايات :

جاء في العقد الثمين في فضائل البلد الأمين حكى اليافعي عن بعض الصالحين أنه قال : بينما أنا جالس عند الكعبة إذ جاء شيخ قد شال ثوبه على وجهه ودخل إلى زمزم ، فاستقى بركوة كانت معه وشرب ، فأخذت فضلته وشربت ، فإذا هو ماء مخلوط بعسل لم أذق أطيب منه ، قال : فالتفت لأنظره فإذا هو قد ذهب ، قال: ثم عدت من الغد فجلست عند البئر وإذ الشيخ قد أقبل ، وثوبه مسدول على وجهه ، فدخل من باب زمزم ، فاستقى دلواً وشرب . فأخذت فضلته فشربت فإذا لبن ممزوج بسكر لم أذق شيئاً أطيب منه . انتهى .

نقول : إن مثل هذه الحكاية لا تستبعد أن تقع لبعض عباد الله الصالحين ، فإن بعض الأمور الغريبة لا تقع لعامة الناس وإنما تقع للخواص .

ولقد وقع لنا من ماء زمزم أمر عجب ، وذلك أنه كانت إقامتنا بجدة في سنة (١٣٥١) إحدى وخمسين وثلاثمائة وألف ، وفي خامس ذي الحجة من السنة المذكورة خرجنا من جدة مع بعض الرفاق محرمين بالحج ، ولقد كنت أنا مؤلف هذا الكتاب محموماً في الطريق ، فلما وصلنا مكة نزلنا في بيت من البيوت ، فطلبت أن يؤتى لي بماء زمزم في زير صغير ، فأحضروا لي زمزم بعد العشاء فشربت منه وأبقيت الباقي لأشربه في الصباح ، ثم إني قمت قبيل الفجر من النوم ، فشربت من ماء زمزم حتى رويت لكني وجدت حلاوة في طعمها ما لم أجده قط فيها ، ولم يتكرر لي هذا الحال في زمزم إلى اليوم .

والظاهر والله تعالى أعلم أن هذا الحال لا يكون مع كل أحد ، ولا يكون في كل وقت ، بل في وقت دون وقت ، وكل ذلك تبع لتصحيح النية وقوة الإيمان «ولله خرق العوائد» .

ومما يحكى : ما جاء في رسالة «الجوهر المنظم في فضائل ماء زمزم» عن عبدالرحمن بن يعقوب قال : قدم عليه شيخ من هرات يكنى بأبي عبدالله ، وكان شيخ صدق قال : دخلت المسجد الحرام في السحر فجلست إلى زمزم فإذا الشيخ قد دخل من باب زمزم وقد سدل ثوبه على وجهه ، فأتى البئر فنزع بالدلو فشرب فأخذت فضلته فشربتها فإذا سويق لوز لم أذق قط أطيب منه . ثم التفت فإذا الشيخ قد دخل فأتى البئر فنزع بالدلو فشرب فشربت فضلته فإذا ماء مضروب بعسل لم أذق أطيب منه ، فأخذت بلحفته فلففتها على يدي وقلت : يا شيخ بحق

هذه البنية عليك من أنت؟ قال : تكتم عني حتى أموت؟ قلت : نعم ! قال : أنا سفيان بن سعيد الثوري .

وفي الجوهر المنظم أيضاً : ما أخرجه الأزرقي من أن أبا ذر الصحابي رضي الله تعالى عنه قال : لما قدمتُ مكة مكثت أربعة عشر يوماً بلياليها وما لي طعام ولا شراب إلا ماء زمزم حتى تكسرت عكن بطني وما أجد على كبدي سخفة جوع يعني رقة وهزالة وقيل : هي الخفة التي تعتري الإنسان إذا جاع والعكنة الطي الذي في البطن من السمن . انتهى من الجوهر المنظم .

نقول : وقد ورد في العقد الثمين أنا أبا ذر أقام ثلاثين يوماً ، ونص عبارته : وفي الصحيح أنه لما قام أبو ذر ليسلم أقام ثلاثين بين ليلة ويوم وليس له طعام إلا زمزم فسمن حتى تكسرت عكن بطنه و لم يجد على بطنه سخفة جوع . انتهى .

وجاء في تاريخ الغازي : قال الواقدي : وحدثنا عبد الملك بن وهب عن عطاء بن أبي هارون قال : رأيت الرجل من أصحاب الزبير وما يستطيع أن يحمل السلاح كما يريد وما كانوا يستغيثون إلا بزمزم . انتهى . وذلك أن الأسعار غلت بمكة في حصار عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ، وقد تعب من كان معه حتى بلغ بهم من الجوع أنهم لا يقدرون على حمل سلاحهم .

وجاء في صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة في باب فضائل أبي ذر ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : لما سمعت خبر النبي ﷺ أتيت مكة فسألت عن مكانه فمال علي أهل الوادي وكانوا يضربونني حتى خررت مغشياً علي ففررت منهم واختفيت بين أستار الكعبة ، فرأيت في بعض الليالي رسول الله يطوف فحييته تحية الاسلام فقال : « مذ متى كنت هنا » قلت : مذ ثلاثين يوماً ، قال : « فمن كان يطعمك » قلت : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنها مباركة إنها طعام طُعْم يعني زمزم » .

وفي الجوهر المنظم أيضاً : وما أخرج الأزرقي أيضاً عن بعض العُبَّاد من الرعاة أنه كان إذا حصل له ظمأ ، وشرب من ماء زمزم وجد الماء لبناً ، وإذا أراد أن يتوضأ وجده ماء .

وفيه أيضاً وما أخرجه الأزرقي عن بعض الموالي أنه قال : كنت مع أهلي بالبادية فابتعت بمكة ثم أعتقت فمكثت ثلاثة أيام لا أجد شيئاً آكله ، فانطلقت إلى زمزم فبركت على ركبتي مخافة أن أستقي وأنا قائم ، فيرفعني الدلو من الجهد

فجعلت أنزع قليلاً حتى أخرجت الدلو فشربت فإذا أنا بصريف اللبن فقلت : لعليّ ناعس ، فضربت بالماء على وجهي ، وانطلقت وأنا أجد قوة اللبن وشبعه . ومعنى صريف اللبن ساعة يصرف عن الضرع . وأخرجه أيضاً عن عكرمة بن خالد قال : بينما أنا ذات ليلة في جوف الليل عند زمزم جالس إذا بنفر يطوفون عليهم ثياب لم أر بياضها بشيء قط . فلما فرغوا صلوا قريباً مني فالتفت بعضهم فقالوا لأصحابهم : اذهبوا بنا نشرب من شراب الأبرار ، ودخلو زمزم ، فقلت: لو دخلت على القوم فسألتهم ، فدخلت : فإذا ليس فيها من البشر أحد ، نفعنا الله من بركاتهم في الدارين بجاه سيد الكونين .

ومثله ما جاء في تاريخ الغازي ما نصه : وفي تاريخ الأزرقي عن عكرمة بن خالد قال : بينما أنا ليلة في جوف الليل عند زمزم جالس إذ نفر يطوفون ، عليهم ثياب بيض ، لم أر بياضاً أبيض من ثيابهم شيء قط . فلما فرغوا صلوا قريباً مني فالتفت بعضهم فقال لأصحابه : اذهبوا بنا نشرب من شراب الأبرار ، قال : فقاموا فدخلوا زمزم ، فقلت والله لو دخلت على القوم فسألتهم ، فقمت ، فدخلت : فإذا ليس فيها أحد من البشر .

وعن رباح مولى لآل الأخنس أنه قال : أعتقني أهلي فدخلت من البادية إلى مكة ، فأصابني بها جوع شديد حتى كنت أكوم الحصا ثم أضع كبدي عليه ، قال: فقمت ذات ليلة إلى زمزم ، فنزعت ، فشربت لبناً كأنه لبن غنم مستوجمة أنفاساً. انتهى منه .

وفيه أيضاً : ما نقله الفاسي عن الفاكهي : أن رجلاً شرب سويقاً وكان في السويق إبرة فنزلت في حلق الرجل واعترضت وصار لا يقدر يطبق فمه فأتاه آت قال له : اذهب إلى زمزم ، فاشرب من مائها ، واسأل الله الشفاء . فدخل إلى زمزم ، فشرب منها وما ساغه إلا بعد جهد ومشقة من ألم تلك الإبرة ثم خرج وهو على تلك الحالة فانتهى إلى أسطوانة من أساطين المسجد واستند إليها فغلبته عيناه فنام ثم انتبه من نومه و لم يجد من ذلك الألم شيئاً . انتهى من الجوهر المنظم .

إهداء ماء زمزم

لما كان لماء زمزم من الفضل والمنافع ما هو مشهور معروف لدى الناس ، فقد قال ﷺ فيه : « إنه طعام طُعْم » كما في حديث أبي ذر في صحيح مسلم ومن

طريق آخر : « وشفاء سقم » وقال : « ماء زمزم لما شرب له » كما في مستدرك الحاكم . صار الحُجّاج يحملونه من هدايا لأهلهم وأولادهم ولمن يحبونه وليس في هذا بأس بل هو من أفضل الهدايا ، ففي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يتحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم ، وأنه ﷺ بعث إلى سهيل بن عمرو يستهديه من ماء زمزم ، فبعث إليه براويتين وجعل عليهما كُرّاغوطيا (الكُرّ بضم الكاف وتشديد الراء جنس من الثياب الغلاظ منسوبة إلى غوطة دمشق) وأن عائشة رضي الله عنها ، حملت من ماء زمزم في قوارير وقالت : إن رسول الله ﷺ حمله في الأداوي والقرب (أخرجه الترمذي في جامعه ، الأداوي تفتح الألف والواو المقصورة : جمع إداوة بكسر الهمزة وهي المطهرة) .

وروي أن كعب الأحبار حمل من ماء زمزم اثني عشر راوية إلى الشام ، والراوية كما جاء في المصباح : البعير أو البغل أو الحمار الذي يستقى عليه . اهـ .

فعلم مما تقدم أن ما يحمله الحجاج من ماء زمزم إلى بلادهم ويهدونه لأهلهم وأصدقائهم ليس فيه شيء بل هو مطلوب ومرغوب ، لكن نحب أن يحمله الحجاج في أواني لا يتغير فيها ماء زمزم كالزجاج ، أما ما يحملونه منه في نحو علب الصفيح « أي التنك » فإن ذلك يضر بشاربه إذا مكث الماء فيها أياماً حيث يتغير طعمه ولونه من الصدأ الناشئ من الصفيح ، ففي هذه الحالة يحصل منه ضرر لشاربه ، بل إذا تحقق حصول الضرر يحرم شربه ، فليتنبه إخواننا الحجاج إلى هذا الأمر المهم .

أسماء زمزم

ذكر بعضهم لزمزم أكثر من ثلاثين إسماً ، وإطلاق أي اسم عليها يكون بحسب صفتها ونعتها ، كشبّاعة العيال ، وشراب الأبرار ، وحفيرة العباس ، وهذا ناتج عن كثرة حبهم لزمزم . قال الشاعر :

واعلم بأن كثرة الأسامي ... دلالة أن المسمى سام

والمشهور من الأسماء : زمزم ، وهو أول اسم لها فإنها لما انبعثت من تحت قدمي إسماعيل بضربة جبريل ، عليهما السلام ، ورأتها أمه « هاجر » جعلت تحوط عليه وتقول : « زمي زمي » وهذا هو الأصل في تسميتها « بزمزم » .

ومن أسمائها الشهيرة : هزمة جبريل ، لأن جبريل ضرب بجناحه مكان زمزم ، فخرج الماء لإسماعيل وأمه .

ومن أسمائها الشهيرة : شراب الأبرار ، وذلك أن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : صلوا في مصلى الأخيار واشربوا من شراب الأبرار . فقيل : ما مصلى الأخيار ؟ قال : تحت الميزاب ، قيل : وما شراب الأبرار ؟ قال : ماء زمزم .

وقد نظم بعضهم جملة من أسماء زمزم فقال :

لزمزم أسماء أتت وهي برة ... وسيلة بشرى وعصمة فاعلم
ونافعة مضنونة عونة الورى ... ومروية سيا وطيبة فافهم
وهزمة جبريل وهزمته كذا ... مباركة أيضاً شفاء لا سقم
ومؤنسة ميمونة حرمية ... وكافية شباعة بتكرم
ومغذية عدت وصافية غدت ... وسالمة أيضاً طعام لا طعم
شراب لأبرار وعافية بدت ... وطاهرة تكتم فأعظم بزمزم

غور زمزم وقياس ذرعه

قال الإمام الأزرقي : كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعاً ، وفي قعرها ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود ، وعين حذاء أبي قبيس والصفا ، وعين حذاء المروة . ثم كان قد قل ماؤها جداً حتى كانت تجم في سنة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ومائتين ، قال : فضرب فيها تسعة أذرع سحافي الأرض في تقوير جوانبها . ثم جاء الله بالأمطار والسيول في سنة خمس وعشرين ومائتين فكثر ماؤها ، وقد كان سالم بن الجراح قد ضرب فيها في خلافة الرشيد هارون أمير المؤمنين أذرعاً وكان قد ضرب فيها في خلافة المهدي أيضاً .

وكان عمر بن ماهان -وهو على البريد والصوافي- في خلافة الأمين محمد بن الرشيد قد ضرب فيها وكان ماؤها قد قل حتى كان رجل يقال له : محمد بن مشير من أهل الطائف يعمل فيها ، فقال : أنا صليت في قعرها ، فغورها من رأسها إلى الجبل أربعون ذراعاً ، ذلك كله بنيان وما بقي فهو جبل منقور وهو تسعة وعشرون ذراعاً ، وذرع حبك زمزم في السماء ذراعان وشبر ، وذرع تدوير فم

زمزم أحد عشر ذراعاً، وسعة فم زمزم ثلاثة أذرع وثلثا ذراع، وعلى البير ملبن ساج مربع فيه اثنتا عشرة كرة يستقى عليها.

وأول من عمل الرخام على زمزم وعلى الشباك وفرش أرضها بالرخام أبو جعفر أمير المؤمنين في خلافته ثم عملها المهدي في خلافته، ثم غيره عمر بن فرج الرخجي في خلافة أبي إسحاق المعتصم با لله أمير المؤمنين سنة عشرين ومائتين، وكانت مكشوفة قبل ذلك إلا قبة صغيرة على موضع البير وفي ركنها الذي يلي الصفا على يسارك كنيسة على موضع مجلس ابن عباس، رضي ا لله عنه، غيرها عمر بن فرج، فسقّف زمزم كلها بالساج المذهب من دخلها وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء وأشرع لها جناحاً صغيراً كما يدور تربيعها، وجعل في الجناح كما يدور سلاسل فيها قناديل يستصبح فيها في الموسم، وجعل على القبة التي بين زمزم وبين بيت الشراب الفسيفساء، وكانت قبل ذلك تزوق في كل موسم عمل ذلك كله في سنة عشرين ومائتين. انتهى من الأزرقي.

قال القزويني في كتابه: «عجائب المخلوقات» عن بئر زمزم بعد أن ذكر سبب خروجها لأجل إسماعيل، عليه الصلاة والسلام. وقال محمد بن أحمد الهمذاني: كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها أربعين ذراعاً وفي قعرها عيون تجري: عين حذاء الركن الأسود، وعين حذاء أبي قبيس والصفا، وعين حذاء المروة. ثم قل ماؤها في سنة أربع وعشرين ومائتين فحفر فيها محمد بن الضحاك تسعة أذرع فزاد ماؤها ثم جاء ا لله تعالى بالأمطار والسيول في سنة خمس وعشرين ومائتين فزاد ماؤها وذرعها من رأسها إلى الجبل المنقور فيه أحد عشر ذراعاً وسعة فمها ثلاثة أذرع وثلثا ذراع، وعليها ميلان من ساج مربعة فيها اثنا عشرة بكرة يستقى عليها، وأول من عمل عليها الرخام وفرش به أرضها المنصور.
وقال مجاهد: ماء زمزم إن شربت منه تريد شفاء، شفاك ا لله تعالى، وإن شربته لظمأ، أرواك ا لله، وإن شربته لجوع، أشبعك ا لله. وقال المسعودي: وإن ملوك الفرس يزعمون أنهم من أولاد الخليل من سبي بني إسرائيل وكانوا يحجون البيت ويطوفون تعظيماً لجدهم، وكان آخر من حج منهم أردشير بن بابك، طاف بالبيت وزمزم على البئر، وزمزمة المجوس قراءتهم عند صلواتهم وطعامهم. انتهى من الكتاب المذكور.

ذرع بئر زمزم

قال الغازي في تاريخه : وفي تحصيل المرام قال الأزرقي : كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعاً وفي قعرها ثلاث عيون ، عين حذاء الركن الأسود ، وعين حذاء أبي قبيس والصفا ، وعين حذاء المروة ، ثم كان قد قل ماؤها جداً حتى كادت تجم فضرب فيها تسعة أذرع سحافي الأرض في تقوير جوانبها ، قال : فغورها من رأسها إلى الجبل أربعون ذراعاً كل ذلك بنيان وما بقي فهو جبل منقور وهو تسعة وعشرون ذراعاً ، قال : وذرع حنك زمزم في السماء ذراعان وشبر ، وذرع تدوير فم البير أحد عشر ذراعاً وسعة فم زمزم ثلاثة أذرع وثلثا ذراع .

وقال المرحوم إبراهيم رفعت باشا في كتابه مرآة الحرمين ما نصه : بئر زمزم تقع جنوبي مقام إبراهيم بحيث إن الزاوية الشمالية الغربية من البناء القائم عليها محاذية للحجر الأسود على بعد (١٨) متراً منه ، وماؤها طعمة قيسوني والبناء القائم عليها مربع من الداخل طول ضلعه (٥،٢٥) أمتار وهو مفروش بالرخام ، وهذا البناء طبقتان: في الأولى منها خدمة البئر ، وفي الثانية خدمة من الخصيان (الأغوات) ويصعد إليه من يريد الاستحمام على سلم من الخشب .

وهي بئر قديمة العهد ترجع إلى زمن إسماعيل عليه السلام ، فإن أمه هاجر لما نزلت به في مكان البيت وظمئ ولدها إسماعيل طلبت الماء فلم تجده ، فجاء جبريل عليه السلام ، وبحث الأرض بعقبه – وفي رواية غمزها بعقبه وكلتاهما في صحيح البخاري – فنبع الماء على وجه الأرض ، فكان ذلك نشأة زمزم ، وأدارت هاجر عليه حوضاً خيفة أن يفوتها الماء قبل أن تملأ قربتها ، قالوا : ولو تركت لكانت زمزم عيناً تجري على وجه الأرض ، على ما ورد في الصحيح . وذكر الفاكهي ما يدل على أن إبراهيم عليه السلام ، حفر بئر زمزم بعد أن نبعت العين . وإذ ذاك بدأت عمارة مكة ولم يكن لأحد فيها قبل ذلك قرار فسكنتها قبيلة جرهم رغبة في مائها ، وقد غلب ذو القرنين إبراهيم على زمزم ردحاً من الزمن وما زال ماؤها ينتفع به سكان مكة حتى استخفت جرهم بحرمة الكعبة وحرمها فدرس موضعه حتى صار لا يعرف ، وقيل إن جرهماً طمست البئر حين نفيت من مكة ، ولما كان زمن عبدالمطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ ، أري في المنام مكان زمزم فاستبانها

وحفرها قبل مولد النبي ﷺ وبعد مدة طويلة أخذ ماؤها يقل حتى كان ينقطع في سنة ٢٢٣هـ . لأن البئر أهملت وهدم كثير من جوانبها ، فأخذ رجل من أهل الطائف يقال له محمد بن مشير يعمل فيها .

قال الأزرقي : وقد صليت في قعرها : وفيه ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود، وعين حذاء أبي قبيس والصفا ، وعين حذاء المروة ، قال : وكان ذرع غورها من أعلاها إلى أسفلها ٦٩ ذراعاً ، منها ٤٠ مبنية و٢٩ نقرٌ في الجبل من أسفلها ، قال التقي الفاسي : وقد قيس بحضوري ارتفاع فم البئر عن سطح الأرض وقطره ومحيطه فكان الارتفاع ذراعين إلا ربعاً والقطر أربعة ونصفاً والمحيط خمسة عشر ذراعاً إلا قيراطين وذلك بذراع الحديد ١/٧ ,٥٦ سنتيماً . قال التقي الفاسي -أوائل القرن التاسع- : وزمزم الآن داخل بيت مربع في جدرانه تسعة أحواض للماء تملأ من بئر زمزم ليتوضأ الناس منها ، وفي الحائط المقابل للكعبة شبابيك ، وفوق هذا البيت ظلة للمؤذنين و لم أدر من أقام ذلك على هذه الصفة . ثم ذكر أنه في سنة (٨٢٢)هـ أجري إصلاح كبير بل عمارة جديدة في هذا البيت وأحواضه والظلة التي فوقه للمؤذنين وأن ذلك كان على نفقة الجناب العالي الكبير الشيخ علي بن محمد بن عبد الكريم الجيلاني نزيل مكة .

وفي سنة ٩٣٣هـ عُمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب وكتب فيه اسم مولانا السلطان الملك المظفر سليمان نخبة آل عثمان .

وفي سنة ٩٤٨هـ جدد بيت زمزم على يد الأمير خشقلدي فرخمت أرضه وجعل عليه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جملي (جملون) وفي وسطه قبة مصفحة بالرصاص .

وفي سنة ١٠٢٠هـ وضع بأمر السلطان أحمد خان شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح الماء بمتر ، لأن بعضاً من المجاذيب كانوا يلقون أنفسهم فيها ليموتوا فداء حسب تصورهم وتجد الآن -١٣١٨- مكتوباً على الشباك الشمالي من جهة الباب : « ماء زمزم شفاء من كل داء » ، « آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم » السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١هـ . وتجد مكتوباً على بابها ما يأتي :

سرور لسلطان البسيطة والورا ... عبد الحميد البر بحر المكارم
ونصر له أيضاً وفتح ورفعة ... بتعمير هذا المأثر المتقادم

حفيرة إبراهيم يوم ابن هاجر ... وركضة جبريل على عهد آدم

وعلى الشباك القبلي « ماء زمزم لما شرب له . لا يجمع ماء زمزم ونار جهنم في جوف عبد » (السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١هـ) . انتهى من مرآة الحرمين .

الحفر في قعر زمزم إذا قل ماؤها

مما يستحسن تعهد قعر بئر زمزم بالتنظيف وإخراج الأتربة منها إذا قل ماؤها بين آونة وأخرى خصوصاً إذا مرت سنوات عديدة عليها ، ففي ذلك فائدتان : تنظيف محلها وجوانبها ، وتصفية مائها وغزارتها ، فبئر زمزم شأنها شأن الآبار الأخرى فيما يحدث لها وإن كانت تفضلها جميعاً .

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : ثم كان قد قل ماؤها جداً حتى كادت أن تجم في سنة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ومائتين ، فضرب في جنبها تسعة أذرع سحافي الأرض في تقوير جوانبها ثم جاء الله بالأمطار والسيول في سنة خمسة وعشرين ومائتين فكثر ماؤها ، وقد كان سالم بن الجراح قد ضرب فيها في خلافة هارون الرشيد أذرعاً ، وضرب فيها في خلافة المهدي ، وكان عمر بن ماهان قد ضرب فيها وكان ماؤها قد قل حتى كان رجل يقال له محمد بن مشير من أهل الطائف يعمل فيها ، فقال : أنا صليت في قعرها .

وقال الغازي في تاريخه : وقال العلامة الحضراوي رحمه الله تعالى في تاج تورايخ البشر : وفي شهر رمضان سنة (١٠٢٨) ثمان وعشرين بعد الألف وقع في بئر زمزم أحجار كثيرة من الجهة الشامية والغربية مما فوق الماء وتحته وتغير طعم زمزم التغير الكثير وزادت ملوحته الزيادة الكثيرة الشديدة مع رزنه وقلة القدرة على إساغته فتصدى لإصلاح هذا الأمر والقيام به شيخ الحرم المكي وهو الآغا حسين الحبشي ، رحمه الله تعالى بعد أن عرض هذا الأمر على مولانا السيد الشريف إدريس بن الحسن ، فحضر شيخ الحرم المذكور يوم الاثنين رابع شهر شوال و حاكم البلد والمهندسين ونزل المعلم وابتدأ في عمارتها بعد ضحوة نهار يوم الاثنين المذكور وتم البناء يوم سادس عشر شوال فما باشر الماء جعل رضماً من غير جبس ولا نورة وما لم يباشر الماء جعل بالنورة والجبس .

وقال الغازي في تاريخه : وفي سنة ثمان وستين بعد الألف قلّ ماء زمزم في شهر القعدة الحرام ثم في شهر ذي الحجة إقلالاً زائداً و لم يكن يطلع سوى الطين في الدلو ثم نزلوها وحفروا فيها المرة بعد المرة وتكرر ذلك المرات الكثيرة وصارت في الموسم تغلق ليلاً لأجل أن تجم شيء من النهار لأجل الحجاج ويكاد يقل في النهار ثم ينزلونها ويزيلوا ما فيها من الطين وغيره وتغلق من الصبح إلى الظهر ومن العصر إلى العشاء ومنه إلى شروق الشمس ومع هذه فلا تجم إلا بالقليل وما رجعت بعادتها الأولى إلا بعد مضي المحرم و لم يعهد و لم يعرف وقوع هذا الحال قط فيها بل كان يكثر الماء فيها خصوصاً في زمن الموسم ويفيض جداً مع كثرة الجبد عليها والنزح منها و لم يكن بها إقلالاً أبداً إلا في هذه السنة ، ذكره الفاضل العلامة خليفة بن أبي الفوز بن محمد الزمزمي الشافعي البيضاوي في كتابه نشر الآس في فضائ زمزم وسقاية العباس كذا في نزهة الفكر . انتهى من الغازي . ومعنى قوله: أن تجم أي: تجتمع .

حوض زمزم في عهد ابن عباس

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال: قال لي عطاء : وإنما كانت سقايتهم التي يسقون بها ، قال : كان لزمزم حوضان في الزمان الأول ، فحوض بينها وبين الركن يشرب منه الماء ، وحوض من ورائها للوضوء ، له سرب يذهب فيه الماء من باب وضوئهم من البير قال الخزاعي : وفي ذلك يقول الشاعر :

كأني لم أقطن بمكة ساعة ... ولم يلهني فيها ربيب منعم

ولم أجلس الحوضين شرقي زمزم ... وهيهات أني منك لا أين زمزم

قال : و لم يكن عليها شباك حينئذ قال : وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يسقي في دار الندوة ، فأرسل إليه ابن عباس ، رضي الله عنه ، أن ليس ذلك لك فقال : صدق . فسقي حينئذ بالمحصب ثم رجع فسقي عني ، قال مسلم بن خالد : كان موضع السقاية التي للنبيذ بين الركن وزمزم مما يلي ناحية الصفا فنحاها ابن الزبير إلى موضعها الذي هي فيه اليوم . وقال غير واحد من أهل العلم من أهل مكة : كان موضع مجلس ابن عباس في زاوية زمزم التي تلي الصفا والوادي وهو على يسار من دخل زمزم ، وكان أول من عمل على مجلسه القبة سليمان بن علي بن

عبدالله بن عباس ، وعلى مكة يومئذ خالد بن عبدالله القسري عاملاً لسليمان بن عبد الملك ثم عملها أمير المؤمنين أبو جعفر في خلافته ، وعمل على زمزم شباكاً ثم عمله المهدي وعمل شباكي زمزم أيضاً، فعمل في مجلس ابن عباس كنيسة ساج على رف في الركن على يسارك . أخبرني جدي قال : أول من عمل القبة ، التي على الصحفة التي بين زمزم وبين بيت الشراب ، المهدي في خلافته عملها لهم أبو بحر المجوسي النجار كان جاء به عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس إلى مكة من العراق ، فعمل له سقوفاً في داره التي عند المروة وباب داره ، سنة إحدى وستين ومائة ، قال أبو محمد الخزاعي : سمعت شيخاً قديماً من أهل مكة يذكر أن المهدي ومن كان أشار عليه بعملها إنما تحروا بها موضع اللوحة التي أنزل إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر تحتها فبنيت هذه القبة في موضع اللوحة والله عز وجل أعلم . انتهى من الأزرقي .

حلاوة زمزم

كان ماء زمزم إلى سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة فيها نوع من الملوحية وشيء من الثقل ما كنا نعلم سببه ، فلما قررت الحكومة العربية السعودية توسعة المسجد الحرام ، وابتدؤا في هدم المنازل المحيطة به من جهة المسعى في سنة (١٣٧٥) هـ ، ثم بدؤا في السنة التي بعدها أي سنة (١٣٧٦) هـ في وضع أساسات البنيان من المروة إلى الصفا ، بل إلى ما فوق الصفا إلى باب الوداع ، انقطعت الصلة تماماً بحفر الأساسات إلى عمق كثير ، بين المنازل القديمة وآثارها وبين المسجد الحرام ، فعندئذ بدأ ماء زمزم في الحلاوة والصفاء ، حلاوة محسوسة ملموسة ظاهرة كالشمس .

وذلك لأن البيوت والمنازل القديمة المحيطة بالمسجد الحرام ، كان فيها بيوت الخلاء والمطاهر ، وهذه ليست لها مجاري لتصريف القاذورات إلى خارج مكة ، وإنما العادة عندنا في مكة أن تحفر في أرض كل بيت حفرة تتجمع الفضلات فيها ، ثم في كل عام أو عامين يأتون بعمال ينزحون هذه الفضلات فيخرجونها إلى مكان آخر ، في حفرة يحفرونها أمام المنازل والبيوت ثم يطمرونها بالتراب .

فبيوت الخلاء في المنازل القديمة التي كانت محيطة بالمسجد الحرام من الجهة الشرقية ، والميضأة التي كانت بقرب المسجد الحرام في أول أجياد ، والميضأة التي

كانت بقرب باب علي من أبواب المسجد، والميضأة التي كانت في باب السلام من أبواب المسجد أيضاً، ووجود الفرع الثاني من بير ياخور التي تتجمع فيها فضلات بعض البيوت فتجري من شارع المسعى بجوار المسجد الحرام إلى أن تخرج من آخر المسفلة، كل هذه الميضآت وبيوت الخلاء وبير ياخور كانت مياهها تتسرب من جوف الأرض وتختلط طبعاً بماء زمزم، فكان ذلك سبباً قوياً في تغير طعم ماء زمزم.

فلما هدمت هذه المنازل والبيوت والميضآت وبير ياخور التي كانت تجري تحت الأرض بعمق عشرة أمتار ورفعت أنقاض هذه المحلات ونظفت وحفرت أراضيها إلى عمق كثير ودكت دكاً جيداً لبناء أساسات توسعة المسجد الحرام، انقطعت صلة بئر زمزم بهذه المحلات بتاتاً، وانعدمت المياه التي كانت تتسرب إليها من هذه الجهة انعداماً كلياً. كل ذلك كان في سنة (١٣٧٦) ست وسبعون وثلاثمائة وألف هـ. فصارت ماء زمزم حلوة نظيفة وصارت هذه الحلاوة فيها ملموسة لكل الناس، حتى صار بعضهم يظن إذا شرب ماء زمزم أنها خلطت بالماء العادي وليس كذلك، فالحمد لله رب العالمين على هذه النعمة الكبرى.

ويمكن لنا أن نستنتج من هذا الأمر: أن ماء زمزم في بدء أمرها حينما أخرجها جبريل عليه السلام لإسماعيل وأمه هاجر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، لا يبعد أن تكون أعذب وأصفى ماء في الدنيا على الإطلاق لتقوم لهما مقام الطعام والشراب حيث لم يبق لديهما ماء ولا طعام، ثم طرأ فيما بعد على هذه البئر المباركة ما يطرأ على مثلها، فتغير طعمها عما كانت عليه في بدء أمرها، فإن جرهماً لما استخفت بحرمة البيت انقطع ماء زمزم ثم طمرت ودرس موضعه، ثم إن عمرو بن مضاض الجرهمي بعد أن لم يستمع قومه لكلامه ووعْظه عمد إلى الغزالين من الذهب والأسياف التي كانت في الكعبة فوضعها في بئر زمزم بعد أن حفرها ثم طمرها وردمها، ثم إن عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله ﷺ اهتدى إلى مكان بئر زمزم فحفرها وأخرج الغزالين والأسياف والدروع وحفر حتى وصل إلى قرارها، فخرج الماء، فبنى عندها حوضاً كان هو وابنه يملآنه فيشرب منه الحاج كما تقدم بيان ذلك، ثم جاءت القرامطة بعد الإسلام إلى مكة فقتلوا الناس وملأوا بئر زمزم بجثث القتلى ثم أخرجت هذه الجثث، ونظفت، ثم طرأ عليها تسرب مياه المنازل المحيطة بالمسجد الحرام — حتى رفعت البيوت

وهدمت المنازل في زماننا هذا لتوسعة المسجد الحرام، فحليت زمزم وصارت سائغاً للشاربين كالماء العذب الصافي، ولولا أن الله تعالى خصها بنوع من الطعم لما ميز الشارب بينها وبين الماء العادي . فالحمد لله رب العالمين .

عدم فيض زمزم ليلة نصف شعبان

كثير من الناس يعتقدون أن ماء زمزم يفيض ويزيد ليلة النصف من شهر شعبان، ويزيد في كل ليلة جمعة ، فهذا زعم باطل ووهم وخيال لا صحة له بتاتاً مطلقاً . نعم إن ماء زمزم قد تزيد في بعض السنين وذلك بسبب كثرة نزول الأمطار ودخول السيول إلى نفس المسجد الحرام وارتفاعها إلى أن تصل إلى باب الكعبة وأكثر ، فبطبيعة الحال تدخل مياه الأمطار والسيول إلى جوف زمزم من فمها وبذلك تفيض إفاضة زائدة كما هو الشأن في الآبار من هذا السبب .

ولقد حقق ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى هذه المسألة بنفسه حينما وصل إلى مكة وكتب عنها في رحلته «رحلة ابن جبير» التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هـ . فأحببنا نقل كتابته زيادة في البحث والتدقيق . فإنه قال ما يأتي :

وفي يوم الجمعة أصبح بالحرم – أي بالمسجد الحرام – أمر عجيب وذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا وصبحه ، واجتمعوا كلهم في قبة زمزم وينادون بلسان واحد هللوا وكبروا يا عباد الله فيكبرون ، وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادي معهم بندائهم والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً بأن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان وكانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل إنه رؤي ليلة الجمعة في جهة اليمن ، فبكر الناس إلى القبة ، وكان فيها من الازدحام ما لم يعهد مثله ومقصد الناس في ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذي قد ظهر فيضه والسقاء فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤوس الناس الماء بالدلاء قذفاً ، فمنهم من يصيبه في وجهه ومنهم من يصيبه في رأسه إلى غير ذلك ، وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون ، والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء ، والصبيان يفلجون بالتهليل والتكبير ، فكان مرأى هائلاً ومسموعاً رائعاً

لا يتخلص للطائفين بسببه طواف ولا للمصلين صلاة لعلو تلك الأصوات وإشغال الأسماع والأذهان بها .

ودخل إلى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم فكابد من هذا الزحام عنتاً ومشقة ، فسمع الناس يقولون : زاد الماء سبعة أذرع ، فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من ذوي السبال البيض ، فيسأله عن ذلك فيقول وأدمعه تسيل ، نعم زاد الماء سبعة أذرع لا شك في ذلك ، فيقول : أعن خبرة وحقيقة؟ فيقول نعم ، ومن العجيب أن كان منهم من قال أنه بكر سحر يوم الجمعة المذكور فألفى الماء قد قارب التنور بنحو القامة ، فيا عجباً لهذا الاختراع الكاذب ، نعوذ با لله من الفتنة.

وكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها في ذلك واستمرارها مع سوالف الأزمة عند عوام أهل مكة ، فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة إلى أن ضرب في صفح الماء، وانتهى الحبل إلى حافة التنور ، وعقد فيه عقداً يصح عندنا القياس به في ذلك ، فلما كان في صبيحتها وتنادى الناس بالزيادة الظاهرة ، خلص أحدنا في ذلك الزحام على صعوبته ومعه من استصحب الدلو وأدلاه ، فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت ، فألفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما أمتاح الناس منه ذلك اليوم فلو امتيح من البحر ، لظهر النقص فيه ، فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من بركة ووضع فيه المنفعة .

وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه ، تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال فوجدناه على ما كان عليه ولو أن لافظاً يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد ، لصب في البئر صباً أو لداسته الأقدام حتى تذيبه ، نعوذ با لله من غلبات العوام واعتدائها وركوبها جوامح أهوائها . وهذه الليلة المباركة ، أعني ليلة النصف من شعبان ، عند أهل مكة المعظمة للأثر الكريم الوارد فيها يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة ، أفراداً وجماعة ينقسمون في ذلك أقساماً مباركة . انتهى من رحلة ابن جبير.

نعلم مما تقدم أن زيادة ماء زمزم في ليلة النصف من شعبان لا صحة لها مطلقاً ، وإنما هو من معتقدات العوام التي لا أصل لها ، وما يعتري بقية الآبار من زيادة أو نقص بسبب إحدى العوامل الطبيعية ، يعتري بئر زمزم كذلك .

حكم بئر زمزم وحريمها هل هي من المسجد الحرام أم لا

قال الغازي في تاريخه ما نصه : (الفائدة الثالثة) : ذكر الشيخ خليفة بن فرج بن محمد الزمزمي في كتابه «نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس» : اعلم أني رفعت سؤالاً إلى علماء وقتنا أدام الله بقائهم للإسلام ، هذه صورته:

الحمد لله ما قولكم ، رضي الله عنكم ، ونفع المسلمين بعلومكم ، هل بئر زمزم وكذا حريمها وهو البناء الدائر على فم البئر ليست من المسجد فلا يحرم على الجنب المكث فيه ولا البصاق ولا الغسل ولا غير ذلك مما يحرم فعله في المساجد ، أم من المسجد فله حكم المسجد من أنه يجوز فيه الاعتكاف ويحرم دخوله جنباً والمكث فيه واستحباب تقديم اليمنى للدخول وركعتي التحية إن أمكن فعلها فيه؟ أفتونا مأجورين .

جواب الشيخ محمد بن عبد الله الطبري الشافعي

أجاب شيخنا الشيخ الإمام أبو عبدا لله محمد بن عبدا لله الطبري الشافعي ، رحمه الله تعالى بقوله : الحمد لله رب العالمين لم أر لأحد في ذلك نقلاً إلا ما ذكره جدي شيخ الإسلام ابن حجر في التحفة بعد قول السبكي ، إذا رأينا مسجداً أو صورة مسجد يصلى فيه من غير منازع ولا علمنا له واقفاً ، فليس لأحد أن يمنع منه لأن استمراره على حكم المساجد دليل على وقفه كدلالة اليد على الملك ، فدلالة يد المسلمين على هذا للصلاة فيه ، دليل على ثبوت كونه مسجداً . انتهى كلام السبكي . قال : وقد يؤخذ منه أن حريم زمزم تجري عليه أحكام المسجد ، قلت : ويؤيد ذلك ما ذكر المحب الطبري في القرى عن ابن عباس ، أنه بلغه أن رجلاً من بني مخزوم اغتسل في زمزم ، فوجد من ذلك العباس وجداً شديداً ، فقال : ما أُحلّها لمغتسل ، قال: يعني في المسجد وهي لشارب ومتوضئ ، يعني حلا وبلا ، قال سفيان : يقول : حل محلل والظاهر أنه يريد الغسل من الجنابة لمكان تحريم اللبث في المسجد على الجنب ، وفي قوله في المسجد تنبيه عليه . انتهى .

فأفهم مما ذكر أنها ليس لها حريم وأن ما حولها له حكم المسجد وا لله سبحانه وتعالى أعلم . وكتبه الفقير إلى الله تعالى محمد بن عبدا لله الطبري الإمام

الحسيني الشافعي عفى الله عنهما والمسلمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

جواب الشيخ عبد العزيز الزمزمي الشافعي

الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، صريح كلام جدي خاتم المحققين الشهاب ابن حجر رحمه الله في التحفة، أن حريم بئر زمزم من المسجد وقضية عبارتها أن البئر كذلك، إذ القول بعدم مسجديتها مع القول بمسجدية ما أحاط بها، ربما تستحيله العادة وإن جاز عقلاً فيجري عليهما أحكام المساجد من صحة الاعتكاف، وصلاة التحية، وحرمة البصاق، وجلوس الجنب في شيء منها أو من هوائهما. وتقديم اليمنى عند الدخول لمحل البئر فلا يسن إذ هو جزء من المسجد ولا تفاوت بين أجزائه وإنما يراعى ذلك في غيرها معها والله سبحانه وتعالى أعلم، وكتبه الفقير إلى الله تعالى عبد العزيز بن محمد الزمزمي الشافعي، عفى الله عنهما والمسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

جواب الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفي

وأجاب الحنفي: الحمد لله سبحانك، لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، لم نر من تعرض لذلك من علماء مذهبنا بنفي ولا إثبات لا في كتب المناسك ولا غيرها، والعلم أمانة والله سبحانه وتعالى أعلم. وكتبه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفي، لطف الله بهم والمسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

جواب الشيخ أبي السعود بن علي الزمزمي المالكي

وأجاب شيخنا المالكي بقوله: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، نعم! بئر زمزم مع حريمها ليست من المسجد وعللوه بأن تحبيسها سابق عن تحبيس المسجد، فيباح للجنب المكث والغسل، ولا تصح الجمعة ولا الاعتكاف لكون المسجد شرطاً فيهما ولا في علوها، ويقدم الداخل يسراه ويمناه خروجاً ولا تحية. وأما البصاق فجائز إلا إن كان يؤدي إلى تأذي الناس وتعلقه

بثيابهم وأرجلهم وتنكف أنفسهم عند الشرب فيجتنب ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وكتبه الفقير إلى الله تعالى أبو السعود بن علي الزمزمي المالكي ، لطف الله بهما والمسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

أقول : «أي يقول الغازي المتوفى سنة ١٣٦٥» : وكذلك رفع هذا السؤال بعينه في وقتنا هذا بعض الفضلاء من بيت الريس إلى المفاتي الثلاثة : الحنفي والشافعي والمالكي بمكة شرفها الله تعالى فكتبوا عليه جواباً وهذا نص جوابهم :

جواب مفتي الأحناف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن سراج

(المتوفى سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف)

الحمد لله من ممد الكون أستمد التوفيق والعون قال العلامة ابن عابدين في حاشية رد المحتار على الدر المختار ما لفظه : وفي حاشية المدني عن الفتاوي العفيفة : ولا يظن أن ما حول بئر زمزم يجوز الوضوء أو الغسل من الجنابة فيه ، لأن حريم زمزم يجري عليه حكم المساجد ، فيعامل بمعاملتها من تحريم البصاق والمكث مع الجنابة فيه ومن حصول الاعتكاف فيه واستحباب تقديم اليمنى ، بناء على أن الداخل من مسجد ليس له ذلك . انتهى .

قال العلامة الشيخ محمد بن علي ابن علان الصديقي الشافعي في كتابه الدر المنظم في فضائل ماء زمزم ما نصه : وفي فروع العلامة محمد بن أبي بكر الأشخر اليمني قال ابن حجر بعد كلام ذكره : ويؤخذ من هذا أن حريم زمزم يجري عليه أحكام المسجد ، وكون حريم البئر لا يصح وقفه مسجلاً أنى ينظر فيه إن علم أنها خارجة عن المسجد القديم ولم يعلم ذلك بل يحتمل أنها محفورة فيه وعضده إجماعهم على صحة وقف ما أحاط بها وإلا فوقف الممر للبئر كوقف حريمها إذ الحق فيه للمسلمين . انتهى كلامه .

قلت : ويؤيده ما تقدم من حديث الزهري من قول قريش لعبد المطلب لما شرع في حفر بئر زمزم ما هذا الصنع إنا لم نكن نربك أي نتهمك بالجهل لم تحفر في مسجدنا انتهى . وحيث علم مسجدية ما ذكر فليعامل معاملة المساجد من تحريم البزاق والمكث مع الجنابة فيه ومن حصول الاعتكاف فيه وفي استحباب تقديم اليمنى لدخوله ، بناء على أن الداخل من مسجد لمسجد يسن له ذلك وغيره من أحكام المسجد فافهم . انتهى كلام الصديق كذا نقله عنه العلامة الشيخ

عبدا لله العفيف الكازروني المكي وأقره ويؤيده ما في البحر العميق عن أبـي هريـرة أنه قال : إنا لنجد في كتاب ا لله أن حـد المسـجد الحرام مـن الحَزْورة إلى المسـعى وعن عمرو بن العاص أساس المسـجد الـذي وضعـه إبراهيـم ، عليـه السـلام ، مـن الحزورة إلى المسعى انتهى . وما نقل من فتوى الشيخ أبـي السـعود بـن علـي الزيـن المالكي بأن بئر زمزم مع حريمها ليست من المسـجد فبعيـد عـن الصـواب لمـا ذكـر الحطاب المالكي في شرحه على مختصر العلامة خليل عند قوله : وجاز أي الطـواف بسقائف لزحمة وإلا أعاد ولم يرجع له ولآدم قولين مشـهورين أحدهمـا كـون بـئر زمزم من المسجد الأصلي كالمقام وهو ما يسند في الطراز وثانيهما كونه ليـس مـن المسجد الأصلي كالسقائف وهما للخمى وغيره . انتهى . ومـا ذكـره مـن التعليـل بأن تحبيسها سابق على تحبيس المسجد فهو إن صح لا يوصـل إلى مطلوبـه لجـواز أخذ الملك والوقف بقيمتها لجهة المسجد لتوسعته كما هو منصوص عليه في غير ما كتاب وا لله أعلم . أمر برقمه خادم الشريعة والمنهاج عبدا لله بن عبدالرحمن سـراج الحنفي قاضي القضاة ومفتي الأقطار العربية بمكة المحمية كان ا لله لهما حامداً مصلياً مسلماً .

جواب مفتي الشافعية السيد عبد الله بن السيد محمد صالح الزواوي

(المتوفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف)

بسم ا لله سبحانه وتعالى أبتدئ الجـواب وأستمد منـه الهدايـة للصـواب . بـئر زمزم هو قطعاً ليس من المسجد بل كان متصلاً به ورحبة البئر تتبعه في الحكـم ولا يصح وقفها مسجداً لأنها لا تملك لأحد بل هي تابعـة للبـئر وكـل مـا لا يملـك لا يوقـف . وقـد نـص فقهاؤنـا علـى أن حـرم المعمـور لا يملـك والبـئر متـى عمـرت وصارت وقفاً فحريمها يتبعها ولا يجوز لأحد التعرض له بوقفه مسجداً أو غيره بـل يبقى تبع البئر إن كانت وقفاً فوقف وإن كانت مملوكة فهـو كذلـك ، وبـئر زمـزم وقف بالاتفاق فحريمها يتبعها في الحكم ولا يصح إدخاله في المسجد ولا في حكمه وللبئر ورحبته حرمة عظيمة لقربه مـن بيـت ا لله الحـرام وجـواره للمسـجد المعظـم وقربه من بابه المشهور بباب السلام المعروف بباب بـني شـيبة وأحكـام المسـجد لا تثبت للأرض القريبة منها أو المتصلة بها بل لا يثبت حكم المسجدية إلا بنية الوقـف عند تحديدها وبنائها مسجداً كما صرح الفقهاء بذلك ، وما نقـل العلامـة الطـبري

من أن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: رأيت عباس بن عبدالمطلب في المسجد الحرام وهو يطوف حول زمزم ويقول: لا أحلها لمغتسل وهي للمتوضئ والشارب حل. قال سفيان يعني لمغتسل فيها لأنه وجد رجلاً من بني مخزوم وقد نزع ثيابه وقام يغتسل من حوضها عرياناً فذلك لا لكون البئر مسجداً بل لكونه كان تحت يده وفي حوزته، فمنعه للغسل منه احتراماً لمائه ولكون المغتسل أساء الأدب بغسله من الحوض عرياناً وهذا هو الظاهر، ومكث الجنب الممنوع للمسجدية هو في المسجد فعلاً المحتاط بالبئر الذي لا يمكن الوصول إليه إلا منه، فالذي يقصد الغسل من البئر ويمر بالمسجد ويمكث فيه يمنع، وأما مكث الجنب في البئر وحريمه الذي حدثت به الجنابة فيه مثلاً، فلا يحرم بل يكره لحرمة الموضع وينبغي له أن يغتسل فوراً. وكذا لا يسن الاعتكاف فيه ويؤيد ما ذكرته في كون البئر وحريمه ليس من المسجد تعليل مفتي المالكية العلامة أبو السعود بن عبدالعزيز المالكي في عدم مسجدية البئر ورحبته بقوله إن تحبيس بئر زمزم سابق عن تحبيس المسجد فلا يثبت لها حكم المسجد ويباح للجنب المكث والغسل فيه ويقدم الداخل سراه خروجاً ولا تحية. اهـ.

وأما ما أفتي به العلامة مفتي الشافعية الشيخ عبدالعزيز الزمزمي من كون البئر ورحبته مسجداً فلم يذكر له سنداً غير ما ذكره عن العلامة الطبري من قوله والظاهر أنه يريد الغسل من الجنابة لمكان اللبث في المسجد على الجنب، ولا أرى هذا يكون سنداً للمطلوب لأنه قال الظاهر فقط والسند الذي ذكره العلامة أبو السعود أقوى وحيث جزمها بعدم مسجدية البئر ورحبته وجواز مكث الجنب فيه مع الكراهية، فالبصاق جائز كذلك إلا إذا كان يؤدي إلى تأذي الداخلين إلى البئر وتعلقه بثيابهم وأرجلهم فيجتنب، وهذا هو الذي ظهر لي والله أعلم. أمر برقمه مفتي الشافعية بمكة المحمية والأقطار الحجازية الراجي غفران المساوئ عبدالله بن السيد محمد صالح الزواوي كان الله لهما آمين.

جواب مفتي المالكية الشيخ عابد بن حسين المالكي

(المتوفى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، رب زدني علماً. حكى الحطاب في شرحه على مختصر العلامة خليل عند قوله: وجاز أي الطواف بسقائف لزحمة وإلا أعاد ولم يرجع له ولآدم قولين مشهورين:

أحدهما: كون بئر زمزم من المسجد الأصلي كالمقام وهو ما أسند في الطراز واختاره ابن عرفة، وثانيهما كونه ليس من المسجد الأصلي كالسقايف وهما للخمي وغيره وجعله ابن الحاجب الأشهر اهـ.

ويؤيد الأول حديث الزهري أن قريشاً قالت لعبد المطلب لما شرع في حفر بئر زمزم: ما هذا الصنع؟ إنا لم نربك أي نتهمك بالجهل لم تحفر في مسجدنا كما نقله الكازروني الحنفي في تذكرته عن ابن علان الصديقي الشافعي. وقول الإمام أبي عبدا لله المقري سألت الشيخ خليل بن عبدالرحمن بن محمد المالكي مفتي مكة وهو أعلم من لفيف بالمناسك دراية ورواية ومشاهدة وأمام الوقفة بعرفات عن حدود المسجد الحرام في زمن النبي ﷺ، فأشار إلى الخشب المطيفة بالبيت والمقام وزمزم من جميع الجهات فقلت: ولم تصلي خارجاً عنها وأنت تعلم ما في إلحاق الزيادة في الفضيلة بالأصل من الخلاف، فقال: أهل مكة يقولون الحرم كله مسجد كما في نيل الابتهاج لسيدي أحمد بابا التنبكتي وأما بالنسبة للمسجد الحرام في هذا الوقت فهو منه وله حكمه بدون أدنى شك لأمرين الأول: أنه قد صار الآن في وسطه والعادة تجهل خروجه وعدم إعطائه حكمه حينئذ سيما وفي المذهب قول مشهور بكونه من المسجد الأصلي كالمقام وقد علمت تأييده.

الثاني: أن في تاريخ الخميس عن البحر العميق للقرشي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، إنا لنجد في كتاب الله أن حد المسجد الحرام من الحزْورة أي باب الوداع إلى المسعى وعن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أساس المسجد الذي وضعه إبراهيم، عليه السلام، من الحَزْورة إلى المسعى أفاده خاتمة المحققين السيد أحمد بن زيني دحلان عما كتبه العلامة السيد أحمد جمل الليل المدني عن الشيخ إبراهيم الخليل في شرحه على مولد الأهدل قال: وفي كلام غيره ما يؤيده. اهـ. ورأيت مثله في تاريخ العلامة الأزرقي.

وأما فتوى أبي السعود ابن علي الزين المالكي بأن بئر زمزم مع حريمها ليست من المسجد وعللوه بأن تحبيسها سابقة على تحبيس المسجد فيباح للجنب المكث بها والغسل ولا تصح الجمعة ولا الاعتكاف بها لكون المسجد شرط فيها ولا في علوها ويقدم الداخل يسراه ويمناه خروجاً ولا تحية وأما البصاق فجائز إلا إن كان يؤدي إلى تأذي الناس وتعلقه بثيابهم وأرجلهم وتنكف أنفسهم عند الشراب فيجتنب كما في نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس فهي باطلة من وجوه :

الوجه الأول : أنه لا صحة لدعواه أن أهل المذهب عللوا مسجديتها وحريمها بأن تحبيسها سابقة الخ . إذ كيف تصح وقد قال الشيخ عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل واستثنى من بيع العقار الحبس خرب أم لا . قوله إلا أن يباع لتوسيع كمسجد للجماعة كما في النص تقدم على العقار أو تأخر وطريق ومقبرة فيجوز بيع حبس غير هذه الثلاثة لتوسيع الثلاثة أو واحد منها أي يؤذن فيه ولو جبراً وأمروا أي المحبس عليهم بجعل ثمن الحبس الذي بيع لتوسيع أحد الثلاثة لغيره أي يشتري بالثمن عقار مثله ويجعل حبساً مكانه من غير قضاء على المشهور لأنه لما جاز بيعه اختل حكم الوقفية . اهـ .

الوجه الثالث : أن تقديم الرجل اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج إنما عدوه من الآداب في نحو الكنيف من كل دنيء كحمام وبيت ظالم وليس منه بئر زمزم حتى فرض عدم دخوله في المسجد إذ كيف تصح دعوى دناءته وقد قالوا إن النظر في بئر زمزم عبادة تحط الأوزار والخطايا لخبر خمس من العبادات تحط الخطايا : النظر في المصحف والنظر إلى الكعبة والنظر إلى الوالدين والنظر في زمزم والنظر إلى وجه العالم رواه الأزرقي .

قال بعضهم : ويختار له النظر فيها ثلاثاً ويستقبل القبلة عند شربها لأنها أشرف الجهات إذا علمت ذلك تعلم أن ما أفتى به أبو السعود بهتان عظيم وجهل فاضح سقيم ، فلا يحل لامرئ أن يلتفت لمثله فضلاً عن أن يعتمد عليه في فتواه ، والله الهادي إلى الصواب وإليه المرجع والمآب . أمر برقمه مفتي المالكية حالاً بالأقطار الحجازية عبده تعالى حامداً مصلياً مسلماً محمد عابد بن حسين .

حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام

الحِجر بكسر أوله له عدة معان ، والمراد به هنا هو نصف الدائرة الذي يحيط بالجانب الشمالي بالكعبة المعظمة من جانب الميزاب ، وحِجْر إسماعيل أصله من عمل أبيه إبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام ، فقد جعله من شجر الأراك .

قال الإمام الأزرقي في تاريخه عند بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة : وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشاً من أراك تقتحمه العنز ، فكان زرباً لغنم إسماعيل اهـ . ومعنى الزرب حظيرة الغنم ، والزرب والزريبة بمعنى واحد، أي أن حجر إسماعيل قد عمله إبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام ، ليكون موضعاً لغنم ابنه إسماعيل ، وإذا نظرنا إلى ذلك العصر البعيد قبل أربعة آلاف سنة ، حين لم تكن بمكة دور ولا بيوت إلا السكنى في كهوف الجبال والجلوس تحت ظلال الأشجار ، ولم يكن في عصر النبيين الكريمين ، عليهما الصلاة والسلام ، بمكة إلا نفر من قبيلة جرهم ، علمنا أن احتجاز حجر إسماعيل لغنمه عند هذا البيت الكريم الذي هو أول بيت وضع للناس ببكة أمر عادي ، وإذا علمنا أيضاً أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، خصوصاً خليل الله عز وجل الذي بنى هذا البيت الكريم ، لا يفعلون شيئاً من عند أنفسهم بل لا بد من الإذن الإلهي في ذلك. وما المانع في ذلك؟ والخليل وابنه إسماعيل ، عليهما السلام ، هما اللذان بنيا الكعبة فالبيت بيت الله ، وإبراهيم خليل الله ، وإسماعيل نبي الله ، وماء زمزم خرجت كرامة له من الله ، والكعبة كانت مبنية بالرضم على أكمة صغيرة حولها الحصباء والمدر ، فسكنى إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ومكان عبادته وموضع غنمه عند الكعبة المشرفة ، وما أحلى ذلك الزمن عند هذه البنية الطاهرة والأرض الطيبة النظيفة والجبال الشامخة اللطيفة ، والسماء الصافية والأمطار المباركة النازلة منها والأفق البعيد الخالية من عبادة الأصنام والأوثان ، إن من يتخيل في ذهنه ذلك الزمن السحيق المبارك ثم ينظر فيما حواليه الآن من تغير الأرض والأبنية والمسالك ، ليرى في مكة المشرفة بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً في طبيعة الأرض وصورها وطبيعة بني الإنسان وتطوره ، فسبحان الكبير المتعال .

صورة رقم ٧٢ ، الكعبة ويظهر عندها حجر إسماعيل عليه السلام

ثم بتقادم العهد ومرور العصور تغير علامة حجر إسماعيل التي كانت من شجر الأراك، إلى رضم بالحجارة، ثم إلى بناء بالطين، ثم إلى بناء برخام المرمر، كما جاء في عصرنا الحاضر لكن لم يتغير موضع الحجر ومكانه عن الحد الأول الذي كان في عهد إبراهيم وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، أبداً . قال العلامة البجيري في حاشيته على شرح الخطيب على أبي شجاع: أول من رخم الحجر المنصور العباسي في سنة أربعين ومائة، ثم بعده مراراً . اهـ.

واعلم أن فتحتي الحِجْر بكسر الحاء المهملة ليستا حديثتين، بل هما قد كانا من عهد خليل الله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فقد تقدم أنه عمل الحجر مدوراً من شجر الأراك لغنم ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، تدخل إليه من الفتحتين . فلما تطور بناء الحجر من الأراك إلى البناء حافظوا على الفتحتين أيضاً كما حافظوا على مدوره تماماً، فالفتحتان كانتا موجودتين أيضاً في زمن نبينا «محمد» ﷺ وفي زمن الجاهلية، ولا يخفى ما في الفتحتين من الفائدة الكبرى قديماً وحديثاً وهي دخول الناس منهما إلى الحجر للصلاة والدعاء عند الكعبة المشرفة من جهته .

واعلم أيضاً بأن حجر إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، محسوب من البيت لما روي عن عائشة، رضي الله تعالى عنها قالت: «كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فأخذ رسول الله، ﷺ بيدي فأدخلني الحجر وقال: «صلي فيه إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت».

نقول: إن هذا الحديث يدل صراحة على أن حجر إسماعيل، عليه السلام كله من البيت الحرام، ويدل على هذا أيضاً طوافه ﷺ، بالبيت من وراء جدار الحجر، فلذلك لو طاف شخص حول الكعبة المشرفة بحيث يدخل من الفتحة الشمالية للحجر ويخرج من الفتحة الجنوبية المقابلة لها أي لم يطف من وراء جدار الحجر لم يصح طوافه .

فإن قال قائل: لقد كان البيت الحرام داخلاً في الحجر ستة أذرع وشبراً، فإذا طفنا بالبيت من نصف أرض الحجر فإنه يصدق علينا أننا طفنا بجميع بناية الكعبة قبل نقض قريش الأذرع المذكورة منها، فهل يصح طوافنا على هذه الصفة أم لا ؟

نقول: إن الطواف على هذه الصفة لا يصح لعدم حصول الطواف من وراء جدار الحجر فإن رسول الله ﷺ وأصحابه، قد طافوا بالبيت من وراء جدار

الحجر ، ونحن مأمورون بالاتباع لا بالابتداع ، وا لله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

والذي نراه في جعل إبراهيم حجر إسماعيل ، عليهما الصلاة والسلام ، من الأراك ليكون حريماً للكعبة فقد جاء في مختار الصحاح أن حريم البئر وغيرها ما حولها من مرافقها وحقوقها . انتهى منه .

فعليه يكون حجر إسماعيل تابعاً للكعبة وهو من مرافقها وحقوقها ، فاحترامه كاحترام الكعبة والعبادة فيه كالعبادة في الكعبة ، والطواف حوله كالطواف حول الكعبة . وا لله تعالى أعلم .

قال في المصباح المنير : « والحجر حطيم مكة وهو المدار بالبيت من جهة الميزاب اهـ» . وقال في مختار الصحاح : والحجر أيضاً حجر الكعبة وهو ما حواه الحطيم المدار بالبيت جانب الشمال . اهـ . والمعنى في العبارتين واحد .

جاء في شفاء الغرام : روى الفاكهي بسنده من طريق الواقدي عن أبي جهم بن حذيفة خبراً في قدوم إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام ، قال فيه : فعمد إبراهيم إلى موضع الحجر فأنزل فيه هاجر وإسماعيل وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً . انتهى .

قال : وذكر الأزرقي ذلك فيما رواه بسنده عن ابن إسحاق لأنه قال في خبر رواه في هذا المعنى : فعمد فيهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً . انتهى .

انتهى كل ذلك نقلاً عن شفاء الغرام للفاسي .

وقد ورد في بعض الروايات : أن إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، جاء بهاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلا المسجد .

فهذه الروايات وإن اختلفت عباراتها فالمعنى بينها متقارب ، لأن ما بين زمزم وبين حجر إسماعيل بضعة أمتار ، وكل منهما قريب من الآخر لا تباعد بينهما ، والفرق القليل ليس له حساب .

فحجر إسماعيل هو حائط قصير دون القامة على شكل نصف دائرة من جهة ميزاب الكعبة ، وينسب الحجر إلى إسماعيل لأن أباه إبراهيم ، عليهما الصلاة

والسلام، هو الذي جعل الحجر إلى جنب البيت جعله عريشاً من شجر الأراك تقتحمه غنم إسماعيل فكان زرباً لغنمه أي حظيرة لغنمه . ولا اعتراض في ذلك فإن خليل الله إبراهيم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، لا يفعل شيئاً إلا بأمر ربه . فبقي الحجر على أساسه من ذلك العهد محترماً محسوباً من البيت فلا يصح الطواف إلا من ورائه ، لذلك نسب الحجر إلى إسماعيل عليه السلام . ولقد كان البيت في بنائه عليه السلام طويلاً يصل إلى منتصف أرض الحجر تقريباً في زماننا اليوم أي كان الحجر ضيقاً ، وقد بقي كذلك إلى أن بنت قريش الكعبة فأخرجته منها لقلة النفقة الحلال ، وذلك أنهم لما أرادوا بناء البيت الحرام جمعوا له من أطيب أموالهم فلم يدخلوا فيه مالاً من ربا ولا مالاً من ميسر ولا مهر بغي ، ولكن ما جمعوه من النفقة لم يكف لعمارة البيت كله ، فاستقصروا في بنائه على القواعد وتركوا بقيته في الحجر وأداروا عليه جداراً يطوف الناس من ورائه .

(فإن قيل) : هل عمل البابين للحجر الشرقي والغربي كان في بناء قريش للكعبة تركوا في طرفي الحجر بمثابة البابين ، أم كانا في بناء إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وبقيا كذلك إلى اليوم ؟

(فنقول) والله تعالى أعلم بغيبه : إن الفتحتين اللتين في طرفي الحجر كانتا في عهد سيدنا إبراهيم الخليل ، فإنه لما جعل الحجر عريشاً لغنم ابنه إسماعيل ، عليهما السلام ، لا بد وأن يترك للغنم في الحجر موضعين لدخولها وخروجها وهذا أمر مسلّم به عقلاً ، وكان يكفي فتحة واحدة لدخولها وخروجها ، ولكن عليه السلام ، جعل فتحتين في طرفي الحجر الشرقي والغربي لسهولة دخولها وخروجها ، ولا يخفى أن مكان الكعبة كان ربوة عالية وحولها الوادي فإذا طلعت الغنم إلى عريشها من أي الجهات وجدت لها منفذاً مفتوحاً، ثم بقيت الفتحتان اللتان بمثابة البابين للحجر إلى يومنا هذا وقد وجد الناس إلى اليوم راحة كبرى فيهما لدخولهم وخروجهم عند إرادتهم الصلاة في حجر إسماعيل ، ولا شك أن هذا من بركات نبي الله وخليله إبراهيم عليه والسلام ، ولم نجد أحداً تكلم عن هذه المسألة فالحمد لله على توفيقاته المتتالية ونعمائه المتوالية .

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني الحجر فقال لي : « صلي في الحجر

إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك استقصروا حين بنو الكعبة فأخرجوه من البيت ».

وجاء في كتاب القرى للطبري أن عائشة قالت : يا رسول الله كل نسائك دخل البيت غيري ، قال : فانطلقي إلى قرابتك شيبة يفتح لك الكعبة فأتته فأتى النبي ﷺ فقال: والله ما فُتحت بليل قط في جاهلية ولا إسلام وإن أمرتني أن أفتحها فتحتها ، قال: لا ، ثم قال : «إن قومك قصرت بهم النفقة فقصروا في البنيان وإن الحِجْر من البيت فاذهبي فصلي فيه » . اهـ .

وعن عروة عن عائشة قالت : ما أبالي في الحجر صليت أم في البيت . انتهى .

فمقدار سعة الحجر في زماننا اليوم هو مقداره تماماً حينما بنت قريش الكعبة في عهد رسول الله ﷺ قبل أن يبعث بخمس سنين على الأشهر . وسنذكر قياسه إن شاء الله تعالى .

أما مقدار سعته في بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفي بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ، فإنه كان أضيق أي كان بمقدار نصف سعته اليوم تقريباً ، لأن الكعبة كانت داخلة في الحجر ستة أذرع وشبراً .

قال إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» عن الحجر ما نصه : يطلق على حجر إسماعيل الحطيم ، وقيل الحطيم هو الجدار المطيف بالحجر . وجاء في الكتاب المذكور ما نصه :

وقد ذكر الأزرقي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جعل الحجر إلى جنب البيت عريشاً من أراك يقتحمه العنز وكان زرباً لغنم إسماعيل ، وقد تقدم أن قريشاً أدخلت في الحجر أذرعاً من الكعبة حين بنتها لما قصرت عليهم النفقة الحلال التي أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها ، وأن ابن الزبير أدخل ذلك في الكعبة حين عمرها وأن الحجاج أخرجه منها واستمر ذلك ليومنا ، وعلى ذلك فبعض الحجر من الكعبة وبعضه ليس منها ، ويدل لذلك ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً استقصرتها حيث بنت الكعبة »، وفي رواية فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأرها قريباً من سبعة أذرع .

وفي مسلم عن عطاء أن رسول الله ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع . وذكر عطاء أن ابن الزبير زاد في البيت خمسة أذرع من الحجر ، وأنه بدا له أساس نظر إليه الناس فبنى عليه ، وأما ما رواه الشيخان من حديث عائشة قالت : سألت النبي ﷺ عن الحجر أمن البيت؟ قال : نعم ! قلت : فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة الخ ، فلا يعارض ما ذكرنا من أن بعضه من البيت لأن حديث عائشة هذا مطلق وأحاديثها السابقة مقيدة ، والمطلق يحمل على المقيد وقد اختلف الفقهاء هل يصح من الحجر بعد السبعة الأذرع من البيت أم لا يصح الطواف إلا من وراء الحطيم كما فعل النبي ﷺ؟ قال كثيرون بالأول وقال آخرون بالثاني . انتهى من كتاب مرآة الحرمين .

حكم حجر إسماعيل في الطواف

من واجبات الطواف في مذهب الإمام الشافعي أن يكون الإنسان في طوافه خارجاً بجميع بدنه عن جميع البيت الحرام ، فلو طاف في حجر إسماعيل لم يصح طوافه ، لأنه طاف في الحجر لا في البيت والله تعالى أمر بالطواف بالبيت والحجر من البيت ، ففي صحيح مسلم عن عائشة ، رضي الله تعالى عنها عن رسول الله ﷺ ، قال: ستة أذرع من الحجر من البيت ، وفي رواية له إن من الحجر قريباً من سبعة أذرع من البيت .

قال الإمام النووي في الإيضاح في هذا المقام ما نصه : وأما حديث عائشة ، رضي الله عنها ، فقد قال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح ، رحمه الله تعالى : قد اضطربت الروايات . ففي رواية في الصحيحين الحجر من البيت ، وروي ستة أذرع من الحجر من البيت ، وروي ستة أذرع أو نحوها ، وروي خمسة أذرع ، وروي قريباً من سبعة أذرع . قال : وإذا اضطربت الروايات تعين الأخذ بأكثرها ليسقط الفرض بيقين . قلت : ولو سلم أن بعض الحجر ليس من البيت ، لا يلزم منه أنه لا يجب الطواف خارج جميعه ، لأن المعتمد في باب الحج الاقتداء بفعل النبي ﷺ فيجب الطواف بجميعه سواء كان من البيت أم لا . والله تعالى أعلم . انتهى كلام النووي .

نقول : يجب الطواف من خارج الحِجْر ، بكسر الحاء المهملة أي : خارج حجر إسماعيل ، سواء كان كله من البيت أم بعضه من البيت ، لأن رسول الله ﷺ ، طاف بالبيت من خارج الحجر ، وقد قال في حجة الوداع : « خذوا عني مناسككم » كما في صحيح مسلم ، ولأن الخلفاء الراشدين والصحابة أجمعين ومن بعدهم طافوا كلهم من خارج الحجر .

جاء في صحيح البخاري في باب مناقب الأنصار في القسامة في الجاهلية : حدثنا عبدالله بن محمد الجعفي حدثنا سفيان أخبرنا مطرف سمعت أبا السفر يقول : سمعت ابن عباس ، رضي الله عنهما ، يقول : « يا أيها الناس اسمعوا مني ما أقول لكم، وأسمعوني ما تقولون ، ولا تذهبوا فتقولوا قال ابن عباس ، قال ابن عباس : من طاف بالبيت ، فليطف من وراء الحِجْر ، ولا تقولوا الحطيم فإن الرجل في الجاهلية كان يحلف فيلقى سوطه أو نعله أو قوسه . انتهى .

الجلوس في الحجر وفي المطاف

كان حجر إسماعيل والمطاف زمن الجاهلية مجلساً عاماً يجتمعون فيهما ويجلسون بفناء الكعبة وظلها يتذاكرون في مختلف شؤونهم ، روى الأزرقي في تاريخه عن محمد بن سوقة قال : كنا جلوساً مع سعيد بن جبير في ظل الكعبة فقال : أنتم الآن في أكرم ظل على وجه الأرض ، وقال ابن عباس ، رضي الله تعالى عنها : سمعت أبي يقول : كان عبدالمطلب أطول الناس قامة وأحسن الناس وجهاً ، ما رآه قط شيء إلا أحبه ، وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ولا يجلس معه عليه أحد ، وكان الندي من قريش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش ، فجاء رسول الله ﷺ وهو غلام يدرج ليجلس على المفرش فجبذوه فبكى ، فقال عبدالمطلب وذلك بعد ما حجب بصره : ما لابني يبكي؟ قالوا له إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه ، فقال عبد المطلب : دعوا ابني فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربي قط ، قال : وتوفي عبد المطلب والنبي ﷺ ابن ثمان سنين وكان خلف جنازته يبكي . انتهى من تاريخ الأزرقي .

ومعنى الفِناء ، بكسر الفاء ما امتد من جوانب البيت وبالفتح ضد البقاء ، والندي الجواد ، تقول : فلان ندي الكف أي سخي ، وحرب بن أمية هو جدّ

معاوية بن أبي سفيان وكان يسمر مع عبدالمطلب وبينهما ألفة كبيرة ، ومعنى جبذوه جذبوه مقلوب منه ، وحرب بن أمية المذكور هو أول من أدخل الكتابة إلى مكة وكان تعلمها في أسفاره كما ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا «تاريخ الخط العربي وآدابه» المطبوع بمصر بمكتبة الهلال .

قياس حجر إسماعيل بالأمتار

قال إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى في كتابه «مرآة الحرمين» ما نصه : حجر إسماعيل ويسمى « بالحطيم » هو بناء مستدير على شكل نصف دائرة وارتفاعه من الداخل (١٢٣) سنتيمتر ، وعرض جداره من الأعلى (١٥٢) سنتيمتر ، ومن أسفل (١٤٤) سنتيمتر ، وهذا البناء مغلف بالرخام وأحد طرفيه محاذ للركن الشامي والآخر محاذ للركن الغربي وسعة الفتحة التي بين طرفه الشرقي وآخر الشذروان ٢،٣٠ متر ، وسعة الفتحة الأخرى التي بين طرفه الغربي ونهاية الشاذروان ٢،٢٣ متر والمسافة التي بين طرفي نصف الدائرة ثمانية أمتار ، ووراء الحطيم بمسافة اثني عشر متراً المطاف . والأرض التي بين جدار الكعبة الشمالي وبين الحطيم هي المعروفة بالحجر ، ويدخل إليها من الفتحتين السالفتين وهي مفروشة بالرخام والمسافة من منتصف جدار الكعبة الشمالي ووسط تجويف الحطيم من الداخل ٨،٤٤ أمتار . انتهى من كتاب مرآة الحرمين .

وصاحب الكتاب المذكور الذي توفي في زماننا ، رحمه الله تعالى ، قد أخذ القياس بنفسه بالأمتار المستعملة في عصرنا ، أما في العصور السابقة فقد كان قياسهم بالأذرع ، لذلك رأينا أن نذكر قياسه بالأذرع أيضاً زيادة في المعرفة والفائدة .

صورة رقم ٧٣ ، الكعبة المشرفة وجدار حجر إسماعيل عليه السلام

صورة رقم ٧٤ ، حجر إسماعيل من الداخل. والمؤلف يشير على حجر خاص

قياس حجر إسماعيل بالأذرع

قال الإمام الأزرقي ، رحمه الله تعالى في تاريخه عند صفة حجر إسماعيل وذرعه ما نصه : الحِجْر مدور وهو ما بين الركن الشامي والركن الغربي ، وأرضه مفروشة برخام وهو مستو بالشاذروان الذي تحت إزار الكعبة وعرضه من جدر

الكعبة من تحت الميزاب إلى جدر الحجر سبعة عشر ذراعاً وثمان أصابع ، وذرع ما بين بابي الحجر عشرون ذراعاً وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، وذرعه من داخله في السماء ذراع وأربعة عشر إصبعاً ، وذرعه مما يلي الباب الذي يلي المقام ذراع وعشر أصابع وذرع جدر الحجر الغربي في السماء ذراع وعشرون إصبعاً وذرع طول جدر الحجر من خارج مما يلي الركن الشامي ذراع وستة عشر إصبعاً ، وطوله من وسطه في السماء ذراعان وثلاث أصابع ، الرخام من ذلك ذراع وأربع عشرة إصبعاً ، وعرض الجدار ذراعان إلا إصبعين والجدر ملبس رخاماً ، وفي أعلاه في وسط الجدار رخامة خضراء طولها ذراعان إلا إصبعين وعرضها ذراع وثلاث أصابع ، قال أبو محمد الخزاعي : وقد حولت هذه الرخامة فجعلت تحت الميزاب مما يلي الكعبة ، قال أبو الوليد : وذرع باب الحجر الذي يلي المشرق مما يلي المقام خمسة أذرع وثلاث أصابع وفي عتبة هذا الباب حجران ارتفاعهما من بطن الحجر أربع أصابع وذرع باب الحجر الذي يلي المغرب سبعة أذرع وفي عتبة بابه أربعة أحجار وارتفاعها من بطن الحجر أربع أصابع ومخرج سيل ماء الحجر من وسطه من تحت الحجارة في ثقب بين حجرين ، قال أبو محمد الخزاعي : قد كان على ما ذكره أبو الوليد ثم كان رخامه قد تكسر من وطء الناس فعمل في خلافة المتوكل على الله وأمير مكة يومئذ أبو العباس عبدالله بن محمد بن داود فرفعت أرض الحجر شيئاً حتى كان ماؤه يخرج من فوق الأحجار التي في عتبة الباب الغربي فكان كذلك حتى عمّر في خلافة أمير المؤمنين المعتضد بالله فأشرف العمال في رفع أرضه حتى صارت أرفع من حجارة عتبتي البابين حتى احتاجوا إلى أن يكسروا طرفي العمل المشرف على بابي الحجر ولو كانوا جعلوه مستوياً مع العتبتين كان أصوب ، قال أبو الوليد : وذرع تدوير الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً وذرع تدوير الحجر من خارجه أربعون ذراعاً وست أصابع ، وذرع ما بين حدات الحجر من شق المغرب إلى حد الركن اليماني اثنان وثلاثون ذراعاً ، وذرع طوف واحد حول الكعبة مائة ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة إصبعاً ، وذرع طواف سبع حول الكعبة ثمانمائة وستة وستون ذراعاً وعشرون إصبعاً . انتهى من تاريخ الأزرقي . فقياس الحجر في أيامه وقياسه في أيامنا واحد لا يتغير ، أما قياس الحجر في زمان بناء إبراهيم عليه السلام ، وفي زمان بناء ابن الزبير فنصف هذا القياس تقريباً لدخول البيت فيه فافهم ذلك .

وما ذكره الأزرقي من أن رخام الحجر قد تكسر من وطء الناس فعمل في خلافة المتوكل على الله هذا الرخام المتكسر عمله أمير المؤمنين محمد المهدي سنة ١٦١هـ . فبقي على حالته إلى زمن المتوكل على الله فلما رأى أنه رث وتكسر قلعه وأبدله برخام حسن وذلك سنة ٢٤١هـ . فيكون رخام الحجر الذي عمله المهدي دام فيه ثمانين سنة . جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ورحمهم رحمة واسعة .

كسوة حجر إسماعيل

لم تجر العادة من قديم الزمان إلى اليوم أن يغطى حجر إسماعيل عليه السلام ، بالكسوة ، غير أنه في القرن التاسع الهجري أي عام اثنين وخمسين وثمانمائة وصلت كسوتان من قبل السلطان جقمق الجركسي لجدار الحجر الدائر فوضعوا إحداهما عليه من داخله والثانية من خارجه ، وكانتا من الحرير الأسود ككسوة الكعبة المشرفة . ثم لم يكس جدار الحجر بعد ذلك فكانت هذه الكسوة هي الأولى والأخيرة .

قال العلامة القطب في كتابه «الإعلام» : ووصل في ذلك العام أي عام (٨٥٢) كسوة لحجر إسماعيل مع كسوة البيت الشريف لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا ووضعت في البيت الشريف ثم كسي بها الحجر من داخله في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة (٨٥٣) بعد أن حفظت في جوف البيت الشريف سنة كاملة. انتهى كلامه .

نقول : إن وضع كسوة على جدار حجر إسماعيل لا بأس بها ، فالحجر إنما هو قطعة من البيت ، ولذلك كان الطواف من خارجه أي من وراء جدار الحجر ، فتغطيته بالكسوة من الأمور التي لا يمنعها العلماء وإن لم تجر العادة بذلك ، وقد يستظرفها أهل الذوق الحسن ، فللعين حظ النظر .

فرش حجر إسماعيل بالبلاط

لم يكن حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، مفروشاً بالبلاط والرخام فكان أول من وضع عليه حجارة الرخام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة مائة وأربعين هجرية ، فإنه لما حج وطاف دعا زياد بن عبدالله الحارثي ، وهو يومئذ

أمير مكة ، فقال له : إني رأيت الحجر حجارته بادية ، فلا أصبحن حتى يستر جدار الحجر بالرخام . فدعا زياد بالعمال فعملوه على السرج قبل أن يصبح ، وكان قبل ذلك مبنياً بحجارة بادية ليس عليها رخام .

ثمَّ إن الخليفة محمد المهدي العباسي في سنة مائة وإحدى وستين وأربع وستين زاد في المسجد الحرام ، وأمر بتجديد رخام الحجر ، ففرشوه بالرخام المرمر بإتقان تام ، وكان رخاماً أبيض وأخضر وأحمر ، وصرف في ذلك مبالغ طائلة ، ثم إن الخلفاء والسلاطين عملوا فيه وفي المسجد الحرام عمارات ليس هنا محل بيانها ولا بأس أن نشير بأن السلطان مراد خان الرابع هو أول من جدد عمارة حجر إسماعيل من آل عثمان حينما بنى الجدار الشامي من البيت ، وذلك سنة أربعين وألف ، ثم عمره السلطان عبد المجيد خان سنة ستين ومائتين وألف ، ثم حصل تجديد نصف أرض الحجر من جهة مقام الحنفي ، وذلك في عهد السلطان عبدالعزيز خان العثماني سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف .

المدفونون في حجر إسماعيل

لا يخفى أن مكة بلد الله الأمين أتى إليها كثير من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، بعد بناء سيدنا إبراهيم الخليل البيت الحرام وربما قبله أيضاً ، فقد ورد في الحديث « كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة ، فيتعبد فيها ومن معه حتى يموت فيها ، فمات بها نوح وهود وصالح وشعيب وقبورهم بين زمزم والحجر » .

وعن عبدالرحمن بن سابط يقول : سمعت عبدالله بن ضمرة السلولي يقول : ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبياً جاؤوا حجاجاً فقبروا هنالك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً كلهم مخطمون بالليف . يعني رواحلهم .

وعن مجاهد أنه قال : حج خمسة وسبعون نبياً كلهم قد طاف بالبيت وصلى في مسجد منى فإن استطعت أن لا تفوتك صلاة في مسجد منى فافعل .

وعن مجاهد أنه قال : حج موسى النبي على جمل أحمر فمر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان ، متزر بإحداهما ، مرتد بالأخرى ، فطاف بالبيت ثم طاف بين

الصفا والمروة . فبينا هو بين الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء وهو يقول : لبيك عبدي أنا معك فخر موسى ساجداً . انتهى ما ذكر من الأزرقي .

فإذا أنعمنا النظر ورجعنا إلى الوراء إلى عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبنائه البيت الحرام ، علمنا أنه لم يكن بمكة إلا قليل من قبائل العرب الأقدمين وقد كانوا يسكنون خارج الحرم تعظيماً للبيت الحرام وكانوا يأتون نهاراً للطواف .

وعلمنا أيضاً أن أطراف البيت كان خالياً ومحله كان ربوة وحولها مسالك الجبال ووادي إبراهيم وبئر زمزم عند الكعبة في محله الآن فإذا جاء النبي إلى مكة بمن آمن معه ، ومات بها ، قبر حيث مات . ففي الحديث : « لم يقبر نبي إلا حيث يموت » رواه الإمام أحمد عن أبي بكر ، رضي الله تعالى عنه ، قال العلامة الحنفي في حاشيته على العزيزي عند هذا الحديث : أي يقبر في المحل الذي خرجت روحه فيه فلا يجوز نقله إلى غيره ، ولذا دفن ﷺ في حجرة عائشة التي قبض فيها . انتهى كلامه .

فإذا مات أحد الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، عند الكعبة في المطاف أو في الحجر أو عند زمزم أو عند أبي قبيس أو بمسجد الخيف بمنى أو بغيره ، دفنوه حيث مات في هذه المحلات الطاهرة الشريفة ، إذ لم تكن مقبرة خاصة بمكة في تلك الأزمنة الغابرة لقلة السكان بها .

ولقد ذكر أكثر العلماء أن إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر مدفونان بالحجر ، وكذلك عذارى بنات إسماعيل كما رواه الإمام الأزرقي ، فقد جاء في تاريخه أن الزهري سمع ابن الزبير على المنبر يقول : إن هذا المحلودب قبور عذارى بنات إسماعيل عليه السلام ، يعني مما يلي الركن الشامي من المسجد الحرام... الخ . اهـ . وعلة اختصاص الدفن في الحجر للعذارى أنهن مقيمات مع أبيهن حيث لم يتزوجن ، أما التي تزوجت منهن فتتبع زوجها أينما ذهب وأقام . والله أعلم .

وما المانع أن يدفن نبي الله وابن خليله مع بعض من أهله في أشرف بقعة على وجه الأرض ، وهو أول من نزل بها وعمرها وبنى فيها مع أبيه ، عليهما الصلاة والسلام بيت الحرام ، وأن أمه هاجر توفيت قبل بناء الكعبة فدفنت عند محلها ، فإذا كان إبراهيم عليه السلام ، جعل الحجر عريشاً لغنم إسماعيل تأوي إليه عنزه بجنب البيت ، فهل ينكر أن يدفن فيه صاحب الغنم ابنه إسماعيل ، عليه السلام ، الذي أرسله الله إلى أهل مأرب من اليمن وحضرموت – كلا والله – فجميع

الأنبياء مطهرون مشرفون ظاهراً وباطناً حساً ومعنىً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

روى الأزرقي في تاريخه أن المبارك بن حسان الأنماطي قال: رأيت عمر بن عبدالعزيز في الحجر فسمعته يقول: شكا إسماعيل عليه السلام، إلى ربه عز وجل حر مكة، فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك باباً من الجنة يجري عليك من الروح إلى يوم القيامة وفي ذلك الموضع توفي. قال خالد فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحِجْر الغربي فيه قبره. انتهى.

فنستنتج مما تقدم أنه لم يدفن في نفس الحجر إلا إسماعيل وأمه هاجر وبناته العذارى فقط ولم يدفن معهم نبي آخر، ولا غرابة في ذلك أليس الحجر ينسب لإسماعيل، ثم أليس هو أول من عمر مكة وأقام بها وبنى مع أبيه البيت الحرام فكان إليه أمر البيت ومكة ثم لبنيه من بعده. فيحق له أن يدفن هو وبعض أهله في أشرف بقعة بجانب البيت لا يشاركهم في الدفن فيه غيرهم.

ومما يناسب هذا الباب ما رواه الغازي في تاريخه نقلاً عن تحصيل المرام وعن تاريخ ابن سنان الشهير بجنابي: أنه لما كانت سنة خمس وستين وتسعمائة أمر الملك المجاهد سليمان بن سليم خان بعمل المنبر الذي بالمسجد الحرام وأن يعمل من رخام في طرز بديع، فلما حفروا مكان الأساس ظهر رجلان ميتان مدفونان بما عليهما من السلاح ولم يفقد منهما شيء، فاختلف الناس في أمرهما، وأما أنا فلم أشك في كون أحدهما عبدالله بن عثمان لأنه استشهد مع ابن الزبير وخفي أثره ودفن في المسجد خوفاً أن ينبشه أصحاب الحجاج والآخر عبدالله بن صفوان والعلم لله. انتهى من الغازي. والمراد بالمنبر الذي ذكره هو هذا المنبر الرخام الموجود في عصرنا هذا بالمسجد والذي هو بجوار مقام إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فقد مرّ عليه أكثر من أربعمائة سنة.

مكان الدفن في الحجر

بقيت علينا نقطة دقيقة جداً جداً وهي في غاية الأهمية لم نجد أحداً تعرض لها قبلنا وهي: قالوا إن إسماعيل عليه السلام وغيره مدفونون في الحجر، فالمراد بالحجر في زمانه ما جعله إبراهيم عليه الصلاة والسلام عريشاً لغنم إسماعيل، فيكون قياس الحجر في زمانهما نصف قياسه تقريباً في زماننا الحاضر، أي النصف الأخير المقابل

للجدار الدائر عليه الذي هو من جهة مقام الحنفي ، أما النصف الأول منه المقابل لجدار الكعبة والذي فيه البابان « الفتحتان » فهو من الكعبة بدون شك ولا ريب لأن بناءها كان ينتهي إليه في عهد إبراهيم عليه السلام ، وفي عهد ابن الزبير ، رضي الله عنهما . فعليه لم يدفن أحد في هذا النصف الأول من الحجر .

روى الأزرقي في تاريخه : حفر ابن الزبير الحجر فوجد فيه سفطاً من حجارة خضر . فسأل قريشاً عنه ، فلم يجد عند أحد منهم فيه علماً فأرسل إلى عبدالله بن صفوان فسأله ، فقال : هذا قبر إسماعيل عليه السلام ، فلا تحركه ، فتركه . اهـ . فيكون موضع هذا القبر والسفط في النصف الأخير من الحجر المقابل للجدار الدائر عليه من جهة الشمال .

فإذا قيل : إن إسماعيل عليه السلام ، دفن بالحجر أي : دفن في أرض الحجر في زمانه أي في النصف الأخير منه المقابل لجداره الدائر ، ومعنى ذلك : أنه لم يدفن أحد في جوف الكعبة المشرفة بيقين ، لا إسماعيل عليه السلام ، ولا غيره .

إذا فهمنا هذا الكلام تمام الفهم ، نعلم علم اليقين أن ما ذكره ابن ظهيرة القرشي في كتابه «الجامع اللطيف» بأن العلامة الكبير المحب الطبري سئل رحمه الله تعالى عن الرخامة الخضراء التي بالحجر فقال هي قبر إسماعيل ويشبر من رأسها إلى ناحية الركن الغربي مما يلي باب بني سهم ستة أشبار فعند انتهائها يكون رأس إسماعيل عليه السلام . اهـ .

هذا الجواب خطأ محض لا صحة له أصلاً ، والمحب الطبري مع جلالة قدره وعلمه الغزير توهم أن الرخامة الخضراء ما وضعت إلا لتدل على قبر إسماعيل عليه السلام ، مع أن ذلك خلاف الواقع ، وسنبين في آخر هذا الفصل إن شاء الله تعالى أصل هذه الرخامة وسبب وضعها في هذا المكان من الحجر .

وأيضاً أن المحب الطبري أجاب بهذا الجواب لعلمه أن إسماعيل مدفون بالحجر ، لكن غاب عليه أن يحدد قياس الحجر في عهده عليه السلام وقياسه في عهد قريش حين بنت الكعبة الذي قياسه في عهدهم هو قياسه اليوم بالضبط ، فلو تنبه رحمه الله تعالى إلى القياسين لما أجاب بهذا الجواب ، ونحن أيضاً وقعنا في هذا الغلط في كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام ، المطبوع بمطبعة الحلبي بمصر وذلك بصحيفتي ١٣٧ و ١٤٠ تمشياً مع كلام الطبري رحمه الله تعالى .

وما وقع فيه المحب الطبري وقع فيه بعض أهل القرن الثاني أو الثالث للهجرة كما يعلم ذلك مما ذكرناه عن الإمام الأزرقي فيما تقدم هنا من شكاية إسماعيل لربه عز وجل حر مكة فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك باباً من الجنة في الحجر يجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة وفي ذلك الموضع توفي . قال الأزرقي قال خالد : فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي فيه قبره . انتهى منه . وفي هذا الخطأ وقع أيضاً ابن جبير الأندلسي كما ذكره في رحلته وكانت رحلته سنة (٥٧٨) .

فقول خالد أن قبر إسماعيل عليه السلام ، ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي خطأ أيضاً فإسماعيل الذي بنى البيت مع أبيه إبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام ، دفن بالحجر منذ تلك العصور الغابرة التي تقرب من أربعة آلاف سنة ، والحجر في زمانه كان صغيراً ضيقاً بمقدار نصف مساحته اليوم من جهة جداره الدائر ولم يزل كذلك إلى زمن بناء قريش فاتسع الحجر بهذا القدر الموجود في عصرنا لأن قريشاً نقصوا من طول الكعبة من جهة الحجر ، فمن الذي زحزح إسماعيل عليه السلام عن قبره فدفنه عند البلاطة الخضراء تحت الميزاب ، مع أنه عند بنائه البيت لم يكن له سقف حتى يوضع عليه الميزاب .

هذا ما فتح الله علينا في هذه المسألة الدقيقة ، فلله مزيد الحمد والشكر وإليه يرجع الأمر كله ، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب ، اللهم ارحم المحب الطبري والإمام الأزرقي وارحمني معهما واغفر لي ولهما ولوالدينا ولمشايخنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات واختم لنا بخير يا أرحم الراحمين وصلى الله وسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام في الحجر

لقد قدمنا الكلام على دفن إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام بالحجر ، وهنا نذكر عن هذه المسألة بياناً يكون أكثر وضوحاً مما تقدم . فنقول وبالله التوفيق :

تقدم أن حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام الذي هو حائط على شكل نصف دائرة من جهة ميزاب الكعبة ، أنه من نفس البيت الحرام ، وأن أصل هذا الحجر وضعه خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وجعله من شجر الأراك تقتحمه العنز ، فكان زرباً لغنم ابنه إسماعيل ، عليهما الصلاة والسلام ، كما ذكره

الإمام الأزرقي في كتابه تاريخ مكة أحسن الله تعالى إليه ، ومعنى الزرب بسكون الراء هي الزريبة وهي حظيرة المواشي .

روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : « كنت أحب أن أدخل البيت وأصلي فيه ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني البيت ، فقال لي صلي في الحجر إذا أردت دخول البيت ، فإنما هو قطعة من البيت ، ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت . ولقد قدمنا الكلام على هذا بالتفصيل عند مبحث بناء قريش الكعبة المعظمة فراجعه هناك .

وهنا يجب التنبيه على مسألة دقيقة في مذهب الإمام الشافعي ، رضي الله تعالى عنه ، وهي : أن من استقبل في صلاته حجر إسماعيل فقط لا تصح صلاته ، لأن كون الحجر من البيت مظنون لا مقطوع به ، لأنه إنما ثبت بالآحاد ، كما أفاده العلامة الخطيب الشافعي ، رحمه الله تعالى في كتابه « الإقناع على أبي شجاع » .

هذا وقد ذكر كثير من العلماء : أن قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقبر أمه هاجر وقبور عذارى بناته موجودة بالحجر ، كما ذكره الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى في تاريخه . فقد جاء فيه : أن الزهري سمع ابن الزبير يقول : إن هذا المحدودب قبور عذارى بنات إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، يعني مما يلي الركن الشامي من المسجد الحرام .. الخ . وجاء فيه أيضاً : أنه مات بمكة : نوح وهود وصالح وشعيب ، وقبورهم بين زمزم والحجر ، وقيل إن هود أو صالحاً لم يحجا فقد تشاغلا بأمر قومهما ، والله أعلم ، وورد في الحديث : « كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة ، فيتعبد فيها ومن معه حتى يموت فيها » .

وجاء في تاريخ الأزرقي أيضًا : أن المبارك بن حسان الأنماطي قال : رأيت عمر بن عبدالعزيز في الحجر فسمعته يقول : شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة ، فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك باباً من الجنة في الحجر يجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة ، وفي ذلك الموضع توفي ، قال خالد : فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي وفيه قبره . اهـ منه .

واختلف بعض العلماء في دفن إسماعيل عليه الصلاة والسلام أو أحد من أهله في الحجر ، ورأينا الخاص في ذلك : أنه قد يجوز أن يكون قبر إسماعيل عليه السلام ، أو قبر أمه أو قبر أحد من أولاده وبناته في الحجر ، وما المانع في ذلك

الزمان الأول أن يدفن نبي ا لله وابن خليله عليهما الصلاة والسلام أو أحد من أهله بلصق الكعبة المشرفة، في الحجر ، وهو الذي قام مع أبيه الخليل ببنائها ، كما هو الذي نزل مع أمه هاجر بمكة وهو صغير يرضع حين لم يكن بها بشر ولا حيوان ، فإذا كان غنم إسماعيل عليه السلام ، تأوي إلى عريش الحجر ، أفلا يأوي إليه هو وأهله بعد الممات ، بلى وا لله إنه لا مانع من ذلك خصوصاً وأن أمه هاجر ماتت قبله وهو الذي دفنها هناك بإذن ربه عز وجل ، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يأتون شيئاً ولا يفعلون شيئاً إلا بأمر ا لله عز وجل ، نعم نحن الآن لا نقدر أن نضع حاجة في بيت أحد من أصحابنا إلا بعد إذنه ورضائه ، فهل يمكن لإسماعيل وهو نبي وابن نبي أن يدفن أمه عند بيت ا لله الحرام قبل أن يأذن له ربه عز وجل؟ كلا وا لله . ونحن إذا نظرنا إلى زمانه ورأينا أنه ، عليه الصلاة والسلام ، كان مسكنه عند الكعبة المشرفة وعند زمزم مع أهله ومواشيه ، وأنه لم يكن يقيم معه بمكة إلا نفر من جرهم ، لا نقول بأن قبورهم كانت بعيدة عنهم كمقبرة المعلا في زماننا هذا .

نعم نحن الآن نستعظم الدفن في المطاف أو في المسجد الحرام ، لأن المكان لا يخلو لحظة واحدة من الطائفين أو المصلين والعاكفين ليلاً ونهاراً ، وشريعتنا الغراء تحرم اتخاذ القبور مساجد والدفن فيها . وا لله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، ولم يأت في موضع دفنهم وقبورهم خبر ولا أثر .

وهنا نقطة دقيقة وهي : إن قلنا أن قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام أو قبر أحد من أهله في الحجر ، فتكون قبورهم في نصف الحجر الذي يلي جداره المستدير مما يلي الغرب لأن الحجر في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام كان ضيقاً أي كان إلى وسط أرض الحجر في زماننا هذا تقريباً ، فإنه لم يتغير الحجر إلا في عهد قريش قبل البعثة بخمس سنوات ، حيث إنهم لما بنوا الكعبة المعظمة نقصوا من جدارها مما يلي الحجر أقل من سبعة أذرع ، فمن هنا صارت أرض الحجر واسعة . فافهم هذه النقطة الدقيقة فإننا لم نر من بينها وأوضحها .



انتهى بعون الله تعالى الجزء الثاني

ويتلوه الجزء الثالث ، وأوله :

عمارات حجر إسماعيل



المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٥
مكة في الجاهلية والإسلام	٦
مكة في عهد قريش	٩
مكة في عهد النبي ﷺ	٢٢
النواحي العامة بمكة في العهد النبوي	٢٤
بعض ما قيل في حق مكة والمشاعر	٢٦
تذكر النبي ﷺ وأصحابه مكة بعد الهجرة	٤٢
الوطن ، لشوقي بك	٤٢
مدخل مكة المشرفة	٥٠
سور مكة قديماً	٥٨
تقسيم قصي أمور مكة	٦٢
دار الندوة	٦٦
بناء دار الندوة	٦٦
التحقيق عن موضع دار الندوة	٧١
أول دار بنيت بمكة	٧٣
بدء بناء البيوت بمكة	٧٥
دار العباس بن عبد المطلب	٧٧
دار أبي سفيان بمكة	٧٨
اتخاذ دار أبي سفيان مستشفى	٨٠
دار الأرقم	٨٢
[قصة إسلام عمر]	٨٧
ترجمة الخيزران أم الرشيد	٨٩
حرم مكة وأنصابه	٩١
وضع أنصاب الحرم	٩٥
أسماء من وضع أنصاب الحرم وأعلامها	٩٧

الموضوع	رقم الصفحة
جدول بأسماء من حدد أنصاب الحرم	٩٩
أعلام حدود الحرم	١٠١
المسافات بين المسجد الحرام وأنصاب الحرم	١٠١
فضل الحرم وخصائصه وتعظيمه	١٠٩
تعظيم الحرم الشريف	١١٤
بعض ما ورد في القرآن الكريم في فضل المسجد الحرام	١٢٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس... الآية﴾	١٢٣
زيادة التأمل	١٢٧
فائدة مهمة	١٢٩
مواقيت الصلاة	١٣٠
علة تسمية الجهات الأربعة	١٣٢
جهات المصلين إلى القبلة في جميع البلدان	١٣٤
أول ظهور بعض الأشياء بمكة المكرمة	١٣٦
تجارة قريش في الجاهلية وصدر الإسلام	١٣٩
النهوض بالصناعات بمكة المكرمة	١٤١
الحياة الاقتصادية لمكة المكرمة	١٤٢
مصانع الحجاز للصاج	١٤٤
مصنع البوقري للبلاستيك	١٤٥
صناعات أخرى	١٤٥
الغرفة التجارية	١٤٦
الحرف والصناعات بمكة المكرمة	١٤٦
صناعة النجارة الفنية بمكة	١٥٠
صناعة التنجيد بمكة	١٥١
صناعة الحصير والزنابيل والمراوح الخوص بمكة	١٥٢
صناعة الشراب أي القلل	١٥٢
صناعة الحلاوة الطحينية بمكة	١٥٣
استخراج زيت السمسم بمكة	١٥٣

الموضوع	رقم الصفحة
طحن الحبوب بالرحى بمكة	١٥٣
وجود الأفران لعمل الخبز بمكة	١٥٤
صناعة القدور والأواني النحاسية بمكة	١٥٥
تجار الساعات بمكة المكرمة	١٥٦
الكتبية بمكة المكرمة	١٥٨
منجر الأخشاب بمكة المكرمة	١٥٩
المصوراتية بمكة المكرمة	١٦١
الآلات الكاتبة بمكة المكرمة	١٦٣
مصانع الثلج بمكة المكرمة	١٦٤
الكاكولا بمكة المكرمة	١٦٥
مصنع الحلويات بمكة المكرمة	١٦٦
الصياغة بمكة المكرمة	١٦٧
مزارع الدواجن بمكة المكرمة	١٦٨
زيت المازولا بمكة المكرمة	١٦٨
صالونات الحلاقة بمكة المكرمة	١٦٩
الدجاج الخارجي بمكة المكرمة	١٦٩
الحوت والسمك الطري بمكة المكرمة	١٧٠
كثرة الأسفار إلى خارج بلادنا	١٧٢
المكتبات العامة بمكة المكرمة	١٧٤
الأربطة بمكة المكرمة	١٧٥
الحمّامات بمكة المكرمة	١٧٥
القهاوي التي بمكة	١٧٦
نقل الحلقة التي بالمعلا إلى جهة جرول	١٧٩
بدء ظهور المطابع	١٨١
الجرائد والمجلات بمكة المكرمة	١٨٥
إنارة مكة المكرمة بالكهرباء	١٩١
ظهور بوليس النجدة بمكة المكرمة	١٩٢
الإطفاء بمكة المكرمة	١٩٢

الموضوع	رقم الصفحة
البريد والتلغراف والتليفون بمكة المكرمة	١٩٢
البريد وتطوره بمكة المكرمة	١٩٤
البريد في مكة	١٩٨
التلغراف بمكة المكرمة	١٩٩
التليفونات بمكة المكرمة	٢٠٢
عدد التليفونات بمكة المكرمة	٢٠٣
البنوك بمكة المكرمة	٢٠٤
عدد نزول المطر في سنة ١٣٨٥ بمكة	٢٠٦
الأمطار بمكة في سنة ١٣٨٦ هجرية	٢٠٧
جوازات السفر ورخص الإقامات وإحصاء النفوس بمكة المكرمة	٢٠٨
استعمال الحطب والفحم وغيرهما بمكة	٢١٠
أول مصحف يطبع بمكة المكرمة	٢١١
الفنادق في الحجاز	٢١٢
الفنادق بمكة المكرمة	٢١٣
أسماء الحارات والمحلات بمكة قديماً وحديثاً	٢١٦
استعمال أقلام الجيب في الحجاز	٢١٧
استعمال الآلات الكاتبة في الحجاز	٢١٨
أول من فرض العشور بمكة	٢١٩
ذكر المكوس والعشور وإبطالها	٢٢٠
إحصاء الحجاج القادمين إلى مكة المشرفة في بعض الأعوام	٢٢٧
إحصاء الحجاج لعام ١٣١٥هـ	٢٣٠
إحصاء الحجاج لعام ١٣١٦هـ	٢٣٠
إحصاء الحجاج في سنة (١٣٧٣) هجرية	٢٣٦
أسباب قلة الحجاج وكثرتهم	٢٣٧
إقامة المظلات والقهاوي في طريق الحج	٢٤١
سيول مكة العظيمة	٢٤٢
مجرى السيل بمكة	٢٥٦

الموضوع	رقم الصفحة
عمل السدود بمكة	٢٥٨
المدّعا وفيه ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٢٦٤
ذكر بعض البساتين الموجودة بمكة المكرمة	٢٦٦
وصف بستان الشريف عون بمكة	٢٦٩
الحجارات الطوال التي كانت بباب السلام سابقاً	٢٧٢
حَمَام الحرم	٢٧٥
وقوع الحمام على الكعبة المعظمة	٢٨١
تنظيف المسجد الحرام من الحمام	٢٨٢
رمز الحمام	٢٨٥
عدد المستشفيات بمكة المكرمة	٢٨٧
جمعية الإسعاف بمكة المكرمة	٢٨٨
نبذة تاريخية	٢٨٩
المحجر الصحي والكورنتينات	٢٩١
أول ظهور الجدري والحصبة بأرض الحجاز	٣٠٠
التقارير الصحية بنظافة الحج	٣٠١
الجمال والسيارات بمكة المكرمة	٣٠٣
المشقات التي كانت تعترض الحجاج سابقاً	٣٠٧
الطريق من مكة إلى المدينة سابقاً	٣٠٩
الطريق الفرعي	٣١١
طريق الغاير	٣١٢
الطريق الشرقي	٣١٢
نظام القوافل	٣١٣
الطريق المسلوك من مصر إلى مكة	٣١٦
معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية	٣١٧
على ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، إذا كانت من تتمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة	٣١٧
الطريق من مصر إلى الحرمين قديماً وحديثاً	٣٢١

الموضوع	رقم الصفحة
كيفية مسير الحجاج من الشام إلى مكة قبل إنشاء الخط الحديدي	٣٣٣
سفر الحجيج من المدينة المنورة إلى مصر	٣٣٥
المسافات بين مكة والمدن الإسلامية الكبرى	٣٤١
بناء البيوت والمقاولات عليها بمكة	٣٤٥
بناء الصنادق والعشاش بمكة	٣٤٨
من علامات الساعة ظهور بناء البيوت على الجبال	٣٤٩
نحت الحجارات من جبال مكة لبناء المنازل	٣٥٠
منجم النورة البلدية بمكة المكرمة	٣٥١
صناعة الآجر ومراكن الزرع بمكة	٣٥٢
إنارة شوارع مكة بالكهرباء	٣٥٢
عدم مرور الطائرات من هواء مكة	٣٥٢
مكة المكرمة وما فيها من النعم والبضائع	٣٥٣
صلاة الجمعة في المسجد الحرام	٣٥٤
الصلاة في الطابق الأعلى من المسجد الحرام	٣٥٨
افتتاح طريق الطائف من جبل كرا	٣٥٩
تاريخ الإذاعة السعودية	٣٦٢
قصيدة في تحية دار الإذاعة	٣٦٤
وصف الحاكي أي "الفنوغراف"	٣٦٥
ظهور التلفزيون	٣٦٦
الميكرفون في المسجد الحرام	٣٦٧
الجبال وفوائدها وألوانها	٣٦٨
وصف الصحراء	٣٧٠
ذكر بعض أشهر جبال مكة	٣٧٤
جبل أبي قبيس وارتفاعه ٤٢٠ متراً	٣٧٦
جبل قُعيقعان (أي جبل هندي)	٣٨١
الدور التي بقعيقعان لابن الزبير	٣٨٢
جبل عمر	٣٨٣

الموضوع	رقم الصفحة
جبل ثور	٣٨٤
باب غار ثور وتوسيعه	٣٩٤
جبل ثَبير	٣٩٩
جبل خندمة	٤٠٢
ثنية كداء	٤٠٥
ثنية كدى	٤٠٦
جبل حِرَاء	٤٠٨
عدد السماوات والأرضين	٤١٦
خلق موضع الكعبة	٤٢٣
بنايات الكعبة المعظمة	٤٢٤
الدليل على بناء الكعبة قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٤٢٤
البناية الأولى: بناء الملائكة عليهم السلام الكعبة	٤٢٦
البناية الثانية: بناء آدم عليه السلام الكعبة	٤٢٨
ما جاء في حج آدم عليه الصلاة والسلام	٤٣٤
مقدار طول آدم عليه السلام	٤٣٥
قبر أمنا حواء بجدة	٤٣٩
أمر الكعبة بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام	٤٤١
نبذة عن ترجمة إبراهيم خليل الله	٤٤٣
عليه الصلاة والسلام	٤٤٣
فضل إبراهيم الخليل على الأمة المحمدية	٤٤٤
نسب إبراهيم عليه السلام وموطنه	٤٤٥
البناية الثالثة: بناء شيث عليه الصلاة والسلام الكعبة	٤٦٠
البناية الرابعة: بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة	٤٦١
هجرة إبراهيم إلى مكة لأول مرة	٤٦٢
إكرام إبراهيم عليه السلام لزوجته سارة	٤٦٣
قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبناءه الكعبة	٤٧٠
دعاء إبراهيم لأهل مكة بالأمن والرزق	٤٧٩
ذكر حج إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٤٨١

الموضوع	رقم الصفحة
الخلاصة في كيفية بناء إبراهيم عليه السلام	٤٨٢
ارتفاع أرض مكة عما كانت عليه قديماً	٤٨٤
مميزات بناء إبراهيم الكعبة	٤٨٥
ذكر الأنبياء الذين ربتهم أمهاتهم	٤٨٦
الكلام على زمزم وخروجه لإسماعيل وأمه	٤٩١
الكلام على بئر زمزم	٤٩٤
حفر عبد المطلب جد النبي ﷺ زمزم	٤٩٩
مسرحية شعرية تمثيلية	٥٠٥
العيون التي في قعر زمزم	٥٠٨
فضل ماء زمزم وميزته	٥٠٩
ما جاء في تاريخ الأزرقي عن زمزم	٥١١
ماء زمزم لا تؤثر فيه الجراثيم والميكروبات	٥١٥
التضلع من ماء زمزم	٥١٨
بقاء ماء زمزم إلى يوم القيامة	٥٢٣
تحريم العباس رضي الله تعالى عنه الاغتسال بماء زمزم	٥٢٣
سقاية العباس	٥٢٣
أول من عمل باباً لزمزم وأعطى مفتاحه لبيت الريس	٥٢٨
خلاصة أمر السقاية	٥٢٩
بناء تنور بئر زمزم	٥٣٠
تعمير فم البئر ووضع شباك في داخلها	٥٣٢
أول من عمل الرخام في زمزم	٥٣٤
قبة بئر زمزم	٥٣٥
الغرفة التي بجوار زمزم	٥٣٦
وصف بئر زمزم في عصرنا	٥٣٧
ما جاء من الأحاديث في زمزم	٥٣٩
طعم ماء زمزم	٥٤٣
كيفية شرب النبي ﷺ من ماء زمزم	٥٤٤
ميزة ماء زمزم	٥٤٧

الموضوع	رقم الصفحة
الحكايات الواردة عن بعض الناس عن شربهم لماء زمزم	٥٤٧
إهداء ماء زمزم	٥٥٠
أسماء زمزم	٥٥١
غور زمزم وقياس ذرعه	٥٥٢
ذرع بئر زمزم	٥٥٤
الحفر في قعر زمزم إذا قل ماؤها	٥٥٦
حوض زمزم في عهد ابن عباس	٥٥٧
حلاوة زمزم	٥٥٨
علم فيض زمزم ليلة نصف شعبان	٥٦٠
حكم بئر زمزم وحريمها هل هي من المسجد الحرام أم لا	٥٦٢
جواب الشيخ محمد بن عبدالله الطبري الشافعي	٥٦٢
جواب الشيخ عبد العزيز الزمزمي الشافعي	٥٦٣
جواب الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد الحنفي	٥٦٣
جواب الشيخ أبي السعود بن علي الزمزمي المالكي	٥٦٣
جواب مفتي الأحناف الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن سراج	٥٦٤
جواب مفتي الشافعية السيد عبدالله بن السيد محمد صالح الزواوي	٥٦٥
جواب مفتي المالكية الشيخ عابد بن حسين المالكي	٥٦٧
حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام	٥٦٩
حكم حجر إسماعيل في الطواف	٥٧٤
الجلوس في الحجر وفي المطاف	٥٧٥
قياس حجر إسماعيل بالأمتار	٥٧٦
قياس حجر إسماعيل بالأذرع	٥٧٦
كسوة حجر إسماعيل	٥٧٨
فرش حجر إسماعيل بالبلاط	٥٧٨
المدفونون في حجر إسماعيل	٥٧٩
مكان الدفن في الحجر	٥٨١
قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام في الحجر	٥٨٣



مُلحَقُ الصُّوَر



منظر رقم ١٦

صورة الملك عبد العزيز عبد الرحمن آل سعود ملك البلاد العربية السعودية ومؤسسها المتوفى في شهر ربيع سنة ١٣٧٢ هـ رحمه الله تعالى وغفر لنا وله



المغفور له الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود



جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود



المغفور له الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود



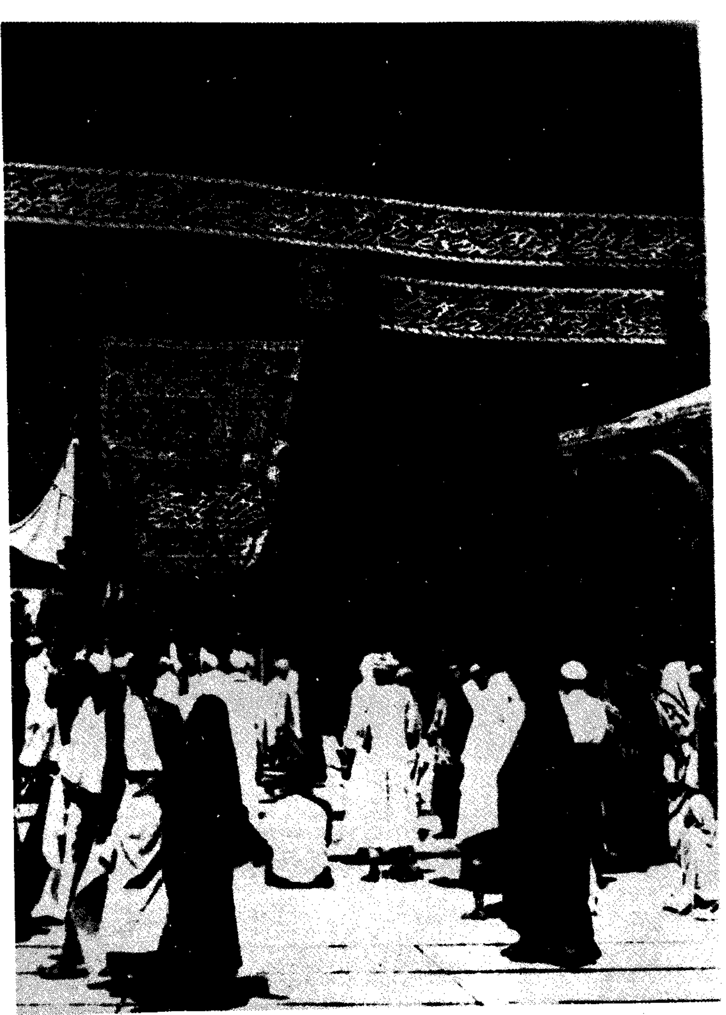
حضرة صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود



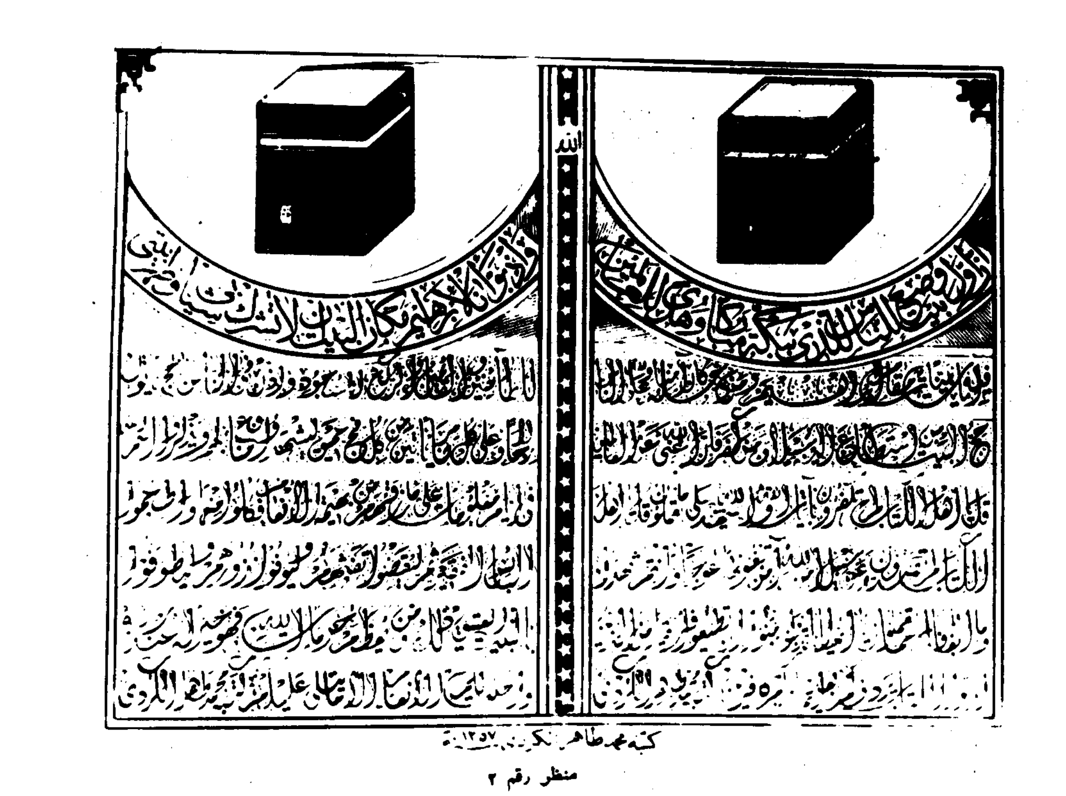
حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود المعظم
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني



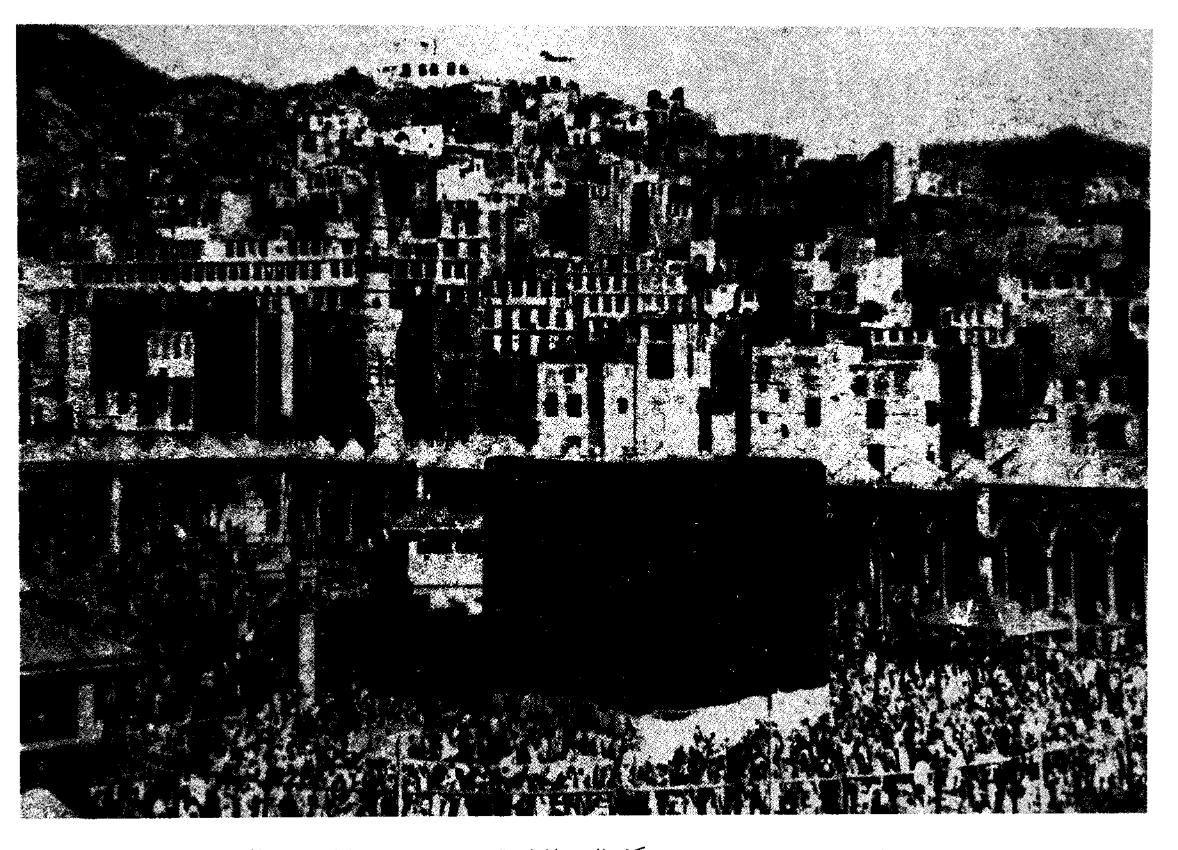
صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش



منظر رقم ١ – صورة الكعبة المعظمة وعليها كسوتها المصنوعة بمكة المشرفة في عهد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ويرى الناس حولها ما بين مصل وطائف وداع الى ربه عز وجل ولاجىء الى باب ربـــه الكريم



منظر رقم ٢



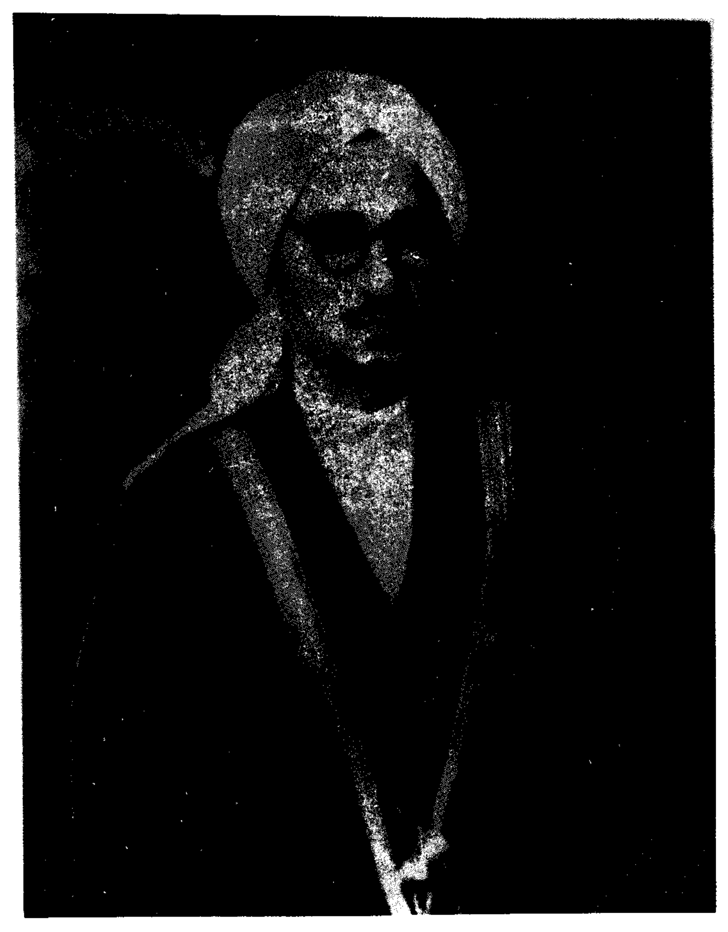
منظر رقم ٣ - وترى فيه بعض بيوت مكة والمسجد الحرام والكعبة المعظمة والناس يطوفون من حولها



منظر رقم ٧

الشيخ عبد القادر الكردي المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ

صورة رقم ١



منظر رقم ٦ مؤلف هذا الكتاب

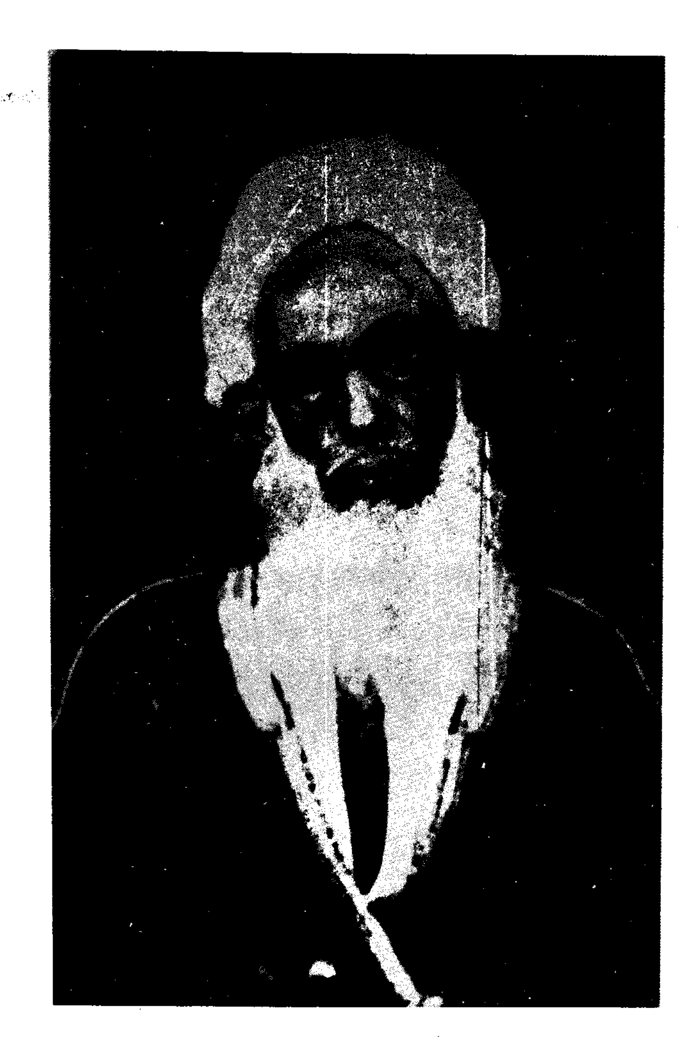
أقسم بالله على كل من
أبصر رسمي حيثما أبصره
أن يدعو الرحمن لي مخلصا
بالعفو والرحمة والمغفرة

صورة رقم ٢



حسن عبدالله باسلامة المكي الحضرمي

صورة رقم ٣



صفحة رقم ١٠

الشيخ عبدالله الغازي المكي

صورة رقم ٤

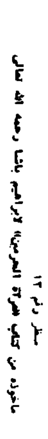


منظر رقم ١١

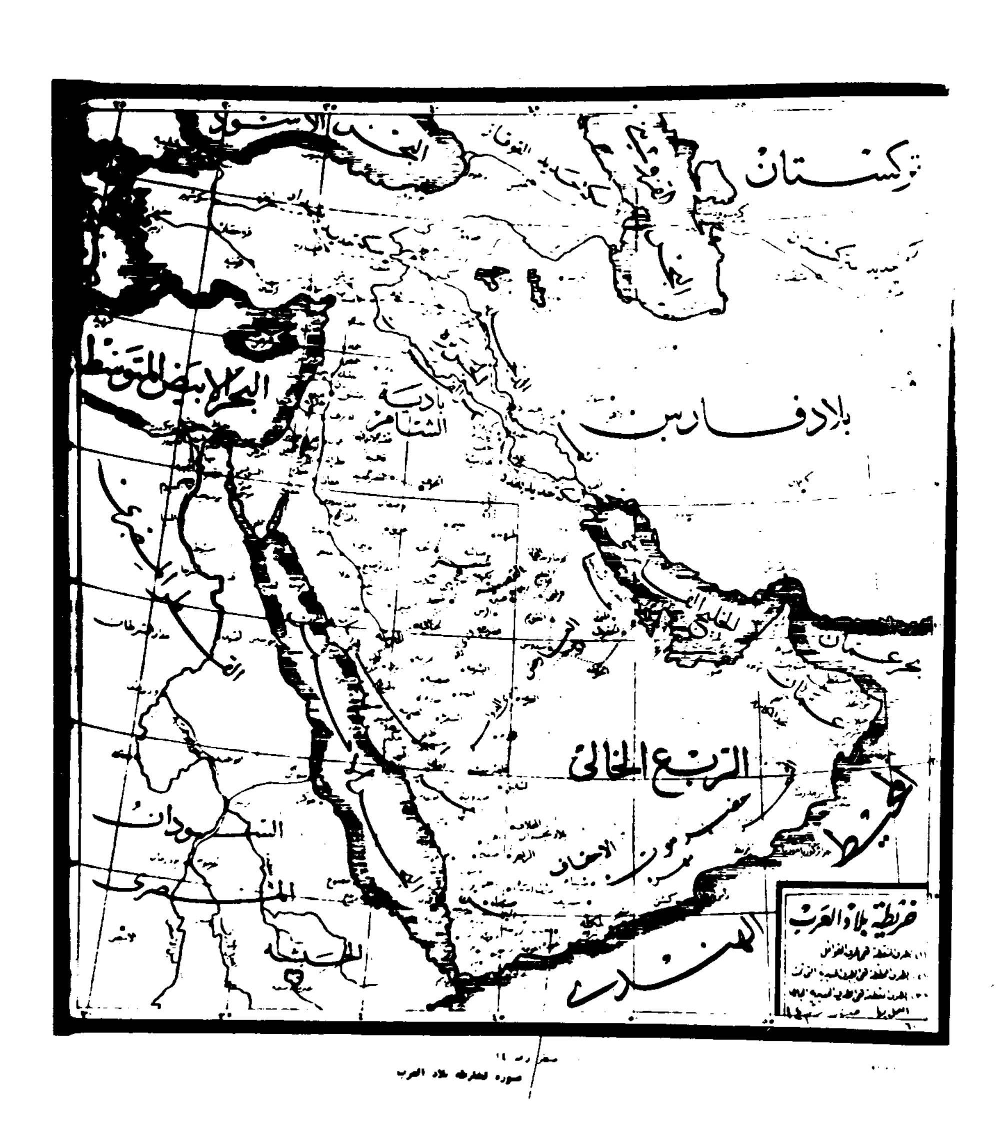
الاستاذ أحمد السباعي المكي

صورة رقم ٥

خريطة مكة المكرمة

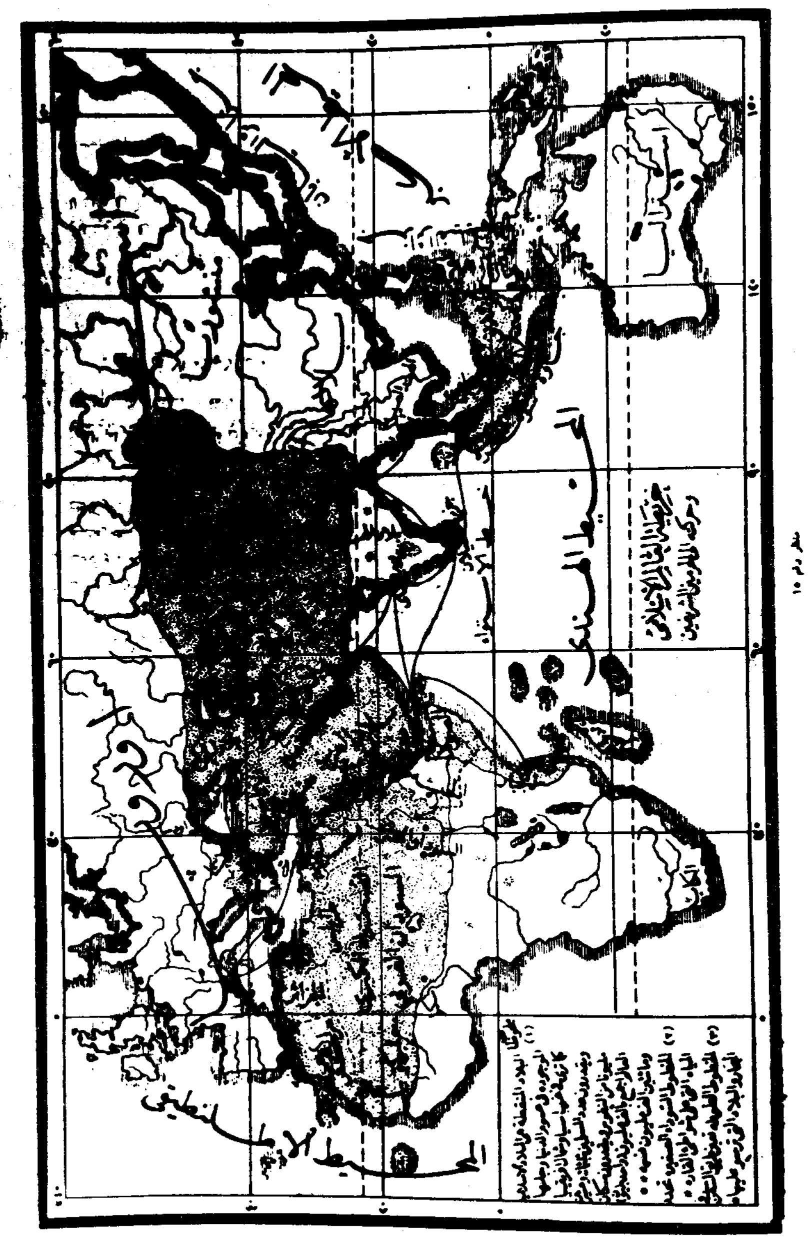


صورة رقم ٦



تركستان
بلاد فارس
بادية الشام
البحر الأبيض المتوسط
الربع الخالي
خريطة بلاد العرب

صورة رقم ٧

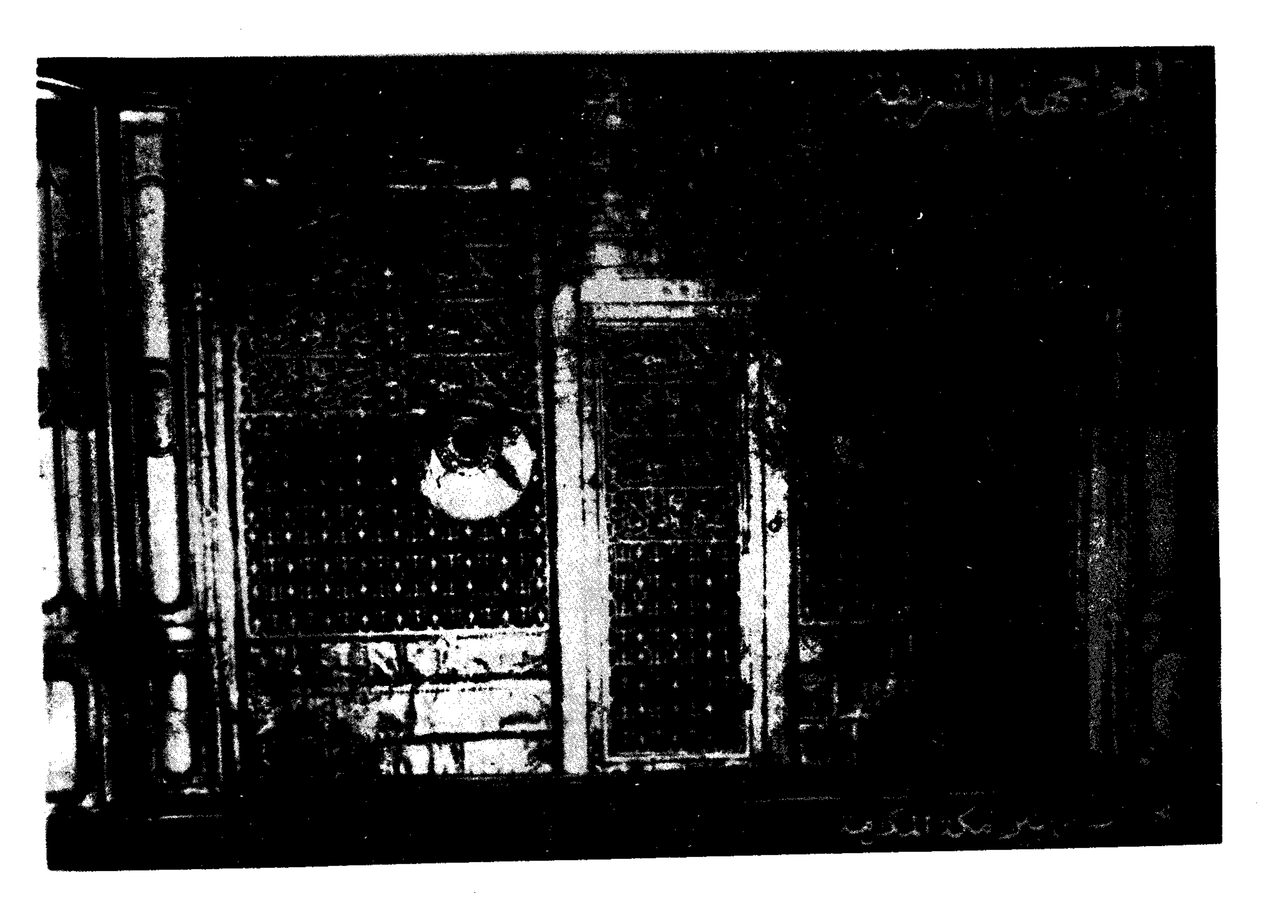


صورة رقم ٨

صورة رقم ٩



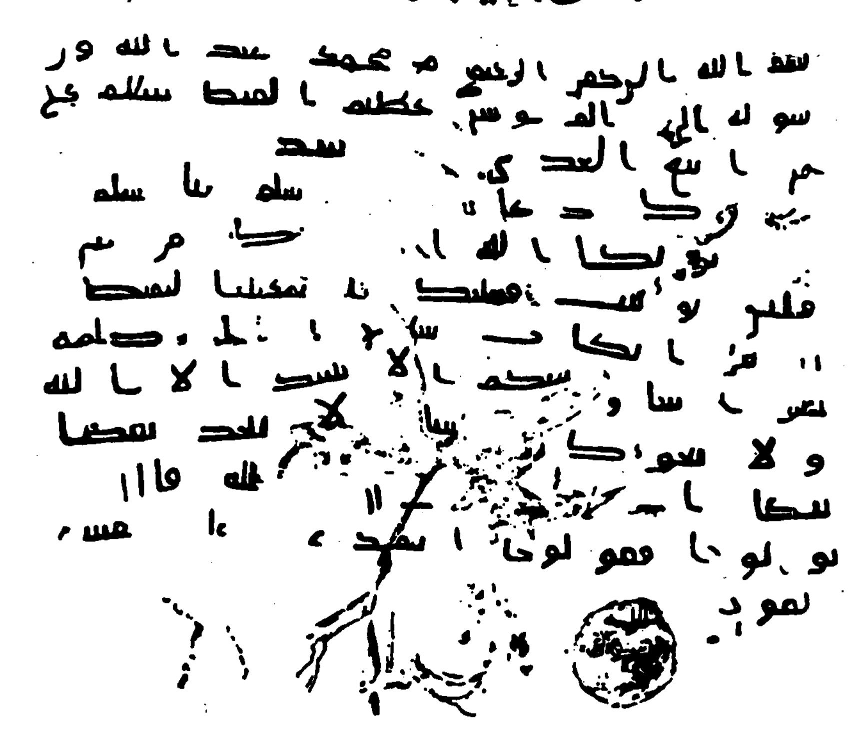
صورة قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق الجبل بالابواء يحيط بالقبر جدران من الجهات الاربعة كالغرفة الصغيرة المكشوفة والقبر بوسطها ، ولقد وضعنا نقاطا على اطراف الجدار الذي يظهر من الطريق



مقصورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم

صورة رقم ١٠

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط بمصر



بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ور
سوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على
من اتبع الهدى . أما بعد فإني
أدعوك بدعاية الإسلام أسلم
تسلم يؤتك الله أجرك مرتين
فإن توليت فعليك إثم كل القبط
يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا
بعضا أربابا من دون الله فإن
تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسـ
لمون

الله
رسول
محمد

هدية من مجلة « لواء الاسلام »

وهذا الكتاب يوجد في متاحف الاستانة بتركيا

صورة رقم ١١



منظر رقم ٢٣

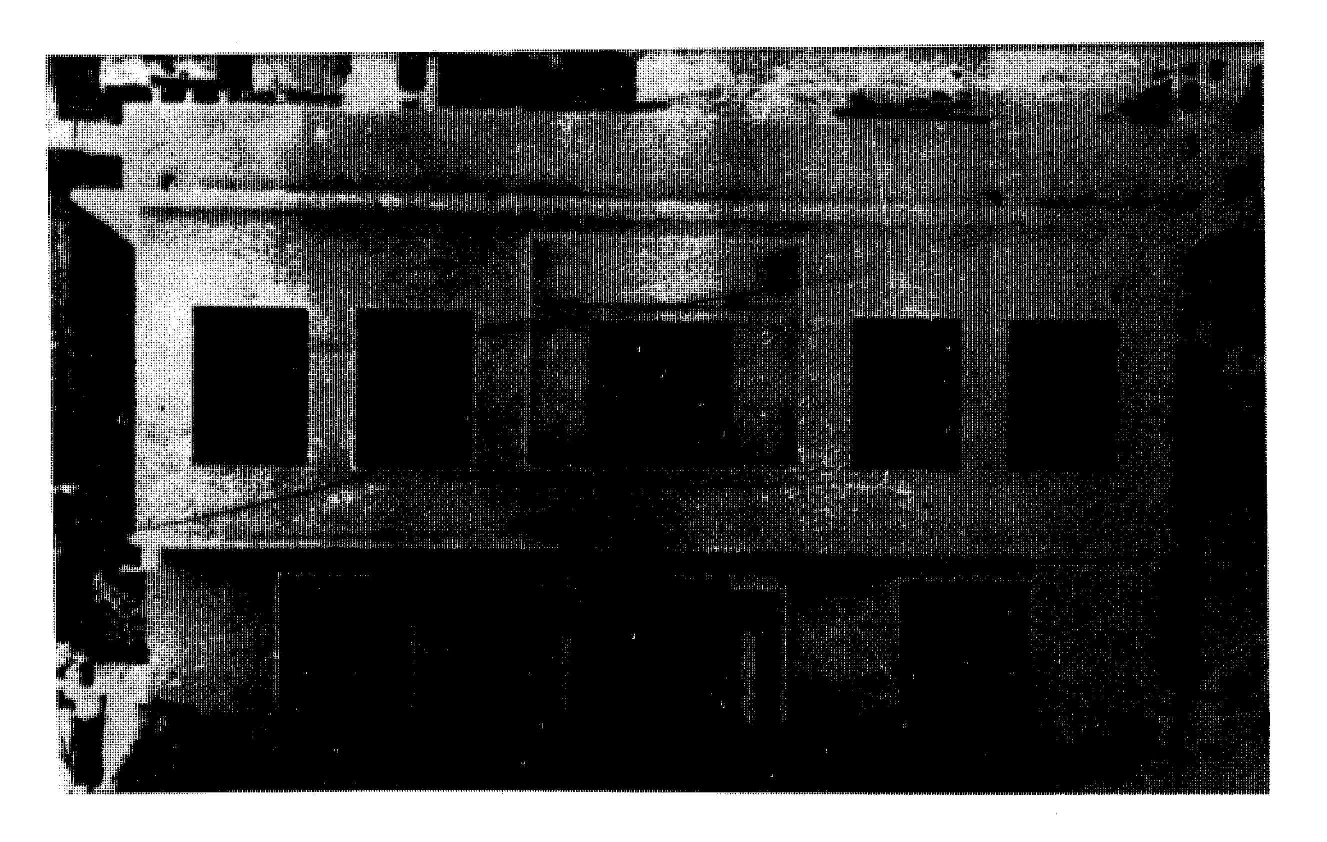
الشيخ عباس قطان اخذت له قبل وفاته بخمس سنوات تقريبا ، رحمه الله واحسن مثواه
وهو من اعيان مكة وفضلائها

صورة رقم ١٢

صورة رقم ١٣



هذه الصورة أخذت للمنزل الذي بناه الشيخ عباس قطان أمين العاصمة الاسبق رحمه الله تعالى في نفس موضع ولادة النبي صلى الله عليه وسلم



موضع ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وبابه العمومي الآن يقع على الشارع العام لشعب علي ويظهر في هذه الصورة بابه العمومي

صورة رقم ١٤



منظر رقم ٢٨

صورة جبل ثور وبأعلاه الغار الذي اختفى فيه نبينا ((محمد)) صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين الهجرة من مكة . وهذا الجبل يقع على يمين الصاعد من جهة المسفلة من مكة الى منى ، وقد اخذت هذه الصورة من الجهة الغربية . وبين المسجد الحرام وبين جبل ثور نحو اربعة كيلومتر

صورة رقم ١٥



مدخل غار توز

صورة رقم ١٦

صورة مسجد قباء

صورة رقم ١٧



منظر رقم ٢١

BOEHME & ANDERER, CAIRO.

محراب مسجد قبا

انتقاله صلى الله عليه وسلم من قباء الى داخل المدينة

صورة رقم ١٨



صورة رقم ١٩



صورة رقم ٢٠

صورة رقم ٢١



باب جدة عند مدخل مكة بجرول اى بعد العسله وقد هدم هذا الباب في سنة ١٣٦٥ هجرية



منظر رقم ٣٦ مكرر

صورة عقد باب مستشفى القبان بآخر المدعا من جهة المسجد الحرام بمكه المشرفه

صورة رقم ٢٢



منظر رقم ٢٧

هذه لوحة وجدناها معلقة ومكتوب فيها من دخل دار ابي سفيان كان آمنا

صورة رقم ٢٣

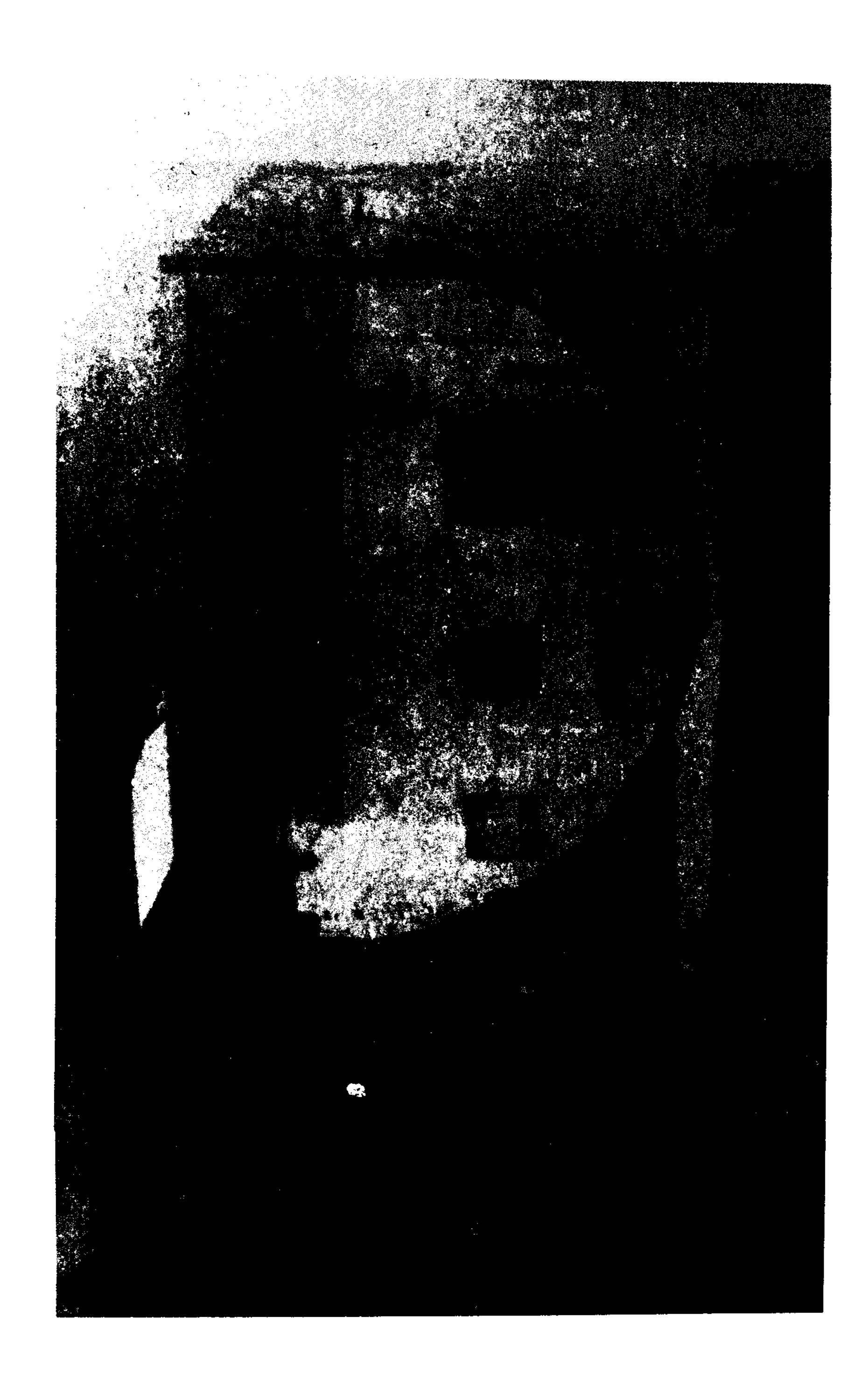
دار الارقـم



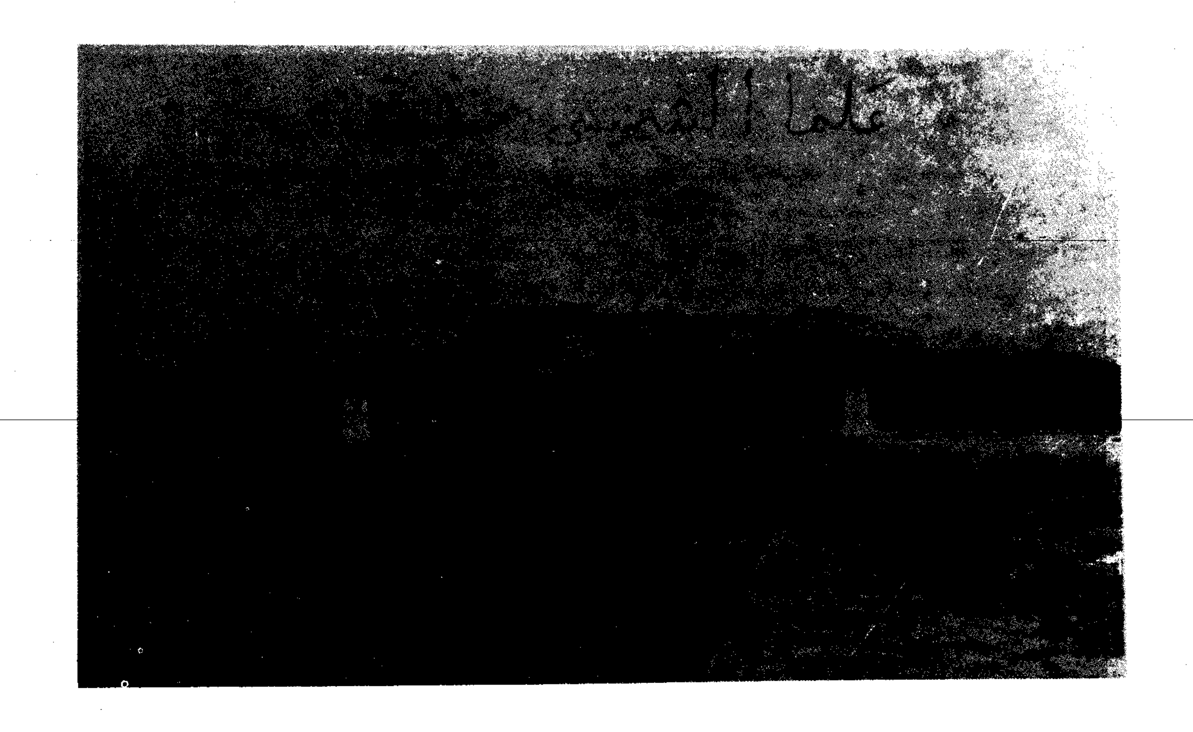
منظر رقم ٢٨

هذه الكتابة باعلا باب دار الارقم بالصفا

صورة رقم ٢٤

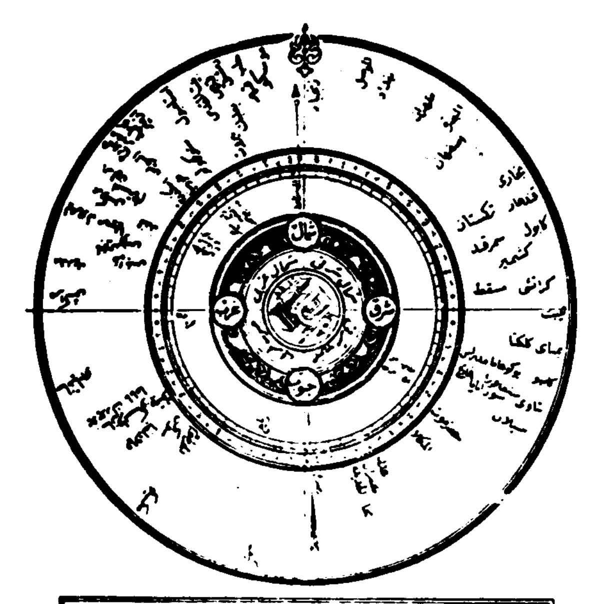


صورة رقم ٢٥



صورة العلمين عند الشميسي بالحديبية بطريق جدة ـ فما وراء العلمين جهة الجبال الظاهرة في الصورة يعد من الحل وما قبله الى جهة مكة يعد من الحرم

صورة رقم ٢٦

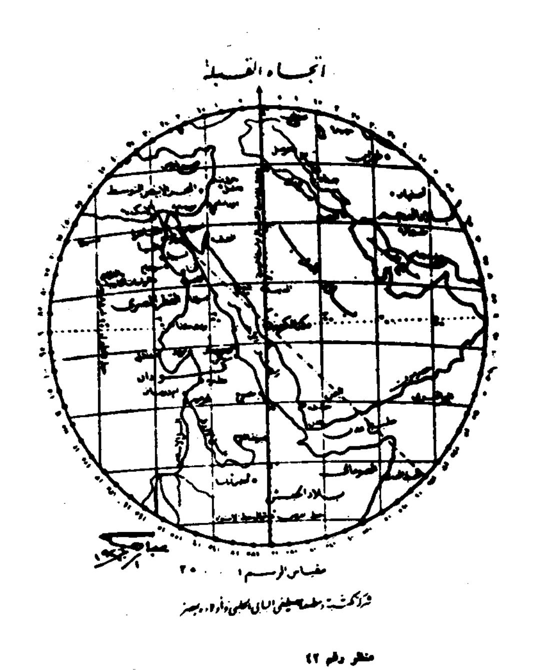


دليل القبلة في جميع أنحاء العالم: لأجل معرفة القبلة نضع "البوصلة" في وسط الدائرة للتأكد من معرفة الجهات الأصلية. ثم نمد خطا مستقيما من البيت الحرام الذي هو وسط الدائرة إلى البلدة التي نكون بها فنهتدي إلى القبلة.

منظر رقم ٤١

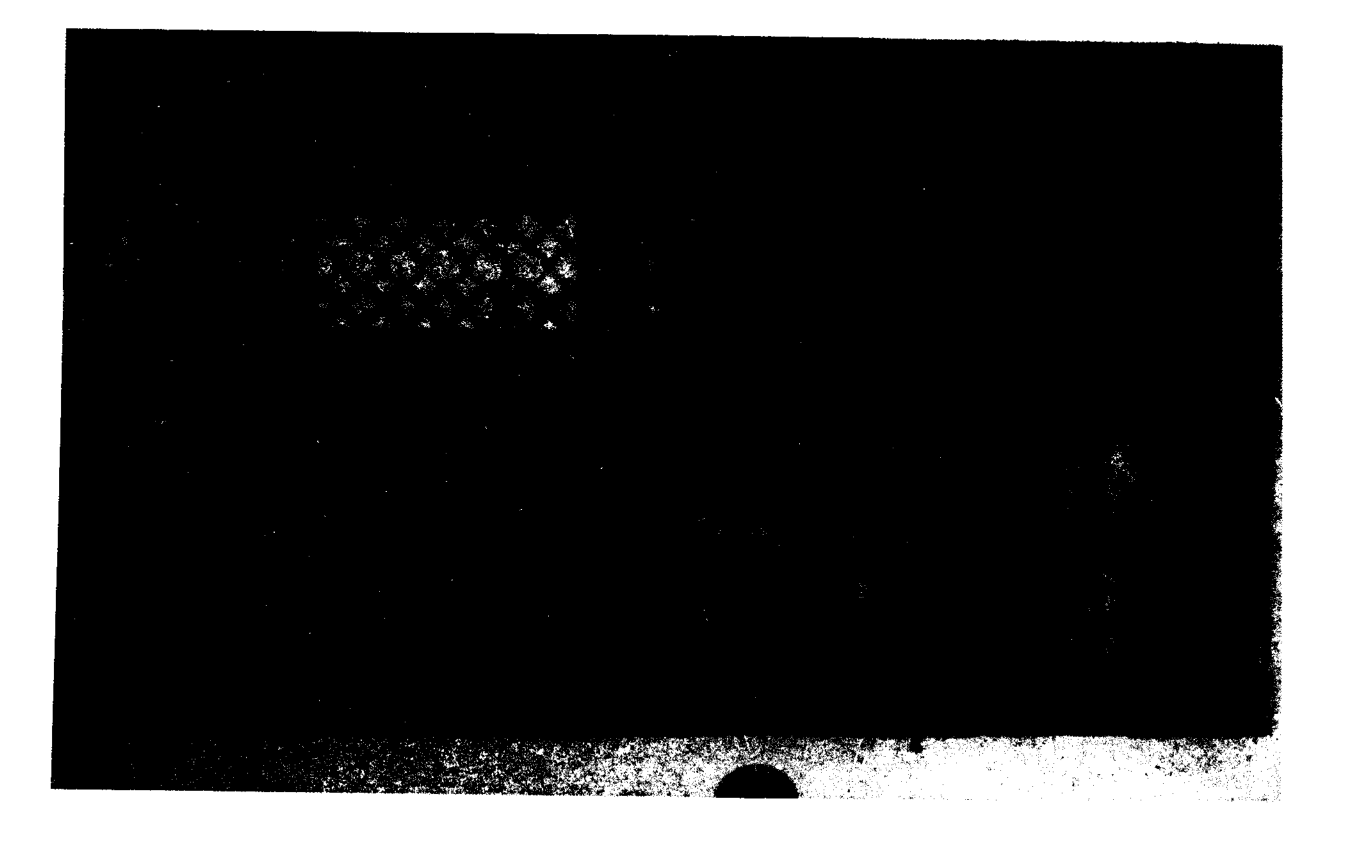
١

صورة رقم ٢٧



منظر رقم ٤٢

صورة رقم ٢٨



منظر رقم ٤٥

شباك زخرفي مفرغ من صنع النجارين بمكة المكرمة في أوائل عصرنا

صورة رقم ٢٩



منظر رقم (٦)

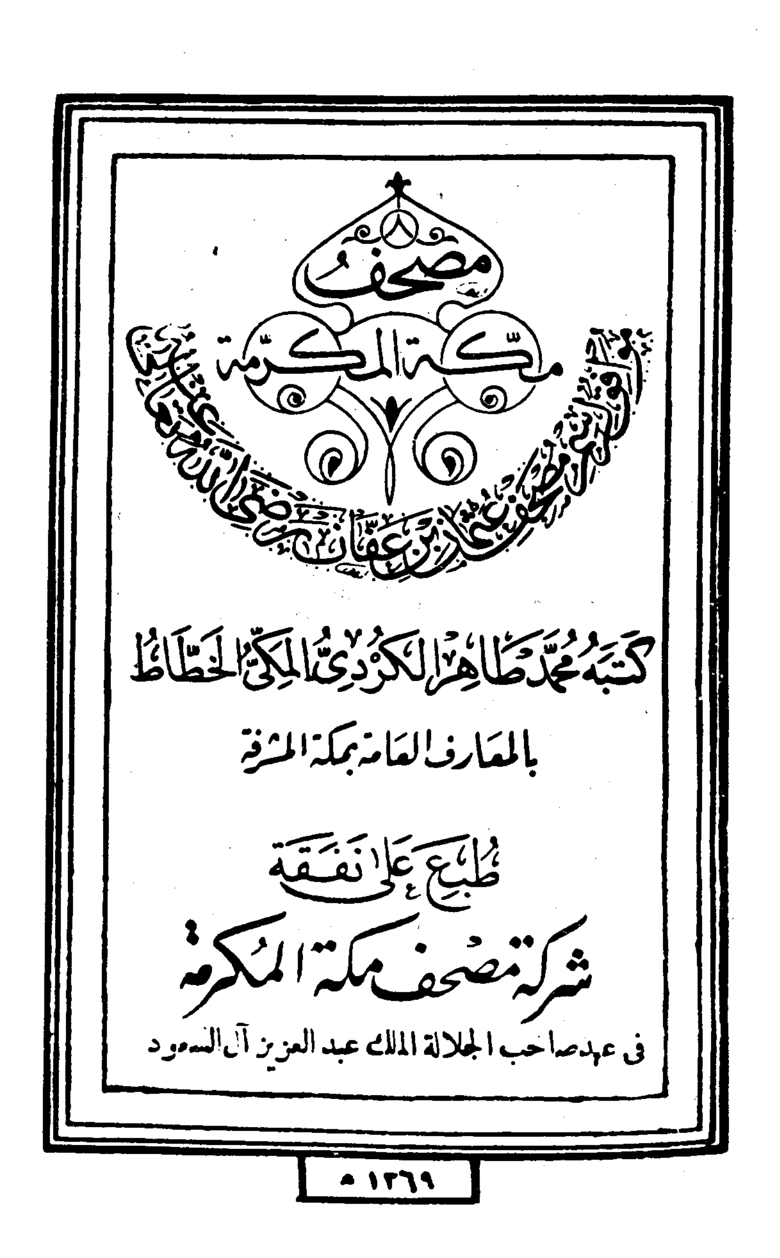
صورة لاحدى القهاوي الحجازية

صورة رقم ٣٠

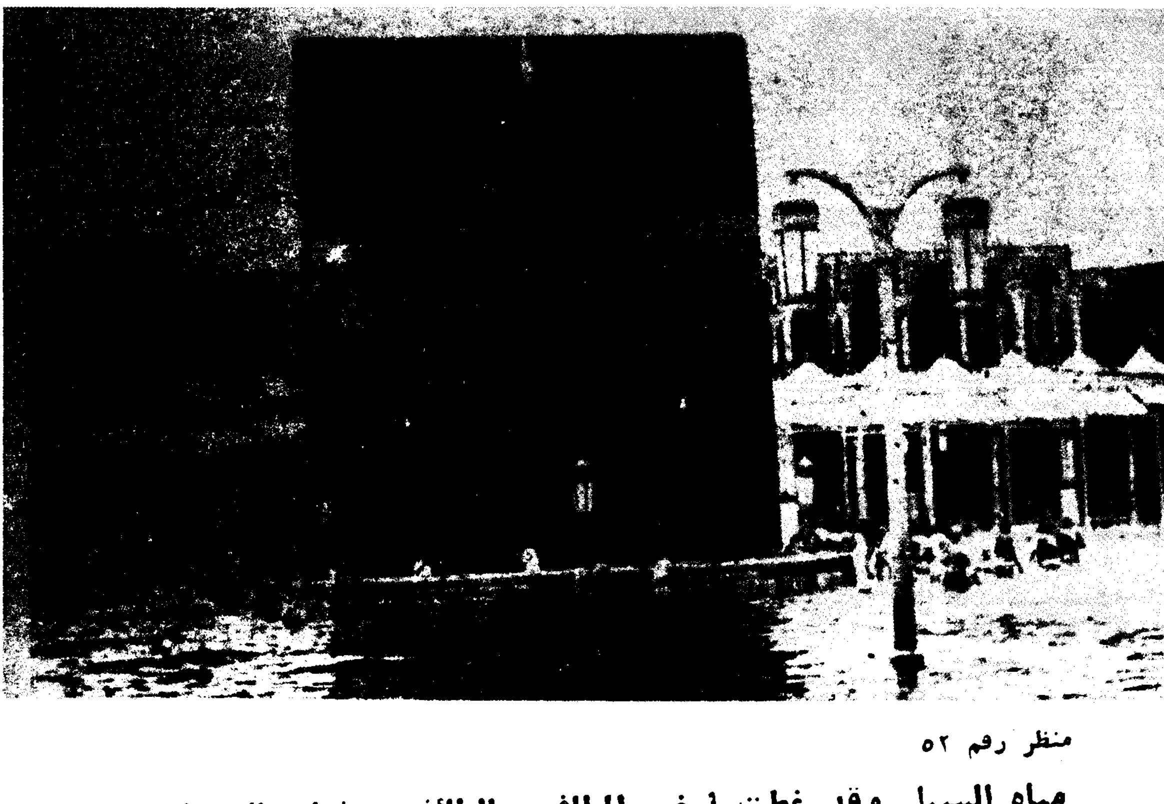


منظر رقم ٤٧ مقهى بلدي

صورة رقم ٣١


مصحف
مكة المكرمة
على الرسم العثماني مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه
كتبه محمد طاهر الكردي المكي الخطاط
بالمعارف العامة بمكة المشرفة
طبع على نفقة
شركة مصحف مكة المكرمة
في عهد صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل السعود
١٣٦٩ هـ

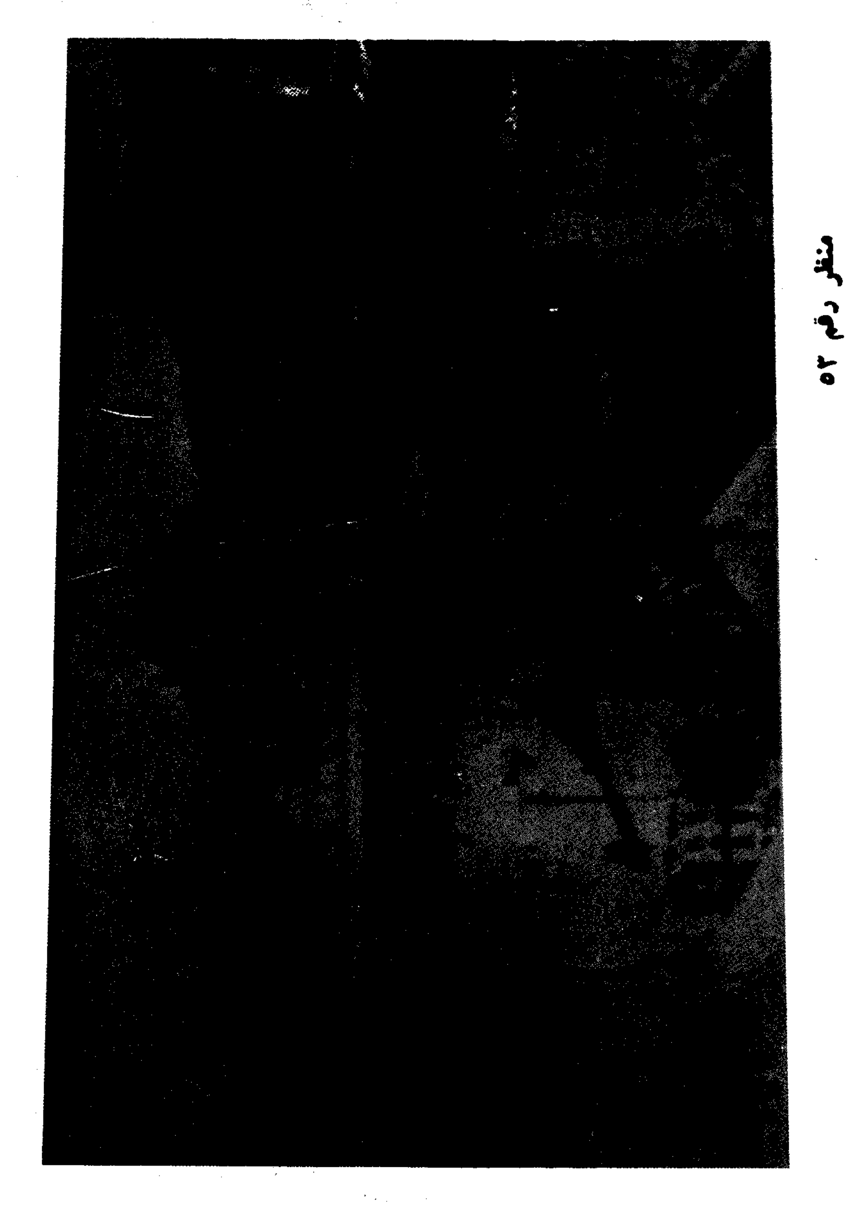
صورة رقم ٣٢



منظر رقم ٥٢

مياه السيل وقد غطت ارض المطاف والطائفون بثياب الاحرام من حوله

صورة رقم ٣٣



منظر رقم ٥٣
مياه السيل وقد غمرت رحاب المسجد الحرام
وكان هذا في سنة ١٣٨٠ تقريبا

صورة رقم ٣٤



منظر رقم ٥٤

مياه السيل داخل المسجد الحرام

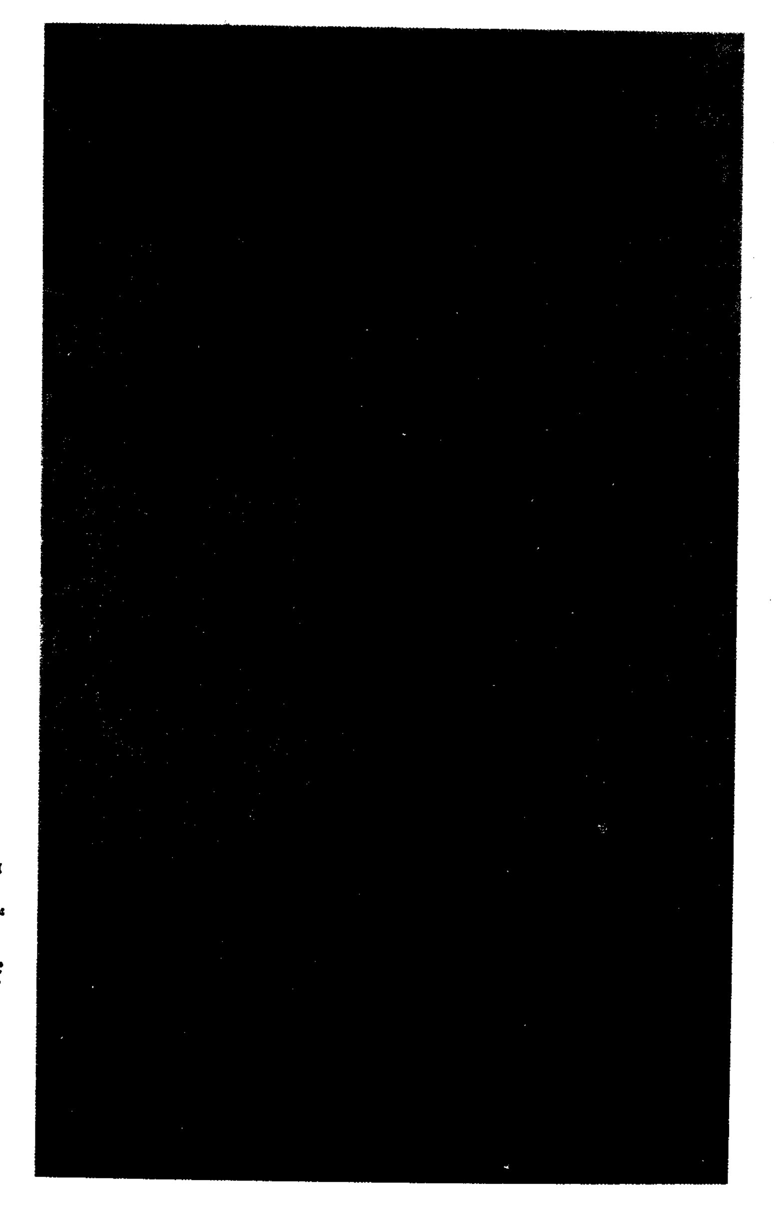
صورة رقم ٣٥



منظر رقم ٥٥

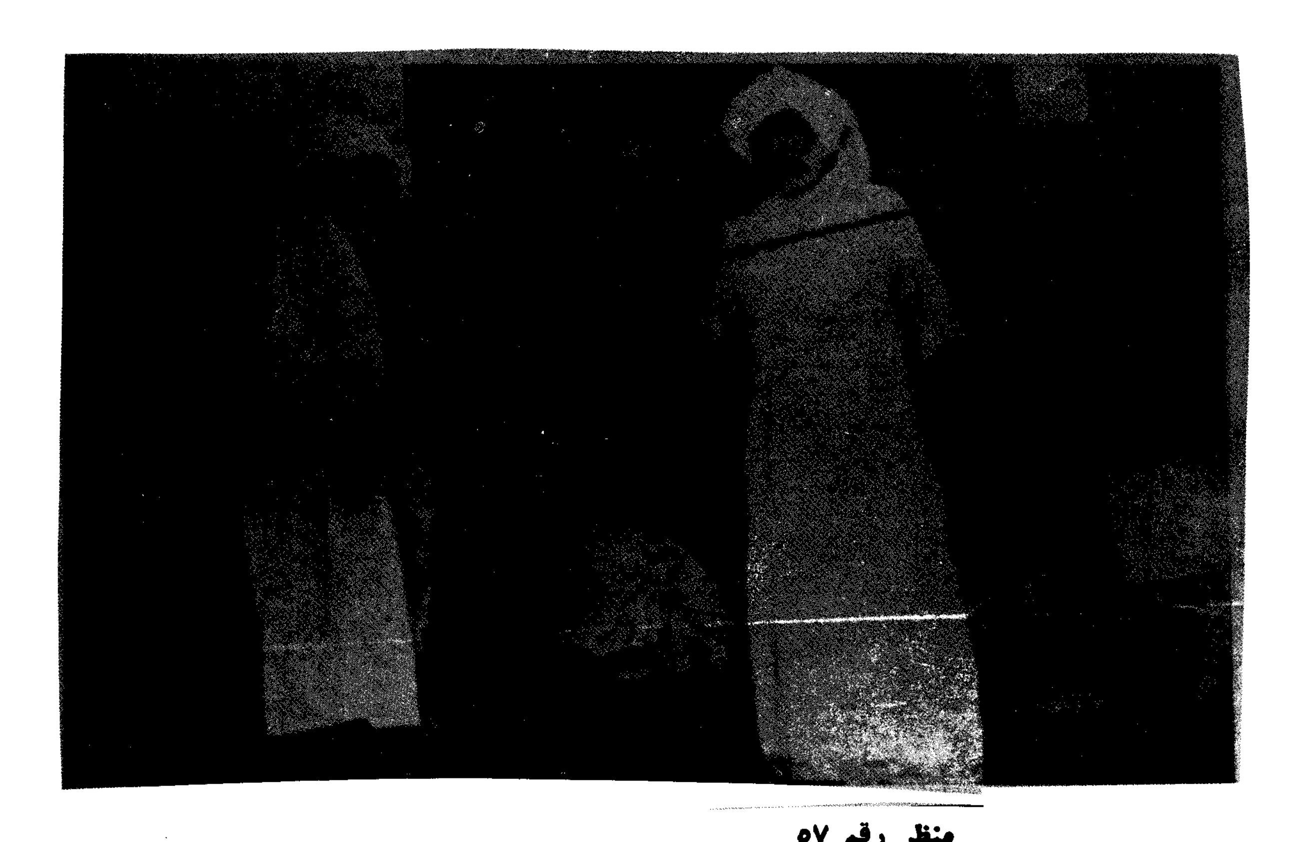
مياه السيل محيطة بالكعبة الشريفة

صورة رقم ٣٦



منظر رقم ٥٦ السيل بالمسجد الحرام

صورة رقم ٣٧



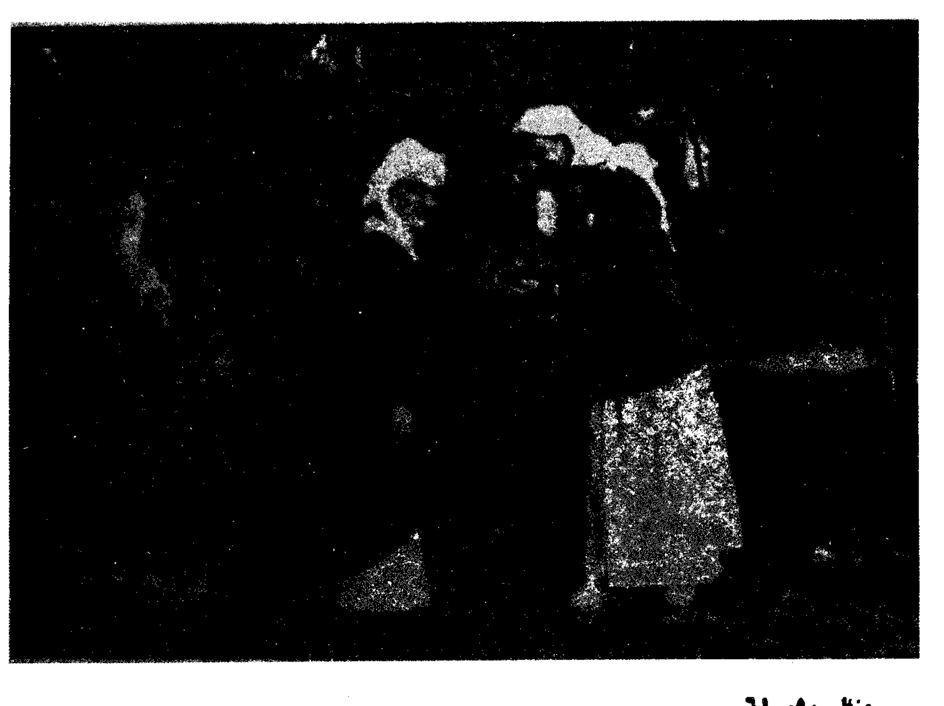
منظر رقم ٥٧

صورة ميزان القبان بالمدعا وهو لوزن تنكات السمن واكياس الرز والعسل وغيره

صورة رقم ٣٨

هذه الصورة التقطت ببستان عين زبيدة بعرفات في دعوة أقامها وكيل الامارة عن زمنه ، ويرى محمد طاهر الكردي هو الثاني من اليسار ثم الثالث سعادة الشيخ عبدالله بن عدوان وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني وهو أيضا رئيس اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام ثم الرابع الشيخ ماجد فروز صاحب الدعوة
التقطت هذه الصورة في جمادى الأولى عام ١٣٧٥

صورة رقم ٣٩



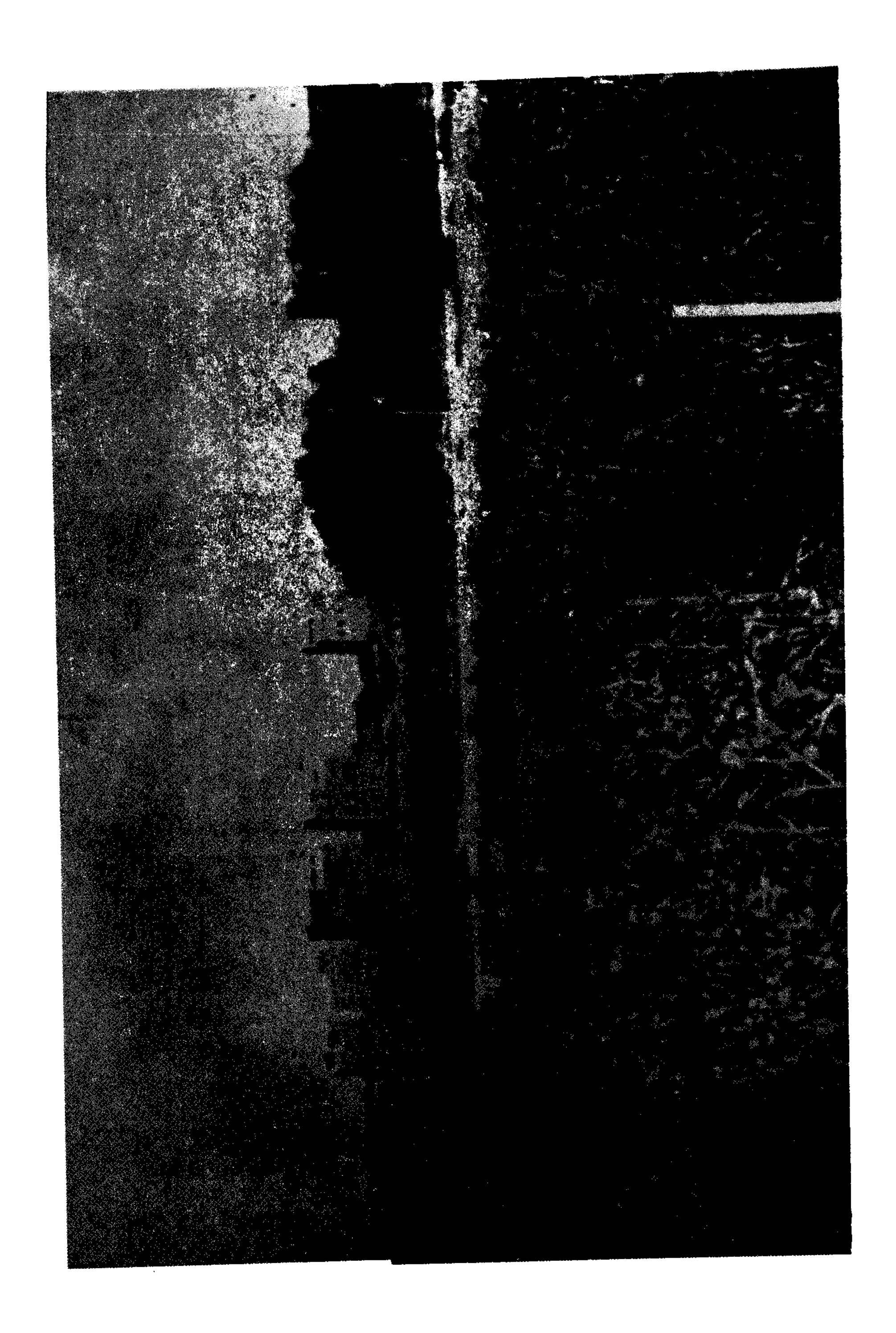
منظر رقم ٦١
صورة محمد طاهر الكردي مع الحاج عبد الستار الهندي
اخذت لهما في بستان بمكة في ١٣٧٦/٦/٧هـ

صورة رقم ٤٠

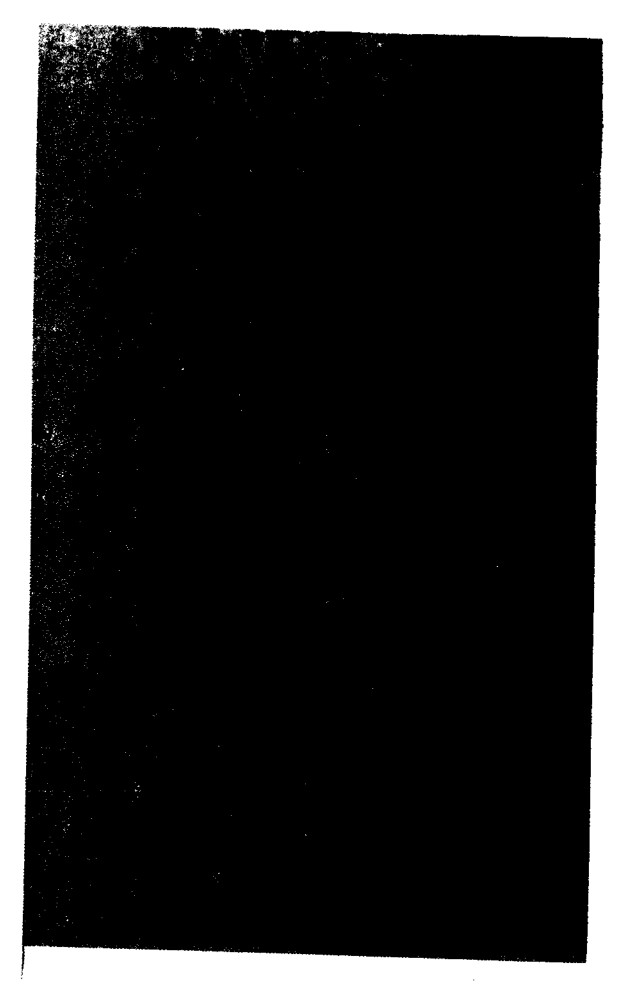
منظر رقم ٦٢

صورة محمد طاهر الكردي مع الحاج عبد الستار الهندي
اخذت لهما في بستان بمكة في ١٣٧٦/٦/٧ هـ

صورة رقم ٤١



صورة رقم ٤٢



صورة رقم ٤٣

صورة رقم ٤٤



... وفوق سطحها حمامه واحده جالسه ، وحمامان طاران فوقها
... هذه الصورة من فوق المقام الحنفى من بعد العصر



وفي هذه الصورة ناقتان على كل منهما راكب من العرب ، ويرى شدادهما مزخرفان ومزينان ، وهاتان الناقتان من الهجان التي تسرع في المشي في السفر ، ولا تربط خطام بعضها وراء بعض لتمشي كالقطار الواحد ، بل ان كل ناقة تمشي وحدها بحريتها مع راكبها في الصحاري والقفار مهما كثرت النياق ، وهذه النياق تسمى عندنا بالركائب والجنائب والذلائل ، وتسمى بمصر والسودان بالهجن بضمتين جمع هجين وركابها يسمونهم «الهجانة»

صورة رقم ٤٥



جمـلان يقودهما احد الاعراب

صورة رقم ٤٦ .



منظر رقم ٧٢

بعض الجمال الباركة باحد شوارع مكة فوق المعلا وبجوارها السيارات

صورة رقم ٤٧



منظر رقم ٧٤

بعض الجمال وفوقها اكياس الحبوب والارز والسكر بالمدينــة المنورة

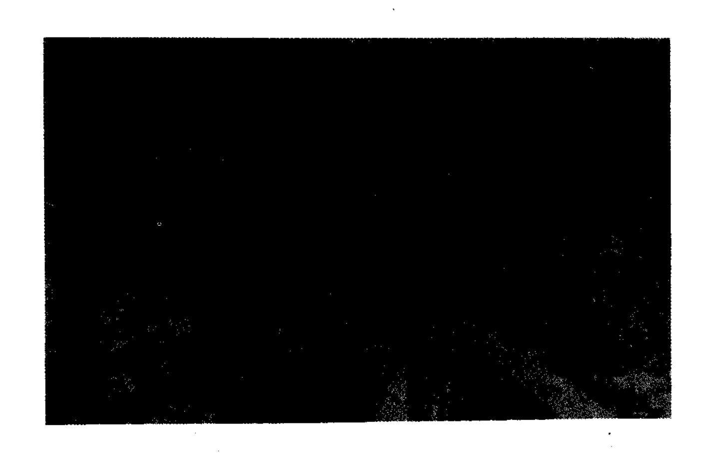
صورة رقم ٤٨



منظر رقم ٧٥

قافلة من الجمال تمشي في احـد شوارع منى

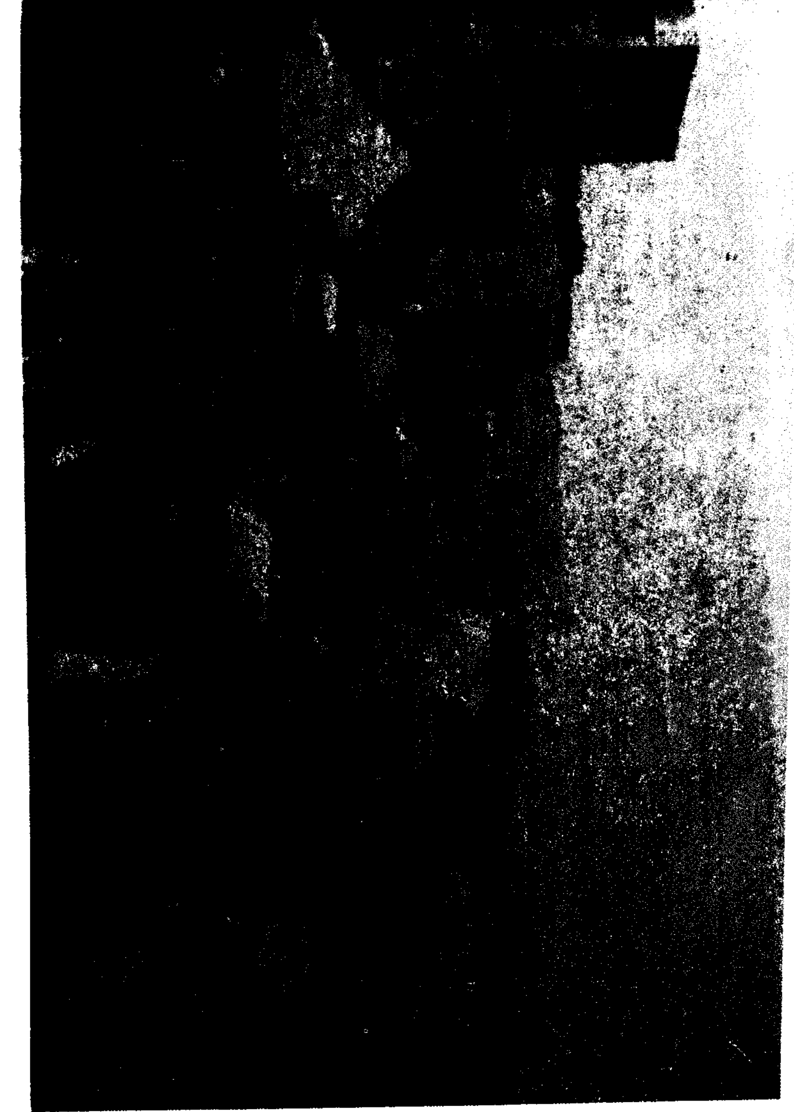
صورة رقم ٤٩



منظر رقم ٧٦

صورة جزء من قافلة الحجاج وهم على الشفادف فوق الجمال في احد شوارع جدة قاصدين مكه المشرفة ، وذلك قبل سنة (١٣٤٥)

صورة رقم ٥٠



منظر رقم ٧٧
تظهر في الصورة الجمال وهي محملة بالشقادف يجلس فيها الحجاج

صورة رقم ٥١



منظر رقم ٧٨

رتل من السيارات ناقلات الحجاج

صورة رقم ٥٢

الفن الصخري القديم في المملكة السعودية

منظر رقم ١٠٢

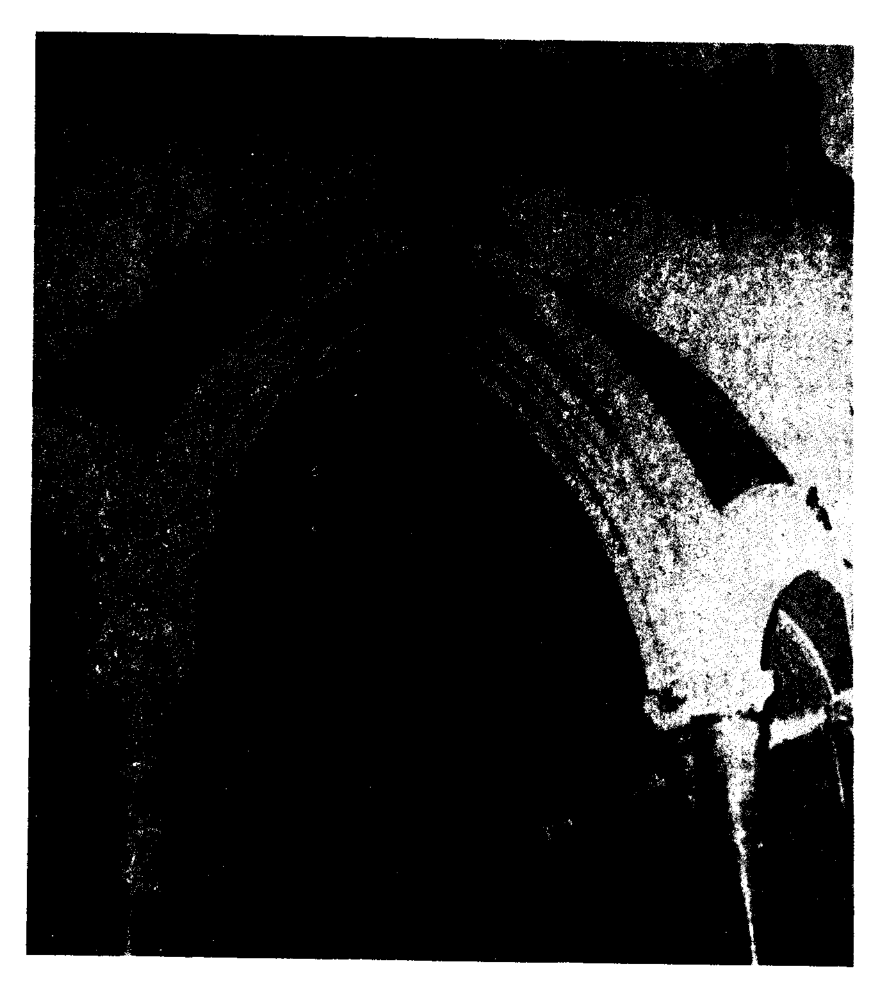
صورة رقم ٥٣



منظر رقم ٨٠

هذه صورة الشيخ علي هليكة من مشاهير المعلمين في البنايات القديمة بمكة المكرمة ، وهو من المعمرين الذين قاربوا المائة ، وهو شديد البنية قوي الذاكرة ـ يحفظ كثيرا من الحكايات والامور التي مرت عليه في مختلف عهود الحكام بمكة المكرمة من عهد الاتراك الى اليوم ، وهو من مشاهير محلة السليمانية بمكة واحد شجعانها الكرماء ، أخذت له هذه الصورة بمكة في سنة (١٣٨٥) هجرية ـ ختم الله تعالى لنا وله بالايمان الكامل والعمل الصالح آمين .

صورة رقم ٥٤



منظر رقم ٨١

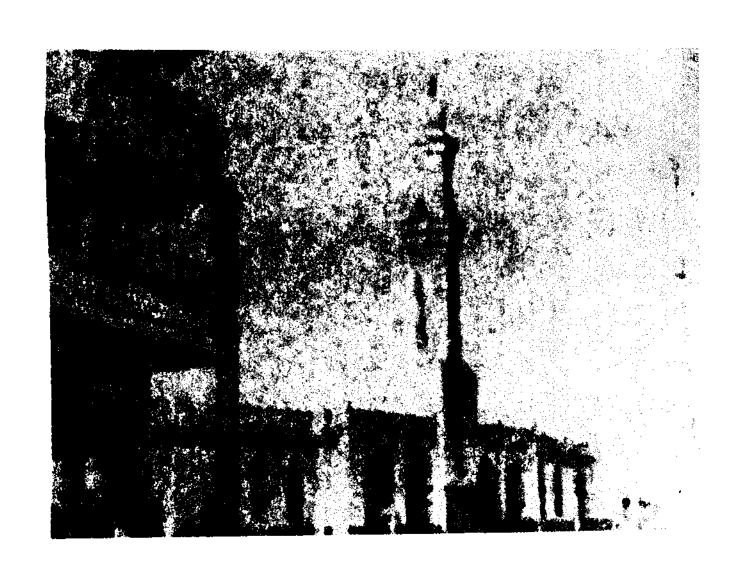
هذه صورة عقد لديوان فنى جميل في احد بيوت الاثرياء بمحلة السليمانية بمكة المكرمة ويرى فيه الاعمدة الجميلة المزخرفة القوية البناء ، وكل ذلك من بناء مشاهير المعلمين من اهل مكة المشرفة ، وكله مبني بحجارات مكه وملبس بالنوره البلديه تلبيسا فنيا قويا في سنة (١٣٠٠) هجريه ، ولعظم قوه البناء نعتقد ان هذه الدار ستمكث مائتى سنه اخرى ان شاء الله تعالى ـ هكذا كانت بنايات اهل مكة بحجاره جبالها ونورتها وجصها ورخامها ، اما اليوم فلقد حدثت فيها البنايات العصريه المبنيه بالاسمنت المسلح .

صورة رقم ٥٥



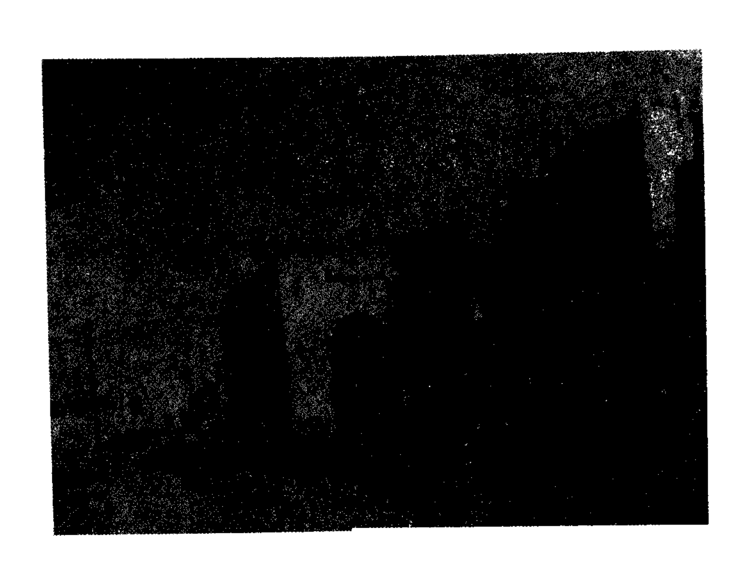
منظر رقم ٨٢
صورة لاحد الشوارع الجديدة الجيلة بالطائف ، ويرى في نهايتــه جــزء من حي قروة وحي السلامة ، والميدان الفسيح هو مصلى العيد

صورة رقم ٥٦



.. ـجد سـيدنا عبدالله بن عباس رضي الله
الطائف ، ماخوذه من احدى الجهات

صورة رقم ٥٧



منظر رقم ٨٤

مسجد سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما بالطائف ، ماخوذة من احدى الجهات

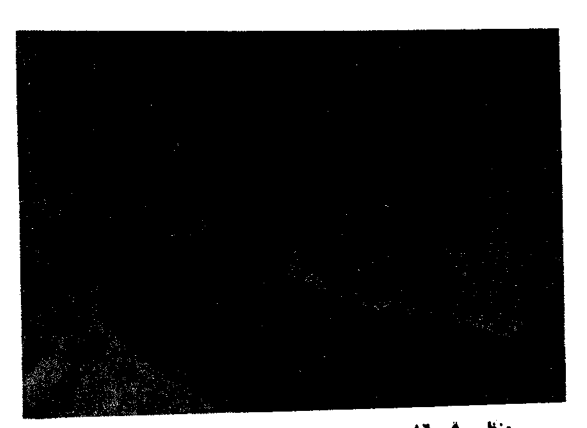
صورة رقم ٥٨



منظر رقم ٨٥

جانب من الطريق المسفلت في نفس جبل كرا
وهو الذي انشىء في هـذا العـام

صورة رقم ٥٩



منظر رقم ٨٦

جانب من الطريـق المسفلت في نفس جبل كرا
وهو الذي تم عمله في هـذا العـام

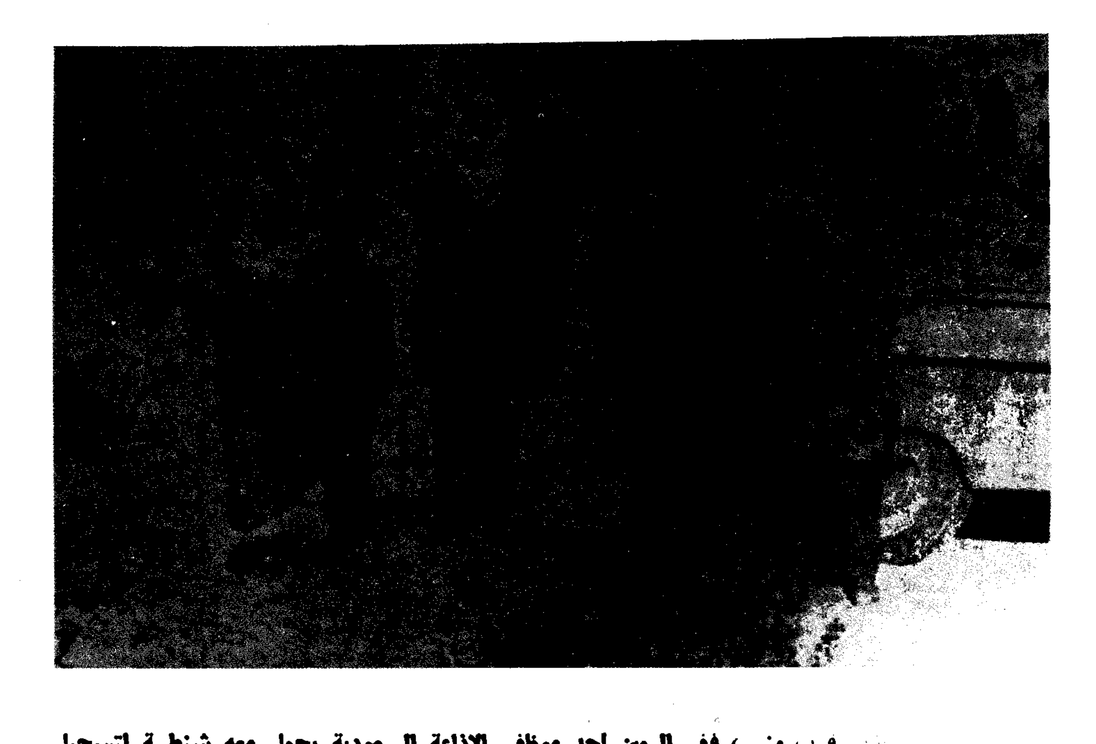
صورة رقم ٦٠



منظر رقم ٨٧

جانب من الطريق المسفلت في نفس جبا

صورة رقم ٦١



... قرب منى ، ففي اليمين احد موظفي الاذاعة السعودية يحمل معه شنطة لتسجيل ... طاهر الكردي الخطاط ، والثالث الشيخ عبدالله بن سعيد مندوب معالي وزير الدولة ... احد أتباع الشيخ عبدالله بن سعيد ، والرابع سائق السيارة ، والخامس ... الاذاعة . اخذت هذه الصورة في ١٩ /١٢٧٥/٦ هجرية .

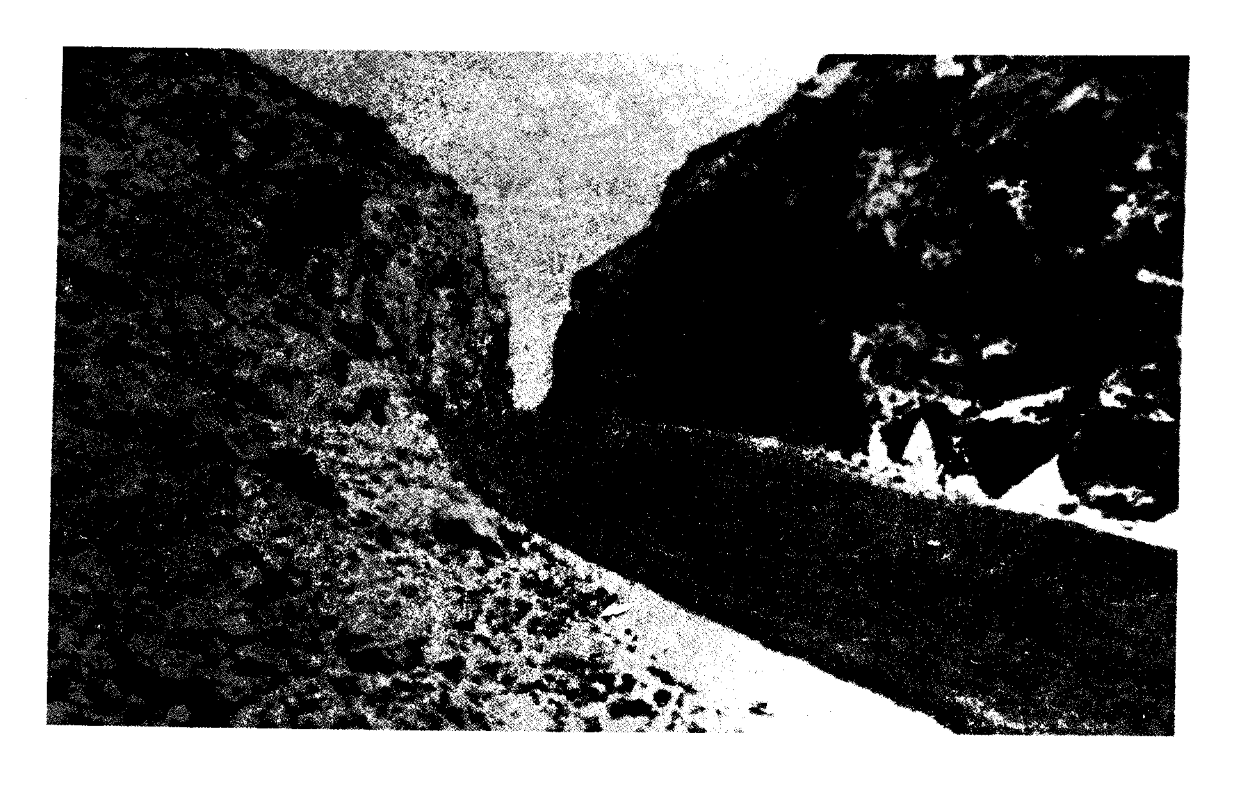
صورة رقم ٦٢



صورة غار ثور بمكه المكرمه ماخوذه من كتاب مرآه الحرمين باللغه العربيه لابراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى

صورة رقم ٦٣

صورة رقم ٦٤

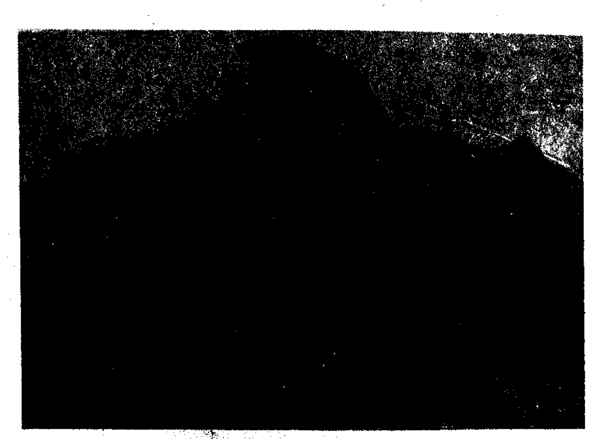


صورة للطريق المسفلت بين الجبلين المقابلين لجبل حراء
وهذا الطريق يؤدي للذاهب من مكة الى منى وقد عمل
لمرور السيارات فيه وهو المعروف بجبل ثبير

منظر رقم ٩٢

صورة جبل الرخم بأعلا جبل ثبير بآخر المعابدة بمكة

صورة رقم ٦٥



منظر رقم ٩٢

جبـل حراء وباعـلاه الغـار

صورة رقم ٦٦



منظر رقم ٩٤

صورة جبل حراء ومدخله ويرى المؤلف في ـ

صورة رقم ٦٧



منظر رقم ٩٤:

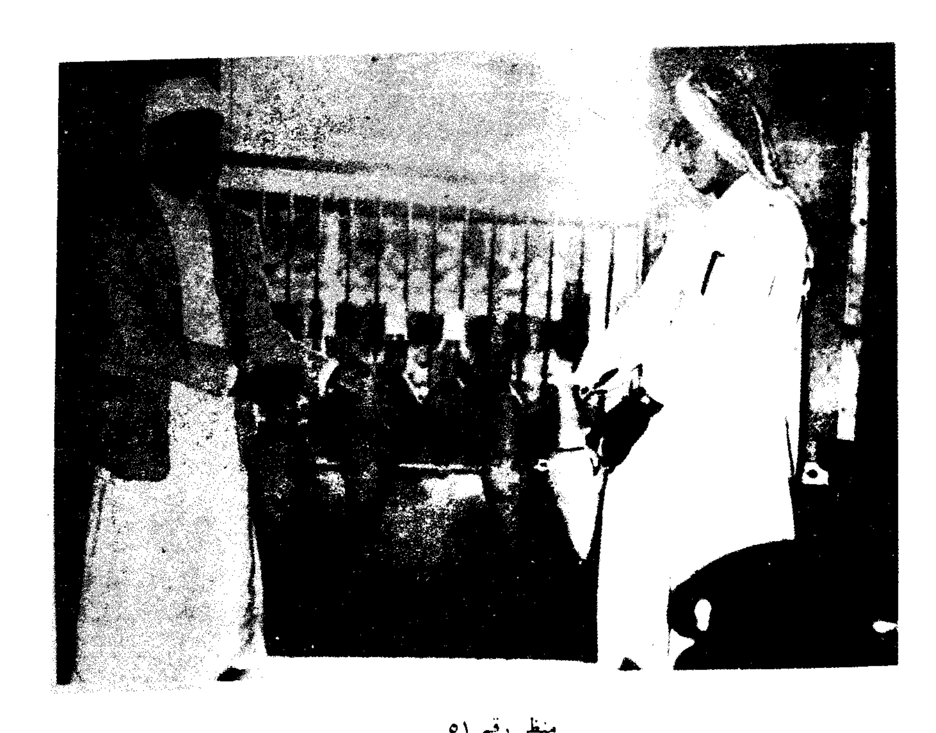
صورة المؤلف محمد طاهر الكردي المكي وهو على باب بئر زمزم قبل هدم بنايتها اخذت له هذه الصورة سنة ١٣٦٨ هجرية

صورة رقم ٦٨

منظر رقم ٥٠

هذه صورة المؤلف فوق مظلة بئر زمزم الجديد قبل هدمها في سنة ١٣٨٣ هـ .

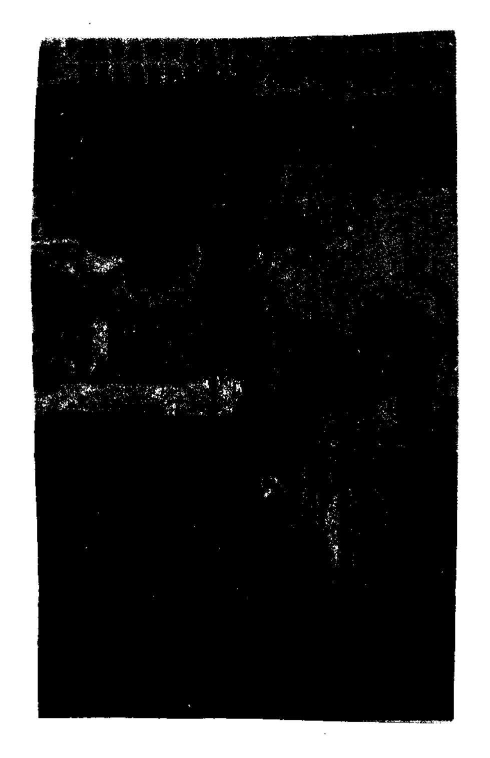
صورة رقم ٦٩



منظر رقم ٥١

هذه صورة دوارق زمزم وهي . كما ترى . من اسفلها مخروطية الشكل يوضع فيها ماء زمزم بسكة لتبريده

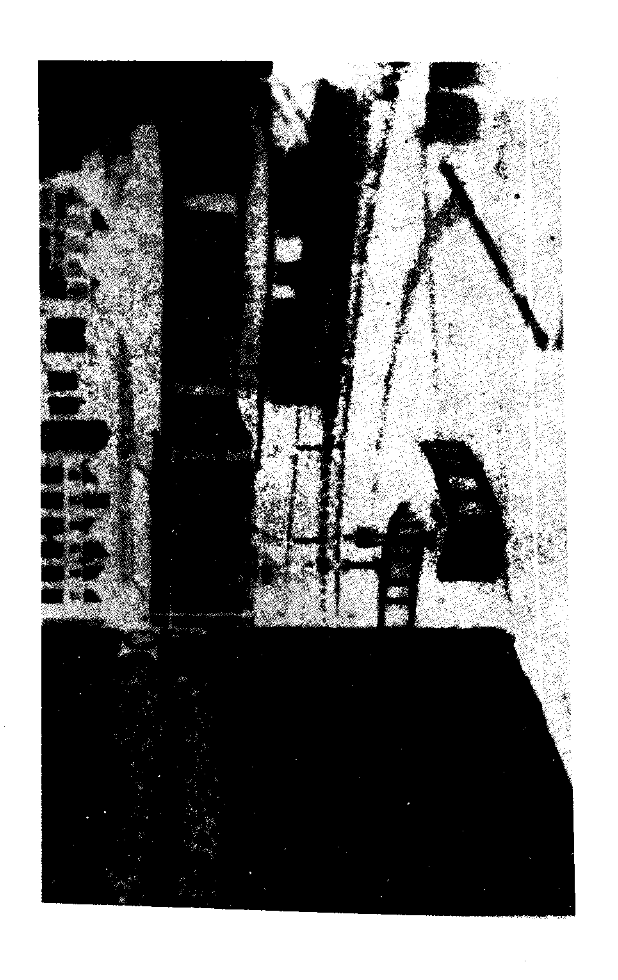
صورة رقم ٧٠



منظر رقم ٥٢

هذه صورة احد اخواننا اليمنيين واسمه محمد سعد اليماني . وتراه يحمل دورقين مملوئين من ماء زم
ـاسه للشرب فيها • والدورق . كما في مختار الصحاح . هو مكيال للشراب فارسي معرب • وهذا الشـ
ر د في الصورة للدورق خاص لوضع ماء زمزم فيه . فلا يستعمل لغيره . كما جرت العادة من قديم الزما
ه مكانة سامية واعتبار عظيم •

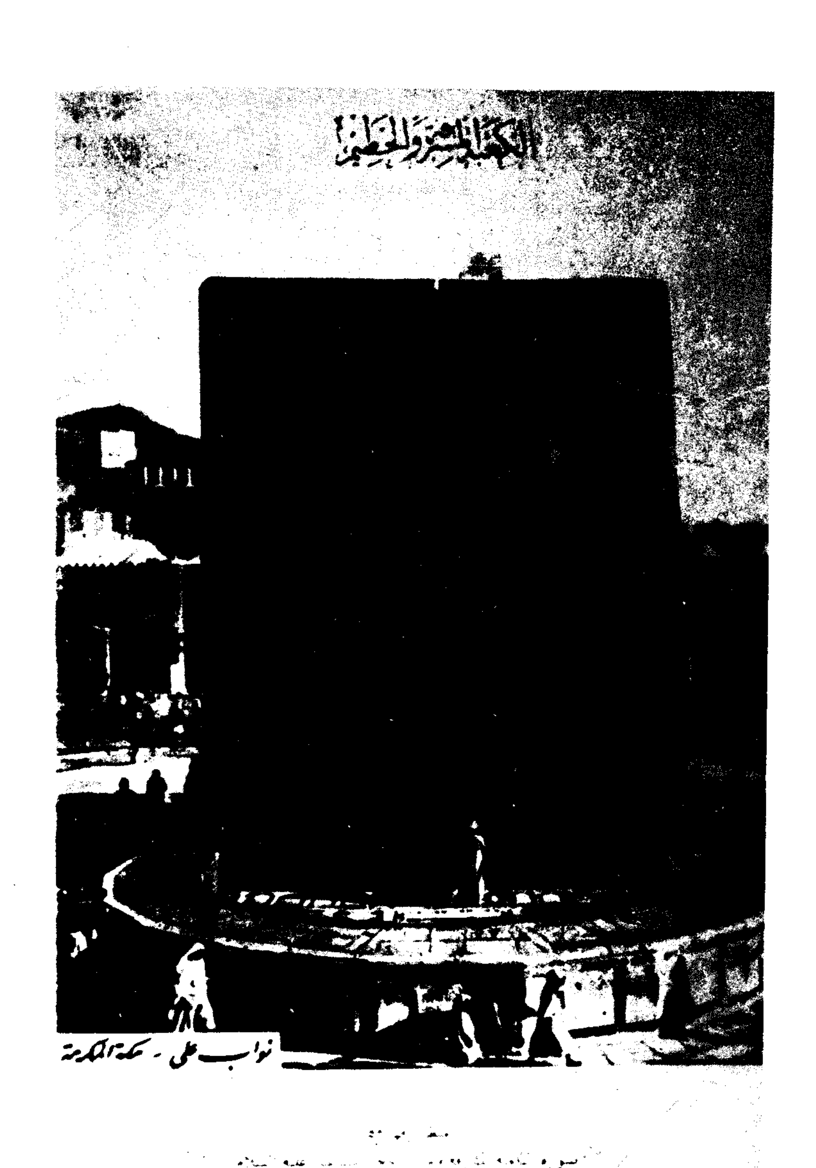
صورة رقم ٧١



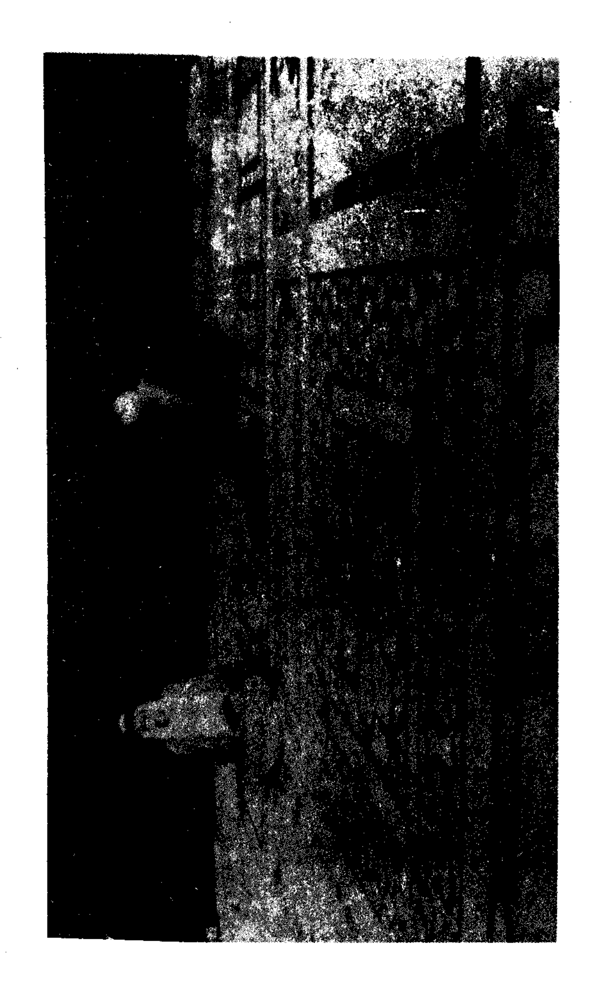
منظر رقم ٥٥

صورة الكعبة ، ويظهر عندها حجر اسماعيل . عليه السلام

صورة رقم ٧٢



صورة رقم ٧٣



منظر رقم ٥٧

صورة حجر اسماعيل من الداخل ، ويظهر فيها المؤلف

وهو يشير بيده على حجر خاص

صورة رقم ٧٤

